

غابريل غارسيا ماركيز

عشت لاروي

www.liilas.com/vb3

^RAYAHEEN^



ترجمة: صالح علماني

إلى ماريا

الحياة ليست ما يعيشه أحدنا ،
ولمّا هي ما يتذكّره ، وكيف يتذكّره ليرويه .

طلبت مني أمي أن أرافقها من أجل بيع البيت. كانت قد وصلت في ذلك الصباح إلى بارانكيًا قادمة من القرية الثانية حيث تعيش الأسرة، دون أن تكون لديها أدنى فكرة عن كيفية العثور عليّ. فراحت تسأل هنا وهناك بين المعارف، فأشاروا عليها بأن تبحث عني في مكتبة "موندو" أو في المقاهي المجاورة. حيث أذهب مرتين في اليوم لتبادل الحديث مع أصدقائي الكتاب. ومن أخبرها بذلك حذرًا قائلاً: "كوني متيقظة، لأنهم مجانيين تمامًا". وصلت في الثانية عشرة تمامًا. شقت طريقها بمشيئها الخفيفة بين مناخذ الكتب المعروضة، ووقفت أمامي، تنظر إلى عيني مباشرة بابتسامة مأكرة من ابتسامات أفضل أيامها، وقالت لي قبل أن أتمكن من الإتيان بأي رد فعل:

- أنا أمك.

ثمة شيء قد تغيرَ فيها متعني من التعرف عليها للوهلة الأولى. كانت في الخامسة والأربعين. وإذا ما أضفنا إلى سنوات عمرها ولاداتها الإحدى عشرة، تكون قد أمضت عشر سنوات تقريباً وهي جلي، ومثلها على الأقل وهي تُرضع أبناءها. كانت قد شابت تمامًا قبل الأوان، وبدت عيناها كبيرتين جداً وذاهلتين وراء نظارتها الأولى ثنائية البؤرة، وهي

تلتزم جداً كاملاً وجدياً على موت أمها، ولكنها ما زالت تحتفظ بالجمال الروماني الذي تبدو عليه في صورة من حفل زفافها، وقد اكتسبت الآن جلال نسمة خريفية، قالت لي قبل أي شيء آخر، وحتى قبل أن تعانقني، بأسلوبها الاحتفالي المعهود:

- جئتُ أطلب منك معروفاً برفاقتي لبيع البيت.

ولم تكن مضطرة لأن تقول أي بيت هو، ولا أين، لأنه لم يكن لنا سوى بيت واحد في هذا العالم: بيت الجددين القديم في أراكاتاكا، الذي حالفتي الحظ بالولادة فيه، ولم أعد للعيش هناك منذ بلوغي السنة الثامنة من عمري. كنتُ آنذاك قد هجرت كلية الحقوق بعد ستة فصول دراسية، أمضيتها، قبل أي شيء آخر، في قراءة كل ما يقع تحت يدي، وفي ترديد أشعار العصر الذهبي الإسباني الفريدة من الذاكرة. كنت قد قرأت، مترجمة وفي طبعات مستعارة، كل الكتب التي تكفيني لتعلم تقنية قص الروايات؛ وكنت قد نشرت ست قصص قصيرة في ملاحق صحفية، استحقت حماس أصدقائي واهتمام بعض النقاد. وكنت سأكمل الثالثة والعشرين من عمري في الشهر التالي؛ وكنت متخلفة عن الخدمة العسكرية، ومُجبراً في حالتي سيلان زهري، وأدخن كل يوم، دون هواجس، ستين سيجارة من صنف تيج رهيب. وأقضي بطاقتي بالتناوب بين بارانكيو وكارتخينا دي إندياس، على ساحل الكاريبي الكولومبي، بالبقاء، جاً على أحسن وجه بما يدفعونه لي مقابل ملاحظاتي الصحفية اليومية في جريدة "الهيرالدو"، وهو أقل من لا شيء تقريباً، وأنا مع أفضل رفقة ممكنة حبشاً يفاجئني الليل. وكما لو أن عدم اليقين بأمر طموحاتي وفوضى حياتي لم يكونا كافيين، فقد كنا نعد العدة، أنا

وجماعة من الأصدقاء المحبين، لإصدار مجلة جريئة، ودون موارد، خطط ألفونسو فوينسايبور لها منذ ثلاث سنوات، ما الذي يمكنني أن أرغب فيه أكثر من ذلك؟

وبسبب القلة، أكثر مما هو بدافع الإعجاب، سبقتُ الموضة بعشرين سنة؛ شارب كثير خشن، وشعر مشعث، بنطال رعاة بقر، وقمصان مزركشة بأزهار غير مناسبة، وصندل حاج. وفي ظلمة إحدى دور السينما، كان أحد أصدقاء ذلك الزمن يقول لأحدهم، دون أن يدري أنني قريب منه: "يا لغابيتو المسكين، إنه حالة ميثوس منها". وهكذا، حين طلبت مني أمي أن أذهب معها لبيع البيت لم أجد أي عائق يمنعني من أن أقول لها نعم. أخبرتني أنها لا تملك ما يكفي من الثروة، فقلتُ لها، بدافع الكرامة، إنني سأتولى دفع نفقاتي.

لم يكن ممكناً حلّ الأمر في الصحيفة التي أعمل فيها، فقد كانوا يدفعون لي ثلاثة بيروا مقابل زاويتي اليومية وأربعة بيروا عن كل افتتاحية أكتبها، حين يتغيب أحد المحررين الشابتين. ولكن ذلك كان يكاد لا يكفيني. حاولت الحصول على سلفة، غير أن المدير ذكرني بأن ديوتي الأصلية تريد على خمسين بيرو. وفي ذلك المساء اقترفت تجاوزاً لا يمكن لأي واحد من أصدقائي أن يُقدم عليه؛ فعند مخرج مقهى كولومبيا، المصالحق للكنيسة، التقيت بدون رامون فينيس، المعلم والمكتبي الكتلاتي العجوز، وطلبت منه عشرة بيروا ديناً. فكان لديه ستة فقط. لم يكن بإمكان أمي ولا بإسكاني طبعاً، أن ننصور، مجرد تصور، أن تلك الرحلة البريئة التي استمرت يومين فقط، ستكون حاسمة إلى ذلك الحد بالنسبة لي، حتى إنه لا يمكن لأطول حياة وأكثرها اجتهداً، أن

تكون كافية لروايتها. والآن، وقد تجاوزت الخامسة والسبعين، أعرف أن ذلك القرار ثمان الأهم بين كل القرارات التي توجب عليّ اتخاذها في حياتي ككاتب. هذا يعني: في حياتي كلها.

حتى سن المراهقة، يكون اهتمام الذاكرة منصّباً على المستقبل، أكثر من الماضي، ولهذا لم يكن الحنين قد حوّل ذكرياتي عن القرية إلى المثالية. كنت أتذكرها مثلما كانت عليه: مكان جيد للعيش، حيث يعرف الجميع بعضهم بعضاً، على ضفة نهر ذي مياه صافية تنساب فوق فرشة من حصى مصقولة، بيضاء وكبيرة مثل بيوض خرافية. وعند الغروب، وخاصة في شهر كانون الأول، بعد أن تنقضي الأمطار ويصير الهواء ألبساً، تبدو سلسلة جبال سبيرا نيفادا في سائتا ماريتا كأنها تدنو بقسمها البيضاء، حتى مزارع الموز على الضفة المقابلة. ومن هناك يظهر الهنود الأروهاكون مهرولين في أرتال ثل على دروب سلسلة الجبال الضيقة، وهم يحملون أكياس الزنجبيل على كواهلهم، ويمضون كرات من أوراق الكوكا، ليحملوا الحياة. وكنا نحن الأطفال نحلم آنذاك بأن نصنع كرات من تلك الثلوج الدائمة، وبأن نلعب لعبة الحرب في الشوارع الملتصقة. لقد كان الحر غير مقبول، ولا سيما خلال القيلولة، إلى حد أن الكبار يشكون منه كما لو أنه مفاجأة جديدة في كل يوم. كنت أسمع منذ مولدي، باستمرار ودون هوادة، أن خط سكة الحديد ومعسكرات البونايتد قروت كومياتي بُنيت في الليل، لأنه من المستحيل إمساك المعدات المعدنية المسخنة تحت الشمس.

الطريقة الوحيدة للوصول إلى آراكاتاكا، للقاء من بارانكيا، هي في مركب مخلع ذي محرك، عبر بحر ماني حفرته أذرع العبيد في العهد

الاستعماري، ثم بعد ذلك عبر مستنقع فسيح، مياهه عكرة وكثيرة، حتى بلوغ بلدة ثيتاغوا الغامضة. ومن هناك يركب القطار العادي الذي كان، في أيام عزه، الأفضل في البلاد، وفيه تُقطع المسافة الأخيرة عبر مزارع الموز الشاسعة، مع مرافقه كثيرة عابرة في ضياع معفرة وملتهبة، ومحطات متوحدة. كان هذا هو الطريق الذي انطلقنا فيه أنا وأمي في الساعة السابعة ليلاً من يوم السبت، الثامن عشر من شباط سنة ١٩٥٠ - عشية الكرنفال - تحت وابل طوفاني في غير أوانه، ودون أن يكون معنا سوى اثنين وثلاثين بيزو نقداً تكفيهما بمشقة للعودة إذا لم يُبع البيت في الظروف المتوقعة.

كانت رياح الصايبات الشمالية قوية جداً في تلك الليلة، فتكلفتُ جهداً كبيراً في المرسى النهرى لإقناع أمي بالصعود إلى المركب. وقد كانت على حق. فتلك المراكب هي تقليد مُصغّر لسفن نيسو أورليانز البخارية، ولكن بمحركات تعمل بالبنزين، تبعث رجفة حتى خبيشة في كل من هو على متنها. وكانت في المركب قاعة صغيرة فيها حلقات من الحبال على مستويات متعددة، لتعليق أراجيح النوم، ومقاعد خشبية يمكن لكل واحد أن يرتاح عليها، مزاحماً بالمتكاتب، كيفما يستطيع مع أمتعته المفرطة، وحزم البضائع، وأقفاص الدجاج، وحتى المختازير الحية. وكان هناك عدد طويل من القنمرات الخائفة، في كل واحدة منها سربان عسكريان، وتشغل تلك القنمرات، على الدوام تقريباً، عاهرات بانسات يرثنى لهن، يقدمن خدمات مستعجلة خلال الرحلة. وبما أننا لم نجد في نهاية الأمر أي قمرة فارغة، ولم نكن نحمل كذلك أراجيح نوم، فقد هجمنا، أنا وأمي، على كرسيين معدنيين في الممر الأوسط، وتهبأنا لقضاء الليل هناك.

ومعلما حدثت أمي، فقد ضربت العاصفة المركب المشهور بينما نحن نعبّر نهر مجدلينا، الذي يتحول إلى مزاج محيطي عند مصبه. كنت قد اشتريت في المرقأ مؤونة جيدة من أرخص أصناف السجائر، مصنوعة من تبغ أسود، وبورق يتقصه القليل ليصبح أسمر. وبدأت أدخن على طريقي آنذاك، بإشعال سيجارة من عقب أخرى، بينما أتا أعيد قراءة رواية ويليم غونكر "تور في آب". وكان فوكنر آنذاك أوفى شياطيني الأوصياء. تثبتت أمي بمسبحتها، وكأنها تنسك بملفاف رافعة روحية يمكنها أن تسحب جواراً أو أن تحمل طائرة في الجو. وكما هي عادتها، لم تطلب شيئاً لنفسها، وإنما الازدهار والحياة المديدة لأيتامها الأحد عشر. ولا بد أن صلاتها قد وصلت إلى حيث يجب أن تصل. لأن المطر تحول إلى الوداعة، عندما دخلنا القنال. وتحرك الهواء، بخفة تكفي فقط لإبعاد اليعوض. خبأت أمي عندئذ المسبحة وراحت تراقب، مطولاً وبصمت، جلبة الحياة التي تدور في ما حولنا.

كانت قد ولدت في بيت متواضع، ولكنها ترعرعت في الازدهار العابر الذي وفرته شركة الموز. وقد بقي لها من كل ذلك، على الأقل، التربية الجيدة التي تلقته كطفلة غنية في مدرسة تقدمية العلواء المقدسة، في سانتا مارتا. وكانت، خلال عطلات عيد الميلاد، تطرز على الطاوة مع صديقاتها، وتعزف على الكلافيكوردو في الأسواق الخيرية، وتحضر مع عمة مرافقة، أحد حفلات الرقص انتقائية من تلك التي تقيمها الأرستقراطية المحلية الوردية. ولكن أحداً لم يكن يعرف لها أي خطيب عندما تزوجت، رغم إوادة أبويها، من عامل التلغراف في القرية. وكانت أبرز مزاياها منذ ذلك الحين هي حس السخريه والصحة الحديدية

التي لم تستطع مكابد الرزايا والشدائد أن تهزمها خلال حياتها المديدة. أما أكثر مزاياها مفاجأة، وأقلها منذ ذلك الحين إثارة للشبهة أيضاً، فهي موهبة وقتها التي أتاحت لها إخفاء قوة طبعها الرهيب: إنها برج أسد مكتمل. وقد وفر لها ذلك فرض سلطة أمومية تصل سيطرتها إلى أبعد الأقارب المقيمين في أماكن لا تخطر على بال، مثل نظام كوكبي تتحكم به من مطبخها، بصوت خافت، ودون أن يرف لها جفن تقريباً، بينما هي تسلق قدر فاصوليا.

لدى رؤيتها تتحمل تلك الرحلة القاسية، دون أن يطرأ عليها أي تبدل، تسألت كيف استطاعت الإذعان لمطالب الفقر بكل تلك السرعة، وكل ذلك التحكم بالنفس. ولم يكن هناك مثل تلك الليلة للتأكد من ذلك. فاليعوض الضاري، والحرا الكثيف الممطر، بسبب وحل الفتوات الذي كان المركب يحركه في مروه، وجلبة المسافرين الموقرين الذين لا يجدون راحة ضمن جلودهم. كان كل شيء يبدو وكأنه معداً عمداً لزعزعة أشد الطباع فولذة. كانت أمي تتحمل كل ذلك، وهي ثابتة في كرسيها، بينما قتيات الاستشجار يجنين حصاد كرفال في القمرات القريبة، مستكرات كرجال أو "مانولات"^(١). كانت إحداهن قد دخلت وخرجت من قمرتها عدة مرات، وفي كل مرة مع زبون حشلق، بجوار مقعد أمي بالضبط. وقد فتننت أنها لم تلاحظ ذلك، ولكنها بعد المرة الرابعة أو الخامسة لدخول الفتاة وخروجها، لاحظتها بنظرة برّثاء حتى نهاية الممر، وتنهتدت قائلة:

(١) مانولا manola - صيغة تفاعلية باسم مانويلا الشائع. وفي تسمية كانت تُطلق في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، على نساء بعض الأحياء الشعبية اللواتي يرتدين ملابس تتميز بالأثافي. وتحول استخدام الكلمة فيما بعد لتصبح تسمية مهذبة، مع لسة سخريه، للمهاجرات.

- يا للفتيات الباحثات! ما عليهن عمله لكي يعشن أسوأ من الشغل.
 بقيت أُمي على تلك الحال حتى منتصف الليل، عندما تعبت من
 القراءة مع الاهتزاز الذي لا يطاق وشع أنوار المسر. فجلست أَدخِن
 بجانيها، محاولاً الخروج من روضة ومال كوتسية يونكاباتافا^(١). كنتُ قد
 هجرت الجامعة في السنة السابقة، معللاً النفس بالوهم الجريء في
 العيش من الصحافة والأدب دون حاجة إلى تعلمهما، متحمساً لعبارة
 أظن أنني قرأتها لبرتارد شو: "منذ طفولتي المبكرة اضطررت إلى قطع
 تعلمي لكي أذهب إلى المدرسة"، ولم أجرو على مناقشة الأمر مع أحد،
 لأتني كنت أشعر، دون أن أتكن من تفسير ذلك، بأن مسوغاتي لن
 تكون ناقعة إلا لي أنا بالذات.

محاولة إقناع أبوي يمثل ذلك التصرف الجنوني، بعد أن عقدا عليَّ
 أملاً كبيرة وأنفقا نفوداً كثيرة لم يكونا يملكانها، هو إضاعة للوقت، ولا
 سيما أبي الذي يمكن له أن يغفر لي أي شيء، باستثناء عدم تعليق
 شهادة جامعية، لم يستطع هو الحصول عليها، على الجدار. انقطع
 الاتصال بيننا، وبعد مرور سنة تقريباً، كنت ما أزال أفكر في زيارته
 لأقدم له ميراثي، عندما ظهرت أُمي لطلب مني مراقبتها لبيع البيت.
 ومع ذلك، لم تأت هي على أي ذكر للسألة إلى ما بعد منتصف الليل،
 في المركب، عندما أحست، كوحى خارق، بأنها وجدت أخيراً الفرصة
 المناسبة لتقول لي ما كان، دون ريب، السبب الحقيقي لرحلتها. وبدأت
 بالطريقة والنبرة والكلمات الموزونة بدقة، والتي لا يد أنها قد أنضجتها
 في وحدة أرقها، قبل وقت طويل من بدئها الرحلة.

(١) المكان الذي تدو فيه أحداث رواية "نور في آية".

- أبوك حزين جداً - قالت.

ها هو ذا! إذا الجحيم المرهوب، بدأت كمعادتها، في وقت لا يخطر
 على بال، ويصوت هادئ لا يمكن لأي شيء أن يبدله، لمجرد أن تستكمل
 الطفوس، لأنها كانت تعرف جوابي جيداً، فسألته:

- ولماذا هو حزين؟

- لأتني تركت الدراسة.

- لم أتركها - قلت لها - وإنما غيّرت الدراسة فقط.

- أبوك يقول إنه الشيء نفسه.

فقلت لها، وأنا أعرف أن ما أقوله زائف:

- وهو نفسه ترك الدراسة أيضاً ليعزف الكمان.

- الأمر ليس عابثاً - ردت بحدة كبيرة - لقد كان يعزف الكمان

في الحفلات والسيرنادات فقط. وإذا كان قد ترك دراسته، فلأنه لم يكن
 يملك ما يأكله. ولكنه في أقل من شهر، تعلم مهنة التلغراف، وهي مهنة
 جيدة آنذاك، ولا سيما في أراكاتاكا.

- وأنا أيضاً أعيش من الكتابة للصحف - قلتُ لها.

- أنت تقول هذا كي لا تعذبني. ولكن سوء حالك يظهر عليك من

بعيد. وإلا كيف لم أنعرف عليك عندما رأيتك في المكتبة.

- وأنا أيضاً لم أتعرف عليك.

- ولكن ليس لسبب نفسه. لقد ظننت أنك متسول صدقات.

ونظرت إلى صندلي، وأضافت: - ودون جورب.

فقلت لها:

- هذا صريح أكثر. قميصان وسروالان داخليان؛ واحد أرغديه وآخر

بجف. ما الذي أحججه أكثر من هذا؟

- قليل من الكراهة - قالت هي. ولكنها لطفت ذلك على الفور
ببتة أخرى: - أقول لك هذا لأننا نحبك كثيراً.

- أعرف ذلك. ولكن أخبريني، لو أنك مكاني، أما كنت ستفعلين
الشيء نفسه؟

- ما كنت لأفعله - قالت - إذا كنت سأخالف أبوي بذلك.
تذكرتُ عنادها الذي فكتت به من كسر معارضة أسرتها للزواج.
فقلت لها ضاحكاً:

- تخرّكي على النظر في عيني.
ولكنها تحاشني بجديّة، لأنها كانت تعرف تماماً ما الذي أفكر
فيه. وقالت:

- لم أتزوج إلا بعد أن حصلتُ على مباركة أبوي. بالقوة، أجل،
ولكنني حصلت عليها.

قطعتُ النقاش. ليس لأن حججي أفتعتها، وإنما لأنها أرادت
الذهاب إلى المرحاض وهي لا تثق بظروفه الصحية. فتحدثتُ إلى معاون
الريان، لأسأله إذا ما كان هناك مكان أكثر نظافة. لكنه أوضح لي أنه
هو نفسه يستخدم المرحاض العمومي. ثم قال. كما لو أنه قد انتهى ترواً
من قراءة "كونراد" "جميعنا متساوون في البحر". وهكذا خضعتُ أمي
إلى قانون الجسيع. وعندما خرجت، وعلى عكس ما كنتُ أخشاه، لم
تستطع منع نفسها من الضحك إلا بصعوبة وهي تقول لي:

- تصور، ما الذي سيظنه أبوك بي إذا ما رجعتُ إليه مصابة بأحد
أمراض الحياة الحبيثة؟

بعد انقضاء منتصف الليل، تعرضنا لتأخير دام ثلاث ساعات، ذلك

أن تشايك الزنيقيات والأعشاب المائية في القتال عطل مرواح الدفع،
فحاد المركب إلى منبت أشجار صانغي وكان على مسافرين كثيرين أن
يسحبوه من الضفاف، بحبال أراجيح النوم. صار الحر والبعوض لا
يطاقان. ولكن أمي تخلصت منهما، بوميض إغقات آنية ومتقطعة.
وهي حالة مشهورة في الأسرة، أناحت لها الاستراحة دون أن تفقد خط
المحادثة. وعندما استؤنفت الرحلة وهبت التسمية الباردة، استعادت
صحتها كاملاً. وتنهدت:

- لا بد لي، على كل حال، من أن أحمل جواباً إلى أبيك.
فقلتُ لها بالبراءة نفسها:

- من الأفضل ألا تقلقي. في شهر كانون الأول سأذهب بنفسي،
وعندها سأوضح له كل شيء.

- ما زالت هناك عشرة شهور.
- لا يمكن في نهاية المطاف إصلاح أي شيء بشأن الجامعة هذه

السنة - قلتُ لها.
- هل تعني حقاً أنك ستذهب؟

- أعذك - قلتُ لها، ولحنتُ لأول مرة، شيئاً من الجزع في صوتها:
- هل يمكنني أن أقول لأبيك إنك ستقول له نعم؟

فأجبتها بحزم:
- لا. هذا لا.

هذا جليلاً أنها تبحث عن مخرج آخر. ولكنني لم أمنحها إياد.
- من الأفضل إذاً أن أقول له الحقيقة كلها منذ الآن. وهكذا لن

يبدو أن هناك خدعة.

فقلت لها براحة:

- حسناً، أخبره.

اتفقنا على ذلك. ويمكن لمن لا يعرفها أن يفكر في أن كل شيء قد انتهى عند ذلك الحد. ولكنني كنت أعرف أنها مجرد هدنة لاستعادة الأنفاس. بعد قليل نامت بعمق. هبت نسمة خفيفة أبعثت البعوض وأفعمت الهواء. الحديد برائحة أزهار. وعندئذ اكتسب المركب وشاعة سفينة شراعية.

كنا في ثينانغا غراندي^(١) (المستنقع الكبير)، وهو أسطورة أخرى من أساطير طفولتي. فقد أبحرت فيه عدة مرات، عندما كان جدي الكولونيل نيكولاس ريكاردو ماوكيز ميخيا - الذي كنا، نحن أحفاده، نسميه باباليلو - يأخذني من أراكاتاكنا إلى بارانكييا لزيارة أبيي. "يجب عدم الخوف من الثينانغا (المستنقع)"، وإلغا احترامه، كان قد قال لي، متحدثاً عن نزوات مباحه غير المتوقعة، فهي قد تتصرف مثل مستنقع راكد أو مثل محيط هائج. في فصل الأمطار يكون تحت رحمة عواصف سلسلة الجبال. ومنذ كانوا الأول حتى تيسان، عندما يفترض أن يكون الطقس هادئاً، تفسده الروائح الكريهة وريح الشمال بهبات قوية، تجعل كل ليلة فيه مغامرة. لم تكن جدتي لأمي، ترانكيلينا إغواران - مينا - تتجراً على اجتيازه، إلا في الحالات المستعجلة والطائرة الكبرى. بعد ما حدث، إثر رحلة سرعية اضطروا خلالها إلى البحث عن ملجأ حتى الفجر في معصب نهر ريوفريو.

(١) Cienaga Grande نوع من البحيرات أو المستنقعات الشاطئية، تتشكل في المنطقة المعروفة باسم ثينانغاس، تفضلها عن البحر كيان رملية ضيقة.

لحسن الحظ أن المستنقع كان هادئاً في تلك الليلة. فمن نوافذ مقدمة المركب، حيث خرجت للتنفس، قبل الفجر بقليل، كنت أرى أنوار مراكب الصيد التي لا يحصى عددها، تطفو مثل نجوم على سطح الماء. وكان الصيادون غير المرتين يتبادلون الحديث كما في الزيارات، إذ كان للأصوات وقع خاص في جو الثينانغا. وبينما أنا متكئ على الحاجز، أحاول أن أتبع شبح سلسلة الجبال، قاجأتني، على حين غرة، ضربة مخالب الحنين الأولى.

في فجر يوم آخر مثل هذا، بينما كنت أجتاز ثينانغا غراندي، تركني باباليلو نائماً في القمرة، وذهب إلى حانة المركب. لست أدري كم كانت الساعة، عندما أبقتني جلبة أناس كثير من خلال أزيز المروحة الصبغة واحتزاز صفائح القمر. لم أكن، على ما أظن، قد تجاوزت الخامسة من عصري. وأحسست برعب شديد، ولكن الهدوء ما لبث أن ساد من جديد. وفكرت في أنه قد يكون حلماً. وفي الصباح، وكنا قد وصلنا مرسى ثينانغا، كان جدي يحلق ذقنه بموسى حلاقة، والباب مفتوح والمرأة معلقة في إظاره، الذكري دقيقة: لم يكن قد ارتدى قميصه بعد، ولكنه كان يضع فوق قميصه الداخلي حمائتي بنطاله المطاطيتين الأبديتين، العريضتين المشابطين بخطوط خضراء. وبينما هو يحلق، كان يواصل الحديث مع رجل، ما زال بإمكانني، حتى اليوم، التعرف عليه من النظرة الأولى. كان له بروقيل غراب، لا يمكن الخطأ فيه، ووشم بحار على اليد اليسرى، ويعلق حول عنقه عدة سلاسل ذهبية ثقيلة، وأساور وسلاسل أخرى، من الذهب أيضاً، في معصيه كليهما. كنت قد انتهيت من ارتداء ملابس، وجلست على السرير لأتأمل حلاني، عندما قال الرجل لجدي:

- لا تشك في ذلك أيها الكولونيل، ما كانوا يريدون فعله بك، هو
إلقائك إلى الماء.

فابتسم جدي دون أن يتوقف عن الحلاقة، ورد بترفع هو من خصاله
الخاصة جداً:

- لحسن حظهم أنهم لم يتجرؤوا.

عندئذ فهمت قضيتي الليلة السابقة، وأحسست بالتأثر لفكرة أن
هناك من كان يمكن له أن يلقي بجدي إلى البحيرة.

ذكرى هذه الحادثة التي لم تتضح أبداً، فاجأتني في ذلك الصباح
الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت، بينما أنا أتأمل تلوج سلسلة الجبال
التي تبدو، في الفجر، وراقاً مع أول خيوط الشمس. التأخير في
القتات، أتاح لنا أن نرى في وضع النهار، حاجز الرمال المشعة التي
تفصل البحر عن البحيرة، حيث توجد قرى صيادين، الشياك فيها معلقة
لتجف على الشاطئ، والأطفال المتسخون والعناملون يلعبون كرة القدم،
بكرة من الخرق. كان من المؤثر رؤية صيادين كثيرين في الشوارع،
مبتسوري الأذرع، لأنهم لم يلقوا قطع الديناميت في الوقت المناسب.
ولدى مرور المركب، راح الأطفال يغوصون في الماء، بحثاً عن القطع
النقدية التي يلقي بها المسافرون.

كانت الساعة تؤشك على بلوغ الساعة، عندما بدأنا الرسو في
مستنقع متق على مقربة من بلدة ليناغا، تلقفتنا جماعات من المحالين
الفانصين في الوحل حتى ركبهم، وحملونا حتى رصيف المرسى، وسط
زحام تسور رخمة تتنازع قذارات المستنق الوحل. كنا نجلس إلى إحدى
موائد المرقا، نتناول بتسهل، فطوراً من أسماك البحيرة اللذيذة وشرايح

سوز أخضر مقلية، عندما جددت أمي هجوم حربيها الشخصية. فقالت
دون أن ترفع بصرها:

- قل إذن مرة واحدة، ما الذي سأقوله لأبيك؟

حاولت كسب وقت للتفكير.

- حول أي شيء؟

فقالت بشيء من النزع:

- حول الشيء الوحيد الذي بهمه، دراستك.

وقد حالقني الحظ بوجود زبون قسولي، مشدود إلى حدة الحوار،
أراد أن يعرف مبرراتي. وجواب أمي الفوري لم يخفني قليلاً فقط، وإنما
فاجأني إقداها عليه، وهي الغيرة جداً على حياتها الخاصة، قالت:

- المسألة أنه يريد أن يصير كاتباً.

فرد الرجل بجديّة:

- يمكن للكاتب الجيد أن يكسب مالاً وفيراً، ولا سيما إذا كان
يعمل مع الحكومة.

ولا أدري إذا ما كانت أمي قد تحاشت الموضوع بدافع الحذر
والتحفظ، أم خوفاً من حجج محاورها الطارئ، ولكنهما انتهيا إلى
التأسي لحالة التردد التي يعيشها أبناء جيلي، وتبادل الحنين إلى
الماضي. وأخيراً، جرحا أسماء معارف مشتركين، وانتهى بهما الأمر إلى
اكتشاف أننا أقرباء من ناهيشين، من تاحية آل كوتيس، وناحية آل
إغواران. وكان ذلك يحدث لنا في تلك الحقبة، مع كل شخصين من كل
ثلاثة أشخاص نلتقي بهم في منطقة ساحل الكاريبي. وكانت أمي
تحتفل بذلك في كل مرة، كحدث فريد.

ذهبنا إلى محطة القطار، في عربة من طراز فيكتوريا، بجوها حصان واحد، ربما هو الأخير من سلالة منقرضة في بقية العالم. كانت أمي تمضي ساهمة، تنظر إلى السحب القاحل والمتكلس بملح البارود الذي يبدأ من موحلة المرفأ ويضيع في المدى. لقد كان المكان تاريخياً بالنسبة إليّ، ففي الثالثة أو الرابعة من عمري، في أثنا رحلتي الأولى إلى بارانكيّا، أخذني الجد من يدي، عبر ذلك القفر الملتهب، سائراً بسرعة ودون أن يقول لي لماذا. وفجأة وجدنا نفسنا قبالة امتداد شاسع من الماء الأخضر فيه تمجّسات زبد، ويطفو فيه عالم كامل من الدجاج الغارق. وقال لي:

- هذا هو البحر.

فسألته، وقد خاب أملي، عما يوجد في الضفة الأخرى، فأجابني دون أن يتردد في الأمر:

- في الجانب الآخر، لا توجد ضفة.

اليوم، بعد رؤيتي لبحار كثيرة من الوجه والقفا، ما زلت أفكر بأن ذلك الجواب هو إحدى إجاباته العظيمة. وعلى أي حال، لم يكن أي من تخيلاتي المسبقة، يتفق مع ذلك البحر الوسخ الذي يستحيل المشي على شاطئه الليثرائي، ما بين أعصان أشجار المانغلي المتعفنة وشظايا فئات الأصداف؛ لقد كان رهيباً.

لا بد أن أمي كانت تحفل الفكرة نفسها عن بحر ثيتاغرا، لأنها، ما إن رأتها يظهر إلى يسار العربة، حتى تنهدت:

- ليس هناك بحر مثل بحر ريوهانشا!

رويتُ لها، في تلك المناسبة، ذكراي عن الدجاجات الغارقة، قيداً

لها ذلك، مثل جميع الكبار، أنه من تهيوّات الطفولة. ثم واصلتُ بعد ذلك تأمل كل مكان تصادفه في طريقنا، وكنتُ أعرف، من تبدلات صحتها، ما الذي تفكر فيه. وهي ترى كل مكان. سررنا قبالة "حي التسامح" على الجهة الأخرى من خط القطار، ببيوته الصغيرة الملونة ذات السقوف الصدئة، وبغياواته الهرمة من باراماريبو التي تدعو الزبائن بالبرتغالية، من الحلقات المعلقة بأقاريز الأسطح. سررنا بمنهل القاطرات، ذي القبة الحديدية الهائلة التي تأوي إلى النوم فيها الطيور المهاجرة والنوارس السائبة. سررنا بمحاذاة المدينة، دون أن ندخل إليها، ولكننا رأينا الشوارع القسيحة والكثيية، وبيوت الأزهار الغابر، المزلقة من طابق واحد وذات النوافذ الكبيرة، حيث كانت القساكين على البيانو، تنوالي دون توقف منذ الفجر، وفجأة أشارت أمي بإصبعها، وقالت لي:

- انظر. هناك انتهى العالم.

تابعث الاتقياء الذي أشارت إليه، ورأيت المحطة: بناء من أخشاب متخالكة، يسقف من التوتياء الموج، وشرفات ناتئة، وأمامها ساحة صغيرة صقيرة لا يمكن لها أن تتسع لأكثر من مئتي شخص. لقد قتل الجيش هناك في سنة ١٩٢٨، كما أكدت لي أمي في ذلك اليوم، عدداً لم يتم تحديده قط من عسّال مزارع الموز المياومين. وكنتُ أعرف ذلك الحدث، كما لو أنني قد عشتّه، بعد أن سمعت جدي يحكيه ويكرره ألف مرة، منذ أن صار لي ذاكرة: الضابط يقرأ القرار الذي اعتُبر فيه العمال المضربون عصبة من الأشجار؛ والثلاثة آلاف رجل وامرأة وطفل ظلوا ثابتين في أماكنهم، تحت الشمس الرهيبة، بعد أن منحهم الضابط مهلة خمس دقائق لإخلاء الساحة؛ أمر إطلاق النار. أزيز زخات الرصاص

المتأججة، أصيب الحشد المحاصر بالهلع، بينما هم يقلصونه شبراً فشيئاً
يقتصر الرشاشات المنهجية والنهم.

يصل القطار، عادة إلى ثيناجا في التاسعة صباحاً، فيحمل ركاب
الركب ومن ينزلون من سلسلة الجبال، ويواصل طريقه، متوغلاً داخل
منطقة مزارع الموز. بعد ربع ساعة من ذلك، وصلنا أنا وأمي إلى
المحطة، بعد الساعة الثامنة، لكن القطار تأخر. ومع ذلك، فقد كنا
الراكبين الوحيدين. وقد انتهت هي إلى ذلك، منذ دخلنا العربة الخاوية،
فهبقت بزجاج احتفالي:

- يا للترف! القطار بكامله لنا وحدنا!

لقد فكرت على الدوام في أنه كان ابتهاجاً متكلفاً تواري به خيبة
أملها. ففروض الزمن كانت بادية للعيان بكل وضوح في حالة العربات.
إنها عربات العربة الثانية القديمة، ولكن دون مقاعد الخيزران، ودون
الزجاج الذي يمكن رفعه وإنزاله في النوافذ، وإنما بمقاعد خشبية دبغتها
مؤخرات الفقراء المساء والداقة. وقد بدأ القطار بكامله، وليس تلك
العربة وحدها، شبحاً لنفسه بالمقارنة مع ما كان عليه في الماضي. لقد
كانت فيه من قبل ثلاث درجات. الدرجة الثالثة التي يسافر فيها أفقر
الناس، وعرباتها هي الأقفاص نفسها، المصنوعة من ألواح خشبية، لنقل
الموز أو مواشي الذبح، وقد كُتبت للمسافرين بمقاعد طولانية من الخشب
الحام. والدرجة الثانية، فيها مقاعد من الخيزران وإطارات برونزية. أما
الدرجة الأولى التي يسافر فيها أناس الحكومة وكبار موظفي شركة
الموز، فهناك مسجاد في مرصها ومقاعد فاخرة مغلقة بقطيفة حمراء. يمكن
تحويل أماكنها. وعندما يسافر مراقب الشركة الأعلى أو أسرته، أو

ضيوفه البارزون، تُشبهك في آخر القطار، عربة فاخرة ذات نوافذ من
البور السمي وأفاريز مذهبة، وشرفة مكشوفة فيها مناضد صغيرة من
أجل تناول الشاي، أثناء السفر. ولم أتعرف على كائن فإن رأى عربة
الأحلام تلك من الداخل. لقد كان جدي عمدة مرتين، ولديه فرق ذلك
مفهوم سعيد عن التقود. ولكنه لم يكن يسافر في الدرجة الثانية، إلا
إذا كانت يرفقه إحدى نساء الأسرة. وعندما يسألونه لماذا يسافر في
الدرجة الثالثة، يجيب: "لأنه لا وجود لرابعة". ومع ذلك، فإن أهم ما
يذكر من القطار، في أزمنة أخرى، هو دقة مواعيد. فساعات القرى
كانت تُضبط على صفيره.

في ذلك اليوم، لسبب أو لآخر، انطلق القطار متأخراً ساعة ونصف
الساعة. وعندما بدأ انطلاقه، ببطء شديد وصريح كثيب، رسمت أمي
إشارة الصليب. ولكنها عادت على الفور إلى الواقع، وقالت:

- هذا القطار بحاجة إلى زيت في نوابضه.

كنا المسافرين الوحيدين، ربما في القطار كله، ولم يكن هناك حتى
تلك اللحظة، أي شيء يشير في اهتماماً حقيقياً. غرقت في سبات "نور
في آب"، مدخناً دون توقف، مع نظرات سريعة ألقيتها بين حين وآخر
للتعرف على الأماكن التي نخلقها ورائنا. اجتاز القطار، بصغير طويل،
مستنقعات ثيناجا، ودخل بسرعة قصوى في بحر مترجرج من صخور
مائلة إلى الحصرة، فصارت فرقة العربات لا تطاق. ولكن السرعة خلقت
بعد نحو خمس عشرة دقيقة، ودخل في لهات مكتوم، إلى ظلال برودة
المزارع، وصار الطقس أشد كسافة، وتلاشى الإحساس بنسيم البحر. لم
أكن مضطراً إلى قطع القراءة، لأعرف أننا قد دخلنا مملكة مناطق الموز
الكتيمة والغامضة.

تبدل العالم. فعلى جانبي سكة الحديد. راحت تمتد دروب المزارع المتناسقة وغير المتناهية، حيث كانت تضي عربات تجرها الجواميس، محملة بقطوف الموز الخضراء. وفي فراغات مباحثة خالية من الزرع، تظهر هناك معسكرات من الآجر الأحمر، ومكاتب لنوافذها زوائد ملحقة، فيها مراوح ذات أذرع معلقة في السقوف، ومستشفى متوحد في حقل شقائق نعمان. كل نهر وله قريته وجسره الخديدي، حيث يمر القطار مطلقاً ولولائه، فتقفز الفتيات اللواتي يستحمن في المياه الجليدية، مثل أسماك شابل، لدى مروره، لبشوشن المسافرين بنهودهن العابرة.

في قرية ريفيوية، صعدت عدة أسير من هنود أروهاكو، محملين بحفائب ظهر مترعة بشعار الأغواكاثي الجبلية، وهي الأشهى ملداً في البلاد. ذرعوا العربة حشائش في كلا الاتجاهين، باحثين عن مكان يجلسون فيه. ولكن لم يبق في العربة، عندما استأنف القطار سيره، سوى امرأتين بيضاوين، معهما طفل حديث الولادة، وخوري شاب. لم يتوقف الطفل عن البكاء طوال بقية الرحلة. أما الخوري فكان يتنعل حزمة ويعتمر قبعة كشاف، مثل شراع، وكان يتكلم، في الوقت الذي كان فيه الطفل يبكي. ودائماً، كما لو أنه على منبر الكنيسة، وموضوع سرعته هو احتمال عودة شركة الموز. منذ غادرت هذه الشركة لم يكن هناك حديث آخر في المنطقة، وكانت وجهات النظر منقسمة بين من يريدون أن تعود، ومن لا يريدون، ولكن الجميع يعتبرون عودتها أمراً مؤكداً، الخوري كان ضد عودتها، وقد فسر ذلك بسبب شخصي جداً، إلى حد بدا معه جنوبياً للمرأتين:

- الشركة تخلف الخراب أينما مرّت.

كان هذا هو الشيء الأصيل الوحيد الذي قاله. ولكنه لم يتمكن من شرحه. وقد انتهى الأمر بالمرأة التي تحمل الطفل إلى تخطئته، بحجة أنه لا يمكن للرب أن يكون متفقاً معه.

لقد محا الحنين، كالعادة، الذكريات السيئة، وضخم الطيبة. ليس هناك من ينجو من آثاره المخزية. كان الرجال الجالسون عند أبواب بيوتهم، يظهرون من نافذة العربة، وكانت رؤية وجوههم كافية لمعرفة ما ينتظرونه. والغسالات على الشواطئ الفيتراية ينتظرن إلى مرور القطار بالأمل نفسه. فهم جميعهم يرون في كل غريب يأتي حاملاً حقيبة رجل أعمال، رجل اليونانيد فروت كومباني العائد لإعادة إقرار الماضي. في كل لقاء، وفي كل زيارة، وفي كل رسالة، تُطل عاجلاً أو آجلاً، الجملة القدسية: "يقولون إن الشركة راجعة"، ليس هناك من يعرف من قال ذلك، ولا متى، ولا لماذا قاله؛ إنما لم يكن هناك من يشك فيه.

كانت أمي تظن أنها قد شقيت من كل ذعر صفاجي، قبعد صوت أبوابها قطعت كل علاقة لها بأركانها. ومع ذلك، كانت أحلامها تخزنها. فعلى الأقل، عندما يكون لديها حلم، يهبها كثيراً أن ترويه أثناء الفطور، يكون مرتبطاً دوماً بحياتها إلى منطقة الموز. كانت قد تجاوزت بمسقة أقصى فترات حياتها، دون أن تباع البيت، بوهم الحصول، مقابله، على مبلغ يزيد أربعة أضعاف، عندما ترجع الشركة، وأخيراً هزمها ضغط الواقع الذي لا يطاق. ولكنها حين سمعت الخوري يقول في القطار إن الشركة على وشك الرجوع، أوامت بحركة مكروية، وقالت لي في أذني:

- من المؤسف أننا لا نستطيع الانتظار لوقت آخر قصير، كي نبيع البيت بسعر أعلى.

بينما الخوري بشكل، مرزنا، غرضاً، بقرية يجتمع في ساحتها حشد من الناس، وفرقة موسيقية تعزف لحناً مرحاً، تحت الشمس المنتهية، جميع تلك القرى كانت تبدو لي متشابهة على الدوام. وعندما كان باباليلو يأخذني إلى سينما أولمبيا التي يملكها دون أنطونيو داكورتى، كنتُ ألاحظ أن محطات القطارات، في أفلام رعاة البقر، تشبه محطات قطارنا. وفيما بعد، عندما بدأت بقراءة فوكنر، وجدت أيضاً أن قرى رواياته تبدو مماثلة لقرانا. ولم يكن ذلك مفاجئاً، لأن هذه الأخيرة بُنيت تحت الإشراف المخلص لليونانيد فروت كرمباني، وبأسلوبها الموقت نفسه، في بناء معسكرات عابرة. إنني أتذكر تلك القرى جميعها، بكليستها التي في الساحة، وبيوتها الصغيرة، كما في قصص الحوريات، المطوية بألوان أولية. أتذكر فرق الميامين السود، وهم يغنون عند الغروب، وغالبونات^(١) المزارع، حيث يجلس العمال لرؤية مرور قطارات الشحن، والحدود بين المزارع، حيث كان يطلع الصباح على عمال القطف يتناجل المنشئني مقطوعي الرؤوس في عربات السكر. أيام السبت، أتذكر المدن الخاصة بالفرنغيين في أراكاتاكا، وفي سيبيا، على الجانب الآخر من سكة الحديد، مسيجة بشبكه معدنية كأنها أقفاص دجاج هائلة مكهربة، يطلع عليها الصباح في أيام الصيف الباردة وقد اسودت بمصاصير السنونو المحروقة. أتذكر مروجها البطيئة المزروعة بالطواويس وطيور السمانى، ومساكنها ذات السقوف الحمراء، والنواقد المشبكة، والمناضد المستديرة، مع كراس قابلة للطي من أجل تناول

(١) غالون galpon، غير كبير حيث العديد في المزارع، وقد يكون مسقوفاً فقط، ودون جدران في أغلب الأحيان.

الطعام على الشرفة، بين أشجار نخيل وشجيرات ورد معفورة. وأحياناً، تظهر من خلال سياج الأسلاك، شمس - جميلات وضائرات، بفساتين من المسلمين وقبعات كبيرة من الشف، يقطن أزهار حدائقهن بمقاصت ذهبية.

منذ طفولتي، لم يكن سهلاً تمييز بعض القرى عن غيرها. وبعد مرور عشرين سنة، كان الأمر أصعب، فقد سقطت، عن بوابات المحطات، اللوحات الخشبية التي تحمل الأسماء الشاعرية - توكورينكا، غاماتشيرو، نيرلانديا، غواكامايا - وجميعها كانت أكثر وحشة وخبأً مما هي عليه في الذاكرة. توقف القطار في سيبيا في حوالي الحادية عشرة والنصف صباحاً، لاستبدال القاطرة والفرود بالماء، خلال خمس عشرة دقيقة بدت لانهائية، وهناك بدأ الحر، وعندما تجدد المسير، كانت القاطرة الجديدة تقلدنا عند كل منعطف بدفقة من هباب الفحم، تدخل من النافذة التي لا زجاج لها، وتغطيتنا بثلج أسود. كان الخوري والمرأتان قد تزلوا في إحدى القرى، دون أن نتشبه إلى نزولهم، فزاد ذلك من إحساسي بأنني أنا وأمي نساقر وحيدتين في قطار لا أحد. وبينما هي جالسة قبائلي، تنظر من النافذة، أزعجت عنها أغفائين أو ثلاثاً، ولكنها تنشطت فجأة، وأفلتت مرة أخرى السؤال الموهوب:

- والآن، ما الذي سأقوله لأبيك؟

كنت أفكر في أنها لن تستسلم أبداً، وستواصل البحث عن خاصرة ضعيفة تكسر من خلالها قرارى. كانت قيل قليل من ذلك قد اقترحت بعض صبغ الالتزام التي استبعدتها دون تقديم حجج. ولكنني كنت أعرف أن تراجعها لن يكون طويلاً. ومع ذلك، فقد أخذتني على حين غرة

في هذه المحاولة الجديدة. فأجبتها بهدوء أكبر من المرات السابقة، وأنا أعد نفسي لمعركة عقيدة أخرى:

- قل لي إن الشيء الوحيد الذي أريده في الحياة، هو أن أكون كاتباً، وسوف أصبح كذلك،
فقلت:

- هو لا يعترض على أن تكون ما تشاء، على أن تنال شهادة في أي شيء.

كانت تشكك دون أن تنظر إليّ، متظاهرة بأنها مهتمة بمحادثتنا، أقل من اهتمامها بالحياة التي تمر من خلال النافذة.

- لا أدري لماذا تلحين إلى هذا الحد، مع أنك تعرفين جيداً أنني لن أستسلم - قلت لها.

فنظرت إلى عيني على الفور وسألني مبهورة:

- ولماذا تظن أنني أعرف؟

- لأننا أنا وأنت متشابهان.

ترفقت القطار في محطة دون قرية. وبعد قليل من ذلك، مرّ قبالة مزرعة الموز الوحيدة على الطريق التي يظهر اسمها مكتوباً على البوابة: ماكوندو. لقد استرعت هذه الكلمة اهتمامي منذ الرحلات الأولى مع جدي، ولكنني لم أنتبه، إلا بعد أن كبرت، إلى أن إيقاعها الشعري بروقتي. لم أكن قد سمعت أحداً يطلق الكلمة. حتى إنني لم أسأل عن معناها. وكنت قد استخدمتها في ثلاثة كتب كاسم قرية متخيلة، عندما عرفت من موسوعة مصادفة أن الكلمة هي اسم شجرة استوائية تشبه شجرة السيبيا، وأنها لا تنضج أزهاراً ولا ثماراً، وخشبها الإسفنجي يتفح

في صنع زوارق الكانوا^(١) وفي نحت أدوات مطبخية، وقد اكتشفتُ فيما بعد، في الموسوعة البريطانية، أنه توجد في تنجانيقا قبيلة الماكوندو (makondos) الرحالة، وفكرت في أن ذلك قد يكون أصل الكلمة. ولكنني لم أتقصّ الأمر قط، ولم أتعرّف على الشجرة. فقد سألت عنها كثيراً في منطقة الموز، ولم يستطع أحد إخباري بشيء عنها. ربما ليس لها وجود على الإطلاق.

القطار يمر في الساعة الحادية عشرة بمزرعة ماكوندو. وبعد عشر دقائق من ذلك، يتوقف في أراكاكاكا. أما في اليوم الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت، فمر متأخراً ساعة ونصف الساعة. كنتُ في المرحاض عندما بدأ يسرع، ودخلتُ من النافذة المكسورة ربيعاً لاصحة وجافة، مختلطة بضجج العربات العتيقة، وصغير القاطرة المفزع. كان قلبي يدوي في صدري، وجمد غشيان جلدي أحشائي. خرجتُ بأقصى سرعة، مدفوعاً برعب مشابه لما يشعر به المرء لدى حدوث هزة أرضية، فوجدتُ أمي مستقرة بثبات في مكانها، تعدد بصوت عالٍ الأماكن التي ترى مرورها من خلال النافذة، مثل ومضات آنية وسريعة من الحياة التي كانت، ولن تعود مطلقاً وإلى الأبد، وقالت:

- هذه هي الأراضي التي باعوها لأبي، بخديعة أن فيها ذهباً.

مرّ، مثل نيزك، بيت المعلمين المجينيين^(٢)، يحديقته الزهرة واللوحة

التي على البوابة: The sun shines for all. فقلتُ أمي:

- كان هذا هو أول ما تعلّمته بالإنكليزية.

(١) الكانوا canoa: نوع من الزوارق كان يستخدمه السكان الأصليون قبل مجيئ الإسبان.

وهو يسع من قطعة واحدة بنحت جذع شجرة.

(٢) المجينية adventismo: مذهب يقول إن مجيئ المسيح صار قريباً.

قلت لها:

- ليس الأول، بل الوحيد.

مرّ الجسر الإسمنتي والساقية بجهاها العكرة، منذ أن حوّل الغريغويون النهر، لإيصاله إلى المزارع. وقالت هي:

- هذا هو حي نساء الحياة، حيث كان الصباح يطلع على الرجال، وهم يرقصون رقصة الكومبيامبا حاملين رزماً من الأوراق النقدية المشتعلة بدل الشموع.

مصاطب مورد الأبقار، أشجار اللوز الصلبة بفعل الشمس، حديقة مدرسة موتيسوريانا الصغيرة حيث تعلّمت القراءة، ولبرهة، ومضت من النافذة صورة شاملة للقرية، في ذلك الأحد المشع من شباط.

- المحطة! - هتفت أُمّي، ثم قالت: - لقد تغير العالم إلى حد لم يعد فيه من ينتظر القطار.

عندئذ انتهت القاطرة من الصنبر، وخففت سرعتها، وتوقفت بأنّة طويلة.

أول ما أثر فيّ هو الصمت. صمت مادي كان مقدوري التعرف عليه، وأنا معصوب العينين، بين أصناف صمت العالم الأخرى. كان وهج الحر كثيفاً إلى حد يبرئ معه كل شيء، وكأنه وراء زجاج متعرج. لم تكن هناك أي ذاكرة لحياة بشرية، على المدى الذي يصل إليه النظر، ولا لأي شيء غير مغطى بندي خفيف من غبار ملتهب. بقيت أُمّي محتفظة بالصمت لبضع دقائق، تنظر إلى القرية الميتة والمسددة في الشوارع المغفرة، وأخيراً هتفت مرعوبة:

- رياء!

كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي قالته قبل أن تنزل.

في أثناء وقوف القطار هناك، راودني إحساس بأننا لم نكن وحيدين تماماً. ولكنه عندما تحرك، مبتعداً، وهو يطلق صغيراً خاطفاً ومؤثراً، بقيت أنا وأُمّي مهجورين تحت الشمس الجهنمية، وقد انتهالت علينا كل كآبة القرية، ولكن أياً منا لم يقل شيئاً للآخر. المحطة القديمة المبنية من الخشب، وسقف من التوتيا، وشرفة بارزة، كانت نسخة مدارية للمحطات التي عرفناها في أفلام رعاية البقر. اجتزنا المحطة المهجورة التي بدأ بلاطها يتشقق، بفعل ضغط الأعشاب، وغرقنا في ركود القيلولة، باحثين طوال الوقت عن حيازة أشجار اللوز.

كنتُ أصمت، منذ طفولتي، تلك القيلولات الخاملة؛ لأننا لم نكن نعرف ما يمكننا عمله. "اصمتوا، فنحن نائمون"، كان النائمون يهيمون لنا. وكادت المساجير، والمكاتب العاسية، والمدارس، تغلق منذ الساعة الثانية عشرة ظهراً ولا تفتح أبوابها إلى ما قبل الثالثة بقليل. وبقي البيت من الداخل طاقياً في ليمبوس^(١) السبات. وكان الحر في بعض البيوت لا يطاق، إلى حد أنهم يعلقون أراجيح النوم في الفناء، أو يضعون كراسي بلا مسند في ظل أشجار اللوز. وينامون جالسين في وسط الشارع. ولا يبقى مفتوحاً سوى الفندق المقابل للمحطة، وحانته وصالة البلياردو فيه، ومكتب التلغراف وراء الكنيسة. كل شيء كان مطابقاً للذكريات، ولكنه أكثر اقتضاباً وقرراً، عاثت به زوبعة ريح قديمة: البيوت المتأكلة نفسها، سقوف التوتيا، التي نخرها الصدأ، مورد

(١) الليمبوس Limbo: منطقة بين الفردوس والجحيم. تستقر فيها أرواح الموتى من الأطفال الذين لم يعمدوا، ومن كانوا أبرياء وأتقياء، قبل مجيئ المسيح.

الماضية مع أنقاض مقاعد الغرائب وأشجار اللوز الكنيسة، وكل شيء متغير بذلك الغبار غير المرئي والمتهب الذي يخدع البصر ويكلس الجلد. أما فردوس شركة الفواكه الخاص، في الجانب الآخر من سكة القطار، وقد صار بلا سباح الأسلاك المكهرب، فكان دغلاً نسيحاً بلا أشجار تخيل. بيوتته متداعية بين شقائق النعمان وأنقاض المستشفى المحترق. لم يكن هناك باب، أو صدع في جدار، أو أثر إنساني إلا له في أعماقي صدى خارق للطبيعة.

كانت أمي تمشي منتصية جداً، بخطواتها الخفيفة، متعركة بصورة تكاد لا تُلحظ في قستائها الحدادي، وبصمت مطلق. ولكن شحوبها القاتل وبروقيل وجهها الحاد كانا يشيان بما يحدث لها من الداخل. في نهاية الطريق، رأينا أول كائن بشري: امرأة ضئيلة، ذات مظهر مشرد، ظهرت من ناصية جاكوبو بيراكاتا، ومرت بجانبنا حاملة قدراً من القصدير، غطاؤها، غير المحكم جيداً، يهتز مسجلاً إيقاع خطواتها. فهمست لي أمي دون النظر إليها:

- إنها فينا.

كنت قد تعرفت عليها. لقد عملت منذ طفولتها في مطبخ جدي، ومهما تكن التغيرات التي طرأت علينا، فإنها كانت ستتعرف علينا لو أنها تنازلت ونظرت إلينا. ولكن لا: لقد مرت في عالم آخر، وما زلنا حتى هذا اليوم أتباعاً إذا ما كانت فينا قد ماتت قبل وقت طويل من ذلك اليوم.

حين انعطفنا عند الزاوية، كان الغبار يلتهب في قدمي، بين نسج الصندل. وصار إحساسي بالخدلان لا يطاق. عندئذ رأيت نفسي ورأيت

أمي، تماماً مثلما رأيت في طفولتي أم وأخت اللص الذي كانت ماريا كونسويغرا قد قتلتها برصاصة قبل أسبوع، وهو يحاول خلع باب بيتها. كانت، قد أبقظتها في الساعة الثالثة فجراً، خشخشة أحدهم وهو يحاول، من الخارج، خلع الباب المؤدي إلى الشارع. نهضت دون أن تشعل الضوء، ويبحث، بالتمس، في الخزانة عن مسدس عتيق لم يطلق النار منه أحد منذ حرب الألف يوم، وحددت في الظلام، ليس موقع الباب وحسب، وإنما كذلك مستوى ارتفاع القفل بالضغط. وعندئذ سدوت السلاح بكلتا يديها، وأغمضت عينيها وضغطت على الزناد. لم تكن قد أطلقت النار من قبل قط، ولكن الرصاصة أصابت الهدف، عبر الباب. كان ذلك هو أول ميت أراه، فعندما مررت في طريقي إلى المدرسة، في الساعة السابعة صباحاً، كان الجسد لا يزال ممدداً على الرصيف، فوق بقعة من الدم الناشف، بوجه مهشم من رصاص الطلقة التي حطمت الأنف وخرجت من الأذن. كان يرتدي قميص بحار من الفانيلة، مقلماً بخطوط ملونة، وينظراً عادياً بشكة بدل الحزام، وكان حافياً، وإلى جانبه، على الأرض، وجدوا الخفاف الذي حاول أن يفتح به قفل الباب.

خرج أعيان القرية إلى بيت ماريا كونسويغرا ليقدموا لها التعازي، لأنها قتلت اللص. ذهبت في تلك الليلة مع باباليو، ووجدناها جالسة على متكا من قماش المانيلا، تبدو مثل طاووس هائل من الخيزران، وسط حماس الأصدقاء، الذين يستمعون إلى القصة المعادة ألف مرة. الجميع كانوا متفقين معها بأنها أطلقت النار بدافع الخوف المحض. وكان أن سألها جدي عندئذ، عما إذا كانت قد سمعت شيئاً بعد أن أطلقت النار. فردت عليه بأنها سمعت في أول الأمر صمتاً كبيراً، ثم رنة

الخطاف المعدنية، وهو يسقط على الأرضية الاسمنتية، وبعد ذلك صوتاً خافتاً ومثلماً: "آي، يا أماد". ويبدو أن ماريّا كونسويغرا لم تع تلك الآلة المؤثرة، إلى أن وجهه إليها جدي السؤال، لأنها عندئذ فقط انفجرت في البكاء.

حدث ذلك في يوم اثنين، وفي يوم الثلاثاء، من الأسبوع التالي، في ساعة القيلولة، كنتُ لعب بالحدروف، مع لويس كارميلو كورتيا، أقدم أصدقائي في الحياة، عندما فوجئنا بأن النائمين يستيقظون قبل الموعد، ويطلون من النوافذ. وحينئذ رأينا في الشارع المقفر، امرأة يلبس الحداد الكامل، ومعها طفلة في حوالي الثانية عشرة من عمرها، تحمل باقة أزهار ذابلة ملفوفة بورقة صحيفة، وكانتا تحميميان من الشمس المحارقة بمظلة سوداء، غير عابيتين مطلقاً بوقاحة الناس الذين يراقبون مرورهما. لقد كانتا أم اللص وأخته الصغرى، تحمالان زهوياً إلى قبره.

لقد لاحقتني تلك الرؤيا لسنوات طويلة، مثل حلم جماعي شهدت القرية كلها مروره من خلال النوافذ، إلى أن استطعت التطهر منها في قصة قصيرة. ولكنني لم أع، في الحقيقة، مأساة المرأة والطفلة، ولا عزة نفسيهما الراسخة حتى اليوم الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت وفاجأت نفسي أمشي في الشارع المقفر نفسه وفي الساعة الثالثة نفسها، فقلت:

- أشعر كما لو أنني أنا اللص،

لم تفهم أمي ما أعنيه. بل أكثر من ذلك: فعندما مررنا قبالة بيت ماريّا كونسويغرا، لم تلق مجرد نظرة على الباب الذي تظهر عليه رقعة

الحشب، في موضع ثقب الرصاصة. وبعد مرور سنوات، بينما أنا أتذكر معها تلك الرحلة، تأكدتُ من أنها تتذكر المأساة. ولكنها كانت مستعدة لأن تقدم روحها مقابل نسيانها. وقد بدا ذلك أكثر جلاءً، عندما مررنا قبالة البيت الذي عاش فيه دون إميليو، المشهور بلقب البلجيكي، وهو محارب قديم شارك في الحرب العالمية الأولى. وفقد القدرة على استخدام ساقيه الاثنتين، في حقل ألغام في النورماندي، وفي يوم أحد العنصرة من إحدى السنوات نجح بنفسه من عذابات الذاكرة، باستنشاق أبخرة سيانور الذهب. لم أكن قد تجاوزت آنذاك السادسة من عمري، وكانت واقعة لا تُنسَى إلى حد أن أمي، عندما عدنا إلى القرية، لبيع البيت، قطعت أخيراً صحتها الذي استمر عشرين دقيقة، وتنهدت قائلة:

- يا البلجيكي المسكين! فهو، مثلما قلت أنت، لم يعد مطلقاً إلى لعب الشطرنج.

كنا ننوي الذهاب مباشرة إلى البيت. ومع ذلك، عندما صرنا على بعد كوادرا^(١) واحدة عنه، توقفت أمي فجأة وانعطفت من الزاوية السابقة.

- من الأفضل أن نذهب من هنا - قالت لي، وعندما أردت أن أعرف السبب، ردّت علي: - لأنني خائفة.

وهكذا عرفتُ سبب جزغي: لقد كان خوفاً، ليس من مواجهة أنشياحي وحسب، وإنما خوف من كل شيء، وهكذا واصلفنا تقدمنا عبر شارع مواز لنقوم باللقافة، كان الهدف الوحيد منها هو عدم المرور ببيتنا، وقد قالت لي أمي فيما بعد: "ما كنتُ لأفهم على رؤيته دون التحدث،

(١) الكوادرا cundin: وحدة لقياس الأبعاد، تساوي ١٢٥ متراً.

قبل ذلك مع أحد". وكان هذا هو ما حدث. فقد اقتادتنني بما يشبه الجرجرة، ودخلت دون أي تنبيه إلى صيدلية الدكتور ألفريدو باربولا، وهو بيث على الناصية على بُعد أقل من مئة خطوة من بيتنا. كانت أدريانا بيردوغو، زوجة الدكتور، مستغرقة تماماً في الحياطة على ألتيها اليدوية البدائية، فلم تشعر بنا إلا عندما وصلت أُمِّي إليها، وقالت لها بصوت هامس تقريباً:

- صديقتي.

رفعت أدريانا بصرها المشوش عبر زجاجتي نظارة قصور البصر السميكتين، ثم خلعت النظارة، وترددت هنيهة، ثم تهتضت قافزة وهي تفتح ذراعها وتتن:

- آي، صديقتي!

كانت أُمِّي قد صارت وراء منضدة الكونتوار، ودون أن تقول شيئاً آخر تعانقنا لتبكي. بقيتُ أراقبهما من خارج حاجز الكونتوار، دون أن أدري ما أفعل، يهزني اليقين بأن ذلك العناق الطويل ذا الدموع الصامتة، هو أمر لا مفر منه كان يحدث على الدوام في حياتي نفسها.

لقد كانت الصيدلية هي الأفضل في أزمئة شركة الموز. غير أنه لم يبق من فوارير الحقائقير القديمة، في الخزائن المتقلصة، سوى بعض القرارات الخزنية المعلمة بحروف مذهبة، أما مكتبة الحياطة، وصولجان هيرمس^(١)، وساعة البندول التي ما زالت حية، ورقعة القسَم الأبوقراطي، والكريسمان الهزازان المخلعان، وكل الأشياء التي رأيتهما وأنا طفل، ما

(١) صولجان هيرمس "caduceo" قصير يمشي بجانب في أعلاه، وتلف عليه حيتان، وهو شعار الطب.

زالت هي نفسها، وكانت لا تزال في الأماكن نفسها، ولكن صدأ الزمن بذلك هبتها.

أدريانا نفسها كانت ضحية، فمع أنها ترتدي، كما في السابق، فستاناً مزيناً بأزهار تروبيكالية كبيرة، إلا أنه يكاد لا يظهر عليها شيء من الاندفاع والشيطنة اللذين اشتهرت بهما، حتى وقت متقدم من نضجها. الشيء الوحيد الذي بقي دون تغيير في ما حولها هو رائحة الناردين التي تبعث الجنون في الققط، والتي سأبقى أتذكرها بإحساس بالغرق، طوال ما تبقى من حياتي.

عندما استندت أدريانا وأُمِّي الدموع، سمعت سعلة قوية وقصيرة من وراء الحائط الخشبي الذي يفصلنا عن الحجرة الخلفية. استعادت أدريانا بعض ظرفها الذي كانت عليه، في زمن آخر، وتكلمت ليُسمع صوتها، عبر الحائط الخشبي، قائلة:

- خمن من لدينا هنا يا دكتور؟

وجاء صوت حبيبي لرجل صلب يسأل من الجانب الآخر دون اكترات:

- من؟

لم ترد عليه أدريانا، وإنما أوصأت لنا للانتقال إلى الحجرة الخلفية. شلني رعب طفولي مفاجئ وغمر في لعاب داكن. ولكنني دخلت مع أُمِّي إلى الحيز المشعث الذي كان فيما مضى مخيراً للصيدلية، وجرى تكيفه كغرفة نوم للطوارئ. وهناك كان الدكتور ألفريدو باربولا، أكثر هماً من كل الرجال وكل الحيوانات الهرة في البر والماء، مستلقياً على ظهره في أرجوحة نومه الأهدية المهترئة، دون حذاء، وبيجامة العتيقة التي من القطن الخام، والتي تبدو أقرب إلى عباءة تكفير. كان نظره

موجهاً إلى السقف. ولكنه آدار رأسه عندما أحس بدخولنا. وحدّق فينا بعينه الصفراوين الشفافتين، إلى أن تمرّك على أُمي، فهتف:

- لويسا ساتياغا!

جلس في أرجوحة النوم بالنهساك قطعة أثاث قديمة، وتأنس بالكمال، وحيانا بمصافحة سريعة بيده المتوقدة. انتبه هو إلى انهاري، وقال لي: "منذ سنة وأنا أعاني من حمى أساسية"^(١). عندئذ غادر أرجوحة النوم، وجلس على السرير. وقال لنا بنفس واحد:

- لا يمكن لكما أن تتصورا ما عانتها هذه القرية.

تلك الجملة وحدها، التي لخصت حياة بكاملها، ولما كانت كافية لأن أواه مثلما كان على الدوام: رجلاً متوحداً وخزناً. كان طويل القامة، نحيلاً. له شعر معدني بديع مقصوص كبفما اتفق، وعينان صفراوان وكثيفتان هما أروها رعب في طفولتي. فعند عودتنا من المدرسة في المساء، كنا نصعد إلى نافذة حجرية نومه، يجتذبتنا الافتتان بالخوف. وهناك نراه يتأرجح في أرجوحة النوم بهزات قوية ليخلف الحر عن نفسه. وكانت اللعبة تشتمل في النظر إليه بشبات، إلى أن ينتبه ويلتفت لينظر إلينا فجأة. بعينه المتوقدتين.

لقد رأيته أول مرة، وأنا في الخامسة أو السادسة من عمري، في صباح يوم تسللت فيه إلى الفناء الخلفي لبيته، مع رفاق آخرين، لنسرق ثمار المانجا الضخمة من أشجاره. وفجأة انفتح باب المرحاض المشيد من ألواح خشبية في أحد أركان الفناء، وبخرج وهو يربط سرواله الداخلي الذي من الكتان. رأيته مثل رؤيا من العالم الآخر، بقميص داخلي أبيض

(١) الحمى الأساسية، نوع نادر من الحمى لا يعرف له أسهل.

بباض مستشفي، شاحباً وعظيماً. ونظرت إلى عيناه الصفراوان مثل عيني كلب من جهنم، نظرة استمرت إلى الأبد. هرب الآخرون من الفسحات الصغيرة في السياج. أما أنا فبقيت متحجراً بنظرة الشابة. صوّب بصره إلى ثمار المانجا التي كنت قد تطففتها من الأشجار. ومدّ يده بالمانجا.

- هاتها! - قال لي أمراً، ثم أضاف وهو ينظر إلى كامل قامتي بازدياء: - لص فناء صغير.

ألقيت بالثمار عند قدميه، وهربت مذعوراً.

لقد كان شبحي الخاص. فإذا ما مشيت وحيداً، أقوم بالالتفات في جولة طويلة، كيلا أمر ببشعة. وإذا ما كنت أمضي مع أشخاص بالغين، فإنني أكاد لا أنجراً على أكثر من إلقاء نظرة مختلسة باتجاه الصيدلية. كنت أرى أدريانا محكومة بالمؤيد إلى ماكينة الخياطة، وراء الكونتوار. وأواه هو من نافذة غرفة النوم، يتأرجح في اهتزازات كبيرة في أرجوحة النوم. وتكون تلك النظرة كافية لبعث القشعريرة في بدني.

لقد أتى إلى القرية في أوائل القرن، بين ما لا يُحصى من الفنزويليين الذين تمكّنوا من الفرار عبر حدود إقليم غواخيرا، هرباً من استبدادية خوان فيشتنه غوميث الشرسة. وكان الدكتور أحد أول من جرحهم ثوبان متناقضتان: شراصة المستبد في يلاذه، ووه رخاء الموز في يلاذنا. وقد اشتهر منذ مجيئه بعينه الطيبة - مثلما كان يقال آنذاك - وبأساليب روحه الطيبة. كان أحد أكثر الأصدقاء المواطنين في بيت جدي، حيث كانت المائدة مجهزة على الدوام دون معرفة من سيصل في القطار. لقد كانت أُمي عراكبة ابنة الأكبر. وجدي هو الذي علمه كيف

يُحلقُ بأجنحته الأولى. وقد كثرتُ بين أولئك القزويليين، مثلما واصلت
النمو بعد ذلك، بين منفي الحرب الأهلية الإسبانية.

آخر آثار الحوق الذي كان يسببه لي ذلك المنبوذ المنسي، وأنا طفل،
تلاشت فجأة، بينما كنت جالساً، مع أمي، بجوار سرير، نستمع إلى
تفاصيل المساة التي ضربت البلدة. كان يتمتع بقدرة تذكّر واستحضار
شديدة الزخم، يبدو معها أن كل شيء يرويه، يصبح مرئياً في الحجرة
المخلخلة بفعل الحر. أصل كل التنبؤات، بالطبع، هي مذبحه العمال على
يد قوس الأمن العام. ولكن الشكوك ما زالت قائمة حول الحقيقة
التاريخية: ثلاثة قتلى أم ثلاثة آلاف؟ ربما لم يكونوا بهذه الكثرة، قال
هو، ولكن كل واحد يزيد الرقم وفق ألمه الخاص. والشركة قد رحلت الآن،
وإلى الأبد. وانتهى إلى القول:

- الغرينغون لن يرجعوا مطلقاً.

الشيء الوحيد المؤكد هو أنهم أخذوا كل شيء: المال، سمات كانون
الأول، سكين تقطيع الخبز، وعد الساعة الثالثة مساءً، أريج الياسمين،
الحب. ولم يبق سوى أشجار اللوز المعفورة، والشوارع المتوهجة، والبصوت
الحشوية ذات مقوف التوتياء الصدئة، بأناسها المكفهرين الذين فتكت
بهم الذكريات.

المرّة الأولى التي التفت فيها الدكتور إليّ، في ذلك المساء، كانت
عندما رأيته متفاجئاً يقرّعة كائناتها قطرات مطر متفرقة على سطح
التوتياء. فقال لي: "إنها تسور الرخمة، فهي تقضي النهار في المشي
على الأسطح" ثم أشار بإصبع إبهامه نحيلة، نحو الباب المغلق، وأضاف:
- في الليل تكون الحال أسوأ، لأننا نشعر بالأصوات يمضون طليقين
في هذه الشوارع.

دعانا لتناول الغداء، ولم يكن هناك أي مانع، فصقفة البيت لا
تحتاج إلا إلى تنبئتها رسمياً. فالتأجرون أنفسهم هم الذي يشيرونه،
وقد تم الاتفاق على التفاصيل غير الهاتف. هل سيكون لدينا متسع من
الوقت؟

- بل فائض منه - قالت أديانا، وأضافت: - فالآن لم يعد معروفاً
متى يعود القطار.

وهكذا تقاسنا معهما وجية كبروية، لا علاقة لبساطتها بالفقر،
وإنما بنظام غذائي فنوع يمارسه الدكتور ويعطى ممارسته، ليس على المائدة
وحسب، وإنما في كل شؤون الحياة. منذ أن تلوّثت الحساء راودني
إحساس بأن عالماً يكامله كان نائماً، راح يستيقظ في ذاكرتي، طعموم
كانت لي في الطفولة وضاعت منذ أن غادرت القرية، عادت إليّ كاملة
مع كل ملعقة، وأخذت تضغط على قلبي.

منذ بدء المحادثة، أحسست في مواجهة الدكتور بأنني في السن
نفسها التي كنت عليها، وأنا أسخر منه عبر الناقذة، ولهذا أخافني
عندما توجه إليّ بالجدية والتأثر نفسيهما اللقيين كان يتحدث بهما إلى
أمي. لقد كنتُ في طفولتي، عندما أتعرض لمواقف صعبة، أحاول أن
أخفي إبهاري برنّش سريع ومتواصل من عيني. وقد عاد إليّ ذلك
الفعل الاتعكاسي فجأة، عندما نظر الدكتور إليّ. صار الحر لا يطلق.
بقيت على هامش المحادثة لبعض الوقت، متسائلاً كيف أمكن لذلك
العجوز البشوش والغارق في الخنث، أن يكون رعب طفولتي. وفجأة،
بعد توقف طويل، وبإحالة تافهة لا تعني له شيئاً، نظر إليّ باهتمام
جد، وقال:

- أنت غاييتو إذن. ماذا تدرس الآن؟

واريت اضطرابي بسرد غائم لدراساتي؛ إنها الثانوية بتقدير جيد في مدرسة داخلية رسمية. قضاء سنتين وبضعة شهور في دراسة الحقوق دون انتظام. صحافة تجريبية. استمعت أمني إلى ما أقوله، وبحثت على الفور عن دعم الدكتور، فائلة:

- تصور أنها الجار، إنه يريد أن يصير كاتباً.

أشرفت عينا الدكتور في وجهه، وقال:

- يا للروعة يا جارتنا! إنها هدية من السماء - ثم التفت إلي:

شعرا؟

- رواية وقصة - قلت له وروحي معلقة بطرف خيط.

فتمحس هو:

- هل قرأت "دونيا باربارا"؟

- طبعاً - أجبته - وقرأت أعمال رومولو غيغوس^(١) كلها تقريباً.

وكما لو أنه يتبعث في حساسة مفاجئة، روى لنا أنه قد تعرف عليه

في محاضرة ألقاها في ماركايو. وبدا له أنه كاتب جدير بكتبه.

والحقيقة أنني في تلك اللحظة، وبخس الأربعين درجة ملاحم المسيحي

الفكرية، كنت قد بدأت ألحظ مواطن ضعف الرواية المحلية. ولكن

التواصل السهل والودود مع الرجل الذي شكّل رغب طفولتي، بدا لي

معجزة. وفضلت التوافق مع حماسه، فحدثته عن "الزرافة" - محمودي

(١) رومولو غيغوس: كاتب وسياسي إنزولي (١٨٨٩-١٩٦٩) انتخب رئيساً للجمهورية عام ١٩٤٧. ولكن حركة عسكرية أطاحت به في العام التالي. يعتبر أحد أبرز روائي أمريكا اللاتينية في النصف الأول من القرن العشرين. وأهم أعماله رواية "دونيا باربارا" التي ترجمها إلى العربية الدكتور محمود علي مكي.

البرسي في صحيفة الهيرالدو - وأطلعتني على خير أننا ننوي، عما قريب، إصدار مجلة تبني عليها آمالاً كبيرة. وأخبرته كذلك، وقد ازدهت ثقة بنفسي، بتفاصيل المشروع، وحتى اسم المجلة: كرونیکا.

أمعن النظر إلي من أعلى إلى أسفل، وقال:

- لا أدري كيف تكتب، ولكنك تتكلم ككاتب منذ الآن.

وصارعت أمني إلى توضيح الحقيقة: فلا أحد يعارض أن أصبح

كاتباً، ولكن يجب علي أن أنهي أولاً دراسة جامعية تمنعني أرضاً صلبة

أقف عليها. قلل الدكتور من شأن كل شيء، وتكلم عن مهنة الكاتب.

فقد كان هو أيضاً راغباً في أن يصير كاتباً، ولكن أبويه، وبحجج أمني

نفسها، أجبراه على دراسة الطب عندما عجزا عن إدخاله سلك الجيش

ليكون ضابطاً. وانتهى إلى القول:

- وانظري يا جرتي، إنني طبيب، وما أنذا هنا، دون أن أدري كم

من مرضاي ماتوا بمشيئة الرب، وكم منهم ماتوا بسبب أدويتي.

أحست أمني بالضيق، وقالت:

- وأسوأ ما في الأمر هو أنه ترك دراسة الحقوق، بعد توضيحات

كثيرة قدمناها لمساعدته.

ولكن ذلك بدا للدكتور، على العكس منها، دليلاً دامغاً على ميل

جارت: القوة الوحيدة القادرة على منازعة الحب امتيازاته. وبخاصة الميل

الفني، أكثر الميول سرية وعموضاً. لأن المرء يكرس له حياته كاملة دون

أن يأمل منه شيئاً.

- إنه شيء، يُحتمل في الداخل، منذ الولادة، ومعاكسته هي أسوأ

ضرر للصحة - قال ذلك، واختتم بابتسامة ماسوني لا خلاص له: - إنه

مثل ميل الكاهن.

أصابني الانبهار من الطريقة التي أوضع بها، ما لم أستطع توضيحه قط. ولا بد أن أعي شاركنتني ذلك الانبهار، لأنها تأملتني بصمت بلي، واستسلمت لقدرها.
- ما أفضل طريقة لقول كل هذا لأبيك؟ - سألتني.
فقلت لها:

- بالطريقة التي سمعنا بها المتو، بالضيظ.
- لا، فهذا لن يعطي تسبحة - قالت ذلك، ثم أضافت بعد تأمل آخر: - ولكن لا تقلق، سأجد طريقة مناسبة لآخره.
لست أدري إذا ما أخرجه بهذه الطريقة أم بطريقة أخرى. ولكن الجدال توقف عند ذلك الحد. أعلنت الساعة الوقت برنين كأنهما قطرتا بلور. فانتفضت أعي قائلة: "ياه، لقد تسببت سبب مجيئنا." ونهضت واقفة:
- يجب علينا أن نذهب.

الرؤية الأولى للبيت، على الرصيف المقابل، كانت مرتبطة إلى حد ما بذكرياتي، دون أي علاقة بحسني. فقد قُطعت، من الجذور، شجرتنا اللوز الحاصيتان اللتان شكلتا، طوال سنوات، هوية مميزة. وصار البيت مكتشفاً في العراء. ما بقي منه تحت الشمس النارية لا يزيد على ثلاثين متراً من الواجهة؛ نصفه من مواد بناء وسقف قرميد تدفع إلى التفكير في أنه بيت دمي. والنصف الآخر من أخشاب غير مسجوجة. طرقت أعي الباب المغلق برفق شديد، ثم بقوة أكبر، وسألت من خلال النافذة:

- ألا يوجد أحد؟

قُتِح الباب صوارية وببطء شديد. وسألت امرأة من شبه الظلعة الداخلية:

- ماذا يمكنني أن أقدم لك؟

فردت أعي بتسلط ربما غير واعي:

- أنا لويسا ماركيز.

كان الباب المؤدي إلى الشارع قد قُتِح عندئذ تماماً، وظهرت امرأة ترتدي ملابس الحداد، معروقة وشاحية. نظرت إلينا من حياء أخرى. وفي علق الصالة، كان هناك رجل متقدم في السن، يهتز على كرسي متعبد. لإنهما المستأجران، وقد اقترحا بعد سنوات طويلة شراء البيت. ولكن لم يكن يبدو عليهما مظهر المشترين، ولم يكن البيت في حالة تشير اهتمام أحد ليشرته. وفقاً للبرقية التي تلقتها أعي، فإن المستأجرين يوافقان على أن يدفعوا، نقداً، نصف الثمن مقابل إيفال مرفق منها، ثم يدفعان الباقي عندما تُبرم عقود البيع خلال السنة. ولكن أحداً لم يكن يتذكر أن هناك زيارة منتطرة. وبعد محادثة طرشان طويلة، كان الشيء الوحيد الذي ظهر بوضوح، هو أنه لا وجود لأي اتفاق. وعندئذ التفتت أعي المتضايقة من تلك البلاهة، ومن الحر الملل، وألقت نظرة على ما حولها، وأفلت منها مع الزفرة:

- هذا البيت البائس، في آخر نفس.

فقال الرجل:

- بل هو أسوأ. وإذا كان لم يسقط على رؤوسنا، فبفضل ما

أنفقناه، للحفاظ عليه.

كانت لديهم قائمة بالإصلاحات التي يجب النظر فيها، إضافة إلى

أخرى اقتطعوها من الإيجار، إلى حد أننا كنا نحن المدينين لهم بالمال. ولكن أمي المعروفة بدمعتها السهلة، كانت قادرة كذلك على إظهار حزم مخيف لمواجهة مكاييد الحياة. ناقشت الأمر بصورة جيدة. أما أنا فلم أتدخل لأثني أدركت، منذ العقبة الأولى، أن المشتريين على حق. فليس هناك شيء واضح في البرقية حول تاريخ وطريقة البيع، ويُفهم منها بالمقابل أنه لا يد من أن يجري الاتفاق على ذلك. لقد كان موقفاً تقليدياً من ميول الأسرة الخدسية. ويمكن لي أن أتصور كيف جرى اتخاذ القرار، حول مائدة العشاء. في اللحظة نفسها التي وصلت بها البرقية. فقد كانوا عشرة أخوة، دون أن أحسب نفسي، لهم الحقوق نفسها. وأخيراً جمعت أمي بعض البيزوات من هنا، وبيزوات أخرى من هناك، وأعدت حقبتها التي كحائب التلاميذ، وسافرت دون أي موارد أخرى سوى تذكرة العودة.

راجعت أمي مع المستأجرة، مرة أخرى، كل شيء من البداية، وخلال أقل من نصف ساعة توصلنا إلى أنه ليست هناك أي صفقة. فنحن لم نتذكر. إضافة إلى أسباب أخرى لا يمكن تجاهزها، وهنا عقارباً يُشغل على البيت، ولم يجر فكه إلا بعد سنوات طويلة من ذلك، عندما تم بيع البيت قطعياً. ولهذا، حين حاولت المستأجرة أن تكرر مرة أخرى حجج الحلقة المفرغة نفسها، أوقفنها أمي بالحسن، ويحزم لا يقبل الاستئناف: - البيت لن يباع، ولنضع في حسابنا أننا جميعاً ولدنا هنا، وسنبوت هنا.

أمضينا بقية فترة المساء، ونحن ننتظر مجيء قطار العودة، في جمع فئات الحنين، في البيت الشبهي. لقد كان البيت بكامله لنا، ولكن

لم يكن صالحاً منه سوى القسم المؤخر الذي يظل على الشارع، حيث كانت مكاتب الجد. وما تبقى، مجرد هيكل من الجدران الخشبية المنخورة، وسقوف التوتياء الصدئة تحت رحمة الحراذين. أطلقت أمي الواقعة عند العتبة، صرخة قاطعة:

- ليس هذا هو البيت!

ولكنها لم تقل أي بيت تعني، فخلال طفولتها كلها، كانوا يصفونه بطرق متعددة، بحيث كان ثلاثة بيوت على الأقل، تتبدل شكلاً ومعنى، حسب من يروي. البيت الأصلي، مثلما سمعت من جدي بطريقته المزدرية، كان كوخ هنود. وأما الثاني الذي بناه الجدان، فكان جذراً من القصب والطين وسقوفاً من جريد النخيل، مؤلفاً من صالة فسيحة وجيدة الإضاءة، وغرفة طعام على شكل شرفة مع أزهار ذات ألوان بهيجة، وحجرتي نوم، وفناء فيه شجرة كمستنا، وعلاقة، وستان مزروع جيداً وزربية يعيش فيها الماعز، في مجتمع سلمي، مع الخنازير والدجاج. وحسب الرواية الأكثر ثباتاً، فإن هذا البيت قد تحول إلى رماح، بفعل مفرقة ألعاب نارية سقطت على السقف الذي من سعف النخيل، خلال الاحتفالات بيوم ٣٠ تموز، عيد الاستقلال، في سنة لا يذكرها أحد من سنوات حروينا الكثيرة. الشيء الوحيد الذي تبقى منه هو الأرضيات الإسمنتية وكتلة غرقتين مع باب يظل على الشارع، حيث كانت المكاتب التي عمل فيها بابايلو، عدة مرات، موظفاً عمومياً.

وفوق الأبقاض التي كانت لا تزال ساخنة، شيدت الأسرة ملجأها النهائي. بيتاً من ثماني حجرات متتالية في صف واحد، على امتداد عمر له حاجز من أزهار البيجونيا، حيث تجلس نساء الأسرة، للتطريز على

الطارة، وتبادل الحديث في برودة المساء. الغرف بسيطة ولا يمكن التمييز بينها. غير أن نظرة واحدة كانت كافية لأن أنتبه إلى أنه في كل تفصيل من تفاصيلها الكثيرة، هناك لحظة حاسمة من حياتي.

الحجرة الأولى كانت تستخدم كقاعة لاستقبال الزيارات، ومكتب رسمي للجد. وكانت فيها منضدة مكتب بستانارة، ومقعد كبير دوار بنوايض، ومروحة كهربائية، وخزانة كتب فارغة ليس فيها سوى كتاب واحد ضخّم ومفكك: معجم اللغة. وبلها مباشرة مشغل الصياغة، حيث كان الجد يمضي أفضل ساعات وقته في صنع أسماك ذهبية صغيرة ذات أجساد متفصلة، وعيون دقيقة من الزمرد، كانت توفر له المتعة أكثر مما تؤمن من الطعام. وهناك جرى استقبال بعض الشخصيات البارزة، ولا سيما السياسيين، وكبار الموظفين المتقاعدين، ومشاركين قدماء في الحروب. وكان بين تلك الزيارات، في مناسبتين مختلفتين، زيارتان تاريخيتان: الجنرال أوبيي أوربيي، والجنرال يشخامين هيريرا، اللذان تناولوا الغداء مع الأسرة. ومع ذلك، فإن ما سيذكره جدي طوال حياته، من أوربيي أوربيي، هو قناعته على المائدة: "إنه يأكل مثل عصفور".

حيز المكتب ومشغل الصياغة المشترك كان محظوراً على النساء، بتأثير ثقافتنا الكاريبية، مثلما كانت حانات القرية محظورة عليهن بأمر القاتون. ومع ذلك، فقد تحول المكان مع مرور الزمن إلى حجرة مستشفى، توفيت فيها العمة بئرا. وتحملت فيها وينقريدا ماركيز، شقيقة باباليلر، آخر شهور مرضها الطويل، ويذاً من هناك، يبدأ الفردوس المزعول للنساء الكثرات، المقيمات والعابرات، اللواتي يرون بالبيت خلال طفولتي. وقد كنت أنا الذكر الوحيد الذي تمتع بامتيازات العالمين كليهما.

غرفة الطعام لم تكن أكثر من توسع في الممر مع الشرفة التي تجلس عليها نساء البيت للخياطة. وكانت فيها مائدة تسع لستة عشر مدعواً طارئاً أو غير متوقع من باتون يومياً في قطار الظهيرة. تأملت أُمي من هناك أصص البيجونيا، وأصول النباتات المتعققة، وجذع الباسمين التي نخرها النمل، واستعادت أنفاسها:

- لم يكن نستطيع النفس أحياناً من عبق الباسمين الحار - قالت وهي تنظر إلى السماء المبهرة، وتنهتد من أعماق روحها وهي تضيف:- لكن ما أفتقده، منذ ذلك الحين، هو رعد الساعة الثالثة مساءً. لقد أذهلني، لأنني كنت أتذكر كذلك الدوي الوحيد الذي كان يوقظنا من القيلولة، وكأنه تدرج أحجار. ولكنني لم أنتبه قط إلى أنه لا يحدث إلا في الساعة الثالثة.

بعد الممر، هناك قاعة استقبال محجوزة للمناسبات الخاصة. ذلك أنه كان يُقدّم للزيارات اليومية العادية، بيرة مثلجة في حجرة المكتب، إذا كان الزائر رجلاً. وفي ممر البيجونيا، إذا كان الزائر امرأة. وهناك يبدأ عالم حجرات النوم الأسطوري. أولاً مخدع الجدين، مع بوابة كبيرة تؤدي إلى الحديقة، ولوحة حفر أزهار خشبية تحمل تاريخ البناء: ١٩٢٥. وهناك، دون أي إشعار مسبق، قدمت لي أُمي، بتفخيم انتصاري، مفاجأة لم تخطر لي على بال:

- وهنا وكنت أنت! - لم أكن أعرف ذلك من قبل، أو أنني نسيته. ولكننا وجدنا، في الغرفة التالية، المهد الذي كنت أنام فيه حتى الرابعة من عمري، وقد احتفظت به جدي إلى الأبد. كنت قد نسيته، ولكنني ما إن رأيته حتى

تذكرت نفسي. بأفروهل نوم مزين بأزهار زرقاء. كنت قد دشنته للنوم. وأنا أبكي صارخاً لكي يأتي إلى أحدهم وينزع عني الأقطعة الملونة بالبراز. كنت أقف على قدمي بصعوبة. وأنا أتثيث بقضبان المهد الصغير والهش. كأنه سلة موسى. وكانت تلك الحادثة سبب مجادلات وسخریات بين الأقارب والأصدقاء. نحن بدا لهم غسي في ذلك اليوم. عقلاً جداً بالمقارنة مع سني المبكرة. وخاصة عندما أصررت على أن سبب جزعي لم يكن القرف من يؤسي نفسه. وإنما خوفاً من تلويث الأفرهول الجديد. هذا يعني أنه لم تكن للأمر علاقة بأحكام النظافة. وإنما هي مشكلة جمالية. وأظن. من الطريقة التي حُفِظت بها الحادثة في ذاكرتي. أنها كانت معاشي الأولى ككاتبة.

كان هناك في تلك الغرفة كذلك. مذبح عليه قاتيل قديسين بالحجم البشري. وهم أكثر واقعية وغموضاً من قديسي الكنيسة. وهناك كانت تنام على اللوام. العمة فرانثيسكا سيمودوسيا ميخيا. وهي ابنة عمة ليجدي. كنا ندعوها العمة ماما. وكانت تعيش في البيت كمالكة وسيدة. منذ وفاة أبويها. أما أنا فكنت أنام في أرجوحة النوم المجاورة. مرغوباً من ارتعاش القديسين الذي يسببه المصباح القدسي الذي لم ينطفئ إلا بعد موت الجميع. وهناك أيضاً كانت تنام أمي وهي عازية. معلبة من رهبة القديسين.

وكانت في أقصى الممر. فرقتان محرمتان عليّ. في الأولى تعيش ابنة خالي سارا إميليو ماركيز. وهي ابنة الخال خوان دي ديوس قبل زواجه. وقد تولي الجدان تربيتها. وكانت. فضلاً عن مهابتها الطبيعية منذ طفولتها. تتمتع بشخصية قوية فتحت شهيتي الأدبية الأولى.

بجموعتها البديعة من حكايات كاييخا. المؤلفة برسوم ملونة. ولم تكن تسمح لي بالاقتراب منها. مخافة أن أفسد ترتيبها. وقد كان ذلك هو إحباطي الأول والمير ككاتبة.

الحجرة الأخيرة هي مستودع أمتعة قديمة وصناديق متقاعدة. أقيمت فضولي متبسطاً طوال سنوات. ولكنهم لم يسمحوا لي باستكشافها قط. وقد علمت فيما بعد. أنه كانت هناك أيضاً السبعون مبللة التي اشتراها جدي. عندما دعت أمي زميلاتها في صفها المدرسي. لقضاء إجازة في البيت.

قبالة قاتين الحجرين. وفي الممر نفسه. كان المطبخ الكبير. بمواقده البدائية التي من أحجار كلسية. والفرن الكبير الذي ينفعه الجدة. وهي صانعة خبز وحلوى محترقة. كانت حيوانات السكاكر الصغيرة التي تصنعها. تفعم الفجر برائحتهما الشذبة. وقد كان المطبخ مملكة النساء اللواتي يعشن أو يخدمن في البيت. وكن يغنين في كورال مع الجدة. وهن يساعدن في أعمالها المتنوعة. وكان الصوت المختلف هناك هو صوت لورينشو العظيم. البسقاء ذي المئة سنة الموروث عن جدي أمي. الذي يصرخ بشعارات مناهضة لإسبانيا وبغني أغنيات حرب الاستقلال. وكان ضعيف البصر إلى حد أنه سقط يوماً في قدر السانكوتشو^(١) ونجا بأعجوبة. لأن الماء في القدر لم يكن قد سخن كثيراً بعد. وفي العشرين من تموز من إحدى السنوات. في الساعة الثالثة بعد الظهر. ملأ البيت صخباً بصرخات وعجب:

(١) سانكوتشو sancocho. صنف طعام شائع في معظم بلدان أميركا الجنوبية. يتألف من جذور البكّة واللحم والموز الأخضر وحضار متنوعة أخرى. تسلق معاً على نار هادئة لوقت طويل.

- الثور، الثور! لقد جاء الثور!

لم يكن في البيت سوى النساء، إذ كان الرجال قد ذهبوا إلى موقع الاحتفال بالعيد الوطني، فظن أن صرخات البهائم ليست سوى هذيان خرف شيخوخته. ولكن نساء البيت، اللواتي يعرفن التكلم معه، لم يفهمن صرخاته إلا عندما اندفع ثور هائج، هارب من زرائب الساحة، إلى المطبخ بجوار سفينة، وراح ينطح عشوائياً أثاث المطبخ، والقدر على الموقد. كنت أضيء بالإنجاء المعاكس لزويعة النساء المزعزعات اللواتي حملنني في طريقهن وحبسنني معهن في حجرة المؤونة. كان خوار الثور النائم في المطبخ، ووقع حوائره على إسمنت المر، بهزان البيت هزاً. وفجأة أطل من كوة تهوية، فجسّد نخير أنفاسه الناري واحتقان عينيه الكبيرتين، الدم في عروقي. وعندما تمكن الرماحون من اقتياده إلى الزوية، كانت قد بدأت في البيت جوفة رواية الدراما التي امتدت أكثر من أسبوع، تتخلله قدور لا نهائية من القهوة وحلوى الزفاف، لمراقبة قصة التاجيات الصاخبات المعادة ألف مرة، وفي كل مرة، ببطولية أكثر.

لم يكن الفناء كبيراً جداً، ولكنه يضم تشكيلة متنوعة من الأشجار، وحماماً مشتركاً دون سقف، وبركة من الإسمنت لتجميع ماء المطر، ومصطبة مرتفعة يصعد إليها بسلم حش، ارتقاؤه نحو ثلاثة أمتار. وهناك كان اليرميالان الكبيران اللذان يملؤهما الجهد عند الفجر، بمضخة يدوية، وإلى الوراء إسطنبول الحبول المشيد من أخشاب دون سحج، وغرف الخدم. وأخيراً الفناء الخلفي الفسيح المزروع بأشجار مثمرة، وفيه المرحاض الوحيد الذي تُفرغ فيه المخاضات الهنديات، طوال النهار

والليل، صيولات البيت. وكانت أضخم الأشجار وأكثرها كثافة، هي شجرة كستناء على هامش العالم والزمن. ولا بد أنه مات مثبلاً على نفسه، تحت أغصانها المتشابكة، أكثر من كولونيلين اثنين من كولونيلات الحروب الأهلية الكثيرة، في القرن السابق.

كانت الأسرة قد جاءت إلى أراكاتكا، قبل سبع عشرة سنة من مولدي. عندما بدأت جلبة احتكار اليونانيد فروت كومباني للسور. وأحضرت الأسرة معها ابنها خوان دي ديوس، وهو في الحادية والعشرين، وابنتها، مارغريتا ماريا مينيئاتا دي ألاوكوي، في التاسعة عشرة، ولويسا سانتياغا، أمي، في الخامسة. وكانت الأسرة قد فقدت قبلها توامي إنث في حادث إجهاض، بعد أربعة شهور من الحمل. وعندها ولدت أمي، أعلنت الجدة أنه سيكون حملها الأخير. وكانت قد أكملت الثانية والأربعين من عمرها. وبعد نصف قرن تقريباً، وفي السن نفسها، وفي ظروف مطابقة، قالت أمي الشيء نفسه، عندما ولد إليخيرو غابريل، ابنها رقم أحد عشر.

الانتقال إلى أراكاتكا كان مقرراً من قبل الجددين، على أنه رحلة نسيان. وقد أخذوا خدمتهما، هنديين غواخيريين - أليريو وأبولينار - وهندية - ميمي - اشتروهم في موطنهم، بمئة بيزو لكل واحد، بعد إلغاء الرق. وكان الكولونيل يحمل معه كل ما هو ضروري ليخلف الماضي، أبعد ما يمكن عن ذكرياته السيئة، بلا حقه عذاب الضمير المشنوم، لقتله رجلاً في مبارزة شرف. كان يعرف المنطقة سابقاً منذ وقت طويل، عندما كان يمضي باتجاه لينغا في حملة حربية، وحضر بوصفه رئيس إدارة التموين العام، توقيع معاهدة نيرلانديا.

لم يُعد البيت الجديد الطمأنينة وراحة البال إلى الأسرة، لأن تأنيب الضمير كان وبيلاً، حتى إن آثاره استصل إلى حفيد ضال من الجيل الثالث. كانت أكثر الذكريات تواتراً وذخساً، والتي شكّلتها منها رواية مرتبة لما حدث، هي تلك التي قدمتها الجدة مينا، وكانت قد صارت عمياً، ونصف مخبولة، على الرغم من أنها، وسط الشائعات المتواصلة عن المأساة الوشيكة، كانت هي الوحيدة التي لم تعلم بخبر المباراة، إلا بعد وقوعها.

حدثت المأساة في بارانكيا، وهي قرية مسالمة ومزدهرة بمحاذاة جبال سييرا نيغادا، حيث تعلم الكولونيل من أبيه وجده، مهنة صياغة الذهب، وحيث رجع ليستقر، بعد توقيع اتفاقيات السلام. أما الخصم فكان مارداً بصغره بست عشرة سنة، لبرالياً ذا عظم أحمر، مثله، وكاثوليكيّاً ممارساً، ومزارعاً فقيراً، تزوج حديثاً وله ابنان، ويعمل اسم رجل طيب: ميداردو باتشيكو. ولا بد أن أكثر ما أحرز الكولونيل هو أن خصمه لم يكن أي واحد من الأعداء الذين لا يعرف وجوههم ممن واجهوه في ميادين المعارك، وإغا هو صديق قديم، ومحارب له، وجندي عنده في حرب الألف يوم، وعليه أن يواجهه حتى الموت، في الوقت الذي كان الاثنان يظنان أنهما قد كسبا السلام.

كانت تلك هي الحالة الأولى من الحياة الحقيقية التي استثارت غرائز الكاتب لدي، ولم أستطع أن أتظاهر منها حتى الآن. لقد أدركت، منذ أن بدأت الرعي، ضخامة حجم وتقل تلك المأساة في بيتنا. ولكن تفاصيلها بقيت غائمة، فأني التي لم تكن قد بلغت الثالثة من عمرها، تذكّرتها على الدوام، كحلم غير محتمل. وكان الكيمار يشربونها أمامي،

لنختلط الأمور عليّ، ولم أستطع قط، أن أعيد تركيب اللغز كاملاً، لأن كل واحد من كلا الفريقين، يركب كل قطعة على طريقته، والرواية الأكثر ثقة هي أن أم ميداردو باتشيكو حشته على النار لشرفها، لأنها أقيمت بتعليق شاتن نسبته إلى جدي. فنّد هذا الأخير الأمر باعتباره إشاعة كاذبة، واعتذر علناً من لحقت بهم الإهانة، ولكن ميداردو باتشيكو أصر على العدا، وانتهى به المطاف إلى التحول من مُساء إليه إلى مُسيء، بتوجيه شتائم خطيرة إلى الجد حول سلوكه كليبالي. ولم أعرف بصورة مؤكدة قط، فحوى تلك الشتائم. فتحداه الجد الذي جُرحت مجرياً، بدعوته إلى مبارزة حتى الموت ودون تحديد موعد ثابت.

المثال النموذجي لطبيعة الكولونيل، هو الوقت الذي تركه جراً، منذ التحدي، حتى المباراة. رتب أموره بتكتم مطلق، ليضمن أمان أسرته في الحيار الوحيد الذي يوفره له القدر: الموت أو السجن. بدأ، دون أدنى تسرع، يبيع القليل المتبقي له للمعيشة بعد الحرب الأخيرة: ورشة الصياغة ومزرعة صغيرة ورثها عن أبيه، كان يربى فيها ثبوس أضاح، ويزرع قطعة من أرضها بقصب السكر. وبعد ستة شهور من ذلك، خبأ في قاع إحدى الخزائن، ما تجتمع لديه من المال، وانتظر بصمت، اليوم الذي حدده هو نفسه: الثاني عشر من تشرين الأول ١٩٠٨، ذكرى اكتشاف أميركا.

كان ميداردو باتشيكو يعيش خارج القوية، ولكن الجد كان يعرف أنه لا يمكن له أن يتخلف في ذلك المساء، عن موكب علواء البيلاز، وقبل أن يخرج يحنأ عنه، كتب رسالة موجزة ورفيعة إلى امرأته، يقول لها فيها أين خبأ نقوده. وقدم لها بعض التعليمات الأخيرة حول مستقبل الأبناء، تركها

تحت الوسادة المشتركة، حيث ستجدها امرأته دون شك، عندما تستلقي لتنام. وخرج دون أي شعور من الوداع، لمواجهة ساعة نحسه.

وتشلف حتى أقل الروايات صلاحية، على أنه كان يوم اثنين، تقليدياً، من تشرين خريفى، بمطر كثيب من غيوم منخفضة وريح مائقة. وكان مبداردو باتشيكو يرتدي بدلة يوم الأحد. وقد انتهى لشوءه من دخول زقاق مسدود. عندما اعترض الكولونيل ماركيز طريقه. كلاهما كان مسلحاً. بعد سنوات من ذلك، وفي هذيانات جنونها، كان من عادة جدتي القول: "لقد منح الرب نيكولاسيتو فرصة العفو عن حياة ذلك الرجل البائس، ولكنه لم يعرف كيف يستغلها". ربما كانت تفكر في ذلك لأن الكولونيل قال لها إنه رأى وميض أسف في عيني الخصم الذي أخذ على حين غرة. وقال لها كذلك إنه عندها هوى الجسد الضخم كجذع شجرة سيبيا، على النباتات القصيرة، أصدر أنه دون كلمات، "مثل أنه هرّ مبلل". ونسبت التقاليد الشعبية إلى باباليلو، عبارة بليغة في اللحظة التي سلم فيها نفسه إلى العمد: "طلقة الشرف سبقت طلقة السلطة". وهي عبارة ونية للأسلوب الليبرالي في ذلك العهد، ولكنني لم أستطع موااسحتها مع أسلوب الجدة. الحقيقة أنه لم يكن هناك شهود. وكان يمكن للرواية القضائية التي قدمها الجدة ومعاصروه، من كلاً الجانبين، أن تكون الرواية المرجعية. ولكن لم يبق من ملف القضية، إذا كان قد وجد أصلاً، أي ملحق نور. ومن الروايات العديدة التي سمعتها حتى اليوم، لم أجد اثنتين متطابقتين.

شقت الواقعة أسر القرية، بين في ذلك أسرة الميت. فقد دعا قسم منها إلى النار للميت. بينما آوى آخرون في بيوتهم الجدة ترانكيلينا

إغواران وأبنائها، إلى أن هدأت مخاطر النار. لقد أثرت في هذه التفاصيل في طفولتي، إلى حد لم أحمل وزر خطيئة سلفي كما لو أنها خطيئتي وحسب، وإنما شعرت، مثلما أشعر الآن، وأنا أكتب عن ذلك، بالتعاطف مع أسرة الميت، أكثر من تعاطفي مع أسرتي.

نقلوا باباليلو إلى ريوهاشا من أجل مزيد من الأمن، ثم إلى سانتا مارتا بعد ذلك، حيث حكموا عليه سنة؛ يقضي نصفها في السجن ونصفها الآخر في نظام مفتوح. وفور إطلاق سراحه، سافر مع الأسرة لبعض الوقت، إلى بلدة تيناغا، ثم إلى بنما، حيث ألحبق ابناً آخر من علاقة غرامية عابرة. ثم انتقل أخيراً إلى بلدية أراكاتانكا الويلة والمتجهمة، بوظيفة محصل مالية في الإقليم، ولم يغد يخرج منذ ذلك الحين مسلحاً إلى الشارع، حتى في أسوأ أزمته العنف التي رافقت ثورة الموز، بل كان يفتي المسدس تحت وسادته. من أجل الدفاع عن البيت فقط.

كانت أراكاتانكا آنذاك أبعد ما تكون عن الملاة الهادئ والراكذ الذي حلم به، بعد كابوس مبداردو باتشيكو. فقد ولدت كمدسكرة لهنود تشيميل، ودخلت التاريخ يقدمها اليسرى، كبلدية ثانية، دون رب ودون قانون، في ناحية تيناغا، أذلها حتى الموز أكثر مما أثرتها. واسمها ليس اسم قرية، وإنما اسم نهر. إذ يقال للنهر "أرا" في لغة هنود تشيميل. أما كاتانكا فهي الكلمة التي تطلقها القبيلة الهندية على من يأمر. ولهذا لم تكن تسمي القرية أراكاتانكا، عند التحدث مع السكان الأصليين، وإنما يجب أن يكون الاسم: كاتانكا.

وعندما حاول الجدة تشجيع الأسرة، بأوهام أن النفود تندفق هناك

في الشوارع، قالت له مينا: المال هو روث الشيطان". أما بالنسبة إلى أمي، فكانت تلك هي ملكة كل الأراضي. وأقدم ما تذكّره فيها هي جالحة الجراد التي عاثت خراباً في الزروع، عندما كانت لا تزال صغيرة جداً. لقد كان يسمع مرور أسراب الجراد، وكأنه ربح أحجاراً، هكذا قالت لي عندما ذهبتا لبيع البيت، وكان على السكان المرعوبين، أن يتحصنوا في غرفهم، ولم يتم إلحاق الهزيمة بتلك الآفة إلا بقتون الشعرة.

في كل وقت، كانت تباغتني أعاصير جافة تقتلع سقوف المخوخ، وتتقضى على الموز الجديد، وتخلق القرية مغطاة بغبار كوكبي. وفي الصيف، تتكل بالماشي فترات جفاف رهيب، أو تهطل في الشتاء أقطار مميّنة عاتية تحوّل الشوارع إلى أنهار مائجة. فكان المهندسون الغريغويون يبحرون في قوارب من المطاط، بين حزم فراش غارقة وأنهار مميّنة. واليونانيون فروت كومباني، التي كانت أنظمتها ربهها الاصطناعية مسؤولة عن فوضى المياه. حوكت مسار النهر، عندما نبش أخطر تلك الفيضانات جشامين الموتى في المقبرة.

ولكن أسوأ الجوائح وأشدها شجماً، مع ذلك، هي الجائحة البشرية. فقد قذف قطارٌ يبدو مثل دمية، على رمال القرية المتوقدة، خنالة مغامر من كل أنحاء العالم، استولوا بقوة السلاح على السلطة في الشارع. فازدهار القرية الطائش حمل معه نمواً سكانياً، وفوضى اجتماعية، تجاوزت كل الحدود. كانت أراكاتاكا تبعد مئة قرص فقط، عن مستوطنة -سجن بويوس أيرس- على نهر فونداثيون، التي اعتاد سجنائها على الهرب في نهاية الأسبوع، ليلعبوا لعبة الرغبي في

القرية. لم تكن تشبه شيئاً إلى حد كبير مثلما تشبه القرى الناشئة في أقاليم الغرب، منذ أن بدأت محلي، في أراكاتاكا، محل أكواخ هنود التشمبيل التي من السعف والقصب، بيوت اليونانيون فروت كومباني الخشبية، ذات السقوف الصنيحية الموجهة، والتوافذ البارزة والشرفات المسقوفة المزينة بتيارات معرشة ذات أزهار معفرة. وسط تلك العاصفة الهوجاء من الوجوه غير المعروفة، ومن الخيام المرحلة على قارعة الطريق العام، ومن رجال يبدلون ملابسهم في الشارع، ونساء جالسات على صناديق الأمسعة، ومظلاتهن مفتوحة، ويغال ويغال ويغال تحتضر من الجوع، في زرائب الفئدق، كان من وصلوا أولاً هم الأخيرون، فقد صرنا الغرباء الدائمين... الدخلاء.

لم تكن المذابح تقتصر على مشاجرات أيام السبت وحسب، ففي مساء أحد الأيام، سمعنا صراخاً في الشارع، ورأينا مرور رجل دون رأس، ممتطياً حملاً. لقد جرى قطع رأسه بضربة منشار في تصفية حسابات، في مزارع الموز. وقد جرف تيار الساقية المتجمد الرأس. وفي تلك الليلة سمعتُ من جدي التفسير الدائم: "أمر يمثل هذه الفظاعة، لا يمكن أن يقدم عليه سوى كاتشاكو".

والكاتشاكو هم أهالي الهضبة، الذين لم تكن يميزهم عن بقية البشرية، بأصابعهم الفاترة الواهية، ونطقهم القاسد وحسب، وإنما كذلك بقروهم بأنهم مبعوثو العناية الإلهية. وقد كانت تلك الصورة مكروهة إلى حد أنه على إثر أعمال القمع الشرسة لإضرابات عمال الموز، على يد عسكريين الداخل، لم تكن نسمي رجال القوة العسكرية جنوداً، وإنما كاتشاكو. كنا ننظر إليهم باعتبارهم المتنفعين الوحيدين من السلطة

السياسية. وكثيرون منهم كانوا يتصرفون على أنهم كذلك. هكذا فقط، يمكن تفسير "ليلة أراكاتاكا السوداء"، وهي مذبحة أسطورية لها أثر غائم في الذاكرة الشعبية، ولا وجود لدليل واضح على أنها قد حدثت فعلاً.

بدأ ذلك في يوم سبت أسوأ من سواء، عندما دخل شخص محتوم من أبناء المنطقة، لم يحفظ التاريخ هويته، إلى حانة ليطلب كأس ماء لطفل يمسك بيده. فأراد غريب كان يشرب وحيداً، على الكونتوار، أن يجبر الطفل على شرب خمرة "الرؤم" بدلاً من الماء. حاول الأب منعه، ولكن الغريب أصر على طلبه. إلى أن هدر الطفل المذعور، دون أن يريد ذلك، كأس الشراب، بحركة من يده. عندئذ أقدم الغريب، دون مزيد من الجدل، على قتل الصغير، بطلق ناري.

لقد كان شبهاً آخر من أشباح طفولتي، وكان ياباليلو يذكرني به، كلما دخلنا معاً لتناول مرطب في إحدى الحانات، ولكن بطريقة خيالية يبدو معها هو نفسه، غير مصدق لما يرويه. لا بد أن ذلك حدث بعد وقت قصير من وصوله إلى أراكاتاكا، لأن أمي تذكره، من خلال الرعب الذي كانت تنسره الواقعة في كبار أسرتها. لم يُعرف عن المعتدي إلا أنه يتكلم بلهجة أهل مرتفعات الأنديز المتكلمة، ولهذا لم ينفلت انتقام القرية ضده وحسب، وإنما ضد أي واحد من الغريباء الكثيرين والمكروهين الذين يتكلمون لهجته، اندفعت، في الليل إلى الشوارع، زمر من الأهالي المسلحين يناجل متشبهي قطع قصب، وكانوا يسكون الكتلة غير واضحة المعالم التي يفاجنونها في الظلام. وبأمرونها:

- تكلم!

وسبب اللهجة وحدها، كانوا يمزقونه بضربات المتشيتي، دون أن تهضم عدالة تصرفهم، وسط أساليب التكلم المختلفة. وقد قُدر لدون رافائيل كينتيرو أورتيجا، زوج خالي وينفريدا ماركيز، الكاشاكو القح والمحبوب، أن يعيش ويوشك أن يحتفل بعيد ميلاده المشوي في الحياة، لأن جدي حسبه يومذاك في حجرة مؤونة، إلى أن هدأت الحواطر.

بلغ شقاء الأسرة ذروته، بعد سنتين من العيش في أراكاتاكا، بموت مرغريتا ماريا هينياتا التي كانت نور البيت. وقد بقيت صورتها الملتقطة بألة دغريتيب، معروضة في الصالة لسنوات طويلة، وبقي اسمها يتردد من جيل إلى آخر، كعلامة أخرى من العلامات المميزة للهوية الأسرية. الأجيال الحديثة لا تبدي تأثراً بتلك الفتاة ذات الصورة المجددة، والحزمة البيضاء، والمجدبة الطويلة حتى الخصر، والتي لا يستطيعون مطابقتها أبداً مع الصورة البلاغية لجدة جدتهم. ولكن لدي انطباعاً بأنه تحت وطأة تآنيب الضمير، والأحلام المحيطة بعالم أفضل، كانت حالة الاستنفار الدائمة تلك، في نظر جدي، هي أقرب ما تكون إلى السلام. فحتى موتها، بقيا بشعران بأنهما غريبان في أي مكان يحلائ فيهما.

لقد كانا كذلك، في الواقع. ولكن التمييز القوي كان صعباً، وسط حشود القطار التي جاثنا من العالم أجمع. وبالاندفاع الذي جاء به جدائي وذريتهما، وصل كذلك آل فيرغوسا، وآل دوران، وآل بيراكاتا، وداكوتي، وكورينا، بحثاً عن حياة أفضل، ومع اضطرابات الشعب. جاء الإيطاليون، والكناريون، والسوريون - وكنا نسميهم توركو - متسللين من حدود بروينشيا، بحثاً عن الحرية، وطرق أخرى في العيش افتقدوها في بلادهم. كان هناك أناس من كل الألوان والمستويات. بعضهم من

الهارين من جزيرة الشيطان - مستوطنة السجن القرنسية في غواياتا - وكانت أفكارهم، أكثر من جرائمهم العادية، هي السبب في صلاحتهم. أحدهم هو ريشيد بلقيش، وكان صحفياً فرنسياً محكوماً لأسباب سياسية، انتقل حارباً إلى منطقة الموز، وكشف في كتاب بارع الأحوال التي عرفها في سجنه. وبفضلهم جميعاً - الطيبين منهم والسيئين - كانت أراكاتا منذ نشوتها، بلاداً بلا حدود.

ولكن الجالية التي لا تُنسب بالنسبة إلينا هي الفنزويلية، وفي أحد بيوتها كان يستحم بغلاء ماء من البرك المتجمدة، عند الفجر، طالبان مراعاتنا في إجازة؛ رومولو شانكور، وراؤول ليوتي، اللذان سيصيران بعد نصف قرن من ذلك رئيسين لبلادهما على التوالي. أما أقرب الفنزويليين إلينا فكانت السيدة خوانا دي فريسي، وهي امرأة مهيبة وباهرة، تمتلك موهبة ثورانية في قص الحكايات. فأول قصة رسمية عرفتها هي جينوفيفا دي بربانتشي، وقد سمعتها منها، مع قصص أخرى من أبرز أعمال الأدب العالمي التي كانت توجزها إلى حكايات أطفال: الأوديسة، أرولات الغاضب، دون كيشوته، الكونت دي مونتكريستو. وقصص كثيرة من الكتاب المقدس.

لقد كانت ذرة الجذ إحدى أكثر الأسر احتراماً، ولكن أقلها نفوذاً في الوقت نفسه. وتقيرت مع ذلك بجدارها بالاحترام المتعارف به حتى من المسؤولين المحليين في شركة الموز. فهي من أسر المحاربين الليبراليين السابقين في الحروب الأهلية، ممن استقروا هناك، بعد الاتفاقتين الأخيرتين، وغودجهم الجيد هو الجنرال بيسخامين هيريرا، الذي كانت تُسمع في الأمسيات، من مزرعته في نيرلانديا، موسيقى فالسات كثيفة. من بوقه السلمي.

صارت أمي امرأة في ذلك المكان البائس، واحتلت حيز كل الغراميات، منذ أن قضى التيفوس على مرغريتا هاريا هيتياتا. وكانت هي نفسها أيضاً عيلة كثيرة المرض. فقد عاشت طفولة قلقة عانت فيها من نوبات الحمى الثلاثية. ولكنها عندما شقيت من آخرها، كان الشفاء نهائياً، وإلى الأبد، وتحت بصحة أتاحت لها الاحتفال بعيد ميلادها السابع والتسعين، مع أبنائها الأحد عشر، وأبناء زوجها الأربعة، وخمسة وستين حفيداً، وثمانية وثمانين ابن حفيد، وأربعة عشر من أحفاد أحفادها. دون عد من لم يُعرفوا قط. وقد ماتت ميتة طبيعية، يوم التاسع من حزيران ٢٠٠٢ في الساعة الثامنة والنصف ليلاً، عندما كنا نعد العدة للاحتفال بقرنها الأول في الحياة، وكانت وفاتها في اليوم نفسه، وفي الساعة نفسها تقريباً التي وضعت فيها نقطة النهاية لهذه المذكرات.

كانت قد ولدت في بارانكاس، في الخامس والعشرين من تموز ١٩٠٥، حين بدأت الأسرة تستعيد عافيتها من كارثة الحروب الأهلية. أطلقوا عليها اسمها الأول، تكريماً للذكرى لويسا ميخيا بيدال، أم الكولونيل، التي انقضت في ذلك اليوم، شهر على وفاتها. أما الاسم الثاني، فوقع عليها مصادفة، لتوافق يوم ميلادها مع عيد الرسول سانتياغو الأكبر^(١)، الذي قطع رأسه في أورشليم. وقد أخفت هي هذا الاسم الثاني طوال تصف حياتها، لأنه بدا لها اسماً ذكورياً وصاحباً، إلى أن جاء ابن عاق وكشفه في رواية^(٢).

(١) سانتياغو الأكبر Santiago el Mayor، هو يعقوب بن زندي، أحد حواري المسيح، قُتل في يروندس الملك.

(٢) الإشارة هنا إلى رواية المؤلف نفسه "قصة صوت معلن"، حيث يذكر اسمها في نهاية الفصل الأول.

كانت تلميذة مجتهدة، ياستثناه درس اليوناني، الذي فرضته عليها أمها التي لم تكن قادرة على تصور أنسة محترمة لا تكون عازفة بيانو بإربعة. وقد درست لويسا سانتياغا العزف، يدافع الطاعة والانصياع، طوال ثلاث سنوات، ثم هجرته يوماً بسبب الضجر من التمارين اليومية، غي قيظ القيلولة. ومع ذلك، فإن الميزة الوحيدة التي أفادتها، في زهرة العشرين من عمرها، هي قوة شخصيتها، حين اكتشفت الأسرة أنها مفتونة بحب عامل التلفراف الشاب والمتكبر في أراكاتاكا.

لقد كانت قصة تلك الغراميات المقموعة، واحدة أخرى من دهشات شبابه. فلكثرة ما سمعت روايتها من أبوي، كل منهما على حدة، صارت القصة مكتملة لدي تقريباً عندما كتبت روايتي الأولى، "الأوراق الغابلة"، وأنا في الثالثة والعشرين، ولكنني كنت واعياً أنه ما زال علي أن أتعلم الكثير حول فن القص الروائي. كلاهما كان راوياً ممتازاً، ولديه ذاكرة الحب السعيدة. ولكنهما بلغا في روايتهما حدوداً من الشغف العاطفي، لم أستطع معها تبيين الحدود بين الحياة والشعر، عندما قررت، أخيراً، بعد أن تجاوزت الخمسين، استخدام قصة جيهما في رواية "الحب في زمن الكوليرا".

لقد التقيا أول مرة، حسب رواية أمي، في مأتم طفل، لم يتمكن أي منهما تحديده لي. وكانت يومذاك تعني في الفناء، مع صديقاتها، وفق العادة الشعبية في قضاء ليالي الأبرياء، التسع، في إنشاد أغنيات الحب، وفجأة انضم صوت رجولي إلى الكورال. فالتفتن جميعهن لرؤيته وأصابعهن الارتباك حيال حسن مظهره. "ستزوج منه"، غنن هذه العبارة في قفلة المقطع، على إيقاع أكفهن. ولكن رؤيته لم تؤثر في أمي، وهذا

ما قالته: "لقد بدا لي أنه غريب آخر"، وكان كذلك بالفعل. فقد وصل لثوره من كارتاخينا دي إندباس، بعد أن قطع دراسة الطب والصيدلة، بسبب شح الموارد، وانطلق في حياة أقرب إلى الابتذال والسوقية، في عدد من قرى المنطقة، ممارساً مهنة عامل التلفراف المحدث. إحدى صوره في تلك الأيام، تبديه بالمظهر الخاطئ لمئات فقير. فهو يرتدي قميصاً قائماً من حرير التفتا، مع سترة ذات أربعة أزوار، ضيقة جداً، على موضة تلك الأيام، وياقة قاسية، وربطة عنق عريضة، وقبعة من القش. وكان يضع كذلك نظارة من الشرح الدارج، عدسها مستديرتان من زجاج طبيعي وإطارها رقيق. من عرفوه في تلك الفترة، كانوا يرون فيه بوهيمياً محباً للسهر، وزيراً نساء، ولكنه لم يشرب مع ذلك قطرة خمر واحدة، ولم يدخن سيجارة واحدة طوال حياته المديدة.

كانت تلك هي أول مرة تراه فيها أمي، أما هو بالمقابل، فكان قد رآها في قداس الساعة الثامنة، يوم الأحد السابق، وهي بحراسة العمة فرانثيسكا سيمودوسيا التي كانت وصيفتها المرافقة، منذ أن عادت من المدرسة. ثم رآها مرة أخرى يوم الثلاثاء التالي، تخيطان تحت أشجار اللوز، عند بوابة البيت، وهكذا كان يعرف في ليلة المأتم أنها ابنة الكولونيل نيكولاس ماركيز الذي جاء حاملاً له عدة رسائل توصية. وعرفت هي أيضاً، منذ ذلك الحين، أنه عازب وصقليل الغراميات، وأنه يصيب نباحاً قوياً لطلاوة لسانه، وتدفع شاعريته، ورقصه الظريف على وقع الموسيقى الدارجة، وعاطفيته المدروسة مسبقاً التي يعرف بها الكمان. وقد روت لي أمي أن من كان يسمعه يعزف فجراً، لا يتمكن من كبح رغبته في البكاء. وكانت بطاقة تقديمه لنفسه في المجتمع هي

معروفة "عندما انتهت الرقصة". وهي مقطوعة فالس ذات رومنتيكية مستترفة، ضمها إلى قائمة معزوفاته وصارت لحناً لا بد منه في جولات العزف الليلية (السيرنادات)، جوازات المرور المحبسة هذه، وجاذبيته الشخصية، فتحت له أبواب البيت، وأتاحت له التردد بكثرة على مائدة الغداء العائلية. وقد تبنته العمة فرانشيسكا، المتحدرة من قرية كارمن دي بوليفار، دون تحفظ، عندما علمت أنه مولود في سينثي، وهي قرية قريبة من قريتها. وكانت لويسا سانتياغا تستمتع في الحفلات الاجتماعية، بحيله في الإغواء، ولكن لم يدر في خلدها قط أنه يسعى إلى ما هو أكثر من ذلك. بل على العكس؛ فقد كانت علاقتها الطيبة تستند، قبل كل شيء، إلى أنها كانت تشكل واجهة لغرامياته الخفية مع إحدى زميلاتهما في المدرسة، وقد وافقت على أن تكون شبيبته في زفافه. وصار منذ ذلك الحين يدعوها شبيبتي، بينما تدعوه هي فليوتي^(١). ومن السهل، في مثل هذا الوضع، تصور مدى دهشة لويسا سانتياغا في إحدى ليالي حفلات الرقص، عندما أقدم عامل التلغراف الجري، على انتزاع الوردة المعلقة في عروة ياقته، وقال لها:

- أسلمك حياتي في هذه الوردة.

لم تكن حركة مرتجلة، هذا ما قاله مرات كثيرة، وإنما جاءت بعد أن تعرك عليهن جميعاً، وتوصل إلى أن لويسا سانتياغا قد خلقت له. أما هي لفهمت حركة تقديم الوردة، على أنها دعابة أخرى من مزاحه التودوي الذي اعتاد ممارسته مع صديقاتها، وكانت مفتتحة بذلك، إلى

(١) الفليوتي هي التسمية التي يطلقها الغراب على ابنه بالمعاد، أو الاسبين على العريس الذي يكفله.

حد أنها تركت الوردة منسبة هنالك، أينما اتفق، وانتبه هو إلى ذلك. لم تكن قد عرفت قبل ذلك موي متودد سري واحد، وهو شاعر غير محظوظ، وصديق طيب لم يتمكن من الوصول قط إلى قلبها بأشعاره الملتهية. ومع ذلك، فقد عكزت وردة غابرييل إليخو أحلامها، بغضب لا تفسير له. في محادثتنا الرسمية الأولى عن غرامياتها، وكانت مثقلة بالأبناء، اعترفت لي: "لم أستطع النوم لغضبي من كوني أفكر فيه، ولكن ما كان يغضبي أكثر، هو أنني كلما ازدودت غضباً، كان تفكيري فيه يزداد". وتحملت خلال بقية الأسبوع مشقة رعب رؤيته وعذاب عدم التمكن من رؤيته، وتحولاً من اشبهتة ولليون، كما كانا، إلى التعامل كمن لا يعرف أحدهما الآخر. وفي إحدى تلك الأسببات، بينما كانتا تخططان تحت أشجار اللوز، وخزت العمة فرانشيسكا ابنة أخيها بخبثها الهندي:

- قيل لي إن هناك من قدم لك وردة.

ومثلما يحدث عادة، كانت لويسا سانتياغا هي آخر من يعلم بأن عواصف قلبها قد صارت موضوعاً متداولاً بين الجميع. وفي المحادثات الكثيرة التي أجريتها معها ومع أبي، كانا متفقين على أن الحب الصاغق مرٌ بثلاث مناسبات حاسمة. الأولى كانت في القديس الكبير، في يوم أحد الشعانين. وكانت هي تجلس مع العمة فرانشيسكا على مقعد من جهة المشددين، عندما تعرفت على وقع خطوات كعبه الفلامنكيين على آجر الأرضية، ثم رأتة يمر قريباً جداً إلى حد أنها شمّت رائحة عطره الفاتر كعريس. لم يبد على العمة فرانشيسكا أنها رأتة، وبدأ أنه هو أيضاً لم يرها. ولكنه في الحقيقة كان قد دبر كل شيء مسبقاً، فقد لحق بهما عندما مرتا على مكتب التلغراف. وبقي واقفاً إلى جوار أقرب الأعمدة

من البوابة، بحيث يستطيع رؤيتها مديرة ظهرها، بينما لا يستطيع هي رؤيته. وبعد عدة دقائق متوترة، لم تستطع لويسا سانتياغا كبح لهفتها. ونظرت نحو الباب من فوق كتفها، وأحسّت عندئذ بأنها تموت من الغضب، فقد كان ينظر إليها، وتقاطعت نظراتهما. "كان هذا هو ما خططتُ له بالضبط"، اعناد أبي أن يقول ذلك، بسعادة، كلما أعاد قص الحكاية لي في شيخوخته. أما أبي بالمقابل، فلم قل من ترديد القول بأنها لم تستطع، طوال ثلاثة أيام، السيطرة على غضبها، لوقوعها في اللغ الذي نصبه لها.

المناسبة الثانية كانت رسالة كتبها إليها. لم تكن الرسالة التي انتظرتها، من شاعر وعازف كمان في ساعات الفجر المستترة، وإنما رسالة أمّ، تطالبها بالرد، قبل أن يسافر إلى سانتا مارثا، في الأسبوع التالي. لم تردّ عليه. وجبت نفسها في حجرتها، مصمة على قتل تلك الدودة التي لا تبقي لها أنقاساً للعيش، إلى أن حاولت العمة فرانسيسكا أن تقنعها بأن تستسلم دفعة واحدة، قبل أن يقوت الأوان. وفي محاولة منها للتغلب على مقاومتها، روت لها القصة النموذجية لحوفينتينو تريسيو، ذلك العاشق الذي كان يرباط تحت شرفة محبوبته المستحيلة كل ليلة، منذ الساعة السادسة حتى العاشرة. فكأنه بكل أشكال الصد التي خطرت لها، وانتهى بها الأمر إلى أن تُفرغ عليه، من الشرفة، ليلة بعد ليلة، مبرولة صغيرة مملّثة بالبول. ولكنها لم تستطع إبعاده. وبعد كل أشكال تلك الاعتداءات التعصيديّة - ومشأنة بتفاني ذلك الحب الذي لا يُهزم - تزوجت منه. ولكن قصة حب أبويّ لم تصل إلى تلك الحدود.

مناسبة الحصار الثالثة، كانت حفلة وُقاف شديدة الأبهة، دعي إليها كلاهما كإثبتي شرف. لم تجد لويسا سانتياغا ذريعة للتملص من التزام شديد القرب من الأسرة. ولكن غابرييل إليخيو كان قد فكر بذلك أيضاً، وذهب إلى الحفلة، وهو مستعد لكل شيء. لم تستطع هي كبح جماح قلبها عندما رأتها يجتاز القاعة بتصميم بالغ الوضوح، ويدعوها إلى الرقصة الأولى. وقد قالت لي: "كان الدم يقور بقوة في جسدي. ولم أعد أعرف إذا ما كان السبب هو الغضب أم الحرف". وانتهى هو إلى ذلك، ووجه ضربة قاسية: "لم تعودني مضطرة إلى أن تقولي لي نعم، لأنّ قلبك يقولها لي".

تركته هي دون مزيد من ألف والدوران، وخلفته مسرّاً في القاعة، في منتصف الرقصة، ولكن أبي فهم الأمر على طريقته.
- بقيت سعيلاً - هذا ما قال لي.

لم تستطع لويسا سانتياغا كبح الضغينة التي أحسّت بها، ضد نفسها، عندما أيقظتها في الفجر مغازلّات الفالس المسعوم: "عندما انتهى الرقص قبيل الفجر". وفي أولى ساعات صباح اليوم التالي، أعادت إلى غابرييل إليخيو كل هداياه. هذا الصد المجحف، والأخواب عن تركها له في حلبة الرقص، أثناء حفلة الزفاف، كانت أشبه برياش ألقيت في الهواء، ولم تعد هناك ريح قادرة على إرجاعها. اعتبر الجميع أن تلك هي النهاية غير المجيدة لعاصفة صيفية، وقد تعزّز الانطباع لدى إصابة لويسا سانتياغا بنكسة الحمى الثلاثية التي كانت تعاني منها في طفولتها، فأخذتها أمها لتخفف عنها إلى قرية مانوري، وهي ركن فردوسي مناخم لسلسلة جبال سييرا نيغادا. وقد أنكر كلاهما على الدوام

وجود أي اتصال بينهما، خلال تلك الشهور، ولكن لا يمكن تصديق ذلك بسهولة. فعندما رجعت، وقد تعافت من علتها، صاروا يبدوان وكأنهما قد تعافيا كذلك من شكوكهما. ويقول أبي إنه ذهب لانتظارها في المحطة، لأنه قرأ البرقية التي أرسلتها مينا معلنة عودتها إلى البيت. وقد أحسن، من الطريقة التي شددت بها لويسا سانتياغا على يده لدى المصافحة، بما يشبه إشارة مشفرة ماسونية، فسرها هو على أنها رسالة حب، وقد أنكرت هي ذلك دوماً، بالخفر والحياء، اللذين تستحضر بهما ذكريات تلك السنوات. ولكن الحقيقة أنها صارا منذ ذلك الحين، يظهران معاً بقدر أقل من التكميم. ولم يكن يتقص إلا النهاية التي وفرتها العمة فرانيسكا، في الأسبوع التالي، بينما هما تخطيطان في ممر أزهار البيجونيا:

- لقد علقت مينا بالأمر،

وقد قالت لويسا سانتياغا، على الدوام، إن معارضة الأسرة كانت السبب في تجاوز حواجز السيل الذي كانت تكبحه في قلبها، منذ الليلة التي تركت فيها المتردد إليها، مسمراً في منتصف حلبة الرقص. كانت حرباً ضارية. وقد حاول الكولونيل البقاء، على هامشها، ولكنه لم يستطع تجنب الشعور بالذنب الذي واجهته به مينا، عندما انتهت إلى أنه لم يكن هو نفسه بريئاً كذلك، بالقدر الذي يظهره. كان واضحاً للجميع أن عدم التسامح لم يكن منه، وإنما منها، مع أن عدم التسامح كان مدرجاً، في الحقيقة، في قانون القبيلة التي ترى أن أي عريس هو شخص دخيل. هذا التحامل المسبق المتوارث الذي ما زالت جذواته موجودة تحت الرمال، جعلت منا جمعية نساء عازيات ورجالات بسرراويل دون فتحات مع أعداد كبيرة من أبناء الأزقة غير الشرعيين.

انقسم الأصدقاء، حسب السن، مع العاشقين أو ضدهما، ومن لم يكن لهم موقف جذري، جاءت الأحداث لتقرضه عليهم. الشباب اتخذوا موقف المؤيدين المتواطينين بانهاج، وخاصة معه، إذ تمتع متلذذاً بشرطه كضحية تكفير عن تحامل الأفكار الاجتماعية المسبقة. أما غالبية الكبار بالمقابل، فكاثرت ترى في لويسا سانتياغا، أثمن جوهرة في أسرة ثرية ومتنفذة، لا يمكن لمعامل تلغراف وصولي وغريب أن يتودد إليها بدافع الحب، وإنما بدافع المصلحة. وقد تصدت هي نفسها لمعارضتها، رغم ما عُرف عنها من انصياع وخضوع، بضراوة لبوة تُفَسِّس. ونسي أحد أشد نراعاتها البتية الكثيرة جفاءً، فقدت مينا السيطرة على نفسها، ووقعت في وجه ابنها سكين تقطيع الخبز. فواجهتها لويسا سانتياغا برباطة جأش، ولكن مينا انصبحت فوراً إلى فتوة غضبها الإجرامي، فأقلتت السكين وصرخت مذعورة: "زيادا". ووضعت يدها على جسر الموقد، في حركة تكفير فظة.

إحدى الحجج القوية ضد غابرييل إليخير، هي وضعه كابن طبيعي لأم عازية أنجبته وهي في سن الرابعة عشرة المتواضعة، من عشرة عابرة مع معلم مدرسة. كان اسمها أرخيمينا غارثيا باتيميننا، وهي بيضاء بشوكة القوام، ذات روح حرة، أنجبت ستة أبناء آخرين وابنتين من ثلاثة آباء مختلفين، لم تتزوج أباً منهم أو تسكن معه تحت سقف مشترك. وكما كانت تعيش في قرية سينشي، حيث ولدت، وتربى ذريتها بالأطفال ومزاج مستقل وسعيد كنا لتبناء، نحن أحفادها، ليوم أحد شعائين، كان غابرييل إليخير نموذجاً متميزاً لتلك السلالة الرثة. فقد عاش، منذ بلوغه السابعة عشرة، خمس عشيقات عذراوات، حسب ما كشف

عنه لأمي، كفعّل توبة، في ليلة زفافهما على متن سفينة ريوهاشما
 الشراعية التي في حالة برئى لها والمصفوعة بالعاصفة، اعترف لها بأنه
 في علاقته بإحداهن، وهو عامل تلغراف في قرية آتشي، في الثامنة
 عشرة من عمره، أنجب منها ابناً، يدعى ايلاردو، يوشك أن يتم الثالثة
 من عمره. وفي علاقته بواحدة أخرى، وهو عامل تلغراف في آياهيل،
 وكان في العشرين من عمره، أنجب ابنة عمرها شهر، وهو لا يعرفها،
 وتدعى كارمن روسا. وقد وعد أم الطفلة بالعودة إليها للزواج منها،
 وكان لا يزال يحافظ على وعده حياً عندما انصرف مسار حياته بحب
 لريسا سانتياغا. كان قد اعترف بابنه الأكبر، أمام كاتب العدل،
 وسيعقل ذلك في ما بعد مع ابنته. ولكن ذلك الاعتراف لم يكن سوى
 شكليات بيروقراطية لا قيمة لها أمام القانون، ومن المفاجئ أن يسبب ذلك
 السلوك الشاذ مخاوف أخلاقية للكولونيل هاركيز الذي أنجب، فضلاً
 عن أبنائه الثلاثة الرسميين، تسعة أبناء آخرين من أمهات مختلفات،
 قبل زواجه وبعده، وكانت زوجته تستقبلهم جميعهم، كما لو أنهم
 أبناءها.

ليس بإمكانني أن أحدد متى علمت بأول أخبار تلك الوقائع، ولكن
 تهتكات أسلاقي لم تكن تهمني على أي حال. أما أسماء الأسرة بالمقابل،
 فكانت تشد انتباهي، لأنها تبدو لي فريدة. أولاً أسماء أسرتي من جهة
 أمي: ترانكيلينا، وينفرايدا، فرانسيسكا سيمودوسيا. وفيما بعد، اسم
 جدتي لأبي أرخيمبرو، واسم أبويها، لوثانا واميناداب. وربما من هنا
 يأتيني اليقين الراسخ بأن شخصيات رواياتي لن يسبوا على أقدامهم
 بالذات، ما داموا لا يتلون اسماً يتطابق مع طريقتهم في العيش.

وقد تفاقمت الحرج ضد غابرييل إليخيرو لكونه عضواً نشيطاً في
 الحزب المحافظ الذي خاض الكولونيل هاركيز حروبه ضده. كان السلام قد
 استتب جزئياً فقط، منذ توقيع اتفاقيتي نيرلانديا وويسكونسين، ذلك أن
 المركزية المشقوقعة كانت لا تزال في السلطة، وكان لا بد من مرور زمن
 طويل قبل أن يتخلى النبلاء والليبراليون عن التكشير عن أنيابهم. ربما
 كانت ميول العاشق المحافظة، ناشئة عن عدوى أسرية أكثر مما هي قناعة
 فكرية. ولكنهم كانوا يأخذون الأمر بالحسبان أكثر من اهتمامهم بسمات
 أخرى في طبيعته الطيبة، مثل ذكائه المتيقظ على الدوام. ونزاهته المجربة.
 كان أبي رجلاً يصعب استشفائه وإرضائه، وكان دائماً أقفر مما يبدو
 عليه. وقد اعتبر الفقر عدواً بغيضاً لم يستسلم له قط ولم يتمكن كذلك
 من هزيمته. وبعزة النفس والشجاعة نفسها «تحمل عواقب غرامياته مع
 لريسا سانتياغا، في الهجرة الخلفية من مكتب التلغراف في أراكاتاكّا،
 حيث كانت لديه أرجوحة نوم معلقة على الدوام، ينام عليها وحيداً. ومع
 ذلك، كان هناك، إلى جواره، سرير غارب ضيق أيضاً، نوابضة مزينة
 جيداً، تحسباً لما يمكن أن يوقره له الليل. في إحدى الفترات، شعرتُ بميل
 إلى عاداته كحصيد متخف. ولكن الحياة علمتني بأنها أشد حالات العزلة
 قهلاً، وأحسست بشققة كبيرة عليه.

والى ما قبل موته بقليل، كنت أسمعُه بروي كيف أنه اضطر في
 أحد تلك الأيام العصبية إلى الذهاب مع بعض الأصدقاء إلى بيت
 الكولونيل، فدعوا الجميع للجلوس باستثنائه هو. ولكن أسرتها أنكرت
 ذلك دعواً، وعزته إلى جذوة الاستنباه الكامنة في نفس أبي. أو إلى
 ذكرى زائفة على الأقل. ولكن في إحدى المرات، عندما كانت جدتي في

حوالي المئة من عمرها، أفلت منها في هذياناتها الدراماتيكية التي لم تكن تبدو استذكّاراً لأحداث، وإنما عودة لعيشها من جديد.

- ها هو هناك، ذلك الرجل المسكين، واقفاً عند باب الصالة. ونيكولاسيتو لم يدعه للجلوس - قالت ذلك متألّمة حقاً.

وكنّت متبجّطاً على الدوام لمثل هذه الإيحاءات المبهمة، فسألنها من هو الرجل. وردت عليّ بجفاً:

- إنه غارسيا، ذر الكمان.

وسط كل تلك الحماقات الكثيرة، كان أقل ما يشبه طريقة والذي في الحياة، هو شراؤه مسدساً محسباً لما يمكن أن يحدث مع محارب في استراحة، مثل الكولونيل غاركيو. كان مسدساً معتبراً من نوع مسيث أند ويسن ٢٨ طويل، لا أحد يدري كم عدد الذين امتلكوه سابقاً، وكم هناك من القتلى على كاهله. الشيء المؤكد الوحيد هو أنه لم يطلق النار منه قط ولو على سبيل الاحتياط أو الفضول. وقد وجدنا نحن أبناء الكبار، المدس، بعد سنوات من ذلك، وفيه رصاصاته الخمس الأصلية، في خزانة أمتعة غير مجددة، إلى جانب كمان السيرنادات.

لم تشب صرامة الأسرة من عزيمته غابرييل إليخيو ولويسا سانتياغا. وكان بإمكانهما اللقاء خفية، في أول الأمر، في بيوت الأصدقاء، ولكن عندما أطبق الحصار عليهما تماماً، صارت وسيلة التواصل الوحيدة هي الرسائل التي يجري تلقيها وإرسالها بأساليب مبتكرة، وكان كل منهما يرى الآخر من بعيد، عندما متعها ذوها من حضور الحفلات التي يدعى إليها. ولكن القمع بلغ حدوداً صارمة، بحيث لم يعد هناك من يشجّر على تحدي نوبات غضب ترانكيلينا إغواران. ولم يعد العاشقان

للظهور أمام الناس. وعندما لم يتبق هناك أي ثغرة لتبادل الرسائل الخفية، ابتدع الخطيبان أساليب تشبه أساليب الناجين من الفرق. فقد تمكنت هي من إخفاء رسالة تهنئة في قالب حلوى (بودين) أوصى عليه أحدهم من أجل عيد ميلاد غابرييل إليخيو. ولم يكن هو بدوره يفوت فرصة ليرسل إليها برقيات مزيفة وبريتة مع الرسالة الحقيقية المشفرة أو المكتوبة بحبر سرّي. صار تواطؤ العمة فرانشيسكا عندئذ جلياً جداً، على الرغم من إنكارها الحاسم، مما أثر لأول مرة على سلطتها في البيت، ولم يعد يسمح لها بمرافقة ابنة أخيها، إلا وهي تخطط في ظل أشجار اللوز. وعندئذ صار غابرييل إليخيو يبعث رسائل حب من نافذة الدكتور ألفريدو باروثا، على الرصيف المقابل، بإشارات الصم والبكم اليدوية. وقد اتفقت هي تلك الإشارات، على أحسن وجه، إلى حد أنها كانت تتمكن، في لحظات سهو العمة، من تبادل أحاديث حميمة مع خطيبها. وقد كانت تلك واحدة من الحبل العديدة التي ابتدعتها أدريانا ببرد وغور، صديقة لويسا سانتياغا الروحية، وأشد المتواطئات معها عوناً وجرأة.

مناورات المواساة تلك، كانت تكفيهما للبقاء حين على نار هادئة، إلى أن تلقى غابرييل إليخيو رسالة من لويسا سانتياغا تنذره بالخطر، مما اضطره إلى إعادة نظر حاسمة. كانت قد كتبتها بسرعة، على ورق تواليت، وأودعتها الخبر المشؤوم بأن أبويها قررا أخذها إلى بارانكاس، بالتنقل من قرية إلى قرية، كعلاج قاس من داء غرامبانتها. ولن تكون رحلة نظامية في ليلة نحب تقضيها في سفينة ويوهاشما، وإنما عبر طريق الجبال الرهيب، في سلسلة سييرا نيغادا، على متن البغال، وفي العربات، لاجتياز مقاطعة باديا الفسيحة.

"كنتُ أفضل الموت على تلك الرحلة"، هذا ما قالته لي أمي يوم ذهبتا لبيع البيت. وقد حاولت الموت فعلاً، بحبس نفسها وراء باب غرفتها المقفّل، والعيش على الخبز والماء. طوال ثلاثة أيام، إلى أن تغلب عليها الخوف التوقيري الذي كانت تشعر به تجاه أبيها. أدرك غابرييل إليخيو أن التوتر قد بلغ أقصى حدوده، واتخذ قراراً متطرفاً أيضاً، ولكنه مرن. فاجتاز الشارع بخطوات واسعة، من بيت الدكتور باربوثا، إلى ظل شجرات اللوز، ووقف أمام المراتين اللتين انتظرتاه مرعوبتين، وشغل الحياطة في حضنيهما.

- اعملي معروفاً بتركي وحيناً للحظة مع الآنسة - قال للعملة فرانثيسكا - لدي شيء مهم أريد قوله لها على انفراد.

فردت عليه العملة:

- وقع ليس هناك ما يعتنيها ولا يكتفي سناعه.

فقال:

- لن أقوله إذاً. ولكنني أحذرك من أنك ستكونين مسؤولة عما سيحدث.

توسلت لويسا سانتياغا إلى عمتها لتتركهما وحيدتين، وجازفت بتحمل المسؤولية. عندئذ أعرب لها غابرييل إليخيو عن موافقته على قيامها بالرحلة مع أبيها، مهما كانت الطريقة والمدة. ولكن شرطاً أن تعاهده تحت القسم بأنها ستتزوج منه، وفعلت هي ذلك راضية، وأضافت على حسابها ومسؤوليتها أنه لا يمكن إلا للموت وحده، أن يحول دون ذلك. وقد كانت تلك السنة فرصة لكليهما، كي يشيئا جدية عهدهما. ولكن أياً منهما لم يكن يتصور كم سيكلفهما ذلك. استمر الجزء الأول

من الرحلة في قافلة يتألفين، صدة أسبوعين، على متن البغال. عبر الدروب الجبلية الضيقة في سلسلة سيرا نيقادا. وكانت ترافقهم تشون - تصغير محبب لاسم إنكارناثيون - خادمة وينفريدا، والتي انضمت إلى الأسرة منذ مغادرتها بارانكاس. كان الكولونيل يعرف جيداً ذلك الطريق الوعر، حيث خلف سلسلة من الأبناس، في لبالي حروبه المديدة. ولكن زوجته فضلت سلوك ذلك الطريق، دون أن تعرفه. بسبب ذكرياتها السيئة عن الرحلة في السفينة الشراعية. أما أمي التي كانت تحتطي بغلة لأول مرة، فكانت الرحلة بالنسبة لها كإبريس شمس عارية وأمطاراً ضارية، وكانت تفضي وروحها معلقة بخيط، بسبب بخار الوديان السحيقة المنوم. وكان تفكيرها بخطيب غير مؤكد، ببدلات منتصف الليل التي يرتديها، وكسان الفجر، يبدو إحدى سخريات المخيلة. في اليوم الرابع من الرحلة، عندما أحست بأنها عاجزة عن البقاء على قيد الحياة، هددت أنها بإلقاء نفسها إلى الهاوية ما لم يعودوا إلى البيت. وقررت مينا، الخائفة أكثر منها، العودة. ولكن رئيس القافلة بين لها على الخريطة بأنه لم يعد هناك فرق بين العودة ومواصلة الرحلة. وقد جاءتهم الراحة في اليوم الحادي عشر، عندما ملحوا من آخر منعطف جبلي سهل بإيديوار المشرق. قبل أن تنتهي المرحلة الأولى، كان غابرييل إليخيو قد أمّن اتصالاً دائماً مع الخطيبة الجوالّة، بفضل تواطؤ عاملَي التلغراف في القرى السبع التي ستوقّف فيها هي وأميها، قبل الوصول إلى بارانكاس، وساهمت لويسا سانتياغا أيضاً بما هو مترتب عليها. فقد كانت أنحاه بروينثيا كلها تغص بأناس من آل إغسواران وكوتيس، يمتلك وعينهم لأصول سلالتهم قوة شبكة معقدة وكثيفة. وقد نجحت هي في استئصالهم إلى

جانيها. فأتاح لها ذلك الحفاظ على مراسلات مجموعة مع غابرييل إليخيو. ابتداءً من باييدويار، حيث قضت مدة ثلاثة أشهر، وحتى نهاية الرحلة، بعد سنة من ذلك تقريباً. كان يكفبها أن تر على مكتب التلغراف في كل قرية، بالتواظف مع قرية شابة وصحتمسة، لكي تتلقى رسائله وترد عليها. وقد لعبت تشون، كاتبة الأسرار الصوت، دوراً لا يضمن، لأنها كانت تخفي الرسائل بين ثيابها، دون أن تشير قلق لوسا سانتياغا أو تخدش حيائها، لأنها لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة، ويمكنها أن تتحمل الموت حفاظاً على السر.

بعد ستين سنة من ذلك تقريباً، عندما كنتُ أحاول إنقاذ تلك الذكريات، من أجل "الحب في زمن الكوليرا"، روايتي الخامسة، سألت أبي إذا ما كانت هناك ضمن مصطلحات موظفي التلغراف، كلمة محددة لعملية وصل مكتب بآخر. ولم يكن عليه أن يفكر بالجواب، بل قال على الفور: "تعشيق". هذه الكلمة موجودة في المعاجم، ليس للاستخدام المحد الذي أحتاجه، ولكنها بدت لي دقيقة وتفي تماماً بما أريد. فالاتصال بمختلف المكاتب يتحقق من خلال ربط توصيلة في لوحة خطوط الأطراف التلغرافية. لم أناقش الأمر مع أبي قط. ومع ذلك، وقبل موته بقليل سأله، في مقابلة صحفية، إذا ما كان قد رغب يوماً في كتابة رواية. فأجاب بنعم، وأضاف أنه تخلص عن الفكرة، عندما سألته يوماً عن كلمة "تعشيق المخطوط"، لأنه اكتشف عنده أني كنتُ أكتب ما كان يفكر هو في كتابته.

وقد تذكر في تلك المناسبة أيضاً، معلومة خفية كان يمكن لها أن تبدل مسار حياتنا. فبعد ستة شهور من الترحال، عندما كانت أمي في

سان خوان دل ثيسر، وصلت إلى غابرييل إليخيو، وشاية سرية بأن مينا قد كلفت بالإعداد لعودة الأسرة نهائياً إلى بارانكاس، بعد أن التأمّت جراح الضغينة التي خلفها موت ميجاردو باتشيكو. بدا له ذلك التصرف غير معقول، لا سيما بعد انقضاء الأزمّة السبّعة، وبعد أن بدأت سيطرة شركة الموز المطلقة في تحقيق ما بدا أنه حلم الأرض الموعودة. ولكن كان معقولاً كذلك أن يعود العناد آل ساركيز إغواران إلى التضحية بسعادتهم، مقابل تخليص ابنهم من مخالف ذلك الياسق. وكان قرار غابرييل إليخيو الفوري هو بذل المساعي لنقله إلى مكتب تلغراف زيهواتشا، على بعد عشرين فرسخاً من بارانكاس. لم تكن هناك وظيفة شاغرة، ولكنهم وعدوه بأخذ طلبه في الاعتبار.

لم تستطع لوسا سانتياغا أن تكتشف نوايا أمها السرية، ولكنها لم تنجراً كذلك على نفسها. وقد لفت انتباهها أنهم كلما اقترحوا أكثر من بارانكاس، كانت أمها تبدو أكثر تنهداً ووداعة. ولم تقدم لها تشون، حافظة أسرار الجميع، أي إشارة موجبة كذلك. ومن أجل استخلاص الحقائق، قالت لوسا سانتياغا لأمها إنه يسعدها البقاء للعيش في بارانكاس. ترددت الأم لحظة، ولكنها لم تحسم أمرها بقول أي شيء. وأحسّت الابنة بأنها قد اقتربت كثيراً جداً من السر. ودفعها القلق إلى عقد آمالها على التشجيع مع غجرية متجولة، لم تقدم لها أي إشارة حول مستقبلها في بارانكاس. ولكنها بشرتها بالمقابل، بأنها لن تواجه أية عقبات في عيش حياة طويلة وسعيدة، مع رجل بعيد لا تكاد تعرفه. ولكنه سيجيها إلى أن يموت. وقد أعاد الوصف الذي قدمته الغجرية الروح إلى جسدها، لأنها وجدت فيه ملامح مشتركة مع خطيبها، ولا

سبباً طريقته في الحياة. وأخيراً، تثبت لها العجربة، دون قطرة واحدة من الشك، بأنها ستجيب ستة أبناء منه، "لقد متُ هلعاً"، هذا ما قالت لي أمي عندما روت لي ذلك أول مرة، دون أن تتصور أن العدد الحقيقي لأبنائها سيزيد خمسة على ذلك العدد. تلقف كلاهما تلك النبوة بحماس شديد، إلى حد أن المراسلات التلغرافية لم تعد عتذراً كونشيتو نواباً حاملة، وتحولت إلى مراسلات منهجية وعملية، وأكثر كثافة من أي وقت آخر. فحددا التواريخ، وأقرا الوسائل، ورهنا حياتهما بقرارهما المشترك بالزواج. دون استشارة أحد، أينما كان وكيفما كان، عندما يعودان للقاء.

وكانت لويسا سانتياغا شديدة الوفاء للوعد الذي قطعته على نفسها، إلى حد أنها رأت، حين كانت في قرية فوتسيكا، أنه ليس من الصواب الذهاب لحضور حفلة راقصة، دون الحصول على مرافقة خطيبها. كان غابرييل إليخيو في أرجوحة النوم، يتعرق حمى أربعين درجة مئوية عندما رنت إشارة نداء تلغرافي مستعجل. وكان المتصل هو زميله عامل تلغراف فوتسيكا. ومن أجل الأمان التام، سألت هي عن مدير جهاز البرق في نهاية السلسلة. فأرسل الخطيب المشوش أكثر مما هو مغالاً، جملة تعرفت بهرتته: "قل لها إنني فليوتها". تعرفت أمي على كلمة السر، وذهبت إلى حفلة الرقص، وظلت هناك حتى الساعة صباحاً. عندما كان عليها أن تعود للتسبدل ثيابها على جناح السرعة، كيلا تصل متأخرة إلى القديس.

لم يجدوا في بارانكاس أدنى أثر للحقد على الأسرة. بل على العكس، فقد كان يسود بين ذوي ميباردو باتشيكو مزاج مسيحي من

الصفح والسيان، بعد مرور سبعة عشر عاماً على الحدث المشؤم. وكان استقبال الأقرباء حبيماً جداً، حتى أن لويسا سانتياغا هي من فكرت في إمكانية عودة الأسرة إلى ذلك الملاذ الجبلي الهادئ والمختلف تماماً عن الحر والغبار، والسموم الدامية، والأشباح مقطوعة الرؤوس في آراكاتاك. وقد تمكنت من الإيحاء بتلك الرغبة إلى غابرييل إليخيو، شريطة أن يتحكن من الانتقال إلى ريوهاتشا. وأبدى هو موافقته. ومع ذلك، فقد عُرف في تلك الأيام، أخيراً، أن رواية الانتقال ليست بلا أساس وحسب، وإنما ليس هناك كذلك من يرغب فيها سوى ميلا. وهذا ما اتضح من رسالة جوابية أرسلتها إلى ابنها خوان دي ديوس، عندما كتب إليها هذا الأخير، خائفاً من العودة إلى بارانكاس، دون أن تكون قد انقضت عشرون سنة على موت ميباردو باتشيكو. فقد كان مقتنعاً على الدوام بقدرية قانون غواخيرا، حتى إنه عارض أدا. ابنه إدواردو للخدمة الطبية الاجتماعية في بارانكاس، بعد مرور نصف قرن على ذلك.

وخلافاً لكل المخاوف، حدث أن جُلت هناك عُقد الوضع كلها. ففي يوم الأربعاء نفسه الذي أكدت فيه لويسا سانتياغا لغابرييل إليخيو، أن ميلا لا تفكر في الانتقال إلى بارانكاس، أعلموه في العمل بأن مكتب تلغراف ريوهاتشا صار تحت تصرفه، بعد موت موظف المركز بصورة مفاجئة. وفي اليوم التالي أفرغت ميلا أدرج حجرة المؤونة، بحثاً عن مقصٍ تقطيع اللحم وقطعت، دون أي صبر، غطاء علبه البسكويت الإنكليزي التي تخفي فيها انتهت برقيات غرامها. وقد بلغ غيظها حداً لم تستطع معه أن تقول سوى أحد الأسماء المشهورة التي اعشادت

أرجحها في لحظات نحبها: "اللّه يغفر كل شيء إلا العقوق". في نهاية ذلك الأسبوع، سافرتا إلى ريوهاتشا لكي تدركا السفينة الشراعية المتوجهة إلى سانتا مارتا يوم الأحد، ولم تنتبه أي منهما إلى اللبلة الرهيبة المسفوعة بعاصفة شباط: فقد كانت الأم خادمة بسبب هزيمتها، وكانت الابنة مدعورة، إنما سعيدة.

أعاد النزول إلى اليباسة، إلى الأم توازنها الذي طاح به العصور على الرسائل. وفي اليوم التالي واصلت السفر، وحدها، إلى أراكاتاكّا، وتركت لويسا سانتياغا في سانتا مارتا، تحت رعاية ابنها خوان دي ديوس، واثقة بذلك من أنها تضعها بمنجى من شياطين الحب. ولكن ما جرى هو العكس: كان غابرييل إلخيبو يسافر في أثناء ذلك من أراكاتاكّا إلى سانتا مارتا، لكي يراها، كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، في حين أن الحال خوانيتو الذي عانى سابقاً من تشدد أبويه نفسه في غرامياته مع ديليا كاباييرو. كان قد صمم على عدم التدخل إلى جانب أي طرف في غراميات أخته، ولكنه عندما حانت ساعة الحقيقة، وجد نفسه موزعاً بين حبه لأخته لويسا سانتياغا واحترامه لمشيئة أبويه. فلقباً إلى صيغة تعبر عن طبيته التي يضرب بها المثل: وافق على أن يلتقي الخطيبان خارج البيت، إنما دون أن يكونا وحيدين، ودون أن يعلم هو بذلك. ودرث زوجته ديليا كاباييرو، التي تغفر ولكنها لا تنسى، الشقيقة زوجها، المصادفات المؤكدة والحيل الباردة نفسها التي كانت تتصلص بها من رقابة حمويها، بدأ غابرييل ولويسا اللقاء في بيوت الأصدقاء، ولكنهما راحا يجازفان، شيئاً فشيئاً في الذهاب إلى أماكن عامة قليلة الارتياح. ثم تجرأ أخيراً على تبادل الحديث، عبر النافذة،

عندما يكون الحال خوانيتو غير موجود. الخطيبة في الصلاة، والخطيب في الشارع، وفيين لانفازهما بعدم اللقاء داخل البيت، كانت النافذة تبدو كأنها صُنعت عمداً للغراميات المتنوعة، عبر حاجز قضبان معدنية من الطراز الأندلسي، بهجماً قامة كاملة، وبإطار عريضة نباتات متسلقة، لا تغيب عنها أحياناً رائحة اليباسمين في هدأة الليل. وكانت ديليا تحتاط لكل شيء، بما في ذلك تواطؤ بعض الجيران الذين يطلقون صغيراً مشفراً لتنبه الخطيبين إلى خطر وشيك. ومع ذلك، فقد أخفقت، في إحدى الليالي، كل احتياطات الأمن، ولم يجد خوان دي ديوس بداً من الاستسلام أمام الحقيقة، فأنهزت ديليا الفرصة لئذعو الخطيبين ليجلسا في الصلاة، مع إبقاء كل التوافذ مفتوحة، ليشاركوا العالم بحبهما، ولم تنص أمي قط زقوة أخيهما: "يا للراحة".

في تلك الأيام تلقى غابرييل إبلخيو التعيين الرسمي في مكتب تلغراف ريوهاتشا، فلبّات عندئذ أمي، الخائفة من فراق جديد، إلى المونسنيور بيدرو إسبيلو، أسقف الأبرشية الحالي، وهي تأمل أن يزورها دون إذن أبويها. كان وقار المونسنيور قد حقق قوة كبيرة. حتى إن كثيرين من رعيته كانوا يخلطون بين ذلك الوقار والقداسة. وكان بعضهم يذهب إلى القداس الذي يترأسه للتأكد فقط، من حقيقة أنه يرتفع عذبة ستمترات عن مستوى الأرض، في لحظة صلاة الصعود. وعندما طليت لويسا سانتياغا مساعدته، قدم هو دليلاً آخر على أن الذكاء هو إحدى ميزات القداسة. فقد رفض التدخل في الشؤون الداخلية، لأسرة شديدة الحرص على خصوصياتها الحسنة. ولكنه اختار المبادرة إلى الحصول سراً، على معلومات عن حال أسرة أبي من خلال الكنيسة. وقد غض

خوري سيثي النظر عن تساهل آرخميرا غارسيا، ورد على الأسقف بضيعة مشرقة: "إنها أسرة محترمة، وإن كانت قليلة التقوى". عندئذ تحدث مونسنيور إلى المطبيين معاً، ومع كل منهما على انفراد، وكتب رسالة إلى نيكولاس وترانكيلينا أعرب لهما فيها عن تأثره وبقيته بأنه لا وجود لسلطة بشرية قادرة على هزم ذلك الحب العنيد. فوافق جدائي، المهزومان بسلطة الرب، على قلب تلك الصفحة المؤلمة، ومنحاً خوان دي ديوس كل الصلاحيات لإقامة العرس في سانتا مارتا، ولكنهما لم يحضرا، وإغا أرسل فرانثيسكا سيمودوسيا كاشييتة.

تزوجا في الحادي عشر من حزيران ١٩٢٩ في كاتدرائية سانتا مارتا، ويتأخير دام أربعين دقيقة، لأن العروس نسيت تاريخ اليوم، واضطروا إلى إيقافها بعد الساعة الثامنة صباحاً. وفي تلك الليلة بالذات، استقلا السفينة الشراعية المربعة، لكي يتسلم غابرييل إليخيو وظيفته في مكتب تلغراف ريوهاتشا، وأعضبا ليلتهما الأولى بعد الزفاف، منهارين من دوار الإبحار.

كانت أمي نحن كثيراً إلى البيت الذي أمضت فيه شهر العسل، حتى إنه كان مقدورنا، نحن أبنائنا الكبار، أن نصفه حجرة حجرة، كما لو أننا قد عشنا فيه، وهو لا يزال حتى اليوم إحدى ذكرياتي الزائفة. ومع ذلك، عندما ذهبت أول مرة إلى شبه جزيرة غواخيرا، قبل قليل من بلوغى الستين من عمري، فوجئت بأن البيت الملحق بمكتب التلغراف، لا علاقة له بذكراتي، وريوهاتشا الحاملة التي كتبت أحملها، منذ طفولتي في قلبي، بشوارعها النثرانية التي تنحدر بانحماح بحر موحلي، لم تكن سوى أضغاث أحلام مستعمارة من جدي. بل أكثر من ذلك؛ فالآن وقد

صرت أعرف ويوهاتشا، لا أتوصل إلى رؤيتها مثلما هي عليه، وإغا مثلما شُيّدت حجراً حجراً في مخيلتي.

بعد شهرين من الزفاف، تلقى خوان دي ديوس برقية من أبي يخبره فيها بأن لويسا سانتياغا حيلي، هز الحبر البيت في أراكاتاكا من أساساته، حيث لم تكن ميتا قد شغيت بعد من المارة، ولكنها هي والكلونيل على السواء، ألقيا سلاحهما لكي يعود العريسان للعيش معهما. لم يكن ذلك بالأمر السهل، وبعد معارضة عزة نفس وعقلانية استمرت عدة شهور، وافق غابرييل إليخيو على أن تضع زوجته مولودها في بيت أبيها.

بعد قليل من ذلك، استقبله جدي في محطة القطار، بجملته بقيت في إطار من الذهب في السجل التاريخي للأسرة: "إنني مستعد لأن أقدم إليك كل الرضى الضروري". جددت الجدة غرفة النوم التي كانت لها حتى ذلك الحين، واستقر أبواي فيها. وخلال تلك السنة، انتقل أبي من مهنته الجيدة كعامل تلغراف، وكمرس موهبته في التعلم الذاتي. لعلم أخذ في الانحدار: الطب التجانسي، وبذل الجهد المساعي لدى السلطات، بدافع الاعتراف بالجميل أو تأنيب الضمير، لكي يُطلق على الشارع الذي كنا نعيش فيه في أراكاتاكا، الاسم الذي ما زال يحمله حتى اليوم: جادة مونسنيور إسبيخو.

هكذا وهناك ولد الابن الأول من سبعة ذكور وأربع إناث، يوم الأحد، السادس من آذار ١٩٢٧، في الساعة التاسعة صباحاً، خلال حفل وأبل مطر طوفاني في غير موسمه. وكان الوليد على وشك أن يموت اختناقاً بحبل السرة، لأن قابلة الأسرة، سانتوس بيبيرو، فقدت

السيطرة على قناتها في أسوأ لحظة. ولكن من فقدته أكثر هي العمة فرانتيسكا التي ركضت حتى الباب الخارجي، وهي تطلق صرخات من يعلن عن حريق:

- ذكرا! إنه ذكرا! - وتضيف على الفور، كمن يدق ناقوس الخطر:-

هاتوا الرُّوم، فهو يخنق!

وافترضت الأسرة أن الروم لم يكن للاحتفال، وإنما لإتعاش الوليد بتدليكه به. وروت لي السيدة خوانا دي فريبتيس عدة مرات، وكانت العناية الإلهية قد أدخلتها الحجرة في تلك اللحظة، أن الخطر الأكبر لم يكن الحبل السري، وإنما وضعية أمي غير الصحيحة في السرير. وقد أوضحت لي وضعها في الوقت المناسب، ولكن لم يكن من السهل إنعاشي، وهكذا رشتني العمة فرانتيسكا بما، العماد، بتعجل. كان عليهم أن يسموني أوليفاريو، وهو اسم القديس الذي يصادف عيدُه يوم مولدي. إلا أن أحداً لم يكن يملك سجل القديسين في متناول يده، ولهذا أطلقوا عليّ، بصورة عاجلة، الاسم الأول لأبي (غابرييل) يليه اسم خوسيه، نسبة إلى يوسف التجار، لأنه شفيح أراكاتانكا، ولأن الولادة جرت في شهر آذار الذي هو شهره. واقترحت السيدة خوانا فريبتيس إضافة اسم ثالث هو كونكورديا (الوفاق) احتفاءً بالمصالحة العامة التي تمت بين الأسرة والأصدقاء، بجيئي إلى الدنيا. ولكنهم نسوا إضافته في وثيقة التعميد الرسمية التي صدرت بعد ثلاث سنوات: غابرييل خوسيه دي لا كونكورديا.

في اليوم الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت، كنت أتذكر كل ما أثر في طفولتي، ولكنني لم أكن متأكداً مما هو سابق وما هو لاحق، أو ما الذي يعنيه كل ذلك في حياتي. وكنت أكاد لا أعني أنه وسط ازدهار شركة الموز الزائف، كان زواج أبوي مقدراً، ضمن التحولات التي تشتمل الضربة القاضية لانحدار أراكاتانكا، فمنذ أن بدأتُ التذكر، كنتُ أسمع - أولاً بهمس شديد، وبعد ذلك بصوت عالٍ ويدّعر - ترديد العبارة القدرية: "يقولون إن الشركة سترحل"، ومع ذلك، إما أن أحداً لم يكن يصدق الأمر، وإما أن أحداً لم يكن يجري على التفكير في آثاره المدمرة.

رواية أمي كانت تتضمن أرقاماً زهيدة ومشهداً فقيراً جداً، بالنسبة للمرأة الضخمة التي صورتها أنا؛ مما سبب لي إحساساً بالإحباط. وقد تحدثت فيما بعد، إلى أحياء وشهود غائبين، ونشرت في مجموعات صحف ووثائق وصغيرة، وتبين لي أن الحقيقة لم تكن في أي جانب، فالمحالون يقولون إنه لم يكن هناك، في الواقع، قتلى، ومن هم في الجانب الآخر يؤكدون، دون أي ارتعاش في الصوت، أنه سقط أكثر من مئة قتيل، وأنهم رأوهم ينزفون في الساحة، وأنهم حملوا في قطار شحن

لربهم في البحر، مثل الموز المرفوض. وهكذا ظلت حقيقتي ضائعة إلى الأبد في نقطة غير محتملة بين الطرفين. ولكنها كانت تلُع عليّ، حتى إنني أضرت في إحدى رواياتي، إلى المذبحة بالدقة والهول اللذين احتضنتها بهما، طوال سنوات في مخيلتي. وهكذا أقيمت الرقم عند ثلاثة آلاف، لكي أحافظ على الأبعاد الملحمية للأساسة. وقد انتهت الحياة الواقعية إلى منحي العدالة؛ فمئة وقت قريب، وفي أحد أيام الذكرى السنوية للأساسة، طالب أحد المتكلمين في مجلس الشيوخ، بالوقوف دقيقة صمت، إحياء لذكرى الشهداء الثلاثة آلاف المجهولين الذين قتلهم قوى الأمن العام.

لقد كانت مذبحة مزارع الموز، ذروة مذابح أخرى سابقة. ولكن مع ذريعة إضافية تشير إلى أن زعماء الإضراب هم من الشيوعيين. وربما كانوا كذلك. وقد تعرفت، مصادفة، على إدوارد ماهيتشا، أكثرهم بروزاً وشهرة، في سجن بلوانكيا النموذجي، خلال تلك الفترة التي ذهبت فيها مع أمي لبيع البيت؛ وعقدت معه صداقة جيدة، منذ أن قدمت نفسي على أنني حفيد نيكولاس ماركيز. وكان هو من كشف لي أن جدي لم يكن محايداً، وإنما وسيطاً في إضراب عام ١٩٢٨. وكان يعتبره رجلاً منصفاً. وهكذا استكمل لي الفكرة التي كانت لدي دوماً عن المجزرة، وكوّنت تصوراً أكثر موضوعية عن النزاع الاجتماعي. لقد كان الاختلاف الوحيد بين ذكريات الجميع، هو حول عدد القتلى. ولن يكون هذا هو اللغز الوحيد في تاريخنا.

كانت الروايات الكثيرة هي السبب في ذكرياتي الزائفة. وأكثر واحدة من تلك الذكريات إلحاحاً وثباتاً، هي عني أنا بالذات: أنذكر

نفسي واقفاً عند باب البيت، بقبضة متساوية ويندقية لعبة، أشاهد استعراض كتيبة من الجنود الكاتشاكو المتعرقين تحت أشجار اللوز، وقد جاني أحد الضباط الذين يقودونهم في زي المراسم، لدى مروره؛ - وداعاً يا نقيب غابي.

الذكرى واضحة، ولكن لا وجود لأي احتمال بأن تكون صحيحة، البدلة العسكرية، والقبضة، والبنديقة وجدت جميعها معاً، ولكن بعد حوالي سنتين من الإضراب، عندما لم تكن هناك قوات عسكرية في كاتاكا. أشياء كثيرة مثل هذه ولدت لي في البيت، السعة بأن لدي ذكريات من داخل الرحم، وأحلاماً تثبت الأحداث.

كانت تلك هي حال الدنيا عندما بدأت أعني جوي الأسري. ولا يمكنني استحضاره بطريقة أخرى: كروب، حنين، أوتياب، في عزلة بيت فسيح. لقد بدا لي، طوال سنوات، أن تلك الفترة قد تحولت بالنسبة لي، إلى كابوس يتواتر كل ليلة تقريباً، لأنني كنت أستيقظ بالرعب نفسه الذي كان يسيطر عليّ في حجرة القديسين، فخلال المراهقة، حين كنت تلميذاً داخلياً في مدرسة جليدية، في جبال الأنديز، كنت أستيقظ باكياً في منتصف الليل. وقد احتجت إلى هذه الشيخوخة الحالية من تأنيب الضمير، لكي أفهم أن تعاسة الجدين، في بيت كاتاكا، تملخص في أنهما كانا طوال الوقت مشغولين في حنينهم، وبصورة أكثر حدة، كلما سمعوا للقطر منه.

هل إن الأمر أكثر بساطة: لقد كانا يقيمان في كاتاكا، ولكنهما بواسلان العيش في مقاطعة باديا، التي ما زلنا نسحبها المقاطعة (بروينشيا)، دون أية إضافات أخرى، كما لو أنه لا وجود لمقاطعة سواها

في العالم. وقد بنى البيت في كاتاكا، ربما دون أن يفكرا في ذلك، كنسخة احتفالية من بيت بارانكيلا الذي تظهر من نوافذه، في الجهة الأخرى من الشارع، المقبرة الكنيسة، حيث يترقد مبدارو باتشيكو. كانا محبوبين وراضين في كاتاكا، ولكن حياتهما كانت خاضعة لعبودية مسقط رأسيهما. لقد تخدعا في أذواقهما، ومعتقداتهما، وأحكامهما المسبقة، وأغلقا الأبواب أمام كل ما هو مختلف.

أقرب صداقاتهما كانت قبل أي شيء، هي التي تأتي من المقاطعة. واللغة البيتية السائدة هي تلك التي جاء بها أبائهما من إسبانيا، عبر فنزويلا، في القرن السابق. وأتلفوا عليها الحسوية بكلمات وعبارات محلية كاريبية، وأفريقية من العبيد، ونفث من لغة غواخيرا التي كانت تتسرب قطرة قطرة إلى لغتنا. وكانت الجدة تستخدم تلك العبارات لكي تضللتني، دون أن تدري أنني أفهمها بصورة أفضل، بسبب تعاملتي المباشر مع الخدم. وما زلت أذكر الكثير من تلك العبارات: أتوتكشي، أنا نعنس؛ خاصوسايتشي تايا، أنا جانع؛ إيبوتوس، المرأة الخبيثة؛ آريخوانو، الغريب. وهذه الكلمة الأخيرة اعتادت جدتي أن تستخدمها للإشارة بطريقة ما، إلى الإسباني، والرجل الأبيض، وإلى العدو في نهاية المطاف. وكان الغواخيريون من جانبهم، يتكلمون دائماً نوعاً من القشتالية الحالية من العظام، مع ومضات مشعة، مثل لهجة الخادمة تشون، التي تتميز بدقة في التجديد إلى حد مريب، مما دفع جدتي إلى منعها، لأنها تحبل السامع، دون مفر، إلى تخيل مغالط، كقولها: "شفتنا الغم"، مثلاً.

لم يكن اليوم يكتمل ما لم تصل الأخبار عنن ولد في بارانكاس،

وكم من الأشخاص قتل النور في حظائر فوتسيكا، ومن تزوج في سانادوري أو توفي في ريوهاششا، وكيف طلع الصباح على الجنرال سوكاراس الذي كان بحالة خطيرة في سان خوان دي ثيسر. لقد كان يباع في مخزن شركة الموز، بأسعار الأوكازيون، تفاح كاليغورتيا ملفوفاً، بروق حرير، وأسلاك متحجرة في الثلج، وجامبون غالييسيا، وزيتون اليونان. ومع ذلك، لم يكن هناك ما يؤكل في البيت، ما لم يكن متبلاً برق الحنين: فقلقاس الحساء يجب أن يكون من ريوهاششا، وذرة خبز الفطور يجب أن تكون من فونسيكا، والجديان يجب أن تكون قد رُيت على ملح غواخيرا، والسلاحف وجراد البحر تأتي حبة من ديويوا.

وهكذا فإن معظم الزائرين الذين يأتون بوسياً، في القطار، يكونون قادمين من هروينشيا (المقاطعة) أو ميعوثين من أحد هناك، وتكون لهم على الدوام الكتي نفسها: آل رياسكو، آل توغيرا، آل أوقايد، مع تقاطع زيجات مع آل كوتيس أو آل إغواران. يأتون عابرين، وليس معهم سوى حقيبة معلقة بالكنف، وبالرغم من أنهم لا يعلنون مسبقاً عن زيارتهم، إلا أنه كان معروفاً أنهم سيقفون لتناول الغداء. ولم أنس قط، العبارة شبه الطقوسية التي كانت ترددها الجدة لدى الدخول إلى المطبخ: "يجب تحطير كل شيء، لأننا لا نعرف ما الذي يروق لمن سيأتون".

كانت روح الهروب الدائم تلك، تستند إلى واقع جغرافي، فقد كانت هروينشيا تتمتع باستقلالية عالم خاص، وبوحدة ثقافية متماسكة وقديمة، في وادٍ خصيب بين جلي سيرا نيفادا دي سانتا مارتا وسيرا دل بيريرا، في منطقة الكاريبي الكولومبية. وكان اتصالها بالعالم أسهل من اتصالها ببقية أنحاء البلاد، ذلك أن حياتها اليومية تتحدد،

بصورة أفضل، من خلال حركة التجارة السهلة مع جامايكا وكوراساو. وتكاد تختلط بفنزويلا عبر حدود بوابات مفتوحة، لا تميز فيها بين المقاصد الاجتماعية أو الألوان. أما من داخل البلاد التي كانت تغطي على نار هادئة في مرقها بالذات، فلا يكاد يصل سوى صدى السلطة: القوانين، الضرائب، الجنود، الأخبار السيئة التي تفرخ على ارتفاع ألفين وخمسة مئة، وعلى بعد ثمانية أيام من الإبحار، عبر نهر مجدلينا، في سفينة بخارية تنفذ على الخط.

تلك الطبيعة الجزيرية المعزولة، أنجبت ثقافة راكدة ذات طبيعة خاصة، فرضها الجدان في كاناكا، فالبيت كان قرية أكثر مما هو منزل. إذ هفاك على الدوام عدة ووديات على المائدة، ولكن دور أول شخصين كان مقدساً، منذ بلغت الثالثة من عمري: الكولونيل على رأس المائدة وأنا على الزاوية التي إلى يمينه. وبقيّة الأماكن يشغلها الرجال أولاً، ثم النساء بعد ذلك، ولكن منفصلين بعضهم عن بعض. وكانت هذه القواعد تُكسر خلال احتفالات العيد الوطني في العشرين من تموز. وتستمر ووديات تناول الغداء إلى أن يأكل الجميع. أما في الليل فلا يجري إعداد المائدة، وإنما توزع فناجين قهوة بالحليب في المطبخ، مع حلويات الجدة الشهية. وعندما تُغلق الأبواب، يعلق كل واحد أرجوحة نومه أينما استطاع، على مستويات متعددة، وحتى بين أشجار الفناء.

إحدى أكثر فانتازيات تلك السنوات جوهاً، عشقتها يوم حضرت إلى البيت جماعة رجال، ملبّس وملابس وهمامير فرسان متشابهة. وقد رُسم على جباههم جميعاً صليب بالرماد. إنهم الأبناء الذين أنجبتهم الكولونيل على امتداد أراضي بروبشينا، خلال حرب الألف يوم. وقد

جاءوا من قراهم لتهنئته بعيد ميلاده، متأخرين أكثر من شهر على الموعد. وقبل أن يحضروا إلى البيت كانوا قد استمعوا إلى قدامس أرماء الرماد. وبدا لي الصليب الذي رسمه الأب أنغاريتا على جباههم شعاراً خارقاً سيلحقني غموضه طوال سنوات، حتى بعد أن تألفت مع طقوس أسيرع الألام المقدس.

لقد ولد معظمهم بعد زواج جدي. فكانت الجدة مينا تسجل أسماءهم وكتبتهم في دفتر ملاحظات، منذ أن تعلم ميلادهم. وتنتهي بتسامح سهل إلى ضمهم، من كل قلبها، إلى عداد الأسرة. ولكن لم يكن بإمكانها أو بإمكان أي شخص آخر، أن يميز بينهم قبل تلك الزيارة الصاخبة التي كشف فيها كل واحد منهم عن طريقته في التمييز. كانوا جديين ومجتهدين، أرباب بيوت، وأناساً مسالمين، ولكنهم لا يخشون مع ذلك فقدان رؤوسهم في دوار حفلات اللهو والسكر. كسروا الأطباق، ونشغروا الورود وهم بطاردون عجلاً للعب معه بوشاح المصارعة، وقتلوا الدجاجات بالرصاص من أجل ظهور السانكوتشر، وأطلقوا خنزيراً مكتنزاً بالشحم اصطدم بالنساء اللواتي يطرزن في الممر. ولكن أحداً لم يأسف لتلك الأضرار، بسبب عاصفة السعادة التي حملوها معهم.

واصلت اللقاء بكثرة مع استيجان كاربو، توم العمدة إلغيرا البارح في فنون الحرف البدوية، الذي كان يسافر ومعه صندوق عدّة ليصنع المعروف بإصلاح أي عطل في البيوت التي يزورها. وقد ملأ بمزاجه المرح وذاكرته الجيدة، فراغات كثيرة من تاريخ الأسرة بدا لي المحصول عليها عصبياً. وترددت بكثرة في مراهقني كذلك، على خالي نيكولاس غوميث، ذي الشقرة الكثيفة والنمش الأحمر. وقد حافظ على أحسن

وجه على مهنته الجيدة، كصاحب حائوت في مستوطنة سجن فونداثيون القديمة. ولتأثره بسمعتي كحالة ضائعة وعينوس منها، كان يحلمني عند الوداع، كيس سبق يتضمن مؤونة جيدة من أجل مواصلة الرحلة. وكان رافائيل أرياس يأتي دوماً بصورة عابرة، ومستعجلة، على متن بغلة ويلايس ركوب الخيل. ويكاد لا يبقى لوقت أطول من تناول القهوة، وهو واقف في المطبخ. أما الآخرون فالتقيت بهم متفرقين، في رحلات الحثين التي قمت بها في صا بعد في قرى بروينشبا، لكي أكتب رواياتي الأولى. وكنت أحن دوماً إلى صليب الرماد على جباههم، لمعلامة فارقة مؤكدة لهويتهم الأسرية.

بعد سنوات من موت المجددين وهجر البيت الفخم، ذهبتُ إلى فونداثيون في قطار الليل، وجلست في محل بيع المأكولات الوحيد المفتوح في تلك الساعة في المحطة، لم يكن قد تبقى لديهم إلا القليل لتقديم. ولكن صاحبة المحل أعدت على عجل طبقاً جيداً على شرفي. كانت امرأة مرحة وخدوماً، وفي مركز تلك الفضائل الأليفة، لمحتُ طبع نساء قبيلتنا القوي. وقد تأكدتُ من ذلك بعد سنوات: فصاحبة المطعم الجميلة هي سارا نوريغا، خالة أخرى من خالاتي المجهولات.

أبولينار، العبد الصغير القديم، ومتين البنية الذي تذكرته على الدوام كخال لي، اختفى من البيت طوال سنوات عديدة. وفي مساء أحد الأيام، عاد للظهور دون سبب، مرتدياً ملابس حمراء بدلة من الجنوخ الأسود وقبعة ضخمة سوداء اللون أيضاً، وغطاؤه في رأسه حتى عيشته الصموتين. وقد قال لدى مروره في المطبخ إنه أت من أجل الجنازة. لكن أحداً لم يفهمه حتى اليوم التالي، عندما وصل الخبر بأن

الجند قد مات للتو، في ساننا مارتا. وكان قد نُقل إليها بصورة مستعجلة ومتكتمة.

الشخص الوحيد منهم الذي حقق شهرة عامة، هو أكبرهم جميعاً والمحافظ الوحيد بينهم، خوسيه ماري بالديلاتكيث، الذي صار عضواً في مجلس شيوخ الجمهورية، خلال حرب الألف يوم، وحضر بصفته هذه توقيع استسلام الليبراليين في مزرعة نيريلانديا القريبة. ومقابله، في جانب المهزومين، كان يجلس أبوه.

أظن أنني مدين بجوهر طريقي في الحياة والتفكير، لنساء الأسرة ونساء الخدمة الكثيرات اللواتي رعين طفولتي. لقد كن يتمتعن بقوة الشخصية وطيبة القلب، وكُن يعاملتن بتلقائية الغرور الأرضي. وبين الكثيرات اللواتي أتذكرهن، كانت لوتيا هي الوحيدة التي فاجأتني بخبثها الصبياني، عندما أخذتني إلى زقاق الضفادع، ورفعت ثوبها حتى الحضر لتكشف لي عن شعر عانها النحاسي المنفوش. غير أن ما شد انتباهي هو لطفة القوبا، ذات البقع الحمراء المستدة على بطنها مثل خريطة العالم، بكثبان بنقشجية ومحيطات صفراء. أما الأخريات فكان يبدون ملانكة طهارة؛ فقد كن يبدلن ملابسهن أمامي، ويحمنني بينما هن يستحممن، ويُجلسنني على ميولتي ويجلسن على مباولهن قياتني، لكي يفضين بأسرارهن، وأحزانهن، وأحقلاهن. كما لو أنني لا أفهم، ودون أن ينتبهن إلى أنني أعرف كل شيء، لأنني كنت أربط أطراف الحياوط التي يتركها لي هن أنفسهن مقلنة.

كانت تشون واحدة من الخدم ومن الشارع. جاءت من بارانكاس مع المجددين، وهي لا تزال طفلة، وقد ترعرعت في المطبخ، ولكن مندمجة في

الأسرة، وكانت المعاملة التي تلقاها، هي معاملة خالة ووصيفة مرافقة، منذ أن قامت بالرحلة إلى بروينشيا مع أمي العاشقة. وقد انتقلت في سنواتها الأخيرة إلى حجرة خاصة بها، في أفقر أحياء القرية، برغبة حقيقية منها، وكانت تعيش هناك على بيع كرات من الذرة المطحونة لصنع الحبز. وتفضل ذلك في الشارع، منذ الفجر، وندا « صا مالوفا » في صمت الصباح الباكر: « كرات عجيب العجوة تشون الثلجة... »

كان لها لون هندية جميل. وقد بدت على الدوام كما لو أنها مجرد عظام. وكانت تقضي حافية القدمين، معتمرة عمامة بيضاء، وملتحفة بملامات متشاة، تمشي ببطء شديد في وسط الشارع، يرافقها مركب كلاب ودبعة وصامتة، تدور من حولها في تقدمها. وقد انتهى الأمر بضمها إلى فولكلور القرية. وظهر في أحد الكرنفالات من تنكر في هيئة مطابقة لها، بملابسها ونداها. ولكنه لم يتمكن من ترويض كوكبة كلاب مثل كلابها. وقد صار نداها على العجين المثلج شعبياً، إلى حد التحول إلى موضوع أغنية لعازفي الأكورديونات الجوالين. وفي صباح يوم مشؤوم، هاجم كلبان مسعوران كلابها، فدافعت تلك الكلاب عن نفسها بضراوة، وقعت معها تشون أرضاً، وتكسر عمودها الفقري. ولم تستطع تجاوز إصابها تلك، على الرغم من الإمكانيات الطبية الكثيرة التي وفرها لها جدي.

ذكرى كاشفة أخرى من تلك الأزمنة، هي ولادة ماتيلدي أرميتا، الفسالة التي اشتغلت في البيت عندما كنت في حوالي السادسة من عمري. فقد دخلت خطأ إلى غرفتها ووجدتها عارية ومنقرعة الساقين، على سرير من الكتان، تولول من الألم وسط غصبة من القابلات، توزعن

حول جسدها دون نظام أو دراية لمساعدتها على الولادة بإطلاق الصرخات. كانت إحداهن تمسح العرق عن وجهها بمنشفة مبللة، وأخريات يثبتن ذراعها وساقها ويدلكن بطنها لتعجيل المخاض. وكانت سانتوس يبيرو تعغم، وسط تلك الفوضى، بصلوات تمنى بحراً هادئاً، بينما هي تنبش، بعينين مغمضتين، بين فخذي الولادة. كان الحر لا يطاق في الحجرة المفعمة بالبخار المتصاعد من قدور الماء المغلي التي يثني بها من المطبخ. بقيت منزوية في أحد الأركان، موزعة بين الذعر والفضول، إلى أن أخرجت القابلة كتلة لحم حية مسوكة من كاحلها، مثل عجل وليد، ومعها مصران دام يتدلى من السرة. عتذرت اكتشفت إحدى النساء وجودي في الركن، وسعبتني خارج الحجرة.

- إنك في خطيئة ممتة - قالت لي ذلك، وأمرتني وهي تهز إصبعاً متوعداً - لا تعد إلى تذكر ما رأيته.

أما المرأة التي انتزعت براحتي حقاً، بالمقابل، فلم تتعبد ذلك، ولم تعرف به قط. كانت تدعى ترينياداد، وهي ابنة أحد العاملين في البيت، وقد بدأت تتفتح في ربيع قاتل. لقد كانت في الثالثة عشرة من عمرها، ولكنها لا تزال ترتدي ملابسها التي كانت لها وهي في التاسعة، فكانت ضيقة على جسدها إلى حد تبدو معه عارية أكثر مما لو كانت دون ملابس. وفي إحدى الليالي التي كنا فيها وحيدين في الفناء، انطلقت فجأة موسيقى جوفاء في البيت المجاور، فسحبني ترينياداد للرقص بعناق قوي افتقدت معه النفس. لست أدري ما الذي حل بها. ولكنني ما زلت حتى اليوم، أستيقظ في منتصف الليل مضطرباً من الانفعال، وأنا أعرف أنه يمكنني التعرف عليها في الظلام.

من تليس كل بوصة في يشرتها، ومن رانحتها الحيوانية. وفي لحظة واحدة، وعيثُ جسدي، ببصيرة الغرائز التي لم أعد إلى الشعور بملها فط، وإلى الأبد، وأتجرأ على تذكرها كعالة موت لذلك. منذ ذلك الحين، علمتُ بصورة غائمة وغير واقعية، بأن هناك سرّاً بعيد الغور لا أعرفه أنا، ولكنه يقلقني كما لو أنني أعرفه. أما نساء الأسرة، وعلى العكس من ذلك، فكُنَّ يقتدني على الدوام إلى وجهة العفة القاحلة.

وقد علمتُ فقدان البراءة، في الوقت نفسه، أن من يأتي لنا بالهدايا في عيد الميلاد، ليس الطفل يسوع، ولكنني كنتُ حذراً من قول ذلك. وعندما صار عمري عشر سنوات، كشف لي أبي الأمر، كسر من أسرار الكبار، ولكنه كان يعتبر معرفتي له أمراً واقعاً. وقد أخذني إلى متاجر ليلة الميلاد، لأختار ألعاباً وهدى لأخوتي. وحدث لي الشيء نفسه مع مير الولادة، قبل أن أحضر ولادة ماتيلدي أرمينتا؛ كنتُ أختنق بالضحك عندما يقولون إن طائر اللقلق هو الذي يأتي بالأطفال من باريس. إلا أنه لا بد لي من الاعتراف بأنني لم أتوصل، سواء الآن أو في الماضي، إلى ربط الولادة بالجنس. وعلى أي حال، أعتقد أنه يمكن لعلاقتي الحميمة بالخدم، أن تكون الأصل في خيط تواصل سري، أظن أنني أمتلكه مع النساء، أتاح لي على امتداد حياتي الشعور بالراحة والأمان بينهن أكثر مما أشعر بهما بين الرجال. ويمكن أن تكون قد أتت من هناك أيضاً قناعتي بأنهن هن عماد حماية العالم، بينما نضيع، نحن الرجال، فيه الفوضى بهيجتنا الفارغية.

لقد كان لسارا إميليو ماركيز دون أن تدري ذلك، بعض العلاقة بقهري. فسمتُ صباحها، كان المتوددون يلاحقونها دون أن تتنازل بالنظر

إليهم. ثم حسنت أمرها مع أول شخص بدا لها مناسباً، وإلى الأبد. كان هناك شيء مشترك بين الرجل المختار وأبي؛ فهو غريب لا يعرف أحد من أين جاء ولا كيف جاء، بسجل حياة نظيف. ولكن بلا سوارد معروفة. كان اسمه خوسيه دل كارمن أوربيي بيرخيل، ولكنه يقصر توقيعه أحياناً على "خ. دل ك.". وقد سرَّ بعض الوقت، قبل أن نعرف من هو في الحقيقة، ومن أين أتى، إلى أن عُرف ذلك من خلال الخطايا التي يُكلف بكتابتها للموظفين الحكوميين، ومن خلال أشعار الحب التي يتشرها في مجلته الثقافية الخاصة، التي كان صدورها يعتمد على مشيئة الرب، منذ أن ظهر في البيت، أحسست بتقدير كبير لشهرته ككاتب، وهو أول كاتب تعرفت عليه في حياتي. وقد رغيت على الفور في أن أكون مثله. ولم أشعر بالرضى إلا بعد أن تعلّمت الحالة صيمي تسريح شعري، على طريقته.

كنت أول شخص في الأسرة يعرف بأمر غرامياته السرية، عندما دخل في إحدى الليالي إلى البيت المقابل، حيث كنتُ ألعب مع بعض الأصدقاء. فاستدعاني جانبياً، وهو في حالة من التوتر الواضح، وأعطاني رسالة موجهة إلى سارا إميليا. كنتُ أعرف أنها جالسة عند باب بيتنا، تتبادل الحديث مع صديقة زائرة. اجتزت الشارع، واختبأت وراء أشجار اللوز، وقذفت الرسالة بدقة سقطت معها في حضنها، رفعت يديا مدعورة، ولكن الصرخة بقيت مكتومة في حنجرتها، عندما تعرفت على الخط المكتوب على المغلف. وقد صارت سارا إميليا و "خ. دل ك." صديقي منذ ذلك اليوم.

كانت إلفيرا كارميو، الشقيقة التوأم للخال إسبينان، تلوي وتعصر

عود فصب سكر بيديها، وتستخرج عصاراته بقوة معصرة زيت. وكانت مشهورة بصراحتها الفظة، أكثر من شهرة وقتها في تسلية الأطفال، وبخاصة أخي لويس إتيكي، الذي يصغرنى بسنة، فكانت المتواطئة معه وسيوته في الوقت نفسه، وقد عيَّدها باسم الحالة "ها" الذي لا يمكن سبر أغواره. كانت متخصصة على الدوام، بالمشكلات المستحيلة. وكانت هي وإستيبيان، أول من جاء إلى البيت في كاتاكنا. ولكن بينما وجد هو طريقه في كل أنواع المهن والصفقات المشمرة، ظلت هي الحالة التي لا غنى عنها في الأسرة، دون أن تدرك قط أنها كذلك. كانت تختفي عندما لا تكون ثمة حاجة إليها. أما عند الحاجة إليها، فلا يعرف أحد أبداً كيف، ولا من أين تخرج. في لحظات لحسها، تنكلم وحدها، بينما هي تحرك القدر. وتكشف بصوت عال، أين هي الأشياء التي اعتُبرت ضائعة. بقيت في البيت، بعد أن انتهت من دفن الكبار، بينما الأجمة تلهم المكان شهراً فشيراً، والحيوانات تطوف في حجرات النوم، مشوشة منذ منتصف الليل بسعال مما وراء القبر في الحجرة المجاورة.

فرانثيسكا سيمودوسيا - العمة ماما -، جنرالة القبيلة التي ماتت عذراً، وهي في التاسعة والسبعين، كانت مختلفة عن الجميع بعاداتها وبلغتها. فثقافتها لم تكن ثقافة بروبينشيا، وإنما ثقافة الفردوس الإقطاعي في سهول مقاطعة بوليغار، حيث كان أبوها خوسيه ماري ميخيا بيدال، قد هاجر منذ شبابه المبكر أتياً من ربوها تشا يفنونه في الصياغة. تركت شعرها السميك الداكن، الذي قاوم الشيب بعد تقدمها في الشيخوخة، ينمو حتى عرقوبها، وكانت تغسله مرة كل أسبوع بما خلاصات الأعشاب، ثم تجلس لتسرحه عند باب حجرتها، في طقس

مقدس يستمر عدة ساعات، مستهلكة دون توقف، لفائف تبغ خشن، تدخنها معكوسة، بوضع الطرق المشتعل داخل فمها، مثلما كان يفعل رجال جيوش التحرير، كيلا يكتشف العدو وجودهم في ظلام الليل. كما أن طريقتهما في اللبس كانت مختلفة أيضاً، فهي ترتدي تنورات، وصدارات دون أكمام من الكتان الخالص، وتتعل أخفاقاً من المخمل.

وعلى خلاف تعفف الجدة الاصطفائي في الكلام، كان لسان العمة ماما هو الأكثر طلاقة في رطانة اللهجة الشعبية. ولم تكن تخفي ذلك أمام أي كان أو في أية ظروف، فهي تعلن الحقائق لكل واحد في وجهه، بمن في ذلك إحدى الراهبات، وهي معلمة أمي في مدرسة ساننا مارتا الداخلية. فقد أوقفتها عند حذرها بوقاحة سوقية: "أنت ممن يخلطون بين طيرهم ومواسم الصيام". ومع ذلك، كانت تشدبر الأمور على الدوام، بحيث لا تبدو فظة ولا مهينة.

كانت خلال نصف حياتها، أسيئة مفاتيح المقبرة. تقيّد وتصدر شهادات الوفاة، وتصنع في البيت خبز القران من أجل القديس. وكانت الشخص الوحيد، من أي جنس، في الأسرة، التي لم يخترق قلبها، كما يبدو، أسى غرام مرفوض. وقد وعينا ذلك في إحدى الليالي، عندما كان الطبيب يعد العدة ليفحصها بالتسمع إلى نبضها، فستعته بجر لم أفهمه آنذاك: "أريد أن أتبهك يا دكتور إلى أنني لم أعرف رجلاً قط".

وقد بقيت أسمعها، منذ ذلك الحين، تقول ذلك بكثرة، ولكنني لم ألاحظ قط أنها تشعر بالفخر أو الندم، وإنما تقوله كأمر واقع لم يخلف أي أثر في حياتها، وكانت بالمقابل، خطابة وساعية زواج داهية، لا بد أنها عانت من لعبتها المزدوجة بإعداد مخدع والدي، دون أن تتخلى عن وفائها للمجدة ميتا.

لدي انطباع بأنها كانت تتفاهم مع الأطفال، أكثر من تفاهمها مع الكبار. وكانت هي من تولت أمر سارا إيميليا، إلى أن انتقلت هذه إلى غرفة كشييات قصص كاييخا المصورة. عندئذ احتضنتني أنا وهرغريتا بدلاً منها، مع أن الجدة واصلت الاهتمام بأمر تطافتي الشخصية، وتولى الجد أمر تكويني كرجل.

أكثر ذكرياتي إثارة للقلق، في ذلك الزمن، هي ذكرى العمة بيترا، أخت الجد الكبير، التي جاءت من ريوهاشا لتعيش مع الجدين عندما فقدت بصرها. كانت تقيم في الحجرة الملاصقة لغرفة المكتب، حيث أقبمت ورشة الصياغة فيما بعد، وقد طوّرت مهارة سحرية لكي تتحرك في ظلماتها دون مساعدة من أحد. مازلت أتذكرها كما لو أن ذلك حدث بالأمس، قشبي دون عكاز وكأنها قشبي بعينيها، بطيئة ولكن دون تردد، وتقود نفسها عن طريق مختلف الروائح وحسب، فهي تعرف حجرتها من رائحة حمض الهيدروكلوريك في ورشة الصياغة المجاورة، والممر من عطر ياسمين الحديقة، ومخدع الجدين من رائحة كحول الخشب الذي يستخدمه كلاهما لتليدك جسديهما قبل النوم، وحجرة العدة ماما من رائحة الزيت في مصابيح المذهب، وفي نهاية الممر، هناك رائحة المطبخ اللذيذة. كانت مشوقة القوام وقليلة الكلام، لها بشرة أزهار سوسن داوية، وشعر مشع بلون الصدف تتركه متسدلاً حتى خصرها، وتتولى هي نفسها العناية به. حدثتها الحظراوان والصافيثان كعيني مراهقة، يتبدل ضوءهما مع تبدل حالتها المعنوية. ولكن خروجها كان عابراً وعرضياً على أي حال، ذلك أنها كانت تبغى طوال اليوم، في حجرتها ببابها الموارب، ووحيدة على الدوام تقريباً. كانت تغني لنفسها

همساً في بعض الأحيان. ويمكن الخلط عندئذ بين صوتها وصوت الجدة مينا، ولكن أغنياتها كانت مختلفة وأشد حزنًا. وقد سمعتها تقول لأحدهم إنها أغنيات حب من ريوهاشا، ولكنني عندما كبرت فقط، عرفت أنها كانت ترحلها، هي نفسها في الواقع هناك بالذات، بينما هي تغتبطها. لم أستطع كبح نفسي في مناسبتين أو ثلاث من الانقياد لإغراء الدخول إلى حجرتها دون أن ينتبه إلي أحد، ولكنني لم أجدها. بعد سنوات من ذلك، خلال إحدى إجازاتي، في مرحلة الدراسة الثانوية، رويت تلك الذكريات لأبي، فسارعت إلى إقناعي بخطئي. وقد كانت حجتها مطلقة الصحة، واستطعت التأكد منها، دون أي رماذ شك: فالعمة بيترا ماتت قبل أن أكمل السنة الثانية من عمري.

كنا نطلق على العمة وينفريدا اسم نانا، وكانت أكثر نساء القبيلة مرحاً ولطفاً. ولكنني لا أستطيع تذكرها، إلا وهي على فراش مرضها، كانت متزوجة من رافائيل كينتيريو أورتيغا - العم كينتيني - محامي فقرا، مولود في تشيكا، على بعد حوالي خمسة عشر فرسخاً عن بوغوتا، وعلى الارتفاع نفسه عن سطح البحر. ولكنه تكيف على أحسن وجه مع منطقة الكاريبي، حتى إنه كان يحتاج في جحيم كاتاكما، إلى زجاجات ماء ساخن عند قدميه، لكي ينام في برودة كانون الأول. كانت الأسرة قد استعادت توازنها من محنة ميداردو باتشيغو، عندما اضطر العم كينتيني إلى تحمل معاناة مختلة، بعد إقدامه على قتل محامي الخصم في نزاع قضائي. كانت له هيئة رجل طبيب وهشام، ولكن الخصم ضايقه دون هوادة، ولم يعد أمامه من مفر سوى التسلح. لقد كان ضئيلاً جداً وعظيماً نحيلاً، يتنعل أحذية طفل، وأصدقائه يسخرون منه بمودة، لأن

المسند كان يبرز منه كما لو أنه يحمل مدفعاً تحت قميصه. وقد حذره الجدُ جدياً بعارقه الشهيرة: "أنت لا تعرف ثقل الغم الذي يخلفه قتل". ولكن الغم كينتي لم يجد الوقت الكافي للتفكير في ذلك عندما اعترض العدو طريقه بصرخات هستيرية، في قاعة الانتظار في المحكمة، ثم انقض على جسده الضخم. "لم أدر كيف أخرجت المسند وأطلقت النار في الهواء، بكلتا يدي، وعينين مغمضتين"، هذا ما قاله لي الغم كينتي، قبل قليل من موته عن مئة سنة. وروى لي: "عندما فتحت عيني، رأيته لا يزال منتصباً على ساقيه، متخماً وشاحباً، ورأيت كيف راح يهوي ببطء شديد، إلى أن خرَّ جالساً على الأرض". لم يكن الغم كينتي قد أدرك، حتى تلك اللحظة، أنه قد أصابه في منتصف جبهته. سأله عما أحس به عندما رآه يهوي، وقد قاجأني صراخه:

- أحسست براحة عظيمة!

ذكرائي الأخيرة عن زوجته وينفريدا، هي في ليلة أقطار عظيمة، عزمت عليها فيها امرأة مشعوذة. لم تكن ساحرة عادية، وإنما امرأة لطيفة، حسنة المظهر وترتدي ملابس دارجة، تطرد بعرق من نبات القراص العليل من الجسد، بينما هي تغني رقبة تشبه أغنيات المهدي. وفجأة، تلوت نانا بتشجيع اختلاجة عميقة، وأقلت من بين ملاكات سريرها عصفورٌ بحجم فرخ دجاج له ريش لامع. التقطته المرأة من الهواء بضربة بارعة من يدها، ولفته بخرقه سوداء جاهزة معها. ثم أمرت بإشعال محرقة في الفناء الخلفي، وألقت بالعصفور بين ألسنة اللهب، دون أي طقوس أخرى. ولكن نانا لم تشف من عائلها.

بعد قليل من ذلك، أعيد إشعال محرقة الفناء، عندما وضعت

وجاجة بيضة عجيبة تشبه كرة بونغ بونغ، لها زائدة مثل التي في أعلى قبة القنطرة الفرنسية. وقد تعرفت عليها جدتي قوراء: "إنها بيضة أفمي صتاجة"^(١). وألقت بها بنفسها إلى النار وهي تغغم بتراتيل رقة.

لا أستطيع أن أتخيل جدتي في سن غير تلك التي هما عليها، في ذكرياتي عن تلك المرحلة. وهي الحقبة نفسها التي التقطت لهما فيها صور في مستهل شبخوختهما. وقد جرى تناقل نُسَخها التي تزداد شحواً عبر أربعة أجيال من ذريتهما، كقطس قبلي. وبخاصة صور الجدة ترانكيلينا، أسرع النساء اللواتي عرفتهن تصديقاً وقابلية للتأثر، بسبب الذعر الذي كانت تسببه لها أسرار الحياة اليومية الغامضة. لقد كانت تحاول بعث البهجة في أعمالها، بالفناء بأعلى صوتها الهرم، أغنيات عاشقين. ولكنها تقطعها فجأة بصرخة الحرب التي تطلقها ضد القدر:

- يا قديسة مريم الطاهرة!

فقد كانت ترى أن الكراسي الهزازة تهتز وحدها، وأن شبح حمى النفاس قد تسلل إلى حجرات الولادات، وأن رائحة شجيرات ياسمين الحديقة هي شبح غير مرئي، وأن جبالاً ملقى على الأرض كبقايا اتفق، له شكل أرقام يمكن أن تربح الجائزة الكبرى في اليانصيب، وأن طائرًا بلا عيون، قد ضل داخل غرقة الطعام ولن يستطيعوا إخراجه إلا بشرطيل الشعظيمة^(٢) مغناة. وتعتقد بأنها تحمل برموز سرية هوية أبطال وأماكن الأغنيات التي تصل من بروينيفيا، كانت تتصور كوارث ستقع عاجلاً أو

(١) أفمي صتاجة basiliaco، أفمي خرافية يُعتقد بأنها بقيت بنظرها.

(٢) الشعظيمة Magnificat، تشيد توجهت به مريم العذراء إلى الرب عندما زارت نسيبتها إيزابيل، ويُغنى هذا التشيد عادة في صلاة المساء، عشية عيد الميلاد، وهو وارد في الإنجيل الأول من (إنجيل لوقا) الآيات ٤٦ حتى ٥٥.

أجلاً، ومهندس من الذي سيأتي من ربهاتشا بقبعة بيضاء، أو من ماناوري، مصاباً بجفص لن يشفى منه إلا بمرارة نسر رخمة، إذ إنها كانت مداوية سرية، فضلاً عن كونها متنبئة في المهنة.

كان لديها نظام خاص جداً لتفسير أحلامها وأحلام الآخرين التي تحكم السلوك اليومي، لكل واحد منها، وتقرب مسار حياة البيت، ومع ذلك، فقد أوشكت أن تموت دون نبوءات أو نذر، عندما أزعجت جانباً في أحد الأيام ملامات سريرها دفعة واحدة، وأطلقت رصاصاً من المسدس الذي كان الكولونيل يخبئه تحت الوسادة، ليكون في متناول يده، وهو نائم. ومن خلال مسار الطلقة التي انغرفت في السقف، تبين أنها قد مرت قريباً جداً من وجه الجدة.

لقد عانيت، منذ صاوت لي ذاكرة، من التعذيب الصباحي الذي كانت تُقرش به مينا أستاذتي، بينما هي تتمتع بالامتياز السحري ينزع أستاذتها، لتغسلها وتضعها في كأس ماء، في أثناء نومه. ولقناعتي بأنها أستاذتها الطبيعية التي تنزعها وتضعها، متى شئت، بفنون سحر غواخيرية، طلبت منها أن تريني جوف قمها، لكي أرى كيف هو من الداخل قفا العينين، والدماغ، والأنف، والأذنين. وعانيت خيبة أمل عدم رؤية أي شيء سوى سقف الخلق. ولكن أحداً لم يفسر لي أعجوبة الأسنان. وقد ألححت الوقت طويلاً على أن يفعل لي طبيب الأسنان مثل الجدة، لكي تُقرش لي أستاذتي بينما أنا ألعب في الشارع.

كان لدينا نوع من الشيفرة السرية، نتواصل خلالها بوساطتها مع كون غير مرئي، في النهار، يبدو لي عالمها السحري أخاذاً، ولكنه في الليل يسبب لي رعباً خالصاً وبسيطاً: الخوف من الظلمة، السايك

لوجودنا، الذي طاردني طوال الحياة، في الدروب المقفرة، وحتى في أوكار الرقص في العالم بأسره. لقد كان لكل قديس في بيت الجدين حجرته، وكل حجرة لها ميتها. ولكن البيت الوحيد المعروف باسم "بيت الميتة" هو المجاور لبيتنا. وميته هو الوحيد الذي عرف بنفسه، في إحدى جلسات استحضار الأرواح، باسمه الأصلي: ألفوتسو سورا. وقد كلف أحد القريين منه نفسه مشقة القصي عنه في سجلات التعميد والوقيات، فوجد عديدين بهذا الاسم نفسه. ولكن أياً منهم لم يكشف عما يشير إلى أنه رجلنا. لقد كان ذلك البيت خلال سنوات متزايدة للغوري، وقد ازدهرت الإشاعة القائلة إن الشيخ هو الأب أنغاريقا نفسه، يظهر لكي يُبعد القضاة الذين يتجسسون عليه في جولته الليلية.

لم أتوصل إلى التعرف على ميني، الجارية الغواخيرية التي جاءت بها الأسرة من بارانكاس، وهربت في ليلة عاصفة مع ألييرو، أخيها المراهق. ولكنني كنت أسمع على الدوام أنهما من لطخا كلام البيت بمقررات من لغة السكان المحليين. لقد كانت قسمايتها العويصة مثار دهشة الشعراء. منذ ذلك اليوم التاريخي الذي وجدت فيه علية الكبريت التي أضاعها الخال خوان دي ديوس، فأعادتها إليه برطانة انتصارية:

- هأنذا، كبريتك.

من الصعب تصديق أن الجدة مينا، مع نساقتها الساهيات، كن عماد اقتصاء البيت عندما بدأت الموارد تنضب. كان الكولونيل يملك أراضي متفرقة احتلها مستوطنون من الكاتشاكو، ورفض هو طردهم منها. واضطر في لحظة ضيق، من أجل إنقاذ شرف أحد أبنائه، إلى رهن البيت في كاتاك. وكلفه عدم فقدانه ثروة كبيرة. وعندما لم يعد هناك أي

شيء، واصلت حينئذ إعالة الأسرة بقوة عملها في الخبز، ومحيوانات السكاكر التي كانت تباع في القرية كلها، والدجاجات متعددة الألوان، وببيض البط، وخصصار الفناء الخلفي. قامت بتقليص جذري في عدد الخدم واستهقت أكثرهم فائدة. وانتهى الأمر بالمال نقداً إلى فقدان معناه، في تقاليد البيت الشفوية. حتى إنهم عندما أرادوا شراء جهاز بيانو لأمي، بعد عودتها من المدرسة، أجرت العمة "با" الحساب الدقيق بالنقد المنزلي: ثمن البيانو خمسة بيضة".

وسط تلك الكتيبة من النساء الانجلييات، كان الجد هو الأمان الكامل لي. فمعهُ فقط يتلاشى القلق، وأشعر بأن قدمي على الأرض، وأنتي مستقر تماماً في الحياة الواقعية. والغريب، وأنا أفكر في الأمر الآن، هو أنني كنت أرغب في أن أصير مثله، واقعياً، شجاعاً، وأتخا بتفسي. ولكنني لم أستطع قط أن أقوم الإغراء الدائم في الإطلال على عالم الجدة، إنني أتذكره بديناً ومتورداً، مع قليل من الشيب في رأسه اللامع، بشارب كأنه فرشاة، حسن التشذيب، ونظارة مدورة ذات إطار ذهبي. كان متمهلاً في كلامه، متفهماً، ومصالحاً في أوقات السلم. ولكن أصدقاء المحافظين يتذكرونه كمعذور مرهوب في النزاعات الحربية.

لم يستخدم زياً عسكرياً قط، لأن رتبته كانت ثورية، وليست أكاديمية. ولكنه إلى ما بعد الحرب بكثير، ظل يرتدي الشرة متعددة الجيوب، التي شاع استخدامها بين محاربي الكاريبي القديما، ومثل صدور قانون متقاعد الحربي، ملأ الاستمارات اللازمة ليحصل على تقاعده. وبقي هو وزوجته وورثته المقربون ينتظرون ذلك التقاعد حتى الموت. جدي ترانكيلينا التي ماتت بعيداً عن ذلك البيت، عمياً،

وهرة ونصف مجنونة، قالت لي في آخر لحظات صحوها: "ساموت مطمئنة، لأنني أعرف أنكم ستلقون راتي نيكولاسيتو التقاعدي". وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها الكلمة الأسطورية التي زوعت، في الأسرة، بذرة الأوهام الأبدية: التقاعد. لقد دخلت الكلمة إلى البيت قبل مولدي، عندما أقرت الحكومة تقاعد قديما، مقاتلي حرب الألف يوم، والجد شخصياً هو الذي أعد الملف، مع إقراط في الشهادات المحلفة ووثائق الإثبات. وحملها بنفسه إلى سانتا مارتا لتوقيع بروتوكول الاستسلام، ووفق أقل الحسابات تفاؤلاً، كان المبلغ كافياً له ولذريته حتى الجيل الثاني، وكان الجد يقول لنا: "لا تقلقوا، فأموال التقاعد ستكون كافية للجميع"، والبريد الذي لم يكن مستعجلاً قط في الأسرة، تحول منذ ذلك الحين إلى مبعوث العناية الإلهية.

أنا نفسي لم أفكر من تحجب الأمر، على الرقم من شحنة الارتياب التي أحملها بداخلي. ومع ذلك، كانت ترانكيلينا تبدي، في بعض المناسبات، مزاجاً لا يتناسب مع اسمها أبداً^(١)، ففي حرب الألف يوم، سُجن جدي في ريوهاشوا على يد ابن عم لها كان ضابطاً في جيش المحافظين. وقد فهم الأقرباء الليبراليون، وهي نفسها، الأمر على أنه عمل حربي لا نفع حياله لأي سلطة أجنبية. ولكن عندما علمت الجدة بأن زوجها يعامل في السجن كمجرم عادي، واجهت ابن عمها بغضب، وأجبرته على تسليمها إياه، سليماً معافى.

عالم الجد كان مختلفاً إلى حد كبير. فحتى في سنواته الأخيرة، كان يبدو وافر النشاط، وهو ينتقل من مكان إلى آخر، حاملاً صندوق

(١) اسمها ترانكيلينا يعني هادئة.

عدته لإصلاح الأعطال في البيت؛ أو عندما يرفع ماء الحمام، طوال ساعات، إلى البراميل، بواسطة المضخة اليدوية في الفناء الخلفي؛ أو عندما يتسلق السلم الشاهق ليضأكه من كمية الماء في البراميل، ولكنه كان يطلب مني، بالمقابل، أن أعقد له رباط، خذاته لأنه يفقد أنفاسه عندما يحاول عمل ذلك بنفسه. وقد نجا من الموت بأعجوبة، في صباح اليوم الذي حاول فيه أن يمسك اليبغا، العمياء التي صعدت حتى البراميل. كان قد تمكن من الإمساك بخناقها، عندما زلت قدمه فجأة، فانزلق عن الجسر الصغير، وهوى على الأرض، عن ارتفاع أربعة أمتار. لم يستطع أحد أن يفسر كيف استطاع النجاة، بالشعين كيلوغراماً التي يزنها، وسنوات عمره التي تزيد على الخمسين. وكان ذلك اليوم هو يومي التاريخي الذي قحت فيه الطيب، شيراً شيراً، وهو صار في السرير، وسأله عن ندبة قديمة بطول نصف بوصة تقريباً. اكتشفها في أصل الفخذ. فقال الجدة:

- إنه أثر رصاصة في الحرب.

حتى الآن لم أشق من التأثير. مثلما لم أشق، بعد، من اليوم الذي أطل فيه إلى الشارع، من نافذة مكتبه، ليرى مرور حصان مشهور يريدون بيعه، وفجأة أحس بانتلاء عينه ماءً. حاول حمايتها بيده فبقيت في راحته بضع قطرات من سائل شفاف. لم يفقد عينه اليمنى وحسب، وإنما لم تستمع له جدتي كذلك بشراً. الحصان المسكون بالشیطان، استخدم لوقت قصير عصاية قرصان فوق منحجر عينه الغائبة، إلى أن استبدلها له طبيب العيون بنظارة حسنة المقاس، ووصف له عكازاً انتهى لأن يكون علامة مميزة له، مثل ساعة الجيب ذات السلسلة الذهبية، التي

كان غطاؤها يُفتح بظفرة موسيقية. وقد كان معروفاً للبلاد، على الدوام، أن غدر السنوات الذي بدأ يقلقه، لم يخلق أي تأثير على نزواته، كمغبر سري وعاشق جيد.

في طقوس حمام الساعة السادسة صباحاً، الذي صار يستحبه معي على الدوام في سنواته الأخيرة، كنا نسكب الماء من الحوض على جسدنا بقرعة مفرغة، ونشهي إلى تضييق نفسينا بما عطر فلوريدا دي لانغان وكمبس الذي كان يبيعه مهربو كوراساو، ويوصلونه في صناديق إلى البيوت، مثل البراندي وقمصان الحرير الصينية. وقد سُمع، في إحدى الحرات، يقول إنه العطر الوحيد الذي يستخدمه، لأن لا أحد يشمه سوى من استخدمه. ولكنه لم يعد يصدق ذلك، عندما تعرفت أحدهم راحته على وسادة غريبة، وقصة أخرى سمعته يكررها، خلال سنوات، هي قصة اللبلة التي انقطع فيها النور، فسكب الجدة على رأسه زجاجة حبر معتقداً أنه ماء عطر فلوريدا.

من أجل الأعمال اليومية في البيت، كان يرتدي بطلاً من القطن الحام، مع حمالتين المطاط الدائمتين. وحذاء خفيفاً وقبعة من المخمل ذات واقية. ومن أجل قداس يوم الأحد، الذي لم يتغيب عنه سوى مرات قليلة، ولأسياب القاهرة، أو في أيام المناسبات المهمة والتاريخية، كان يرتدي بدلة كاملة من الكتان الأبيض، مع ياقة من السيلوليد وربطة عنق سوداء. وهذه المناسبات القليلة هي السبب في شهرته بأنه مبدع ومزدهور. الانطباع الذي أحفظ به اليوم هو أن البيت، بكل ما فيه، كان موجوداً من أجله فقط؛ فقد كانت علاقة زواجه من النوع الذكوري النموذجي، في مجتمع أمومي، حيث الرجل هو الملك المطلق في بيته، ولكن من

تحمكه هي المرأة. ويمكن القول دون مزيد من اللبس والدوران، إنه كان الذكر. هذا يعني: أنه رجل عذب الحنان في جلساته الحميمة، ولكنه ينجعل من ذلك الحنان أمام الملاء، يشما تحرق هي نفسها، لتجعله سعيداً. قام الجدان برحلة أخرى إلى بارانكيّا، في الأيام التي جرى فيها الاحتفال بالثوية الأولى لموت سيمون بوليفار، في شهر كانون الأول ١٩٣٠، من أجل حضور ميلاد أختي عايداً روسا، الرابعة في الأسرة. ولدى عودتهما إلى كاناكا، أحضرا معهما مارغوت، وكان عمرها أكثر من ستة بقليل. وبقي مع أبوي لويس إنريكي، والوليدة الجديدة. وقد تكلفت مشقة كبيرة للاعتياد على التغيير، لأن مارغوت جاءت إلى البيت ككائن من حياة أخرى، رخوة وبرية، وذات عالم داخلي مغلق. عندها رأيتها أبيعابل - والدته لويس كارميلو كورتا - لم تقم لماذا تحمّل جدائي مثل ذلك الالتزام، وقالت: "هذه الطفلة محتضرة". ولكنهم كانوا يقولون الشيء نفسه عني، لأنني كنت قليل الأكل، ولأنني كنت أرمش، ولأن الأشياء التي كنت أرويه، تبدو هائلة، فيظنونها كذبة. دون أن يفكروا في أن معظمها كان صحيحاً بطريقة أخرى. ولم أعلم إلا بعد سنوات طويلة أن الدكتور باربوسا هو الوحيد الذي دافع عني بحجة حكيمة: "أكاذيب الأطفال هي علامة موهبة كبيرة".

مرّ وقت طويل، قبل أن تستسلم مارغوت لأسلوب الحياة الأسرية، كانت تجلس في الكرسي الهزاز لتعصّ أصبعها، في ركن لا يخطر على بال، لم يكن هناك ما يشد انتباهها، باستثناء دقائق الساعة التي تيجت عنها كل ساعة، بعينها الكبيرتين، كمهروسة، لم يتمكنوا من جعلها تأكل، طوال عدة أيام. فهي ترفض الطعام دون دراماتيكية، أو ترمي به

أحياناً في الأركان، ولم يفهم أحد كيف تبقى حية دون أكل، إلى أن انتبهوا إلى أنها لا تحب سوى تراب الحديقة الرطب، ورقائق الكلس التي تنتزعها عن الجدران بأظفارها. وعندما اكتشفت الجدة ذلك وضعت مرآة بقر في أشهى أركان الحديقة، وخبات فلفلاً حاراً في أصص الأزهار. لقد عندها الأب أنغاريتا في الطوقس نفسها التي صادق فيها على التعميد المتعجل الذي أجروه لي عند مولدي. وقد تلقيت مراسم العمد وأنا أفق على كرسي، وتحملت، بشجاعة مهيبة، صلح الطعام الذي وضعه على لساني، وإبريق الماء الذي سكبته فوق رأسي. أما مارغوت، بالمقابل، فقد تمردت على الاثنين بصرخة وحش جريح، وبعضيان اجتاح جسدها بكامله. حتى إن العرابين والعرابيتين لم يتمكنوا من إبقائها عند حوض التعميد، إلا بشق الأنفس.

إنني أفكر اليوم في أنها كائن، في علاقتها معي، أعقل من الكبار، فيما بينهم. وقد كان تواطؤنا شريفاً، حتى إن كل واحد منا كان يحس، في مناسبات عديدة، أفكار الآخر. ففي أحد الأيام، كنت ألعب وإياها في الحديقة، عندما دوى صفير القطار. كما في كل يوم، في الساعة الحادية عشرة. ولكنني في ذلك اليوم أحسست، لدى سماعه، بهاجس لا تفسير له، بأن طيب شركة الموز الذي كان قد أعطاني، قبل شهور، شرباً سمكياً سبب لي نوبة تقيؤ، أت في القطار. ركضت في كل أنحاء البيت، وأنا أصرخ منيهاً ولكن أحداً لم يصدق ذلك، باستثناء شقيقتي مارغوت التي ظلت مختبئة معي إلى أن انتهت الطيب من تناول الغداء، وغادر في قطار العودة. وقد هتفت جذبي، عندما وجدونا مختبئين تحت سريرها: "يا قديسة مريم الطاهرة! بوجود هذين الطفلين، لا حاجة إلى التلغراف".

لم أستطع، قط، تجاوز الخوف من البقاء وحيداً، ولا سيما في الظلام. وأظن أن هناك متشأً محدداً لذلك، ففي الليل، تتجسد أشباح وتُذر الجدة. حتى الآن. وأنا في السبعين، أرى في أحلامي حدة الياسمين في الممر، وأشباح غرف النوم المعتمة؛ ودائماً بالإحساس الذي أقسده طفولتي: الرعب من الليل. لقد توجست مرات كثيرة، في ليالي أرقى التي تماوي أرق العالم بأسره، أنني أنا أيضاً أجرجر لعنة ذلك البيت الخرافي، في عالم سعيد، حيث كنا نموت في كل ليلة.

أغرب ما في الأمر، أن الجدة كانت تقيم أود البيت بحسبها غير الواقعي. كيف كان بالإمكان إعالة قطار الحياة ذاك، بموارد على ذلك القدر من الشح؟ الحسابات لا تضبط. كان الكولونيل قد تعلم مهنة أبيه الذي تعلمها بدوره من أبيه. وعلى الرغم من شهرة أسسائه الذهبية الصغيرة التي يراها المرء في كل مكان، إلا أنها لم تكن بالتجارة الراجعة. بل أكثر من ذلك: فعندما كنت طفلاً، كان يراودني إحساس بأنه لا يصنعها إلا في فترات قصيرة أو عندما يهين هدية زفاف. وكانت الجدة تقول إنه لا يشتغل إلا ليقدم الهدايا. ومع ذلك، فإن شهرته كموظف، توطدت تماماً عندما كسب الحزب الليبرالي السلطة، وكان خازناً لعدة سنوات ومدير مالية، عدة مرات.

لا يمكنني تخيل وسط أسري أكثر ملاءمة ليلى، من ذلك البيت الجنوني، ولا سيما بفعل طبع النساء الكثيرات اللواتي تولين تنشئتي. الذكوران الوحيدان كنا جدي وأنا، وكان هو من بدأ بإدخالني في واقع الكبار الحزين، بحكايات عن معارك دامية وشروحات مدرسية عن طيران الطيور، ورمود الغروب. وشجعني في هواية الرسم. في البدء، كنت

أرسم على الجدران، إلى أن أطلقت نساء البيت الصوت حتى السماء، قائلات: الجدار والصور هما ورقة الوغد. فغضب جدي، وأمر بطلاء أحد جدران مشغل الصياغة بالأبيض، واشترى لي أقلام ألوان، ثم اشترى لي فيسما بعد، عليه ألوان مائية، لكي أرسم على هواي، بينما هو يصنع أسسائه الذهبية الصغيرة المشهورة. وقد سمعته في أحد الأيام يقول إن حفيده سيصير رساماً. ولم يشد ذلك اهتمامي، لأنني كنت أظن أن الرسامين هم من يدهنون الأبواب فقط^(١).

من عرفوني، وأنا في الرابعة من عمري، يقولون إنني كنت شاحياً ومستغرقاً في التأمل، وإنني لم أكن أتكلم إلا لأروي هذياناً. ولكن حكاياتي، في معظمها، كانت أحداثاً بسيطة من الحياة اليومية، أجعلها أنا أكثر جاذبية بتفاصيل متخيلة، لكي يصفي إليّ الكبار. وكانت أفضل مصادر إلهامي، هي الأحاديث التي يتبادلها الكبار أمامي، لأنهم يظنون أنني لا أفهمها، أو أنني يشقونها عمداً، كيلا أفهمها. لكن الأمر كان خلاف ذلك: فقد كنت أمتصها مثل إسفنجة، وأفككها إلى أجزاء، وأقلبها لكي أخفي الأصل؛ وعندها أرويها للأشخاص أنفسهم الذين رووها، تملكهم الحيرة للتوافق الغريب بين ما أقوله، وما يفكرون فيه.

في بعض الأحيان، لم أكن أعرف ما أفعله بضميري؛ وأحاول مواراته بطرف عيني طرْقاً سريعاً. وكان ذلك يتكرر إلى حد أن شخصاً عقلياً في الأسرة، قرر أن يعرضني على طبيب عيون، فعزا هذا الأخير

(١) الالتباس هو في إطلاق التسمية نفسها على الرسام الفنان والنقاش الدخان، فكلاهما يدعى pintor.

طُفَّ عيني إلى علة في اللوزتين، ووصف لي شرباً من لفت مَبُوق، كان مفعوله جيداً لطعانة الجدين. وتوصلت الجدة من جهتها إلى النتيجة القلبية، بأن حفيدها متنبئ. فجعل ذلك منها ضحيتي المفضلة، حتى اليوم الذي أغسي عليها فيه لأنني حلمت، فعلاً، بأن عصقوراً حياً قد خرج من فم الجد. وكان الرعب من أن أكون السبب في موت الجد. هو العنصر المهدئ الوحيد لاندفاعي المبكر. وأنا أفكر الآن في أن كل ذلك لم يكن خبث طفل، كما يمكن أن يُظن، وإنما التفنيات البدائية لراو في بداياته، من أجل جعل الواقع أكثر متعة وقابلية للفهم.

خطوتي الأولى في الحياة الواقعية، كانت اكتشافي كرة القدم، في وسط الشارع أو في بعض البساتين المجاورة. كان معلمي هو لويس كارميلو كورتا الذي ولد مزوداً بغريزة خاصة بالعباب الرياضة، وبموهبة خلفية في الرياضيات. كنت أكبره بخمسة شهور، ولكنه كان يسخر مني، لأنه ينمو أكثر وأسرع. بدأنا اللعب بكرة من الخرق. وتوصلت إلى أن أكون حارس مرمى جيداً، ولكننا عندما انتقلنا إلى اللعب بالكرة النظامية، عانيت من ضربة على المعدة، بتسديدة قوية منه؛ ولم أمض إلى ما هو أبعد من ذلك. وخلال المرات التي التقيت فيها ونحن كبار، تبين لي بسعادة كبيرة أننا ما زلنا نتعامل، مثلما كنا ونحن طفلان. وضع ذلك، فإن الذكرى الأكثر تأثيراً من تلك الحقيبة، هي المرور السريع العابر لنانب مدير ترمين شركة الموت، في سيارته الفخمة المكشوفة، وإلى جانبه امرأة ذات شعر ذهبي طويل، مغللت للمريح، وكلب حراسة ألماني جالس كملك في مقعد الشرف. لقد كانوا رؤيا سريعة عابرة من عالم نا. وبعيد الاحتمال، محظور علينا، نحن البشر الفانين.

بدأت المساعدة في القداس دون إيمان كبير، ولكن بصراحة، ربما كانوا يحتسبونها لي كعنصر جوهري من الإيمان. ولا بد أن تلك المزايا الحميدة هي السبب في أنهم أخذوني، وأنا في السادسة من عمري، إلى الأب أنغاريستا لتلقيتي أسرار المناولة الأولى. لقد تبدلت حياتي، فقد بدؤوا يعاملونني كراشد، وعلمتني القندلفت كيف أساعد القس في القداس. وكانت مشكلتي الوحيدة هي أنني لم أكن أعرف، في أي لحظة عليّ قرع ناقوس؛ فكنت أفرعه عندما يخطر لي ذلك، بإلهام محض وبسيط. وفي المرة الثالثة، التفت الأب نحوي وأمرني، بنبرة جافة، بألا أقرع الجرس مجدداً. الجزء الجيد من الخدمة الدينية، كان يأتي عند بقائي مع خادم الكاهن الآخر والقندلفت وحيدين لترتيب حجرة المقدسات؛ فكنا نأكل ما يفيض من خبز القربان، مع كأس من النبيذ.

عشية تناولتي الأولى، أخذ الأب اعترافاني دون مقدمات، وهو جالس مثل بابا حقيقي على المشكأ الذي كعشر، بينما أنا جاثٍ قبالة، على وسادة من المخمل. كان وعيي للخير والشر بسيطاً جداً. ولكن الأب ساعدني بمعجم من الخطايا، لكي أقول له أيها اقتترفت، وأنها لم أقرتفه. أظن أنني أجيت جيداً، إلى أن سألني إذا ما كنت قد مارست أفعالاً منكراً مع حيوانات. كانت لدي فكرة عامة غامضة عن أن بعض الكبار يقتربون مع الحمير خطيئة، لم أكن أفهم حقيقتها، ولكنني في تلك الليلة فقط، تعلمت أن فعل ذلك ممكن أيضاً مع الدجاجات. وهكذا كانت خطوتي الأولى، إلى المناولة الأولى، قفزة كبيرة أخرى على طريق قداني البراءة. ولم أعد أجد دافعاً مشجعاً لمواصلة المساعدة في القداس. اختباري بالنار، كان يوم انتقل أبواي إلى كاتاكما، مع لويس

إثريكي وغايدا، أخوتي الآخرين. أما مارغوت التي تكاد لا تعرف أباهما، فقد كانت ترتعب منه. وأنا أيضاً، ولكنه كان أشد جذواً صعباً. في مناسبة واحدة فقط، نزع الحزام ليجلدني، فوقفت متأهباً، وعضضت على شفتي كيبلا أبكي. فأثزل ذراعته، وبدأ بعيد وضع الحزام حول خصره، بينما هو يؤنسي من بين أسنانه، على ما فعلته، وقد اعترف لي، في حواراتنا الطويلة كراشدين، بأنه كان يتألم كثيراً لجلدنا؛ ولكنه ربما كان يفعل ذلك، لخرقه من أن نخرج منحرفين. لقد كان مسلياً في لحظات صفائه. وكان يسعدني أن يروي دعايات على المائدة، بعضها جيدة. ولكنه يكررها كثيراً حتى أن لويس إثريكي نهض يوماً وهو يقول:

- أخبروني عندما تنتهون من الضحك.

ومع ذلك، فإن المجلدة التاريخية هي تلك التي نالها لويس إثريكي، في الليلة التي لم يظهر فيها في بيت أبيه، ولا في بيت جديته، فيحشوا عنه في نصف القرية، إلى أن عثروا عليه في السيتما. كان ثيلسو دائماً، يائع المرطبات، قد قدم إليه كأس شراب مرطب في الساعة الشامتة ليلاً. وقد اختفى، دون أن يدفع، وأخذ الكأس معه. وباعته صانعة المعجنات المقلبة قطيرة، ورأته يتحدث بعد ذلك بقليل، مع بواب السيتما الذي سمح له بالدخول مجاناً، لأنه قال له إن أباه ينتظره في الداخل. كان الثيلسم هو دراكولا، من قبيل كارلوس قبلارياس ولوبستا توفار، وإخراج جورج ميغفورد، ولقد حدثني لويس إثريكي، بعد سنوات، عن رعيه في اللحظة التي أضيئت فيها أنوار الصالة، حين كان الكونت دراكولا على وشك أن يغرس أنيابه كمصاص دماء، في رقبة الحسناء. كان يجلس في أكثر مكان متوارٍ وجده شاعراً في الصالة. ومن هناك

رأى أبي وجدي يبحثان عنه، صفواً صفواً، في المقاعد؛ ومعهما صاحب السيتما وشرطيان، كان على وشك الاستسلام، عندهما اكتشفه بالبالو في الصف الأخير من القاعة، وأشار إليه بعكازه:

- إنه هناك!

سحبته أبي من شعره، وجلده في البيت بالحزام جلدًا ظل عبيرة أسطورية في تاريخ الأسرة. الرعب والتقدير للذان شعرت بهما تجاه سلوك أخي الاستقلالي ذاك، ظلاً حين إلى الأبد في ذاكرتي. أما هو فكان يبدو وكأنه يتجاوز كل شيء، ليصبح أكثر بطولية، في كل مرة. ومع ذلك، فلنسي أصاب بالذهول اليوم، من أن قرده لم يكن يتحدى في الفترات القادرة التي يكون فيها أبي غائباً عن البيت.

التجأت، أكثر من أي وقت آخر، إلى ظل الجيد، لقد كنا معاً على الدوام، في فترات الصباح في مشغل الصياغة أو في مكتبه كموظف مالية، حيث خصني بوظيفة سعيدة: رسم علامات وسم الأبقار التي ستذبح. وكان يأخذ الأمر بجدية، إلى حد يتخلى لي معه عن موقعه على منضدة المكتب. وفي موعد الغداء، بوجود كل المدعوين، تجلس معاً على رأس المائدة، هو مع إبريقه الألبوم الكبير المملوء بالماء، الثلج، وأنا مع ملعقة قضية أستخدمها في كل شيء. وما كان يلفت النظر، أنني إذا أردت قطعة من الثلج، أمد يدي في الإبريق لأخذها، فتعشش كل على سطح الماء، طبقة من الدهن، وكان جدي يدافع عني: "إنه يتسحق بكل الحقوق".

في الساعة الحادية عشرة، نذهب إلى المحطة، عند وصول القطار؛ فابنه خوان دي ديوس الذي ظل يعيش في سائنا سارنا، كان يبعث إليه

العالم بأسره. كنتُ مفتوناً بسحرة المهرجان الشعبي الذين يُخرجون أرائب من قسعاتهم، وآكلي النار، والمتكلمين من يظنونهم الذين يجعلون الحيوانات تتكلم، وعازقي الأكورديونات الذين يغنون بأعلى أصواتهم، ناقلين الأحداث التي تقع في هروينشيا. وقد انتبهت اليوم إلى أن أحدهم، وكان عجوزاً جداً وله لحية بيضاء، يمكن له أن يكون فرانيسكو الإنسان الأسطوري.

كلما بدا لدون أنطونيو داكوتني أن القيلم ملاتم، كان يدعونا إلى العرض المبكر في صالته أوليبيا، مشيراً بذلك دَعر الجدة التي ترى في السبنا، خلاعة لا تليق بحفيد بري.. ولكن بأباليلو كان يصغر على أخذني معه، وفي اليوم التالي يطلب مني رواية القيلم على المائدة. ويصنع نسياني وأخطائي، ويساعدني على إعادة بناء المقاطع الصعبة. كانت تلك ومضات فن درامي أفادتني دون أدنى شك! ولا سيما عندما بدأت رسم قصص سلسلة، قبل أن أتعلم الكتابة. في البدء كانوا يحتفون بها كظرافات صيبانية. ولكن استحسان الكبار السهل كان يروقتي، حتى انتهى بهم الأمر إلى الهرب عندما يشعرون بقدومي. وقد حدث لي الشيء نفسه، فيما بعد، مع الأغنيات التي كانوا يجبرونني على غنائها، في حفلات الزفاف وأعياد الميلاد.

قبل الذهاب للنوم، كنا نر لبعض الوقت على مشغل البلجيكي؛ وهو عجوز مربع ظهر في أراكاتاكا، بعد الحرب العالمية الأولى. ولا أشك في كونه بلجيكياً، بسبب الذكرى التي أحفظها بها عن لكنته الطائشة وحينه كبحار، وكان الثكائن الحي الآخر في بيته كلباً دمر كياً ضخماً، أصم ولوطياً، اسمه مثل اسم رئيس الولايات المتحدة: وودرو

رسمالة في كل يوم، مع سائق القطار المتأوب الذي يتقاضى، مقابل ذلك، خمسة سنتات. وكان الجدد يرد عليه بخمسة سنتات أخرى، في قطار العودة. وفي المساء، عندما قبيل الشمس، يأخذني من يدي، ليقيم بمساعده وشؤونه الشخصية. كنا نذهب إلى محل الخلاعة - وهي أطول ربع ساعة في الطفولة - ولزوجة الألعاب النارية - كانت تخيفني - في الأعياد الوطنية؛ وإلى مواكب أسبوع الآلام - حيث تمثال المسيح الميت الذي كان يبدو لي أنه من لحم وعظم -. وكنت أستخدم آنذاك برنيطة ذات مربعات اسكتلندية، مثل واحدة للجد، اشترتها لي مينا لكي أصبح أكثر شبهاً به. وقد توصلت إلى ذلك على أحسن وجه، حتى إن العم كينتي كان يرانا كشخص واحد، بعمرين مختلفين.

في أي ساعة من ساعات النهار، كان الجد يأخذني للشراء من متجر شركة الموز المتربع بالطينبات. وهناك عرفتُ أسماك البارغو، ووضعت للمرة الأولى، يدي على الجليد، وهزني اكتشاف أنه بارد. كنت سعيداً يأكل ما يخطر لي. ولكنني كنتُ أملُ أدوار الشطرنج التي يلعبها جدي مع البلجيكي، والأحداث السياسية. ومع ذلك، فإنني ألاحظ الآن أننا، في تلك الجولات الطويلة، كنا نرى عاملين مختلفين. جدي يرى عالمه على مستوى أفقه، وأنا أرى عالمي على مستوى عيني. كان يحبني أصدقاءً على الشرفات، وأنا أتشوق إلى ألعاب بانعي الشوارع المعروضة على الأرصفة.

وفي بداية الليل، كنا نتأخر في صخب الأركان الأربعة الكوني، حيث كان يتبادل الحديث مع دون أنطونيو داكوتني، الذي يستقبله واقفاً عند باب متجره المزركش، وبينما أقف أنا مذهولاً بالمستجدات الآتية من

ويلسون. لقد تعرفت على البلجيكي وأنا في الرابعة من عمري، عندما كان جدي يذهب ليلعب معه بضعة أدوار شطرنج بكما، ولانهائية. منذ الليلة الأولى، أثار دهشتي أنه لم يكن هناك في بيته شي، أستطيع أن أعرف فائدته واستخدامه. فقد كان فناناً في كل شي: يعيش وسط فرضي أعماله: مناظر بحرية بالياستيل، صور فوتوغرافية لأطفال يحتفلون بأعياد ميلادهم أو يناولتهم الأولى، مستنسخات لمجوهرات أسبوية، وجوه منحوتة على قرون أبقار، أثاث من عصور وطُرُز متنوعة مكمومة، بعضها فوق بعض.

شد انتباهي جلده المتلصق بعظامه، وهو بلون شعره الأصفر الشمسي نفسه الذي تهدل خصلة منه على وجهه، وتضايقه عند التكلم. كان يدخل بغليون ذئب بحر، لا يشعله إلا من أجل الشطرنج، وكان جدي يقول إنها حيلة لإرباك الخصم. وكانت له عين زجاجية زائغة تبدو أكثر انجذاباً إلى محدثه من العين السليسة، وكان مشلولاً من خاصرته إلى أسفل، منحنيًا إلى أمام وملتبسًا إلى اليسار. ولكنه يبحر مثل سمكة بين عوائق مشغله، متعلقاً على عكازيه الخشبيين، أكثر مما هو مستند إليهما. لم أسمع به يتكلم قط، عن مغامرات إبحاره، وكانت على ما يبدو كثيرة وجريئة. أما الولد الوحيد المعروف عنه خارج بيته، فهو السينما. لم يكن يتخلف عن أي فيلم، من أي نوع، في نهاية كل أسبوع.

لم أحبه قط، وأقل من ذلك، خلال جولات الشطرنج التي يتأخر فيها ساعات، لكي يحرك قطعة، بينما أنا أنهالك من النعاس. في إحدى الليالي رأيت شاحباً جداً، ودهمشتي النبوة المنقذة بأنه سيموت عما قريب؛ فأحسست بالشفقة عليه، ولكنه مع مرور الزمن، صار

يستغرق وقتاً طويلاً، في التفكير في كل نقلة، إلى حد انتهيت معه إلى قنبي موته، من كل قلبي.

في تلك الفترة، علق الجد في غرفة الطعام، لوحة تمثل بطل التحرير سيمون بوليفار، وهو مسجى بعد موته. ولم أفهم لماذا هو بلا الكفن الذي كنت قد رأيته في طقوس السهر على موتى آخرين، وإنما مددًا على منضدة مكتب، بالزي العسكري الذي كان يرتديه في أيام مجده. وقد أخرجني جدي من تلك الشكوك، بحملة حاسمة: - لقد كان مختلفاً.

ثم قرأ لي، بصوت مرتعش لا يشبه صوته، قصيدة طويلة معلقة إلى جانب اللوحة، أتذكر منها إلى الأبد، الأبيات الأخيرة فقط: "أنت يا سانثا هارتا، كنت كريفة مضياقة. قانت، في أحضانك، متحتة قطعة الأرض الصغيرة تلك على الشاطئ، لكي يموت فيها". منذ ذلك الحين، والسنوات طويلة، ظلت واسخة، في ذهني، فكرة أنهم عشيروا على بوليفار ميتاً على الشاطئ. وكان جدي هو من علمني وطلب مني ألا أنسى أن ذلك الرجل هو أعظم من ولد في تاريخ العالم. وقد اختلط عليّ الأمر، لتناقض عبارته تلك مع عبارة أخرى كانت الجدة قد قالتها لي بتقخيم مائل. فسألت الجد عما إذا كان بوليفار أعظم من يسوع المسيح. فرد عليّ وهو يهز رأسه، دون قناعته الراسخة السابقة: - لا علاقة لهذا بذلك.

لقد صرت أعرف الآن، أن الجدة هي التي فرضت على زوجها أن يأخذني معه في جولاته المسائية، لأنها كانت واثقة بأن جولاته تلك، ليست سوى ذريعة لزيارة عشيقاته الحقيقيات أو المفترضات، من

المحتمل أنه كان يستغلها كستارة . ولكن الحقيقة أنه لم يذهب معي قط، إلى أي مكان غير مقرر في جولته، مسبقاً . ومع ذلك، لدي في ذاكرتي صورة واضحة لليلة، مررت فيها بمصادفة وأنا أسلك بيد أحدهم، قبالة بيت مجهول، ورأيت الجدد جالساً كالسيد والمالك في الصالة. ولم أستطع قط، أن أفهم لماذا حزني الإحساس بأنه يجب عليّ عدم إخبار أحد بذلك، حتى شمس هذا اليوم.

وكان الجدد أيضاً هم من حقق اتصالاً الأول بالحرف المكتوب، وأنا في الخامسة من عمري، في مساء يوم أخذني فيه للتعرف على حيوانات سيرك مرّ من كاناكا، تحت خيمة كبيرة، مثل كنيسة. وكان أكثر حيوان شذّ انتباهي هو مجتر مكتئب، وفي حالة مزاجية، له ملامح أم مرعية، وقال لي الجدد:

- إنه جميل.

فاعترض شخص يقف قريباً منا بالقول:

- المعذرة يا كولوثيل، ولكن هذا وحيد ستام^(١).

ويمكنني أن أتخيل الآن، كيف كان إحساس الجدد، لأن أحدهم صحب له ما قاله، بحضور حقيقته. ودون أن يحاول التفكير في الأمر، مجاوزه بسؤال وجيه:

- وما الفرق؟

فقال له الآخر:

- لا أدري، ولكن هذا وحيد السنام.

(١) تطلق تسمية camello على جمال آسيا الوسطى ذات السنامين، أما جمال الصحراء العربية وحيد السنام فيسمى dromedario.

لم يكن الجدد بالرجل المثقف، ولم يكن يحاول أن يكونه؛ فقد هرب من المدرسة العامة، في ريوهاتشا، كي يذهب ليطلق النار في واحدة من حروب منطقة الكاربيبي الأهلية التي لا حصر لها. لم يعد إلى الدراسة، ولكنه بقي واعياً طوال الحياة لخوانه، وكان به نهم إلى المعارف المباشرة التي تعوض نقصه. وفي مساء يوم السيرك ذلك، رجع إلى مكتبه، مشطب العزيمة، ويبحث في المعجم باهتمام طفولي. وعندئذ عرف هو، وعرفت أنا إلى الأبد، الفرق بين وحيد السنام والجمال. ثم وضع، بعد ذلك، المجلد الضخم في حضني وقال لي:

- هذا الكتاب لا يعرف كل شيء وحسب، وإفنا هو الكتاب الوحيد الذي لا يخطئ أبداً.

كان مجلداً ضخماً مصوراً، وعلى كعبه رسم تمثال تصنّقر على كتفيه قبة الكون. لم أكن أعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنني كنت قادراً على تصور مدى صحة ما قاله الكولوثيل، ما دمت أرى ما يقارب ألفي صفحة كبيرة، موشومة ومزينة برسوم بديعة. كان حجم كتاب الصلوات في الكنيسة قد أذهلني، ولكن المعجم كان أسهل منه. وبدا لي ذلك، كما لو أنني أطل على العالم بأسره، لأول مرة. فسألت:

- كم كلمة فيه؟

- كل الكلمات - قال الجدد.

الحقيقة، أنني لم أكن بحاجة آنذاك إلى الكلمة المكتوبة؛ لأنني كنت قادراً على التعبير بالرسوم عن كل ما يترن فيّ. ففي الرابعة من عمري، رسمت ساحراً يقطع رأس امرأته، ويعيد إصاقه في مكانه، مثلما فعل الساحر رشاردن، لدى مروره في صالة سينما أولمبيا.

المشهد المرسوم يبدأ بقطع الرأس بمشار، يتلوه عرض انتصاري للرأس الدامي، وينتهي بالمرأة، وهي تود على تصفيق الجمهور محببة برأسها الذي أعيد إلى مكانه. كانت القصص المصورة قد اختُصرت آنذاك، ولكنني لم أتعرف عليها، إلا فيما بعد، في الملاحق الملونة لصحف يوم الأحد. وقد بدأت عندئذ باختراع حكايات مرسومة دون حوارات. ومع ذلك، عندما أهدى إليّ الجدة المعجم، أيقظ في نفسي فضولاً نحو الكلمات، إلى أن صرت أقرؤه كرواية، وفق التسلسل الأبجدي، ودون أن أفهمه تقريباً. هكذا كان اتصالي الأول مع ما سيكون الكتاب الأساسي في قدرتي ككاتب.

في الواقع، أنه عندما تُروى للأطفال أول قصة تشد اهتمامهم، يصعب بعد ذلك، أن يرغبوا في سماع قصة أخرى. أظن أن هذه ليست حالة الأطفال القصاصين، ولم تكن حالتي. فقد كنت أريد المزيد، فالنهم الذي كنتُ أستمع به إلى القصص، يدفعني على الدوام، إلى انتظار قصة أفضل في اليوم التالي، وبخاصة تلك التي لها علاقة بأسرار وخرائب التاريخ المقدس.

كل ما يحدث لي في الشارع، كان له وقع هائل في البيت. ترويه نساء المطبخ للغرباء الذين يأتون في القطار - ويأتي هؤلاء بدورهم ولديهم ما يروونه - ويندمج كل ذلك في سبل التقاليد الشفوية. بعض الأحداث تعرف أولاً، من خلال عازفي الأكورديونات الذين يغنونها في المهرجانات، فبعيد المسافرون روايتها ويغنونها. ومع ذلك، فإن الحدث الأعظم تأثيراً في طفولتي، خرج لي في يوم أحد، باكراً، عندما كنا سنذهب إلى القديس، وبدأ بعبارة عابرة قالتها جدتي:

- ميتخلف نيكولا ميتو المسكين عن قديس العنصرة اليوم، أسعدني ذلك، لأن قديس يوم الأحد طويل جداً بالنسبة إلى سني، ومواعظ الأب أنغارتا الذي طالما أحبته في طفولتي، تبدو لي منومة. ولكنه كان وهماً دون طائل؛ فقد اقتادني الجد بما يشبه الجرجرة، وأخذني إلى مشغل البلجيكي، ببذلة المخمل الخضراء، التي أردتها للذهاب إلى القديس، وكانت تضغط ما بين ساقي، تعرف شرطيو الحراسة على الجد من بعيد، ففتحوا له الباب، مع العبارة التقليدية:

- نفضل أبها الكولونيل.

عندئذ فقط عرفت أن البلجيكي قد استثنى أبخرة سبانور الذهب - تقاسمها مع كليه - بعد أن شاهد فيلم "لا جديد على الجبهة" من إخراج لويس مايلستون، عن رواية إريك ماريا ريكارد، الحديس الشعبي الذي يجد الحقيقة دائماً، حتى حيث لا يكون ذلك ممكناً، تفهم الأمر، وأعلن أن البلجيكي لم يعد يتحمل هزة الانفعال لرؤيته نفسه يتمرغ مع كتيبه المزقة أشلاء في أحد مستنقعات الثورماندي.

كانت صالة الاستقبال الضيقة في شيه ظلمة، بسبب النافذة المغلقة، ولكن نور الصباح الباكر في الفناء، كان يضيء غرفة النوم، حيث كان العمدة وشرطيان آخران ينتظرون الجد. وهناك كانت الجدة مغطاة ببطانية، على سرير عسكري ضيق؛ والعكازان في متناول اليد، حيث تركهما صاحبهما قبل أن يستلقي ليموت. وإلى جانيهما، على مقعد خشبي صغير، الطست الذي يخبّر فيه السبانور، وورقة عليها حروف كبيرة مرسومة بريشة رسام: "لا تنهوا أحداً، لقد قُلت نفسي لأنني أحق". لم تدم الإجراءات القانونية وتفاصيل الدفن التي أجراها الجد أكثر من

عشر دقائق. ولكنها كانت بالنسبة لي عشر دقائق الأشد تأثيراً التي سأذكرها في حياتي.

أول ما حزني، منذ الدخول، هي راحة غرفة النوم. ولم أعرف إلا بعد وقت طويل من ذلك، أنها كانت راحة اللوز المر المنطلقة من السيانور الذي استشفه البلجيكي ليسوت. ولكن لن يكون هذا الانطباع، ولا أي انطباع آخر سواء، أشد أثراً وعموماً من رؤية الجثة، عندما أزاح العمدة البريطانية عنها ليربها للجد. كان غريباً، متيبساً، معوجاً. بشرته الخشنة مغطاة بشعر أصفر. والعينان راكدتا الماء. نظران إلينا وكأنهما حيتان. هذا الرعب من الإحساس بأنني مراقب من الموت، حزني طوال سنوات كلما كنتُ أمر إلى جوار القبور التي بلا صليبان، المخصصة للمتحررين المدفونين خارج القبرة، بترتيب من الكنيسة. ومع ذلك، فإن ما عاد إلى ذاكرتي مع شحنة قوية من الرعب، لدى رؤية الجثة، هو الملل الذي كنتُ أشعر به في الليالي التي نذهب فيها إلى بيته. وربما لهذا السبب، قلتُ لجلي عندما غادرت البيت:

— لن يعود البلجيكي إلى لعب الشطرنج. بعد اليوم.

كانت فكرة بسيطة، ولكن جذي رواها في الأسرة كخاطرة عبقرية. ونشرتها النساء بحماس كبير، حتى إنني كنتُ أهرب في إحدى الفترات من الزائرين، خوفاً من أن يرووا لهم ذلك أسامي، أو أن يجبروني على إعادته، وقد كشف لي ذلك أيضاً أحد شروط الكيمياء الذي سيكون ذا فائدة كبيرة لي ككاتب: فكل واحد منهم يروي القصة مع تفاصيل جديدة، يضيفها من عنده، إلى حد تصبح معه الروايات المتعددة في النهاية، مختلفة عن الأصلية. لا يمكن لأحد أن يتصور الشفقة التي

أشعر بها، منذ ذلك الحين، على الأطفال المساكين الذين يعتبرهم آبائهم عباقرة، فيجعلونهم يغنون أمام ضيوفهم، ويقلدون أصوات الطيور أو يدفعونهم حتى إلى أن يكذبوا للتسلية. وقد أدركت اليوم، مع ذلك، أن تلك الجملة البسيطة كانت نجاحي الأدبي الأول.

كانت هذه هي حياتي في العام ١٩٣٢، عندما أعلن أن البيرو، تحت النظام العسكري للجنرال لويس ميغيل سانتشيث ثيرو، قد احتلت بلدة ليتشبا، التي بلا حامية، على ضفاف نهر الأمازون، في أقصى جنوبي كولومبيا، دوى الحبر في أجواء البلاد. وأعلنت الحكومة التعبئة الوطنية، وحملة تبرعات عامة لجمع المجوهرات والأسرية ذات القيمة من بيت إلى بيت. حدة الوطنية المتزايدة بسبب هجوم قوات البيرو الغادر استشارت استجابة شعبية لا سابق لها. ولم يكن جامعو التبرعات يتوانون عن تحصيل تلك الضرائب الطوعية، من بيت إلى بيت، وبخاصة خواتم الزفاف، المرغوبة لقيمتها الحقيقية، وقيمتها الرمزية على السواء.

أما بالنسبة لي بالمقابل، فكانت واحدة من أسعد الفترات، لما تخللها من فوضى. فقد كُسر نظام الصرامة العقيم في المدارس، وحل محله الإبداع الشعبي في الشوارع والبيوت. تشكل فوج مدني من صفوة الشبيبة، دون تمييز في الطبقة الاجتماعية أو اللون، وأنشئت كتائب الصليب الأحمر النسائية، وألفت على عجل أناشيد تدعو إلى الحرب حتى الموت، ضد المعتدي الزنيم، ودوت في أجواء الوطن الصرخة الجماعية: "فلتعتش كولومبيا، ولتسقط البيرو".

لم أعرف قط إلى ما انتهت تلك المأثرة، لأن الخواطر هدأت بعد وقت قصير، دون تفسيرات كافية. وترسخ السلام على إثر اغتيال

الجنرال سانتشيت ثيرو، على يد أحد المعارضين لحكمه الدموي، وتحولت صرخة الحرب إلى روتين للاحتفال بانتصارات كرة القدم المدرسية. ولكن أبوي اللذين ساهما بخاتي زفافهما من أجل الحرب، لم يشفيا أبداً من سذاجتهما.

ووفق ما تصل إليه ذاكرتي، فإن ميلي إلى الموسيقى، تكشف في تلك السنوات، من الاتيهار الذي أثاره في نفسي، عازفو الأكورديونات بأغنيات الجوالين. كنت أعرف بعض تلك الأغاني عن ظهر قلب، مثل تلك التي تغنيها النساء في المطبخ خفية، لأن جدتي تعتبرها أغنيات وضعية. ومع ذلك، فإن حاجتي الملحة إلى الغناء، لكي أشعر بأنني حي، يشتها في نفسي أغنيات التانغو التي يغنيها كارلوس غارديل، وأصابت بعدواها نصف العالم. كنت أطلب أن يلبسوني مثله، مع قبعة من اللبيلد ولقاع من الحرير، ولم أكن بحاجة إلى من يشوغل إلي كثيراً لكي أطلق أغنية تانغو بل «صدري. حتى صباح الخميس الذي أيقظتني فيه العمة ماما لتخبرني بأن غارديل قد مات في تصادم طائرتين في ميدلين. قبل شهر من ذلك، كنت قد غنيت «الانحدار إلى الهاوية» في سهرة خيرية، ترافقني على البيانو الأختان إتشيفيري، البروغويتتان الصافيتان، اللتان كانتا معلمتي معلمين، وروح كل مهرة خيرية وحفلة ذكرى وطنية تقام في كاتانكا. وقد غنيتُ برومك بتفرد شديد حتى إن أمي لم تتجرأ على معارضتي، عندما قلتُ لها إنني أريد تعلم العزف على البيانو، بدل الأكورديون الذي تلقته الجدة.

في تلك الليلة بالذات، أخذتني إلى الأتستين إتشيفيري لكي تعلماني. وبينما هن يتكلمن، كنت أنظر إلى البيانو من طرف الصالة

الأخر بورع كلب بلا سيد، وأقدر إذا ما كانت ساقاي ستصلان إلى الدواسات، وأتشكك إذا ما كان إصبعاي، الإبهام والخنصر، يصلان إلى الفواصل المتباعدة جداً، أو إذا ما كنتُ سأتمكن من فك هيروغليفيات المدرج الموسيقي. كانت زيارة آمال زاهية استمرت ساعتين. ولكن دون طائل؛ فقد قالت لثا المعلتان في النهاية، إن البيانو معطل، ولا تعرفان إلى متى سيبقى كذلك. فتأجلت الفكرة إلى أن يعود المدوّن في جولته السنوية القادمة. ولم يعد أحد إلى الحديث عن تلك الفكرة إلا بعد مرور نصف حياة، عندما ذكرتُ أمي في حديث عابر، بالألم الذي أحسست به لأنني لم أتعلم العزف على البيانو. فتنهدت هي قائلة:

- وأسوأ ما في الأمر، أنه لم يكن معطلاً.

وعندئذ، علمتُ أنها اتفقت مع المعلتين على التعلل بحجة البيانو المعطل. لكي تحببني العذاب الذي عانت منه هي نفسها، طوال خمس سنوات من التمارين البلهاء، في مدرسة التقدمة، وكان العزاء في أنه قد افشحت، في كاتانكا تلك السنوات، مدرسة مونتسوري. وكانت معلماتها يحفرن الحواس الخمس من خلال تمارين عملية، ويعلمن الغناء، ويفضل موهبة وجمال المديرية روسا إيلينا فيرغوسون، كانت الدراسة شيئاً رائعاً، أشبه بمن يلعب لعبة أنه حي. تعلمت تقدير حاسة الشم التي تتمتع بقدرة استحضار نوسالجي ساحقة، وشحذتُ حاسة التذوق إلى حد تذوق مشروبات لها طعم ناعمة، وقبض قديم له طعم صندوق قشبي، وأشرية مغلية لها طعم قداس. من الصعب نظرياً فهم هذه المتع الذاتية، ولكن من عاشوها سي فهمونها فوراً.

لا أظن أن هناك منهجاً أفضل من أسلوب مدرسة مونتسوري،

لشجذ حساسية الأطفال. تجاه جماليات العالم وإيقاظ فضولهم نحو أسرار الحياة. لقد أخذ عليها أنها تشجع حس الاستقلالية والفردية - وربما كان ذلك صحيحاً في حالتني - . ولكنني لم أتعلم قطه بالمقابل، القسمة أو استخراج الجذر التكعيبي، ولا التعامل مع أفكار مجردة. كنا صفاوا إلى حد لا أتذكر معه سوى تلميذين: أولهما هي خوانيتا مينغوتا التي توفيت بالتيفوس، وهي في السابعة من عمرها، بعد وقت قصير من افتتاح المدرسة. وقد أثرت فيّ كثيراً، حتى إنني لم أستطع نسيانها قط، وهي بإكليل وطرحة العروس في الثابوت. والآخر هو شيبيرمو بالينثيا أبدالا، صديقي منذ الفسحة الأولى، «طبيبي الذي لا يخطئ في تشخيص وهن صباحات أيام الاثنين.

لا بد أن أختي مارغوت كانت تعسة جداً في تلك المدرسة، مع أنني لا أذكر أنها قالت ذلك يوماً، كانت تجلس على كرسيها في صفها التحضيري، وتظل هناك صامتة - حتى في أوقات الاستراحة - دون أن تحوّل بصرها عن نقطة غير محددة، إلى أن يُقرع الجرس الأخير. لم أعرف في الوقت المناسب قط أنها، حين تبقى وحيدة في القاعة الخاوية، تمنع تراباً من حديقة البيت، تحملها معها في جيب مريلتها.

لقد تكلفتُ مشقة كبيرة في تعلم القراءة، إذ لم يكن يبدو لي منطقياً أن حرف "م" يسمى "ميم"، ومع ذلك فبأنه، بإضافة حرف "ا" الصوتي إليه، لا يلفظ "ميما" وإنما "ما". كان من المستحيل عليّ القراءة على هذا النحو، وأخيراً، عندما وصلت إلى مدرسة مونثيسوري، لم تعلمني المعلمة أسماء الحروف، وإنما منطوقها. وهكذا استطعت أن أقرأ أول كتاب وجدته في خزانة معفزة في مستودع البيت. كان مفككاً

وغير مكتمل، ولكنه اجتذبني بشدة حتى إن خطيب سارا أطلق لدى مروره إنذاراً رهيباً: "يا للعنة هذا الطفل سيصير كاتباً".

ولأنه هو، الذي يعيش من الكتابة، من قال ذلك، فقد سبب لي انفعالاً عظيماً. وقد مرت عدة سنوات قبل أن أعرف أن ذلك الكتاب هو "ألف ليلة وليلة". وأكثر قصة أعجبتني فيه - إحدى أقصر القصص التي قرأتها وأبسطها - ستبقى تبدو لي الأفضل طوال ما تبقى من حياتي، مع أنني غير متأكد الآن بما إذا كنت قد قرأتها هناك. ولم يستطع أحد أن يوضح لي ذلك، والقصة هي التالية: صباد يعد جارتته بأن يهدي إليها أول سمكة بصطادها، إذا ما قدمت له قطعة رصاص، من أجل شبكته. وعندما تشق المرأة السمكة لكي تغلبها، تجد في داخلها ماسة بعجم حبة لوز.

لقد ارتبطت حرب البيرة، في ذاكرتي، بانحدار كاناكا؛ لأنه ما إن أعلن السلام حتى تاه والدي في متاهة من عدم اليقين، انتهت أخيراً بانتقال الأسرة إلى مسقط رأسه، في قرية سينثي. وكان ذلك الانتقال في الواقع، بالنسبة لي وللويس إيريكي، وقد رافقناه في رحلة الاستطلاع، مدرسة جديدة في الحياة، وثقافة شديدة الاختلاف عن ثقافتنا بحيث تبعوا وكانهما كوكبان مختلفان. منذ اليوم التالي لوصولنا، أخذونا إلى اليساتين المجاورة، وهناك تعلمنا امتطاء الخمار، وخلق الأبقار، وخصي العجول، ونصب أفخاخ للندرج، والصيد بالشص، وفهم سبب بقاء الكلاب هلنحة بإنائها، كان لويس إيريكي يقضي دوماً، متقدماً عليّ كثيراً، في اكتشاف العالم الذي كانت الجدة ميتا تحظره علينا؛ بينما كانت الجدة أرخيميرا تحدثنا عنه في سينثي دون أدنى

تستر. الكثير من الأعمام والعلمات، والكثير من أبناء العمومة مختلفي الألوان، والكثير من الأقارب ذوي الكنى القريبة، يتكلمون وطانة لهجمات شديدة التنوع كانت تشير فينا أول الأمر من البلبلة، أكثر مما تشير من التعرف على الجديد. إلى أن فهمنا ذلك على أنه طريقة أخرى في المحسة. والد أبي. دون غابرييل مارتيتش، وهو معلم مدرسة أسطوري، استقبلني أنا ولويس إنريكي، في فناء بيته المزروع بأضخم أشجار تحمل أشهر ثمار المانجا، بطعمها وحجمها، في البلدة. كان يحصي الثمار واحدة واحدة، كل يوم منذ بدء المحصول السنوي، ويقطفها واحدة فواحدة بيد، في لحظة يبعها بشن مغرم، هو خمسة سنتات لكل واحدة. وعندما ودعنا، بعد محادثة ودية عن ذكرياته كمعلم جيد، قطف ثمرة مانجا، من أكثر الأشجار ضخامة، وقدمها إلينا، نحن الاثنين.

كان أبي قد سق لنا تلك الرحلة باعتبارها خطوة مهمة على طريق لم شمل الأسرة. ولكننا أدركنا منذ وصولنا، أن هدفه السري هو فتح صيدلية في الساحة الرئيسية الكبرى. وقد جرى تسجيلي، أنا وأخي، في مدرسة المعلم لويس غابرييل ميسا، حيث شعرنا بأننا أكثر حرية وأفضل اندماجاً بالمجتمع الجديد. استأجرنا بيتاً قسيحاً جداً، عند أفضل ناصية في القرية، مؤلفاً من طابقين وشرقة بارزة فوق الساحة. يتردد طوال الليل، في غرف نوم الكنبية، تغريد شبح كروان غير مرئي.

كان كل شيء جاهزاً من أجل قدوم أبي وأخواتي السعيد، عندها وصلتنا برفقة يحمل خبر موت الجدة نيكولاس ماركيز. لقد أصيب باعتلال مفاجئ في حنجرته. جرى تشخيصه على أنه سرطان في آخر مراحله. ولم يكد يتسع الوقت لأكثر من أخذه إلى سانتا مارتا، ليسوت

هناك. والوحيد منا الذي رآه الجدة في احتضاره، هو أخي غوستافو. وكان قد ولد قبل ستة شهور، فوضعه أحدهم في سرير الجد لكي يودعه. فداعبه الجد المحتضر مداعبة وداع. وقد احتجت لسنوات طويلة، كي أعني ما تعنيه بالنسبة لي، تلك الميتة غير المتوقعة.

جرى الانتقال إلى سينثي على كل حال، ليس مع الأبناء وحدهم، وإنما كذلك مع الجدة مينا والعمة ماما، وكانت مريضة، وكلتاها تحت الرعاية الطبية للعمة با. ولكن سعادة التجديد وقشل المشروع، حدثا في الوقت نفسه تقريباً. فعندنا جميعنا، خلال أقل من سنة، إلى البيت القديم في كاناكا "نحن نهب القبة"، مثلما كانت تقول أُمي، في المواقف التي لا علاج لها. ظل أبي في بارانكيا، يدرس طريقة لفتح صيدليته الرابعة.

آخر ذكرياتي عن بيتا كاناكا، في تلك الأيام المريعة، هي ذكرى محرقة الفناء التي أحرقوا فيها ملابس الجد. كانت سترته ذات الجيوب الحربية، وبدلته الكتانية البيضاء ككولونيل مدني، تشبه كما لو أنه لا يزال حياً فيها، بينما هي محترق. وبخاصة قبعاته المخملية الكثيرة متعددة الألوان التي كانت أفضل سمة فارقة تميزه عن بعيد. وقد تعرفت، بينها، على قبعتي ذات المربعات الاسكتلندية التي أحرقت بسبب السهو. وقد هزني إحساس بأن طقوس الإيابة تلك، تمنحني دور بطولة مؤكدة في موت الجد. اليوم أرى ذلك بوضوح: هناك شيء خاص بي قد مات معه، ولكنني أعتقد أيضاً، دون أي شك، أنني كنت منذ تلك اللحظة، كاتباً لا يزال في المدرسة الابتدائية، لا يتقصد إلا تعلم الكتابة. وكانت هذه الحالة المعنوية نفسها هي التي شجعتني على مواصلة

عيش الحياة، حين خرجت مع أمي من البيت الذي لم نستطع بيعه. وبما أنه يمكن لقطار العودة أن يأتي في أي وقت، فقد ذهبت إلى المحطة دون أن تفكر حتى في أن نحبي أي شخص آخر. "سنعود مرة أخرى لوقت أطول"، قالت هي ذلك، بالعبارة اللطيفة الوحيدة التي خطرت لها، لتشير إلى أنها لن تعود مطلقاً. أما أنا من جهتي، فكنت أعرف حينئذ أنني لن أتوقف أبداً طوال حياتي، عن الحنين إلى رعد الساعة الثالثة.

كنا الشحين الوحيدين في المحطة، عدا الموظف ذي الأفروهل الذي يبيع التذاكر. ويقوم بالأعمال التي كانت تتطلب في أزمنتنا عشرين أو ثلاثين رجلاً متعجلين. كان الحر رهيباً. وعلى الجانب الآخر من سكة القطار، لم تكن هناك سوى بقايا المدينة المحرمة التي أقامتها شركة المور، ببيتوتها القديمة دون القرميد الأحمر، وأشجار النخيل الذائبة بين الآجام، وأنقاض المستشفى. وفي أقصى التل الترابي، بيت المونتسوري، مهجوراً بين أشجار لوز حرمة. وساحة ملح البارود الصغيرة، قبالة المحطة، دون أدنى أثر من عظمتها التاريخية.

كان كل شيء، بمجرد النظر إليه، يستثير في نفسي لهفة جامحة إلى الكتابة. كيلا أموت. لقد عانيت ذلك الشعور من قبل، ولكنني في ذلك الصباح فقط، تعرفت عليه، على أنه اللحظة السابقة للإلهام. هذه الكلمة اليفضة، إنما الواقعة إلى حدٍ جُزئٍ كل ما تصادفه في طريقها، لكي تصل في الموعد، إلى رمادها.

لا أتذكر أننا تمحدثنا شيئاً حتى في قطار العودة، وعندما صرنا في المركب، في فجر يوم الاثنين، مع النسمة الباردة في ثيابنا الهاجعة، انتهت أمي إلى أنني، أنا أيضاً لم أتم، فسألتني:

- بم تفكر؟

- إنني أكتب - أجبته، ثم أسرعت في محاولة الظهور بظهر أكثر لطفاً: - أعني أنني أفكر في ما سوف أكتبه، عندما أصل إلى المكتب. - ألا تخاف أن يموت أبوك من الأسى؟

فتملصت بالتفافة طويلة.

- كانت لديه أسباب كثيرة للموت، وهذا أقلها إماتة.

لم يكن الوقت المناسب لأعاصر في كتابة رواية ثانية، بعد أن غصت في وحل الأولى، وبعد أن حاولت، بحسن الحظ أو من دونه، أشكالا أخرى من القصص المتخيل. ولكنني أنا نفسي، فرضت الأمر على نفسي في تلك الليلة، كالنزام حربي: إما أن أكتب هذه الرواية وإما أصوت. أو مثلما قال ريلكه: "إذا كنت تظن أنك قادر على العيش دون كتابة، فلا تكتب".

من سيارة التكنسي التي نقلتنا حتى مرافاً المراكب، بدت لي مدينتي القديمة بارانكيا، غريبة وكشبية، على أول أنوار ذلك اليوم القدي من شباط. دعاني قبطان السفينة "إيلينا ميرثيدس" لمرافقة أمي حتى بلدة سوكري، حيث كانت تقيم الأسرة، منذ نحو عشر سنوات. ولكنني لم أفكر في الأمر مجرد تفكير. ودعيتها بقبلة، ونظرت هي إلى عيني، وابتمست لي لأول مرة، منذ المساء السابق، وسألتني بمكرها الدائم:

- إذا ماذا سأقول لأبيك؟

فأجبته، وقلبي في يدي:

- قل لي له إنني أحبه كثيراً. وإنني بفضل سأسير كاتباً. - ثم

سارعت إلى قطع الطريق على أية خيارات أخرى، دون شفقة: - كاتب ولا شيء آخر.

كنتُ أحب قول ذلك، في بعض المرات مازحاً، وفي مرات أخرى بجد. ولكنني لم أقله بكل تلك القناعة، كما في ذلك اليوم. بقيت في الرفاء، أرد علي تلوينات الوداع البطيئة التي تقوم بها أمي من شرفة المركب. ثم مضيت بعد ذلك مسرعاً إلى مكتب جريدة الهيرالدو، متفعلاً باللهفة التي تهشني من الداخل. وبدأت، دون أن ألتقط أنفاسي، كتابة الرواية الجديدة بالجملة التي قالتها أمي: "جئت أطلب منك معروفاً بأن تراخني لبيع البيت".

كان منهجي آنذاك مختلفاً عن الذي تبليته فيما بعد، ككاتب محترف. كنت أكتب بالسبائين فقط - مثلما ظلت أفعل حتى الآن - ولكنني لم أكن أمزق كل فقرة، إلى أن تصير وفق ذوقي - مثلما أفعل الآن -، وإنما كنت أطلق العنان لإفراغ كل المادة الخام التي أحملها في أعماقي. أظن أن ذلك النظام فرض نفسه علي، بسبب مقاسات الورق الذي كان على شكل أشرطة عمودية مقصوصة من لفافة المطبعة، يمكن لكل شريط منها أن يكون بطول خمسة أمتار. وكانت المحصلة أصولاً طويلة وضيقة مثل أوراق بردي تخرج كشلال من الآلة الكاتبة، وتقد على الأرض، كلما تقدم أحدنا في الكتابة. لم يكن رئيس التحرير يقرر المقالات التي يكلفنا بكتابتها، بعده الصفحات أو الكلمات أو الحروف، وإنما بالسنتيمترات الورقية. فكان يقول: "أريد ريبورتاجاً بطول متر ونصف". لقد عاودني الحنين إلى ذلك القطع، وأنا في أوج التضج، عندما انتهيت إلى أنه يشبه، عملياً، شاشة الكمبيوتر.

الاندفاع الذي بدأت به الرواية، كان بلا كايح، إلى حد فقدت معه الإحساس بالوقت. وفي الساعة العاشرة صباحاً، كنت قد كتبت أكثر من

متر، عندما فتحت ألفونسو فونسيما بور الباب الرئيسي فجأة، وبقي متجمداً، والمفتاح في القفل، كما لو أنه أخطأ وفتح الحساب. إلى أن تعرف علي.

- وأنت، أي لعنة تفعلها هنا، في هذه الساعة؟ - قال لي متفاجئاً، فقلت له:

- إنني أكتب رواية حياتي.

- واحدة أخرى؟ - قال ألفونسو بسخريته الجاحدة، وأضاف: - يبدو

أن لك، من الحيات، أكثر مما لقط.

- إنها الرواية نفسها، ولكن بطريقة أخرى - قلت ذلك، كيلا أقدم له تفسيرات غير مجدية.

لم تكن تتخاطب برفع الكلفة، كما هي العادة الكولومبية القريبة، منذ التحية الأولى، ثم الانتقال بعد ذلك إلى التخاطب بتوقيع. عندما يتم التوصل إلى قدر كبير من الشقة المتبادلة - مثلما يحدث بين الأزواج.

أخرج كتباً وأوراقاً من الحقيبة المهترئة، ووضعتها على المنضدة. وفي أثناء ذلك، استمع بفضوله الذي لا يرتوي إلى الانقلاب الانفعالي الذي حاولت نقله إليه، بالقصة الجامحة عن رحلتي. وأخيراً، وعلى سبيل الإيجاز، لم أستطع تفادي نكبتني في أن أخلص، في جملة واحدة، ما لم أستطع تفسيره. فقلت له:

- هذا أعظم ما حدث لي، في الحياة.

فقال ألفونسو:

- لحسن الحظ، أنه لن يكون الأخير.

بدا كأنه لم يفكر، وهو يقول ذلك، لأنه هو نفسه لم يكن قادراً على تقبل فكرة دون اختيارها. قبل ذلك، إلى حجمها المضبوط. ولكنني كنت أعرفه بما يكفي، لألاحظ أن انفعالي بالرحلة، ربما لم يؤثر فيه كثيراً. مثلما كنت أنتظر. ولكنه أدهشه دون ريب. وهكذا كان: فمضت اليوم التالي، بدأ يوجه إلي كل أنواع الأسئلة العارضة. إذا الباردة، حول سير الكتابة. وكانت أي إجابة بسيطة منه، كافية لدفعني إلى التفكير في أن هناك شيئاً لا بد من تصحيحه.

وبينما نحن نتكلم، كنت قد جمعت أوراقاً، لكي أخلّي المنضدة. إذا كائن يتوجه على ألفونسو أن يكتب في ذلك الصباح، الانتاجية الأولى لمجلة كرونিকা. ولكن الخبر الذي حملة إلي أسعد تهازي: فالعدد الأول، المقرر صدوره في الأسبوع التالي. سيأجل، للمرة الخامسة، بسبب عدم التقيد في موعد تسليم الورق. وقال ألفونسو: إذا حالقنا الحظ، سنصدر المجلة، خلال ثلاثة أسابيع.

فكرت في أن تلك المهلة التي وفرها لي القدر، ستكون كافية لكي أحدد بداية الكتاب؛ فقد كنت ما أزال مبتدئاً جداً لكي ألاحظ أن الروايات لا تبدأ مثلما يريد أحداً، وإنما مثلما تريد هي. إلى حد أنني، بعد ستة شهور من ذلك، عندما كنت أظن أنني أمضي نحو النهاية السوية، اضطررت إلى إعادة كتابة معمة للصفحات العشر الأولى، كي يصدقها القارئ. وهي ما زالت تبدو لي حتى اليوم، غير ناقعة، ولا بد أن التأجيل كان مواتياً لألفونسو كذلك. لأنه يدل أن يتحسر، خلع سترته وجلس إلى المنضدة، ليواصل تصحيح الطبعة الجديدة، من معجم الأكاديمية الملكية الذي وصلنا في تلك الأيام. لقد كانت تلك، هي

تسليته المفضلة، منذ أن وجد خطأ عارضاً في معجم إنكليزي، وأرسل التصحيح موثقاً إلى ناشري ذلك المعجم في لندن، وربما دون السعي إلى مكافأة أخرى أكثر من إرفاق رسالة التصحيح تلك، بواحدة من دعاياتنا: "أخيراً صارت إنكلترا مدينة للكولومبيين بجميل". وقد ردّ عليه الناشرون برسالة لطيفة جداً، يعترفون فيها بالخطأ، ويطلبون منه مواصلة التعاون معهم. وقد فعل ذلك، لعدة سنوات، ولم يجد عشرات أخرى في المعجم نفسه وحسب، بل في معاجم أخرى بلغات مختلفة، وعندما شاخت العلاقة، كان قد أدمن عاداته القريضة، في تصحيح معاجم بالإسبانية، والإنكليزية، والفرنسية. فإذا كان عليه الجلوس في قاعة انتظار، أو الانتظار في الحافلات، أو في أية صفوف انتظار أخرى في الحياة، كان يشغل نفسه في المهمة الجليستيرية الدقيقة: تصيد الأخطاء المطبعية، في أدغال اللغات.

كان الحر لا يطاق في الساعة الثانية عشرة. وكان دخان سجاثرنا، نحن الاثنين، قد غيّم الضوء. التصحيح الذي يدخل من النافذتين الوحيدتين. ولكن أياً منا لم يكلف نفسه مشقة تهوية الغرفة. ربما بسبب الإدمان الثانوي، بمواصلة تدخين الدخان نفسه حتى الموت. أما الحر، فكانت حالتي معه مختلفة، فقد كنت أخطئ، خلقياً، بالقدرة على تجاهله حتى الثلاثين درجة مئوية في الظل. أما ألفونسو، بالمقابل، قراح يخلع ملابسه، قطعة بعد أخرى، مع اشتداد الحر، دون أن يقطع عمله: بدأ بربطة العنق، ثم القميص، ثم القميص الداخلي. وكان في سلوكه ذاك، فائدة أخرى هي أن ثيابه تظل جافة، بينما هو يذوب في العرق، ويستطيع ارتداؤها من جديد. عندما تميل الشمس، مكوّنة جيّداً،

وطازجة، مثلما كانت عند الفطور. ولا بد أن هذا هو السر في ظهوره المتألق دائماً، وفي أي مكان، ببذلاته الكتانية البيضاء، وربطات عنقه ذات العقدة الملوية، وشعره الهندي القاسي والمفروق في منتصف رأسه بخط رياضي متقن. وهكذا كان مرة أخرى، في الساعة الواحدة بعد الظهر، عندما خرج من الحمام، كما لو أنه قد استيقظ من إغفاءة مريحة. وسألني عندما مرّ بجانبني:

- ألا تنفدي؟

فقلت له:

- ليس هناك جوع يا معلم.

كان الرد مباشراً في قانون القبيلة: قلو قلت نعم، فإن ذلك يعني أنني في ضيق شديد، ربما منذ يومين على الحبز والماء. وفي هذه الحالة، أذهب معه دون مزيد من التعليقات. ويكون واضحاً أن عليه تدبر الأمر ليدعوني. أما الرد - ليس هناك جوع - فيمكن أن يعني أي شيء. ولكنها كانت طريقي في القول له إنني لا أجد مشكلة في تدبير الغذاء، اتفقنا على اللقاء في المساء، كما هي العادة، في مكتبة مولدو.

بعد الظهر بقليل، جاء رجل شاب يبدو كأنه مثل سينمائي. كان شديد الشقرة، وببشرة مذبذبة بقسوة المناخ. له عتبان زرقاوان غامضتان، وصوت موسيقي دافئ. وبينما نحن نتحدث عن المجلة وشبكة الصدور، رسم على غطاء المنضدة بروفيل ثور هانج بستة خطوط سريعة متقنة، ووقع على الرسم. مع ملاحظة موجهة إلى فوينساوير، ثم ألقى قلم الرصاص على الطاولة، وودّع بصلف السباب بقسوة. كنت مستغرقاً في الكتابة، حتى إنني لم أنظر إلى الاسم الذي وقع به على

الرسم. وهكذا واصلت الكتابة، طوال ما تبقى من النهار، دون أن أكل أو أشرب، وعندما نفذ ضوء المساء، اضطرت إلى الخروج متلبساً طريقي، ومعني المخططات الأولى للرواية الجديدة، سعيداً باليقين بأنني وجدت أخيراً، طريقاً مختلفاً للشيء. كنت أكتبه، دون أمل منذ أكثر من ستة.

في تلك الليلة فقط، عرفت أن زائر بعد الظهر، هو الرسام أليخاندرو أوبريغون. وكان قد رجع حديثاً من واحدة أخرى من رحلاته الكثيرة إلى أوروبا. لم يكن، منذ ذلك الحين، واحداً من أعظم رسامي كولومبيا وحسب، وإنما أخذ أكثر الرجال المحبوبين من أصدقائه كذلك. وكان قد استبق عودته بالإخبار بأنه سيشارك في إطلاق مجلة كرونيكا، ووجدته مع أصدقائه المقربين في حانة بلا اسم في زقاق النور، في وسط الحي السفلي. وكان ألفونسو فوينساوير قد عتد تلك الحانة بعنوان كتاب حديث لغراهام غرين: "الرجل الثالث". كانت عودات أليخاندرو أوبريغون، تاريخية على الدوام. وبلغت عودته ذروتها في تلك الليلة، في استعراض جندج مروّض يطيع، مثل كائن بشري، أوامر سيده. يقف على قائمتين، يمد جناحيه، يغني بصغير إيقاعي موزون، ويحيي المصفقين بالتحفات توقير مسرحية. وفي النهاية، وأمام المروّض النشوان بعاصفة التصفيق، أمسك أوبريغون الجندج من جناحيه، بأطراف أصابعه، ودسه في فيه أمام ذهول الجميع، ومضغه حياً بثلثه حسي. لم يكن من السهل إرضاء المروّض البائس بأي نوع من المديح والعطافات. وقد علمتُ فيما بعد، أنه لم يكن الجندج الأول الذي يأكله أوبريغون حياً، في استعراضات عامة، ولن يكون الأخير.

لم أشعر قط، مثلما شعرت في تلك الأيام، بأنماجي في أجواء تلك المدينة، ونصف دزينة الأصدقاء الذين بدأت سمعتهم بالانتشار في الأوساط الصحفية، باسم جماعة بارانكيّا. كانوا كتاباً وفنانين شباباً يمارسون نوعاً من الزعامة على حياة المدينة الثقافية. تقودهم يد المعلم الكتلاي دون رامون فينيس، المسرحي والمكتبي الأسطوري، والمكرس في موسوعة إسبانيا منذ العام ١٩٢٤.

كنت قد تعرفت عليهم في شهر أيلول من السنة السابقة، عندما جئت من كارتاخينا - حيث كنت أعيش في ذلك الحين - بتوصية مستعجلة من كليمنتي مانويل ثيبالا، رئيس تحرير صحيفة الأونيفرسال، التي كتبت فيها أولى مقالاتي الصحفية. أمضينا ليلة في الحديث عن كل شيء، وبقينا على اتصال متحمس ودائم، نبادل الكتب والقصائد الأدبية. وانتهى بي الأمر إلى العمل معهم. كان هناك ثلاثة من الجماعة الأصلية، يتميزون باستقلاليتهم «مبولهم الطبيعية»: خيرمان بارغاس، وألفونسو فوينمايور، وألفارو سيبيدا ساموديو. وكانت تجمع بيننا أشياء كثيرة مشتركة حتى كان يقال، بسوء نية، إننا أبناء الأب نفسه. ولكننا كنا معروفين، وكانوا يحبوننا قليلاً في بعض الأوساط بسبب استقلاليتنا، وميلنا الجامح، والتصميم الخلاق الذي يشق طريقه بالناكس، وحياء يحل أمره كل واحد منا على طريقته، دون أن يوفق في ذلك دائماً.

كان ألفونسو فوينمايور كاتباً وصحفيّاً بارعاً، في الثامنة والعشرين من عمره، وطلب لوقت طويل، على كتابة عمود يومي عن الوقائع الراهنة في جريدة الهيرالدو بعنوان "جو اليوم"، وبالإسم

الشكسيري المستعار "بوك". وكلما ازداد تعرفنا على استهتاره وحسه الساخر، كان فهمنا يتضائل حول أنه قرأ الكثير من الكتب، بأربع لغات، وفي كل الموضوعات التي يمكن تخيلها. وقد كانت تجمهرته الحيوية الأخيرة، حين صار في الخمسين من عمره تقريباً، هي سيارة هائلة في حالة يرثى لها، كان يقودها بكل مجازفة بسرعة عشرين كيلومتراً في الساعة، وكان سائق سيارات التاكسي، أصدقاءه الخمسون وأكثر قُرأته حكمة، يتعرفون عليه من بعيد، فيلقون جانباً، ليفسحوا له الطريق.

أما خيرمان بارغاس كانتينو، فكان كاتب عمود في مسائية "إلناسيونال"، ناقد أدبي دقيق ولاذع، وصاحب نشر خديم يمكن له أن يقنع القارئ بأن الوقائع تحدث، لأنه هو الذي يرويها فقط. كان أحد أفضل مذبهي الإذاعة، وأوسعهم ثقافة، دون شك، في أزمنة المهين الجديدة الطبية تلك، ونموذجاً جيداً لكاتب التحقيقات الطبيعى الذي كنت أرغب في أن أكونه. أشقر وذو عظم قاس، وعينين زرقاوين زرقه خطرة، ولم يكن بالإمكان، فهم متى أمكن له الاطلاع لحظة بلحظة، على كل ما هو جدير بأن يُقرأ. لم يتوان لحظة واحدة عن هوسه المبكر في اكتشاف قيم أدبية خفية في أنحاء بروينشيا القصبة المتسعة، ليعرضها أمام الملأ. ومن حسن الحظ، أنه لم يتعلم قيادة السيارات قط، في جمعية الساهين تلك، لأننا كنا نخشى ألا يتمكن من مقاومة إغراء القراءة، وهو يسرق.

أما ألفارو سيبيدا ساموديو، بالمقابل، فكان سائقاً مهووساً قبل أي شيء آخر - سائق سيارات وأدب على السواء - فهو قصاص من

المجلدين، عندما كان يملك إرادة الجلوس لكتابة قصصه؛ وناقد سينمائي بارع، والأوسع ثقافة دون ريب، ومنشط المناظرات الجريئة. كان يبدو غجرباً من ثينافا غراندي، ذا بشرة مدهوغة ورأس بديع تغطيه خصلات شعر سودا - مشعشة، وله عينا مجنون لا تخفيان سهولة الوصول إلى قلبه. نعله المفضل كان صندلاً قماشياً من أرخص الأنواع. وبعض يأمنانه على سيجار ضخم، ومظفاً في أغلب الأحيان. كتب حروفه الأولى، كصحفي، في جريدة "الناسيونال"، وفيها نشر قصصه الأولى. وفي تلك السنة، كان في نيويورك ينهي دورة متقدمة في الصحافة بجامعة كولومبيا.

عضو مراقب آخر في الجماعة، هو، مع دون وامون، الأكثر قيزاً ومعة، إنه خوسيه فيليكس قوينسايور، والد ألفونسو، صحفي تاريخي وقصاص من أكبر الكبار. نشر ديوان شعر بعنوان "ويات شعر المدار" سنة ١٩١٠، وروايتين: "كوسمي" سنة ١٩٢٧، و"مغامرة حزنة لأربعة عشر حكيماً"، في سنة ١٩٢٨. لم يحقق أي من كتبه نجاحاً في المكتبات، ولكن النقد المتخصص اعتبر خوسيه فيليكس، على الدوام، أحد أفضل القصاصين، والمحقق بسخس برويتشيا.

لم أكن قد سمعت به قط، عندما تعرفت عليه. ونحن تصادف وجودنا وحده في ظهيرة أحد الأيام، في مقهى جابي، بهرني على الفور بحكمته وبساطة محادثته. كان محارباً سابقاً وناجياً من سجن مشروم في حرب الألف يوم. لم يكن يملك تكوين راسون فينيس، ولكنه كان أقرب إلى نفسي، لطريقته في الحياة، وثقافته الكاربية. غير أن أكثر ما كان يعجبني فيه، هي فضيلته الغريبة في ثقل حكمته، كما لو أنها

مسألة خياطة وغنا». كان محدثاً لا يُهزم، ومعلماً في الحياة، وطريقته في التفكير مختلفة عن كل من عرفتهم، حتى ذلك الحين. كنا أنا وألفارو سيبيدا نقضي ساعات، ونحن نستمع إليه. ولا سيما حول مبدئه الأساسي، بأن الفرق الرئيسي بين الحياة والأدب، هو مجرد خطأ بسيط في الشكل. فيما بعد، لست أدري أين، كتب ألفارو ومضة صائبة: "جميعنا خرجنا من خوسيه فيليكس".

تشكلت الجماعة بطريقة عفوية، بقوة الجاذبية تقريباً، ويعتقدني تألف راسع، إنما يصعب فهمه للوهلة الأولى. لقد سئلنا مرات كثيرة، كيف بقينا متوافقين على الدوام، رغم الاختلاف الكبير فيما بيننا. وكان علينا أن نرحل أية إجابة، لكي لا نقول الحقيقة: فنحن لم نكون متوافقين دوماً، ولكننا كنا نعرفه الأسباب. كنا واعين أنه، خارج إطارنا، تسود عنا صورة المقتدرين، النرجسيين، الفوضويين، ولا سيما بسبب اختلافاتنا السياسية. فكان يُنظر إلى الفونسو على أنه ليبرالي متعصب، وإلى خيرمان على أنه مفكر حر بالإكراه، وإلى ألفارو كفوضوي متعسف، وأنا على أنني شيوعي غير مؤمن وانتحاري كامن. ومع ذلك، فإنني أعتقد دون أدنى تردد، بأن حسن حظنا الأكبر هو أنه كان يمكن لنا، في أشد المآزق حرجاً، أن نفقد صبرنا. ولكن دون أن نفقد مطلقاً حس السخرية.

خلافاتنا القليلة المبدية، كنا نناقشها فيما بيننا. وقد تصل أحياناً إلى درجات حرارة خطيرة ولكنها تنسى مع ذلك فور تهوئنا عن المائدة، أو إذا ما حضر صديق من خارج الجماعة. الدرس الأقل عرضة للنسيان، تعلمته إلى الأبد، في بار "لوس أليستدروس"، في ليلة قريبة العهد

مجيئتي إلى المدينة، دخلت فيها أنا، وألفاود في جدال عويص حول فوكسر. وكان الشاهدان الوحيدان على المنضدة هما خيرمان وألفونسو. وقد بقيا على الهامش، صامتين صمت الرخام الذي بلغ حدوداً لا تقاوم. لا أذكر في أي لحظة، وأنا مشرع بالغضب والخمر الرخيص، تحدثت ألفاود لحل النقاش باللكمات، بدأنا كلاماً بالتهووس عن المائدة للخروج إلى الشارع، عندما أوقفنا فجأة، صوت خيرمان بارعاس الهادئ بدرس سيقتي إلى الأبد:

- من ينهض أولاً هو الخاسر.

لم يكن أي منا قد بلغ آنذاك الثلاثين من العمر، أنا كنت قد أكملت الثالثة والعشرين. وكنت أصغر الجماعة سناً. وقد تبتوني منذ مجيئتي إلى المدينة لأبقى فيها، في شهر كانون الأول السابق، ولكننا عندما نكون على طاولة دون رامون فينيس، نتصرف نحن الأربعة كدعاة الإيمان وطالبيه، معاً على الدوام، متبادلين الحديث في الموضوع نفسه، ومساخرين من كل شيء، وعتفقيين تماماً على المعارضة، حتى صار يُنظر إلينا في النهاية، كما لو أننا شخص واحد.

المرأة الوحيدة التي كنا نعتبرها جزءاً من الجماعة، هي ساريا ديلمار. وكانت قد بدأت اندفاعها الشعري، ولكننا لم نكن نتحدث معها إلا في المناسبات القليلة التي نخرج فيها من مدار عاداتنا السيئة. لقد كانت جلسات السر في بيتها، مع الكتاب والفنانين المشهورين الذين يميّزون بالمدينة، تاريخية، صديقة أخرى لوقت أقصر وتواتر أقل، هي الرسامة سيسيليا بوركس التي كانت تأتي من كارتاخينا، بين حين وآخر، وترافقنا في جولاتنا الليلية، ولم تكن تهتما

في شيء، نظرة عدم الاحترام التي يُنظر بها إلى النساء، في مقاهي السكارى وبيوت الضياع.

كنا نحن، أفراد الجماعة، نلتقي مرتين في اليوم، في مكتبة موندو، التي تحولت في النهاية إلى مركز اجتماعات أدبية. لقد كانت ملاذ سلام وسط ضجيج شارع سان بلاس، الشريان التجاري الصاحب والمتهب الذي يُقرع من خلاله مركز المدينة، في الساعة السادسة مساءً. كنا أنا وألفونسو نكتب حتى بداية الليل، في مكتبتنا الملاصق لقاعة التحرير، في جريدة الهيرالدو، مثل تلميذين مجتهدين، هو يكتب افتتاحياته العقلانية الرصينة، وأنا ملاحظاتي الصحفية المشبعة، وكثيراً ما كنا نتبادل أفكاراً من آلة كتابة إلى أخرى، ونفترض نوعاً، ونستفسر عن معلومات غريبة ورائحة، إلى حد لا تعود نعرف معه، في بعض الحالات، لمن هنا هي إحدى الفقرات.

كانت حياتنا اليومية دوماً معروفة المسار مسبقاً. اللهم إلا في ليالي الجمعة التي تكون فيها تحت رحمة الإلهام، وتواصلها أحياناً حتى فطور يوم الاثنين. وإذا ما أُطبق علينا الاهتمام، نبدأ نحن الأربعة، حياً أديباً دون كايخ أو مقاس. يبدأ في حانة "الرجل الثالث" مع حرفتي الحمي وميكانيكي ورشة سيارات، إضافة إلى موظفين عموميين ضالين، وآخرين مثلهم، ولكن بدرجة أقل. وكان أقل أولئك الزبائن غريبة، هو لص بيوت يأتي قبل منتصف الليل بقليل بزي العمل، بنطال رافص باليه، حذاء تنس، قبعة لاقط كرات، وحقيبة أدوات وعدة خفيفة، لقد فاجأ أحدهم، وهو يسرق في بيته، وتمكن من تصويره ونشر الصورة في الصحافة، لعل أحداً يتمكن من التعرف عليه. والشيء الوحيد الذي تم

الوصول إليه هو عدة رسائل من قراء ساخطين، يستنكرون مثل هذه الألعاب القذرة، مع لصوص البيوت البائسين.

كان اللص صاحب ميول أدبية مسؤولة، لا يضيع كلمة من المحادثات التي تدور حول الفن والأدب. وكنا نعرف أنه المؤلف الخجول لقصائد حب يلقبها على الزبائن. عندما نكون غير موجودين، وكان ينصرف بعد منتصف الليل، للمسطر على بيوت المنطقة الغنية، كما لو أنه ذاهب إلى وظيفة، وبعد ثلاث أو أربع ساعات، يأتينا بهدية خشيلة القبعة، يخرجها من الغنيمة الكبرى قائلاً: "هَذَا لِلْأَطْفَالِ"، دون أن يسأل عما إذا كان لدينا أطفال. وعندما يجتذب كتاب اهتمامه يهدبه إلينا، فإذا كان الكتاب جديراً بالاحتناء، نبرخ به إلى مكتبة أخي العامة التي تديرها ميريا ديلمار.

تلك الجامعات الشوارعية، أشاعت عنا سمعة عكرة، بين النساء. التراثات المراني نلتقي بهن لدى خروجهن من قُداس الساعة الخامسة فجراً، فينتقلن إلى الرصيف الآخر، كيلا يصطدمن بمخمورين طلع عليهم الفجر، ولكن لم يكن هناك في الحقيقة، عريضة أكثر نزاهة وخصباً من عريضةنا، وإذا كان هناك من أدرك ذلك فوراً فهو أنا، الذي كنت أراقبهم في صراخهم، في المواخير حول أعمال جنون دوس باسوس أو حول الأهداف التي يدها فريق جونيور الرياضي. حتى إن إحدى الموصسات في ماخور "القط الأسود"، ضجرت من البلية كاملة من نقاشاتنا الصاخبة المجانية، فصرخت بنا لدى مرورنا:

- لو أنكم تضاجعون مثلما تصرخون، لكننا نستحم في الذهب!
في أحيان كثيرة كنا نذهب لرؤية شروق شمس اليوم الجديد، في

ماخور بلا اسم، في أخي الصيني، حيث عاش أورلاندو ريفيرا، الملقب "تيفوريتا"، طوال سنوات، بينما هو يرسم جدارية كانت رمزاً لمرحلة. لا أتذكر أحداً خارجاً عن المؤلف أكثر منه، ينظرته الغربية، ولحيته التي كلحية المعزى، وطيبة قلب اليتيم التي يتمتع بها. هذا كان في المدرسة الابتدائية لسعه هوى أن يكون كوبياً، وانتهى به الأمر لأن يكون كوبياً أكثر وأفضل مما لو كانه فعلاً. كان يتكلم، ويأكل، ويرسم، ويلبس، ويحب، ويرقص، ويعيش حياته ككوبي، ومات كوبياً دون أن يعرف كوبا.

لم يكن ينام، وعندما كنا نزره في الفجر، ينزل قافزاً عن السقالات، وهو أكثر تلعثاً بالألوان من الجدارية التي يرسمها، ويجذب ويستم بلغة المامبيسين^(١) بتأثير ما تعاطاه من الماريجوانا. كنا أنا والفونسو نأخذ إليه مقالات وقصصاً لكي يرسم لها رسوماً توضيحية، فنضطر إلى أن نحكيها له بصوت عال، لأنه لا يطبق صبراً على فهمها مقروءة. وكان ينجز الرسوم المطلوبة في هنية بتقنيات الكاريكاتير، وهي التقنيات الوحيدة التي يؤمن بها. وتأتي رسومه جيدة على الدوام تقريباً، مع أن خيرمان بارغاس كان يقول، دون حياء، إنها تكون أفضل بكثير، عندما تخرج منه سيئة.

هكذا كانت بارانكيّا، مدينة لا تشبه سواها، وبخاصة منذ كانتون الأول حتى آذار، عندما تعوض رياح الصايبات الشمالية عن الأيام الجهنمية، بهبات ليلية لزوية في أفنا، البيوت، وتحمل الدجاجات في الجو. فلا يبقى حياً سوى فنادق العابرين، وحانات ملاحي السفن

(١) المامبيسون mambises: رجال الجيش الثوري الذي أسسه بطل تحرير كوبا، خوسيه مارتى، غوش حوب التحرر من "التير الإسباني". وكانوا في الغالب من الفلاحين والعبيد.

البخارية، حول المرفأ، بعض العصفورات الليلية ينتظرن، ليلالي بطولها، زبائن غير مؤكدين، يأتون في السفن النهرية، فرقة موسيقى نحاسية تعزف لحن فالس خامد في طريق أشجار الحور، ولكن لا أحد يستمع إليها، بسبب صراخ السائقين الذين يتجادلون حول كرة القدم بين سيارات التاكسي المتوقفة عند وصيف جادة بوليفار. المكان المحتل الوحيد هو مقهى روما، وهو مطعم شعبي يزعمه لاجئون إسباني ولا يغلق أبداً لسبب بسيط، هو عدم وجود أبواب له. كما أنه بلا سقف، في مدينة بهطل فيها وأبل من الأمطار الطقوسية. ولكن لم يُسمع قط أن هناك من توقف عن تناول عجة بطاطا، أو تحلى عن عقد صفقة بسبب المطر. لقد كان المقهى مكاناً راكداً في العراء العاصف، فيه موائد مستديرة مطلية بالأبيض، وكراسي حديدية تحت أشجار أكاسيا وارفة ومزهرة، في الساعة الحادية عشرة، عندما تغلق الصحف الصباحية - الهيرالدو ولاهرنسا - أبوابها، يجتمع المحررون الليليون لتناول الطعام. ويكون اللاجئون الآسيان موجودين منذ الساعة السابعة، بعد سماعهم، في البيت، نشرة الأخبار المحكية من البروفيسور خوان خوسيه بيرث دومينيش الذي ما زال يقدم أخباراً عن الحرب الأهلية الإسبانية بعد اثنتي عشرة سنة من خسارته لها.

في ليلة حظ طيب حظ هناك الكاتب إدواردو ثالاميا وهو في طريق عودته من غواخيرا، وأطلق رصاصة مسدس على صدره، دون أن تؤدي إلى نتائج خطيرة. بقيت المنضدة كلقية أثرية تاريخية يعرضها الثقل على الساتحين، دون السماح لهم بالجلوس إليها. بعد سنوات من ذلك، نشر ثالاميا شهادة عن مغامرته في "أربع سنوات على متن نفسي"، الرواية التي فتحت أفاقاً لا ريب فيها أمام جيلنا.

كنتُ أنا الأكثر عزواً بين أفراد الرابطة، وكنت ألبأ في أحيان كثيرة إلى مقهى روما، لكي أكتب حتى الفجر في ركن منعزل. ذلك أنه كانت لوظفتي كلنيسها مزية التناقض بين كونها مهمتين وسبتي الأجر. وهناك كان يفاجئني الفجر، وأنا أقرأ دون رحمة، فإذا ما اشتد عليّ الجوع، أتناول فنجاناً من الشوكولاته الكثيفة مع سندوتش جامبون إسباني جيد، وأتمشى مع أول أنوار الفجر، تحت الأشجار المزهرة في جادة بوليفار. في الأسابيع الأولى كنت أكتب حتى ساعة متأخرة في قاعة تحرير الجريدة، وأنام بضع ساعات في صالة التحرير المقفرة، أو فوق لفائف ورق المطبعة. ولكنني وجدت نفسي مضطراً، مع مرور الوقت، إلى البحث عن مكان أقل أصالة.

وكان من قدم لي الحل، كما في مرات تالية كثيرة أخرى، هم سائقو سيارات التاكسي المرحون في جادة بوليفار. إذ اقترحوا عليّ فندق عابرين على بعد كوادرا واحدة عن الكاتدرائية، حيث يمكنني النوم وحيداً، أو مع رفيقة، مقابل بيزو ونصف البيزو. كان البناء قديماً جداً ولكن مُحْتَفَظ به في حالة جيدة، على نفقة العاهرات المخدمات اللواتي يشجرون في جادة بوليفار، منذ السادسة مساءً، مترصداً غرامبات ضالّة، كان البواب يدعى لوثيديس، له عين زجاجية زائفة المحور، ويتلصص حياءً. وما زلت أتذكره بامتنان كبير، منذ الليلة الأولى التي ذهبت فيها إلى هناك. ألقى البيزو وخمسين سنتافو في درج منضدة الكونتوار، المستلثة بالأوراق النقدية المبعثرة والمجعدة، لليلة الأولى، وقدم لي مفتاح الغرفة وقم ستة.

لم أعش أبداً في مكان أكثر هدوءاً. إذ لم يكن يُسمع أكثر من وقع خطوات خاضعة، أو دمدمة غير مفهومة، وبين حين وآخر، صرير نوايض

سرير صدئة. ولكن دون سماع همسة أو تنهيدة واحدة؛ لا شيء.. الأمر الشاق الوحيد هو حر القرن السائد بسبب النواقد المسمرة بصليب خشبي. ومع ذلك، فقد قرأت منذ الليلة الأولى ويليام إيريش، على خير ما يرام، حتى الفجر تقريباً.

كان البنا، منزلاً مالكي ستن، فيه أعمدة مئسرة بالمرمر وأفاريز من الحساس اللماع. محيط بفتاء داخلي مسقوف بزجاج ملون يُشع ببريق دقيشة زراعية. في الطابق السفلي، كانت مكاتب توثيق العقود في المدينة. وفي كل واحد من طوابق البيت الأصلي الثلاثة، ست حجرات كهيرة من المرمر، حُوت بالورق المقرى إلى حجيرات صغيرة - مثل حجرتي - تجمع فيها فتيات الليل السريات محصولهن. وكان محل دق الأعناق السعيد ذاك، قد حمل ذات يوم اسم فندق نيويورك. وقد أطلق عليه ألفونسو فونتمايور، فيما بعد، تسمية ناطحة السحاب، تكريماً للمتحررين الذين كانوا يلقون بأنفسهم، في تلك السنوات، من الإمبراطور سبتيلدغ.

ولكن محور حياتنا على كل حال، كان يتركز في مكتبة "موندو"، حيث كنا نذهب في الساعة الثانية عشرة نهاراً، ثم في السادسة مساءً. وكان موقع المكتبة في أكثر قطاعات شارع سان بلاس ارتداداً. وقد كان خيرمان بارغاس، الصديق الحميم لصاحب المحل دون خورخي روندون، هو من أقتعه بإنشاء تلك المكتبة التي تحولت، بعد وقت قصير، إلى مركز اجتماع الصحفيين والكتاب والسياسيين الشباب. لم تكن لدى روندون، خبرة في هذا النوع من التجارة، ولكنه تعلم بسرعة، وبحماس وأريحية حولا، إلى نصير للأدب والعلوم لا يُنسى. لقد كان خيرمان

والقارو وألفونسو، هم مستشاروه في طلبيات الكتب، ولا سيما الإصدارات الجديدة من بريتس آيرس التي بدأ الناشرون قبيها، بعد الحرب العالمية الثانية، بترجمة الجديد في الأدب، من كل أنحاء العالم. وطباعته وتوزيعه بالجملة، وفضلهم صار بإمكاننا أن نقرأ في حينه، الكتب التي ما كان يمكن لها أن تصل إلى المدينة بطريقة أخرى. وكانوا هم أنفسهم يشجعون الزبائن، واستطاعوا أن يعملوا تحويل بارانكيًا إلى مركز القراءة الذي انحدر في سنوات سابقة، عندها اختلت من الوجوه، مكتبة دون رامون التاريخية.

لم يكن قد انقضى وقت طويل على منجيشي إلى المدينة، عندها انضمت إلى تلك الجماعة الأخوية التي تنتظر بائعي كتب دور النشر الأرجنتينية الجوالين، كسبعوثين من السماء، وصرنا بفضلهم، من المعجبين المبكرين بخورخي لوميس بورخيس، وخوليو كورتازار، وفيلسبيرتو هيرتاندث، والروائيين الإنكليز والأمريكيين، في ترجمات جيدة تنجزها عصابة فيكتوريا أوكامبو. وكانت "فولدة ثائر" لأرتورو باريا، هي أول رسالة تحمل الأمل من إسبانيا النائية ومقيبة الصوت، بعد حربين متتاليتين، أحد أولئك الباعة الجوالين، وهو غييرمو دافالو، الدقيق في مواعده، كان يتميز بعادته الحميدة في المشاركة في حفلاتنا الليلية، ويهدي إلينا نسخ النماذج من الكتب الجديدة بعد أن ينجز صفقاته في المدينة.

من كانوا يعيشون بعيداً عن مركز المدينة، لم يكونوا يذهبون ليلاً إلى مقهى روما، ما لم يكن هناك سبب محدد، أما أنا، فكان المقهى هو البيت الذي لا أملكه. كنتُ أغسل في الصباح في قاعة تحرير "الهيرالدو" الهادئة، وأنفدى كيقما أستطيع، وعندما أستطيع، وأيضاً

أستطيع. ولكن، مدعواً على الدوام تقريباً من جماعة الأصدقاء الطيبين والسياسيين ذوي المصالح. وفي المساء أكتب زاويتي الصحفية اليومية "الزرافة"، وأي نص عابر آخر. وفي الساعة الثانية عشرة ظهراً والسادسة مساءً، كنت الأكثر دقة وانتظاماً في الذهاب إلى مكتبة موندو. أما مقبلات ما قبل الغداء التي ظلت الجماعة تتناولها طوال سنوات، في مقهى كولومبيا، فقد انتقلت فيما بعد، إلى "مقهى جابي"، على الرصيف المقابل، لأنه أكثر الأماكن المظلة على شارع سان يلاش، تهوية ومرحاً، وكنا نستقبل فيه الزيارات، ونستخدمه كمكتب، ومكان لعقد الصلقات، وإجراء المقابلات، ونقطة التقاء سهلة.

كان لمضعدة دون رامون، في مقهى جابي، قوانين فرضتها العادة ولا سبيل إلى خرقها. فهو أول من يصل، لأن دوام عمله كمعلم ينتهي في الرابعة مساءً. ولم تكن الطاولة تتسع لأكثر من ستة منا. وقد اخترنا أماكننا انطلاقاً من العلاقة بمكانه، وكانت إضافة كرسي جديد، لا منزع له، تعتبر تصرفاً غير لائق. وبسبب قدم الصداقة ومستواها، جلس خيرمان إلى يمينه، منذ اليوم الأول، وكان المسؤول عن شؤونه المادية، فهو يحلها له حتى لو لم يطلب منه ذلك، لأنه لم يكن بمقدور العلامه، بميل طبيعي خلقي، التقاهم مع الحياة العملية. وقد كانت المسألة الأساسية في تلك الأيام، هي بيع كتبه إلى مكتبة المحي العامة، وتصفية أشياء أخرى قبل سفره إلى برشلونة. وكان خيرمان يبدو أشبه بابن بار أكثر منه سكرتيراً.

أما علاقة دون رامون بالفونسو، فكانت تتركز بالمقابل على مسائل أدبية وسياسية أكثر صعوبة. في حين كان الفارو، يبدو لي دوماً معطل

الإرادة، عندما يجد نفسه وحيداً على الطاولة، مع دون رامون، ويحتاج إلى حضور آخرين لكي يبدأ الإبحار. الكائن البشري الوحيد الذي كان يتمتع بحرية اختيار المكان على المضعدة، هو خوسيه فيليكس. وفي الليل، لم يكن دون رامون يذهب إلى "جابي"، وإنما إلى مقهى روما مع أصدقاء منقاه الإسبان.

آخر من انضم إلى مضعدته هو أنا، ومنذ اليوم الأول جلست، دون أي حق، على كرسي الفارو سيبيدا الذي كان في نيويورك. وقد استقبلني دون رامون كتلميذ آخر له، لأنه كان قد قرأ قصتي القصيرة في جريدة الأسبكتادور. ولكنه لم يكن ليتصور قط، مع ذلك، أنني سأصل في الثقة معه إلى حد الطلب منه أن يفرضني النقود، من أجل رحلتي إلى أراكاتاكيا مع أمي. بعد وقت قصير من ذلك، ومصادفة لا يمكن تصورها، أجريت محادثتي الأولى والوحيدة معه على الفراد، عندما ذهبت إلى "جابي" في وقت مبكر، قبل الآخرين، لأدفع له، دون شهوة، البيزوات السنة التي أقرضني إياها.

- أهلاً بالعبقري - جباتي كالعادة. ولكن شيئاً في وجهي أثار قلقه، فأضاف: - هل أنت مريض؟

فقلت له باضطراب:

- لا أظن يا سيدي، لماذا؟

- أراك نحيلاً - قال هو، ثم أضاف: -، ولكن لا تهتم بما أقوله، فجميعنا في هذه الأيام نحضي (1) fotus del cul.

(1) بالكثانية في الأصل، وفي عبارة مذهنة تعني، بصورة تقريبية "جميعنا متخرفون في مؤخراتنا".

خبا البيزوات الستة في محفظته بحركة متحفظة، كما لو أنها نقود كسبها بطريقة غير مشروعة، ثم أوضح لي وهو يجرّ خجلًا:
- إنني أخذها كذكري، من شاب فقير جداً، استطاع أن يرد ديناً، دون أن يطالب به.

لم أجد ما أقوله، وظللت غارقاً في صمت لحملته مثل بنر وصاص، وسط لغط الصالة. لم أكن أحلم قط، بأن بحالفتي الحظ بذلك اللقاء، وكان لدي إحساس بأن كل واحد منا، في أحاديث الجماعة، يساهم بحبة رمل في الفوضى، وتختلط دعابات كل واحد وتفاهاته، بدعابات وتفاهات الآخرين. إنما لم يكن يخطر لي أبداً أنه سيكون بإمكانني التحدث عن الفنون والمجد، على انفراد، مع رجل يعيش منذ سنوات في موسوعة^(١). في فجر أيام كثيرة، بينما أنا أقرأ في وحدة جبرتي، كنت أتخيل حوارات مثيرة، ألقني تبادلها معه حول شكوكي الأدبية. ولكنها كانت تذوب دون أن تخلف أثراً مع أول أنوار الشمس. وكان خجلي يشضاعف، عندما يندفع الفونسو بوحدة من أفكاره العظيمة، أو يستنكر خيرمان رأياً متعجباً يطرحه المعلم، أو يصيح ألفارو بمشروع يخرجنا عن طورنا.

لحسن الحظ، أن دون رامون هو من يادر، في ذلك اليوم، في مقهى جابي، إلى سؤالي عن حال قراءاتي. وكنت قد قرأت حتى ذلك الحين، كل ما استطعت العثور عليه من أعمال جيل الضياع، بالإسبانية، مع اهتمام خاص بفوكر الذي كنت أتبعه وأجرّقه بالحاج شفرة حلقة

(١) المعنى هنا مجازي - وهو إشارة إلى أن اسم دون رامون فيتيس - كما ذكر قبل صفحات قليلة - وارد في موسوعة إسبانيا إي كاليس الإسبانية الشهيرة منذ عام ١٩٢٤ -

دموية، بسبب خوفني الغريب من ألا يكون، على المدى البعيد، أكثر من بلاغي ماكس. بعد أن قلت ذلك، هزني الحياء من أن أبدو استغزائياً، وحاولت أن أخفف من وقع ما قلته، ولكن دون رامون لم ينتع لي الوقت، ورد علي، بهدوء أعصاب:

- لا تقلق يا غابيشو! فلو كان فوكر في بارانكيّا، لوجدته على هذه الطاولة.

وقد لاحظ من جهة أخرى أنني أولي اهتماماً كبيراً لرامون غوميث دي لا سيرنا، وأستشهد به في "الزرافة" إلى جانب روائيين لا يتطرق الشك إليهم. فأوضحت له بأنني لا أفعل ذلك، إعجاباً برواياته، لأنه، باستثناء "قبلا الورود" التي أعجبتني كثيراً، فإن ما يهمني فيه، جرأة قريحته وموهبته الشفوية، ولكن كرياضة إيقاعية. من أجل تعلم الكتابة فقط. وفي هذا الاتجاه، لا أذكر جنساً أدبياً أشد ذكاءً من "غريغرياته"^(١) المشهورة. فقاطعتني دون رامون بابتسامة لاذعة:

- الخطر عليك هو في أن تتعلم الكتابة بصورة سبئية، دون أن تلحظ ذلك.

ومع ذلك، فقد اعترف قبل إغلاق الموضوع بأن غوميث دي لا سيرنا، كان شاعراً جيداً، وسط قرواه ذات الويض القسغوري. هكذا كانت ردوده، مباشرة وحكيمة. وكنت أكاد لا أجد أعصاباً لتسلها، وأنا مختنق بالخوف من أن يقطع عليّ أحدهم تلك الفرصة الوحيدة. ولكنه كان يعرف كيف يتحكم بتلك الردود ويفسرهما. أعرض له ناذله المعهود

(١) غريغريته gregreria : صورة تعزية تقدم رؤية شخصية لأحد مظاهر الواقع، وهي تسمية ابتدعها في إحدى نثراته، الكاتب رامون غوميث دي لا سيرنا - وللقها على أحد مؤلفاته سنة ١٩١٢ -

كوكا كولا الساعة الحادية عشرة والنصف، وبدا هو كما لو أنه لم ينتبه. ولكنه تناولها ورشف منها رشفة بمصاصة ورقية، دون أن يقطع شروحاته. كان معظم الزبائن يحبونه، يصوت عال من الباب: "كيف حالك يا دون رامون". فيرد عليهم، دون النظر إليهم، بحركة من يده التي كيد فتان. وبينما دون رامون يتكلم، كان يوجه نظرات خفية إلى حافظة الأوراق الجلدية التي كتبت أنشئت بها، بكلتا يدي، بينما أنا أستمع. وعندما انتهت من تناول الكوكا كولا الأولى، لوى المصاصة الورقية كدولب وطلب الثانية. قطبت واحدة لي، وأنا أعرف جيداً أن كل شخص يدفع حسابه، على تلك المنضدة. وأخيراً سألتني عن حافظة الأوراق الغامضة التي أنشئت بها، مثلما يتشبث الغريق بخشية. أخبرته بالحقيقة: إنها مسودة الفصل الأول من الرواية التي بدأت يكتبها. إثر العودة من كاناكا مع أمي. وبجراً لن أستطيع العودة إلى مثلها أبداً، في لحظات الحياة أو الموت، وضعت الحافظة، مفتوحة على المنضدة أمامه، كاستغزاز بري. صوب إليّ جدتيه الصافيتين بزرقة خضرة، وسألني وهو مندهش قلباً: هل تسمح لي؟

كانت المسودات مكتوبة على الآلة الكاتبة، مع ما لا حصر له من الشطب والنصحیح، على شرائط ورق مطبوعة مثل منفاخ أكورد بون. وضع، دون تسرع، نظارة القراءة. وفتح الشرائط الورقية ببراعة احترافية، ولغدها على المنضدة. قرأ دون أن يأتي بأي حركة، ودون أي تلون في بشرته، ودون أي تبدل في أنفاسه، بينما خضلة شعر على رأسه، كأنها ناصية بيضاء، تتحرك مع إيقاع أفكاره، حركة تكاد لا

تُلاحظ. وعندما أنهى قراءة شريطين ورقيتين كاسيتين، أعاد طيها بصمت ويغن قروسطي، وأطبق الحافظة. ثم خياً عندئذ نظارته في جرابها، ووضعها في الجيب، على صدره.

- يبدو واضحاً أنها لا تزال مادة خام، مثلما هو منطقي - قال لي ذلك ببساطة عظيمة، ثم أضاف: - ولكنها جيدة.

أبدى بعض التعليقات الهامشية، حول استخدام الزمن الذي كان مشكلة حياة أو موت بالنسبة لي، وهو الأسهل دون ريب. ثم أضاف: - يجب أن تكون، واعياً بأن الدراما قد حدثت، وأن الشخصيات ليست موجودة، إلا لاستذكارها، وهكذا عليك خوض الصراع مع زمين. وبعد سلسلة من التفصيلات التقنية الدقيقة التي لم أستطع تقدير قيمتها، لضحالة تجريبي، نصحتني بالألا يكون اسم مدينة الرواية بارانكيًا، مثلما هو مقرر لدي في المسودة، لأنه اسم معروف جداً في الواقع، مما لا يترك للقارئ سوى هامش ضيق للحلم. ثم انتهت إلى القول، بنبرته الساخرة:

- أو تصرف كفلّاح. وانتظر أن يسقط عليك الاسم من السماء. أضيف إلى ذلك أن أثينا سوفوكليس، لم تكن قط، في نهاية المطاف، هي نفسها أثينا أنتيغون.

ولكن ما التزمت به حرقياً إلى الأبد، هو الكلمات التي ودعني بها في ذلك المساء:

- أشكر احترامك لي. وسأكافئك عليه بنصيحة: لا تعرض على أحد أبداً مسودة ما زلت تكتبها.

كانت تلك هي محادثتي الوحيدة معه على انفراد. ولكنها تغني

عن كل المحادثات، لأنه مافق إلى برشلونة في الخامس عشر من نيسان سنة ١٩٥٠، مثلما كان مقرراً منذ أكثر من ستة، متضاملاً في بدلة الجوخ السودا، وقيعة الموظفين. كان ذلك أشبه بتفسير تلميذ مدرسة، وكان بصحة جيدة وبكامل وضوحه الذهني، وهو في الثامنة والستين. ولكننا نحن الذين رافقناه إلى المطار، ودعناه كشخص عائد إلى مسقط رأسه، ليحضر جنازته بالذات.

في اليوم التالي فقط، عندما وصلنا إلى موانثدا في مقهى جالبي، لاحظنا الفراغ الذي تبقى في كرسيه. ولم يتجرأ أحد على شغل ذلك الكرسي، قبل أن نتوصل إلى الاتفاق بأن يكون خيرمان هو من يشغله. وقد احتجنا إلى بضعة أيام، لكي نعتاد على الإيقاع الجديد لأحاد يثنا اليوسية، حتى وصلت الرسالة الأولى من دون رامون، فبدت كما لو أنها مكتوبة بصوته المحي، وكانت بخطه الدقيق ذي الحبر البنفسجي. وهكذا بدأت مراسلاته معنا جميعاً من خلال خيرمان، مراسلات متواترة وزخمة، يروي فيها القليل عن حياته، والكثير عن إسبانيا التي كان يعتبرها أرضاً معادية مادام فرانكو حياً، وقيمت السيطرة الإسبانية على كاتالونيا.

كانت فكرة إصدار المجلة الأسبوعية من بنات أفكار ألفونسو فونسيمايور، وسابقة لتلك الأيام بوقت طويل. ولكنني أظن أن سفر العلامة الكتلائي سرخ المشروع. ففي أثناء اجتماعنا في مقهى روما، بعد ثلاث ليال من سفره، أخبرنا ألفونسو بأن كل شيء صار جاهزاً لإصدار المجلة. ستكون أسبوعية متنوعة من عشرين صفحة، صحافية وأدبية، اسمها - كرونিকা - لن يعني الكثير لأحد. وقد بدا لنا من

قبيل الهذيان أننا لم نستطع الحصول على الموارد حيث يتوفر خائض منها، بينما تمكن ألفونسو فونسيمايور من الحصول عليها من الحرقين. وميكانيكي السيارات، والموظفين المتقاعدين، وحتى من أصحاب الحانات المتراطين الذين وافقوا على أن يدفعوا مشروب روم القصب مقابل الإعلانات. إذا كانت هناك أسباب للتفكير في أنها ستقابل بالترحيب، في مدينة تحافظ، وسط ضوضائها الصناعية وكبريائها المدني، على توقير حي للشعراء.

وسيكون المشاركون المنتظمون، فضلاً عنا، قليلين. المحترف الوحيد الذي لديه خبرة جيدة هو كارلوس أوسيس نوغيرا - الشاعر أوسيو - . وكان شاعراً وصحفيّاً يتصنع بخفة ظل خاصة جداً وجسد هائل. موظف حكومي ورفيق في جريدة الناسيونال، حيث عمل مع ألفارو سيبيدا وخيرمان بارغاس. ومشارك آخر هو روبرتو (بوب) بريتو، علامة من الوسط الاجتماعي الراقى. يمكنه أن يفكر بالإنكليزية أو الفرنسية على أحسن وجه، مثلما يفكر بالإسبانية، وأن يعزف على البيانو، من الذاكرة. أعمالاً عديدة لكبار الموسيقيين. أما من لم يكن مفهوماً تضمينه في القناعة التي ظفرت لألفونسو فونسيمايور، فهو خوليو ماريلا سانترو وسينغو. لقد فرضه دون تحفظ لنوابه، في أن يكون رجلاً مختلفاً. ولكن ما لم نهمه هو إيراد اسمه في لائحة هيئة التحرير، في الوقت الذي كان واضحاً أنه مرصود ليكون روكفلر لاتيني، ذكي، مثقف، ودود، ولكن محكوم عليه دون خلاص بالعيش في ضباب السلفة. وقلة هم الذين يعرفون. مثلما كنا نعرف، نحن الأربعة أصحاب فكرة المجلة، أن حلم سنوات عمره الخمس والعشرين السري، هو أن يصير كاتباً.

المدير، بالحق التلقائي، سيكون الفونسو، أما خيرمان بارغاس سيكون، قبل أي شيء، كاتب التحقيقات الرئيسي الذي أمل أن أشاركه الحرفة، ليس عندما يتوفر لي الوقت - الذي لم يكن يتوفر لنا مطلقاً - وإنما عندما يكتمل حلمي بتعلمها. وسيرسل إلينا ألفارو سيبيدا مساهماته التي يتجزأ في ساعات قراغه بجامعة كولومبيا في نيويورك. وفي نهاية القاتمة، لم يكن هناك من هو أكثر مني حرية ولهفة ليعين رئيس تحرير في أسبوعية مستقلة، وغير مؤكدة. وهكذا كان.

كان لدى الفونسو أرشيف احتياطي منذ سنوات، وأعمال كثيرة أعدت مسبقاً، في الشهور الستة الأخيرة، مع زوايا رأي، ومواد أدبية، وريپورتاجات مثقنة، ووعود بإعلانات تجارية من أصدقائه الأغنياء. رئيس التحرير، غير المرتبط بساعات دوام محددة، والذي خصص له راتب أعلى من راتب أي صحفي في مثل مستواي، غير أنه مشروط بالأرباح المستقبلية، كان جاهزاً أيضاً لتخرج المجلة في حالة جيدة، وفي موعدها، وأخيراً، في يوم السبت من الأسبوع التالي، عندما دخلت إلى غرفتنا في جريدة الهيرالدو، في الساعة الخامسة، قال لي ألفونسو فورتشامبور، دون أن يرفع نظره عن إنهاء مقالته الانتحائية للمجريدة:

- عجل بعملك يا معلم. "كرونيكا" ستصدر في الأسبوع القادم.

لم أرتعب، لأنني كنت قد سمعت الجملة نفسها، في مرتين سابقتين. ومع ذلك، فقد كانت المرة الثالثة ثابتة. كان أعظم حدث صحفي في ذلك الأسبوع - وبأسبقية مطلقة - هو مجيء لاعب كرة القدم البرازيلي هيلينو دي فريتاس للاضمام إلى فريق جونيور

الرياضي. ولكننا لن نتناول الحدث في منافسة مع الصحافة الرياضية المتخصصة، وإنما كخير ذي أهمية ثقافية واجتماعية كبيرة. فمجلة كرونيكا لن تسمح لنفسها بالنقيد بهذا النوع من التمييز. وأقل من ذلك إذا كان الحدث يتعلق بأمر واسع الشعبية، مثلما هي كرة القدم. وكان القرار إجماعياً، والعمل فعلاً.

كما قد أعدنا مادة واسعة من الصحافة. والشيء الوحيد الذي تبقى للحظة الأخيرة، هو الريپورتاج عن هيلينو. وقد كتبه خيرمان بارغاس، المعلم في كتابة الريپورتاجات والكروي المتعصب. ظهر العدد الأول في موعده الدقيق، في أكشاك البيع، صباح يوم ٢٩ نيسان ١٩٥٠، يوم القديسة سانتا كاتالينا دي سيينا، كاتبة الرسائل الزرقاء، في أجمل ساحة في العالم. وقد طبعت كرونيكا تحت شعار خطر لي في اللحظة الأخيرة: "نهاية أسبوعك المفضلة". كما نعرف أننا نشحى اللغة الاصطفائية عسيرة الهضم التي كانت تتأصل في الصحافة الكولومبية، في تلك السنوات. ولكن ما كنا نريد قوله بذلك الشعار، لم يكن له معادل بالتلون نفسه في اللغة الإسبانية. كان الغلاف رسماً بالحبر للاعب الكرة هيلينو دي فريتاس، من رسم ألفونسو مبلو، رسام الوجوه الوحيد بين رساميننا الثلاثة.

نفدت الطبعة، رغم تعجل الساعة الأخيرة، وغياب الإعلان. قبل وقت طويل من وصول هيئة التحرير، بكامل أعضائها، إلى ستاد الملعب البلدي في اليوم التالي - الأحد ٣٠ نيسان -، حيث ستجرى مباراة الذروة بين فريق جونيور الرياضي وسيورتنغ، وكلاهما من بارانكيا. وكاثت المجلة نفسها منقسمة، لأن خيرمان وألفارو يشجعان سيورتنغ،

بينما أنا وألفونسو نؤيد جونيور. ومع ذلك، فإن مجرد ورود اسم هيلينو وريبوراج خيرمان بارغاس الرائع، أكدا الخطأ بأن "كروتيكا" هي المجلة الرياضية الكبرى التي طالما انتظرناها كولومبيا.

كان الاستاد قد امتلأ حتى الرايات. وبعد ست دقائق من الشرط الأول، سجل هيلينو هدفه الأول في كولومبيا، بضربة من قدمه اليسرى، سددها من وسط الملعب. ومع أن فريق سبورتنج هو الذي فاز في النهاية ٢/٣، إلا أن ذلك المساء كان مساء هيلينو أولاً، ومساءنا نحن تالياً، بسبب الاختيار الموفق للفلاف. إذا لم تكن هناك سلطة بشرية، ولا إلهية، فادارة على إقناع أحد من الجمهور بأن كروتيكا ليست مجلة رياضية، بل أسبوعية ثقافية تكرم هيلينو دي فريتاس، باعتبار مجته إلى كولومبيا، أحد أهم أخبار الستة.

لم تكن مجرد مصادفة موفقة لمستجدين. ذلك أن ثلاثة منا كانوا يتناولون موضوع كرة القدم في أعمدهم ذات الاهتمام العام، بن فيهم خيرمان بارغاس طبعاً، وكان ألفونسو فورتسابور متابعاً حريصاً لكرة القدم، بينما عمل ألفارو سبييدا، طوال عدة سنوات، مراسلاً في كولومبيا لـ "سبورتنج نيوز" التي تصدر في سانت لويز، ولاية ميسوري الأمريكية. ومع ذلك، فإن القراء الذين كنا نتلطف إليهم لم يستقبلوا بذراعين مفتوحين أعدادنا التالية، وتخلّى عنا متعصبو الملاعب دون إحساس بالألم.

وفي محاولة لتزقيع ما تمزق، قررنا في هيئة التحرير، أن أتولى كتابة ريبورتاج رئيسي عن سيباستيان بيراسكوتشيا، وهو نجم برازيلي آخر في فريق جونيور الرياضي، على أمل أن أفكّن من المصاحلة بين كرة

القدم والأدب، مثلما حاولت، في مرات كثيرة، أن أفعل بعلوم أخرى خفية في عمودي البومبي. كانت حتى لعب الكرة التي نُقل إليّ عدواها لوبس كارميلو كورينا في مرات كاتاكا، قد انخفضت إلى درجة الصفر تقريباً. أضف إلى ذلك، أنني كنت من المتعصبين المبكرين للبيسبول الكاريبي - أو لعبة الطابة، كما يسمونها باللغة المحلية -، ومع ذلك، فقد أخذت الأمر على عاتقي.

كان نموذجي الذي سأقتدي به. طبعاً، هو ريبورتاج خيرمان بارغاس. وعززت نفسي بريبورتاجات أخرى. وأحسنت بالطمأنينة، بعد محادثة طويلة أجريتها مع بيراسكوتشيا. وهو رجل ذكي ولطيف، ولديه إدراك جيد للصورة التي يود أن يقدم بها نفسه لجمهوره. السخ في الأمر هو أنني عرّفتُ به، ووصفته كهامكي نموذجي، بسبب كنيسته وحسب. دون أن يستوقفني تفصيل صغير يتمثل في كونه زنجياً غامقاً من أفضل سلالة أفريقية. كانت تلك أكبر غلطة في حياتي، وفي أسوأ لحظة قر فيها المجلة. وبلغ ذلك حداً وجدت فيه نفسي متطابقاً حتى الروح. مع رسالة قارئ اعتبرتني صحفياً رياضياً عاجزاً عن التمييز بين كرة وكرام. وحتى خيرمان بارغاس نفسه، شديد التدقيق في أحكامه، أكد في كتاب تذكاري أصدره بعد سنوات، بأن الريبورتاج حول بيراسكوتشيا هو أسوأ ما كتبته. أظن أنه يبالغ، ولكن ليس كثيراً، لأنه ليس هناك من يعرف المحرفة مثله، هو الذي كان يكتب التحقيقات والريبورتاجات، ببرة شديدة التدقيق، تبدو كأنها قد أُمليت، بصوته على مُنشد اللبنتوب.

لم تنخلُ عن كرة القدم أو البيسبول، لأن اللعبتين كانتا واسعتي

الشعبية في ساحل الكاريبي. ولكننا ضاعفنا موضوعات الأوضاع الأدبية الراحنة والمستجدة، إلا أن ذلك كله لم يجد نقعاً؛ إذ لم تتمكن مطلقاً من تجاوز الخطأ السائد بأن كرونیکا هي مجلة رياضية، ولكن متعصبي الملاعب بالمقابل، تجاوزوا خطأهم، وتخلوا عنا لمصيرنا. وهكذا واصلنا إصدارها، مثلما قررنا مسبقاً، مع أنها ظلت، منذ العدد الثالث، تطفو في ليمبوس غموضها.

لم تخر عزيمتي. فالرحلة إلى كاتانكا مع أمي، والمحادثة التاريخية مع دون رامون، وعلاقتي الحميمة بجماعة بارانكيّا، بثت في نفسي حماساً جديداً سوف يكفيني إلى الأبد، ومنذ ذلك الحين، لم أكسب سقماً واحداً، إلا من الآلة الكاتبة. وهذا أمر يبدو لي أكثر جدارة مما يمكن أن يخطر على البال. ذلك أن أول حقوق مؤلف أناحت لي العيش من قصصي ورواياتي، دفعت لي، وأنا في الأربعين ووضعت سنوات، وبعد أن نشرت أربعة كتب بموائد زهيدة، وإلى ما قبل ذلك، كانت حياتي مضطربة، على الدوام، بشبكة معقدة من المصائد والذرائع والأوهام، لكي أتلصص من الأحلام الكثيرة التي سعت إلى تحويلي إلى أي شيء آخر، على ألا أكون كاتباً.

بعدوث كارثة أراكاتانكا، وموت الجد، وتلاشي ما يمكن أن يكون قد تبقى من سلطانه القائمة، وقعنا، نحن الذين كنا نعيش عليها، تحت رحمة المحتين. صار البيت بلا روح حينما لم يعد هناك من يعود في القطار. مينا وفرانثيسكا حيمودوسبّا، بقيتا في كنتف إلفيرا كارو التي تولت مسؤوليتهما بولاء جارية. وعندما فقدت الجدة بصرها وعقلها، أخذها أبواي معهما لكي تعيش حياة أفضل، وهي ثوت على الأقل. وظلت العمة فرانثيسكا، العذراء والشهيدة، هي نفسها صاحبة الكلام الغريب غير المألوف والأشغال الفظة، ورفضت تسليم صفاتيح المقبرة ومشغل خبز القران الذي يُعد لتقديسه، متذرة بأن الرب كان سيدعوها، لو كانت تلك هي مشيئته. وفي أحد الأيام، جلست عند باب حجرتها، ومعها بعض ملاعقها البيضاء الناصعة، لتخط كفتاً مفصلاً على مقاسها. وقد فعلت ذلك بتأن بالغ، جاعلة الموت ينتظر أكثر من أسبوعين إلى أن انشبت منه. واستلقت في تلك الليلة دون أن تدوع أحداً، ودون أن تعاني من أي مرض أو ألم، متأهبة لأن تموت، وهي في أفضل حالاتها الصحية. ولم ينهزوا إلا قسماً بعد، إلى أنها كانت قد ملأت استثمارات الوفاة وأخرجت بنفسها إجراءات دفنها، بقيت إلفيرا

كاريو، التي لم تعرف رجلاً، بإرادتها أيضاً، وحيدة في عزلة البيت الفسيح. وكان يوقظها في منتصف الليل، رغبة السعال الأبدى في حجرات النوم المجاورة. ولكنها لم تهتم بذلك قط، لأنها معتادة كذلك. على تقاسم هموم الحياة المخارقة للطبيعة.

وخلافاً لها، بقي أخوها الثوم، إستييان كاريو، صافي الذهن ونشيطاً، حتى بلغه شبخوخة متقدمة، وفي ذات مرة، بينما كنت أتناول الفطور معه، تذكرت كل التفاصيل البصرية. عندما حاول بعضهم الإلقاء بأبيه من المركب في بحيرة فينغا، مرفوعاً على أكتاف الخشد، وملفوناً بقطعة خيش، مثلما فعل البغالون بسانتشو بانثا. كان بابيلو قد مات في ذلك الحين. ورويت الذكرى للخال إستييان، لأنها بدت لي مسلية. ولكنه نهض قافزاً، واستشاط غضباً، لأنني لم أذكر أحداً بذلك، فور حدوثه. وأبدي تلهفه لكي أتذكر من أن أذكر في الذاكرة، من هو الرجل الذي كان يشهدني إلى الجد في ذلك اليوم، لكي يخبره من هم اللذين حاولوا إغراقه. ولم يستطع أن يفهم كذلك، كيف لم يدافع الجد عن نفسه، مع أنه رام ماهر، كان في خطوط النار، فترات طويلة، خلال حريق أهليتين؛ وكان بنام والمسند تحت وسادته. كما أنه قتل في أزمنة السلم، خصماً في مبارزة. وقال لي إستييان إن الوقت، لم يفت، مع ذلك لكي يقوم هو وأخوته بالنشر للإهانة. إنه قاتون غواخيرا؛ إهانة أحد أفراد الأسرة يدفع ثمنها كل ذكور أسرة المعتدي. وكان خالي إستييان مصمماً، حتى إنه أخرج المسند من حزامه ووضعه على المائدة كيلا يضيع الوقت، بينما هو يستجوبني. منذ ذلك الحين، وفي كل مرة تلقني بها، في تجوالنا، تعاود الأمل بأن أكون قد تذكرت. وفي إحدى

الليالي، جاء إلى حجرتي في المجرى، في الفترة التي كنت أستقصي فيها عن ماضي الأسرة من أجل رواية أولى لم أنهيها، واقترح علي أن نقوم معاً بتجريات عن ذلك الاعتداء. لم يستسلم قط. وآخر مرة التقيت به في كارتاخينا دي إندياس، سافر وقلبه مشروخ، وقد ودعني بابتسامة حزينة:

- لا أدري كيف توصلت إلى أن تكون كاتباً، يمثل هذه الذاكرة السيئة.

عندما لم يعد هناك ما يمكن عمله في أراكاتاكا، أخذنا أبي مرة أخرى للعيش في بارانكيّا، ولكي يقيم هناك صيدلية أخرى، دون أن يكون معه ستافرو واحد من رأس المال. ولكن بقروض اتسمان جيدة من تجار الجملة الذين كانوا شركاء له في صفقات سابقة. لم تكن تلك هي الصيدلية الخامسة، مثلما اعتدنا القول في الأسرة، وإنما الصيدلية الوحيدة التي كنا نحملها على الدوام من مدينة إلى أخرى، حسب استشارات أبي التجارية؛ مرتين في بارانكيّا، ومرتين في أراكاتاكا، ومرة في سبشي، وفي كل مرة، كانت هناك فوائد غير مؤكدة، وديون يمكن سدادها. وتقلصت الأسرة التي صارت دون جدين ولا أعمام أو أخوال، ودون خدم، إلى الأبوين والأبناء. وكنا ستة أبناء - آنذاك - ثلاثة ذكور وثلاث إناث - خلال تسع سنوات من الزواج.

انتابني قلق لهذا الجديد في حياتي. لقد جئت إلى بارانكيّا، عدة مرات من قبل، لزيارة أبوي، عندما كنت طفلاً، وبصورة غابرة على الدوام، وذكراتي عن ذلك غشقة جداً. الزيارة الأولى كانت وأنا في الثالثة من عمري، عندما أخذوني إلى هناك بمناسبة ولادة أختي

مارغوت. أتذكر رائحة الرجل الكريهة في المرفأ عند الفجر، وعربة الحصان التي يُبعد حودُها، بوسطه، اللصوص الذين يحاولون الصعود إلى مقعده في الشوارع الترابية المظفرة. أتذكر جدران دار التوليد، حيث ولدت الطفلة، بلونها الترابي الأمغر، وخشب أبوابها وتوافدها، وهواء الأدوية النفاذ الذي يعبق في الحجرة. كانت الوليدة في سرير حديدي بسيط جداً، في أقصى حجرة كئيبة، مع امرأة هي أمي دون ريب، غير أنني لا أتوصل إلى أن أتذكر منها سوى حضور، دون وجه، هدلي بدأ نحيلة، وتتهاد:

- أنت لم تعد تتذكرني.

لا شيء، سوى ذلك. فالصورة الأولى البيئة التي احتفظ بها عنها، تعود إلى عدة سنوات تالية، وهي صورة واضحة ومؤكدة، ولكنني لا أفكر من تحديد زمنها. لا بد أنها من إحدى زياراتها إلى أراكاتا، بعد ولادة عايدا روسا، أختي الشائبة. كنت يومذاك ألعب في الفناء، مع حمل حديث الولادة، أحضره لي سانتوس فيسبرو بين ذراعيه من فونسيكا، عندها جاءت العمة ماما، راكضة، وبهتني بصوت بدأ لي مرعياً:

- لقد جاءت أمك!

اقتادتنني، بما يشبه الجرجرة إلى الصالة، حيث كانت كل نساء البيت، وبعض الجارات جالسات، كما في سهر على ميت، على كراسي مصفوفة بمحاذاة الجدران. انقطع الحديث لدى دخولي المفاجئ. وبقيت متحجراً عند الباب، دون أن أدري أيأ منهن هي أمي، إلى أن فتحت لي ذراعها وقالت، بأكثر الأصوات التي أتذكرها، حناناً:

- ها قد صرت رجلاً!

كان لها أنف روماني جميل. وبدت وجهية وشاحبة، وأكثر تميزاً من أي وقت آخر، بموضة تلك السنة: ثوب من الحرير بلون العاج، خصره عند الوركين؛ وعقد لؤلؤ من عدة لفات؛ وحذاء مفضض ذو رباط جلدي وكعب عال؛ وقبعة أنيقة من القش على شكل ناقوس، كما في أفلام السينما الصامتة. أحاطني غناقتها برائحة خاصة شممها قبيها على الدوام، وهزنتي، جسداً وروحاً، هبة شعور بالغب، لأن واجبي هو محبتها، غير أنني أحسست أن ذلك ليس صحيحاً.

أما أقدم ذكرى لدي عن أبي بالمقابل، فهي مؤكدة وواضحة، في الأول من شهر كانون الأول ١٩٣٤، اليوم الذي أكمل فيه الثالثة والثلاثين من عمره. وأيته يدخل سعيداً، وبخطوات سريعة، إلى بيت الجددين في كاتاكما، ببذلة كاملة من الكتان الأبيض، وقبعة قش ذات حافة ملساء. هناك أحدهم معانقاً، وسأله كم سنة أكمل. ولم أنس جوابه قط، لأنني لم أفهمه في حينه:

- سن المسيح نفسها.

لقد تسالمت على الدوام، لماذا تبدو لي تلك الذكرى قديمة جداً، مع أنني كنت قد التقيت بأبي دون ريب، مرات كثيرة قبلها.

لم أكن قد أقمت مع أبوي في البيت نفسه قط. ولكن بعد مولد مارغوت، تبني جددي عادة أخذي إلى بارانكيا، بحيث لم أعد غربياً إلى ذلك الحد في بيت والدي، عندما ولدت عايدا روسا. أظن أنه كان يبتأ سعيداً. وكانت لهم هناك صيدلية، ثم فتحوا فيما بعد واحدة أخرى في مركز المدينة التجاري. وعدنا للقاء الجدة أرخيبيرا - ماما خيمي -

واثنين من أبنائها، خوليو وإينا، وكانت إينا جميلة جداً، ولكنها مشهورة في الأسرة، بسوء طالعها. ماتت في الخامسة والعشرين، دون أن يعرف أحد الداء. وما زال يقال حتى الآن إن السبب هو شؤم خطيب مرفوض. وكلما كنا كبير أكثر، كانت ماما خيمي تبدو لي أكثر لطفاً وبقاء لسان.

في تلك الفترة بالذات، سبب لي أبواي نكسة عاطفية خلقت في نفسي ندبة، من الصعب محوها. حدث ذلك في يوم عانت فيه أمي هبة حين، وجلست تداعب ملابس البيانو بلحن "عندما انتهى الرقص"، فالس غرايبياتهما السرية التاريخي، وخطرت لأمي الشقاوة الرومانسية بنفض الغبار عن الكمان لمراقبتها، مع أن أحد أوتاره كان مقطوعاً. اندمجت هي بسهولة على طريقتهما، كرومانسية مبكرة، وعزفت أفعول من أي وقت آخر، إلى أن نظرت إليه راضية من فوق كتفها، وانتهيت إلى أن عثبه مخضلتان بالدموع. "من تتذكر الآن؟"، سأله أمي، ببراعة قاسية. فرد هو مستلهماً لحن الغالس: "أتذكر المرة الأولى التي عزفناه فيها معاً". عتذرت وجهت أمي ضربة غضب، بكلتا قبضتيهما، إلى ملابس البيانو. وصرخت بأعلى صوته:

- لم تعزفه معي يا متافق! أنت تعرف جيداً من هي التي عزفته معها، وأنت تبكي من أجلها.

لم تذكر الاسم، لا في ذلك اليوم، ولا في أي يوم آخر قط. ولكن الصرخة جمدتنا جميعاً من الرعب، في أماكن مختلفة من البيت. لويس إريكي وأنا. وكانت لدينا على الدوام أسباب خفية للخوف. اختيانا تحت الأسرة. وهربت عابداً إلى بيت الجيران، وأصبحت مارغوت بحمي

مفاجئة أبقتها تهذي طوال ثلاثة أيام. وحتى الأخوة الصغار كانوا معتادين على انفجارات غير أمي تلك. بعينها المشتهين وأتفها الروماني المرفف. مثل سكين. كنا قد رأيناها تنتزع، بهدوء غريب، لوحات من الصالة وتحطمها واحدة بعد أخرى، على الأرض، في وابل برّ زجاجي صاحب. وفاجأتها، وهي تشم ملابس أبي قطعة قطعة، قبل أن تلقي بها إلى سلة الغسيل. لم يحدث أي شيء آخر بعد ذلك، في ليلة العزف الثنائي التراجيدية تلك. ولكن موزون البياتوهات الفلورنسي أخذ البياتو لبيعته. وانتهى الأمر بالكمان - مع المسدس - إلى التعفن في خزانة الملابس.

كانت بارانكيّا، آنذاك، حالة متقدمة في التقدم التسدني، والليبرالية الوادعة، والتعاضد السياسي. وهي عوامل حاسمة في نموها وازدهارها، بعد انقضاء أكثر من قرن من الحروب الأهلية التي عصفت بالبلاذ منذ الاستقلال عن إسبانيا. ثم ما تلا ذلك من انهيار منطقة زراعة الموز، الجريحة جراحاً مشخنة من القمع الفرس الذي نكل بها، بعد الإضراب الكبير.

ومع ذلك، لم يكن هناك ما يقف في وجه روح أهلها الخلاقة. ففي عام ١٩١٩، كسب الصناعي الشاب ماريو سانتودومغو - والد خوليو ماريو - أمجاد التمدن، بافتتاحه البريد الجوي الوطني بسبع وخمسين رسالة في كيس من قماش الخيم ألقي به على شاطئ بويرتو كولومبيا، على بعد خمسة فراسخ من بارانكيّا، من طائرة بدائية يقودها الأمريكي الشمالي ويليم نوكنس مارتن. وضع انتهاء الحرب العالمية الأولى، جاء فريق من الطيارين الألمان - بينهم هيلموت فون كروهن - ودشنوا

المخطوط الجوية بطائرات جنركز ف-١٣، وهي أول طائرات ذرعت نهر
مجدلينا، مثل جنادب تحركها العناية الإلهية، حاملة ستة ركاب
جسورين وأكياس البريد. كان ذلك هو جتين الشركة الكولومبية الألمانية
للتنقل الجوي - SCADTA، إحدى أقدم شركات النقل الجوي في العالم.

انتقالنا الأخير إلى بارانكيا، لم يكن بالنسبة لي مجرد تفسير
مدينة وبيت، وإنما تفسير أب، وأنا في الحادية عشرة من عمري. الأب
المجيد كان رجلاً عظيماً، ولكن لديه إحساساً بالسلطة الأبوية، مختلفاً
تماماً عن ذلك الذي جعلنا، أنا ومرغريتا، سعيدين في بيت الجدين.
فبعد أن اعتدنا على أن نكون سيدي نفسنا، تكلفنا مشقة كبيرة في
التكيف مع نظام غريب عنا، كان أبي، في جانبهِ الأكثر مدعاة
للإعجاب والتأثير، متعلماً ذاتياً بالمطلق، وأشد من عرفت من القراء
نهماً. وإن يكن أقلهم منهجية، فتمتد أن هجر مدرسة الطب، انكب وحيداً
على دراسة الطب التجاسسي، الذي لم يكن يتطلب في ذلك الحين
تكويناً أكاديمياً. وحصل على تصريح بمزاولة مع التكرير. ولكنه لم يكن
يتمتع بالمقابل، بصلاية أُمِّي في تجاوز الأزمات. وقد أفضى أسوأها في
أرجوحة النوم في غرفته، وهو يقرأ كل ما يقع بين يديه من الورق
المطبوع، ويحل الكلمات المتقاطعة، غير أن مشكلته مع الواقع كانت
عصية على الحل. فقد كان ينظر إلى الأغنياء، بورع شبه أسطوري.
ولكن ليس الأغنياء الذين لا تفسير لغناهم. وإنما أولئك الذين شكلوا
ثرواتهم بقوة الموهبة وسعة الأفق. وكان يبقى مؤرقاً في أرجوحة نومه،
حتى في وضع النهار، براغم ثروات هائلة في مخيلته، يشاريع سهلة لا
يفهم كيف لم تخطر له من قبل. وكان يحب أن يستشهد ويضرب الأمثلة

بأسرع ثروة وجد عنها خبراً في صحيفة دياريو؛ مشتاً فرسخ من الخنزيرات
الولود. ومع ذلك، فإن تلك الصفقات الكبرى الفريدة لم تكن تجري في
الأماكن التي نعيش فيها؛ وإنما في جنان منعزلة سمع عنها خلال تشرده،
كعامل تلغراف. عدم واقعيته المشؤوم أبقانا معلقين بين الخيبات والعودة
إلى البد من البداية. ولكن مع وجود فترات طويلة كذلك، لم يسقط علينا
خلالها من السماء، حتى فترات خبزنا كفاف يومنا. وقد علمنا أبوانا، على
أي حال، سواء في السراء أو العراء، أن نحتفي بالأولى ونحمل الثانية
بإذعان ووقار كاثوليكي، على الطريقة القديمة.

التجربة الوحيدة التي كانت تنقضي هي السفر وحيداً مع أبي. وقد
حصلت عليها كاملة، عندما أخذني إلى بارانكيا لأساعده في إقامة
الصيدلية، وفي الإعداد لمجيء بقية الأسرة. ما فاجأني أنه كان
يعاملني، ونحن وحدنا، كما لو أنني شخص راشد، بحبة واحترام. حتى
إنه كان يكلفني بمهمات لا تبدو سهلة على ستوات عمري، ولكنني
أنجزتها على غير ما يرام وبسعادة، مع أنه لم يكن راضياً على الدوام.
كان من عادته أن يروي لنا قصصاً من طفولته في قرية مولده، ولكنه
يكروها ستة بعد أخرى للمولودين الجدد، بحيث راحت تفقد بهجتها في
نظر من يعرفونها. حتى إننا نحن الكبار، كنا ننهض حين يبدأ بروايتها
بعد تناول الطعام. وقد أغضبته لويس إريكي، عندما قال، وهو ينسحب
في واحدة من نوبات صراحته:

- أخبروني، عندما يموت الجد مرة أخرى.

تلك الاندفاعات شديدة العفوية، كانت تشير غضب أبي، وتضاف
إلى الأسباب التي كانت تتراكم من أجل إرسال لويس إريكي إلى

إصلاحية ميدلين، ولكنه تحول معي في بارانكيًا إلى شخص آخر. أُرشف قائمة النواذر الشعبية، وراح يقص علي مقاطع مشوقة من حياته الشاقة مع أمه، ويخل أبيه الأسطوري، والمصاعب التي أعاقَت دراسته. تلك الذكريات أتاحت لي تحملاً أفضل لبعض نزواته، وتفهم بعض عدم تفهمه لنا.

تحدثنا، في تلك الفترة، عن كتب قرأناها أو في سبيلنا إلى قراءتها. وجمعنا من المواقع المربوة في السوق العام، محصولاً وافراً من قصص طرزان والتحريرين وحروب الفضاء. ولكنني كنت أيضاً على وشك أن أكون ضحية حسه العملي، ولا سيما عندما قرر أنه علينا الاكتفاء بوجبة واحدة في اليوم. وجاءت الأزمة الأولى، حين فاجاني، وأنا أصلاً بالمياه الغازية والحيز المحلى فجوات العشاء عند الغروب، بعد مرور سبع ساعات على تناول الغداء. ولم أستطع أن أخبره من أين جئت بالنقود لشراؤها. لم أجز على الاعتراف له بأن أمي قد أعطتني، خفية، بعض البيزوات، تحسباً من حمية الناسك الغذائية التي يفرضها في رحلاته. وقد استمر تواطؤ أمي ذلك، طالما هي قلقتك الوسائل، فحين صرّت تلميذاً داخلياً في المدرسة الثانوية، كانت تضع لي عشرة بيزوات في علبة صابون "روبوتير" وهي تأمل أن أعثر عليها في لحظة حرجة. وهكذا كان، فعندما كنا ندرس بعيداً عن البيت، كانت أي لحظة تعتبر مثالية، للعثور على عشرة بيزوات.

كان أبي يتدبر الأمر لكي لا يتركني في الليل، في صيدلية بارانكيًا. ولكن حله لم تكن هي الأكثر إشباعاً لسنوات عمري الانتثي عشرة، فالزيارات الليلية لأسر الأصدقاء، كانت تنهكتني. لأن الأمر التي

لها أبناء في مثل سني، همبهم على النوم في الساعة الثامنة، ويتركونني معذباً بالضجر والنعاس، في فتر الشرائع الاجتماعية القاحلة. ولابد أنني غفوت في إحدى الليالي، وتحن في بيت طبيب صديق. ولم أدر كيف ولا في أي ساعة استيقظت سائراً في شارع لا أعرفه. لم تكن لدي أدنى فكرة عن المكان الذي أنا فيه، ولا كيف وصلت إلى هناك. ولم يكن بالإمكان فهم ذلك إلا على أنه حالة من المشي نائماً. ليس ثمة سوابق عائلية، ولم تتكرر كذلك حتى اليوم، ولكنه ما زال التفسير الوحيد الممكن. أول ما فاجاني، عندما استيقظت، هو واجهة صالون حلقة ذات زجاج مشع، حيث كانوا يخدمون ثلاثة أو أربعة زبائن، تحت ساعة جدار تشير إلى الثامنة وعشر دقائق. وهو وقت لا يمكن فيه لطفل في مثل سني، أن يكون وحيداً في الشارع. ولارتياكي من الرعب، أخطأت في أسماء الأسيرة التي كنا نزورها، وتذكرت بصورة غير واضحة، عنوان البيت. ولكن بعض العابرين فُكِّوا من ربط بعض الحيوط، وأوصلوني إلى العنوان الصحيح. وجدت الجيران في حالة هلع، يطرَحون كل أنواع التكهات حول اختفائي، الشيء الوحيد الذي كانوا يعرفونه عني هو أنني تهضت عن الكرسي أثناء تبادلهم الحديث. وظننا أنني ذهبت إلى الحمام. لم يقنع تفسير السرعة (السير نائماً) أحداً، وبخاصة أبي الذي فهم الأمر دون مزيد من اللف والدوران، على أنه شيطنة غير موفقة من جاني.

وقد استعدت اعتياري، لحسن الحظ، بعد بضعة أيام في بيت آخر، حيث تركني في إحدى الليالي بينما هو يحضر عشاء عمل. كانت الأسرة بكاملها، تتابع برنامج مسابقة أحاج شعبية في إذاعة أتلاتيكيو.

ويحدث الأحجية في تلك الليلة، غير قابلة للحل: "ما هو الحيوان الذي يتبدل اسمه عندما ينقلب؟". وبمعجزة غريبة، كنت قد قرأت الجواب في مساء ذلك اليوم بالذات. في الطبعة الأخيرة من تقويم بريستول، وبدا لي دعابة رديئة: الحيوان الوحيد الذي يتبدل اسمه هو الجمل (escarabajo) لأنه عندما ينقلب يصير جعلاً مقلوباً (escarabea).^(١) قلت ذلك صراً لإحدى طفلات البيت، فسارعت الكيرى إلى الهاتف وقدمت الجواب لإذاعة أتلانتيكو. وكسبت الجائزة الأولى التي تكفي لدفع إيجار البيت عن ثلاثة شهور: مئة ييزو. امتلأ الصالون بالجيران الصاخبين الذين استمعوا إلى البرنامج وهرعوا لتهنئة الرابحين. ولكن ما كان يهم الأسرة، أكثر من المال، هو الفوز بحد ذاته في مسابقة إذاعة كانت عنوان مرحلة برمشها على ساحل الكاريبي. لم يتذكر أحد أنني موجود هناك، وعندما رجع أبي ليأخذني، انضم إلى البهجة الأسرية، وشرب نخب الفوز. ولكن أحداً لم يخبره من هو الرابع الحقيقي. فتشأ آخر من فتوحات تلك الحقبة هو الإذن الذي منحني أبي إياه للذهاب وحيداً، إلى عرض يوم الأحد الصباحي في سينما مسرح كولومبيا. وكانوا يقدمون، لأول مرة، أفلاماً متسلسلة، حلقة منها كل يوم أحد، تسبب ثورتاً لا يتسع لي لحظة واحدة من الراحة خلال الأسبوع. كان فيلم "غزو مونغو" هو الملحمة الفضائية الأولى التي تدور بين الكواكب. ولم أستطع أن أحل محلها، إلا بعد سنوات طويلة، فيلم "أوديسة الفضاء" لستانلي كوبريك. ومع ذلك، فقد استطاعت السينما الأرجنتينية، بأفلام كارلوس غارديل وليبرتاد لامارك، هزيمة الجميع في نهاية المطاف.

(١) لعبة للطفة منحن تشبه على اللاحقة *baño* (أسفل)، وأولاً واللاحقة *arrriba* (أعلى) في الكلمة الثانية.

خلال أقل من شهرين، انتهيت من إقامة الصيدلية، وحصلنا على منزل للأسرة وأئتنا. الصيدلية كانت في ركن يرتاده الناس بكثرة، في قلب المركز التجاري، وعلى بعد أربع كوادرات فقط عن جادة بوليفار. أما المنزل، بالمقابل، فكان في شارع هامشي من الحي السفلي الوضيع والمرح. ولكن قيمة الإيجار لم تكن تتفق مع ما هو عليه، وإنما مع ما يدعيه: منزل من الطراز القوطي نظلي بدوائر صفراء وحمراء، وفيه برجان حربيان.

في اليوم نفسه الذي سلموا إلينا فيه محل الصيدلية، علقتنا أوجوجوتي نوتنا، بحلقات من الحبال، ونمنا هناك على نار هادئة، وفي حساء من العرق. وعندما استلمنا المنزل اكتشفنا، أنه لا وجود فيه لحلقات من أجل تعليق أراجيح النوم، ولكننا فرشنا قرائشاً على الأرض، ونمنا على أحسن وجه ممكن. منذ أن حصلنا على قط مستعار لإخافة الفئران. وعندما حضرت أمي مع بقية الفرقة، كان تجهيز المنزل لا يزال غير مكتمل. ولم تكن فيه بعد أدوات مطبخ ولا أشياء كثيرة أخرى من لوازم المعيشة.

كان البيت عادياً على الرغم من مزاعمه الفنية. ويكاد يكون غير كاف لنا؛ فهو مؤلف من صالة، وغرفة طعام، وحجرتي نوم، وقناة صغير مبلط. وإذا ما دققنا في الأمر، فإنه لم يكن يستحق ثلث المبلغ الذي كنا ندفعه لاستجاره. ارتعبت أمي عندما رأتها. ولكن زوجها طمأنها بالحلم بمستقبل مذهب. هكذا كانا على الدوام. كان من المستحيل تصور كائنين شديدي الاختلاف، يتفاهمان بتلك الصورة الجيدة، ويتحaban إلى ذلك الحد.

لقد أثر في مظهر أمي. كانت حلي للمرة السابعة. وبدأ لي أن كاحليها وجفونها منتفخة مثل خصرها. كان عمرها آنذاك ثلاثاً وثلاثين سنة. وكان ذاك هو البيت الخامس الذي تؤثثه. وقد أذهلتني سوء حالتها المعنوية التي تفاقمت منذ الليلة الأولى؛ إذ كانت مرعوبة من فكرة اخترعتها هي نفسها، دون أي أساس تستند إليه، بأن المرأة المجهولة قد عاشت هناك، قبل أن تُقتل طعناً. كانت الجريمة قد اقترفت قبل سبع سنوات، خلال وجود أبي في المدينة، في المرة السابقة. وكانت الجريمة مروعة إلى حد أن أمي قررت عدم العودة للعيش في بارانكيّا. وربما كانت قد نسبت ذلك، عندما رجعت في تلك المرة. ولكن الرعب عاد إليها فجأة منذ الليلة الأولى في البيت المكفهر الذي لمست فيه على الفور، شيئاً من أجواء قلعة دراكولا.

كان الخبير الأول عن المرأة المجهولة، هو العشور على جسد عار، يصعب التعرف عليه، بسبب حالة التفسخ التي صار إليها. وأمكن بصعوبة، تحديد أنها امرأة في الثلاثين، ذات شعر أسود وملامح جذابة. وساد الاعتقاد بأنها قد دُفنت حية لأن يدها اليسرى كانت فوق عينيها، في حركة رعب. والذراع اليسرى مرفوعة فوق الرأس. والإشارة الوحيدة إلى هويتها، هي شريطتان زرقاوان ومشط زينة صغير مذهب. وبين الفرضيات الكثيرة التي شاعت، بدت أكثرها احتمالاً، فرضية كونها راقصة فرنسية ذات حياة مرحة اختفت، منذ تاريخ الجريمة المحتمل.

كانت بارانكيّا تتمتع بالشهرة العادلة، بأنها أكثر مدن البلاد أماناً وحسن ضيافة، إقفاً مع تكبة وقوع جريمة مروعة، في كل سنة. ومع ذلك، لم تكن هناك جريمة سابقة هزت الرأي العام إلى ذلك الحد. ولكل ذلك

الوقت، مثل جريمة المرأة المطلوعة التي يلا اسم، كانت جريدة "لابرنسا"، إحدى أهم صحف البلاد في ذلك الحين، تعتبر الرائدة في نشر القصص المصورة أيام الأحاد - بوك وجوز، وطرزان وبيب القروء -، ولكنها فرضت نفسها، منذ ستواتها الأولى، كإحدى الصحف الرائدة الكبرى في التحقيقات الحسرة. وقد استبقت المدينة في حالة من الترقب القلق، طوال عدة شهور بعناوينها الكبيرة واكتشافاتها المفاجئة التي أشاعت، بحق أو دون وجه حق، شهرة كاتب تحقيقات منسي.

كانت السلطات تحاول قمع معلومات الجريدة، بذريعة أنها تبليبل التحريات. ولكن الأمر انتهى بالفراء، إلى تصديق السلطات، أقل من تصديقهم اكتشافات لابرنسا. وقد أبقتهم المواجهة، وروحهم معلقة بخيط، طوال عدة أيام. وأجبرت المحققين في مناسبة واحدة على الأقل، على تفسير مسار التحقيق. كانت صورة المرأة المجهولة قد ترسخت آنذاك، في المخيلة الشعبية، حتى إنهم كانوا يحكمون إغلاق الأبواب بالسلال في معظم البيوت، ويحتفظون بحراسات ليلية خاصة، تحسباً من محاولة القاتل الطليق، مواصلة برنامج جرائمه المريعة، واتخذت تدابير منع الفتيات المراهقات من الخروج وحدهن، من بيوتهن، بعد الساعة السادسة مساءً.

ومع ذلك، فإن الحقيقة لم يكتشفها أحد، وإنما كشف عنها بعد بعض الوقت، مرتكب الجريمة نفسه، إفرابن دوتكان، الذي اعترف بأنه قتل زوجته، أنخيلا هويو، في الوقت نفسه الذي قدره الطب الشرعي لوفاة المرأة المجهولة. وأنه دفنها في المكان الذي عُثر فيه على الجثة المطلوعة. وتعرف الأقارب على الشريطتين الزرقاوين، وعلى مشط الزينة

- ماذا تريد أن تأكل؟

فأطلق الرجل زمجرة:

- خراً..

فرفعت الزوجة، عندئذ، الطبق وقالت بعذوبتها القدسية:

- ها هو ذا أمامك.

وتقول القصة إن الزوج افتتح عندئذ بقداسة زوجته، وتحول إلى

الإيمان بدين يسوع.

كانت صيدلية بارانكيّا الجديدة لإخفاقاً مدوياً، خففت منه بعض الشيء، سرعة إدراك أبي لذلك. فبعد عدة شهور من تدبر الأمر ببيع عقاقير متفرقة، وفتح ثغرتين من أجل سدّ واحدة، انكشف أكثر تخبّطاً مما كان يبدو عليه، حتى ذلك الحين. وفي أحد الأيام، حزم أمتعته ومضى للبحث عن الثروات في قرى لا تخطر على البال، في وادي نهر مجدلينا. وقبل أن يغادر، أخذني إلى شركائه وأصدقائه وأعلمهم بشي من التفخيم بأنني سأكون بعيداً منه في غيابه، لم أدر قط، إذا ما كان يقول ذلك هزلاً، مثلما كان يروقه أن يقوله حتى في أشد المناسبات حرجاً، أم أنه قاله، بجد مثلما كان يمنعه أن يقوله في المناسبات المبتذلة. وأعتقد أن كل واحد كان يفهمه على طريقته، ذلك أنني كنت، وأنا في الثانية عشرة، رخواً وشاحباً لا أكاد أنفع إلا قليلاً، في الرسم والغناء. وقد قالت المرأة التي نستدين منها الحليب لأمي، ذات مرة أمام الجميع، وأمامي أنا، دون أي ذرة من سوء النية:

- اعذرني لما أقوله يا سيّدة، ولكنني أظن أن هذا الطفل لن يكبر.

الرعب الذي أحسست به جعلني أنتظر الموت المفاجئ، لوقت طويل.

الذي كانت تضعه أنتخيلاً، عندما خرجت من البيت مع زوجها، يوم الخامس من نيسان، في رحلة مزعومة إلى كالامار. وأغلقت القضية، دون مزيد من الشكوك بمصادفة أخيرة يصعب تصورها، وتبدو كما لو أنها أخرجت من كم مؤلف روايات خيالي: فقد كان لأتخيلاً هوبو شقيقة ترم تشبهها تماماً، مما أتاح التعرف عليها دون أدنى شك.

انهارت أسطورة المرأة المجهولة بتحولها إلى جريمة عاطفية عادية، ولكن سرّ الشقيقة الشبيهة، ظل طافياً في اليبوت، لأن التفكير بلغ حدّ اعتبارها المرأة المجهولة نفسها، معادة إلى الحياة، بفنون السحر. كانت الأبواب تغلق بمزاج ومسايس من الأثاث، للحيلولة دون أن يدخل منها، ليلاً، القاتل الهارب من السجن بأساليب السحر. وانتشرت في بيوت الأغنياء، موضة اقتناء كلاب الصيد المدروسة، ضد القتل القادرين على اختراق الجدران. والواقع أن أمي لم تستطع تجاوز الخوف، إلى أن أقنعها الجيران بأن بيتنا في الحي السفلي، لم يكن قد شيد في أزمنة المرأة المجهولة.

في العاشر من شهر تموز ١٩٣٩، أنجبت أمي طفلة لها بروجيل هندية جميل، وقد عسّوها باسم ريتا، بسبب الورع غير المحدود الذي يشعرون به في البيت، تجاه القديسة ريتا دي كاسيا، وهو ورع يستند، إضافة إلى أمور أخرى، إلى صبرها في حمل سوء طباع زوجها المتهتك الضال. وكانت أمي تروي لنا أنه رجع في إحدى الليالي إلى بيته، وقد ذهبت الحمرة بعقله، بعد برهة من تبرّج دجاجة على مائدة غرفة الطعام. وقد تمكنت الزوجة، حين لم تجد متسعاً من الوقت، لتنظيف الشرشف الملوّث، من تغطيته بطبق كيلا يراه زوجها، وسارعت إلى إلهائه بالسؤال المعهود:

وكثيراً ما كنت أحلم، وأنا أنظر إلى المرأة، بأنني لا أرى نفسي وإنما عرجاً وليداً. وقد شخص طبيب المدرسة إصابتي باليرقان. والتهاب اللوزتين واسوداد المرارة بسبب القراءات التعسفية غير الموجهة. لم أشأ أن أخلف من دعر أحد. بل على العكس، كنت أبالغ في شرطي كعموق لأتخلص من الواجبات. ومع ذلك، فقد ففز أبي عن العلم إلى الخيال، ونادى بي قبل أن يذهب، مسؤولاً عن البيت والأسرة، في أثناء غيابه؛ - كما لو كنت أنا نفسي، موجوداً.

جمعنا يوم سفره في الصلاة، ووجه إلينا تعليقات وتوبيخات وقائية عما يمكن أن نسيء عمله في غيابه. ولكننا لم ندرك أنه إذا يتحایل، كيلا يبكي. وقدم لكل واحد منا، قطعة نقد من فئة الخمسة سنتافو. وهي ثروة صغيرة بالنسبة لأي طفل آنذاك. ووعدنا بأن يستبدلها لنا بقطعتين مماثلتين. إذا ما حافظنا عليها سليمة حتى عودته. وأخيراً توجه إلي بصوت إنجيلي:

- بين يديك أتركهم، وبين يديك سأجدهم.

مزقت قلبي رؤيته يخرج من البيت بظماق وكوب الخيل، ويخرج الأمتعة علي كتفه. وكنت أول من استسلم للبكاء. عندما نظر إلينا آخر مرة، قيل أن ينعطف عند الناصية، ويودع ملوحاً بيده. عندئذ فقط، أدركت، وإلى الأبد، كم أحبه.

لم يكن صعباً، تنفيذ توصياته، كانت أمي قد بدأت الاعتياد على تلك العزلات المقاجة والغامضة، وتصرفها على مضطرب، ولكن بسهولة كبيرة. وقد فرضت أعمال المطبخ وترتيب البيت، حتى على أصغرنا، المساعدة في المهامات المنزلية، وفعل الجميع ذلك على أحسن وجه.

وراودني في تلك الفترة، أول إحساس بأني راشد، عندما لاحظت أن أخوتي بدؤوا يعاملونني، كما لو كنت عمّاً لهم.

لم أستطيع قط، التخلص من الحجل، فكلما اضطرت إلى أن أتصدى، بلحمي الحي، للحمية التي أوصاني بها أبي الهائم على وجهه، كنت أدرك أن الحجل هو شبح لا يمكن هزيمته. فلي كل مرة أظطر فيها إلى طلب قرض، حتى من تلك المتفق عليها مسبقاً، في متاجر الأصدقاء، كنت أتاخر متجولاً لساعات حول البيت، كاهناً رغبتي في البكاء، وتقلبات بطني، إلى أن أتجبر أخيراً، وأنا أضغط فكّي بقوة لا يخرج معها صوتي. ولم يخل الأمر من صاحب دكان دون قلب، ينتهي به الحال إلى إرباكي: "أيها الطفل الرعيد، لا يمكنك التكلم وفكك مطبق". وأكثر من مرة، رجعت إلى البيت بيدين خاويتين، وباعتذار كنت أختصره أنا نفسي. ولكنني لم أعرف تعاسة قط، أكبر من تلك التي أحسست بها، عندما أردتُ التكلم بالهاتف أول مرة، من الدكان الذي على الناصية. ساعدني صاحب الدكان في التعامل مع عاملة المقسم، إذ لم تكن قد وجدت الخدمة الآلية بعد، وأحسست بهيبة أنفاس الموت، عندما قدم لي السماعة، كنت أنتظر سماع صوت خدوم، لكن ما سمعته هو نباح شخص يتكلم في العماء، في الوقت نفسه الذي أتكلم فيه، فكرت في أن محدثي لا يفهمني كذلك. فرفعت صوتي، إلى حيث أستطيع، وعندئذ رفع الآخر أيضاً صوته غاضباً:

- ومن أجل أي لعنة، تصرخ بي أنت!

أغلقت الهاتف مرعوباً. ولا بد لي من الاعتراف بأنه، على الرغم من حمى اتصالاتي، إلا أنني ما زلت أضطر إلى كبح خوفاً من الهاتف

والطائرة. ولست أدري إذا ما كان هذا الحرف يأتي من تلك الأيام. كيف يمكنني التوصل إلى عمل شيء؟ ولحسن الحظ، كثيراً ما كانت أمي تردد الجواب: "لا بد من المعاناة من أجل تقديم الخدمات".

أول خبر من أبي وصلنا بعد أسبوعين، في رسالة مكرسة لإلهائنا أكثر منها لإخبارنا أي شيء. هكذا فهمتها أمي. وفي ذلك اليوم، غسلت الأطباق، وهي تغني لترفع من معنوياتنا. لقد كانت مختلفة في غياب أبي: كانت تنطابق مع بناتها، وكأنها أخت كبرى لهن. وتندمج معهن على أحسن حال، حتى تكون أفضلهن في الألعاب الطولية، بما في ذلك اللعب بالدمى. ويصل بها الأمر إلى فقدان أعصابها والتشاجر معهن، وكأنها تدل لهن. ويمثل مضمون الرسالة الأولى نفسه، وصلت رسالتان أخريان من أبي، تعرضان مشاريع واعدة، أناخت لنا النوم بصورة أفضل.

كانت هناك مشكلة خطيرة تتمثل في السرعة التي تضيق بها ثيابنا علينا. لم يكن هناك من يرث ملابس لويس إيريكي، لأنه كان يرجع من الشارع متهاكاً، وثيابه ممزقة، ولم نفهم السبب قط. كانت أمي تقول إنه كمن يعيش بين أسلاك شائكة. أما الأخوات - وهن بين السادسة والثامنة من أعمارهن - فكن يتدبرن أمر ملابس إحداهن بملابس أخرى، كيفما استطعن وبمعجزات البراعة. وقد اعتقدت على الدوام، بأن حاجات تلك الأيام الماسة، حوكنهن راشداً، منذ وقت مبكر. كانت عابداً مديرة، وتجاوزت مازغوت قدراً كبيراً من حياتها، وبدت جانبية وخدمة نجاة الوليدة الجديدة. وكنت أنا في وضع أصعب من الجميع، ليس لأنه على القيام بمساع متميزة وحسب، وإنما لأن أمي،

محاطة بحماس الجميع، جازفت في تقليص النفقات المنزلية، لتسجلي في مدرسة كارتاخينا دي إندياس، على بعد نحو عشر كوادرات، مشياً من بيتنا.

وبناء على الاستدعاء، توجهنا، نحن العشرين متقدماً، في الساعة الثامنة، من أجل مسابقة القبول. لم يكن فحصاً كتابياً لحسن الخط، وإنما كان هناك ثلاثة معلمين يستدعوننا، وفق تسلسل تسجيلنا في الأسبوع السابق، ويجرون لنا اختباراً موجزاً بالاستثناء إلى وثائقي دراستنا السابقة. وكنت الوحيد الذي لا يملك تلك الوثائق، لأن ضيق الوقت لم يُنحَ طلبها من مدرسة مونتسوري، ومن المدرسة الابتدائية في أراكاتاك. وكانت أمي تفكر في أنني لن أقبل من دون الوثائق. ولكنني قررت التظاهر بالبلاهة. أخرجني أحد المعلمين من الصف، عندما اعترفت له بأنني لا أملك الوثائق. ولكن معلماً آخر تولى مسؤولية تقرير مصيري، وأخذني إلى مكتبه، ليجري لي الفحص، دون مطلب مسبق. سألتني ما هي كمية الغرويسا^(١)، وما هو عدد سنوات اللوسترو^(٢) والألفية. وطلب مني أن أذكر عواصم المحافظات الإدارية، وأنهار البلاد الرئيسية والبلدان التي تحددها. بدا لي كل ذلك روتينياً. إلى أن سألتني ما هي الكتب التي قرأتها. ولفت انتباهه أنني ذكرت كثيراً كثيرة وشديدة التنوع بالنسبة لسنتي، وبأنني قرأت "ألف ليلة وليلة"، في طبعة للكتاب لم تحذف منها بعض الفقرات المرحجة التي تستثير حفيظة الأب أنغارشا. وقد فوجئت حين علمت أنه كتاب مهم. لأنني كنت أفكر على الدوام بأن

(١) الغرويسا gruesa (الثنا عشرة ذئبة).

(٢) لوسترو lustro، خمس سنوات.

الكبار المجددين لا يمكنهم أن يصدقوا بأن هناك جنأ يخرجون من القوارير، أو أن الأبواب تُفتح بتعريضة من الكلمات، المتقدمون الذين سيقوني لم يتأخر كل واحد منهم أكثر من ربع ساعة، المقبولون منهم والمرفوضون على السواء، بيتنا بقيت أنا أكثر من نصف ساعة، أتحدث مع المعلم، حول كل أنواع الموضوعات، تفحصنا معاً خزائنة كتب مترجمة، وراء منضدة المكتب، وبينها كان يتميز، بعدد نسخه وألقه، كتاب "كنز الشباب" الذي كنت قد سمعت عنه، ولكن المعلم أقنعني بأن الكتاب الأكثر فائدة لسني هو "الكيخوته"، لم يجده في المكتبة، ولكنه وعدني بأن يعيرني إياه قريبا بعد. وبعد نصف ساعة من التعليقات السريعة، حول السندباد البحري أو وينسون كروزو، رافقني حتى المخرج، دون أن يقول لي إذا ما كنت قد قبلت. فكرت أن لا، طبعاً، ولكنه ودعني عند الشرفة بالشد على يدي والقول لي، إلى اللقاء، في الساعة الثامنة من صباح يوم الاثنين، من أجل تسجيلي في الصف الأعلى من المدرسة الابتدائية، الصف الرابع.

لقد كان المدير العام، واسمه خوان فينتورا كامالينس، وأنا أتذكره كصديق طفولة، دون أي أثر من الصورة المربعة التي كانت شائعة عن معلمي تلك الحقبة. فضيلته التي لا تنسى، كانت في معاملتنا جميعاً كراشدين متساوين، بالرغم من أنني ما زلت أشعر بأنه كان يولياني اهتماماً خاصاً. فقد اعتاد أن يوجه لي، خلال الدروس، أسئلة أكثر من الآخرين، ويساعدني لتكون إجاباتي صائبة وبسيطة. وكان يسمح لي بأخذ الكتب من المكتبة المدرسية، لأقرأها في البيت. وقد كان اثنان من تلك الكتب، "جزيرة الكنز" و"الكوييت دي مونتكريستو"، هما المخدع

السعيد في سنوات الأعاجيب تلك، كنت ألتصهما حرفاً حرفاً، متلهفاً لمعرفة ما الذي سيحدث في السطر التالي. ومتلهفاً في الوقت نفسه إلى عدم معرفة ذلك، حتى لا أكسر السحر. وقد تعلمت منهما، مثلما تعلمت من ألف ليلة وليلة، ما لن أنساه أبداً، بأنه يجب أن نقرأ فقط الكتب التي نجبرنا على أن نعيد قراءتها.

أما قراءتي لرواية "دون كيخوته" بالمقابل، فكنت أراها على العوام جدوة بفصل منفرد، لأنها لم تسبب لي التأثير الذي توقعه المعلم كامالينس. فقد كانت تُصجرتني خطب الفارس الجوال المسهية. ولا أشعر بأي ظرافة في حقاقت تابعه. حتى إنني صرت أفكر في أنه ليس الكتاب نفسه الذي يجري الحديث بكثرة عنه. ومع ذلك، فقد قلت لنفسي إن معلماً حكماً مثل معلمتنا، لا يمكنه أن يخطئ. وبذلت جهداً لا يتلأعه ملعة بعد أخرى، كما لو كان شراباً مسهلاً. ثم بذلت محاولات أخرى في المرحلة الثانوية، حين كان علي أن أدرسه كواجب إجباري، وملتته دون خلاص، إلى أن نصحتني صديق بأن أضعه على رف المراضي، وأحاول قراءته بينما أنا ألحج واجباتي الجسدية اليومية. وبهذه الطريقة فقط اكتشفته، كتفجر، واستمتعت به سوياً ومقلوباً، إلى أن صرت أردد من الذاكرة، مقاطع مطولة كاملة منه.

لقد خلفت لي تلك المدرسة التي قرأها لي القدر، ذكريات تاريخية كذلك، عن مدينة وحقة لا سبيل إلى استعادتهما. كانت المدرسة هي البناء الوحيد على قمة زاوية خضراء، يظهر من شرفتها أقصى طرفي العالم. فإلى يسارها هي البرادو، الأكثر قبلاً وغلاء، والذي بدا، لي منذ الوهلة الأولى، نسخة مطابقة لقن الدجاج ذي السور المكهرب الذي كان

يقطنه موظفو اليوناييتد فروت كوسباني. لم يكن ذلك مصادفة: فقد بينته شركة مصصمي مدن أمريكيين، وفق ذوقهم وأنظمتهم وأسعارهم المستوردة. وكان الحي نقطة جذب سياحي محتملة لبقية أرجاء البلاد. وهناك إلى يمينه بالمقابل، الضاحية المعفرة لغينا السقلي بشوارعه الترابية الملتصبة، ويصوته التي من قصب وطبن، وسفوف من سعف النخيل، تذكرنا طوال الوقت، أننا لسنا أكثر من بشر قانين من لحم وعظم. ولحسن الحظ أنه كان يظهر لنا من شرفة المدرسة، مشهد بانورامي للمستقبل: دلتا نهر مجدلين التاريخي، وهي من أكبر دلتات العالم، والبحر الرمادي عند بوكاس دي ثينيشا.

في ٢٨ أيار ١٩٣٥ رأينا ناقلة النفط تاراليت، التي رفعت العلم الكندي، تدخل وهي تطلق جزار بهجة بين سدي الصخور، لخرسو في مرفأ المدينة، وسط صخب الموسيقى والألعاب النارية، يقودها القبطان د.ف. ماكولالد. وهكذا تحققت ماثرة قديمة أعد لها خلال سنوات طويلة، لتحويل مدينة بارانكيئا إلى الميناء البحري والنهري الوحيد في البلاد.

وبعد وقت قصير من ذلك، مرت طائرة بقودها النقيب نيكولاس ريس مانوتاس، وهي تكاد تلامس أسطح البيوت، بحثاً عن أرض خلاء من أجل هبوط اضطراري، ليس ليتجو بجلده وحسب وإنما لينقذ كذلك، جلود المسيحيين الذين سيضطدم بهم في سقوطه. لقد كان أحد رواد الطيران الكولومبي. وقد أهديت إليه تلك الطائرة الهدائية في المكسيك. وقادها، وحيداً، من أحد طرفي أميركا الوسطى إلى طرفها الآخر. وكان قد أعد له حشد متجمع في مطار بارانكيئاس، حفل ترحيب انتصاري، مع مناديل ورايات وفرقة موسيقية. ولكن ريس مانوتاس أراد القيام

بجولتي تحية آخرين فوق المدينة، فأصيب محرك طائرته بعطل. وتكن من السيطرة على الطائرة، بهارة إعجازية، لكي يهبط على شرفة بناه في المركز التجاري. ولكن الطائرة تشابكت مع أسلاك الكهرباء، وبقيت معلقة بأحد الأعمدة، لحقنا بها أنا وأخي لويس إيريكي، بين الحشود الصاخبة، إلى حيث سمحت به أنفسنا. ولكننا تمكنا من رؤية الطيار فقط، بعد أن أخرجوه بمشقة، إقما سليماً معافى، وهو يحيي الناس بحماس بطل.

وقد شهدت المدينة كذلك، أول محطة بث إذاعية، وقناة مائية حديثة تحولت إلى مكان جذب سياحي وتربوي للتعريف بعملية تنقية المياه المستجدة، وفريق إطفاء كانت صفارته وأجراسه عيداً للصغار والكبار، مذ بُدئ بسماعها، كما دخلت هناك أولى السيارات المكشوفة التي كانت تنطلق في الشوارع بسرعة جنوبية، وتحول الطرق المرصوفة حديثاً، إلى عجة. وقد استلهمت وكالة "الإتصاف" لدفن الموتى، سخرية الموت، وعلقت إعلاناً هائلاً عند مخرج المدينة، تقول فيه: "لا تسرع، فنحن في انتظارك".

وفي الليل، عندما لا يعود هناك صلاة سوى البيت، نجتمعنا أسي لنقرأ لنا رسائل الوالد. وكان معظمها أعمالاً بارعة في الإلهاء والتخلص. ولكن إحداها بدت واضحة في حديثها عن الحساس الذي يوظفه الطب التجانسي بين كبار السن، في أسفل نهر مجدلين. إذ يقول أبي: "توجد هنا حالات تبدو إعجازية". لقد كان يؤكد أحياناً لدينا الانطباع بأنه سيكشف لنا عما قريب عن أمر عظيم. ولكن ما يتلو ذلك هو شهر آخر من الصمت. في أسبوع الألام المقدس، عندما أصيب اثنان

من أخوتي الصغار بعدوى حصبة وبيلة، لم نجد طريقة للاتصال به لأن أمهر الأدلاء ما كانوا يعرفون شيئاً عن أثره.

في تلك الشهور، نهضت في الحياة الواقعية، معنى واحدة من الكلمات التي كان يكثر جدائي من استخدامها: الفقر. لقد كنت أفصحاً على أنها الوضع الذي كنا نعيشه في بيتنا، منذ أن بدأت شركة الموز بالتفكك، كمانا يشكون منه طوال الوقت. ولم تعد هناك ورديتان أو ثلاث ورديات على المائدة، مثلما كانت الحال في السابق، وإنما وردية واحدة. من أجل عدم التخلي عن طبق الغداء المقدس. وقد انتهى بهما الأمر، عندهما لم تعد لديهما موارد للاتفاق عليهما، إلى شراء الطعام جاهزاً من مطاعم السوق، وكان جدياً وأرخص بكثير، مع المفاجأة بأننا نحن الأطفال، أحببناه أكثر. ولكن ذلك كله انتهى إلى الأبد، عندما علمت الجدة مينا بأن بعض المدعوين المشايخين قدروا عدم المجيء إلى البيت، لأن الأكل لم يعد لائقاً، كما في السابق.

فقر والدي في بارانكيًا بالمقابل، كان متفكاً، لكنه أتاح لي لحسن الحظ، إقامة علاقة استثنائية مع أمي. كنت أشعر لحوها، إضافة إلى الحب البتوي المفهوم، بإعجاب مدهل بطبيعتها، كلبوة صامتة، وإنما ضاربة في مواجهة المصاعب، وبملاقاتها بالرب، التي لا تشبه الخضوع وإنما العراك. وهما ميزتان رسختا لديهما، في الحياة، ثقة بالنفس لم تخنهما مطلقاً. ففي أسوأ اللحظات، كانت تضحك من أساليبها القدرية. كما في المرة التي اشترت فيها ركبة جاموس، وراحت تغليها يوماً بعد آخر، من أجل المرقق البومي الذي راح دسمه يتناقص يوماً بعد يوم، إلى أن تحول إلى مجرد ماء، لا يمكنه أن ينتج المزيد. وفي ليلة عاصفة مرمعية،

أنفقت كل شحم الخنزير المخصص للشهر، لتصنع منه سراجات قماشية، لأن الضوء انقطع حتى الصباح، وكانت هي نفسها، من أدخلت في صغارها الخوف من الظلام، كيلا يتحركوا من فراشهم.

كان أبوي يزوران، في أول الأمر، الأسر الصديقة التي هاجرت من آراكساناكا، بعد أزمة الموز وتردي نظام الأمن العام. وكانت زيارات ذائرة، يدورون فيها على الدوام، حول موضوعات التكية التي حلت بالقرية. ولكن عندما اشتد علينا الفقر في بارانكيًا، لم نعد نشكو في البيوت الغريبة، وأوجزت أمي تكتمها في جملة واحدة: "الفقر يظهر في العيون".

حتى الخامسة من عمري، كان الموت يبدو لي نهاية طبيعية تحدث للآخرين. ولم أكن أرى في بهجة الفردوس السماوي وعذابات المجحيم، إلا مجرد دروس نحفظها عن ظهر قلب، من كتاب الأب أستيتي في التربية الدينية. ولم تكن لي أي علاقة بها؛ إلى أن لاحظت بطرف عيني، في أثناء السهر على ميت، أن القمل كان يهرب من شعر الجثة، ويمشي دون وجهة محددة، على الوسائد. وما أقلقني منذ ذلك الحين، ليس الخوف من الموت، وإنما الخجل من أن يهرب مني القمل أيضاً، على مرأى من الأقارب الذين سيشهرون على جثتي. ومع ذلك، لم أنتبه، وأنا في المدرسة الابتدائية، في بارانكيًا، إلى أنني كنت مصابة، بالقمل إلى أن نقلت العدوى إلى الأسرة كلها، وأظهرت أمي آنذاك دليلاً آخر على ضلالية طبيعتها، فقد عقمت أبنائها واحداً واحداً، بمبيد صراصير، في عملية تنظيف معمقة عمدتها باسم ذي وقع مهيب: الشرطة. ولكن السيئ في الأمر، هو أننا ما إن تطهرنا حتى بدأنا نصاب من جديد، لأن

العدوى انتقلت إليّ مجدداً في المدرسة. عندئذ قررت أُمّي قطع الداء من جذوره، فأجبرتني على قص شعري من أصوله. كان ظهري في المدرسة يوم الاثنين، وأنا أضغ قبعة قماشية، عملاً بطولياً، ولكنني تجاوزت، بشرف، سحريات زملائي، وتوجّهت السنة النهائية بأعلى التقديرات والدرجات. لم أعد للقاء المعلم كاساليتاس قط، ولكن بقيتُ مديناً له بالامتحان الأبدى.

وجد لي صديق لوالدي، لم نتعرف عليه قط، عملاً في مطبعة قريبة من البيت. وكان الأجر أقل بكثير من لا شيء، وكانت فكرة تعلم المهنة هي دافعي الوحيد. ومع ذلك، لم تكن تتوفر لي لحظة واحدة لروية المطبعة، لأن عملي كان يتلخص في ترتيب اللازم المطبوعة، لكي يجلدوها في قسم آخر. وكان عزائي هو أن أُمّي منعتني بأن أشتري من أجري، ملحق صحيفة لابرندا ليوم الأحد. وكان يتضمن قصص رسوم متسلسلة عن طرزان، وبوك ووجرز - واسمه عندنا روخيليو الغازي - وعن "مَت أند جف" - وكانا يسميان بينيتو وإنياس -. وقد تعلمتُ، في استراحة أيام الأحد، رسمهم من الذاكرة؛ وكنت أستكمل حلقة الأسبوع، وأضع لها نهاية على هواي. فتوصلت بذلك، إلى إثارة حماس بعض الكبار في الحي، بل واستطعت أن أبيعها مقابل سنتين اثنين.

كان العمل منهكاً ومجهداً، وكانت تقارير رؤسائي، ههما بذلك من جهد، تنهمني بالتقصير وضعف الرغبة في العمل. وقد نقلوني، تقديراً لأنسرتي دون شك، من روتين الورشة، إلى موزع نشرات دعائية في الشوارع، لشراب سعال يوصي به أشهر فناني السينما. بدا لي ذلك

جيداً، لأن النشرات جميلة، وعليها صور المشلين بالألوان. مطبوعة على ورق مصقول. ومع ذلك، فقد أدركت منذ البداية، أن توزيعها ليس بالأمر السهل، مثلما ظننت. فالناس ينظرون إليها بارتباب، لأنها توزع مجاناً ويجفل معظمهم، كما لو أنها مكهنة، كيلا يتلقوها. في الأيام الأولى رجعت إلى المشغل ومعني النشرات المتبقية ليستكملوها لي. إلى أن التقيت بعض زملاء الدراسة في أراكاتاكّا، وقد استشاطت أسهم غضباً، حين رأيتني في تلك المهنة التي بدت لها عمل متسولين. عتفتني بما يشبه الصراخ، لأنني أخرج إلى الشارع بصندل قماشي اشتريته لي أُمّي كيلا، أستهلك حقاً المناسبات الرسمي، وقالت لي:

- قل للربسا سانشيغا، أن تفكر في ما يمكن أن يقوله أبوها إذا ما رأيا حفيدهما المفضل، يوزع دعايات متسولين في السوق.

لم أنقل الرسالة، لأوفر على أُمّي الغم. ولكنني بكيت على وسادتي من الغضب ومن الحجل لبالي عذبة، وكانت نهاية تلك الدراما أنني لم أعد أوزع النشرات، وإنما صرت ألقى بها في مجاري السوق دون أن ألاحظ أن مياهها راكدة، والورق المصقول يبقى طافئاً على السطح، إلى أن يشكل قرشة يديعة الألوان، تتحول إلى مشهد فريد، من فوق الجسر.

لا بد أن أُمّي تلقت رسالة من موناها في حلم ملهم، لأنها أخرجتني، قبل انقضاء شهرين من المطبعة دون تفسيرات، فعارضت ذلك كيلا أفقد عدد يوم الأحد من جريدة لابرندا التي كنا نطلقها في الأسرة مثل مباركة من السماء. ولكن أُمّي واصلت شراءها لنا، ولو اضطرها ذلك إلى أن تقطع جبة بطاطا من الحساء.

وسيلة إنقاذ أخرى هي مبلغ القُرَج الذي كان يرسله إلينا الحال خوانيتو، في أشد الشهور قسوة. كان الحال آنذاك لا يزال يعيش في

سانتا مارتا، على دخله الضئيل كعدّاد محلّ، وقد فرض على نفسه واجب إرسال رسالة لنا كل أسبوع، ومعها ورقتان تقدّمان من فئة البيزو الواحد. وكان قبطان المركب النهري أورورا، وهو صديق قديم للأسرة، يسلّمني الرسالة في الساعة السابعة صباحاً، فأعود إلى البيت بشتريات أساسية تكفي عدة أيام.

وفي أحد أيام الأربعاء، لم أستطع القيام بالمهمة، فأوكلتها أُمي إلى لويس إنيكي الذي لم يقاوم إغراء محاولة مضاعفة البيزوين في آلة العملات في حانة صينيين. لم يستطع اتخاذ قرار التوقف عندما خسر الفيشتين الأوليين، وواصل محاولة استردادهما، إلى أن خسر حتى قطعة النقد ما قبل الأخيرة. وقد روى لي بعد أن كبر: "لقد بلغ خوفني حدّاً قررت معه عدم العودة إلى البيت أبداً". فقد كان يعرف جيداً أن البيزوين يكفّيان للمشتريات الأساسية لأسبوع، ولحسن الحظ أن شيئاً في الآلة مع الفيشة الأخيرة جعل أحشائها تهتز هزة حديدية، وتقيأت على أثرها، في دقائق متواصلة، الفيشات الكاملة للبيزوين الضائعين. وقد أخبرني لويس إنيكي: "عندئذ ألهمني الشيطان، ونجّرت على المجازفة بفيشة أخرى". كسب، وجازف بأخرى وكسب أيضاً، وأخرى وأخرى وأخرى، وكسب. وقد روى لي: "كان الرعب عندئذ أكبر مما أحسست به حين خسرت، فتراخت أحشائي، ولكنني واصلت اللعب" وأخيراً كسب ضعف البيزوين الأصليين في قطع نقدية من فئة الخمسة سنتافو، ولم يتجرأ على استبدالها بنقود ورقية من الصندوق، خوفاً من أن يورطه الصيني في قصة صينية^(١). انتفخت بها جيوبه كثيراً، حتى إنه سارع، قبل أن يعيد إلى أُمي ميزوي الخال خوانيتو، في قطع نقدية

(١) القصة الصينية cuento chino هي كل حديث غير معقول وفيه كثير من التلف والدوران.

من فئة الخمسة سنتافو، إلى دفن البيزوات الأربعة التي كسبها، في أقصى الفتاة، حيث اعتاد أن يخفي كل سنتافو يجده في غير مكانه. وقد أنفقها شيئاً فشيئاً، دون أن يعترف لأحد بالسر، إلا بعد سنوات طويلة. وكان ما يزال يتعذب، لأنه انقاد للمجازفة بقطعة الخمسة سنتافو الأخيرة في دكان الصيني.

علاقته بالنقود كانت شخصية جداً، في إحدى المرات، فاجأته أُمي بنش في محفظتها التي تضع فيها نقود الشراء. وكان دفاعه عن نفسه فظيهاً، ولكنه ذكي؛ النقود التي يأخذها أحداً دون إذن من محفظة الأبوين، لا يمكن أن تعدّ سرقة، فهي نقود الجميع، التي يتكرونها علينا حسداً، لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا بها ما يفعله الأبناء. وقد بلغ بي الأمر، في الدفاع عن حنّته، إلى حد الاعتراف بأنني، أنا نفسي، كنت قد سطوت على المخايئ المنزلية من أجل ضرورات ملحة. فقدت أُمي عندئذ أعصابها، وقالت لي صارخة تقريباً: "لا تكونا على هذا القدر من الحماقة: أنت وأخوك لم تسرقا مني شيئاً. فأنا نفسي أترك النقود، لأنني أعرف أنكما ستأخذان منها، عندما تضطران إلى ذلك". وفي إحدى نوبات غضبها، سمعتها تغسغم بيأس، بأنه لا بد للرب من أن يبيع السرقة أحياناً، من أجل إطعام الأطفال.

لقد كان سحر لويس إنيكي في شيطاناته، منفيداً جداً في حلّ مشاكل مشتركة. ولكنه لم يحاول قط، أن يورطني في مقالبه. بل على العكس من ذلك، كان يتديرها دوماً، بحيث لا يلحق بي أدنى قدر من الشبهة. وقد أرهف سلوكه ذلك، عاطفة حقيقية استمرت بيننا إلى الأبد. ولكنني لم أتج له بالمقابل، لأن يعرف كم كنت أحسد جرأته، وكم كنت

أتألم من الضرب المبرح الذي يتلقاه من أبي. لقد كان سلوكي مختلفاً جداً عن سلوكه. ولكنني كنت أتكلف جهداً كبيراً في إخفاء حسدي له. وكان بيت الأبوين في كاتاك بالمقابل، يخيفني، حيث كانوا يأخذونني للثوم فيه. عندما يريدون إعطائي شربة طاروة للديدان أو زيت خروع فقط. حتى إنني كنت أكره قطع النقد من فئة العشرين ستاقو التي يدفعونها لي مقابل الشجاعة في تناولها.

أظن أن أمي بلغت ذروة اليأس. عندما أرسلتني محملاً برسالة إلى رجل مشهور بثرائه، وبأنه في الوقت نفسه، أوسع المحسنين إلى الناس سخاءً في المدينة. كانت الأخبار عن طيبة قلبه، تُشعر بتوسع لا يقل عن التوسع في نشر انتصاراته المالية. كتبت إليه أمي رسالة غم بلا موازنة، تطلب منه مساعدة مادية مستعجلة، ليس باسمها، لأنها قادرة على تحمل أي شيء، وإنما حباً بأبنائها. لا يد من أن يكون المرء قد تعمرَ عليها لكي يدرك ما الذي تعنيه تلك الإهانة في حياتها. ولكن المناسبة كانت تتطلب ذلك. نيهتني إلى أن السر يجب أن يبقى بيتنا نحن الاثنين، وهذا ما حدث، حتى هذه اللحظة التي أكتبه فيها.

طُرقتُ بوابة البيت الذي فيه شبه بالكنيسة، وعلى الفور تقريباً فُتحت كوة في الباب، أطلت منها امرأة لا أتذكر منها سوى جليد عينيها. تلقت الرسالة دون أن تفوه بكلمة واحدة، وأغلقت الكوة من جديد. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة صباحاً، وانتظرتُ جالساً عند دعامتي البوابة، حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، عندما قررت طرق الباب ثانية، طلباً للرد. فتحت المرأة نفسها من جديد، وفوجئت بالتعرف عليّ، وطلبت مني الانتظار لحظة. ثم جاءتني بالجواب بأن أعود يوم الأربعاء،

من الأسبوع التالي. في الساعة نفسها. وكان هذا ما فعلته ولكن الجواب الوحيد الذي تلقينته، هو أنه لا مجال لأي جواب قبل أسبوع. وكان عليّ أن أعود ثلاث مرات أخرى، وأن أتلقى دوماً، الجواب نفسه. إلى أن ردّت علي امرأة أكثر جفاءً من السابقة، بتكليف من السيد. بأن ذلك البيت ليس بيت صدقات.

قمت بالتحول في الشوارع الملتهية، محاولاً استجماع الشجاعة، لأثقل إلى أمي إجابة تخلصها من أوهامها. واجهتها في أوج الليل، لأخبرها بقلب موجوع بأن المحسن الطيب قد توفي. منذ بضعة شهور. وكان أكثر ما أُلقي هو صلاة السبحة التي رددتها أمي من أجل الراحة الأبدية لروحه.

بعد أربع أو خمس سنوات من ذلك، عندما سمعنا من المذيع، الخبر الحقيقي، بأن المحسن قد توفي في اليوم السابق. بقيت متيبساً بانتظار رد فعل أمي. ومع ذلك، لا يمكنني أن أفهم مطلقاً كيف سمعت الخبر باهتمام متأثر، وتنهت من أعماق روحها:

- فليحفظه الرب في ملكوته المقدس!

على بعد كوادرا من البيت، أقمت صداقة مع آل موسكيرا. وهم أسرة تتفق ثروة على شراء مجلات القصص المصورة، ويكسبونها حتى السقف في عتير في الفناء. وكنا نحن المخطوطين الوحيديين الذين أمضوا هناك أياماً بكاملها في قراءة "دك تراكي" و "بوك روجرز". ولقبة سعيدة أخرى، هي مغرب يرسم إعلانات لأفلام سينما كينساس القريبة. وكنت أساعده لمجرد المتعة في تلوين الحروف، فبدخلنا مجاناً مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، إلى أفلام إطلاق الرصاص وتبادل

لللكمات. الترف الوحيد الذي افترقنا، هو جهاز مذبذب لسماع الموسيقى في أي وقت، بمجرد لمسة زر. من الصعب اليوم، تصوركم كانت تلك الأجهزة نادرة في بيوت الفقراء. كنت أجلس أنا وليس إنريكي أمام الدكان القائم على الناصية، على مقعد موضوع من أجل مسامرات الزبائن البطالين. وكنا نحكي أسياث بطولها، ونحن نشمع إلى برامج الموسيقى الشعبية. وهي كل شيء، في ذلك الحين تقريباً، وتوصلنا إلى أن نحفظ في ذاكرتنا قائمة كاملة من أغنيات ميغيليتو بالدريس مع أوركسترا كازينو دي لا بلايا، وذاثيل سانتوس مع فرقة سونورا ماتانتيرا، وأغنيات بوليرو أغوسطين لارا بصوت توتيا الزنجية.

تسليشنا الليلية، وبخاصة في المناسبتين اللتين قطعوا فيهما عنا نور الكهريا، لعدم الدفع، كانت تعليم تلك الأغنيات لأنا وأخوتنا، ولا سيما ليخيا وغوستافو، اللذان كانا يحفظانها غالباً، دون أن يفهما معناها، فيضحكاننا حتى الانفجار بأخطائهما الغنائية. لم تكن هناك استثناءات، فجميعنا ورثنا عن الأب والأم ذاكرة خاصة للموسيقى، وسمعاً جيداً لحفظ أغنية من المرة الثانية. وبخاصة لويس إنريكي الذي ولد موسيقياً وتخصص بإمكانياته الذاتية في العزف المنفرد على الجيتار في سرينات الحب المعاكس. وسرعان ما اكتشفنا أن جميع الأطفال الذين ليس لديهم مذبذب في البيوت المجاورة، يتعلمون أيضاً من أخوتي، وبخاصة من أمي، التي انتهت لأن تكون أختاً أخرى في بيت الأطفال ذاك.

كان برنامجي المفضل هو "ساعة لشيء من كل شيء" للمؤلف الموسيقي والمغني والمعلم أنخل ماريا كاماتشو أي كانو، الذي كان

بحسب التسميع، منذ الساعة الواحدة بعد الظهر، بكل أصناف المنوعات الذكية، ولا سيما ساعته المخصصة للهواة دون الخامسة عشرة. كان يكفي أن يسجل المتقدم اسمه في مكاتب "صوت الوطن" وأن يأتي إلى البرنامج، قبل نصف ساعة من الموعد. وكان المعلم كاماتشو أي كانو نفسه يرافق الهاوي على البيانو، بينما يصدر مساعد له الحكم غير القابل للاستئناف يقطع الأغنية، بزن جرس كنيسة عندما يقترب الهاوي أدنى خطأ. وكانت الجائزة التي تقدم لأفضل مغنٍ أكثر مما يمكن لنا أن نحلم به - خمسة بيزوات -، ولكن أمي كانت واضحة بأن المهم هو الفخر بالفناء جيداً في برنامج بهذه الشهرة.

كنت حتى ذلك الحين، أعرف بنفسي، بكنية أبي وحدها - غارسيا - واسمي الأول المركب من اسمين - غابرييل خوسيه -، ولكن أمي طلبت مني، في تلك المناسبة التاريخية، أن أسجل اسمي معيناً إليه كنيستها كذلك - ماركيز - حتى لا يشك أحد في هويتي. لقد كان حدثاً في البيت، ألبسوني ثياباً بيضاء، كما في المناولة الأولى، وقيل الخروج، قدموا لي شراباً من فوار الصودا. وصلتُ إلى "صوت الوطن" قبل ساعتين من الموعد، وقد انقضى مدخل المسكن، بينما أنا أنتظر في حديقة قريبة لأنهم لا يسمحون بالدخول إلى الاستديو، إلا قبل ربع ساعة من البرنامج. في كل دقيقة كنت أشعر بعناكب الرعب تنمرني داخل، وأخيراً دخلت وقلبي يكاد يطفئ من صدري. كان عليّ أن أذل جهداً خارقاً لأمنع نفسي من العودة إلى البيت والقول إنهم لم يسمحوا لي بالاشتراك في المسابقة متعللاً بأي حجة. أجرى لي المعلم اختباراً سريعاً برفقة البيانو، لكي يحدد طبقة صوتي، وقد استدعوا قبلي سبعة

متسابقين، وفق تسلسل التسجيل، وفرعوا الجرس لثلاثة منهم لأخطاء مختلفة، ثم أعلنوا عني باسم غابرييل هاركيز وحسب. غنيت "البجعة"، وهي أغنية عاطفية عن بجمعة أشد بياضاً من ندفة ثلج قُتلت مع حبيبها، على يد صياد عديم الشفقة. منذ الألمان الأولى لاحظت أن الإيقاع عالٍ جداً بالنسبة لي في بعض النغمات التي لم تمر في الاختيار، وعانيت لحظة رعب عندما قام المساعد بإيماة مترودة، وتأهب لتناول الجرس. لست أدري كيف وانقضى الشجاعة لأشبهه له بإيماة، نشطة ألا بترعه. ولكن ذلك جاء متأخراً؛ فقد دوى الجرس دون رحمة. وذهبت بيرواات الجائزة الخمسة، ومعها عدة هدايا دعائية، إلى شقراء جميلة جداً مضغت مقطعاً من مدام بترفلاي. رجعتُ إلى البيت مثقلاً بالهزيمة. ولم أستطع قط مواساة أُمِّي من خيبة أملها. وقد انقضت سنوات طويلة، قبل أن تعترف لي بأن سبب خجلها هو أنها كانت قد أخبرت أقرانها وأصدقاءها، لكي يسمعونني وأنا أغني. ولم تكن تعرف كيف تتعرب منهم.

وسط ذلك النظام من الضحك والبكاء، لم أنغب عن المدرسة قط. حتى وأنا خاوي المعدة. ولكن وقت قراءتي المنزلية، صار ينقضي في المساعي المنزلية. ولم تكن لدينا ميزانية للنور، فكنيتي من القراءة حتى منتصف الليل. ولكنني كنت أتدير الأمور على أي حال. قضى الطريق إلى المدرسة كانت هناك ورشات لحافلات الركاب، وكنت أتوقف في إحداها لساعات. أراقب كيف يغطون، على جانبها، لافشات تبين الطريق الذي تقطعه، والوجهة التي تصل إليه. وفي أحد الأيام، طلبت من الرسام أن يسمح لي يرسم بعض الحروف، لأرى إذا ما كنتُ قادراً

على ذلك. فوجئ بكفائي الطبيعية، وسمع لي بأن أساعده أحياناً. مقابل بعض البيرواات المتفرقة التي تساعد قليلاً، في الميزانية الأسرية. وقد عشت في تلك الفترة وهذا آخر. عندما تعرّفت مصادفة، على ثلاثة أخوة كنيتهم غارسيا. أبناء بحار يبحر نهر مجدليننا، وكانوا قد نظموا ثلاثي موسيقى شعبية، لتنشيط حفلات الأصدقاء. حباً بالفن وحسب. فأكملت معهم الرباعي غارسيا، لتشارك في مسابقة ساعة الهواء. في إذاعة أتلانتيكو، ربحنا الجائزة. منذ اليوم الأول، وسط عاصفة من التصفيق. ولكنهم لم يدفعوا لنا بيرواات الجائزة الخمسة. بسبب خطأ لا يمكن إصلاحه، في تسجيل الأسماء. واصلنا التدريب معاً خلال بقية السنة، والغناء مجاناً في الحفلات الأسرية، إلى أن فرقنا بيننا الحياة.

لم أنفق أبداً مع الرواية المخبئة الفائلة إن الصبر الذي كان أبي يواجه به الفقر، له علاقة بانعدام حس الشعور بالمسؤولية. بل على العكس: أظن أنها كانت أدلة هوميروسية على تواطؤ لم يخبُ أبداً بينه وبين زوجته. وسمع لهما بكنم أنفاسهما، إلى أن يبلغا شفير الهاوية. كان يعرف أنها قادرة على التحكم بالرعب، خيراً من تحكمها باليأس، وأن هذا هو السر في بقائنا على قيد الحياة. وربما أن الأمر الذي لم يفكر فيه هو أن آلامه كانت تهدأ، وهو يراها تخلف في الطريق، أفضل ما في حياتها. لم تكن نفهم أبداً سبب أسفاره. ففي أحد أيام السبت، أبطلونا فجأة في منتصف الليل، مثلما كان يحدث عادة. ليأخذونا إلى وكالة محلية لحقل بترول في كاتاتوميو، حيث تنتظرنا مكاملة لاسلكية من أبي. لن أنسى قط أُمِّي المستحمة بالدموع، في تلك المحادثة التي تشوشها التقنية.

- آي يا غابرييل. انظر كيف تركتني مع هذه الكتيبة من الأبناء.
وقد وصلنا إلى حد عدم العثور على ما نأكله، مرات عديدة.
فرد هو بالغير المشؤوم، بأن كبدته متورم، وكان ذلك يحدث له
بكثرة. ولم تكن أمي تأخذه على محمل الجد، لأنه استخدمه مرة للتستر
على مجونه. فقالت له مازحة:
- هذا ما يصيبك، كلما أسأت التصرف.

كانت تتكلم وهي تنظر إلى الميكروفون، كما لو أن أبي هناك. ثم
ارتبكت أخيراً، وهي تحاول أن ترسل إليه قبلة، فقيلت الميكروفون. ولم
تستطع، هي نفسها، كبح قهقهاتها، ولم تتمكن قط من رواية الحكاية
كاملة، لأنها كانت تنتهي إلى الاستحمام بدموع الضحك. ومع ذلك،
بقيت ساهمة في ذلك اليوم. وأخيراً قالت على المائدة وكأنها تتكلم إلى
لا أحد:

- لقد لمست شيئاً غريباً في صوت غابرييل.

أوضحنا لها أن جهاز اللاسلكي لا يشوش الأصوات فقط، وإنما
يحجب حقيقة الشخصية كذلك. وفي الليلة التالية، قالت وهي نائمة:
"صوته على كل حال، يُسمع كما لو كان أكثر نحولاً". كان أنفها مرهقاً
كما في أيامها السيئة. وكانت تتسائل بين التهنيدات، كيف هي تلك
الفرى التي بلا رب ولا قانون، حيث يقضي زوجها طليقاً من دون إمرأته.
وقد تبدت أسبابها الخفية بجلاء أكبر في محادثة لاسلكية أخرى،
عندما أجبرت أبي على أن يعدها بأنه سيرجع فوراً إلى البيت، إذا هو لم
يشوصل إلى أي شيء خلال أسبوعين. ومع ذلك، تلقينا قبل انتهاء
المهلة، من لوس ألنوس دل روساريو، برقية درامية كية من كيسة واحدة:

"متبردة". رأت أمي في الرسالة، تأكيداً لأشد شكوكها وضوحاً،
وأصدرت حكمها غير القابل للاستئناف:

- إما أن تأتي قبل يوم الاثنين، وإلا فانتني سأتي إليك هناك، الآن،
بالذات ومعى الذرية كلها.

وسيلة مباركة. فقد كان أبي يعرف قوة تهديداتها. وقبل انقضاء
أسبوع كان قد عاد إلى بارانكيّا، لقد أذهلنا دخوله، صردياً ملاسبه
كيفما اتفق، ببشرة مائلة إلى الخضرة، وذقن غير حلقة. حتى إن أمي
ظنت أنه مريض. ولكنه مجرد انطباع أتى، لأنه ما لبث أن خرج لنا، بعد
يومين بمشروع شبابه، في إقامة صيدلية متعددة الأغراض، في بلدة
سوكري. وهي ركن حالم ومزدهر. على بُعد ليلة ونهار من الإبحار من
بارانكيّا. لقد كان هناك في بداية عهده، كعامل تلغراف، وقلبه ينقبض،
حين يتذكر الرحلة في قنوات عشقية ومستنقعات مذهبة، وحفلات
الرقص الأبدية. لقد ألح في تلك الفترة، على نقل عمله إلى ذلك المكان.
ولكن دون أن يحالفه الحظ، كما في مرات أخرى مشهقة، مثل
أراكاتاكّا. عاد للتفكير فيها، بعد خمس سنوات من ذلك، عندما وقعت
أزمة المورّ الثالثة، ولكنه وجدها، وقد احتلها تجار الجملة القادمون من
مقتاغي. مع ذلك، وقبل شهر من العودة إلى بارانكيّا، التقى مصادقة،
مع واحد منهم، لم يصور له واقعاً مخالفاً وحسب، وإنما عرض عليه
كذلك قرضاً انشائياً جيداً للعمل في سوكري. لم يوافق على العرض،
لأنه كان على وشك الحصول على الحلم الذهبي في لوس ألنوس دل
روساريو. ولكن عندما فاجأه قرار زوجته الحاسم، عثر على تاجر الجملة
في ماغناغي، الذي كان لا يزال تائهاً في فرى النهر. وأبرما الاتفاق.

بعد نحو أسبوعين من الدراسات والترتيبات، مع تجمار جملة،
أصدقاء، ذهب وقد استرد مظهره وموهبته. وكان تأثيره يسوكري قوياً
حتى إنه خلف انطباعه. مكتوباً في رسالته الأولى: "لقد وجدت الواقع
أفضل من الخيال". استأجر بيتاً له شرقاً في الساحة الرئيسية. ومن
هناك استعاد علاقته بأصدقائه القدامى الذين استقبلوه بأبواب مفتوحة.
طلب من الأسرة أن تبعد ما يمكن بيعه، وأن تحزم ما تبقى من متاع. ولم
يكن كثيراً، وتحمله معها في إحدى السفن البخارية التي تقوم برحلات
منتظمة عبر نهر ميجلدينا. وأرسل في البريد نفسه، حوالة مالية
محسوبة بدقة، من أجل النفقات المباشرة. وأعلن أنه سيرسل حوالة أخرى
من أجل تكاليف السفر. لا يمكنني أن أتصور أخباراً أكثر شهرة لطبع
أمي الحالم، وهكذا لم يكن ردها، على الرسالة، نابهاً من التفكير في
دعم حماس زوجها وحسب، وإنما محلته بخبر أنها جلي للمرة الثامنة.

قمت بالمجاز إجازات الحجز في سفينة "القطبان دي غارو"، وهي
سفينة أسطورية تقطع الطريق من بارانكبا إلى ماسانغي في ليلة
ونصف نهار. ثم تواصل الرحلة، بعد ذلك، في مركب ذي محرك غير
نهر سان خورخي والقناة المائية الحاملة، من مورخانا حتى وجهتنا.

- يكفي أن نذهب من هنا، حتى ولو إلى المنحيم - فتفت بذلك
أمي التي كانت ترتاب دوماً بسمعة سوكري البابلية، وأضافت: - يجب
عدم ترك الزوج، وحيداً في قرية مثل تلك.

قرضت علينا الإسراع. حتى إننا كنا ننام على الأرض. قيل ثلاثة
أيام من السفر، لأننا بعنا الأسرة وكل الأثاث الذي استطعنا بيعه. وكل
ما عدنا ذلك، كان معبأً في الصناديق. ونقود تذاكر السفر، مخبأة في

أحد مخابئ أمي، ومحسوبة جيداً، ومعاد حسابها ألف مرة.

الموظف الذي استقبلني في مكاتب الشركة مالكة السفينة، كان
مهذباً، بحيث لم أجد نفسي مضطراً إلى الضغط على فكي، لكي أتفاهم
معه. إنني واثق ثقة مطلقة من أنني دونت الأسعار بحذافيرها، مثلما
أملأها عليّ بأسلوب الكاريبيين الخدميين، في الكلام الواضح والمتكلف.
وكان أكثر ما أسعدني، وأقل ما نسيته، هو أن من هم دون الثانية
عشرة، يدفعون نصف التسعيرة العادية فقط. وهذا ما ينطبق على جميع
اخرتي، باستثنائي أنا، وعلى هذا الأساس، وضعت أمي نقود السفر
جانباً، وأنفقت، حتى آخر سنتافو، مما تبقى في تفكيك موجودات
البيت.

ذهبت يوم الجمعة لشراء تذاكر السفر، فاستقبلني الموظف بمفاجأة أن
من هم دون الثانية عشرة، لا يتمتعون بحسم نصف السعر، وإنما بثلاثين
بالئة منه فقط. مما يعني فرقاً لا يمكن لنا تجاوزه. وتلزع بأثني قد دونت ما
أملأه عليّ بصورة سيئة، لأن المعلومات مطبوعة في لوحة إعلانات رسمية
وضعتها أمام عيني. رجعت إلى البيت مغموماً، فلم تعلق أمي بشيء، وإنما
ارتدت الفستان الذي أمضت فيه فترة الحداد على أبيها. وذهبت معاً إلى
وكالة الملاحة النهرية. أرادت أن تكون منصفة: أهد ما قد أخطأ، ويمكن له
أن يكون ابني. ولكن هذا ليس مهماً. فالواقع أننا لا نملك مزيداً من
النقود. أوضح لها الموظف بأنه ليس هناك ما يمكن عمله، وقال:

"لاحظي يا سيدتي، المسألة ليست الرغبة أو عدم الرغبة في
خدمتك. وإنما هي أنظمة شركة محترمة، ولا يمكن التلاعب بها مثل
دوارة ريح."

"ولكنهم مجرد أطفال"، قالت أمي ذلك، وأشارت إلي كمنشال؛
"تصور، هذا هو أكبرهم. ويكاد لا يبلغ الثانية عشرة." ثم أشارت
بيدها:

- إنهم بهذا الطول.

فتعلل الوكيل بأن المسألة ليست مسألة طول القامة، وإنما السن،
ولا أحد يدفع أقل من التسعيرة، باستثناء حديثي الولادة الذين يسافرون
مجاناً. فبحثت أمي عن مساوات أعلى:

- مع من يجب علي أن أتكلم، من أجل تصوية هذا الأمر؟

لم يتوصل الموظف إلى الرد. فقد أطل المدير، وهو رجل متقدم في
السن، وله كرش أمومي، من باب مكتبه، خلال تلك المرافعة. فنهض
الموظف واقفاً، حين رآه. كان هائلاً له مظهر محترم، وسلطته أكثر من
واضحة، حتى وهو يقميص قصير الكمين، وصلبل بالعرق. استمع إلى
أمي باهتمام، ورد عليها بصوت هادئ، بأن قراراً من ذلك النوع لا يمكن
اتخاذها إلا بتعديل للأئمة في جمعية عمومية للمساهمين. واختتم
قائلاً:

- صدقيني، إنني متأسف جداً.

فقلت: "أنت على حق. ولكن المشكلة هي أن موظفك لم يشرح
الأمر جيداً لابني. أو أن ابني قد فهمه بصورة سيئة، وأنا تصرفت بناءً
على هذا الخطأ. وكل امتعشي موضعية الآن، وجاهزة للإبحار. إننا ننام
على الأرض دون شيء. ونقود المشريات تكفينا حتى هذا اليوم فقط.
وعليتنا أن نسلم البيت يوم الاثنين للمستأجرين الجدد." لاحظت أن
موظفي القاعة جميعهم، يصغون إليها باهتمام كبير. وعندئذ توجهت

إليهم: "ما الذي يعنيه كل هذا لشركة بهذه الأهمية؟ ودون أن تنتظر
جواباً، سألت المدير، وهي تنظر مباشرة إلى عيني:

- هل أنت مؤمن بالرب؟

انههر المدير. كان المكتب كله يشرب بصمت طال كثيراً. عندئذ
تهافتت أمي على المقعد، ضمت ركبتيها اللتين بدأتا ترتجفان، وشدت
المحفظة إلى حضنها بگلنا يديها، وقالت بالتصميم الذي تبديه في
قضاياها العظمى:

- لن أتحرك من هنا، ما لم تحلوا لي المشكلة.

ظل المدير متجمداً، وتوقف جميع الموظفين عن عملهم، ليتظروا إلى
أمي. لم تُبد تأثراً، بأنفها المرهف، وشحوبها وحيات العرق اللؤلؤية.
كانت قد خلعت ثوب الحداد على أبيها، منذ بعض الوقت، ولكنها عادت
لارتدائه في تلك المناسبة، لأنه بدا لها الفستان الأكثر ملاءمة، في ذلك
المسعى. لم يعد المدير إلى النظر إليها، وإنما نظر إلى موظفيه. دون أن
يدري ماذا يفعل. وأخيراً هتف متوجهاً إلى الجميع:

- هذا أمر لا سابقة لها

لم تحرك أمي رمشاً، وقد روت لي فيما بعد: "كانت الدموع جسيمة
في حلقي. إنما كان علي الصمود، لأثني في وضع سيئ جداً". عندئذ
طلب المدير من الموظف، أن يأتيه بالوثائق إلى مكتبه. ففعل الموظف
ذلك، وعاد للخروج بعد خمس دقائق، وهو يزمجر ويتأفف. إنما كانت
معه بطاقات السفر جميعها، جاهزة ونظامية.

في الأسبوع التالي، نزلنا في بلدة سوكري، كما لو أننا قد ولدنا
فيها. كان عدد سكانها حوالي مئة عشر ألف نسمة، مثل بلديات كثيرة

في البلاد، في ذلك الزمان، وجسبهم يعرف بعضهم بعضاً، ليس بالأسماء بقدر ما هو في حيواتهم السرية. ولم تكن القرية وحدها، وإنما المنطقة بأسرها، أشبه ببحر مياه راكدة تتبدل ألوانها بعلاوات الزهور التي تغطيها حسب الموسم، وحسب المكان، وحسب حالتنا المعنوية. بهاؤها يذكر ملاحظات جنوبي شرق آسيا الراكدة. فخلال السنوات الطويلة التي عاشتها الأسرة هناك، لم تأت سيارة واحدة. ولن تكون لمجئتها أية فائدة، لأن الشوارع المستقيمة ذات القراب المهد تدو، كما لو أنها قد أعدت للاستخدام العارية، وكانت هناك بيوت كثيرة تملك في المطايخ مرماها الخاص: وفيه الزوارق البيتية، من أجل التنقلات المحلية.

أول ما أثر في، هو الحرية التي لا يمكن تصورها. فكل ما كان ينقصنا، نحن الأطفال، وكل ما كنا نلتهف إليه، صار فجأة في متناول أيدينا. كل واحد يأكل عندما يجوع، وينام في أي وقت يشاء. ولم يكن من السهل الاهتمام بأحد، إذ إن الكبار، على الرغم من صرامة قوانينهم، كانوا يحضون غارقين في أوقاتهم الشخصية التي تكاد لا تكتفيهم للاهتمام بأنفسهم. كان شرط الأمان الوحيد للأطفال أن يتعلموا السباحة قبل أن يتعلموا المشي؛ لأن القرية مقسومة إلى شطرين، بقناة مياه قاعة تُستخدم في الوقت نفسه، كمجرى مائي ومجرور صرف صحي. فكانوا يلعبون بالأطفال، منذ السنة الأولى من عمرهم. من شرفات المطايخ، في أول الأمر، مع إطارات نجاة، لكي يشخلصوا من احترامهم للموت. وقد تألق، بعد سنوات من ذلك، أخي خيمي وأختي ليخيا، في بطولات السباحة للصغار، يعد أن تجاوزا، حينئذ، المخاطر الأولية.

ما حوّل سوكري بالنسبة لي إلى بلدة لا تُنسى، هو حب الحرية الذي كنا نتحرك به، نحن الأطفال، في الشارع. خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، كنا نعرف من الذي يعيش في كل بيت، وكنا نتصرف فيها، كما لو أننا نعرف ساكنيها منذ الأزل. كانت العادات الاجتماعية - الميسطة في الاستخدام - هي عادات الحياة الحديثة، في مجتمع إقطاعي: الأثرياء - مربيو الماشية وصانعو السكر - في الساحة الكبرى، والفقراء حيثما يستطيحون. وكانت المنطقة، بالنسبة للإدارة الكنسية، ميدان بعثات تبشيرية، وسلطة قضائية وقيادية، في ملكية بحيرات شاسعة. وفي منتصف ذلك العالم، كانت الكنيسة الأبرشية، في ساحة سوكري الكبرى، نسخة جيب من الكاتدرائية الكولونيالية، استنسخها من الذاكرة. كاهن إسباني مُدَوِّل مع الهندسة، كان استخدام الكنيسة للسلطة مباشراً ومطلقاً. ففي كل البلدة، بعد صلاة المسبحة، يقرعون في برج الكنيسة، ناقوس التقويم الأخلاقي. للفيلم المعلن عن عرضه في دار السينما المجاورة، وفق القائمة التي يصدرها "المكتب الكاثوليكي للسينما". وكان هناك مبشر مناوب، يجلس على باب مكتبه، ليراقب من يدخلون إلى المشرح، من الرصيف المقابل، من أجل معاقبة المخالفين. كان إحباطي الأكبر، هو السن التي وصلت بها إلى سوكري. كنت أحتاج إلى ثلاثة شهور أخرى لأجتاز خط الثالثة عشرة المتذر بالمفوض. ولم يعودوا يتحملونني في البيت كطفل. ولكنهم لا يعترفون بي كراشد أيضاً. وانتهى بي الأمر في اليمسوس تلك السن إلى أن أكون الوحيد بين أخوتي الذي لم يتعلم السباحة. ولم يگوتوا يعرفون إذا ما كان علي الجلوس إلى مائدة الصغار أم إلى مائدة الكبار. ولم تعد نساء الخدمة

يغيرون ملابسهم أمانى، حتى ولو كان الضوء مطلقاً، ولكن إحداهن ناهت عدة مرات عارية في فراشي، دون أن تُقلق نومي. ولم يُتج لي الوقت للارتواء من حرية الاختيار المخالفة للأعراف تلك، عندما اضطرت إلى الرجوع إلى بارانكيّا، في شهر كانون الثاني من العام التالي، لأبدأ مرحلة الدراسة الثانوية، لأنه لم تكن هناك في سوكري، مدرسة مؤهلة بما يكفي، للدرجات المتأخرة التي منحتني إياها المعلم كاسالينس.

بعد مناقشات واستشارات مطولة، بمشاركة ضئيلة من جاثي، قرر والدائي إرسالني إلى مدرسة سان خوسيه اليسوعية في بارانكيّا، ولا أجد تفسيراً للطريقة التي حصل بها على كل تلك الموارد خلال أشهر قليلة، ولا سيما وأن الصيدلية وعيادة الطب التجانسي، كانتا لا تزالان موضع اختيار. وقد قدمت أُمّي على الدوام تفسيراً لا يحتاج إلى براهين: "الله كبير". لا بد أن استقرار الأسرة وإعالتها قد أخذاً في الحسبان، ضمن تفقات الانتقال، ولكن ليس مستلزماتي المدرسية. ولأنني لم أكن أملك سوى حذاء ممزق وغيار ملابس واحد ألبسه، بينما يغسلون لي الآخر، فقد جهّزوني أُمّي بملابس جديدة، مع صندوق بحجم ثمنش، دون أن تقدر مسبقاً أنني سأكون، خلال ستة شهور، قد كبرتُ شيئاً. وكانت هي أيضاً من قررت بنفسها، أن أبدأ بارتداء البنطلونات الطويلة، خلافاً للأحكام الاجتماعية التي يراعيها والدي، بأنه لا يمكن لبسها، ما لم يبدأ الصوت بالتبدل.

الحقيقة أنه في أثناء كل مناقشة حول تعليم كل واحد من الأبناء، كانت تراودني الأحلام على الدوام، بأن يعتمد أبي، في إحدى نوبات غضبه الهومبروسية، إلى إصدار أمره بالألا يعود أي واحد منا إلى

المدرسة. لم يكن ذلك مستحيلاً، فهو نفسه تعلم ذاتياً، بسبب فقره الشديد، ولأن أباه كان يستلهم أخلاقيات دون فرناندو السابع، الداعية إلى التعليم الفردي في البيت، للحفاظ على تماسك الأسرة. لقد كنتُ أخشى المدرسة كأنها السجن. وترعيني فكرة العيش، خاضعاً لنظام جرس يُقرع. ولكنها كانت، في الوقت نفسه، الإمكانية الوحيدة المتاحة لي، للاستمتاع بحياتي الحرة منذ سن الثالثة عشرة، إذ يمكنني الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع الأسرة، ولكن بعيداً عن نظامها، وعن حماسها الديموغرافي، وأيامها التعسة، وحيث أستطيع أن أقرأ، دون التقاط للأنفاس، ما دام الضوء يسعفني.

حجتي الوحيدة، ضد مدرسة سان خوسيه، إحدى أكثر المدارس تطلباً وكلفة، في منطقة الكاريبي، هو انضباطها العسكري. ولكن أُمّي واجهتني بوقار: "هناك يُصنع الحكام". وعتدما لم يعد ثمة مجال للترجع، نفض أبي يديه:

- فليكن واضحاً، أنني لم أقل نعم ولم أقل لا.

كان يفضل الذهاب إلى المدرسة الأمريكية، لكي أتعلم الإنكليزية. ولكن أُمّي استبعدت هذا الاحتمال، متذكرة بأنها وكر لوثريين، وعلى اليوم أن أعترف على شرف أبي، بأن أحد أخطأ، حياتي ككاتب، هو عدم تكلم الإنكليزية.

العودة لرؤية بارانكيّا التي غادرتها قبل ثلاثة شهور، من فوق جسر السفينة "القبطان دي كارو"، هيجت قلبي، كما لو أنني قد حدثت مسبقاً، أنني سأعود وحيداً، إلى الحياة الواقعية. ولحسن الحظ أن أبويّ كانا قد رتبنا أمر إقامتي وطعامي، عند ابن عمي خوسيه ماويا

بالديبلوماتيك و زوجته هورثينسيا ، وهما شابان لطيفان ، أشركاني في حياتهما الوداعة ، في صالة بسيطة وغرفة نوم وفتاة صغيرة مرصوف ، تكتنفه الظلال على الدوام ، يفعل الملابس المنشورة لتجف على الأسلاك . كانا ينامان في حجرة النوم مع طفلتهما ذات الستة شهور . بينما أنا أنا على أريكة الصالة التي تتحول في الليل ، إلى سرير .

كانت مدرسة سان خوسيه تبعد ست كوادرات تقريباً . وتقوم وسط حديقة من أشجار اللوز ، كانت فيسما مضى أقدم مقبرة في المدينة ، وما زال يُعثر فيها على بقايا عظام متفرقة ، وتنف ثياب ميتة على سطح الأرض المرصوفة . يوم دخلت فناء المدرسة الرئيسي أول مرة ، كان هناك احتفال لتلاميذ السنة الأولى ، بهناطيل بيضاء ، وسترات من الجوخ الأزرق . فلم أستطع كبح رعبي من أنهم يعرفون كل ما أجعله . ولكنني سرعان ما لاحظت أنهم نيثون ومرعوبون مثلي ، حبال خفايا المستقبل غير المؤكدة .

ظهر لي شيخ شخصي خاص قتل في الأخ بيدرو رئيس ، موجه قسم التعليم الأساسي ، الذي انهك في إقناع رؤسائه في المدرسة ، بأنني غير مؤهل للمرحلة الثانوية . لقد تحول إلى كابوس يعترض طريقي ، في أماكن لا تخطر على البال ، ويجري لي اختبارات مفاجئة تتضمن كمان شيطانية : "هل تظن أن الرب قادر على صنع حجر ثقيل إلى حد يعجز عن حمله؟" ، كان يسألني دون أن يمنحني الوقت للتفكير . أو هذا الفخ اللعين الآخر : "إذا ما وضعنا لخط الاستواء حزاماً من الذهب ، سماكته خمسون سنتيمتراً ، فكم سيزداد وزن الكرة الأرضية؟" لم أكن أفصح في الإجابة على أي سؤال . مع أنني كنت أعرف الأجوبة . لأن لساني كان

بتعقد من الرعب ، مثلما حدث لي في يومي الأول مع الهاتف . لقد كان خوفاً يستند إلى أسباب ، فالأخ رئيس على حق . أنا لم أكن مهيباً فعلاً للشأنية . غير أنني لا أستطيع التخلي عن حسن الطالع الذي حالني بقبولهم إياي ، دون اختبار . كنت أوتجف لمجرد رؤيته . وراح بعض الزملاء يقدم تفسيرات خبيثة لتلك المحاصرة ، غير أنه لم يكن لدي مبرر للتفكير فيها . أضف إلى ذلك ، أن ضميري كان يساعدني ، لأتني لمجث في اختباري الشفوي الأول دون عقبات ، عندما ألقيت ، مثل ماء مندقق ، أشعاراً لغزاي لويس دي ليون ، ورست بالطباشير الملونة على السبورة مسبحاً ، بها وكأنه حي . وقد بلغ رضى لجنة الاختيار حداً ، تسببت معه اختبائي بالحساب والتاريخ الوطني .

وقد سوّيت المشكلة مع الأخ رئيس ، لأنه احتاج في أسبوع الآلام المقدس ، إلى بعض الرسوم لدروس علم النبات ، فأخرجتها له دون أن يرف لي جفن . فلم يتخلّ عن محاصرته لي وحسب ، وإنما صار يتسلّى أحياناً ، خلال الاستراحات ، بتعليمي الإجابات المدعنة بأفضل الحجج عن الأسئلة التي لم أكن أستطيع الرد عليها ، أو عن أسئلة أكثر غرابة ، راحت تظهر فيسما بعد ، كما لو أنها مصادفة ، في الاختبارات التالية من سنتي الأولى . ومع ذلك ، كلما وجدتي ضمن جماعة ، يسخر وهو يكاد يموت من الضحك ، من أنني الوحيد في الصف الثالث الأساسي الذي يتقدم جيداً في الشأنية . وأنا أرى اليوم أنه كان على صواب . وبخاصة في الإملاء الذي كان عذاباً على اعتداد دراستي ، وما زال يخيف مصححي أصول أعمالتي . وأكثرهم أريحية يعزون أنفسهم بالاعتقاد بأنها أخطاء مطبعية . جاءت الطمأنينة لمخاوفي ، بتعيين الرسام والكاتب هيكتور روخاس

هيراثو، أستاذاً للرسم، لا بد أنه كان في حوالي العشرين من عمره. دخل إلى القاعة برفقة الأب الموجه، ودوت تحيته كصفقة باب في قبط الثالثة بعد الظهر. بدا بوسامة وأخافة فنان سينمائي. كان يرتدي سترة من وير الجمل، ضيقة جداً، وبأزرار مذهبة، وصدورية مبهرجة، وربطة عنق حريرية مطبّعة. ولكن أغرب ما فيه كانت قبعة اللبد التي يعتمرها، بالرغم من الحرارة التي تبلغ ثلاثين درجة في الظل. كان طول قامته يصل حتى مساكف السحاب، مما يضطره إلى الانحناء، لكي يرسم على السبورة. وإلى جانبه، كان الأب الموجه يبدو مهجوراً تحت رحمة الرب. تبين منذ دخوله أنه لا يمتلك منهجاً ولا يطبق صبراً على التعليم. ولكن حس دعابته الحبيث كان يبقينا متنبهين، مثلما كانت تذهلنا رسموه البارعة التي يرسمها على السبورة بالطباشير الملونة. لم يستمر في عمله سوى ثلاثة شهور، ولم نعرف السبب قط. إنما يمكن الاستنتاج أن تربيته الدنيوية لم تكن تتوافق مع النظام الذهني لفرقة يسوع.

لقد اكتسبت الشهرة، منذ بدايتي في المدرسة، بأنني شاعر، أولاً بسبب السهولة التي أحفظ بها عن ظهر قلب، قصائد الكلاسيكيين والرومانسيين الإسبان، في كتب النصوص، وألقيها بصوت جهوري. ثم بعد ذلك بسبب الأهاجي المقفاة التي كنت أكرسها لزملائي في الصف. ونُشرت في مجلة المدرسة. وما كنت لأكتبها، أو أنني كنت سأوليها قليلاً من الاهتمام، لو أنني تصورت أنها ستنال مجد الكلمة المطبوعة. الواقع أنها كانت أهاجي لطيفة تتداولها الأيدي على وربطات خفية في قاعات الدرس المئومة. في الساعة الثالثة بعد الظهر. وقد ألقى الأب لويس بوسادا - موجه الصف الثاني - القبض على واحدة منها، فقرأها

وهو متجهج المجين، ووجه إلى توبيخاً قاسياً. ولكنه احتفظ بها في جيبه. عندئذ استدعاني الأب أرتورو ميخيا إلى مكتبه، ليقتراح علي نشر الأهاجي المصادرة في مجلة "الشبيبة"، لسان حال تلاميذ المدرسة. وكان ردّ فعلي الفوري فتيلة مجدولة من المفاجأة والحجل والسعادة، حللتها برفض غير مقنع:

- إنها مجرد حقائق مني.

سجل الأب ميخيا ملاحظة من جوابي، ونشر الأشعار بهذا العنوان - "حقائق مني" - ويتوقع غابيتو، في العدد التالي من المجلة، وتفسير من ضحايا الأهاجي. وكان عليّ أن أنشر في عدد من متتالين، مجموعة أخرى، بناه على رغبة زملائي في الفصل. وهكذا، فإن تلك الأشعار الطفولية - شئت ذلك أم لم أشأ - هي عملي الأدبي الأول.

كان إيمان قراءة كل ما يقع في يدي، يشغل وقت فراشي ووقت الدروس كله تقريباً. وكنت قادراً على إلقاء قصائد كاملة من القائمة الشعبية التي كانت شائعة آنذاك، في كولومبيا، وأجمل أشعار العصر الذهبي والرومانسية الإسبانية. وقد حفظت معظمها من نصوص منهاج المدرسة نفسه. وكانت تلك المعارف غير المتوقعة في مثل سني، تستثير غيظ المعلمين، فكلما وجهوا لي في أحد الدروس سؤالاً صاعقاً، أرد عليهم بشاهد أدبي أو بفكرة مستمدة من الكتب، لم يكونوا في وضع يؤهلهم لتقييمها. وقد قال ذلك الأب ميخيا: "إنه طفل مغرور يكرر أقوالاً كيلا يقول، لا بطق. لم أكن مضطراً قط، إلى إجهاد ذاكرتي؛ ذلك أن القصائد وبعض مقاطع الشعر الكلاسيكي الجيد، تبقى منطبعة

في ذاكرتي، بعد ثلاث أو أربع قراءات، أول قلم حبر حصلت عليه، نلتها من الأب الموجه، لأنني تلوّث عليه، دون عشرات، عشرات "الدوار" السبع والخمسين لغاسبار نونيث دي أرثيه.

كنت أقرأ في أثناء الدروس، وأضع الكتاب مفتوحاً على ركبتي، وبوقاحة يبدو لي أنني ما كنت لأفجر من عقولتها، إلا بتواطؤ المعلمين. الأمر الوحيد الذي لم أتمكن من تحقيقه بحيلي محكمة القرافي، هو إعفائي من القدامس اليومي، في السابعة صباحاً، وإضافة إلى كتابات صحافتي، كنت أؤدي الغناء المنفرد في الكيوال، وأرسم الكاريكاتير الساخر، وألقي القصائد في المناسبات الرسمية، وأشياء كثيرة أخرى خارج الزمان والمكان، بحيث لم يكن هناك من يفهم في أي وقت أدرس دروسي، وقد كان السبب بسيطاً: لم أكن أدرس دروسي.

وسط كل تلك الديناميكية المفرطة، ما زلت لا أفهم حتى الآن، لماذا كان الأساتذة يهتسمون بي إلى ذلك الحد، دون أن يرفعوا أصوات الاستنكار ضد أخطائي الإملائية. على خلاف أبي التي كانت تخفي بعض رسائلها عن أبي لإبقائه حياً، وتعيد لي غيرها مصححة، وترفعها أحياناً بهتنة على بعض التقدم في النحو والاستخدام الجيد للكلمات، ولكن بعد مرور سنتين، لم يكن هناك تحسين يرجى في الأفق، وما زالت اليوم منسككتي هي نفسها: لا يمكنني أن أفهم أبداً لماذا هناك حروف لا تُنطق، أو لماذا يوجد حرفان مختلفان لهما المنطوق نفسه^(١)، أو غيرها من القواعد غير المجدية.

(١) قدم غارسيا ماركيز ملاحظات هذه حول الالتباس الذي يسببه تشابه منطوق بعض حروف اللغة الإسبانية في موقع لوني عند قِبل سنوات قليلة في المكسيك. وقد أثارت آنذاك ردود فعل عاصفة ضدّه.

وكان أن اكتشفتُ ميلاً سيرافني مدى الحياة: متعة تبادل الحديث مع تلاميذ أكبر مني سناً. وحتى اليوم، في اجتماعات شباب يمكن لهم أن يكونوا أحفاداً لي، أجد نفسي مضطراً إلى بذل الجهد كيلا أشعر بأنني أصغر منهم. وهكذا أقمت صداقة مع اثنين من تلاميذي الذين يكبروني سناً، وصارا فيما بعد، زميلي في مراحل تاريخية من حياتي. أحدهما هو خوان ب. فيرر تانديث، ابن أحد مؤسسي ومالك جريدة "الهيرالدو" الثلاثة في بارانكيّا، حيث قمت بأول محاولاتي الصحفية، وحيث تكون هو منذ حروفه الأولى، حتى صار المدير العام، والآخر هو إيريكي سكوبيل، ابن مصور كوبي أسطوري في المدينة، وهو نفسه كاتب تحقيقات صحفية. ولكن امتناني تجاهه، لا يرجع كله إلى عملنا المشترك في الصحافة، وإنما لمهنته، كذلك، كدباغ جلود حيوانات متوحشة تُصدّر إلى نصف العالم. وقد أهدى إليّ، في واحدة من رحلاتي الأولى، إلى الخارج، جلد قساح طوله ثلاثة أمتار.

- هذا الجلد يساري ثروة لا بأس بها - قال لي دون دراماتيكية -، ولكنني أنصحك ألا تبغعه ما دمت لا تشعر بأنك ستتموت جوعاً. ومازلتُ أتسأل حتى الآن، إلى أي حد كان كيكي سكوبيل الحكيم يعرف أنه إنما يقدم لي قِيسة أبدية. فقد كان عليّ في الواقع، أن أبعد مرات كثيرة، في سنوات نحسي المتتالية. ومع ذلك، ما زلتُ أحتفظ به، معفراً وشبه متجسس، لأنني منذ أن حملته في حقيبتي، عبر العالم بأسره، لم ينقصني ستاقو للأكل.

كان الأساتذة الجزويت، الصارمون في الدروس، مختلفين عن ذلك في الاستراحات، حيث كانوا يعلموننا ما لا يقولونه داخل قاعة الدرس،

ويلجئون عن أنفسهم بقول ما كانوا يرغبون في تعليمه حقاً. وأظن أنني أتذكر، إلى الحد الذي تسمح به سني آنذاك، أن ذلك الاختلاف كان ملحوظاً إلى حد كبير، وكان يساعدنا كثيراً. فالأب لويس بوسادا، وهو كاتشاكو شاب ذو عقلية تقدمية، عمل لسنوات طويلة في القطاعات النقابية. كان لديه أرشيف بطاقات يضم كل أنواع المعلومات الموسوعية، ولا سيما حول الكتب والكتّاب. وكان الأب إغناثيو سالديار باسكياً جبلياً، وأصلت زيارته في كارتاخينا، حتى شيوخه الطبية في دير سان بيدرو كالفير. وكان الأب إدواردو تونيث، قد أنجز قدراً لا بأس به من مؤلف ضخم عن تاريخ الأدب الكولومبي. ولم أعد أعرف شيئاً عن المصير الذي آل إليه. أما الأب العجوز مانويل هيدالغو، معلم الغناء، المتقدم في السن، منذ ذلك الحين، فكان يرفض الميول على مزاجه، ويسمح لنفسه بإدخال بعض الموسيقى الوثنية غير المقررة.

وكانت لي مع الأب بيسشاكون، مدير المدرسة، بعض المحادثات العرضية. وقد احتفظت منها باليقين بأنه ينظر إليّ كشخص راشد، ليس بسبب الموضوعات التي كان يطرحها وحسب، وإنما لتوضيحاته الجريئة. لقد كان له دور حاسم في حياتي، بتحديد مفهوم الفردوس والجحيم، لأنني لم أكن أتوصل إلى المصالحة مع معلومات كتاب الديانة المسيحية، بسبب عوائق جغرافية بسيطة. وخلافاً لتلك المعتقدات الجامدة، أراحتي المدير بأفكاره الجريئة. فالفردوس، بغض النظر عن التعقيدات اللاهوتية، هو حضور الرب. أما الجحيم فهو العكس، طبعاً. ولكنه في مناسبتين اثنتين اعترف لي بمشكلته بأن "هناك في الجحيم نار على كل حال"، ولكنه لم يتوصل إلى توضيح ذلك. ويفضل هذه الدروس في

الاستراحات، أكثر مما هو يفضل الدروس الرسمية. أنهيت السنة، بصدر مدور بالميداليات.

بدأت إجازتي الأولى إلى سوكري، في الساعة الرابعة من أحد أيام الأحاد، في مرفأ مزين بأكاليل زهور وبالونات ملونة، وساحة متحولة إلى سوق عيد فصح. ما إن وطأت اليابسة، حتى تعلقت بعنقي، بتلقائية ساحقة، فتاة شقراء جميلة جداً، وخفقتني بالقبلات. كانت تلك هي أختي كارمن روسا، ابنة أبي قبل زواجه. وكانت قد جاءت لقضاء بعض الوقت مع عائلتها المجهولة، كما حضر في تلك المناسبة ابن آخر لأبي، هو أيلولادو، مهنته الحياطة، وقد أقام مشغله في أحد جوانب الساحة الكبرى. وكان معلني في الحياة، في فترة البلوغ.

كانت تسود البيت الجديد المؤثث حديثاً، أجواء عيد. وأخ جديد: خافيي، الذي ولد في أيار تحت برج الجوزاء الطيب. وكان خديجاً أيضاً. لم أعلم مولده حتى وصولي، لأن أبوي كانا مصحمين كما يبدو على تخفيف الولادات السنوية، فسارعت أُمي إلى التوضيح لي بأن ذلك المولود هو ضريبة للقديسة ريتا، واعتراضاً بفضلها في الرخاء الذي دخل البيت. بدت مستعيدة شبابها وسعيدة، وأكثر طرباً من أي وقت مضى، وكان أبي يطفو في أجواء طيب المزاج، فالعيادة مزدهرة والصيدلية جيدة التجهيز، ولا سيما في أيام الأحاد التي يأتيه فيها المرضى من الجبال المجاورة. لست أدري إذا ما كان قد عرف يوماً أن ذلك التدفق هو نتيجة شهرته كمداو جيد، وإن كان الريفيون لا يعزّون تلك الشهرة إلى فضائل الطب التجانسي وكرات السكر التي يقدمها إليهم ومائه العجيب، وإنما إلى جودة فنونه كساجر.

كانت سوكرى أفضل مما هي عليه في الذاكرة، بسبب التقليد الشائع في أعياد الميلاد، بانقسام الأهالي إلى حينين كبيرين: سوليا في الجنوب، وكونغريو في الشمال. وكانت تقام، فضلاً عن مناقسات أخرى، مسابقة عربات رمزية مزينة، تمثل في مباريات فنية، المنافسة التاريخية بين الحينين. وأخيراً، في ليلة الميلاد، يلتقي الجميع في الساحة الرئيسية، ووسط مجادلات كبيرة، يقرر الجمهور، أي الحين هو الفائز في تلك السنة.

أسهمت كارمن روسا، منذ وصولها، في إضفاء بريق جديد على عيد الفصح. كانت متحضرة ومتأنقة. وصارت سيدة حفلات الرقص، يلحق بها رتل من المتوددين الصاخبين. وأمي التي كانت شديدة الغيرة على بناتها، لم تكن كذلك معها. بل على العكس، كانت تسهل لها علاقاتها بالمتوددين الذين أدخلوا إيقاعاً فريداً على جو البيت، لقد قامت بهنهما علاقة نواطو، لم تقم أمي مثلها قط مع بناتها. أما أبيلاردو من جانبه، فقد حل شؤون حياته بطريقة أخرى، في مشغل خياطة مؤلف من محل واحد يقسمه حاجز. وكان عمله كخياط، يمضي على ما يرام. ولكن ليس أفضل من اعتداله كفحل، فقد كان يقضي، مع رفيقة جيدة في السرير، وراء الحاجز، وقتاً أطول من الذي يمضيه، وحيداً وضجراً وراء آلة الخياطة.

خظرت لوالدي في تلك الإجازة، أن يبدأ بتجهيزي للأعمال التجارية. "قد تحتاج إليها"، هكذا نبهني، وكان أول ما بدأ بتعليمي إياه، هو تحصيل ديون الصيدلية من بيوت المدينين. وفي أحد تلك الأيام أرسلني لحيازة ديون عديدة من "لاأورا"، وهو ساخور بلا مزاعم أبهة يقوم عند خارج القرية.

أطلت من باب مفتوح قليلاً الغرفة تطل على الشارع، ورأيت إحدى نساء البيت نائمة القبلولة، في فراش هوائي، وبلايس لا تغطي فخذيها. وقبل أن أتكلم إليها، جلست في السرير، ونظرت إلي نظرة ناعسة، وسألني ماذا أريد. قلت لها إنني أت برسالة من أبي إلى دون إليخيرو مولينا، مالك المحل. ولكنها بدلاً من أن تدلني على مكانه، أمرتني بأن أدخل وأغلق مزلاج الباب، وأشارت لي بسابتها إشارة قالت لي بها كل شيء.

- تعال.

ذهبت إليها، وكلما اقتربت كانت أنفاسها المنفذة قلاً الحجرية مثل فيضان نهر، إلى أن استطاعت إمساكي من ذراعي بيدها اليسرى، وانسلت يدها اليسرى إلى فتحة بنطالي. فأحسست برعب لذيذ.

- أنت إذن ابن دكشور الأقراص المكورة - قالت لي بينما هي تداعبني من داخل البنطال بخمسة أصابع رشيقة، أحسست كما لو أنها عشرة. خلعت عني بنطالي دون أن تتوقف عن الهمس في أذني بكلمات دافئة، ثم خلعت قميص نومها من رأسها واستلقت على ظهرها فوق السرير، وليس عليهما سوى سروالها الداخلي المزين بأزهار ملونة. وقالت: - هذا ستخلعه أنت عني، إنه واجبك كرجل. أرخيت كتفه، ولكنني لم أستطع في تعجلي خلعه عنها، فاضطرت إلى مساعدتي بساقيها الممدودتين جيداً وبحركة سيّاح سريعة. ثم رفعتني في الهواء من تحت إبطي، ووضعتني فوقها على طريقة المشر الأكاديمية. وما تبقى قامت به بنفسها، إلى أن مت فوقها وحسب، ملعبطاً في حساء بصل فخلبها المهريين.

استراحت بصمت، مائلة قليلاً على جانبها، وهي تنظر بتمعن إلى عيني، فبادلتها النظرة بوجه أن تبدأ ثانية من جديد، ودون خوف الآن ولوقت أطول. وفجأة قالت لي إنها لن تتقاضى مني البيزوين اللذين تأخذهما مقابل ما تقدمه من خدمة، لأنني لم أكن مستعداً. ثم استلقت على ظهرها وأمعت النظر في وجهي وقالت:

- ولأنك كذلك الأفع العاقل للويس إنريكي، أليس كذلك؟ فأنت لك الصوت نفسه.

وقد واثنتي البراءة لأسألها كيف تعرفه، فضحكت:

- لأنني أبله، فلدي هنا أحد سراويله الداخلية الذي اضطررت أن أغسله له في المرة الأخيرة.

بدأ لي قولها بمبالغة غير معقولة، بسبب سن أخي. ولكنها حين أرثني إياه، أدركت أن ما تقوله صحيح. ثم قفزت عارية من السرير برشاقة راقصة باليه. وبينما هي ترمدي ثيابها، أوضحت لي أنني سأجد إليخيسر مولينا في الباب التالي من البيت، إلى اليسار. وأخيراً سألتني:

- هذه هي ممارستك الأولى، أليس كذلك؟

طفر قلبي من مكانه، وكذبت عليها:

- لا أبداً، لقد فعلتها سبع مرات من قبل، على الأقل.

فقال لي بإيماء ساخرة:

- عليك أن تطلب من أخيك، على أي حال، أن يعلمك قليلاً.

منحني ذلك التدشين دفعة حبوية. كانت الإجازة من كانون الثاني حتى شباط. وقد تساءلت كم من المرات علي أن أندبر بيزوين اثنين لكلي

أعود إليها. أما أخي لويس إنريكي، الحبير المجرب في أمور الجسد، فكان يتفجر ضاحكاً. لأن هناك من هو في سننا، ويضطر إلى الدفع، مقابل شيء. يقوم به اثنان معاً، ويستمتعان معاً.

ضمن روح تقاليد موخانا الإقطاعية، كان سادة الأرض يتمتعون بحق تدشين عذراوات إقطاعياتهم. وبعد بضع ليال من سوء الاستعمال، يتخلون عنهن لصيرهن. وهكذا كانت تتوفر لنا إمكانية الاختيار بين من يخرج لاصطيادنا في الساحة، بعد الخروج من حفلات الرقص. ومع ذلك، فقد كن في تلك الإجازة يسبين لي الخوف نفسه الذي أشعر به من الهاتف. وأرى مرورهن مثل مرور السحب في الماء. لم أجد لحظة سكون من الغم الذي خلفته في جسدي، مغامرتي الأولى العارضة. ومازلت أعتقد حتى اليوم، بأنه ليس من المبالغة الظن أنها كانت السبب في سوء الحالة المعنوية التي رجعت بها إلى المدرسة، تغلغل عيني تماماً غشاوة تلك الحماقة العبقريّة التي نظسها الشاعر اليوغوتي دون خوسيه مانويل ماروكين، وكانت تصيب المستمعين بمس من الجنون منذ المقطع الأول:

الآن، بينما النباح يكلّب، والصباح يبدئك،

الآن بينما تنقص الدويات عالياً،

وبينما النهيق يحمر، والزقزقة تغمصر،

والتردد يصغر، والقباع يخنزر،

والوردي فجراً امتدادات مذهبة يُخفل،

الآن، متلازمة ندى قطرات مثل انسكابني تدفع

وأنا أتبره من الارتجاف مع أن الجمر ووحاً.

أجي، لأنتهد اطلاقاتي نافذتك تحت.

لم أكن أدخل الفوضى فقط، حيثما حللت، وأنا أوتل مقاطع القصيدة غير المتناهية، وإنما تعلمت كذلك، التكلم بطلاقة أحد السكان المحليين، دون أن أدري أين. وكثيراً ما كان يحدث لي أن أجيب عن أي سؤال، ولكن الجواب يكون في الغالب غريباً ومسلماً. حتى أن المعلمين كانوا يتجنبونني. ولا بد أن القلق قد راود أحدهم بشأن سلامتي الذهنية، عندما قدمت إليه في أحد الاختبارات ردأ صائهاً، إنما لا يمكن حل رموزه للوهلة الأولى، ولست أتذكر أنه كان ثمة سوء نية في تلك المداعبات السهلة التي تسلي الجميع، وتقتنعهم.

لقد انتباهي أن القساوسة صاروا يتكلمون إليّ، كما لو أنهم فقدوا رشدهم. فكنت أجابهم بالطريقة نفسها. وسبب آخر للذعر هو أنني ابتكرت محويرات ساخرة لتراثيل الكورال الكنسي، باستخدام كلمات وثنية لم يفهمها أحد لحسن الحظ. أخذني المعلم الوصي عليّ، بالاتفاق مع أبوي، إلى طبيب مختص أجرى لي فحصاً متهاكاً، ولكنه مسجل جداً، لأنه فضلاً عن سرعته الذهنية، كان يتمتع بلطف شخصي ومنهج جارف لا يُقاوم. طلب مني أن أقرأ دفاتر شخص من جملاً منقلوبة يتوجب عليّ فهمها. فعلت ذلك بحماس شديد، لم يستطع الطبيب معه مقاومة إغراء التدخل، ومشاركتي اللعبة، وقد خطرت لنا اختبارات مستنبطة بالغة الحذق، فدوّن ملاحظات عنها ليضمها إلى منهج فحوصاته القادمة. ولدى الانتهاء من التحقيق الدقيق حول عاداتي، سألتني كم مرة أستمتعي. فأجبته بأول إجابة خطرت ليلي: لم أعجزاً على عمل ذلك قط. لم يصدقني. ولكنه عتب، كما لو أنه يفعل ذلك سهواً، بأن الحروف عامل سلبي للصحة الجنسية، ويذا لي عدم تصديقه أقرب إلى التحريض. رأيت

فيه رجلاً رانعاً. وقد رغبت في اللقاء به بعد أن كبرت وصرت صحفياً في جريدة الهيرالدو، لكي يخبرني بالنتائج الخاصة التي استخلصها من فحصه لي. والشيء الوحيد الذي عرفته هو أنه قد انتقل إلى الولايات المتحدة، منذ عدة سنوات. وكان أحد زملائه القدامى أكثر وضوحاً حين قال لي بتأثر شديد، إنه لا يستغرب أبداً أن يكون في إحدى المصحات العقلية في شيكاغو، لأنه كان يراه على الدوام، أسوأ حالاً من مرضاء. شخص الحالة على أنها إنهاك عصبي، زادته حرجاً، القراءة بعد الغداء، أوصاني بالراحة المطلقة لمدة ساعتين من أجل عملية الهضم، والقيام بنشاط بدني أكثر عنفاً من دروس الرياضة المفروضة. وما زالت تفاجئني الصرامة التي طبق بها أبواي وأساتذتي أوامره. نظموا قراءاتي. وفي أكثر من مناسبة انتزعوا الكتاب مني عندما وجدوني أقرأ في قاعة الدرس، واضعاً الكتاب تحت المقعد. أعفوني من المواد الصعبة، وأجبروني على ممارسة مزيد من الرياضة البدنية، لعدة ساعات يومياً. وهكذا، بينما يكون الآخرون في الدرس، كنتُ ألعب وحيداً، في باحة كرة السلة، مسجلاً نقاطاً حمقاء، ومرتلأ أشعاراً عن الذاكرة، انقسم زملائي في الصف، منذ اللحظة الأولى: فكان هناك من فكروا في أنني مجنون، في الواقع، منذ الأزل. ومن ظنوا بأنني أتصنع المجنون لأستمتع بحياتي. ومن واصلوا التعامل معي على أساس أن المجانين هم المعلمون، وإلى تلك الفترة، تعود الرواية القائلة إنني طردت من المدرسة، لأنني قذفت معلم الحساب بدواة حبر، بينما هو يكتب قارين معادلة من الدرجة الثالثة على السبورة. لحسن الحظ أن أبي تفهم الأمر بصورة بسيطة، وقرروا إعادتي إلى البيت، دون أن أنهى العام الدراسي، وعدم هدر مزيد

من الوقت والمال، على عارض صحي، يمكن له ألا يكون أكثر من علة كبدية.

أما بالنسبة إلى أخي ألبيلاردو بالمقابل، فلم تكن هناك مشكلة في الحياة، لا يمكن حلها في الفراش. وبينما كانت أخواتي يوفرن لي علاجاً من الشفقة والحنان، علمتني هو الوصفة السحرية، هذا رأيي أدخل مشغله:

- ما أنت بحاجة إليه هو ساق جيدة.

وقد أخذ الأمر على محمل الجد، حتى إنه كان يذهب مدة نصف ساعة، إلى صالة البيلاردو على الناصية، ويتركني وراءه المهاجر في مشغل الخياطة، مع صديقات له من كل الأجناس. وفي كل مرة مع واحدة مختلفة. كانت تلك مرحلة تعسف ومحاولات خلاقة، بدت كأنها تؤكد التشخيص السريري لألبيلاردو، لأنني رجعت في السنة التالية إلى المدرسة، بعقل سليم.

لن أنسى أبداً السعادة التي استقبلوني بها في مدرسة سان خوسيه، والتقدير الذي أبدته احتفاءً بمفعول أقراس دوا. أبي المحكورة. لم أذهب في هذه المرة للعيش مع الزوجين بالديبلاتيك، لأن بيتهما لم يعد يتسع لي بعد ميلاد ابنتهما الثاني. وإنما عشت في بيت دون إلبير غارسيا، أحد أشقاء جدي لأبي، المشهور بطيبته ونزاهته. لقد عمل في مصرف حتى بلغ سن التقاعد. وكان أكثر ما أثر بي هو شغفه الأبدي باللغة الإنكليزية. لقد درسها طوال حياته، منذ الفجر، وفي الليل حتى ساعة متأخرة، كتمارين مغناة بصوت جميل ولكنة جيدة، إلى حيث سمح له العمر بذلك. وكان يذهب في أيام الأعياد والعطلات إلى المرقأ

لاصطياد صائحين والتكلم إليهم. وقد توصل إلى إتقان الإنكليزية بالقدرة نفسه الذي كان يتقن به الفشتالية على الدوام. ولكن خجله كان يمنعه من التكلم مع أحد من معارفه. ولم يتمكن من سماعه يتكلمها، قطعاً. أيناهو الذكور الثلاثة، وهم جميعهم أكبر مني، ولا ابنته الوحيدة فاليتينا.

ومن خلال فاليتينا - التي كانت صديقتي العظيمة والقارئة المهمة - اكتشفت وجود حركة "رمل وسما". المؤلفة من جماعة شعراء شباب أخذوا على عاتقهم، تجديد شعر ساحل الكاريبي، مقتدين بشال بابلو نيرودا المعبود. والحقيقة أنهم كانوا نسخة معلبة مكررة لجماعة "حجر وسما"، التي سادت في تلك السنوات، في مقاهي الشعراء في بوغوتا، وفي الملاحق الأدبية التي يشرف عليها إدواردو كاركاشا، في ظل الشاعر الإسباني خوان رامون خيمينث، بالإصرار الصحي على كنس أوراق شجرة القرن التاسع عشر الميتة، لم يكونوا أكثر من نصف دزينة خارجين لتوهم، من المرافقة، ولكنهم برزوا بقوة في الملاحق الأدبية، على الساحل، إلى حد بدأ يُنظر إليهم على أنهم وعد أدبي كبير.

قائد جماعة "رمل وسما" ويدعى سيسر أغوستو دل بايي، كان في حوالي الثانية والعشرين من عمره. ولم يقتصر، في جعل اندفاعه التجديدي إلى الموضوعات والمشار، وإنما كذلك إلى الإملاء والقواعد النحوية في قصائده. فكان هرطوقياً في نظر دعاة النقاء اللغوي، وأبده في نظر الأكاديميين، ومتهبطاً في نظر الكلاسيكيين. والحقيقة مع ذلك، أنه كان، فضلاً عن نضاليتته المعبودة - مثل نيرودا - رومانسياً لا خلاص له.

أخذتني ابنة عمي فاليتينا، في يوم أحد، إلى البيت الذي يعيش

فيه سبسر مع أبويه، في حي سان روكي، أكثر أحياء المدينة قصفاً ولهاً. كان متين العظام، قامت البشرة ونحلاً. له أسنان أرنب كبيرة وشعر مشعث على طريقة شعراء زمانه. وهو فوق ذلك، عرييد ومفتوح السروال. كان بيته، وهو بيت طيقة متوسطة فقيرة، مترعاً بالكتب دون مجال لكتاب آخر جديد. وكان أبوه رجلاً جدياً وأقرب إلى الكآبة. له مزاج موظف متقاعد. ويبدو مغموراً لميول ابنه الفاحلة. وقد احتضنتني أمه بشيء من الأسى، كإبن آخر يعاني الداء نفسه الذي طالما جعلها تنجي على ابنها.

كان ذلك البيت، بالنسبة لي، كشفاً عن عالم ربما كنت أحسبه، وأنا في سن الرابعة عشرة تلك. ولكن دون أن أعرف إلى أي حد. وقد تحولت منذ ذلك اليوم الأول، إلى زائر الأكثر مواظبة. وكنت أخذ الكثير من وقت الشاعر. حتى إنني مازلت غير قادر إلى الآن، على تفسير كيف أتمكن من أن يتحملني. وقد توصلت إلى التفكير في أنه كان يستعملني لممارسة نظرياته الأدبية التي ربما كانت اعتباطية، ولكنها مبهرة، مع محدث مبهور لكنه مسالم. كان يعيرني كتباً لشعراء لم أسمع بأسمائهم من قبل، فأناقشها معه دون أدنى وعي لمدي جسارتي، ولا سهماً نيرودا الذي حفظت عن ظهر قلب "قصيدته العشرين"^(١) لكي أخرج بعض المعلمين المجيزين عن طورهم، وهم الذين لا يتوغلون في مجاهل هذا النوع من الشعر. في تلك الأيام، اصطخيت أجواء المدينة الشفافية، بسبب قصيدة لميريا ديلمان، عن مدينة كارتاخينا دي إندياس، شغلت كل أوساط الساحل. وقد بلغت براعة الإلقاء والصوت اللذين قرأ

(١) قصيدة نيرودا قبل الأخيرة في ديوانه المشهور "عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة".

بهما سبسر دل يايي القصيدة على، حداً جعلني أحفظها عن ظهر قلب، بعد القراءة الثانية.

وفي مرات كثيرة أخرى، لم تستطع التكلم، لأن سبسر كان يكتب على طريقته. ماشياً عبر الحجرات والممرات، كما لو أنه في عالم آخر. وبعد كل دقيقتين أو ثلاث دقائق، ير أمامي كالمسرح، ثم يجلس فجأة إلى الآلة الكاتبة، فيكتب بيتاً من الشعر، أو كلمة، أو حتى نقطة أو فاصلة، ثم يعود للمشي من جديد. وكنت أراقبه مبهوراً بانفعال سعاوي، لأنني اكتشف الطريقة الوحيدة والسحرية لكتابة الشعر. هكذا كنت على الدوام، خلال سنواتي في مدرسة سان خوسيه، التي متحتني الركيزة البلاغية لإطلاق شياطين شعري. أما آخر خبر بلغني، عن ذلك الشاعر الذي لا يُنسى، بعد سنتين من ذلك في بوغوتا، فهو برقية من فالينتين مؤلفة من كلمتين اثنتين، لم يطاوعها قلبها على التوقيع عليهما: "حات سبسر".

أول شعور أحسست به في ياراتيكيا، بغياب أبيي، هو وعيي بحرية الاختيار. كان لي أصدقاء أحافظ عليهم خارج المدرسة. منهم ألفارو دل تورو - الذي كان يفتني على تصريحياتي في الاستراحات بين الدروس - وقبله آل آرتيشا الذين اعتدت الهرب معهم إلى المكتبات والسبتما. ذلك أن الشرط الوحيد الذي فرض عليّ في بيت العم إليسير، للحفاظ على مسؤوليتهم عني، هو عدم التأخر في العودة إلى البيت، إلى ما بعد الثامنة ليلاً.

بينما كنت في أحد الأيام، أنظر سبسر دل يايي، وأنا أقرأ في صالة بيته، جاءت للبحث عنه امرأة مفاجئة. اسمها مارتينا قونسليكا.

وهي ببضاء مسكوبة في قالب خلاسية، ذكية ومستقلة. يمكن لها أن تكون عشيقته الشاعر. وقد عشت لساعتين أو ثلاث ساعات، أوج متعة التحدث معها، إلى أن رجعت سيسر إلى البيت. وذهب ساعداً، دون أن يخبراني إلى أين. لم أعد أعرف شيئاً عنها حتى يوم أربعاء الرماد، من تلك السنة، عندما خرجت من القديس الأكبر ووجدتها تنتظرنني على أحد مقاعد الحديقة. ظننت أنها رؤيا، كانت ترتدي ثوباً مطرزاً من الكتان، يُبرز جمالها الباهر، وتضع عقداً مبهرجاً، وزهرة نار متوقدة على فتحة ثوبها عند الصدر. ومع ذلك، فإن أكثر ما أقدره الآن في الفاتكة، هو الأسلوب الذي دعيتني به إلى بيتها، دون أدنى ملمح من التفكير المسبق، ودون أن تأخذ في الاعتبار علامة الصليب المقدس المرسومة بالرماد، على جبهتنا. كان زوجها، وهو قبطان سفينة قحمر نهر مجدلينا، يقوم بهام عمله في رحلة تستمر اثني عشر يوماً. وما القريب في أن تدعوتني زوجته، في يوم سبت ما، لتناول فنان من الشوكولاته، مع المعجنات؟ لا شيء سوى أن التقليد تكرر طوال بقية تلك السنة، بينما الزوج مسافر في سفينته. ودوماً ما بين الساعة الرابعة والسابعة، وهو وقت العرض السينمائي المخصص للصغار في سينما ريكس، فكان ذلك ينقضي، كذريعة في بيت عمي اليسير، حين أكون معها.

كان اختصاصها المهني هو إعداد معلمي المرحلة الابتدائية للشرقية، وكانت تستضيف أكثرهم كفاة في بيتها، في ساعات فراغها. وتقدم لهم الشوكولاته والمعجنات. ولهذا لم يزل أهل الحي الصاخب اهتماماً لتلميذ أيام السبت الجديد، انسيابية ذلك الحب السري الذي تأجج ناراً مجنونة منذ أذار حتى تشرين الثاني، كانت مفاجئة. فبعد أول سبتين،

اعتقدت أنني لن أطيع صبراً على تحمل الرغبة العارمة، في أن أكون معها طوال الوقت.

لقد كنا بتنجي من كل خطر، لأن زوجها كان يعلن عن مجيئه إلى المدينة، بإشارة مشفرة، لكي تعلم هي وحدها، بأن سفينته تدخل الميناء. وهذا ما حدث في السبت الثالث من غرامياتنا، عندما كنا في الفراش، وسمع جوار السفينة البعيد. قفصت هي.

- ابن صامتاً - قالت لي، وانتظرت جوارين آخرين تالين، ولكنها لم تقفز من السرير، مثلما كنت أنتظر بسبب خوفاً، وإنما وصلت دون هبالاة وهي تقول: - ما زالت أمامنا ثلاث ساعات من الحياة.

كانت هي نفسها قد وصفت لي "نحبي ضخم بطول مترين وشبر، وله قفصاً مدفعي". كنتُ على وشك أن أكسر قواعد اللعبة في نوبة غيرة، وبطريقة غير عادية؛ فقد أردت قتله. ولكن نضجها هو الذي حلّ المسألة. فقد اقتادتنى، منذ ذلك الحين برسن، غير عقبات الحياة الواقعية، وكأنها فتاة صغيراً بجلد حل.

رحت أتردى من سبت إلى أسوأ في المدرسة. ولم أشأ أن أعرف شيئاً عن ذلك. ولكن مارتينا تولت بنفسها أمر محنتي المدرسية. فاجأتها صبيانية إهمالي لدروسي في سبيل إشباع شيطان ميل لا يقاوم إلى الحياة. وقد قلت لها: "الأمر طبيعي". فلو كان هذا الفراش هو المدرسة، وكنت أنت المعلّمة، لكنت الأولى ليس في صفّي وحسب، وإنما في المدرسة كلها. وقد أخذت قولتي كمثل صائب. وقالت لي:

- هذا هو بالضبط ما ستفعله.

وأندفعت، دون توضّحات كبيرة، في مهمة إعادة تأهيلي، وفق

توقفت ثابت، كانت محل واجباتي المدرسية وتهينني لدروس الأسبوع التالي، بين طفرات السرير وتأنيبات الأم، فإذا لم تكن واجباتي المدرسية على ما يرام، تعاقبتني بسبت من الحرمان عن كل ثلاثة أخطأ. ولكنني لم أعجأواز الخطيئتين قط. وبدأ التبدل يظهر عليّ، في المدرسة.

ومع ذلك، فإن ما علمتني إياه بالممارسة، كان معادلة مؤكدة الصواب لم تقضي، لسوء الحظ، إلا في سنتي الثانوية الأخيرة؛ إذا ما انتهيت إلى دروسي وأجهزت واجباتي بنفسى، دون استنساخها من زملائي، فيأني سأنال تقديرأ حسناً. ويمكنني القراءة مثلما أشاء. في ساعات فراغي، ومواصلة حياتي الخاصة دون سهر منهك أو مخاوف مفاجئة بلا طائل. بفضل هذه الوصفة السحرية، كنت الأول على دفعتي في سنة ١٩٤٢ تلك. وثلث ميدالية الامتياز وتنويهات شرف من كل نوع. ولكن الامتداح والامتنان وُجها إلى الأطباء الذين أحسنوا صنعاً بعلاجي من المتون. وقد أدركت فجأة في الحقل، أن هناك جرعة من الصفاقة، في التأثير الذي كنت أرد به، في السنوات السابقة، شاكراً المداين التي تكال لي عن استحقاقات لم أكن جديراً بها. أما في السنة الأخيرة، عندما كنت استحقها عن جدارة، بدا لي عدم تقديم الشكر، عملاً وقوراً. ولكنني رددت من كل قلبي، بقصيدة غيبيرو باليتشيا "السيرك" التي ألقيتها كاملة، في الحفل الختامي، وكنت مرغوباً أكثر من مسيحي في مواجهة الأسود.

قررت أن أذهب في إجازة تلك السنة الحميدة، لزيارة الجدة ترانجيلينا في أراكاتاكا. ولكنها اضطرت هي إلى المجيء بصورة مستعجلة إلى بارانكيا لإجراء عملية جراحية بسبب إفلام شبيكة

عينيها. وقد اكتملت سعادتي برؤيتها مجدداً، مع سعادتي بمعجم الجيد الذي حملته إليّ، كهدية. لم تلحظ أبداً أنها كانت تفقد بصرها، أو أنها لم تشأ الاعتراض بذلك، إلى أن صارت لا تستطيع التنقل في حجرتها. كانت العملية الجراحية التي أجريت لها في المستشفى الخيري، سريعة، مع تنبؤات طبية. وعندما نزعوا الضمادات، وهي جالسة في السرير، فتحت عيني شبابها الجديد المشعنين، وأشرق وجهها، وهي تلخص سعادتها بكلمة واحدة:

- أرى.

أراد الطبيب الجراح أن نحدد ما الذي تراه أكثر، قمسحت الغرفة بنظرتها الجديدة، وراحت تعدد كل شيء بدقة باهرة. اتحبست أنفاس الطبيب. ولكنني أنا وحدي، من كنت أعرف أن الأشياء التي تعددها الجدة، ليست هي الموجودة أمامها، في غرفة المستشفى؛ وإنما محتويات غرفة نومها في أراكاتاكا، التي تستحضرها من ذاكرتها، بالترتيب الذي هي عليه. ولم تستعد بصرها، بعد ذلك اليوم قط.

ألح والداي على أن أقضي إجازتي معهما، في سوكري، وأن أخذ الجدة معي. كانت قد هزمت أكثر بكثير من سنها. وكان ذهنها يحضي على غير هدى. وقد شُحذ جمال صوتها، وصارت تغني أكثر، وبألهام أكبر من أي وقت آخر. اهتمت أمي بإبقائها نظيفة ومرتبة، كما لو أنها دمية ضخمة. كان واضحاً أنها تعي العالم، ولكنها تنسبه إلى الماضي. وبخاصة برامج المذيع التي توقظ فيها اهتماماً طفولياً. فقد كانت تتعرف على أصوات مختلف المذيعين الذين تحدو هويتهم، على أنهم أصدقا شبابها، في ريوهايتا، لأنه لم يدخل مذياع، قط، إلى بيتها

في أراكاتاكا. وكانت تخالف أو تشفق بعض تعليقات المذيعين، وتناقش معهم البرامج المتنوعة، أو تؤنبهم على أي خطأ نحوي، كما لو أنهم، بلخهم وعظمتهم، إلى جوار سريرها، وترفض أن تستبدل ملابسها، طالما لم يلق المذيعون تحية الوداع. وعندما يفعلون، ترد عليهم بحسن تربيتها السليمة:

- طابت ليلتك أيها السيد.

أسرار كثير من الأشياء المفقودة، أو الخبأة، أو المسائل المحظورة، توضحت من خلال منولوجاتها: من الذي أخذ في تابوت، مضخة الماء التي اختفت من البيت في أراكاتاكا، ومن هو في الحقيقة والد مانيلدي سالمونا، الذي أخطأ فيه اخوته وجعلوه يدفع الثمن بالرصاصة.

لم تكن سهلة كذلك إجازتي الأولى في سوكري، من دون مارتينا فونسيكا. إنما لم يكن هناك أدنى إمكانية لذهابها معي، ومجرده التفكير في أنني لن أراها، طوال شهرين، بدا لي أمراً غير معقول. أما هي فلا. بل على العكس، فعندما طرحت الموضوع، أدركت أنها، كماداتها، كانت قد سبقتنى بثلاث خطوات. فقد قالت لي، دون أمرار أو غموضي:

- هذا ما كنت أريد التحدث فيه. الحل الأمثل لكلينا هو أن تذهب للدراسة في مكان آخر. بعد أن حضرنا الآن مجنونين، بحاجة إلى تقييد، وهكذا، سننتقل إلى القناسة، بأن ما بيننا لا يمكن له أن يصير أبداً، أكثر مما كان.

أخذت كلامها بسخرية:

- سأذهب غداً وأعود بعد ثلاثة أشهر، لأبقى معك.

فردت علي بموسيقى تانغو:

- ها، ها، ها، ها.

عندئذ أدركت أنه من السهل، إقناع مارتينا، عندما تقول نعم. ولكن لا يمكن إقناعها مطلقاً، عندما تقول لا. وهكذا تناولت قفازي، مستحماً بالدموع، وقررت أن أكون شخصاً آخر، في الحياة التي فكرت بها هي لي: مدينة أخرى، مدرسة أخرى، أصدقاء آخرون، وحتى طريقة أخرى في حياتي. لم أكّد أفكر في ذلك، حين كان أول ما قلته لأبي بشي، من الوقار، وبسلطة ميدالياتي الكثيرة، هو أنني لن أرجع إلى مدرسة سان خوسيه. ولا إلى مدينة بارانكيّا. فقال هو:

- تشارك الرب! فقد كنت أسأل على الدوام، من أين جاءتك روحانية الدراسة لدى الجيزويت.

فتجاوزت أمي هذا التعليق قائلة:

- إذا هو لم يدرس هناك، فلا بد أن يذهب إلى بوغوتا.

وردة أبي على الفور:

- لن يذهب إذن إلى أي مكان، لأنه لا وجود لأموال تكفي أولئك الكاتشاكو هناك.

أمر غريب! فمجرد فكرة عدم مواصلة الدراسة التي كانت حلم حياتي، بدت لي عندئذ، غير محتملة. حتى إنني لجأت إلى حلم لم يبد لي يوماً أنه ممكن التحقيق. إذ قلت:

- هناك منح دراسية.

فقال أبي:

- أجل، الكثير منها، ولكنها للأغنياء.

كان ذلك صحيحاً جزئياً. ولكن ليس بسبب المعايير والمقاييس، وإنما لأن الإجراءات صعبة وشروط القبول سيئة التوزيع والانتشار. ويحكم النظام المركزي، فإن كل مستطع إلى منحة، عليه الذهاب إلى بوغوتا، على بعد ألف كيلومتر، يطلب اجتيازها ثمانية أيام من السفر، ويكلف ما يعادل ثلاثة شهور تقريباً، في مدرسة داخلية جيدة. ويمكن، مع ذلك، أن يكون السفر دون طائل. استشاطت أمي غضباً: «عندما يفتح أحدنا غطاء آلة المال، يعرف أين يبدأ، ولكنه لا يعرف أين ينتهي».

أضف إلى ذلك، أنه كانت هناك أمور أخرى مؤجلة. فلويس إريكي الذي بصغرني بسنة، كان قد سُجِّل في مدرستين محليتين، وهرب من كليتهما، بعد شهور قليلة. ومرغريتا وعائدا تدرسان على ما يرام، في مدرسة ابتدائية للمراهبات، ولكنهما بدأتا التفكير في الانتقال إلى مدينة قريبة، وأقل كلفة، من أجل الدراسة الثانوية. أما غوستافو، وليخيا، وريتا، وخيمي فلم يكونوا مستعجلين بعد. ولكنهم يكبرون بإقتراف مشرعة، وكان هؤلاء، أو الثلاثة الذين ولدوا فيما بعد، يتعاملون معي، كشخص لا يأتي دائماً، إلا لكي يغادر.

كانت تلك هي سنتي الحاسمة، وكانت أكبر جاذبية، في عرايت المنافسة المزيعة، هن الفتيات المختارات للطفهن وجمالهن، واللواتي كن يرتدين ثياب الملكات، ويلقن أشعاراً تعريضية، تلمح إلى الحرب الرمزية، بين نصفي القرية. وكنت أنا، نصفه الغريب، أستمتع بامتياز كوني محايداً. وعلى هذا الأساس كنت أنصرف. ولكنني في تلك السنة، تنازلت أمام توسلات قادة هي كونغويو، لأكتب لهم أبيات شعر

تلقبها أخشي كارمن روسا التي ستكون ملكة إحدى العرايات الضخمة. وقد أرضيتهم بكل سعادة. ولكنني بالفت في مهاجمة الخصم، بسبب جهلي بقواعد اللعبة. فلم يبق لي مخرج آخر سوى ترقيع تلك الفضيحة بقصيدتي سلام: واحدة ترميمية جميلة هي كونغويو، وقصيدة مضالمة لجميلة هي سوليا. شاع خبر الحادثة. وهكذا تحول الشاعر شبه المجهول، في البلدة، إلى بطل الاحتفال. وقد قدمني الحدث في المجتمع، وجعلني جديراً بصداقة الغريفيين. ومنذ ذلك الحين، لم بعد الذي وقت للمساعدة في المسرحيات الطفولية، والأسواق الخيرية، ومهرجانات ياقتصبا الإحسان، وحتى في كتابة خطاب مرشح للمجلس البلدي.

لويس إريكي الذي كان يتباهى بعازفه الجيتار الملهم الذي صار إليه، علمني عزف التيبلي^(١). وتحولت معه ومع فيلادلفيو بيلييا إلى ملوك السرينات، براودنا الأمل الكبير بأن ترتدي بعض المحتفى بهن ملابسهم بسرعة، ويفتحن الباب، ويوقظن الجارات، لتواصل الحفلة حتى الفطور. في تلك السنة أثرت الجماعة، حين انضم إليها خوسيه بالينشيا، حفيد مالك أراضٍ ثري، ومبذر. كان خوسيه موسيقياً فظرياً قادراً أن يعزف على أي آلة موسيقية تقع بين يديه، له مظهر فنان سينمائي، وكان راقصاً نجومياً، يتمتع بذلك، مبهراً ويحظ محسود، أكثر مما هو قابل للحسد في الغراميات العابرة.

أما أنا، بالمقابل، فلم أكن أنقن الرقص، ولم أستطع تعلمه، حتى في بيت الأتنيات لوسيار، وهن ست أخوات متعدات بالولادة، ولكنهن يعطين مع ذلك دروساً في الرقص الجيد، دون أن ينهضن عن كراسيهن

(١) التيبلي (tiple) آلة موسيقية تشبه الجيتار ولكنها أصغر من حجمها، وأغناها أكثر حدة.

الهزاة. أبي الذي لم يكن قط، من النوع غير المبالي بالسبعة، تقرب مني برؤية جديدة. وصرنا، لأول مرة، نكرس ساعات طويلة، لتبادل الحديث. كنا لا نكاد أحدنا يعرف الآخر. الواقع أنني، وأنا أنظر اليوم إلى ذلك، لم أعش مع أبوي أكثر مما مجموعته ثلاث سنوات، بما في ذلك ما عشته معهما في أراكاتاكا، وبارانكيا، وكاراتاخينا، وسينشي، وسوكري. لقد كانت تجربة لطيفة جداً أتاحت لي التعرف عليهما، بصورة أفضل. وقد قالت لي أمي ذلك: "كم هو جيد أنك صرت صديقاً لأبيك". وبعد أيام من ذلك، بينما هي تعد القهوة في المطبخ، قالت لي أيضاً:

- أبوك فخور بك.

وفي اليوم التالي، جاءت توقظني، على رؤوس أقدامها، وهنست لي أذني: "أبوك يخشى لك مفاجأة". وبالفعل، عندما نزلت لتناول الفطور، قدم هو نفسه لي الخبز، بحضور الجميع وبتفخيم مهيب:

- جهز أشباكك، فسوف تذهب إلى بوغوتا.

الصدمة الأولى كانت إحباطاً كبيراً، فما كنت أرغب فيه آنذاك، هو البقاء غارقاً في حفلات الصخب الأبدية. ولكن البراءة تغلبت. لم تكن هناك مشكلة بالنسبة لللباس المنطقية الباردة. فلدي والدي، بذلة سوداء من الجوخ، وأخرى من المخمل، ولا تنطبق أي منهما على خصره. وهكذا ذهبنا إلى بيدروليون وروسانيس، المعروف باسم خياط المعجزات، فأعاد تكييفهما على مقاسي، واشترت لي أمي كذلك، معطفاً من جلد الحمل، كان لسيناتور ميت. وبينما كنت أجريه في البيت، حذرتني أختي ليخيا، سرّاً - وهي متنبئة بالفطرة - من أن شبح السيناتور يمر ليلاً من بيته، وهو يرتدي المعطف. لم أولها اهتماماً. ولكن كان من الأفضل لي

أن أفعل، لأنني عندما ارتدته في بوغوتا، رأيت نفسي في المرأة، بوجه السيناتور الميت. قرهنته مقابل عشرة بيوزات، في محل رهونات مونتي دي بيداد (جبل الرحمة) وتركته يضيع.

كانت الأجواء الأسرية قد تحسنت كثيراً، حتى إنني كنتُ على وشك اليكما، عند الوداع. ولكن البرنامج جرى بحذافيره، دون إفراط في العواطف. في الأسبوع الثاني من كانون الثاني، أبحرت من بلدة ماغانغي في "القبطان أرانغو"، وهي السفينة الرئيسية في شركة نايفرا كولومبيانا، بعد أن عشت ليلة كرجل حر. زميلي في القمرة كان ملاكاً بزن متين وعشرين رطلاً، أمره الجسم بالكامل. له الاسم المقتضب "جك السفاح"، وهو المتقي الأخير على قيد الحياة، من سلالة رماة السكاكين في السبرك، المتحدرين من آسيا الوسطى. بدا لي للوهلة الأولى، أنه يمكن له أن يخفني بينما أنا نائم. ولكنني انتبهت في الأيام التالية، إلى أنه ليس أكثر مما يبدو عليه وحسب: طفل ضخم بقلب لا يتسع له جسده.

أقيمت حفلة موسيحية في الليلة الأولى، بمشاركة فرقة موسيقية، مع وليمة عشاء فخمة. ولكنني هربت إلى السطح، تأملت لآخر مرة، أضواء العالم الذي أستعد لتسياته دون ألم، وبكيت على هواي حتى الفجر. وأنجبراً اليوم على القول، إن الشيء الوحيد الذي أرغب في أن أعود طفلاً من أجله، هو الاستمتاع بتلك الرحلة. لقد قمت بها فيما بعد، ذهاباً وإياباً، عدة مرات خلال السنوات الأربع المتبقية لي في الدراسة الثانوية، وستين آخرين في الجامعة. وفي كل مرة، تعلمت من الحياة، أكثر مما تعلمته في المدرسة، وأفضل مما في المدرسة. في الفترات التي

يكون فيها النهر مرتفعاً وصباه كافية، تستغرق رحلة الصعود خمسة أيام، من بارانكيّا حتى بويرتو سالغار. ومن هناك تُستكمل الرحلة بالقطار إلى برغوتا. أما في فترات الجفاف، وهي الأكثر متعة في الإبحار، إذا لم يكن الممر مستعجلاً، فيمكن أن تستمر حتى ثلاثة أسابيع.

كان للمسفن أسماء سهلة ومباشرة: "أتلانتيكو"، "ميدلين"، "كابتن دي كارو"، "دافيد آرانغو". وقباطنتها، مثل قباطنة (جوزيف) كونراد، كانوا متسلطين ومن النوع الجيد. يأكلون كالبرابرة، ولا يستطيعون النوم وحيدين، في نصراتهم الملوكية. كانت الرحلات بطيئة ومفاجئة، وكنا نحن المسافرين، نجلس على الشرفات طوال اليوم، لنشاهد القرى المنسية، والتناسيح المنبثقة، وأشداقها مفتوحة بانتظار الفراشات غير الحذرة، وأسراب مالك الحزين التي تطلق محلقة خوفاً، من أثر مخور السفينة، وقطعان بط المستنقعات الداخلية، والأطم التي تغني على الشواطئ، بينما هي تُرضع صغارها. وخلال الرحلة كلها، يستيقظ الممر مشوشاً من صخب القرد والبيغاوات، وكثيراً ما تقطع القبلولة رانعة مفروزة لبقرة غارقة، ثابتة دون حراك، في خيط الماء النحيل، ومع تسر رخصة وحيد يجثم على بطنها.

من الشادر أن يتعرف أحدنا الآن، على أحد في الطائرات. أما في السفن النهرية، فكان الأمر ينتهي بنا، نحن الطلاب، إلى أن نبدو أسرة واحدة؛ فقد كنا نتفق كل سنة لكي نلتقي معاً، في الرحلة نفسها، وكانت السفينة تعلق أحياناً لمدة تصل إلى خمسة عشر يوماً، في إحدى المصاطب الرملية. ولم يكن أحد منا يشعر بالقلق، لأن الحفلة تتواصل.

وتكفي رسالة من القبطان مبهورة بخاقه، كعذر، لوصولنا متأخرين إلى المدرسة.

منذ اليوم الأول، لفت انتباهي أصغر أفراد جماعة أسرية كان يعزف الباندونيون^(١) كما لو أنه في الأحلام، وهو يتجول طوال أيام كاملة، على سطح الدرجة الأولى. لم أستطع تحمل الحسد، ذلك أنني منذ أن سمعت أول عازفي الأكورديونات، من جماعة فرانثيسكو الإنسان في أعياد العشرين من تموز في آراكاتاكا، سمعتُ جاهلاً من أجل أن يشترى لي جدي أكورديوناً. ولكن جدتي اعترضت، كعادتها المراتبة العائنة، بأن الأكورديون هو آلة بلهاء. وبعد ثلاثين سنة من ذلك، ظننتُ أنني تعلمت في باريس، على عازف الأكورديون المتألق في السفينة، في مؤتمر عالمي لأطباء الأعصاب. كان الزمن قد فعل فعله: فقد أطلق ليحة بوهيمية، وكبرت ملبسه على مقاسه حوالي ثمنتين. ولكن ذكرى براعته، كانت لا تزال حية، بحيث لا يمكنني أن أخطئ. ومع ذلك، ما كان يمكن لجوابه أن يكون أكثر فظاظة، حين سألته، دون أن أقدم نفسي:

- كيف حال الباندونيون؟

قأجابني متفاجئاً:

- لا أدري عم تتكلم.

أحسست بأنني أسف التراب، وقدعت إليه تفسيراتي البائسة بأنني أخطأت، وظننته طالباً كان يعزف الباندونيون في السفينة "دافيد آرانغو"، في أوائل شهر كانون الثاني سنة ٤٤. عندئذ أشرق متألقاً بالذكري. كان ذلك الرجل هو الكولومبي سالمون حكيم، أحد أعظم أطباء

(١) الباندونيون bandoneon آلة موسيقية من نوع الأكورديون.

الأعصاب في العالم. وكانت خيبة الأمل في أنه تحرك من عزف
الأكورديون، إلى الهندسة الطبية.

وقد لغت نظري مسافر آخر، بسبب الزوائد. كان شاباً مريعاً، ذا
شعر أشقر، ضارب إلى الحمرة، يضع نظارة حسير بصر، وله صلعة
مبكرة، بدا لي، الصورة النموجية للسائح الكاتشاكو. احتكر لنفسه،
منذ اليوم الأول، أكثر المقاعد راحة، ووضع عدة أكدام من الكتب
الجديدة على طاولة صغيرة، وصار يقرأ دون توقف، منذ الصباح إلى أن
تشد اهتمامه حقايات الغناء والصخب الليلية، وكان يظهر كل يوم في
قاعة الطعام، بقميص شاطئ مختلف ومزين بالأزهار، فيتناول قطوره،
وغداه، وعشاءه، ويواصل القراءة، وحيداً على المنضدة الأكثر انزواً. لا
أظن أنه تبادل التحية مع أحد. وقد عمدته بيني وبين نفسي، بلقب
"القارئ النهم".

لم أستطع مقاومة إغراء التلصص على كتبه. كانت في معظمها
مراجع عسيرة الهضم، في القانون العام، يقرأها في الصباح، وهو يوشح
تحت السطور، ويدون ملاحظات في الهوامش، ومع برودة المساء، يقرأ
روايات، منها رواية أصابني بالذهول: "الفرين" لدوستوفسكي، إذ كنتُ
قد حاولتُ سرقتها من إحدى مكتبات باراشكين، ولم أستطع. وكنت
أتلهف بجنون لقراءتها، حتى إنني أردت طليها منه، ولكنني لم أجرو
على ذلك. وفي أحد تلك الأيام، ظهر ومعه رواية مولان الكبير، ولم
أكن قد سمعت بها، ولكنني ضمنتها بعد وقت قصير من ذلك، إلى
قائمة الأعمال الباهرة المفضلة لدي. أما أنا بالمقابل، فلم أكن أحصل
سوى كتب قراءتها من قبل، ولا يمكن إعادة قراءتها: جيرومين للأب

كولوما، التي لم أنه قراءتها قط، والدوامة، لحوسيه إوستاسيو ريفيرا،
ومن جبال أبنون إلى جبال الأنديز، لإدموندو دي أميسس، ومعهم الجد
الذي كنت أقرأ فيه مقاطع متفرقة طوال ساعات. بينما لم يكن لدى
القارئ النهم، من جهته، ما يكفي من الوقت، لقراءة ما لديه. وما أريد
قوله، ولم أقله، هو أنني كنت مستعداً لتقديم أي شيء، مقابل أن أكون
هو.

المسافر الثالث هو جاك المنفاح، طبيباً، ومبلي في القمرة الذي كان
يتكلم، وهو نائم، بلغة هسجية، طوال ساعات كاملة، وكانت لمداخلاته
تلك إيقاع مترنم، يضفي خلفية جديدة على قراءاتي عند الفجر. قال لي
إنه لا يعي ذلك، ولا يعرف ما هي اللغة التي يحلم بها، لأنه في
طفولته، كان يتفاهم مع البهلوانات في سيركه، بست لغات أسيوية،
ولكنه فقدوها كلها بعدما توفيت أمه. ولم تبق له سوى اللغة البولوتية،
وهي لغته الأصلية. ولكن يمكن الإقرار بأنها ليست اللغة التي يتكلم بها
وهو نائم، لا أتذكر كائناً أكثر منه مودة، وهو يزيت سكاكينه المشوومة،
ويجرها على لسانه الوردي.

كانت مشكلته الوحيدة هي يومه الأول في قاعة الطعام، عندما قال
للنذل إنه لن يستطيع العيش حتى نهاية الرحلة، ما لم يقدموا إليه وجبة
تتبادل حصاة أربعة أشخاص. وقد أوضح له مساعد الریان أنهم سيفعلون
ذلك، إذا هو دفع ثمناً إضافياً مع تخفيض خاص. فاحتج بأنه قد سافر
في كل بحار العالم. وكان الجميع يعترفون بحقه الإنساني في عدم
البقاء جائعاً، ورُفعت القضية إلى الریان الذي قرر، على الطريقة
الكولومبية جداً، أن تقدم له حصتان، وأن يطلق الطهاة يدهم قليلاً

لتنوفا له حصتان أخريان سهولاً، وساعد هو نفسه أيضاً بتناول لقمات يشكوته من أطباق زلاته على المائدة، وبعض الجيران ضعيفي الشهية، ممن كانوا يستمتعون بدعائهم، لا يد للمرء من أن يكون هناك ليصدق ذلك.

لم أكن أدري ما أفعله بنفسي، إلى أن صعدت إلى السفينة في لاغلويا، جماعة من الطلاب الذين راحوا يشكلون فرقاً ثلاثية ورباعية في الليل، ويغنون سيرنادات شجية وأغنيات بوليرو غرامية، وعندما اكتشفت أنهم بحاجة إلى صوت صاوح، عرضت عليهم أن أؤدبه أنا، وصرت أقرن معهم بعد الظهر، ونغني حتى الفجر. وهكذا وجدت ملل ساعات فراغي، علاجاً مرتبطاً بالقلب؛ لا يمكن لمن لا يغني أن يتخيل ما تعنيه متعة الغناء.

في ليلة مكتملة القمر، أبقتنا نواح مؤثر يأتي من الضفة، فأصدر القبطان كليماكو كوتدي ألبسور، أحد أعظم الربانة، أمره بالبحث بالمصايح الكشفية، عن مصدر ذلك النواح. فكانت أنشأ أطم عالقة بأغصان شجرة ساقطة، فألقى بخارة السفينة البخارية بأنفسهم إلى الماء، وربطوها برافعة وحية، وتمكنوا من تخليصها، لقد كانت كانتاً راتعاً ومؤثراً، تجمع بين المرأة والبقرة. طولها حوالي أربعة أمتار. لها جلد ذاكن ولين، وصدرها ذو الشدين الكبيرين، أشبه بصدر أم تورانية، وقد سمعت الكاين كوتدي ألبسور يقول إن العالم سينتهي إذا ما وصلوا قتل حيوانات النهر، وقد منع إطلاق النار من سفينته، وقال صارخاً:

— من برد أن يقتل أحداً، فليذهب ويقتله في بيته، وليس في سفينتي.

إنني أتذكر يوم التاسع عشر من كانون الثاني ١٩٦٦، بعد ست عشرة سنة من ذلك، يوم نحس، لأن صديقاً اتصل بي، وأنا في مكسيكو، ليخبرني بأن السفينة البخارية "دافيد آراتغو" قد احترقت واستحالت رماداً في مرفأ ماغانغي. أغلقت ساعة الهاتف، براودني شعور رهيب بأن شبابي قد انتهى في ذلك اليوم، وبأن القليل المتبقي لنا من الحنين إلى نهرنا قد ذهب إلى الجحيم. نهر مجدلتا اليوم، هو نهر ميت، يسهاه العفنة وحيواناته المفروضة، وأعمال الضرميم التي ظالما تحدثت عنها الحكومات المتخالية، لم يتحقق منها شيء، فهي تتطلب غرس ستين مليون شجرة، في تسعين بالمئة من أراض تعود إلى ملكيات خاصة، بتوجيه على مالكيها، أن يتخلوا عن تسعين بالمئة من دخلهم، جياً بالوطن وحسب.

كل رحلة كانت تخلف لدينا قدراً كبيراً من التعلم الحياني، بعضنا على ارتباط بصورة عابرة، إنما لا تُنسى، بالقرى التي نمر منها، حيث ارتبط مصير بعضنا بها إلى الأبد، فهناك طالب طب مشهور دخل، دون دعوة، إلى حفل زفاف راقص، ووقع دون إذن، مع أجمل امرأة في الحفلة، فقتله الزوج برصاصة. وآخر تزوج وهو ثمل، في سكرة ملحمية، من أول فتاة أصعبته في بورتو بيريرو، وما زال سعيداً معها ومع أبنائهما التسعة هناك، وخوسيه بالينشيا، صديقنا الذي من سوكري، كسب بقرة في مسابقة مهرجان شعبي في تينيريفي، وباعها هناك بالذات، مقابل خمسين بيزو، وهي ثروة في ذلك الزمن، وفي حي التسامح الهائل في بارانكاكيريخا، عاصمة البترول، فوجئنا بأنفسنا نغني مع أوركسترا أحد مواخير آنخل كاسيخ بالينشيا، ابن عم خوسيه،

الذي كان قد اختفى من سوكري، دون أن يخلف أثراً منذ السنة السابقة. أما حساب ما فعلناه، فتكلفت به الأوركسترا حتى القجر.

الذكرى غير اللطيفة، هي ما جرى لنا في حانة مكهفزة في بورتو بيريو، حيث أخرجتنا الشرطة بالضرب بالهروبي، وكنا أربعة من ركاب السفينة، دون تقديم أي تفسير لنا، أو سماع أي تفسير منا. واعتقلونا بتهمة أننا اغتصبنا إحدى التليذات. وعندما وصلنا إلى مركز الشرطة، كانوا قد احتجزوا وراء القضبان المذتين الحقيقيين، دون خمسي أحد منهم. وهم بعض الزعران المحيطين، وليست لهم أي علاقة بسفينتنا.

في محطتنا الأخيرة، بورتو سالغار، كان علينا أن ننزل إلى البر، في الساعة الخامسة صباحاً، مرتدين ملابس مناسبة للمناطق المرتفعة. وهكذا تبدت هينات الرجال بالبدلات السوداء، مع الصدار، والقبعة لها شكل الفطر، والمعاطف معلقة بأذرعهم، ما بين ثقافز الضفادع ونشانة النهر المترع بحيوانات ميتة. وعندما حان موعد النزول من السفينة، وقعت لي مفاجأة غريبة، فقد كان أحد الأصدقاء، قد أقنع أمي في اللحظة الأخيرة، بأن تعد لي بقعة تضم شبكة من ألياف نبات البيت، ودثاراً من الصوف، وببولة صغيرة للظاوي، وأن تلف كل ذلك بحصيرة من الخلفاء، وتربطه بصورة متصالية بحبال تعليق أرجوحة النوم. لم يستطع زملائي الموسيقيون كبح ضحكهم وهم يرون معي، مثل تلك الأمتعة في مهد الحضارة. وأقدم أكثرهم جرأة، على ما لم يكن بمقدوري الإقدام عليه: أنقى بالحزمة إلى الماء. وكانت رؤياي الأخيرة من تلك الرحلة التي لا تنسى، هي البثجة العائدة إلى موطنها، مشهادة مع التيار.

كان قطار بورتو سالغار يصعد، كما لو أنه يحيو على أفاريز الصخر، خلال الساعات الأربع الأولى. وفي المقاطع الأكثر انصباه، ينزل متراجعا ليستجمع قواه ويحاول الصعود من جديد، مطلقاً لهات تنين. وكان لا بد للمسافرين، في بعض الأحيان، من النزول لتخفيف وزن الحموله، والسير على الأقدام حتى الحافة الجبلية التالية. كانت قري الطريق كثيفة ومتجمدة، لا ينتظروا في محطاتها المقفرة سوى اليانعات الأبديات اللواتي يعرضن علينا من نوافذ العربات، دجاجات مسميكة وصغراء، مطهوه بكاملها، وبطاطا مشلجة لها طعم المجد. هناك أحسست أول مرة، بحالة جسدية مجهولة لدي وغير مرئية: البرد. عند الغروب، انفتحت أمامنا فجأة، لحسن الحظ، السهول الفسيحة الممتدة حتى الأفق، خضراء وجسيلة، مثل بحر سماوي. فصار العالم ساكناً ومقتضباً، وتحول جو القطار إلى آخر.

كثت قد نيت تماماً القارئ النهم، عندما ظهر فجأة وجلس قبالي، يظهر المتعجل، كان أمراً لا يصدق، فقد أعجبت أغنية بوليرو، غنيهاً هي ليالي السفينة، فطلب مني أن أودن له كلماتها. لم أكتف بعمل ذلك، وإنما علمته كيف يغنيها أيضاً. فاجاني حسن سماعه وبريق صوته، عندما غناها وحيداً، مضبوطة وجيدة، منذ المرة الأولى، وهتف مشرقاً:

- تلك المرأة ستحوت، عندما تسمعها!

وهكذا فهمت لهفته، فسمت أن سمع البيوليرو، ونحن نغنيه في السفينة، أحس بأن ذلك اللحن سيكون إلهاً للخطيئة التي ودعته في بوغوتا. قبل ثلاثة شهور، وهي تنتظره في ذلك المساء، في المحطة. لقد سمع الأغنية مرتين أو ثلاث مرات. وكان قادراً على تركيب أجزائها،

ولكنه حين رأيته جالساً وحيداً على المقعد في القطار، قرر أن يطلب مني ذلك الجميل. وقد تجرأت أنا عندئذ، على القول له، بنية مبيتة، ودون أي مناسبة أو مقدمات، إنني فوجئت كثيراً حين رأيت على طاولته، كتاباً من الصعب العثور عليه. أما مفاجأته فكانت حقيقية:

- أي كتاب هو؟

- القرن.

ضحك راضياً، وقال:

- لم انتد من قراءته بعد. ولكنه من أقرب ما وقع بين يدي.

لم يتجاوز ذلك الحد، شكرتي بكل التدرجات الصوتية على أغنية البولير، وودّعني بالشدة، بقوة على يدي.

بدأ الظلام يخيم، عندما أخذ القطار يخفف من سرعته، مرّ من عنبر مترع بالحردوات الصلبة، ورسا عند رصيف مظلم. أمسكت صندوق أمتعتي من لسان الجر، وسحبته نحو الشارع، قبل أن يصدمني حشد الناس. وكنت على وشك الوصول، عندما صرخ أحدهم:

- أيها الشاب، أيها الشاب!

التفت لأتظر، مثلما فعل عدة شبان، وآخرون أقل شباناً كانوا يسرعون مثلي، ومرّ عندئذ القارئ النهم إلى جانبي، وأعطاني كتاباً دون أن يتوقف.

- فليكن هبة لك - صرخ بذلك، وضاع في الزحام.

كان الكتاب هو "القرن"، وكنت منهولاً إلى حد لم أنتبه معه إلى ما جرى لي. وضعت الكتاب في جيب المعطف، وصفعتني ريح الغسق الجليدية عندما خرجت من المحطة. تركت الصندوق على الرصيف وأنا

على وشك السقوط منهوكة، وجلست عليه لألتقط الأنفاس التي افترقتها. لم تكن هناك نفس واحدة في الشوارع، والليل الذي تمكنت من رؤيته، هو ناصبة جادة مشؤومة وجليدية تحت رذاذ مطر خفيف مختلط بهباب الفحم، على ارتفاع ألفين وأربعمئة متر عن سطح البحر، وسط هواء قطبي يعوق التنفس.

انتظرت، هيبناً من البرد، ما لا يقل عن نصف ساعة. كان لا بد لشخص من أن يأتي، ذلك أن أبي أرسل برقية مستعجلة إلى دون إليسير توريس أرانغو، وهو قريب له، ليكون في انتظاري. ولكن ما كان يلفتني عندئذ، ليس صجي، أو عدم صجي، أحد، وإنما الخوف من وجودي جالساً، على صندوق كأنه القبر، دون أن يكون هناك من أعرفه في الجانب الآخر من العالم. وفجأة نزل من سيارة تكسي، رجل وجيه، يحمل مظلة من الحرير، ويرتدي معطفاً من صوف الجمال، يصل حتى كاحليه. أدركت أنه من يبحث عني، بالرغم من أنه لم ينظر إليّ. وفرّ بي غرضاً، فلم أجد الجرأة للإشارة له بأي إيماءة، دخل راكضاً إلى المحطة، ثم عاد للخروج، بعد دقائق، دون أي هادئة أمل. وأخيراً اكتشف وجودي، وأشار إليّ بإصبعه السبابة:

- أنت غابيتو، أليس كذلك؟

فأجبت من روعي:

- تقريباً.

كانت بوغوتا، آنذاك، مدينة نائية وكثيبة، بهطل فيها رذاذ مطر موزق، منذ مطلع القرن السادس عشر. لفت انتباهي وجود كثير من الرجال المستعجلين في الشارع، يلبسون مثلما ألبس، منذ وصولي، بدلات من الجوخ الأسود وقبعات قاسية. ولكن لا تظهر بالمقابل، امرأة واحدة تبعث العزاء في النفس. كان محظوراً عليهن الدخول إلى المقاهي الكالحة في المركز التجاري، مثلما هي حال القساوسة الذين يرتدون ملابس الكهنوت، والعسكريين الذين هم بالزي الرسمي. وكان يُعلق، في عربات الترام والمراحيض العامة، إعلان كتيب: "إذا كنت لا تحشى الله، فاحشُ السفلس".

أذهلتني الأحصنة الضخمة التي تجر عربات البيرة، وشرر الألعاب النارية الذي يطلقه الترام عندما ينعطف في الزوايا، وعرقلة حركة المرور، من أجل فتح الطريق للجنائز التي تتقدم مشياً على الأقدام، تحت رذاذ المطر. لقد كانت المظهر الأكثر كثافة، في عربات فاخرة تجرها خيول مكسوة بالمخمل، مع قنزعة من الريش الأسود، تحمل جثث أناس من أسر راقية، تتصرف مثل مخترعي الموت، أمام مدخل كنيسة لاس نيفيس، وأيت من سيارة التاكسي، أول امرأة في الشارع. كانت

مشرقة القوام ورشيقة، ذات مهابة كبيرة، كأنها ملكة في حداد. ولكنني بقيت إلى الأبد، بنصف الوهم، لأنها كانت تغطي وجهها بخمار لا يمكن اختراقه.

لقد كان انهياراً معنوياً كاملاً. فالبيت الذي أمضيت فيه تلك الليلة، كان كبيراً ومريحاً. ولكنه بدا لي شجاعاً، بسبب حديقته الكالحة ذات الورد القاتمة، والبرد الذي يطحن العظام. إنه بيت أسرة توريس غامبوا، أقرباء أبي ومعارفي. ولكنني رأيتهم غريباً، أثناء العشاء، وهم متلفعون بأرواب النوم. وكانت مفاجأتى الكبرى، عندما انزلتُ تحت ملائح السرير، وأطلقتُ صرخة رعب، لأنني أحسست بأنها مبللة بسانل هتجعد. فأوضحوا لي أنها تبدو كذلك، في المرة الأولى، وأنني سأأخذ بالاعتقاد شيئاً قسبياً، على غرابة المناخ. وقد بقيت ساعات طويلة بصمت، قبل أن أتوصل إلى إغفاءة غير سعيدة.

تلك هي الحالة المعنوية التي كنتُ عليها، بعد أربعة أيام من وصولي، بينما أنا أمشي بكل سرعة، في مواجهة البرد ورياح المطر، نحو وزارة التربية، حيث سيفتتح التسجيل للمسابقة الوطنية للفتح الدراسية. كان صف المنتظرين يبدأ من الطابق الثالث في الوزارة، أمام باب مكتب التسجيل بالذات، وينزل متلوياً على السلالم، حتى المدخل الرئيسي. لقد كان مشهداً يزعج القلب. وعندما انقطع المطر، في حوالي العاشرة صباحاً، تطاول الصف، أكثر من كوادرتين أخريين، في جادة خبيث دي كيسادا. وكان لا يزال هناك متقدمون آخرون يلوذون بمدخل العمارات، بدا لي أنه من المستحيل الحصول على شيء، في ذلك التدافع للفوز.

بعد منتصف النهار يقليل. أحسست بطرقتين خفيفتين على كتفي. وكان قارئ السفينة النهم الذي تعرفتُ عليّ، بين آخر الواقفين في الصف، ولكنني تكلفت جهداً في التعرف عليه، بقبضة الفطر التي يعتمرها، وملابس الكاتشاكو المائمية، وبدا هو مستغرباً أيضاً، عندما سألتني:

- أي لعنة تفعلها هنا؟

فأخبرته.

- يا للأمر الغريب - قال وهو يكاد يموت من الضحك، وأضاف: - تعال معي. وأخذني من قراعى بالجماء الوزارة، عندئذ عرفت أنه الدكتور أولفو غوميث تامارا، المدير الوطني للمنج المدرسية في وزارة التربية. كانت المصادفة الأقل احتمالاً، وواحدة من أكثر المصادفات توفيقاً في حياتي، ومدهشة، من أكثر دعايات السلالة الطلابية صفاء، قدمني غوميث تامارا إلى مساعديه، على أنني أكثر مغني البوليفو الرومانسي إلهاماً. قدموا لي قهوة وسجلوني دون مزيد من الإجراءات، ولكن ليس دون أن ينبهوني، قبل ذلك، إلى أنهم لا يرمون بعملهم إلى تجاوز اللوائح. وإنما يدفعون أتاوة تلك المصادفة. أخبروني أن الامتحان العام سيكون يوم الاثنين التالي، في مدرسة سان بارتولومي. وكانوا يقدرُون أن هناك ألف متقدم من كل أنحاء البلاد، إلى حوالي ثلاثمئة وخمسين منحة. وهذا يعني أن المعركة ستكون طويلة وشاقة؛ وربما ضربة قاضية لأحلامي. المقبولون المحظوظون سيعرفون النتائج بعد أسبوع، ومعها المعلومات عن المدرسة التي سيُرسَلون إليها، كان ذلك أمراً جديداً وحرماً بالنسبة لي، إذ يمكن لهم أن يرسلوني إلى ميدلين أو بيتشادا. وأوضحوا

لي أن هذا الفرز الجغرافي، بالقرعة، إنما أقرّ لتنشيط الحركة الثقافية بين مختلف المناطق، وعندما انتهت الإجراءات، شدّ تامارا على يدي بالمحاسن نفسه الذي شكرني به على أغنية البوليرو، وقال لي:

- كن مثيلاً، مصيرك الآن بين يديك.

ولدى خروجي من الوزارة، عرض عليّ رجل له مظهر كهنوتي، أن يحصل لي على منحة موكدة، دون التقدم إلى امتحان القبول؛ وفي المدرسة التي أرغب فيها، مقابل دفع خمسين بيزو. كان المبلغ ثروة بالنسبة لي. ولكنني أظن أنني كنت سأدفعه، لو أنني أملكه، كي أجنب رعب الامتحان. وبعد بضعة أيام، تعرّضتُ على ذلك المحتال، في صورة منشورة في الجريدة، باعتباره زعيم عصاة نصايين يتكبرون بزي القساوسة، للقيام بصفقات غير مشروعة، في الأجهزة الرسمية.

لم أفرغ صندوق أمتعتي، ليقتني بأنهم سوف يرسلونني إلى أي مكان. وكان تشاومي راسخاً إلى حد أنني ذهبت، عشية الامتحان، مع موسيقيي السفينة، إلى حانة بانسة في حي لاس كرويس الوعر. وكنا نغني مقابل الشراب، بسعر أغنية لكل كأس من المشيششا. ذلك الشراب الرهيب من الذرة المخمرة، الذي يصغبه السكيرون الذواقة بالبارود. وهكذا وصلت متأخراً، إلى الامتحان. ورأسي ينض من الألم، دون أن أدري أين كنت، ولا حتى من الذي أوصلي إلى البيت، في الليلة السابقة. ولكنهم استقبلوني بدافع الشفقة، في صالة فسيحة ومزدحمة بالمتقدمين. وكان إلقاء نظرة عصفور سريعة على قائمة الأسئلة، كافياً لأن أدرك أنني مهزوم مسبقاً، لا محالة. ومن أجل إلهاء المراقبين فقط، شغلت نفسي بأسئلة العلوم الاجتماعية. وقد بدا لي أنها

الأقلّ قسوة. وفجأة أحسست بأن حالة إلهام تتلصصني. وتتيح لي ارتجال إجابات معقولة، وربما إعجازية موفقة. باستثناء أسئلة الرياضيات، التي لم تنفع لي كما يشاء الرب. أما امتحان الرسم الذي أجهزته بسرعة، إنما بصورة جيدة، فكان مصدر واثق. وقد قال لي زهلاتي الموسيقيون: "لا بد أنها معجزة شراب المشيششا". أنهيت الامتحان على أي حال. وأنا في حالة استسلام نهائي، مع التصميم على كتابة رسالة إلى أبوي، حول الحقوق والأسباب، كيلا أعود إلى البيت.

قمت بواجب المراجعة، لمعرفة النتائج. بعد انقضاء أسبوع. ولا بد أن الوظيفة قد تعرّفت على إشارة ما في إجاباتي، لأنها اقتادتني، دون مسوغ، إلى حيث مديرها. وجدته رائق المزاج، يرتدي قميصاً قصير الأكمام، ويضع حمالاتي سروال حمراوين مبهرجتين. راجع درجات امتحاني باهتمام احترافي، تردد مرة أو مرتين، ثم قرأ أخيراً، وقال لنفسه:

- ليس سيئاً. اللهم إلا في الرياضيات. ولكنك نجوت، بشعرة.

بفضل الدرجات الخمس في الرسم.

دفع نفسه إلى الوراء، في الكرسي ذي التوابض، وسألني عن المدرسة التي فكرتُ فيها.

كانت تلك إحدى لحظات رعيي التاريخية، ولكنني لم أتردد:

- مدرسة سان بارتولومي، هنا في بوغوتا.

فوضع راحته على كدسة أوراق موضوعة على مكتبه.

- كل هذه هي رسائل من الوزن الثقيل، توصي بأبناء أو أقرباء أو

أصدقاء، لفرزهم إلى مدارس هنا، في العاصمة - قال ذلك، ثم انتهى

إلى أنه ما كان عليه أن يقوله، فواصل:- إذا ما سمحت لي فسوف أساعدك. أفضل ما يناسبك هي المدرسة الوطنية في تيبالكيرا، على بُعد ساعة في القطار.

الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه عن تلك المدينة التاريخية، هو أن فيها مناجم ملح. وقد أوضح لي غوميث تامارا أن مدرستها تعود إلى العهد الاستعماري. وقد جرى الاستيلاء عليها، من جمعية دينية، في عملية إصلاح ليبرالي حديثة. وفيها الآن، قائمة بمنازلة من الأساتذة الشبان ذوي العقيلة الحديثة. فحُكِرَت في أن الواجب يفرض عليّ أن أخرج من شكوكه، فقلت له متنبهاً:

- ولكن والذي من المحافظين.

فقال:

- لا تأخذ الأمر بهذه الجدبة، فما أعنيه بليبرالي، هو سعة أفق

التفكير.

وسرعان ما استعاد أسلوبه الخاص، وقرر أن مصري سيكون في ذلك الدبر القديم الذي يرجع إلى القرن السابع عشر، والمتحول إلى مدرسة زنادقة، في فيلا حاملة، لا وجود فيها لأي وسيلة لهو سوى الدراسة. كان الدبر ينتصب، بالفعل، غير عائم بالأبدية. لقد كانت هناك، في مراحل الأولى، لوحة منحوتة في الحجر تقول: رأس الحكمة مخافة الله. ولكن هذا الشعار، استبدل، وحل محله الشعار الوطني الكولومبي، عندما أمت حكومة الرئيس ألفونسو لوبيث بوماريخو التعليم، سنة ١٩٣٦. ومنذ كنت في دهليز المدخل، وبينما أنا أستعيد أنفاسي من الاختناق بثقل الصندوق، أحسست بالانقباض، حين رأيت

الفناء الصغير ذا الأعمدة الكولونبالية المنحوتة من الحجر الصلد، والشرفات الخشبية المطلية بالأخضر، وعلى حواقيها أصص أزهار مجنبة. كل شيء كان يبدو خاضعاً لنظام طائفة دينية بعينها، ويلاحظ في كل شيء، بصورة واضحة، أنه لم يعرف تصاميم يدي امرأة منذ أكثر من ثلاثمئة سنة. داهمتني رعباً أنني سأعيش السنوات الأربع الخامسة من مراهقتي، في ذلك الزمن الراكن، وأنا الذي ترعرعت على سوء تربية فضاءات منطقة الكاريبي التي لا تخضع لقانون.

ما زلت حتى اليوم، لا أصدق أن طابقين، حول فناء ضامت، وبناءً مرجحاً آخر، من الحجر في قطعة الأرض القصوى، يمكن لها أن تتسع لمنزل ومكتب المدير، والسكرتير الإداري، والمطبخ، وقاعة الطعام، والمكتبة، وقاعات الدروس الست، ومخبر الفيزياء والكيمياء، والمستودع، والحمامات ودورات المياه، وقاعة النوم المشتركة ذات الأسرة الحديدية المتراكمة، لحوالي خمسين تلميذاً، جيء بهم جرجرة، من أشد ضواحي البلاد غناً، وقلة قليلة من أبناء العاصمة. ولحسن الحظ أن شرط المنفى ذاك، كان نعمة أخرى لتجمي الطبيب. فقد عرفت بفضلها، جيداً وسريعاً، كيف هي البلاد التي كانت من نصيب في قُرعة العالم. فمع نصف ديانة الكاريبيين الذين تبوؤني، كواحد منهم، منذ وصولي، وتبشيتهم أنا أيضاً بالطبع، كنا نقوم بتمييز لا مناص منه، بيننا وبين الآخرين: أبناء العاصمة والغرباء.

مختلف الجماعات الموزعة في أركان الفناء، منذ استراحة الليلة الأولى، كانوا نموذجاً غنياً يمثل الأمة. لم تكن هناك خصوصيات مادام كل واحد في ميده. وكانت علاقتي المباشرة مع المتحدرين من ساحل

الكاريبي. نحن كنا مشهورين، عن جدارة، بأننا صاخبون، متعصبون لتضامن الجماعة، ومولعون بالرقص. وقد كنتُ استثناءً من تلك القاعدة. ولكن أنطونيو مارتينث سبيرا، وهو راقص رومبا، من كارتاخينا، علمني الرقصات الرائجة، خلال الاستراحات الليلية، وكذلك فعل ريكاردو غوثالث ريبول، شريك الكبر في إبحارتي السرية، الذي صار مهندساً معمارياً منهوراً. ولكنه لم يقطع، مع ذلك قط، الأغنية التي يغنن بها من بين أسنانه، بصوت لا يكاد يكون مسموعاً، وظل يرقص وحيداً حتى آخر أيامه.

مبنتشو بوغوس، عازف البيانو الفطري، الذي توصل إلى أن يكون مايسترو أوركسترا وطنية للرقص، أسس فريق غناء المدرسة، ورغب في أن أتعلم معهم العزف على آلة موسيقية ما. وقد علمني سرُ الصوت الثاني في غناء البوليرو وأغنيات الفانباتو. ومع ذلك، فإن ما أثرته الكبري هي تدريب غييرمو لوبيث غيراً، البوغوتي الصافي، على الفن الكاريبي، في عزف الرمز الموسيقية، وهي مسألة ثلاثة اثنين، ثلاثة اثنين.

أما هومبيرتو خاميس، فكان دارساً مجتهداً لم يهتم بالرقص قط. بضحي بعطلات نهاية الأسبوع، ويظل يدرس في المدرسة. وأظن أنه لم يرق قط، كرة قدم ولم يقرأ وصفاً لأي نوع من المباريات الرياضية. إلى أن تخرج مهندساً في بوغوتا، ودخل جريدة التسميو، كمحرر رياضي متدرب، حيث توصل إلى أن يكون واحداً من أفضل معلقين كرة القدم في البلاد. ولكن أغرب حالة أتذكرها، هي دون شك، حالة سيلفيو لونا، وهو أسمر داكن من تشوكو، تخرج محامياً، ثم بعد ذلك طبيباً،

وكان يستعد لبدء دراسة ثالثة، عندما توارى عن نظري، ولم أعد أراه. دانييل روثو - باغوثيو - تصرف على الدوام، كعالم في كل ميادين العلوم الإنسانية واللاهوتية. وكان ينفق منها دون حساب، في الدروس والاستراحات. وكنا نلجأ إليه على الدوام، ليطلعنا على أحوال العالم، خلال الحرب العالمية التي كنا نتابعها بعض المتابعة، من خلال الإذاعات. إذ لم يكن مسموحاً بدخول الصحف أو المجلات بانتظام، إلى المدرسة. أما المذيع، فلم يكن نستخدمه إلا للرقص، كل واحد منا يرقص مع زميل آخر. ولم يُتبع لنا قط، أن نعرف من أين يأتي باغوثيو بمعاركه التاريخية التي يخرج منها الحلقاء منتصرين، دوماً.

ربما كان سيرخيو كاسترو - دي كيشاسي - أفضل تلميذ في كل سنوات المدرسة. وقد أحرز، دوماً، أعلى الدرجات منذ دخوله. ويبدو لي أن سره هو نفسه الذي نصحتني به مارتينا قونسيسكا، في مدرسة سان خوسيه: لم يكن يضيع كلمة واحدة من المعلم أو من مداخلات زملائه في الدروس. ويدون ملاحظات حتى عن أنفاس الأساتذة، ويرتبها في دفتر متقن. وربما هذا هو السبب في أنه لم يكن يحتاج إلى وقت، لكي يحضر لامتحانات. وقرأ كتب المغامرات، في عطلة نهاية الأسبوع، بينما نحن الآخرين، نقضي أنفسنا في الدراسة.

أكثر أصدقائي مواظبة في الاستراحات، هو البوغوتي المحالص ألفاؤو رويث توريس الذي كان يتبادل معي الأخبار اليومية عن الخطيبات في الاستراحة الليلية، بينما نحن نمشي بخطوات عسكرية في الفناء. ومن الأصدقاء الآخرين، خامي براقو، وهومبيرتو غيبين، وألفارو بيدال بارون، الذين كنتُ على علاقة جيدة بهم في المدرسة، وواصلنا

اللقاء معاً، طوال سنوات في الحياة الواقعية، كان ألفارو رويث يذهب إلى مونغوتا، في نهاية كل أسبوع، لزيارة أسرته. ويرجع عموماً بالسجائر وأخبار الخطيبات. وكان هو من شجعتني على إدمان هذين الأمرين. خلال الوقت الذي درسنا فيه معاً، ومن أهدى إليّ في هاتين السنتين الأخيرتين، أفضل ذكرياته، لينعش في ذاكرتي هذه المذكرات.

لست أدري ما الذي تعلمته في الواقع، خلال السجن في ذلك المعهد الوطني. ولكن أربع سنوات من المعيشة حسنة الانسجام مع الجميع، ألهمتني رؤية لوحدة الأمة. واكتشفت كم كنا متعددين، وما هي قناعاتنا. وتعلمت ما لن أنساه أبداً، بأنه في جوهر كل واحد منا، توجد البلاد بأسرها. وربما كان هذا هو ما أرادوا قوله لي في الوزارة، حول التفتلات، بين المناطق التي ترعاها الحكومة. وبعد أن بلغت سن النضج، دُعيت إلى كابينة قيادة طائرة عمارة للمحيط. وكانت أول كلمات وجهها إليّ كابينة الطائرة، هي سؤالني من أين أنا. وقد كان سماعي لتلك الكلمات، كافياً لأن أقول له:

- إنني ساحلي. يقدر ما أنته سوغسوموسي.

فقد كان له الأسلوب نفسه، والإيماءات نفسها، ومادة الصوت نفسها التي لماركو فيدل بوناً، زميلي في مقعد السنة الرابعة، في تلك المدرسة. ضربة الحدس تلك، علمتني الإبحار في مستنقعات ذلك المجتمع الذي لا يمكن توقع مفاجآته، حتى وأنا بلا بوصلة ويعكس التيار. وربما كانت مفتاحاً يفتح كل الأبواب في مهنتي، ككاتب.

كنت أشعر كما لو أنني أعيش حلماً. ذلك أنني لم أكن أنطلع إلى المنحة، لأنني أريد الدراسة. وإنما، من أجل الحفاظ على استقلالي عن

أي التزام آخر، دون الإساءة إلى علاقتي بالأسرة. ووجود ثلاث وجبات مضمونة، يكفي لافتراض أننا كنا نعيش في ملاذ الفقراء ذاك، أفضل من الحياة في مونتانا، تحت رقابة ذاتية أقل صرامة من السلطة المنزلية. كان يسود قاعة الطعام نظام سوق يتيح لكل واحد منا، ترتيب الوجبة على هواه. دون أن تكون للنفود أي قبضة. فقد كانت بيضتا الفطور المسلوقتان هما العملة التسعيرية، إذ يمكن بهما، شراء أي طبق آخر من الوجبات الثلاث. وكان لكل شيء قيمته العادلة، ولم يكن هناك ما يعكّر تلك التجارة الشرعية. بل أكثر من ذلك؛ فأنا لا أذكر نزاعاً واحداً بلغ حد تبادل اللكمات، لأي سبب، خلال أربع سنوات من الدراسة الداخلية.

ولم يكن المعلمون الذين يأكلون على سائدة أخرى، في القاعة نفسها، يعيدون عن تلك المقايضات الشخصية، فيما بينهم. لأنهم ما زالوا يجربون عادات مدارسهم التي تخرجوا منها حديثاً. وكان معظمهم عازين، يعيشون هناك بلا زوجات. وروايتهم ضئيلة، مثل المبالغ الشهيرة التي ترسلها لنا أسرنا، تقريباً. فكانوا يشكون من الطعام، لأسباب كثيرة مثلاً. وفي إحدى الأزمات الحظرة، اقتربتنا من إمكانية التوافق مع بعضهم، على إضراب عن الطعام. ولكنهم عندما كانوا يملقون هدايا، أو يستقبلون زائرين من الخارج فقط، تُقدم لهم بأطباق ملهمة، مما يفسد المساواة. وكان هذا ما حدث. ونحن في السنة الرابعة، عندما وعدنا طبيب المدرسة بإحضار قلب جاموس، لدراسته في دورة التشريح التي يشرف عليها. وفي اليوم التالي، أرسل القلب إلى ثلاثيات المطبخ، وهو لا يزال طازجاً ودامياً. ولكننا لم نجد هناك عندما

فهنا لإحضاره للدرس، ثم تبين، في اللحظة الأخيرة، أن الطبيب، عندما لم يجد قلب جاموس، أرسل قلب عامل بناه بلا أهل، سقط مهشماً من طابق رابع. ونظراً لأن القلب لا يكتفي للجميع، قام الطهارة بإعادته مع صلصات، شهية معتقدين أنه قلب الجاموس الذي طلب منهم ظهوره لمائدة الأساتذة. أظن أن تلك العلاقات المتدفقة، بين الأساتذة والطلاب، كانت مرتبطة بحركة إصلاح التعليم التي لم يبق منها إلا القليل للتاريخ. ولكنها أضافت على الأقل، في تبسيط البروتوكول، فنقلت الفوارق في السن، وأهمل استخدام ربطه العنق، ولم يعد هناك من يصاب بالذعر، لأن المعلمين والطلاب يتناولون بضعة كؤوس صغاً، ويذهبون، في أيام السبت، إلى الرقص، مع الخطيبات معاً.

هذا الجو، لم يكن ممكناً، إلا مع نوع من المعلمين يسمحون، عموماً، بعلاقة شخصية سلسلة. فاستاذ الرياضيات، بسعة معارفه وحس سخريته اللاذع، يحول درس إلى حفلة مخيفة، كان يدعى خواكين خيرالدو سانتا، وهو أول كولومبي حصل على درجة دكتوراه في الرياضيات. ومن سوء حظي، رغم جهودي وجهوده الجبارة، لم أتوصل قط، إلى الاندماج بدرسه، كان من عاداته القول آنذاك، إن الميول الشعرية تتداخل مع الرياضيات، وإن الأمر لا ينتهي بأحدنا، إلى تصديق ذلك وحسب، وإنما الغرق فيه. وربما كانت الهندسة أكثر رحمة، بفعل وفضل سمعتها الأدبية. أما الحساب، بالمقابل، فيتصرف بتبسيط عدائي. وأنا ما زلت أجد نفسي حتى اليوم، عندما أريد إجراء عملية جمع ذهنية، مضطراً إلى تفكيك الأعداد، إلى أبسط مكوناتها، وبخاصة السبعة والتسعة، اللذين لم أستطع حفظ جدولهما قط، ولكي

أجمع سبعة وأربعة، أحذف اثنين من السبعة، وأجمع الأربعة إلى خمسة المتبقية، ثم أعود أخيراً، لجمع الاثنين المتبقين من السبعة: "أحد عشراً". أما عمليات الضرب، فبقيت تخونني دوماً، لأنني لم أستطع قط، تذكر الأعداد التي في ذاكرتي. وقد كرست للجبر، أفضل ما لدي من حماس، ليس احتراماً لروحه الكلاسيكية وحسب، وإنما حباً تعليمي وخوفاً منه، ولكن دون جدوى، فقد كانوا يوبخونني في كل فصل دراسي، وقد تأملت فيه مرتين، وخسرت في محاولات أخرى غير مشروعة، فكانوا ينجحوني النجاح فيه، كصدفة.

لثلاثة معلمين آخرين متفانين هم تعلموا اللغات. الأول - معلم الإنكليزية - هو مستر أبيلا: كاربي صاف، ينطق أوكسفوردي مثقن، وغيره كنسبة تجاه معجم ويستز الذي كان يتلوه، وهو مخمض العينين، وكان خليفته هو هيكتور فيغيروا، معلم شاب طيب، لديه هوي محموم بأغنيات البوليرو التي كنا نغنيها بأصوات متعددة في الاستراحات. لقد بذلت أفضل ما أستطيعه، في سيات الدروس وفي الامتحان النهائي، ولكنني أظن أن درجتي الجيدة لم تكن بفضل شكسبير، بقدر ما هي بفضل امغثي البوليروا ليو ماريني وهوغو روماني، المسؤولين عن الكثير من فرايس الحب واتسجاراته، أما معلم اللغة الفرنسية، طوال أربع سنوات: المستيور أنطونيو بيلا ألبان، فوجدني مسمماً بالروايات البوليسية، وكانت دروسه تضجرتي، كما هي دروس الآخرين جميعهم، ولكن اقتباساته المناسبة من فرنسية الشوارع، ساعدتني كثيراً، في النجاة من الموت جوعاً في باريس، بعد عشر سنوات من ذلك.

معظم المعلمين كانوا قد تكوّنوا في دار المعلمين العليا، بإدارة

الدكتور خوسيه فرانثيسكو سوكاراس، وهو عالم نفس من سان خوان دي سيسر، عكف على تغيير التربية الكهنوتية التي سادت، طوال قرن من الحكومات المحافظة، ليُحلَّ محلها تربية عقلانية إنسانية. فكان مانويل كوينو دل ريو، ماركسياً واديبكالياً. وربما لهذا السبب نفسه، كان يُقدَّر لئن بوتانغ، ويؤمن بظهور الموتى. وكانت مكتبة كارلوس كالدبيرون، التي تنصدها أعمال ابن بلدته خوسيه إوستاسيو ريفيرا، مؤلف رواية "الدوام"، موزعة بالتساوي، بين الكلاسيكيين الإغريق، والشعراء "المحجر سماويين" المحليين، ورومنسي كل الأنحاء. ويغضل هؤلاء. وأولئك، كنا نحن القراء القليلين المواطنين، نقرأ سان خوان دي لافروث أو خوسيه ماري بارغاس بيلا. ولكننا كنا نقرأ كذلك، مؤلفات وصل الثورة البروليتارية. فاستاذ العلوم الاجتماعية غونزالو أوكامبو، كان يملك في غرفته، مكتبة سياسية جيدة، يجري تداولها دون توايا خبيثة، في قاعات درس التلاميذ الكبار. ولكنني لم أفهم قط، لماذا كنا ندرس "أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة" لغريديك إنجلس، في أصيبت الاقتصاد السياسي الجافة، وليس في دروس الأدب، باعتبارها ملحة مغامرة إنسانية جميلة. لقد قرأ غييرمو لوبيث غيراً، في الاستراحات، كتاب "أنثى دوهرف" لإنجلس أيضاً. وكان قد استعاره من الاستاذ غونزالو أوكامبو. ومع ذلك، عندهما طليعت استعارته، لكي أتناقش فيه مع لوبيث غيراً، قال لي أوكامبو إنه لن يقدم لي هذا الجميل البغيض، بإعارتي ذلك المجلد الضخم والأساسي لتقدم الإنسانية، إنما الطويل والممل جداً إلى حد، ربما سيحول دون دخوله التاريخ. وربما أسهمت تلك المبادلات الأيديولوجية بسوء سمعة المعهد. واعتباره مخبر إقتصاد

سياسي. ومع ذلك، فقد احتجت لنصف حياة لكي أنتبه إلى أنها كانت أقرب إلى تجربة عفوية وتلقائية، لاستبعاد الضعفاء، وتلقيح الأقوياء. ضد أي نوع من الدوغمانية.

علاقتي الأكثر مباشرة كانت دوماً مع الأستاذ كارلوس خوليو كالدبيرون، معلم اللغة القشتالية في السنوات الأولى، ومعلم الأدب العالمي في السنة الرابعة، والأدب الإسباني في السنة الخامسة، والأدب الكولومبي في السنة السادسة، ومعلم شيء غريب عن تكوينه وعن ذوقه: المحاسبة. لقد ولد في نيفيا، عاصمة إقليم هويلا، ولم يكن يتعب من الإعلان عن تقديره الوطني للكاتب خوسيه إوستاسيو ريفيرا. وقد اضطر إلى قطع دراسة الطب والجراحة. وكان يتذكر ذلك على أنه إحباط حياته، ولكن شغفه بالفنون والآداب كان جارفاً. وقد كان أول معلم ينسف مسوداتي بملاحظات وتوجيهاته المناسبة.

وعلى أي حال، كانت العلاقة بين التلاميذ والمعلمين، تجري بطبيعية استثنائية، ليس في الدروس وحسب، وإنما في فناء الاستراحة، بعد العشاء بصورة خاصة. فكان ذلك يتيح تعاضلاً مختلفاً عن الذي اعتدنا عليه، ومواتياً بكل تأكيد لأجواء الاحترام والرفاقية التي كنا نعيشها. إنني مدين بإحدى المقامرات المرحبة لأعمال فرويد الكاملة، التي وصلت إلى المكتبة آنذاك. لم أكن أفهم، بكل تأكيد، شيئاً من تحليلاته العويصة. ولكن عرضه للحالات السريرية كان يحبس أنفاسي حتى النهاية، مثل خيال جول فيرن، طلب منا المعلم كالدبيرون أن نكتب قصة قصيرة بموضوع حر، في حصة اللغة القشتالية. وخطرت لي قصة مريضة نفسية في حوالى السابعة من عمرها ويعنون مدع، يمضي في اتجاه

معاكس للشعرة "عقدة نفسية هاجسية". طلب المعلم قراءة القصة في الدرس. واستنكر جاري في المقعد، أوريليو بيريرو، دون لمحفظ، غرور الكتابة دون أدنى تكوين علمي أو أدبي حول تلك المسألة بالغة التعقيد. فأوضحت له، بحقد أكثر من التواضع، بأنني أخذت الموضوع من حالة سريرية يصفها فرويد في مذكراته، وأن همي الوحيد هو استخدامها لكتابة الواجب المدرسي. وربما ظن المعلم كالديرون بأنني سأخط من الانتقادات القاسية التي وجهها عدد من زملائي في الصف، فاستدعاني جانباً، في الاستراحة، ليشجعني على المواصللة قدماً. في الطريق نفسه. وأشار إلى أنه يبدو جلياً في قصتي، أنني أجهل تقنيات القصة الحديثة. ولكنني أمتلك مع ذلك، الفطرة والرغبة. ورأى أن القصة مكتوبة جيداً، وينوياً أصيلة على الأقل. وقد حدثني لأول مرة، عن البلاغة. قدم لي بعض الحيل العملية في الأسلوب والتنظيم. لتثبيت الأمور، دون مزاعم وأدعاءات. وانتهى إلى القول إنه عليّ في كل الأحوال، أن أتاير على الكتابة، ولو من أجل صحتي الذهنية وحسب. وكانت تلك هي أولى المحادثات المطولة التي دارت بيننا، خلال سنواتي في المعهد، في الاستراحات وفي ساعات الفراغ الأخرى. وأدين لها بالكثير في حياتي، ممكاتها.

لقد كان ذلك هو جوي المثالي. فترة مدرسة سان خوسيه. تجلّز لديّ إدمان قراة كل ما يقع بين يدي، وصرتُ أصغل وقت فراغي وكل وقت الدروس تقريباً، في القراءة. وفي السادسة عشرة من عمري، كنت قادراً، بنطق إسلاني سليم أو من دونه، على ترديد القصائد التي تعلمتها في مدرسة سان خوسيه، دون أن ألتقط أنفاسي. كنت أقرأها

وأعيد قراءتها، دون مساعدة أو ترتيب، وخفية في معظم الأحيان خلال الدروس. أظن أنني قرأت كامل مكتبة المعهد التي لا يمكن وصفها، والمؤلفة من فضلات مكاتب أخرى قليلة الجدوى؛ مجموعات كتب رسمية، وصيرات أساتذة قعدوا الشهبة إلى القراءة، وكتب لا ريب في أنها وصلت إلى الشاطئ من سفينة غارقة لم يدر بها أحد. لا يمكنني أن أنسى مجموعة "المكتبة الريقية" التي أصدرتها دار نشر ميتيرفا، بإشراف دون دانييل سامير أورتيغا، ووزعتها وزارة التربية على المدارس والمعاهد. لقد كانت مجموعة من مئة مجلد، تضم كل ما هو جيد، وأسوأ ما كتب في كولومبيا حتى ذلك الحين. فقررت قراءتها، وفق تسلسلها الرقمي، إلى حيث سمحت به وحي. والأمر الذي ما زال يرغيني حتى الآن، هو أنني كنت على وشك الانتهاء منها، خلال السفينتين الأخيرتين. ولم أستطع خلال حياتي التالية، أن أحسم إذا ما كانت قد أفادتني في شيء.

الفجر في قاعة النوم، كان له شبه مريب بالسعادة، لولا الجرس القاتل الذي يرن كناقوس خطر - مثلما اعتدنا أن نقول - في الساعة السادسة من منتصف الليل. وكان اثنان أو ثلاثة من المتخلفين ذهياً فقط هم الذين يقفزون من أسرهم، ليكوئوا الأوائل في الدور، على دوشات الماء الجليدي الستة، في حمام قاعة النوم. أما نحن البقية، فكنا نستغل الفرصة، لعصر آخر قطرات النعاس، إلى أن يأتي المعلم المناوب ويوجب القاعة، منتزعاً البطانيات عن النائمين. لقد كانت ساعة ونصف الساعة من الحبسية المكشوفة، من أجل ترتيب الفراش، وتلميع الأحذية، والاستحمام بدوش الجليد الذائب الذي يسيل من أنبوب دون

فرشة، بينما كل واحد منا يُفْرُجُ عن إحيائاته صارخاً، ويسخر من الآخرين، فتنتهك أسرار غرامية، وتعقد صفقات ومماحكات، وتبرم المقايضات التي ستتم في قاعة الطعام، وكان موضوع المناقشات الصباحية الدائم، هو الفصل الذي قُرِيء في الليلة السابقة.

كان غيبرمو غراتاداس يطلق العنان، منذ الفجر، لمزاياه، كمغني تينور. في الشدو بقائمه غير المتناهية من أغنيات التانغو. وكثت أشكل ثنائياً مع جاري في قاعة النوم، ويكاردو غونثالث وبيول، لغناء أغنيات الغواراتشا الكاريبية، على إيقاع الحرقرة، أثناء تلميع أحذيتنا، عند رأس السرير. بينما زميلي ساباس كارايو يذرع قاعة النوم، من أقصاها إلى أقصاها، مثلما ولدته أمه، وهو يعلق منشقة على عضوه الذي من الإسفنت المسلح.

لو كان ممكناً، لهرب عدد لا بأس به منا، نحن الداخلين، حتى الفجر، لإنجاز مواعيد متفق عليها في نهاية الأسبوع. لم يكن هناك حراس ليليون، ولا أساتذة في قاعة النوم، باستثناء الأستاذ الأسبوعي المناوب، وبواب المعهد الأيدي، وبغيرتنا الذي كان في الواقع، يتنام مستيقظاً، طوال الوقت، بينما هو يتجز واجباته اليومية. لقد كان يعيش في الحجرة التي عند المدخل، ويقوم بمهنته على أحسن وجه، ولكننا كنا نتمكن في الليل، من قنق باب الكنيسة الهائل، وإغلاقه دون ضجة، والاستمتاع طيلة الليل في بيت غريب، والعودة قبيل الفجر، عبر الشوارع الجليدية. ولم نعرف قط، إذا ما كان ريفيرتا يتنام حقاً كالميت، مثلما كان يبدو، أم أن تلك هي طريقته المهدبة في التواطؤ مع قتيانه. لم يكن عدد من يهربون كبيراً، وكانت أسرارهم تتعفن في ذاكرة

زملاتهم المتواطئين معهم بإخلاص. لقد عرفت بعض من كانوا يهربون بصورة روتينية، وآخرين يتجرون على الذهب، مرة، متسلحين بالشجاعة التي يبشها توتر المغامرة، ويرجعون مستنفذين من الرعب، ولكننا لم نعلم قط أن هناك من انكشف أمره.

العائق الاجتماعي الوحيد الذي عانيت منه في المدرسة، هو الكوابيس المشؤومة التي ورثتها عن أمي، والتي كانت تبرز فجأة، في أحلام الآخرين، على شكل صرخات من وراء القبر. جيرانني في الأسرة، كانوا يعرفونها جيداً، ولا يخشونها، إلا بسبب رعب الصرخة الأولى في هدأة الفجر. وكان المعلم المناوب الذي يتنام في قمرة من الكرتون، يتجول سرعاً، من أقصى قاعة النوم إلى أقصاها، إلى أن يمتدب الهدوء من جديد. لم تكن أحلاماً لا يمكن التحكم بها وحسب، وإنما كانت لها علاقة كذلك بعذاب الضمير، لأنها جرت لي في مناسبتين، في بيوت التهنك والضلال. ولم يكن بالإمكان حل رموزها أيضاً، لأنها لم تكن ترد في أحلام مرعبة، وإنما على العكس من ذلك، في سياق أحداث سعيدة، مع أشخاص معروفين أو في أماكن مألوفة. وسرعان ما تكشف لي نظرة بريشة عن تفصيل مشؤوم. ولم يكن بالإمكان، مقارنة كابوسي بأحد كوابيس أمي، حين كانت ترى رأسها موضوعاً في حفنها، وهي تقلبه من القفل والصنبان التي لا تتيح لها النوم. ولم تكن صرخاتي صرخات رعب، وإنما نداءات استغاثة، لكي يُحسن أحد إليّ ويرقطني. ولم يكن هناك في قاعة النوم منسج لأي تعفن في الكابوس، لأن الوسائد كانت تنهمر على، عند أول أنف، منطلقاً من الأسرة المجاورة. فاستيقظ لاهثاً، ويقلب مضطرب، إنما سعيد لكوني ما أزال حياً.

أفضل ما في المعهد، هو القراءات بصوت عالٍ، قبل النوم. كنا قد بدأنا تلك القراءات، بمبادرة من الأستاذ كارلوس خوليو كالديرون، ويقصه لمارك توين، يتوجب على تلاميذ السنة الخامسة قراءتها من أجل امتحان مستعجل، في الساعة الأولى من صباح اليوم التالي. قرأ الأستاذ الصفحات الأربع بصوت عالٍ، من حجرته المفضولة بحاجز من الكرتون، لكي يتمكن التلاميذ الذين لم يتوفر لهم الوقت لقراءتها، من تدوين ملاحظات عنها. وكان الاهتمام كبيراً، إلى حد فرضت معه تلك العادة بالقراءة بصوت عالٍ، نفسها كل ليلة، قبل النوم. لم يكن الأمر سهلاً في البداية، لأن أستاذنا منافقاً اقترح الانتقائية في اختيار الكتب التي ستقرأ، وتهذيبها من الكلام الفاجر. ولكن خطر وقوع قمره، دفعهم إلى تفويض التلاميذ الكبار، بمهمة الاختيار.

بدأت القراءات، بنصف ساعة كل يوم. فكان الأستاذ المناوب يقرأ من حجرته جيدة الإضاءة الموجودة عند مدخل قاعة النوم العامة، وكنا في أول الأمر، نُسكته بشخير ساخر، حقيقي أو متصنع، ولكنه يستحقه دوماً. ثم امتد وقت القراءة فيما بعد، إلى ساعة، حسب أهمية القصة. وبدأ الطلاب يحلون محل الأساتذة، في مناقشات أسبوعية. وقد بدأت الأرملة الطيبة، عند قراءة "نوستراداموس" و"ذو القناع الحديدي"، التي أعجبت الجميع. أما ما لم أستطع تفسيره حتى الآن، فهو النجاح المدوي الذي لقيته رواية "الجبل السحري" لتوماس مان، والتي تطلبت تدخل المدير، لمنعنا من قضاء الليل مستيقظين، بانتظار قبلة هانز كاستروب وكلوديا تشاوشات، أو ترقينا القريد جسيمننا، ونحن جالسون في الأسرة، كيلا نضيع كلمة واحدة من المأزعة الفلسفية المهمة، بين نابشا

وصديقها سيمبريني. وقد استمرت القراءة، في تلك الليلة، أكثر من ساعة. واحتُفي بها في قاعة النوم، بعاصفة من التصفيق.

المعلم الوحيد الذي ظل واحدة من أكبر الأحجيات في شبابي، هو المدير الذي وجدته هناك، عند وصولي. كان اسمه أليخاندرو راموس، وكان قظاً ومتوحداً. يضع نظارة ذات زجاج سميك، تبدو كأنها نظارة آعمرى. وله سلطة غير استعراضية، تُثقل عليها كل كلمة ينطق بها، مثل لكمة حديدية. كان ينزل من ملجئه في الساعة صباحاً، لتفتيش على نظافتنا الشخصية، قبل دخولنا إلى قاعة الطعام. وكان يرتدي ملابس لا تشوبها شائبة، ذات ألوان زاهية، وياقة منشطة كأنها من السيلولويد مع ربطة عنق بهيجة، وحذاء لامع، وكان يسجل أي خطأ في نظافتنا الشخصية، بزمجرة تعتبر أمراً بالعودة إلى قاعة النوم، لتصحيح الخطأ. أما خلال بقية اليوم، فيعتكف في مكتبه في الطابق الثاني، ولا يعود لرويته حتى صباح اليوم التالي، في الساعة نفسها، أو حين يخطو الانتي عشرة خطوات، بين مكتبه وقاعة الستة السادسة، حيث يعطي درسه الوحيد في الرياضيات، ثلاث مرات في الأسبوع. وكان تلاميذه يقولون إنه عبقري في الأرقام، ومرح في الدروس، وإنه يذهلهم بحكمته، ويبعث فيهم الرعدة، من رعب الامتحان النهائي.

بعد وقت قصير من مجيئي، كان علي أن أكتب الخطاب الافتتاحي، لأحد احتفالات المعهد الرسمية. وقد وافق معظم المعلمين على موضوعي. ولكنهم اتفقوا جميعهم على أن الكلمة الأخيرة في مثل هذه الحالات، تبقى للمدير. كان يقيم في أقصى المدرسة، في الطابق الثاني. ولكنني عانيت من تلك المسافة، كما لو أنها رحلة حول العالم سيراً على الأقدام.

كنتُ قد غُتُ بصورة سيئة، في تلك الليلة، ووضعت وبطة عنق أيام الأحاد، ولم أكد أتكن من تذوق الفطور. طرقتُ طوقاً خفيفاً جداً على باب الإدارة الذي لم يفتحه لي المدير، إلا بعد الطرق للمرة الثالثة. وأنسح لي الطريق للدخول دون أن يجيبني، وكان ذلك من حسن حظي، لأنني ما كنت سأجد صوتاً للرد عليه. ليس بسبب جفاته وحسب، وإنما بسبب مهابة وترتيب وجمال مكتبه ذي الأثاث المصنوع من أخشاب ثمينة ومخمل، وجدرانه المغطاة بخزائن مذهلة تضم كتباً ذات أغلفة جلدية. انتظر المدير، يتسهل رسمي، إلى أن استعدت أنفاسي. ثم أشار إلى بالجلوس على كرسي، قبالة متضدة مكتبه، وجلس هو على مقعده. كنت قد هياتُ توضيحاً لسبب زيارتي، بالاهتمام نفسه الذي أعددت به الخطبة. استمع إليّ بصمت، ووافق على كل كلمة بحركة من رأسه. ولكن دون أن ينظر إليّ، وإنما إلى الورقة التي ترتجف في يدي. وعند نقطة كنت أظنها مضحكة، حاولت أن أقوِّز منه بابتسامة، ولكن دون جدوى. بل أكثر من ذلك: فأنا والحق من أنه كان مطلعاً، مسبقاً، على هدف زيارتي. ولكنه أجبرني على توضيحه له.

وعندما انتهيت، مدَّ يده من فوق المتضدة، وتلقى الورقة مني. نزع نظارته، ليقرأها باهتمام عميق. ولم يتوقف إلا لإجراء تصويين اثنين، يرشنة الكتابة. ثم أعاد وضع نظارته، وحدثنني دون أن ينظر إلى عيني، بصوت جهوري هز قلبي، قال لي:

- توجد هنا غلطان. فقد كتبت: "كما السجام نباتات بلادنا الوفيرة، التي عرك بها العالم الإسباني خمسه ثيلستينو موتيس، في القرن الثامن عشر، تعيش في هذا المعهد، أجواء

فردوسية". ولكن كلمة وفيرة (exuberante) تُكتب من دون الحرف h، وكلمة فردوسية (paradisiaco) لا تحتاج إلى علامة التشديد فوق الحرف i. أحسست بالملل، ولم أجد جواباً أرد به على ملاحظته، عن الكلمة الأولى، ولكن ثم يكن يخامرني أدنى شك، بالنسبة إلى الكلمة الثانية، فأجيت على الفور بما تبقى لي من صوت:

- عقرأ أيها السيد المدير، المعجم يورد كلمة فردوسية (paradisiaco) بالتشديد ومن دونه. ولكن نبرة التشديد بدت لي أقوى وقعاً.

لا بد أنه أحس بأنه قد اعتدى عليه، مثلما أحسست أنا. ذلك أنه وأصل عدم النظر إليّ، وهو يتناول المعجم من خزانة الكتب، دون أن يقول كلمة واحدة، انقبض قلبي، لأنه كان معيجم أطلس الذي أهداني إياه جدي. إنما جديد ولا مع، وربما لم يستخف من قبل. ومنذ المحاولة الأولى، فتح الكتاب على الصفحة المطلوبة بالضبط. قرأ وأعاد قراءة المادة، ثم سألتني دون أن يرفع بصره عن الصفحة:

- في أي سنة أنت؟

فقلت له:

- في الثالثة.

أطبق المعجم بضربة قوية، كأنها انطباق فخ، ونظر إلى عيني، أول مرة، وقال:

- براقو. استمر على هذا النحو.

ولم يتقصني، في ذلك اليوم، سوى أن يتادي بي زملائي في الصف، بطلاً. ويدؤوا يسلموني، بكل ما يمكن من سخرية "الساحلي الذي تكلم إلى المدير". ومع ذلك، فإن أكثر ما أثر بي في تلك المقابلة،

هو مواجهتي، مرة أخرى، للأساني الشخصية مع الإملاء. فأنا لم أستطع فهمه، وقد حاول أحد أساتذتي أن يوجه إليّ الضربة القاضية، عندما قال لي إن سيمون بوليفار لا يستحق كل تلك الأمجاد، بسبب أخطائه الإملائية. بينما حاول آخرون مواساتي بالقول إنه داء يصيب كثيرين، وحتى اليوم، بعد أن صار لي سبعة عشر كتاباً منشوراً، ما زال مصححو تجاربي المطبعة، يشرفوني بكياسة تصويب أخطائي الإملائية، على أنها مجرد أخطاء مطيعة.

الحفلات الاجتماعية في نيباكيرا تناسب عموماً، مع ميول وأسلوب كل فرد. فمناجم الملح التي وجدها الإسبان مكشوفة هناك، كانت عامل جذب سياحي. في عطل نهاية الأسبوع، تستكمل مع اللعم في القرن والبطاطا المشلجة، في مراحل صلح شخصية، وكنا، نحن التلاميذ الداخليين الساحليين، بشهرتنا المستحقة كصاخبين ومشاغبين، نستمع بحسن التريسة في الرقص، كغنائين على الموسيقى الدارجة، وبالذوق السليم، في الحب حتى الموت.

توصلتُ إلى أن أكون منطوعاً في كل شيء، إلى حد أنه في اليوم الذي علمنا فيه بانتهاج الحرب العالمية، خرجنا إلى الشوارع، في مظاهرة ابتهاج ترفع الأعلام واللافتات، وتطلق عتافات النصر. وعندما طلب أحدهم، منطوعاً لإلقاء الخطاب، خرجت دون تفكير في الأمر، إلى شرفة النادي الاجتماعي، قبالة الساحة الكبرى، وأرسلتُ الخطاب بصرخات مدوية، بدا للكثيرين أنني أحفظه عن ظهر قلب.

كان ذلك هو الخطاب الوحيد الذي وجدت نفسي مضطراً إلى ارتجاله في السبعين سنة الأولى من حياتي. وأنهيت خطابي بامتداح غنائي لكل

واحد من الأربعة الكبار. ولكن الذي لفت الانتباه في الساحة، هو امتداح رئيس الولايات المتحدة، وكان قد توفي قبل ذلك بقليل: "قرانكلن ديلاو ووفلت الذي يعرف، مثل السيد المتحول، كيف يكسب المعارك بعد موته". بقيت العبارة تطفو في المدينة لعدة أيام، وجرى استنساخها في لافتات الشوارع، وعلى صور روزفلت، في واجهات بعض المتاجر. وهكذا، فإن أول نجاح شعبي لي، لم يكن باعتباري شاعراً ولا روائياً، وإنما كخطيب، بل أسوأ من ذلك: كخطيب سياسي. ومنذ ذلك الحين لم يعد يقام احتفال في المعهد إلا ويطلبون مني الصعود إلى شرفة المنصة. غير أنها صارت، عندئذ، خطابات مكتوبة، ومصححة حتى النفس الأخير.

وقد أفادني ذلك الاستهتار، مع مرور الوقت، بإصابتني برغبة مسرحي أوصلي إلى حد الصمت المطلق، سواء في حفلات الزفاف الكبرى أو في حانات عامة الهندو ذوي صنادل القنب، حيث كنا تنتهي على الأرض؛ وفي بيت بيرينسي الجميلة البعيدة عن الأحكام المسبقة، التي حالقها حسن الحظ بعدم الزواج مني، لأنها كانت منجونة بحب شخص آخر، أو في مكتب التلغراف، حيث كانت ساريتا التي لا تُنسى تبعث، بالدين، بريقات غمي، عندما يتأخر أبواي في إرسال مصرولي الشخصي. وقد دفعت لي أكثر من مرة قيسة الحوالات عقداً، لتُخرجني من المأزق. ومع ذلك، فإن أقلهن بُعداً عن النسيان، لم تكن محبوبية أحد يعينه، وإنما حورية محبي الشعر جميعهم، اسمها سيسيليا غونثالث بيشاتو. وكانت ذات ذكاء لامع، وخفة ظل شخصية، وروح متحررة في أسرة من سلالة محافظة، وذكرة خارقة لحفظ كل أنواع الشعر. كانت

تعيش قبالة بوابة المعهد، مع عملة أرستقراطية وعازبة، في منزل كولونبالي، تحيط به حديقة أزهار تتفتح مع شروق الشمس. كانت العلاقة معها في البدء، مقتصرة على المباريات الشعرية، ولكن سيسيليا انتهت إلى أن تكون رفيقة حياة حقيقية، وكانت قوت من الضحك على الدوام. وقد تسلسلت أخيراً، إلى دروس الأدب التي يلقيها المعلم كالدبرون، بتواطؤ من الجميع.

خلال أزمستي في آراكاتاكا، كنت أحلم بأن أعيش حياة سعيدة، بالغناء، متنقلاً من مهرجان شعبي إلى آخر، مزوداً بأكورديون وصوت جيد. وكان يبدو لي أنها أقدم الطرق وأبهجها، لقص حكاية. فإذا كانت أُمي قد تخلت عن البيانو، لكي تنجب أبناء، وعلق أبي الكمان ليتمكن من إعالتنا، فإنه من العدل تقريباً، أن يستشعر أكبر أبنائهما تلك السوابق الطيبة، ليموت جوعاً مقابل الموسيقى. وقد أثبتت مشاركتي المحتملة، كمغنى وعازف جيتار صغير (تيللي) في فرقة المعهد، بأن لي أذناً صالحة لتعلم العزف على آلة قليلة الصعوبة، وأنه يمكنني الغناء.

لم تكن هناك سهرة في مناسبة وطنية أو اجتماع احتفالي في المعهد، إلا لي فيه بد بطريقة ما - والغرض في ذلك دوماً، للماسترو غييرمو كيبيلو ثوونوسا، مؤلف الموسيقى، ووجيه المدينة، والمدير الأيدي الفرقة الموسيقى البلدية، وصاحب موسيقى "برقوقة" - على الطريق، حمراء مثل القلب -، وهي أغنية شبابية كانت في أيامها، روح السهرات والسيرنادات. وفي أيام الأحاد، بعد القداس، كنت أول من يجتازون الحديقة لحضور عزف، الذي يبدأ دوماً بمقطوعة "الغراب السارق"، و"كورال المطارق"، ثم "النروبادور" في الختام. لم يعرف

المايسترو قط، ولم أتحجراً أنا على إخباره، بأن حلم حياتي، في تلك السنوات، هو أن أكون مثله.

عندما طلب المعهد متطوعين، لدورة دراسية في تذوق الموسيقى، كنت أنا وغييرمو لوبيث غيراً، أول من رفعنا إصبعنا. الدورة ستكون في أيام السبت صباحاً، بإشراف الأستاذ أندريس بيدرو تويار، مدير أول برنامج موسيقى كلاسيكية في "صوت بوغوتا". لم نشغل سوى أقل من ربع قاعة الطعام التي جرى تأهيلها لتكون قاعة دروس. ولكننا وقعنا على الفور، بطلاوة لسانه الرسولية. لقد كان الكاتشاكو الكامل، يتألق في منتصف الليل، بستره من المخمل، وصوت مثله، ومتهمل فوق ذلك، أما ما قد يبدو الآن نغمة نادرة، بسبب قدمه، فهو الفوتوغراف ذو ذراع التدوير الذي كان يديره ببراعة ومحيية مروض فقسا. كان ينطلق من افتراض - وهو صحيح في حالتنا - أننا مستجدون بالكامل. ولهذا بدأ به "كرتغال الحيوانات"، لسان-سين Saint-Saëns، واصفاً طريقة كل حيوان في الحياة. ثم عزف بعد ذلك - وكيف لا! - "بيسر والدثيب"، لبروكوفيف. السيء في حفلات أيام السبت تلك، أنها رُسخت في ذهني الاحتشام بالنظر إلى موسيقى المعلمين الكبار، على أنها رذيلة شبيه سرية. وقد احتجت لسنوات طويلة كي أميز بين الموسيقى الجيدة والموسيقى الرديئة.

لم أعد إلى إجراء أي اتصال مع المدير، حتى السنة التالية، عندما تولى هو نفسه تدريس مادة الهندسة للسنة الرابعة. دخل إلى قاعة الدرس في أول يوم ثلاثاء، الساعة العاشرة صباحاً. حيا تحية الصباح بزمجرة، دون أن ينظر إلى أحد، ونظف السبورة بالمساحة إلى أن لم يبق

أدنى أثر للغيبار. ثم التفت عندئذ نحونا. ودون أن يقوم بتفقد قائمة الحضور، سأل ألقارو رويث توريس:

- ما هي النقطة؟

لم يكن هناك متسع من الوقت للإجابة، لأن أستاذ العلوم الاجتماعية، فتح الباب، دون أن يطرعه، وقال للمدير إن هناك مكالمات مستعجلة من وزارة التربية. خرج المدير مسرعاً ليرد على الهاتف ولم يرجع إلى الدرس، إلى الأبد. فقد كانت المكالمات، لإبلاغه بنقله من منصبه كمدير، وهو المنصب الذي شغله بضمير طوال خمس سنوات في المعهد، وبعد حياة كاملة من الخدمة الحسنة.

كان خلقه هو الشاعر كارلوس مارتين، الأصغر سناً بين شعراء جماعة "حجر وساء" الجيدين، الذين ساعدني سيسر دل يايي على اكتشافهم في يارانكيّا. وكان المدير الجديد في الثلاثين من عمره، وله ثلاثة كتب مطبوعة. كنت أعرف بعض قصائده، وقد رأيته في إحدى المرات، في مكتبة في بوغوتا. ولكن لم يكن لدي ما أقوله له قط، ولم أكن أملك أحد كتبه لأطلب منه توقيع عليه. ظهر في أحد أيام الاثنين، دون سابق إنذار، في استراحة الغداء، لم تكن تنتظر رؤيته، بكل تلك السرعة. وقد بدأ محامياً أكثر منه شاعراً، ببذلة إنكليزية مخططة، وجبهة مكشوفة، وشارب رفيع بصرامة في الشكل تُلاحظ كذلك في شعره. تقدم بخطواته المحسوبة جيداً نحو أقرب جماعة معه، هادئاً، ونائباً بعض الشيء، ومدّ لنا يده:

- مرحباً، أنا كارلوس مارتين.

كنت في تلك المرحلة مولعاً بالنشر الغنائي الذي ينشره إدواردو

كارانثا في الصفحات الأدبية، في جريدة "التيمبر" وفي مجلة "السيث". وكان يبدو لي أنه جنس أدبي مستوحى من "حماري بلاتيرو وأنا" لخوان راسون خيسيتث، الذي كان راقباً بين الشعراء الشباب المتطلعين إلى أن يحوا، من الخريطة، أسطورة غييرمو بالينثيا. وقد رعى الشاعر خورخي روخاس، وارت ثروة سريعة الزوال، باسمه ووصيده، نشر كتيبات شعر أصيلة، أيقظت اهتماماً كبيراً، بين أبناء جيله، ووحدت جماعة من الشعراء المعروفين.

كان ذلك تبدلاً عميقاً في العلاقات المنزلية. فصورة المدير السابق الطبقية، استبدلت ليحل محلها حضور ملموس يحافظ على المسافة الواجبة، ولكنه في تناول اليد دوماً. تخلى المدير الجديد عن التفخيش الروتيني على المظهر الشخصي وغيره من القواعد الملزمة. وكان يتبادل الحديث مع التلاميذ، أحياناً، في الاستراحة الليلية.

الأسلوب الجديد، وضعني في اتجاهي الصحيح. ربما كان كالديرون قد حدث مديري الجديد عني، ذلك أنه في إحدى الليالي الأولى، أجرى لي سيراً حول علاقاتي بالشعر، فأطلقت العنان لكل ما في داخلي. فسألني إذا ما كنت قد قرأت "التجربة الشعرية"، وهو كتاب لألفونسو ريبس، أثار الكثير من التعليقات. فاعتزقت له بأنني لم أقرأه، فأخبره لي في اليوم التالي، التهمت نصفه تحت المقعد، خلال ثلاثة دروس متتالية. والبقية خلال الاستراحة، في ملعب كرة القدم. وقد أسعدني أن كاتباً يمثل تلك الشهرة الواسعة، يهتم بدراسة أغنيات أغوستين لارا، كما لو أنها أشعار غارثيلاسو، متزجراً بعبارة ذكية: "أغنيات أغوستين لارا الشعبية ليست أغنيات شعبية". وقد كان ذلك، بالنسبة إليّ، أشبه بالعثور على الشعر، مُدباً في حساء الحياة اليومية.

تخلي مارتين عن الشقة الرائعة المخصصة للمدير. وأقام مكتبه،
مفتوح الأبواب، في الفناء الرئيسي، فقرّبه ذلك أكثر من مسامراتنا بعد
العشاء. وقد استقر، للإقامة طويلاً مع زوجته وأبنائه في بيت
كولونياي كبير، في حالة جيدة، في أحد أركان ميدان المدينة الرئيسي.
وكان فيه مكتب تغطي جدرانه كل الكتب التي يمكن أن يعلم بها قارئ
متابع لأذواق التجديد، في تلك السنوات. وهناك كان يزوره، في نهاية
الأسبوع، أصدقاؤه من بوغوتا، ولا سيما زعلّاءه في جماعة "حجر
وسماء". وفي أحد أيام الأحاد، كان عليّ أن أذهب إلى بيته، مع
غبيرمو لوبيث غيراً، من أجل مراجعة عارضته. وكان هناك إدواردو
كارانثا وخورخي روخاس، النجمان الكبيران. طلب منا المدير الجلوس،
بإقامة سريعة، كيلا تقطع المحادثة، فبقينا هناك حوالي نصف ساعة،
دون أن نفهم كلمة واحدة، لأنهم كانوا يناقشون حول كتاب لبول
قاليري، لم تكن قد سمعنا به. كنت قد رأيت كارانثا أكثر من مرة في
مكتبات ومقاهي بوغوتا. وكنت قادراً على تمييزه من إيقاع صوته
وتدفعه، وهو يتوافق مع ملابسه الشوارعية وطريقته في الحياة؛ كشاعر.
أما خورخي روخاس بالمقابل، فلم أستطع التعرف عليه من ملابسه
وأسلوبه الوزاري. إلى أن توجه إليه كارانثا باسمه. كنت أتلهف لأن
أكون شاهداً على نقاش حول الشعر بين أكبر ثلاثة شعراء. ولكن ذلك لم
يحدث. وفي نهاية حديثهم، وضع المدير يده على كتفي، وقال لضيفيه:
- هذا شاعر كبير.

قال ذلك تلمظاً بالطبع، ولكنني أحسست بالزهو. وأصر كارلوس
مارتين على أن يلتقط لنا صورة مع الشعاعين الكبيرين. وقد التقطها

بالفعل. ولكنني لم أعرف عنها شيئاً، إلا بعد نصف قرن من ذلك، في
بيته على الساحل الكالاني، حيث تقاعد ليستمتع بشيخوخته الطيبة.
هزت المعهد رياح التغيير. فالذبذبة الذي لم تكن تستخدمه إلا
للوقص، رجلاً مع رجل، تحول بفضل كارلوس مارتين إلى وسيلة انتشار
اجتماعي. ولأول مرة صارت تُسمع وتناقش الأخبار الليلية في فناء
الاستراحة. تضاعف النشاط الثقافي مع تأسيس المركز الأدبي، ونشر
جريدة أدبية. وعندما وضعنا قائمة المرشحين المحتملين ذوي الميول الأدبية
الواضحة، وفر لنا عددهم تسمية الجماعة: مركز الثلاثة عشر الأدبي. بدأ
لنا ذلك ضريبة حظ، لأنه كان فوق ذلك، تحدياً للتطير من العدد ثلاثة
عشر. وكانت المبادرة من الثلاثين أنفسهم، وتتلخص فقط في
اجتماعات، مرة كل أسبوع، للمتحدث في الأدب، مع أننا لم تكن في
الحقيقة نفعل شيئاً غير ذلك، في أوقات فراغنا، داخل المعهد وخارجه.
كل واحد منا كان يأتي بما لديه، فيقرؤه ويخضعه لأحكام الجميع.
وكنّت، أنا المذهول بذلك النموذج، أساهم في قراءة سونيئات أوقعها
بالاسم المستعار: خابيير غارثيس. ولم أكن أستخدمه في الواقع للتمييز،
ولمّا لأختبئ خلفه. لأن سونيئاتي كانت مجرد قارئ حرقية، دون إلهام
ودون تطلعات. ولا يمكن أن تعزى إليها أي قيمة شعرية، لأنها لم تكن
تخرج من الروح. كنت قد بدأت بحكاية كيفيدو، ولوبي دي بيفا، وحتى
غارسييا لوركا، ولا سيما ثمانياته العفوية التي يكفي البند بها،
للمواصل تلقائياً. وقد وصلت بعيداً في حضي المحاكاة تلك، حتى إنني
فرضت على نفسي مهمة التحرير الساخر، لكل واحدة من سونيئات
غارثيلاسو دي لايفغا الأربعين، وبالترتيب نفسه. وكنت أكتب كذلك، ما

يطلبه بعض تلاحيذ القسم الداخلي، ليقدموه إلى صديقاتهم في أيام الأحاد، على أنه من تأليفهم. وقد قرأت لي إحداهن بنأثر، وفي سرية مطلقة، الأشعار التي أهداها إليها حبيبها، على أنها من كتابته.

قدم لنا كارلوس مارتين مستودعاً صغيراً في الطابق الثاني من المعهد، نوافذه موصدة لدواع أمنية. وكنا حوالى خمسة أعضاء نتولى وضع برنامج الاجتماع التالي. لم يتخذ أي واحد منهم مهنة الكاتب، ولكن المسألة لم تكن في ذلك، وإنما في اختبار إمكانيات كل واحد. كنا نناقش أعمال الآخرين، ونستشيط غضباً، كما لو أننا في مباراة كرة قدم. في أحد الأيام اضطر، ريكاردو غونزالث ويبول إلى الخروج في منتصف المناقشة. وفوجئ بالمدير يضع أذنه على الباب، ليسمع هجاءلاتنا. كان فضوله مشروعا، لأنه لم يستطع أن يصدق أننا نكرس أوقات فراغتنا للحديث عن الأدب.

في أواخر شهر آذار، وصلنا خبر أن المدير السابق، دون أليخاندر راموس، قد أطلق رصاصة على رأسه، في الحديقة الوطنية في بوغوتا. لم يقتنع أحد بنسبة ذلك التصرف إلى طبعه المنعزل، وربما المكتئب. كما لم يكن ممكناً تصور أي سبب معقول للانتحار وراء قتال الجنرال أوريبي أوريبي، المحارب في أربع حروب أهلية، والسياسي الليبرالي الذي جرى اغتياله بالقووس، على يد متعصبين اثنين في ردهة الكابيتوليو. ذهب وفد من المعهد، برئاسة المدير الجديد، للمشاركة في جنازة المعلم أليخاندر راموس الذي بقي في ذاكرة الجميع، كنقطة وداع مرحلة أخرى.

كان الاهتمام بالسياسة الوطنية متديناً جداً في المدرسة الداخلية. لقد سمعت من يقول، في بيت جدي، إن الفرق الوحيد بين الحزبين، بعد

حرب الألف يوم، هو أن الليبراليين يذهبون إلى قدام الساعة الخامسة، كيلا يراهم المحافظون في قدام الثامنة، ويظنهم مؤمنين. ومع ذلك، فقد بدأت الاختلافات الحقيقية تصبح ملموسة بعد ثلاثين سنة من ذلك، عندما فقد الحزب المحافظ السلطة، وحاول الرئيس «الليبراليون الأوائل» أن يفتحوا البلاد لرياح العالم الجديدة. وانهك الحزب المحافظ، المهزوم بصدأ سلطته المطلقة، في إعادة ترتيب وتنظيف بيته، تحت التألق الثاني لموسوليني في إيطاليا، وظلمات الجنرال فرانكو في إسبانيا، بينما كانت الإدارة الجديدة للرئيس ألفونسو لوبيث بوماريخو، مع جماعة من الشباب المثقفين، تحاول خلق الظروف الليبرالية محدثة. وربما دون الالتئام إلى أنهم يحققون القدرة التاريخية في تقسيمنا إلى النصفين اللذين كان العالم منقسماً إليهما. وكان ذلك حتمية لا سبيل إلى تجنبها. فقد قرأت في أحد الكتب التي كان الأساتذة يعيروننا إياها، قولاً منسوباً إلى لبنين: "إذا لم تتدخل في السياسة، فإن السياسة سوف تتدخل فيك، في نهاية الأمر".

ومع ذلك، وبعد ست وثلاثين سنة من سيطرة الرؤساء المحافظين الكهفية، بدأ السلام يبدو ممكناً. فثلاثة رؤساء شباب، بذهنية حديثة، بذروا بفتح منظور ليبرالي يبدو مستعداً لإزاحة ضباب الماضي. والرئيس ألفونسو لوبيث بوماريخو، أبرز الثلاثة، والإصلاحي المجازف، حقق إعادة انتخابه لولاية ثانية، في عام ١٩٤٢. ولم يكن هناك، كما يبدو، ما يعكر إيفاع تداول الرئاسة. وهكذا كنا، في سنواتي الأولى في المعهد، متشربين بأخبار الحرب الأوروبية التي تبتقنا متبقيين. بطريقة لم تستطع السياسة المحلية التوصل إليها قط. لم تكن الصحف تدخل

المعهد، إلا في حالات خاصة جداً، لأننا لم تكن معتادين على التفكير فيها. ولم تكن هناك أجهزة مذبذب ثقالة، والمذبذب الوحيد في المعهد هو مذبذب الرف القديم في قاعة الأساتذة الذي كنا نشغله بأعلى صوت في الساعة السادسة، لكي نرقص وحسب، وكنا بعيدين عن التفكير في أنه كانت تُقرع في ذلك الحين، الحرب الأكثر دموية وعشوائية، بين كل حروبنا.

دخلت السياسة فجأة إلى المعهد. انقسمنا إلى فريقين، ليراليين ومحافظين. وعرفنا لأول مرة، في أي جانب يقف كل واحد منا. برزت تضالنية داخلية، ودية، وأكاديمية، إلى حد ما في البداية، ثم راحت تتردى، بالتوافق مع الحالة المعنوية نفسها التي بدأت تُعفن البلاد. أول التوترات في المعهد، كانت غير ملموسة تقريباً، ولكن أحداً لم يراوده الشك في التأثير الطيب، لكارلوس مارتين الذي يقف على رأس جهاز أساتذة لم يخفوا أيديولوجياتهم يوماً. ومع أن المدير الجديد لم يكن متصراً بجلال، لأحد الفريقين، إلا أنه أعطى موافقته على سماع الأخبار ليلاً، من مذبذب القاعة. وصارت الأخبار السياسية، منذ ذلك الحين، تغلب على الموسيقى الراقصة. وكان يقال، دون تأكيد مثبت، إنه يعلق في مكتبه، صورة للينين أو ماركس.

لا بد أن التمرد المرير الوحيد الذي حدث في المعهد، كان ثورة تلك الأجواء المخلخلة. فقد تطايرت في قاعة النوم الوسائد والأحذية، على حساب القراءة والنوم. لم أستطع أن أحدد السبب، ولكنني أظن أن السبب، على ما أتذكر - ويخفق معي في ذلك عدد من زملائي - هو أحد مقاطع الكتاب الذي كان يُقرأ بصوت عالٍ في تلك الليلة: "الروح

ما يجول في ذهن"، للفنزويلي رومولو غاييغوس. لقد وقعت مشادة قتالية غريبة.

دخل كارلوس مارتين، وقد استدعى على عجل، إلى قاعة النوم، وجاها من أقصاها إلى أقصاها، عدة مرات، وسط صمت عميق سببه ظهوره. وبعد ذلك، في نوبة سلطوية غريبة عن طبع كطبعه، أمرنا بفجادة قاعة النوم بالبيجامات والأخفاف، والاصطفاف في الفناء المتجمد. وألقى علينا هناك خطبة حماسية بأسلوب كاتيلينا المراوغ، ورجعنا بانتظام تام لمواصلة نومنا. كان ذلك هو الحادث الوحيد الذي أتذكره، خلال سنواتنا في المعهد.

كان ماريو كورتيس، وهو طالب جاء في تلك السنة إلى الصف السادس، يبقينا مشوشين في ذلك الحين، بموضوع إصدار جريدة مختلفة عن المعهد في المدارس. وكان أحد أول اتصالاته معي. وبدا لي من المناسب، أن أوافق على أن أكون رئيس التحرير. كنتُ مفتوناً بذلك، ولكن دون أن تكون لدي أي فكرة واضحة عن مهماتي. تزامن آخر الإعدادات للجريدة مع اعتقال الرئيس لوبيث بومارينجو على يد جماعة من كبار ضباط القوات المسلحة في الثامن من تموز ١٩٤٤، بينما كان في زيارة رسمية في جنوبي البلاد. والحكاية، مثلما رواها هو نفسه، لم تكن تتضمن أية فضلات، وبما دون أن ينوي ذلك. قدم للمحققين رواية رائعة، لم يعلم، بمقتضاها، بالحادثة إلا عندما جرى تحريره. وقد ظلت حركة باسكو الانتقالية، شديدة الالتصاق بحقائق الحياة الواقعية، حدثاً مضحكاً آخر من أحداث تاريخنا الوطني.

ألبيرتو بيراس كامارغو، الذي عُين رئيساً، أبقى البلاد منومة

بصوته وإلقائه المتقنين، طوال عدة ساعات، عبر الإذاعة الوطنية، إلى أن جرى تحرير الرئيس لوبيث وأقر النظام. ولكن تم فرض حالة طوارئ صارمة، مع رقابة على الصحافة، بدت التنبؤات غامضة ومبتسرة. فقد حكم المحافظون البلاد، منذ الاستقلال عن إسبانيا سنة ١٨٣٠، حتى انتخاب أولها هيريرا، بعد قرن من ذلك، دون أن تظهر عليهم أي ملامح للتوجه نحو الليبرالية. أما الليبراليون بالمقابل، فكانوا يتحولون أكثر فأكثر نحو المحافظة، في بلاد تمضي مخلفة، في تاريخها، مرقاً من لحما. وفي تلك اللحظة كانت هناك نخبة من المثقفين الشباب المفتونين بوهم السلطة، مثاليهم الأكثر جذرية وقابلية للعيش هو خورخي إليسير غايتان. لقد كان واحداً من أبطال طفولتي، بسبب أعماله المناهضة للقمع في منطقة الموز. وهو ما كنت أسمع عنه دون أن أفهمه، منذ بدأت أعي الحياة، كانت جدتي تقدره، ولكنني أظن أنه كان يقلقها توافقه آنذاك مع الشيوعيين. وكنت أنا نفسي، أقد خلفه، بينما هو يلقي خطاباً مدوياً من شرفة في ساحة ليباكيرا. وقد يهرني رأسه الذي له شكل شمامة، وشعره السبط والسميك، وبشرة الهندي النقي، وصوته الراعد بنبرة البوغوتيين التي، وما كان يبالي فيها لحسابات سياسية. لم يتحدث في خطابه عن ليبراليين ومحافظين، أو عن مستغلين ومستغلين، مثلاً. يتحدث الجميع، وإفا عن فقراء وأوليغاركية، وهي كلمة كنت أسمعها عندئذ، أول مرة تدق كمنطوقة، في كل جملة، وقد سارعت للبحث عنها في المعجم.

كان محامياً لامعاً، وتلميذاً محبباً في روما، للحقوقي الإيطالي إنريكو فيري. وقد درس هناك بالذات فنون مسؤولية الخطابية، وكان

له شيء من أسلوبه المسرحي على المنبر. أما محاضراته المثائس غابرييل تورباي (طرية)، فكان طبيباً مثقفاً وأتقناً، يضع نظارة ذهبية فاخرة، تغضي عليه هيئة الفنان السينمائي، وكان قد ألقى خطاباً غير متوقع، في مؤتمر حديث العهد، للحزب الشيوعي، فاجأ الكثيرين وأثار قلبي بعض محاضراته البرجوازيين. ولكنه كان مقتنعاً بأنه لا يتناقض في كلامه ولا في أفعاله مع تكوينه الليبرالي أو مسوله الأرستقراطية. ويرجع تألفه مع الدبلوماسية الرومية، إلى سنة ١٩٣٦، عندما أقر في روما، العلاقات مع الاتحاد السوفييتي، بوصفه سفيراً لكولومبيا في روما. وقد جعلها رسمية في واشنطن، بوصفه وزير كولومبيا المفوض في الولايات المتحدة.

كانت علاقته بالسفارة السوقيتية في بوغوتا حميمة جداً، وله صداقات مع بعض قادة الحزب الشيوعي الكولومبي. من يمكن لهم التوصل إلى تحالف انتخابي مع الليبراليين، وكثيراً ما جرى الحديث عن مثل هذا التحالف في تلك الأيام، ولكنه لم يُبرم قط. وقد انتشرت في كولومبيا، آنذاك أيضاً، وهو سفير في واشنطن، إشاعة ملحة بأنه الخطيب السري لواحدة من كبار نجوم هوليوود - ربما هي جين كراوفورد أو بوليت غودار - ولكنه لم يتخل قط، عن سيرته كعازب لا يساوم.

كان يمكن لناخي غايتان وطرية أن يشكلوا أغلبية ليبرالية، وأن يفتحوا درواً جديدة، ضمن الحزب نفسه. غير أنه لا يمكن لأي النصفين، منفصلاً، أن يحقق الفوز على المحافظين المتحدتين والمسلحين.

في تلك الأيام السيئة، ظهرت صحيفتنا "المجريدة الأدبية"، وقد فوجئنا، نحن أنفسنا الذين تسلمنا العدد الأول مطبوعاً، من مظهره الاحترافي، في ثماني صفحات من القطع النصف (تابلويد)، كان جيد

الإخراج والطباعة. وكان كارلوس مارتين وكارلوس خوان كالدبيرون أشد التحسين. وقد ناقش كلاهما، في أثناء الاستراحات، بعض المقالات. وكان أحد أهم تلك المقالات هو الذي كتبه كارلوس مارتين، بناءً على طلبنا، وطرح فيه ضرورة التسليح بموعي شجاع في النضال ضد المتاجرين بمصالح الدولة، من السياسيين المتسلقين والسعاسرة الذين يعرقلون مسيرة البلاد الحرة، ونُشر المقال مع صورة كبيرة له في الصفحة الأولى. وكان هناك مقال لكونفيرس، حول الهيسبانية، ونشر غنائي لي موقع باسم خابيير غارثيس. وقد أخبرنا كونفيرس بأن هناك حماساً كبيراً بين أصدقائه في بوغوتا، ومساعدات محتملة لإطلاق الجريدة بصورة أكبر، بحيث تكون مشتركة لكل المدارس.

لم يكن العدد الأول قد وُزِعَ، عندما وقع انقلاب باستو. وفي اليوم الذي أُعلن فيه عن تعكر الأمن العام، حضر عمدة ثيباكيرا إلى المعهد، على رأس فصيلة مسلحة، وصادر الأعداء الجاهزة للتداول. كان هجوماً سينمائياً، لا يمكن تفسيره إلا بوشاية خبيثة، بأن الجريدة تتضمن مواد هدامة. وفي اليوم نفسه، وصل إشعار من المكتب الصحفي لدى رئاسة الجمهورية، بأن الجريدة قد طُبعت دون المرور على رقابة حالة الطوارئ. وجرى عزل كارلوس مارتين من إدارة المعهد، دون إعلان مسبق.

لقد كان قراراً غير معقول بالنسبة لنا، جعلنا نشعر بالمهانة وبأهميتنا في الوقت نفسه. لم يكن عدد نسخ الجريدة يتجاوز المئتين، لتوزيعها بين الأصدقاء، ولكنهم أوضحوا لنا أن مطلب الرقابة هو أمر محتم لا بد منه. في ظل حالة الطوارئ، وألقى التصريح حتى إشعار آخر، لم يأت قط.

لقد مرت أكثر من خمسين سنة، قبل أن يكشف لي كارلوس مارتين، من أجل هذه المذكرات، عن تلك الواقعة العيشية. ففي اليوم الذي صُودرت فيه "الجريدة"، استدعاه وزير التريية بالقات إلى مكتبه في بوغوتا، وهو الوزير نفسه الذي عينه مديراً - أنطونيو روتشا - وطلب منه الاستقالة. وجد كارلوس مارتين أمام الوزير، نسخة من "الجريدة الأدبية". وقد رُسمت خطوط حمراء تحت جمل كثيرة، اعتبروها هدامة. وقعلوا الشيء نفسه بمقاله الافتتاحي، ومقال ماريو كونفيرس. وكذلك بقصيدة لمؤلف معروف اعتُبرت مريبة ومكتوبة بـرموز مشفرة، "حتى الكتاب المقدس نفسه، يمثل هذه الخطوط سيئة النية، تحت عبارات منه، يمكن أن يُعرب عن عكس معناه الحقيقي". قال له ذلك كارلوس مارتين، في رد فعل غاضب بصورة ملحوظة، دفع الوزير إلى تهديده باستدعاء الشرطة. جرى تعيينه مديراً لمجلة "السبت"، وهو أمر يجب اعتباره، في نظر مشفق مثله، ترقية كبيرة. ومع ذلك، فقد ظل يشعر إلى الأبد، بأنه كان ضحية مؤامرة قوى يمينية. وقد تعرض إلى اعتداء في أحد مقاهي بوغوتا، أوشك أن يرد عليه بالرخاص. ثم عينه وزير آخر، قيساً بعد، رئيساً لقسم الشؤون القانونية، فمارس حياة مهنية مثالحة تُوِجت بتقاعد محاط بالكتب والحنين، في مكان إقامته الهادئ في تاواغونا (إسبانيا).

في الوقت نفسه الذي أبعد فيه كارلوس مارتين - ودون أي علاقة به بالطبع - انتشرت في المعهد، وفي بيوت المدينة وحاراتها، رواية بلا سند تقول إن الحرب مع البيرو في سنة ١٩٣٢، كانت تلفيقة من الحكومة الليبرالية، لتدعم نفسها بالقوة في مواجهة المعارضة المحافظة

المنهكة. وتؤكد الرواية التي وُضعت، حتى في منشورات مطبوعة، أن الدراما قد بدأت، دون أية نوايا سياسية. عندما اجتاز ملازم بيروي نهر الأمازون مع دورية عسكرية، واختطف من العنفة الكولومبية، الخطيئة السرية للحاكم المحلي في مدينة ليتسيا، وهي خلاصة فائقة يدعونها بيلا، كتصغير لاسمها بيلاو. وعندما اكتشف الحاكم المحلي الكولومبي أمر الاختطاف، اجتاز الحدود، مع جماعة العمال المسلحين، واسترد بيلا من أراضي البيرو. ولكن الجنرال لويس سانتشيث ثيرو، دكتاتور البيرو، عرف كيف يستغل تلك المناوشة، ليغزو كولومبيا، ويحاول تبديل الحدود الأمازونية، لمصلحة بلاده.

عندئذ، عمد الرئيس الكولومبي أولايا هيريرا - تحت ضغط شرس من جانب الحزب المحافظ المهزوم، بعد نصف قرن من الحكم المطلق - إلى إعلان حالة الحرب، فأعلن التعبئة الوطنية، وسلم قياد جيشه لرجال يستمعون بشغفه، وأرسل القوات لتحرير الأراضي التي اغتصبها البيرويون. دوت في البلاد صرخة حرب أجهت طفولتنا: "قلنتش كولومبيا، وتسقط البيرو". وفي فورة الحرب انتشرت كذلك الرواية القائلة إنه قد جرت عسكرة الطائرات المدنية التابعة لشركة "سكادتا" SCADTA وتسلبها كآسراب حربية مقاتلة. وإن واحدة منها، بسبب نقص القنابل، فرقت موكباً بمناسبة أسبوع الألام في بلدة "عجيبه" البيروية، يقصفه بجوز الهند، الكاتب الكبير خوان لوثانو إي لوثانو، الذي عبأه الرئيس أولايا لبقية على اطلاع على الحقيقة. في حسي الأكاذيب المتبادلة تلك، كتب بنثره البارع، القصة الحقيقية للحادثة. ولكن الرواية الزائفة ظلت هي السائدة لوقت طويل.

وجد الجنرال لويس ميغيل سانتشيث ثيرو في الحرب، بالطبع، فرصة من السماء، لكي يرسخ نظامه الحديدي في البيرو. وفي الوقت نفسه، عين الرئيس أولايا هيريرا قائداً عاماً للقوات الكولومبية، هو الجنرال والرئيس السابق المحافظ ميغيل آباديا ميديث، الذي كان في باريس آنذاك. وقد اجتاز الجنرال المحيط الأطلسي بسفينة مزودة بالمدايع، وتوغل عبر مصبات نهر الأمازون، حتى بلدة ليتسيا، في الوقت الذي كان فيه دبلوماسيو الطرفين، قد بدؤوا بإطفاء نيران الحرب. ودون أي علاقة بانقلاب باستو، ولا بحادثة الجريدة، جرى تعيين مدير جديد، بدلاً من كارلوس مارتين، هو أوسكار إسبتيان براند، المرء مهنياً والمشهور فيزيائياً. وقد استشار المدير الجديد في المعهد، كل أشكال الشكوك. محفظاتي ضده هزئي، منذ النحية الأولى، بسبب ذلك القدر من النعاس الذي نظر به إلى شعري الطويل كشاعر، وشاربي غير المشذب. كان له مظهر قاسي، ويظهر مياشرة إلى العيون نظرة صارمة. وقد أرعبني خبر أنه سيكون أيضاً، أستاذنا في الكيمياء العضوية.

في يوم سبت من تلك السنة، كنا في السينما، في منتصف عرض بعد الظهر، عندما أعلن صوت مضطرب من مكبرات الصوت بأن هناك طالباً مبتأ في المعهد، كان ذلك مؤثراً، حتى إنني لم أستطع تذكر أي فيلم كنا نشاهد. ولكنني لن أنسى أبداً توتر كلوديت كوليسير، وهي توشك أن تلقي بنفسها في نهر صاحب، من فوق حاجز جسر. كان الميت طالباً في السنة الثانية. عمره سبعة عشر عاماً. جاء، حديثاً من مدينته باستو الثانية، بالقرب من الحدود مع الإكوادور. وقد أصيب بتوقف عن التنفس، في أثناء هرولة، نظمها أستاذ الرياضة، كعقوبة نهاية أسبوع

لتلاميذه المتكاسلين. وكانت تلك هي الحالة الوحيدة التي مات فيها طالب، خلال وجودي في المعهد، وقد سبب موته تأثراً شديداً. ليس في المعهد وحسب، وإنما في المدينة أيضاً. اختارني زملائي لألقي في الجنازة، بضع كلمات وداع، وفي تلك الليلة بالذات، طلبت لقاء المدير الجديد، لأريه خطبتي التأبينية، وقد هزني الدخول إلى مكتبه، كتكرار خارق للعادة الوحيدة التي أصابني، لدى اللقاء بالمدير الأسبق الميت. قرأ الأستاذ إسبانياً مسودة كلمتي بلامح مأساوية، ووافق عليها دون تعليق. ولكنني، عندما نهضت للخروج، أشار لي بأن أعود للجلوس. كان قد قرأ بعض كتاباتي وأشعاري، من تلك الكثيرة التي يجري تداولها من يد إلى يد في الاستراحات، وبدا له أن بعضها جدير بأن يُنشر في ملحق أدبي. ولم أكد أحاول تجاوز خطي القاسي، حتى أعرب هو عن هدفه الحقيقي، دون شك، من إقناعي، نصحتني بأن أقص شعر الشاعر المشعث، غير اللائق برجل جدي، وأن أشذب شاربي الذي كالفرشاة، وأنخلي عن ارتداء القمصان المزينة بعصافير وأزهار، وتبدو كأنها ملابس كرنفال. لم أكن أنتظر شيئاً من هذا القبيل قط. ولحسن الحظ أنني لم أرُدْ عليه بإجابة وقحة. وقد لاحظت هو ذلك، فأتخذ ليرة طوقسية ليوضح لي مخاوفه من أن تنتشر موضتي بين التلاميذ الصغار، بسبب شهرتي كشاعر. خرجت من المكتب متأثراً للاعتراف بعاداتي وموهبتي الشعرية من قبل مرجعية، على تلك الدرجة من الأهمية. وكنت مستعداً لإرضاء المدير بتفسير مظهري، من أجل تلك المناسبة الوقورية، حتى إنني فسرت إلغاء تكريم المقرئ، بناء على رغبة أسرته، باعتباره إحقاقاً لشخصاً لي.

كانت النهاية غائمة. فقد اكتشف أحدهم أن زجاج النابوت، يبدو مغطى بالبخار، وهو معروض في مكتبة المعهد. فتحه ألفارو رويث توريس، بناء على طلب الأسرة. وتأكد بالفعل من أنه رطب من الداخل. وفي بحثه بالتطمس، عن سبب وجود البخار في ذلك الصندوق الكتيمة، ضغط برفق، برؤوس أصابعه، على صدر الميت، فأصدرت الجثة آنه مؤثرة. وبلغت الأسرة حد الهوس بفكرة أنه لا يزال حياً، إلى أن أوضح الطبيب أن الرئتين قد احتسنا الهواء، عند إصابته بالفشل التنفسي، ثم أطلقته بالضغط على الصدر. وعلى الرغم من بساطة التشخيص، أو ربما لهذا السبب بالذات، بقي الخوف قائماً عند البعض من أنه قد دُفن حياً. وبهذه الروح المعنوية، ذهبنا في إجازة السنة الرابعة، مثلهم إلى إقناع والدي بعدم مواصلة الدراسة.

تزلت من السفينة في سوكري، تحت رذاذ مطر غير مرئي. بدا لي سور المرقأ مختلفاً عما هو عليه في حينه. وكانت الساحة أصغر حجماً وغريباً بما هي عليه في ذاكرتي. والكنيسة والرابية المشجرة يشعُ منهما ضوء الخذلان، تحت أشجار اللوز المقلصة. وتشير الأكابيل الملونة في الشارع، إلى اقتراب أعياد الميلاد. ولكن هذه الأعياد لم تبعث في الانفعال الذي أثارته في نفسي في مرات أخرى. ولم أتعرف على أي واحد من الرجال، حاملي المظلات الذين ينتظرون في المرقأ. إلى أن قال لي أحدهم لدى مروري، بترته ورنه صوته المعروفة:

— كيف عي الأمور!

كان أبي. وقد هزل كثيراً بسبب فقدان الوزن، يرتدي بدلة القطن الرقيقة البضا، التي كانت تميزه من بعيد، منذ سنوات شبابه، وإنما

بنظراً بشياً، وقصيصاً مدارياً قصير الأحكام، وقبعة مراقب عمال، غريبة الشكل. وكان يرافقه أخي غوستافو الذي لم أتعرف عليه بسبب نموه. مع بلوغه السنة التاسعة من العمر.

لحسن الحظ فإن الأسرة ما زالت تحافظ على مظاهر فقرها. وبدا العشاء المبكر، كما لو أنه قد أعدّ عمداً للتأكيد على أن ذلك البيت هو بيتي، وأنه لا بيت لي سواه. وكان الخبير الطيب، على المائدة، هو أن أخي ليخيا قد كسبت البانصيب، والقصة - مثلما روتها هي نفسها - بدأت عندما حلمت أمنا بأن أباهما قد أطلق النار في الهواء، لإخافة لص فاجأه يسرق من بيت آراكاتاكا القديم. روت أمي الحلم أثناء الغطور، حسب العادة العائلية، واقرحت شراء بطاقة بانصيب تنتهي بالعبد سبعة، لأن هذا العدد له شكل مسدس المجد نفسه. لم يحالفهم الحظ في البطاقة التي اشترتها أمي بالدين، على أن تدفع ثمنها من قيمة الجائزة نفسها. لكن ليخيا، وكان عمرها آنذاك إحدى عشرة سنة، طلبت من أبي، ثلاثين سنتافو، لشدفع قيمة البطاقة الخاسرة، وثلاثين سنتافو أخرى للإصرار، في الأسبوع التالي، على الرقم الغريب: ٢٠٧.

خبأ أخونا لويس إنريكي البطاقة ليخيف ليخيا، ولكن خوله كان أكبر بكثير، في يوم الاثنين التالي، عندما سمعها تدخل إلى البيت صارخة، مثل مجنونة، بأنها كسبت البانصيب، ذلك أن أخي، في تسرع شقاوته، نسي أين خبأ البطاقة، واضطروا في حصى البحث المجهور، إلى إقراغ الخزان والصناديق، وقلب البيت رأساً على عقب. يدهاً من الصالة، حتى المرحاض. ولكن ما كان أكثر إثارة للقلق، مع ذلك، هو قيمة الجائزة: ٧٧٠ بيزو.

والخبير السيئ هو أن أبي قد حقق أخيراً حلمه بإرسال لويس إنريكي إلى إصلاحية فونفيدونيو - في ميدلين -، مقتنعاً بأنها مدوسة للأبناء العاقين، وليس كما هي في الحقيقة: سجيناً لإعادة تأهيل المتحررين الأحداث الخطرين جداً.

القرار الأخير اتخذه أبي، عندما أرسل ابنه العاق للحصول على الصيدلية. وبدلاً من أن يسلم إلى أبيه البيزوات الثمانية التي أعطيت له، اشترى بها آلة تبيلي جيدة، تعلم العزف عليها كمعلم. لم يعلق أبي بكلمة واحدة، عندما اكتشف وجود الآلة الموسيقية في البيت. وواصل مطالبة ابنه بتحصيل ذلك الدين. فكان الأخير يرد عليه دوماً، بأن صاحبة الحائز لا تملك النقود لتدفعها. وكان قد انقضى حوالي شهرين، عندما وجد لويس إنريكي أباه يعزف على التيبلي، لحناً مرتجلاً: "انظر إليّ كيف أعزف هذا التيبلي الذي كلفني ثمانية بيزوات".

لم ندر قط، كيف عرف الحقيقة، ولا لماذا تظاهر بعدم معرفته بحيلة ابنه. ولكن هذا الأخير اختفى من البيت، إلى أن هدأت أمي زوجها. وعندئذ سمعنا أبي يطلق أول تهديداته بإرسال لويس إنريكي إلى إصلاحية الأحداث في ميدلين. غير أن أحداً لم يوله اهتماماً، ذلك أنه كان قد أعلن من قبل، عن نيته في إرسالني إلى دير أوكانيا، ليعاقبني على لا شيء، سوى نيل شرف أن يكون هناك خوري في البيت، وقد نسي ذلك قبل أن يتمكن من تصوره. ومع ذلك، كان أوكوندوبون التيبلي هو القطرة التي جعلت الكأس يطفح.

لم يكن الدخول إلى دار الإصلاح ممكناً، إلا بقسار من قاضي الأحداث، ولكن أبي تجاوز انعدام توفير الشروط المطلوبة، من خلال

أصدقاء، مشتركين، مع رسالة توصية من مطران ميلدين، المونسنيور غارسيا بينيتز. وقد أبدى لويس إنريكي من جانبه، طبيب جبلته، حين سمح بأن يقتادوه، بسعادة وكأنه ذاهب إلى حفلة.

الإجازة من دونه، لم تكن كالإجازات السابقة. كنت أحسن التواصل في الغناء كمعترف مع عزف فيلاديلفيو بيلجيا، الحياض السحري وعازف التيبلي البار، ومع المعلم بالديس أيضاً بالطبع. وكان ذلك في منتهى السهولة. ولدى الخروج من حفلات رقص الأغنيا، المربكة تلك، كانت تنفض علينا من ظلال الحديقة أسراب من المتدريات، يومئ خفية، بكل أنواع الإغواء. وكانت هناك واحدة قر قريباً، ولكنها لم تكن متنه، فأخطأت بها وعرضت عليها أن تذهب معي. قدرت على منطق مثالي، أنها لا تستطيع، لأن زوجها نائم في البيت. ولكنها بعد ليلتين من ذلك، أخبرتني أنها ستترك الباب الخارجي، دون إن توصده بالمولاج، ثلاث مرات كل أسبوع، لكي أتفك من الدخول، دون أن أطرده. عندما لا يكون زوجها في البيت.

إنني أتذكر اسمها وكنيتها. ولكنني أفضل أن أسميها: نيفروسانتا. كانت ستكمل العشرين من عمرها، في عيد الميلاد. ولها يروفيل حبشية وبشرة كاكاو، وكانت مرحلة قى الفراش. وذات رعدة نشرة محزونة ومتدفع، كأنها انهب سبل حجري، وغريزة في الحب لا تبدو غريزة كائن بشري، وإنما نهر مائج. وقد تحولنا، منذ المرة الأولى، إلى مجنونين في الفراش، كان لزوجها - مثل خوان بريقا - جسد مارد وصوت طفلة. وكان ضابطاً في الأمن العام من جنوبي البلاد، يجرجر سمعة سيئة بأنه كان يقتل الليبراليين كيلا يفقد دفته في التصويب

وحسب. كانا يعيشان في غرفة مقسومة بحاجز من الكرتون. لها باب يؤدي إلى الشارع، وآخر يطل على المقبرة. فكان الجيران يتدعون من أنها تطلق واحة الموتى، بنباح الكلية السعيدة الذي تطلقه. ولكن الموتى كانوا يبتهجون منها، دون ريب، أكثر مما يقلقون، كلما كان نباحها أقوى.

في الأسبوع الأول، اضطرت إلى الهرب من الحجرة، في الرابعة فجراً، لأننا أخطأنا في تاريخ اليوم. وكان يمكن للضابط أن يعود في أي وقت. خرجت من الباب المؤدي إلى المقبرة، خلال ضرو، الفجر الكاذب، ونباح الكلاب مزعجة الموتى. وعلى جسر القناة المائية الثاني، رأيت تقدم هيئة ضخمة لم أتعرف على صاحبها، إلى أن تحاذينا، لقد كان الرقيب شخصياً. وكان سجدني في بيته، لم أنني تأخرت، خمس دقائق أخرى.

- صباح الخير أيها الأبيض - قال لي بنيرة ودودة.

وأجبت دون قناعة بما أقول:

- فليحفظك الرب، أيها الرقيب.

توقفت عندئذ ليطالب مني ناراً. قدمتها إليه، وقد اقتربت منه كثيراً لأحسي عود النقب من ريع الفجر. وعندما ابتعد بالسيجارة المشتعلة، قال لي براج رائق:

- تبعث منك رائحة عاهرة لا طاقة لك بها.

دام رعيي أقل مما كنت أتوقع. ففي يوم الأربعاء التالي غلبني النوم ثانية. وعندما فتحت عيني وجدت نفسي في مواجهة الخصم المتضرر الذي كان يتألمني بصمت، من طرف السرير. كان رعيي شديداً إلى حد

وجدتُ معه مشقة في مواصلة التنفس. فحاولت المرأة، وكانت لا تزال غارية أيضاً، أن تتدخل، لكن زوجها أبعدّها جانباً، بسبطانة المسدس قائلاً:

- لا تتدخلِي. مسائل الفراش تُحل بالرقاص.

وضع المسدس فوق الطاولة، ثم فتح زجاجة روم، ووضعها إلى جانب المسدس، وجلسنا وجهاً لوجه لنشرب دون كلام. لم أكن قادراً على تصور ما الذي سيفعله. ولكنني فكرتُ في أنه لو أراد قتلي لفعل ذلك، دون مراوغة. بعد قليل، ظهرت نيفروماتنا مشدرة جلاء، وعلى رأسها قلنسوة احتفالية، ولكنه صوب إليها المسدس قائلاً:

- هذه مشكلة رجال.

فقفزت هي واختبأت وراء الحاجز،

كما قد أنهيتا الزجاجة الأولى، عندما اتهم وابل المطر. وفتح عندئذ الزجاجة الثانية، وأستد فوهة المسدس إلى صدغه وحدق في بعيتين جامدتين. ثم ضغط عندئذ الزناد حتى أقصاه. ولكن مطرقة ردت في الفراغ. وحين قدّم إليّ المسدس، بدا عاجزاً من التحكم بارتعاش يده. وقال لي:

- الآن دورك.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أمسك فيها بمسدساً بيدي. وقد قاجاني أنه ثقيل وساخن. لم أدر ما عليّ عمله. كنتُ مبهلاً بعروق جليدي، ويطني مترع يزيد ملتهب. أردتُ أن أقول شيئاً، ولكن صوتي لم يخرج. لم أفكر في إطلاق النار عليه، وإقفا أعدت إليه المسدس. دون أن أدرك أن تلك كانت فرصتي الوحيدة.

- ماذا، هل تيرزث؟ - سألتني بازورا. سعيد، وأضاف: - كان عليك أن تفكر في هذا، قبل أن تأتي هنا.

كان بإمكانني أن أقول له إن الفحول يتبرزون أيضاً. ولكنني أدركت أنني لا أجرؤ على مثل تلك الدعايات القاتلة. عندئذ فتح طاحونة المسدس، وأخرج الطلقة الوحيدة، وألقى بها على المنضدة: كانت فارغة. لم يكن ما شعرت به هو الراحة، وإقفا مذلة رهيبة.

خفتُ قوة وابل المطر، قبل الساعة الرابعة. وكلتا كان منهوكاً بسبب التوتر. حتى إنني لا أتذكر في أي لحظة، أصدر لي الأمر بارتداء ملابس، فأنصعتُ بقدر من مهابة البارزة. وعندما عاد للجُلوس فقط، انتبستُ إلى أنه هو الذي كان يبكي، بغزارة ودون خجل، كما لو أنه يتباهى بدموعه. وأخيراً مسحها بظاهر يده. ونف أنفه بأصابعه، ونهض واقفاً.

- هل تعرف لماذا مستخرج من هنا حياً؟ - سألتني. ثم أجاب هو نفسه: - لأن أباك هو الشخص الوحيد الذي عاجلني من إصابة بالسبلان. جعلتني مثل كلب عجوز، ولم يستطع أحد مداواتي منها طوال ثلاث سنوات.

ريت على ظهري تربية رجل، ودفعني إلى الشارع. كان المطر لا يزال متواصلاً، وكانت البلدة غارقة، فمضيت في الطريق، والماء يصل حتى ركبتي، ويخدر أنني ما زلت حياً.

لستُ أدري كيف علمت أُمي بالأمر. ولكنّها بدأت في الأيام التالية، حملة مهووسة، لمنعي من مغادرة البيت ليلاً. وصارت تعاملني في أثناء ذلك، مثلما عاملت أبي، بأساليب إلها. لم تكن تنفع كثيراً.

كانت تبحث عن إشارات تدل على أنني قد خلعت ملابسني خارج البيت، وتكشف آثار عطور لا وجود لها، وتعد لي أطعمة صعبة، قبل أن أخرج إلى الشارع، إيماناً منها بالخرافة الشعبية بأن زوجها وابنها لن يتجرأا على ممارسة الحب، في أثناء عملية هضم تلك المأكولات، وأخيراً، عندما لم نجد في إحدى الليالي، مزيداً من الأعذار، لاحتجازي في البيت، جلست قبالي وقالت لي:

- يقولون إنك متورط مع امرأة شرطي. وإنه أقسم أن يطلق عليك رصاصة.

تمكنت من إقناعها بأن ذلك غير صحيح، ولكن الإشاعة تواصلت بالحاح، وكانت تثير وسائنا ترسل إلي المراسيل بأنها وحيدة، وأن زوجها قد غادر في مهمة، وأنها لم تره منذ بعض الوقت، وكنت أبتذل كل ما هو ممكن، كيلا ألتقي به، ولكنه كان يسارع إلي محبتي عن بُعد، بإيحاء يمكن لها أن تكون مصالحة أو تهديداً على السواء. وقد رأيت آخر مرة في إجازة السنة التالية، في ليلة عريضة دعاني خلالها، إلى تناول كأس روم ثقيل لم أجهز على رفضه.

لست أدري، بسبب فنون أية شعوبة بدأ الأساتذة والزملاء الذين اعتبروني على الدوام طالباً منزوياً، ينظرون إلي في السنة الخامسة، كشاعر ملعون، وريث أجواء الانفتاح التي ازدهرت في عهد المدير كارلوس مارتين. ألا تكون رغبتني في الظهور بهذه الصورة، هي ما دفعني إلى البدء بالتدخين في المعهد، وأنا في الخامسة عشرة؟ كانت ضربة التدخين الأولى رهيبة. فقد أمضيت نصف ليلة أحتضن، وسط قبضي على أرض الحمام، وطلع علي الصباح مستنفذاً، لكن آثار سكرة

التبغ تلك، بدل أن تبعث في القرف، آثاراً لدي رغبات لا تقاوم في مواصلة التدخين. وهكذا بدأت حياتي كمُدخن ضار، إلى حد أنني لم أعد قادراً على التفكير في جملة واحدة، ما لم يكن فمي ممتلئاً بالدخان. لم يكن التدخين مسموحاً في المعهد، إلا خلال الاستراحات، ولكنني كنت أطلب الإذن للذهاب إلى المراض، مرتين أو ثلاث مرات في كل درس، لكي أخدم لهفتي إلى التدخين وحسب. وهكذا وصلت إلى تدخين ثلاث علب من ذات العشرين سجارة، في كل يوم، وقد أ تجاوز الأربعة في صعب الليل، وفي إحدى الفترات، بعد مغادرة المعهد، حسبت أنني سأصاب بالجنون، بسبب جفاف الحلق وآلام العظام، فصمت على ترك التدخين، لكنني لم أصمد أكثر من يومين، من الجزع.

لا أدري إذا ما كان هذا هو نفسه ما أطلق يدي في النشر، في الواجبات المدرسية المتزايدة الجحش التي كان يطالبنا بها الأساتذة كالديرون. ولقي كتب نظرية الأدب التي كان يقرض علي، بالإكرام تقريباً، أن أقرأها، واليوم، بينما أنا أسترجع حياتي، أتذكر أن مفهومي للقصة القصيرة، كان بدائياً على الرغم من كثرة القصص التي قرأتها، منذ انبهارني الأول بقصص ألف ليلة وليلة، حتى إنني نجرت على التفكير في أن العجائب التي تروها شهرزاد، كانت تحدث فعلاً، في الحياة اليومية، في عصرها. ولم تعد تحدث بسبب عدم تصديق الأجيال التالية، وجبنها الواقعي. وكان يبدو لي أنه من المستحيل، للسبب نفسه، أن يعود أحد في عصرنا إلى تصديق أنه يمكن الطيران فوق المدن والجبال، على متن حصيرة، أو أن يُعاقب عبد من كارتاخينا دي إندياس بالعيش، سنتي سنة، داخل قارورة، اللهم إلا إذا كان مؤلف القصة قادراً على جعل قرائه يصدقون ذلك.

كانت الدروس تُصْجَرَتِي، باستثناء دروس الأدب - التي كنتُ أحفظها عن ظهر قلب - حتى صرت البطل الوحيد فيها، وللملح من الدراسة، كنتُ أترك كل شيء، لمشيلة حسن الطالع، وقد كنتُ أفتح بغيره خاصة يمكنني من حشد نقاط الضعف عند كل معلم، فأتوقع بصورة تقريبية، ما هو أهم ما يشير اهتمام المعلمين، كيلا أدرس ما عداه. والواقع أنني لم أكن أفهم لماذا يتوجب علي التضحبة بالهزيمة وبالوقت، في دراسة مواد لا تحرك مشاعري، ولن تفيدني كذلك، مطلقاً، في حياة هي ليست حياتي.

وقد تجرأت على التفكير في أن معظم أساتذتي يقبسونني، تبعاً لطريقتي في الحياة، وليس وفق امتحاناتي. فقد كانت تنقذني إجاباتي غير المتوقعة، وخواطري الجنونية، وابتكاراتي غير العقلانية. ومع ذلك، عندما أنهيت السنة الخامسة بامتياز أكاديمي، لا أشعر بأنني قادر على تجاوزه، أدركت مدى محدوديتي. كانت الثانوية حتى ذلك الحين، طريقاً معبداً بالمعجزات، ولكن القلب كان ينتهني إلى أنه ينتظرني، في نهاية السنة الخامسة، سواء لا يمكنني تجاوزه. والحقيقة العازية من الزخرف هي أنه كانت تنقصني الإزادة، والميل، والتنظيم، والنقود، والإملاء، لكي أفكّر من الالتحاق بدراسة أكاديمية جامعية. وبكلمة أخرى: كانت السنوات تقضي طيرافاً، دون أن تكون لدي أدنى فكرة عما سأفعله في حياتي. وكان لا بد من مضي زمن طويل، قبل أن أدرك أن حالة الهزيمة تلك، مواتية أيضاً. لأنه لا وجود لشيء في هذا العالم، ولا في العالم الآخر، إلا له فائدة للكاتب.

ولم تكن أوضاع البلاد أحسن حالاً. فقد استقال ألقونسو لويث

بوعارخو من رئاسة الجمهورية في الثالث عشر من تموز ١٩٤٥، بعد أن حاصره المحافظون الرجعيون بضراوة. خلفه أليبرتو بيراس كامارغو، الذي عينه مجلس الشيوخ، ليكمل السنة الأخيرة من الفترة الرئاسية. ومنذ خطابه في تولي المنصب، يصوته المسكن ونشره الأسلوب الفخم، بدأ بيراس المهمة الواهمة في تهدئة خواطر البلاد، تمهيداً لانتخاب رئيس جديد.

وبوساطة من المستشير لوبيث بيراس، أمين عم الرئيس الجديد، توصل مدير المعهد إلى تحديد موعد للقاء خاص مع الرئيس، من أجل طلب مساعدة من الحكومة، لرحلة طلابية إلى ساحل الأطلسي. ولم أدو أيضاً لماذا اختارني المدير لمرافقته إلى ذلك الاجتماع، شريطة أن أرتب قليلاً، شعري المشعث وشايري المتفوش. وكان المدعوون الآخرون هم غييرمو لوبيث غيراً، وهو من معارف الرئيس، وألفارو رويث توريس، ابن أخت لورا فيكتوريا، وهي شاعرة مشهورة بموضوعاتها الجريئة في "جيل الجُدُد"، الذي كان ينتمي إليه الرئيس بيراس كامارغو نفسه أيضاً. لم أجد مخرجاً آخر، وفي ليلة السبت، بينما غييرمو غرانادوس يقرأ في قاعة النوم رواية لا علاقة لها بعائتي، قام صبي حلاق متدرب من طلاب السنة الثالثة، بقص شعري كمجد غراً، وشذب لي شارب تائفو. وقد تحمّلت، طوال ما تبقى من ذلك الأسبوع، سخريات الطلاب الداخليين والخارجيين، من مظهري الجديد. كان مجرّد التفكير في الدخول إلى القصر الرئاسي، يجمد الدم في عروقي. ولكن ذاك كان خطأ من القلب، لأن الملصح الوحيد لغموض السلطة الذي وجدناه هناك، هو الصمت الساوي. وبعد انتظار قصير في قاعة الانتظار ذات السجاد وستائر المخمل، اقتادنا ضابط بالزي العسكري إلى مكتب الرئيس.

كان مظهر الرئيس بيراس كامارغو، قليل الشبه بصوره. وقد أثر في ظهره الثلث، ببدة الجوخ الإنكليزي المتقنة، ووجنتيه البارزتين، وشحوب الرق في بشرته، وأستان الطفل الحبيث التي كانت تفتن رسامي الكاريكاتير. وبطء حركاته، وطريقته في المصافحة، وهو ينظر مباشرة إلى العيتين. لا أذكر ما هي الفكرة التي كانت لدي عن الرقصاء، ولكنني لا أظن أنهم جميعهم مثله. ومع مرور الزمن، عندما تعرفت عليه بصورة أفضل، أدركت شيئاً، ربما لن يعرفه هو نفسه أبداً، أنه كاتب قد ضل الطريق، قبل أي شيء آخر.

بعد أن استمع إلى كلمات المدير، باهتمام أكثر من جلي، قدم بعض التعليقات المناسبة. ولكنه لم يتخذ قراره، قبل أن يستمع كذلك، إلى الطلاب الثلاثة، وقيل ذلك باهتمام مماثل، وأشعرنا بأننا نُعامل بالاحترام واللفظ نفسيهما اللذين يعامل بهما المدير، وكانت الدقيقتان الأخيرتان كاقبعتين لنوقن أنه يعرف في الشعر، أكثر مما يعرف في الملاحظة الثمينة. وأن اهتمامه به أكثر من اهتمامه بها بكل تأكيد.

منحتنا كل ما طلبناه، ووعد فوق ذلك، بحضور احتفال نهاية العام الدراسي في المعهد، بعد أربعة شهور. وقد فعل ذلك، مثلما يحضر أكثر نشاطات الحكومة جذبة، وضحك أكثر من الجميع من كوميديا المواقف المضحكة التي قدمناها على شرفه. وابتهج في حفل الاستقبال الختامى، كما لو أنه طالب آخر من طلاب المعهد، ويظهر مختلف عن مظهره الرسمي. ولم يستطع مقاومة إغراء القيام بمداعبة طلابية، حين مدَّ إحدى ساقيه، معترضاً طريق من كان يوزع الكؤوس، فلم يتمكن هذا من تفادي الوقوع، إلا بصعوبة.

ذهبت، مسلحاً بحماس حفلة نهاية العام الدراسي، لقتضاء إجازة السنة الخامسة مع أسرتي. وكان أول خبر قدموه لي هو الخبر السعيد جداً، بأن أخي لويس إنريكي قد رجع بعد أن أمضى سنة وستة شهور في دار الإصلاح. وقد فاجأني مرة أخرى، بحسن طبعه. لم يكن يشعر بأدنى قدر من الضغينة على أحد، بسبب الحكم عليه. وكان يروي المصائب بمزاج مرح لا يهزم. وقد توصل في تأملاته، وهو سجين، إلى النتيجة بأن أبونا قد أدخله الإصلاحية بطيب نية. ومع ذلك، فإن حماية المطران وتوصيته لم تعفياه من التعرض لشجارب قاسية في حياة السجن اليومية. ولكن بدل أن تقسده تلك المحن، وتغرقه في الضلال، أغنت طبعه ومزاجه الساخر.

وكانت أول وظيفة شغلها بعد عودته، هي منصب سكرتير عمدة سوركري. وبعد بعض الوقت، أصيب العمدة بشوعك مفاجئ في المعدة، فوصف له أحدهم دواءً سحرياً نزل للتو إلى السوق؛ ألكاسيلتير. ولكن العمدة لم يذب ذلك الدواء في الماء، وإنما ابتلعه مثلما يتلع أي قرص دواء عادي. ولم يختنق بأعجوبة، بالفوران الذي أحدثه الدواء الفوار في معدته. وقبل أن يستعيد الطمانينة من الذعر الذي أقم به، احتاج إلى عدة أيام من الراحة. ولكن كانت لديه أسباب سياسية تحول دون تكليفه أي واحد من معاونيه الشرعيين، بمهام منصبه؛ فمنح التفويض المؤقت لأخي. وبسبب هذه المصادقة الغريبة - وهو دون السن القانونية للمنصب - دخل لويس إنريكي تاريخ البلدية، باعتباره العدة الأصغر سناً.

الشيء الوحيد الذي كان يقلقني حقاً، في تلك الإجازة، هو اليقين بأن أفراد أسرتي، في أعماق قلوبهم، يبنون مستقبلهم على ما يعقدونه

من أمال علي. وكنت أنا الوحيد الموقن من أن تلك الأمال ليست سوى أوهام باطلة. وقد جعلتني جملتان عارضان أو ثلاث، قالها أبي أثناء الغداء، أدرك أن هناك الكثير مما يجب الحديث فيه عن مصيرنا المشترك. فسارعت أبي إلى التأكيد: "إذا ما استمرت الحال على هذا المنوال، فسوف نضطر عاجلاً أو آجلاً، إلى العودة إلى كاناكا." ولكن نظرة واحدة من أبي، دفعته إلى التصحيح:

- أو إلى أي مكان آخر.

لقد صار الأمر واضحاً عندئذ: احتمال انتقال جديد إلى أي مكان، هو موضوع مطروح في الأسرة. ليس بسبب الجو الأخلاقي، وإنما من أجل مستقبل أوسع أفقاً للأنثى. لقد كنت أجد العزاء حتى ذلك الحين، بفكرة أن أعزو روح الهزيمة التي أعاني منها، إلى القرية وناسها، وحتى إلى أسرتي. ولكن دواماتيكية أبي كشفت لي مرة أخرى أنه من الممكن، دوماً، العثور على مذنب لكي لا يكون أحداً هو نفسه المذنب.

ما لمحت في الجو، كان شيئاً أشد زخماً. فأمي تبدو مهتمة فقط، بحالة خيمي الصحية. وهو الابن الأصغر، الذي لم يستطع تجاوز وضعه كخديج. فكانت تقضي معظم اليوم، مستلقية معه في أرجوحته في حجرة النوم، مشغولة بالحزن والحزن الملل. وبدأ البيت يتصدع بسبب إهمالها. فبدأ أخوتي طليقي العنان، دون عراية تحميهم. وكان نظام تناولي الطعام قد تراخى كثيراً، بحيث صرنا نأكل دون توقيت معين، كلما أحسنا بالجوع. أما أبي، وهو أكثر الرجال تعلقاً بالبيت، فصار يقضي النهار، متأملاً الساحة من الصيدلية، ويذهب في المساء للعب بضعة أدوار في نادي البيلياردو. لم أستطع، في أحد الأيام، محصل

المزيد من التوتر، فاستلقيت إلى جانب أمي في أرجوحة النوم، مثلما لم أستطع أن أفعل في طفولتي. وسألتها ما هو السر الذي يجري تنفسه في أجواء البيت، فابتلعت زفرة كاملة، كيلا يرتجف صوتها، وفنحت لي روحها: - لأبيك، ابن في الشارع.

ومن الراحة التي أحسست بها في صوتها، أدركت كم كانت تلهف لسؤالي. لقد اكتشفت الحقيقة ببصيرة الغيرة. عندما رجعت إحدى طفلات الخدمة إلى البيت متأثرة، لأنها رأت أبي يشكلم بالهاتف في مركز التلغراف. ولم تكن امرأة غبورة مثل أمي بحاجة لمعرفة المزيد. فذلك الهاتف هو الوحيد في القرية، ولا يُستخدم إلا في المكالمات الخارجية، وبناء على موعد مسبق، مع ما يتخلل ذلك من انتظار غير مؤكد ودقائق غالية التكاليف، مما يحصر استخدامه في الحالات الحرجة القصوى. فكل مكالمات، مهما كانت بسيطتها، توقظ النذر الحبيشة في مجتمع الساحة. ولهذا، عندما وجع أبي إلى البيت، راحت أمي تراقبه دون أن تقول شيئاً، إلى أن مرقق قصاصة ورقية كانت في جيبه تتضمن إشعاراً باستدعائه قضائي بنهضة سوء استغلال المهنة. انتظرت أمي الفرصة المواتية لتسأله مباشرة، ودون مقدمات، عن مكان يكلمه بالهاتف. وكان السؤال مبعثاً جداً، لم يجد معه أبي جواباً سريعاً قابلاً للتصديق، أكثر من الحقيقة:

- كنت أكلم محامياً.

فقال أمي:

- هذا أعرفه. ولكنني بحاجة لأن تخبرني ذلك أنت بالذات، وبالصراحة التي أستحقها.

وقد وافقت أمي قبما بعد، على أنها هي من أصابها الرعب من القدر المتعقبة التي يمكن لها أن تكون قد كشفت الغطاء عنها، دون أن تتنبه، لأنه إذا كان قد نجراً على قول الحقيقة لها، فيأثم فعل ذلك، لاعتقاده بأنها تعرف كل شيء، وأن عليه أن يخبرها به.

وهذا ما حدث، اعترف أبي بأنه تلقى إشعاراً بدعوى قضائية ضده، بتهمة اغتصاب مريضة مخدرة بحقنة مورفين في عيادته. الحادثة وقعت في مركز قضائي متسي، حيث أمضى فترات قصيرة لعلاج مرضى لا يملكون موارد، وقدم على الفور دليلاً بيئاً على نزاهته؛ ميلودراما التخدير والاغتصاب هي تلميح إجرامية دبرها أعداء له. أما الطفل فهو منه فعلاً، وحبلت به أمه في ظروف طبيعية.

لم يكن من السهل على أمي، تفادي القضية، لأن شخصاً من الوزن الثقيل هو الذي كان يحرك خيوط المؤامرة في الظل، لقد كانت هناك سابقة أبيلاردو وكارمن روسا، اللذين عاشا معنا في فترات مختلفة محاطين بحبة الجميع، ولكن كليهما ولد قبل زواج أمي وأبي، ومع ذلك، فقد تجاوزت أمي الضغينة أيضاً بجرعة الابن الجديد المريرة، وعدم وفاء الزوج، وناضلت إلى جانبه بوجه سافر، إلى أن قضت على اكذوبة الاغتصاب.

عاد السلام إلى الأسرة، ومع ذلك، فقد وصلت بعد قليل، أخبار سرية من المنطقة نفسها، عن طفلة من أم أخرى اعترف بها أبي على أنها ابنته، وكانت تعيش في ظروف يرثى لها، لم تضيق أمي الوقت في منازعات وافتراسات، وإنما خاضت معركة إحضارها إلى البيت، وقد قالت في تلك المناسبة: "لقد فعلت ميثاً الشيء نفسه بأبناء أبي المبعثرين، ولم تندم على

ذلك قط." وهكذا تمكنت بتفلسفها من جعلهم يرسلون الطفلة إليها، دون ضجة عامة، وضمتها إلى الأسرة كبيرة العدد، أصلاً.

كل تلك الأمور كانت قد صارت جزءاً من الماضي، عندما وجد أخي خيمي، في حفلة في قرية أخرى، صبيّاً يشبه أخي غوستافو إلى حد التطابق، وكان ذلك هو الابن الذي تسبب في النزاع القضائي، وقد كبر جليداً محاطاً برعاية أمه، ولكن أمنا قامت بكل أنواع المساعي، وأحضرت له يعيش معنا في البيت - عندما كان عدونا أحد عشر ابناً - وساعدته على تعلم مهنة، وعلى الانطلاق في الحياة، عندئذ لم أستطع إخفاء دهشتي من إقدام امرأة غيبور إلى حد الهتكان، على مثل تلك التصرفات، فردت عليّ هي نفسها، بجملة ها زلت أحفظها، منذ ذلك الحين، مثل قطعة ألماس؛

- لا يمكن ترك من يحملون دم أبنائي نفسهم، هائمين على وجوههم، كنت أرى אחותي في إجازاتي الستوية فقط، وبعد كل رحلة، كنت أجد صعوبة أكبر في التعرف عليهم، وفي حفظ اسم جديد في ذاكرتي، فإضافة إلى أسمائنا المعهودة، كان لكل واحد منا، اسم آخر في البيت، ينادوننا به فيما بعد من أجل البساطة اليومية، ولم يكن تصغيراً لاسمنا وإنما لقباً عارضاً، فأنا، منذ لحظة ميلادي دعوني غابيتو - وهو تصغير غير نظامي لاسم غابرييل في ساحل غواخيرا - فكنت أشعر على الدوام بأن هذا هو اسمي الأول، وأن اسم التصغير هو غابرييل، وقد سألتنا شخص أدهشته تلك التسميات الغريبة، لماذا لم يُعمد أبوانا منذ الأصل، جميع أبنائهم بالأسماء المستعارة.

ومع ذلك، فإن ليرالية أمي تلك، هدت كما لو أنها تخفي باتجاه

معاكس، في موقفها من ابنتيها الكبيرتين، مارغوت وعائدا، اللتين حاولت أن تفرض عليهما الصرامة نفسها التي فرضتها أمها عليها في أثناء غرامياتها مع أبي. كانت تريد الانشقاق من القرية، أما أبي بالمقابل، الذي لم يكن بحاجة إلى سماع ذلك مرتين، من أجل أن يجمع أمتعته وينطلق عبر العالم، فلم يكن موافقاً على الرحيل، في تلك المرة. انقضت عدة أيام، قبل أن أعرف أن المشكلة هي وقوع الابنتين الكبيرتين في حب رجلين مختلفين، ولكن لهما الاسم نفسه: رافائيل. وعندما أخبروني بذلك، لم أستطع منع نفسي من الضحك. وأنا أتذكر رواية الرعب التي عانى منها أبي وأمي. وقد قلتُ لها ذلك. فودت:

- الحالة ليست نفسها.

فقلتُ بإصرار:

- بل هي نفسها.

- حسن - قالت بشيرة مصالحة - إنها نفسها، ولكنها مكررة

مرتين، في الوقت نفسه.

ومثلما حدث لها في حينه، لم يكن ثمة نفع لأية مبررات أو مساع، لم يُعرف قط، كيف علم الأبوان بالأمر. لأن كلاً من أختي، كانت قد اتخذت، على أفراد الاحتمالات كيبلا ينكشف أمرها. ولكن الشهود كانوا هم الأشخاص الذين لا تفكران في الارتياح بهم، إذ كانت الاختان تأخذان معهما أحياناً أحد أخوتنا الصغار، لإضفاء المصداقية على براعتيها. وكانت المفاجأة الكبرى هي أن أبي نفسه شارك أيضاً في ترصدهما، ليس بصورة مباشرة، ولكن بالإصرار السلبي نفسه الذي مارسه الجلد نيكولاس، ضد ابنته.

كما نذهب إلى حفلة رقص، فيدخل أبي إلى الحفلة ويعيدنا إلى البيت، إذا ما اكتشف وجود الرافائيلين هناك، هذا ما روت عائدا روسا في مقابلة صحفية. لم يكن أبواي يستحان لهما برحلة إلى الريف أو بالذهاب إلى السينما، أو إرسالن معهما شخصاً لا يتوقف عن مراقبتهما، وكانت كل واحدة منهما تختلق ذرائع غير مجددة للذهاب إلى مواعيدها الغرامية، فيظهر هناك شيخ غير مرتي بشي بهما. وقد اكتسبت أختي ليخيا، التي تصغرهما، الشهرة بأنها جاسوسة وواسية، ولكنها هي نفسها كانت تبرز تصرفها بحجة أن الغيرة بين الأخوة هي طريقة أخرى في الحب.

حاولتُ في تلك الإجازة أن أندخل لدى والدي، كيلا يكررا الأخطاء التي اقترفتها أبواي ضدها، فكانا يجدان على الدوام، أنبياءاً ملتوية لعدم التفهم. وكان أكثر تلك الأسباب إثارة للرهبة، هو المنشورات التي كشفت أسراراً فظيعة - حقيقية أو مختلفة - حتى في أقل الأسر إثارة للشكوك. فقد وشت بأبواب مستترة، وخيانات زوجية مخجلة، ومفساد فراش كانت معروفة للكل عبر أساليب أكثر بساطة من المنشورات. ولكن لم يُعلق أي منشور يكشف أمراً غير معروف بطريقة ما، مهما كان خفياً، أو أمراً سيحدث عاجلاً أو آجلاً. وكان أحد الضحايا يقول: "المنشورات من فعل الشخص نفسه".

ما لم يحسب أبواي حسابه، هو أن ابنتيهما ستدافعان عن نفسيهما بالأساليب نفسها التي اتبعها هما. لقد أرسلوا مارغوت لتدرس في مونتريال، وذهبت عائدا بقرار منها إلى سانتا مارتا. كانتا داخلتين. وفي أيام العطل، يكون هناك شخص متيقظ يراقبهما. ولكنهما كانتا

تقديران الأمر دوماً. للاتصال بالرافاتيلين البعيدين. ومع ذلك، فقد نجحت أُمي في ما لم يتجح به أبواها معها. إذ أمضت عايدا نصف حياتها في دير، وعاشت هناك دون أحزان ولا أمجاد، إلى أن شعرت بأنها صارت بمنجى من الرجال، وبقينا أنا ومارغوت متحدين دوماً، بذكريات طفولتنا المشتركة، عندما كنتُ أنا نفسي أراقب الكيار كيلا يضبطوها وهي تأكل التراب. وصارت أخيراً مثل أم ثانية للجميع، وبخاصة كيكي، الذي كان يحتاج إليها أكثر من سواه، وأبقتة معها حتى نفسها الأخير.

اليوم فقط. لاحظ إلى أي حد كانت حالة أُمي المعنوية، والتوترات الداخلية في البيت، متطابقة مع تناقضات البلاد الفاتلة التي لم تكن تخرج إلى العلن، بيد أنها موجودة. كان على الرئيس بيراس أن يدعو إلى انتخابات في السنة الجديدة. وكان المستقبل يبدو مكفهرًا. فالمحافظون الذين تمكنوا من الإطاحة بلوبيث، حققوا بذلك الحدث لعبة مزدوجة: فهم يملقون الرئيس الجديد، باستداح عدم تحيزه وحياده المحسوب رياضياً، غير أنهم يشجعون الشقاق في بروتشيا، ليستولوا مجدداً على السلطة بالحق أو بالقوة.

ظلت سوكري مستثناة من العنف. والحالات القليلة التي تُذكر، لم تكن لها أي علاقة بالسياسة. إحدى تلك الحالات هي اغتيال خواكين بيرغا. وكان موسيقياً محبوباً يعزف البومباردينو^(١) في الجوقة الموسيقية المحلية. وقد كان يعزف في الساعة السابعة مساءً، عند مدخل السينما، عندما وجه إليه أحد أقربائه المعادين، ضربة واحدة بحد السكين على

(١) آلة موسيقية نحاسية من آلات النفخ.

عنقه المنتفخ من النفخ في آله الموسيقية. ونزف على الأرض حتى الموت. كلاهما كان محبوباً في القرية. والتفسير الوحيد المعروف، وغير المؤكد، هو أنها قضية شرف. في تلك الساعة بالذات، كنا نحتفل بعيد ميلاد أختي ريتا، فأفسدت صدمة الخبر الحفلة التي كان مقرراً لها أن تستمر عدة ساعات.

المبارزة الأخرى، وهي سابقة جداً لتلك، ولكنها لا تحي من ذاكرة القرية، كانت بين بلينيو بالماسيدا وديونيسيانو باريوس. أولهما ينتمي إلى أسرة قديمة ومحترمة. وقد كان هو نفسه، رجلاً ضخماً ولطيفاً. ولكنه يتحول إلى باحث عن المشاكل أيضاً وذو طبع مشاكس، عندما يسرف في تناول الكحول. فحين يكون بكامل وعيه، يتمتع بمزاج وظرف أي رجل مهذب. غير أنه إذا ما زاد عيار الشرب، صار عريضاً يسرع بالليحوة إلى المسدس، ويحمل سوط قارس على خصره بجلده به من لا يروقه مظهره. وكانت الشرطة نفسها تحاول إبقائه بعيداً عنها، تفادياً لشروره. وقد تعب أفراد أسرته الطيبة من جرجرته إلى البيت، كلما أسرف في الشراب، وانتهى بهم الأمر إلى التخلي عنه لمصيره.

أما ديونيسيانو باريوس فكان تقيض ذلك: رجل خجول وعائر الحظ، عدو الخصام. ولا يشرب الكحول منذ مولده. لم تحدث له أي مشكلة مع أحد قط، إلى أن بدأ بلينيو بالماسيدا يستغزه بسخريات مهيبة من مسكنته وطيبته. فصار يتجنه كيفما استطاع، حتى اليوم الذي صادفه بالماسيدا في طريقه وصنع وجهه بسوطه، لأنه رغب في عمل ذلك. عندئذ تغلب ديونيسيانو على خجله، وعلى خنوعه وسوء طالعده، وتواجه مع المعتدي بالرصاص. كانت مباراة سريعة، سقط

كلاهما جريحاً في حالة خطرة، ولكن دهرنيسبانو وعده هو الذي مات.
ومع ذلك، فإن المبارزة التاريخية في القرية، هي الموت التوهم الذي
أودى بحياة بلينيو بالماسيدا المذكور، وتاسيو آثاناياس، وهو رقيب
شرطة مشهور بتأثفه، وابن مثالي لماوريشيو آثاناياس، عازف الطبل في
الجوقة الموسيقية نفسها التي كان يعزف فيها خواكين بيغا آلة
البومباردينو. كانت مبارزة رسمية في منتصف الشارع. وقد أصيب
فيها كلاهما، بجرح بليغ، واحتضر كل منهما طويلاً في بيته. استعاد
بلينيو الصحو بعد المباراة مباشرة تقريباً، وأبدى قلقه فوراً على مصير
آثاناياس. وفوجئ هذا الأخير بدوره من القلق الذي يتضرع به بلينيو،
من أجل نجاته. فبدأ كل منهما يتوسل إلى الله ألا يموت الآخر. وأبقت
أسرتهما كلاً منهما على اطلاع على حال الآخر حتى النفس الأخير.
وعاشت القرية كلها حالة الدهول تلك، بإذلة كل أنواع الجهود لإطالة
حياتيهما.

بعد أربع وعشرين ساعة من الاحتضار، قُرعت أجراس الكنيسة،
حداداً على امرأة ماتت لتوها. سمع المحتضران الأجراس، وظن كل منهما
في سريره، أنها تُقرع لموت الآخر. توفي آثاناياس على الفور تقريباً من
الحزن، وهو يبكي صوت بلينيو. عترف هذا الأخير بالأمر، فمات بعد
يومين، وهو يبكي بحرقه على الرقيب آثاناياس.

في بلدة أصدقا، مسالين مثل تلك، اتخذ العنف في تلك السنوات
مظهراً أقل فتكاً. ولكنه ليس أقل أذى: إنها المنشورات. كان الرعب
يتأجج في بيوت الأسر الكبيرة التي تنتظر طلوع صباح اليوم التالي،
مثل من ينتظر بانصيب القدر. وفي أقل الأماكن توقعاً، تظهر ورقة

عقابية، تكون مبعث راحة لما لا تقوله عن أحدهم، وأحياناً حفلة سرية لما
تقوله عن آخرين. وأبهي الذي ربما كان أكثر رجل مسالم عرفته، زينت
المسندس الموقر الذي لم يطلق النار قط، وأفلت لسانه في صالة البلياردو
صارخاً:

- من يخطر له أن يمس أي واحدة من بناتي بكلمة، سيناله رصاص
هذا الباسل.

بدأت أسر عديدة بالنزوح، خوفاً من أن تكون المنشورات مقدمة
للعنف البوليسي الذي كان يعيثُ خراباً بقرى بكاملها، في المناطق
الداخلية من البلاد، لتخويف المعارضة.

تحول التوتر إلى خبز آخر لكل يوم. في البدء جرى تنظيم دوريات
مشخفية، ليس للكشف عن كتيبة المنشورات، بقدر ما هي لمعرفة ما
تقوله، قيل أن تُمزق عند الفجر. وقد وجدنا نحن المتأخرين في السهر،
موظفاً بلدياً في الساعة الثالثة فجراً، يستمتع بالبرودة أمام باب منزله.
ولكنه في الحقيقة كان يترصد من يعلقون المنشورات. قال له أخي، بين
المزاح والمجد، إن بعض المنشورات تقول الحقيقة، فأخرج الرجل مسدسه
وصوبه مهياً:

- كرر ما قلته!

عندئذ علمنا أنهم قد علقوا في الليلة السابقة، منشوراً صحبياً،
ضد ابنة العازبة. ولكن المعلومات كانت متداولة بين الجميع، حتى في
بيته بالذات. والوحيد الذي لم يكن يعرفها هو أبوها،
بدأ جلياً في أول الأمر أن من يكتب المنشورات هو الشخص نفسه،
بالريشة نفسها، وعلى الورق نفسه. ولكن في سوق تجارية ضيقة كالتي

في الساحة، لم يكن هناك سوى متجر واحد بإمكانه بيع تلك الأوراق. وقد سارع صاحبه بالذات إلى إثبات براءته. وعرفت منذ ذلك الحين، أنني سأكتب رواية عن المنشورات، ولكن ليس عما تقوله، وهو في الغالب، تخيلات يعرفها الجميع، وليس فيها الكثير من الطرافة. وإنما عن التوتر غير المحتمل الذي توصلت تلك المنشورات إلى توليده في البيوت.

وفي "ساعة الشؤم"، روايتي الثالثة التي كتبها بعد عشرين سنة من ذلك، بدا لي أن أبسط متطلبات الاحترام تفرض عليّ عدم استخدام حالات محددة بعينها، أو يمكن التعرف عليها، بالرغم من أن بعض الحالات الواقعية كانت أفضل من تلك التي اخترقتها أنا. ولكنني لم أكن بحاجة إلى ذلك، لأنني كنت أهتم على الدوام، فضلاً عن ذلك، بالظاهرة الاجتماعية، أكثر من اهتمامي بحياة الضحايا الخاصة. وبعد أن نشرت الرواية فقط، عرفت أن منشورات كثيرة كانت سبباً للاحتفال في الأحياء الهامشية، حيث كنا مكروهين، نحن من نسكن في الساحة الكبرى.

والحقيقة أنني لم استفد من المنشورات، إلا كنقطة انطلاق في قصة لم أستطع تجسيدها في أي وقت. لأن ما كنت أكتبه بالذات كان يؤكد أن المشكلة، في أعماقها، هي سياسية، وليست أخلاقية مثلما كنت أعتقد. ولقد فكرت على الدوام، بأن روج نيجرومانشا هو نموذج جيد للعصدة العسكري في "ساعة الشؤم"، ولكنني بينما كنت أطوره كشخصية، راح يغويني ككائن بشري. ولم أجد مبرراً لأن أميته، ذلك أنني اكتشفت أنه لا يمكن للكاتب الجدي أن يقتل شخصية، ما لم يكن لديه مبرر مقنع. ولم يكن الموت مقنعاً في تلك الحالة.

إنني أرى اليوم، أنه يمكن للرواية نفسها أن تكون رواية أخرى. لقد كتبتها في فندق للطلاب في شارع كوجا، في الحي اللاتيني في باريس، على بعد خمسين متراً من جادة سان ميشيل، بينما الأيام تنقضي بانتظار شيك مصرفي لم يصل قط. وعندما أنهيتها، جعلت من الأوراق لفافة وربطتها بوحدة من ربطات العنق الثلاث التي أخذتها معي، في أزمدة أفضل، ودفنتها في قاع الخزانة.

بعد سنتين من ذلك، وبينما أنا في مدينة مكسيكو، لم أكن أعرف أين هي تلك الأوراق، عندما طلبت مني من أجل مسابقة في الرواية، تنظمها شركة إسو الكولومبية، وبجائزة قدرها ثلاثة آلاف دولار من نقود أيام الأزمات تلك. كان المبعوث هو المصور الضوئي غيسرمو أنغولو، صديقي الكولومبي القديم الذي كان يعرف بوجود أصول الرواية، منذ كنت أكتبها في باريس. وقد أخذها بالوضع الذي كانت عليه، وهي لا تزال مربوطة بربطة العنق، دون أن يشاح لي على الأقل، كتبها على البخار، بسبب ضيق الوقت. وهكذا أرسلتها إلى المسابقة دون أدنى أمل بالجائزة التي كانت تكفي لشراء بيت. ولكنني ما إن أرسلتها حتى أعلن عن فوزها، من قبل لجنة تحكيم سامية، في السادس عشر من نيسان، ١٩٦٢. وفي الساعة نفسها تقريباً التي ولد فيها ابني الثاني، غوثالو، وخبره تحت إبطه.

لم يكن قد أتبع لنا الوقت حتى للتفكير في الأمر. عندما تلقيت رسالة من الأب فيليكس ريشيرو، رئيس الأكاديمية الكولومبية للغة، والرجل الطيب الذي ترأس لجنة تحكيم الجائزة، ولكنه كان يجهل ما هو عنوان الرواية. وعندئذ فقط انتبهت إلى أنني في تسرع الساعة الأخيرة، نسيت كتابة العنوان على الصفحة الأولى: "قرية البراز تلك".

فأمر الأب ريسشيو حين عرف العنوان، وطلب مني عن طريق خيرمان بارغاس، وبأكثر الطرق تهدياً، أن أستبدله بعنوان آخر أقل فظاظاً، وأكثر ملاءمة لإيقاع الكتاب. وبعد تداول مطول معه، حسمت أصري بعنوان ربما ليس له علاقة كبيرة بالدراما، ولكنه ينفعها كراية، لتبحر في بحار التفاهة "ساعة الشوم".

بعد أسبوع من ذلك، دعاني الدكتور كارلوس أوانغو بيليث، سفير كولومبيا في مكسيكو، والمرشح حديثاً لرئاسة الجمهورية، إلى لقاء في مكسيكو ليطلعني على أن الأب ريسشيو يرجو لي أن أبدل كلمتين تبدوان له غير مقبولتين في النص الفائز: "الواقعي الذكري" و "استمنا". ولم أستطع أنا ولا السفير إخفاً دهولنا، ولكننا اتفقنا على أنه لا بد من إرضاء الأب ريسشيو للوصول إلى نهاية سعيدة، للمسايقة التي لن تنتهي، بحل غير متحيز. فقد قلت للسفير:

- لا بأس أيها السيد السفير. سوف أ حذف إحدى الكلمتين، ولكنك أنت من ستقدم لي الجميل باختيارها.

أطلق السفير زفرة راحة، وهو ي حذف كلمة "استمنا". وهكذا صُنِيَ الخلاف، وطُبعت الكتاب دار نشر إيبيروأفيريكا في مدريد، بطبعة كبيرة وإطلاقة هجومية: بغلاف من الجلد، وعلى ورق مضار، وبطباعة متقنة. ولكنه كان شهر عسل عابر، لأنني لم أستطع مقاومة إغراء القيام بقراءة متفحصة، فاكشفت أن الكتاب المكتوب بلغتي الهندية، قد جرت دبلجته - مثل أفلام ذلك الزمان - إلى أنصع اللهجات اللدرية.

كنت قد كتبت: "Así como ustedes viven ahora, no sólo están en una situación insegura sino que constituyen un mal ejemplo para el pueblo".

وقد بعثت إعادة الكتابة التي قدمها المحرر الإسباني التشعيرية في جلدي: "Así como vivís ahora, no sólo estás en una situación insegura sino que constituís un mal ejemplo para el pueblo" (١) والأخطر من ذلك، أن من يقول هذه العبارة هو كاهن. مما سيدفع القارئ الكولومبي إلى الظن أنها غمرة من المؤلف للإشارة إلى أن المحوري، في الرواية، إسباني، وهو ما سيعقد سلوكه، وينزع الأجواء الطبيعية قاصداً عن مظهر جوهري في الدراما. ولم يكتف المصحح بتعطيل النحو في الحوارات، بل خول نفسه التدخل بيد مسلحة في الأسلوب، فامتثل الكتاب بشرقيعات مدرديّة لا علاقة لها بالأصل، وبالتنتيجة، لم يبق لي من مخرج سوى عدم الاعتراف بتلك الطبعة، باعتبارها مزيفة، وجمع النسخ التي لم تُع وإحراقها. أما ردّ المسؤولين فكان الصمت الكامل.

منذ تلك اللحظة، اعتبرت الرواية غير منشورة، وانهمكت في المهمة القاسية لإعادة ترجمتها إلى لهجتي الكاريبية، لأن نسخة المخطوط الأصلية الوحيدة هي تلك التي أرسلتها إلى المسابقة. وهي نفسها التي ذهبت إلى إسبانيا، من أجل تلك الطبعة. وبعد إقرار النص الأصلي الذي صححته في أثناء ذلك، مرة أخرى بمبادرة مني، نشرت الرواية دار إيرا، في مكسيكو، مع التنبيه المطبوع والواضح بأنها الطبعة الأولى.

(١) الفوارق في تحويل الأفعال التي أضربنا بخط غتها من التكلم بكلفة، إلى التكلم برفع الكلفة. وهما أسلوبان تختلف دلالتهم (في اللغة المتداولة) في إسبانيا عما هي عليه في بعض بلدان أمريكا اللاتينية، وبخاصة الكاريبية منها. أما ترجمة العبارة فهي كما يلي: "هذه الحياة التي نعيشها الآن، لا تجعلكم في وضع غير آمن وحسب، وإنما تقدمان بها قدوة سيئة للقرية". وهذه العبارة يقولها الأب أخل في رواية "ساعة الشوم" لدون سيلاس وعشيقته وهو يحضنها على الزواج بصورة شرعية.

لم أدر قط، لماذا كانت "ساعة الشؤم" هي الوحيدة بين كتبي التي
تجاني إلى زمانها ومكانها. في ليلة ذات قصر كبير ونسمات ريفية.
كان ذلك في يوم صبت، وكان المطر قد انقطع، ولم تكن السماء تتسع
للتجوم. وكانت الساعة قد أعلنت الحادية عشرة للتو عندما سمعت أمي
في غرفة الطعام تهمس بأغنية حب شعبية لكي تنوم الطفل الذي
تتمشى. وهي تحمله بين ذراعيها. سألتها من أين أتت الموسيقى، فردت
عليّ بطريقة:

- من بيوت قاطعات الطريق.

أعطتني خمسة بيزوات دون أن أطلب منها ذلك، لأنها رأنتني
أرتدي ملابس للذهاب إلى الحفلة. وقبل أن أخرج نيهتني. وبعد
بصيرتها المؤكدة، إلى أنها ستترك باب الفناء مغلقاً، دون أن توصله،
لكي أتكن من العودة في أي وقت أشاء. دون أن أوقف أبي. لم أصل
إلى بيوت قاطعات الطريق، لأنه كانت هناك تدريبات موسيقية في بيت
المابسترو بالديس، وكان لويس إريكسي قد انضم إلى فرقته، فور عودته
إلى البيت.

انضمت إليهم في تلك السنة، للعرف على التيلي والفناء. مع
معلميهم الستة الجاهولين، حتى الفجر. لقد كنت أنظر دوماً إلى أخي
على أنه عازف جيتار جيد، ولكنني عرفت، منذ الليلة الأولى، أن
الجميع، بمن فيهم خصومه الألداء، يعتبرونه فناناً بارعاً. لم تكن هناك
فرقة موسيقية أفضل. وكانوا واثقين من أنفسهم، إلى حد أنه عندما
يتعاقد أحد معهم من أجل سرتاد مصالحة أو استرضاء، تحت نافذة
حبيبته، يطمته المابسترو بالديس مسبقاً.

- لا تقلق، سنجعلها تنام، وهي تعض وسادتها.

الإجازات من دونه، لم تكن كالإجازات التي يكون فيها. فقد كان
هو ولويس إريكسي، مع فيلادلفو بيليغا يعزفون كعزفيتين، وكان أن
اكتشفتُ آنذاك، وفاة الكحول، وتعلمت العيش بصورة سوية، بالثوم
تهاراً والفناء. ليلاً، ومثلما تقول أمي: لقد أفلت العنان للعريضة.

لقد قيل عني كل شيء. وشاع القول عن أن رسائلي لا تصل إلى
عنوان أبوي، وإنما إلى بيوت قاطعات الطريق. تحولت إلى أكثر الزبائن
مواظبة على ما يطهونه من وجبات السانكوتشو الملحمة، بمرارة النمر،
ومرق عظامات الإغوانا التي تمنح القوة لثلاث ليالٍ متتالية. لم أعد أقرأ
أو انضم إلى مائدة الأسرة. وكان ذلك ينطبق على الفكرة التي عبرت
عنها أمي مرات عديدة، بأنني أقبل ما يحلو لي، كما أشاء. بينما
المسكين لويس إريكسي هو الذي يجبر سوء السمعة. وقد قال لي لويس
إريكسي، في أحد تلك الأيام، دون أن يعرف بأمر عبارة أمي: "الشيء
الوحيد الذي ينقصني الآن هو أن يقولوا إنني المسؤول، ورسولي مرة
أخرى إلى دار الإصلاح".

قررت أن أهرب في عيد الميلاد من منافسة العربات السنوية. وقد
قررت برفقة صديقين متواطئين إلى بلدة ماخاغوال المجاورة. أعلنت في
البيت أنني سأذهب لثلاثة أيام، ولكنني بقيت عشرة. وكان الذئب في
ذلك هو ذئب ماريا أليخاندرينا ثيرفاتنس، وهي امرأة غير معقولة،
تعرفت عليها في الليلة الأولى، وفقدت معها عقلي في أشد حفلات
العريضة صحياً في حياتي. حتى صباح يوم الأحد الذي لم أجد لها فيه في
قراشي، واختفت إلى الأبد. بعد سنوات من ذلك، أخرجتها من حنيبي.

ليس بسبب أفضالها ومحاسنها، بقدر ما هو بسبب رنين اسمها. ويعيشها لتحمي امرأة أخرى، في واحدة من روايتي، كصاحبة ومسيدة بيت متعة لم يكن له وجود قط.

حين رجعتُ إلى البيت، وجدت أمي تغلي القهوة في المطبخ، في الساعة الخامسة فجراً. فطلبت مني، بهمسها المتواظف، أن أبقى معها، لأن أبي قد استيقظ، وهو مستعد لأن يثبت لي أنني لست حراً كما أظن نفسي، حتى وأنا في إجازتي. قدمت لي فتجاناً من القهوة الحسنة، بالرغم من معرفتها بأنها لا تروقني، وأجلستني إلى جانب الموقد. دخل أبي بالبيجاما، والنحاس لا يزال بادياً عليه، وفوجئ برؤيتي، ومعني الفئجان الذي يتصاعد منه البخار، ولكنه وجه إلي سؤالاً موارباً:

- ألم تكن تقول إنك لا تشرب القهوة؟

ودون أن أجد ما أرد به، اختلقت أول ما خطر لي:

- أشعر بالعطش دوماً، في مثل هذه الساعة.

قرء هو:

- مثل كل السكيرين.

لم ينظر إليّ بعدها، ولم يعد إلى الحديث في الموضوع. ولكن أمي أخبرتني أن أبي الذي تضايق منذ ذلك اليوم، بدأ يعتبرني حالة ميوساً منها، وإن لم يشعرني بذلك قط.

تزايدت نفقاتي إلى حدٍ قررت معه السطو على نقود أمي. وقد برأني لويس إيريكي بمنطقه القائل إن النقاد التي تُسرق من الآباء، إذا استُخدمت من أجل السبتما وليس للتعهر، فإنها نقود شرعية. عانيتُ من حرج تواطؤ أمي في سعيها لتلا يعرف أبي أنني أمضي في دروب

خبيثة. وقد كانت على حق، إذ كان ملحوظاً، بصورة واضحة في البيت، أنني أظل ثائلاً أحياناً، دون مسوغ حتى موعد الغداء، وكان لي صوت ديك أبج، وأمضي ساهياً إلى حدٍ لم أسمع معه في أحد الأيام، سؤالين طرحهما أبي عليّ، فوجه إليّ عندئذ، أشد تشخيصاته قسوة:

- أنت مريض في كبدك.

وعلى الرغم من كل ذلك، تمكنتُ من الحفاظ على المظاهر الاجتماعية. فكنتُ أبدو حسن الملبس، وأكثر تهذيباً في حفلات الرقص وولاتم الغداء التي تنظمها في المتاسبات أسرُ الساحة الكبرى، ممن تظل بيوتهم مغلقة طوال السنة، ويفتحونها في عطلة عيد الميلاد، عندما يرجع الطلاب.

كانت تلك السنة هي سنة كابيتانو خينيلي الذي احتفل بإجازته، بإقامة ثلاث حفلات وقص بديعة. وقد كانت تلك الحفلات بالنسبة لي تواريخ حظ، لأنني رقصت طوال الوقت، في الحفلات الثلاث، مع الفتاة نفسها. دعوتها إلى الرقص في الليلة الأولى، دون أن أتكلف مشقة السؤال عن تكون، أو ابنة من هي، أو من ترافق. بدت لي متحفظة جداً، فاقترحتُ عليها في الرقصة التالية، بجديّة، أن لتزوج، وكان جوابها أكثر غموضاً:

- أبي يقول إنه لم يولد بعد كما يبدو من سيئروخي.

بعد أيام رأيتهما يجتاز المنهل في الساحة، تحت شمس الثانية عشرة الحارقة، مرتديةً فستاناً براقاً من الأورغترا، وهي تقود بيديها طفلاً وطفلة في السادسة والسابعة من عمرهما. "إنهما ابنتاي"، قالت لي وهي تبت من الضحك، دون أن أسألها عنهما. وقد قالت ذلك، بمكر كبير، بدأت أفكر معه في أن اقترحي بالزواج، لم يذهب أدراج الرياح.

تعلمت النوم في أرجوحة النوم، منذ طفولتي المبكرة في بيت أراكاتاكا، ولكنني في سوكري فقط، جعلت منها جزءاً من طبيعتي. ليس هناك ما هو أفضل منها للقبولة، ولعيش ساعة النجوم، وللتفكير بتمهل، وللممارسة الحب دون مزاعم وأوهام. في اليوم الذي عدت فيه من أسبوعي الماجن، علقتها بين شجرتين في الفناء، مثلما كان يفعل أبي في أزمئة أخرى، وغتّ مطمئن الضمير. ولكن أمي المرعوبة من أننا نحن أبناءها، سنموت في أثناء نومنا، أيقظتني في نهاية المساء، لترى إذا ما كنتُ ما أزال حياً. وعندئذ اضطجعت إلى جانبي، وتطرفت دون مقدمات، إلى المسألة التي تنغص حياتها.

- أبوك وأنا، نريد أن نعرف ما الذي أصابك.

لا يمكن للجملة أن تكون أكثر دقة. كنت أعرف منذ بعض الوقت أن أيّ يتقاسمان القلق من طريقي في الحياة، وكانت هي ترجل تقسيمات تافهة لطمانته. لم يكن يحدث شيء في البيت لا تعلم به أمي، وكانت نوبات غضبها أسطورية، منذ زمن، ولكن الكأس طفحت بعودتي إلى البيت في وضوح النهار، طوال أسبوع، وكان مرقفي الصحيح هو تفادي أسئلتها أو تركها معلقة إلى فرصة مناسبة، ولكنها كانت تعرف أن مسألة يمثل تلك الجديدة، تتطلب إجابات فورية.

كانت كل حججها مشروعة: فأنا أغادر عند الغروب، مرتدياً سلاحاً من هو ذاهب إلى عرس، ولا أرجع للنوم في البيت، ولكنني أغفو في اليوم التالي، في أرجوحة النوم إلى ما بعد موعد الغداء، لم أعد أقرا. ولأول مرة منذ ولادتي، صرت أنجراً على العودة إلى البيت، دون أن أعرف أين كنتُ بالضبط. وقالت لي أمي: "حتى إنك لا تنظر

إلى أخوتك، وتخطي بأسمائهم وأعمارهم. وقبل أيام قبلت حفيدة كليمنثيا موراليس، معتقداً أنه أحد أخوتك" ولكنها سرعان ما وعت مبالغاتها، فموضتها بالحقيقة البسيطة:

- وباختصار، لقد صرت غريباً في البيت.

قلت لها:

- كل هذا صحيح، ولكن السبب بسيط جداً: لم أعد أطيق هذه الحال.

- منا؟

وكان يمكن لردّي أن يكون بالإيجاب، ولكنه لن يكون عادلاً. فقلت:

- من كل شيء.

وعندئذ، أخبرتها بحقيقة وضعي في العهد، وبأنهم يحكمون علي، من خلال دوجاتي التي أنالها. وأن أبوي بقاخران بتناجحي سنة بعد سنة. وهذا لا يظن أني التسليم الذي لا تشويه شائبة وحسب، وإنما كذلك الصديق المثالي، والأكثر ذكاءً وسرعة، والأوسع شهرة، بفعل لطفه وكياسته. أو مثلما كان يقول جدي: "الطفل الكامل".

ومع ذلك، من أجل أن أنتهي بسرعة، فإن الحقيقة هي عكس ذلك. فأنا أبوء كذلك فقط، لأنني لا أمتلك جرأة أخي لويس إنريكي، وحسه بالمسؤولية، لأنه يفعل ما يشاء على هواه. وهو سوف يتوصل دون ريب إلى سعادة غير تلك التي يتعناها الآباء لأبنائهم؛ ولكنها التي تتيح لهم تجاوز حنان الأبوين المفرط، ومخاوفهم غير العقلانية، وآمالهما السعيدة، صُعقت أمي، للصورة المناقضة لتلك التي صاغها في أحلامهما المتوحدة، وقالت بعد صمت قاتل:

- لا أدري ماذا ستفعل الآن، لأنني إذا ما أخبرت أباك بكل هذا، فسوف يموت في الحال. ألا تدرك أنك فخر الأسرة؟

المسألة في نظرهما كانت بسيطة: بما أنه ليس هناك أي إمكانية لأن أكون الطبيب اللامع الذي لم يستطع أبي أن يصير إليه، بسبب شع الموارة، فإنهما يحلمان على الأقل، بأن أكون خريجاً جامعياً في أي شيء آخر.

فاختتمت:

- لن أكون شيئاً. إنني أرفض أن تجعلوا مني، بالإكراه، ما لا أريد أن أكونه، وأرفض أن أكون مثلاً تريدون أنتم أن أكون. وأقل من ذلك، مثلاً تريد الحكومة.

استمر الجدل، بشيء من الصدامية الطائشة، طوال بقية الأسبوع، وأظن أن أمي كانت تريد كسب الوقت، لكي تتحدث في الأمر مع أبي، وقد منحنتي هذه الفكرة نفساً جديداً. وفي أحد الأيام أطلقت اقتراحاً مفاجئاً:

- يقولون إنه يمكن لك، إذا ما صممت، أن تصير كاتبة جيدة.

لم أكن قد سمعت مثل ذلك الكلام، من قبل، في الأسرة قط. فمتولي منذ الطفولة، كانت تتيح الافتراض بأنني قد أصبح رسامة، موسيقياً، مغنياً في الكنيسة، أو شاعراً جوالاً في أيام الآحاد. وكنت قد اكتشفت ميلاً معروفاً لدى الجميع، إلى أسلوب في الكتابة، أقرب إلى التلوّي والرقّة الأنثوية، ولكن ردّ قلبي في هذه المرة، كان أقرب إلى المفاجأة، فقد أجبت أمي:

- إذا كان علي أن أصبح كاتبة، فلا بد لي من أن أكون أحد

الكبار. هؤلاء لا يصنعونهم. وهناك في نهاية المطاف، سهن أفضل كثيراً إذا ما كنت أرغب في الموت جوعاً.

في إحدى تلك الأسابيع، وبدلاً من أن تتبادل الحديث معي، بكث دون دموع. لو أن ذلك حدث اليوم لأثار هلعاً، لأنني أقدر البكاء المكبوح كدواء ناجع ومؤكد تلجأ إليه النساء القويات، لغرض نوابهن. ولكنني في الساعة عشرة من عصري، لم أدري ما أقول لأمي، فأحبط صمتي دموعها. وقالت عندئذ:

- حسن جداً، عاهدني على الأقل أن تنهي الثانوية، على أفضل وجه ممكن. وأنا سأولي ترتيب ما تبقى مع أبيك.

كلماتنا أحسنا في الوقت نفسه، براحة الفوز. وافقت على طلبها، من أجلها ومن أجل أبي علي السواء، لأنني خفت أن يموتا إذا لم نتوصل بسرعة إلى اتفاق. وهكذا وجدنا الحل السهل بأن أدرس الحقوق والعلوم السياسية، ليس لأن هذه الدراسة تشكل قاعدة ثقافية جيدة، لأي مهنة أخرى وحسب، وإنما كذلك لأنها دراسة إنسانية. تقدّم دروسها في الفترة الصباحية، فيكون لدي متسع من وقت الفراغ للعمل بعد الظهر. ولقلقي كذلك، من شحنة التأثير التي تحملتها أمي في تلك الأيام، طلبت منها أن تهين الأجواء، لكي أكلم أبي وجهاً لوجه. عارضت ذلك، وهي واثقة من أننا سننتهي إلى النزاع. وقالت لي:

- لا وجود في هذا العالم لرجلين أكثر تشابهاً من تشابهكما، أنت وهو. وهذا أسوأ حال للنقاش.

لقد كنت أعتقد على الدوام، عكس ذلك. ولكنني الآن فقط، وبعد أن مررت بكل المراحل العمرية التي مرّ بها أبي في حياته المديدة، بدأت أرى نفسي في المواء، أكثر شبهاً به من نفسي.

وكان على أمي، أن تتوج تلك الليلة بأسلوبها في تزيين الأمر، لأن أبي جمع الأسرة كلها حول المائدة، وأعلن بصورة غير متوقعة: "سيكون لدينا محام في البيت". وعلمتبتها من أن يفتح أبي الجدال مجدداً لنشارك فيه الأسرة بكاملها، تدخلت أمي بأفضل ما لديها من براءة لتوضح لي:

- في وضعنا هذا، ومع هذا العدد من الأبناء، فكرنا في أن أفضل حل هو الدراسة الوحيدة التي يمكنك تغطية نفقاتها بنفسك.

لم يكن أمر الدراسة بتلك البساطة أيضاً، ولا بأي حال. ولكنه يمكن أن يكون بالنسبة لنا، أهون الشروع، ويمكن لأضرامه أن تكون أقل دموية. وهكذا طلبت من أبي أن يبدي رأيه، لأجاريها في اللعبة، وكان جوابه فوراً وبصرحة مؤثرة:

- صافاً تريدني أن أقول؟ إنك تمزق قلبي إلى نصفين، ولكن يبقى لي على الأقل، الفخر بمساعدتك في أن تكون ما تشاءه أنت.

ذروة ترف كانون الثاني لسنة ١٩٤٦ ذاك، قفلت في رحلتي الأولى بالطائرة، بفضل خوسيه بالينشا الذي جاء، ولديه مشكلة كبيرة. كان قد أنهى، بفقرات متتالية، سنوات الدراسة الثانوية الخمس الأولى في كارتاخينا، ولكنه أخفق في السنة السادسة. تعهدت بأن أجد له مكاناً في معهدنا، لكي يحصل أخيراً على شهادته، فدعاني للذهاب معه بالطائرة.

كانت هناك رحلتان أسبوعياً، إلى بوغوتا في طائرة من طراز DC-3 تابعة لشركة LANSA، ولم تكن مجازفة الرحلة الكبرى هي الطائرة نفسها، وإنما الأبقار الطليقة على المدرج الطيني المرتجف في المراعي.

فكان على الطائرة في بعض الأحيان أن تقوم بعدة جولات حتى تتمكن من إخافة الأبقار وإبعادها. ويعود إلى تلك الفترة، تدشين خوفي الحراقي من الطائرة، وهي الفترة نفسها التي كانت الكنيسة تحظر فيها نقل خبز القربان المقدس بالطائرة لتجنبه الكوارث، كانت الرحلة تستمر حوالي أربع ساعات دون توقف، بسرعة ثلاث عشرة وعشرين كيلومتراً في الساعة. وكنا نحن الذين قمنا من قبل بالرحلة النهرية العجيبة، نتبع الطريق من الجو، على الخريطة الحية، لنهر مجدينا الكبير. نتعرف على القرى كأنها ماكينات مصغرة، وعلى السفن كأنها ألحاف تتحرك بنواياض، وعلى الدمي السعيدة التي تلوح لنا مودعة من باحات المدارس. وكانت المضيفات اللواتي من لحم وعظم، يقضين الوقت في طبانة الركاب الذين يسافرون وهم يهللون، وفي إسعاف من يخشى عليهم، وفي إقناع كثيرين بأنه لا وجود لخطر الاصطدام بأسراب تسير الرخنة التي تنرصد الجيف التي يحملها النهر. وكان المسافرون الحظيرون من جانيهم، يروون أخبار رحلاتهم التاريخية الطائرة، مرة بعد أخرى، كمآثر في الشجاعة. وقد شعرنا بالارتفاع للشعيق فوق نجد بوغوتا، دون تكيف للضغط الجوي، ودون أنفحة أوكسجين، كأنه قرع طبول في قلوبنا، فكانت الاهتزازات وحقق الأجنحة يزيدان من سعادة الهبوط، ولكن المفاجأة الكبرى هي أننا وصلنا قبل برقياتنا التي أوصلتنا في اليوم السابق.

أثناء مرورنا العابر في بوغوتا، اشترى خوسيه بالينشا آلات موسيقية لفرقة أوركسترا كاملة. ولست أدري إذا ما فعل ذلك، بناء على تفكير مسبق، أم حدى مسبق، ولكن منذ أن رآه المدير إسبانياً

يدخل، وهو بطة الأرض بشبات، وزعه تلك الجبختارات والطبول والمراكات والهوزمكتات، أدركت أنه قد قبل في المعهد، كما أحسست أنا أيضاً من جهتي بوزن وأهمية وضعي الجديد، منذ أن اجترت المدخل؛ فقد صرت تلميذاً في السنة السادسة. لم أكن أعني، حتى ذلك الحين أنني أحمل في جهتي بحجة يحلم بها الجميع، وكان ذلك يبدو جلياً من الطريقة التي يتقربون بها منا، واللهجة التي يتكلمون بها إلينا، بشيء من الخوف التوقيري. وقد كانت تلك السنة كذلك، هي سنة عبيد بكاملها. فعلى الرغم من أن قاعة النوم مخصصة لذوي المتح الدراسي وحدهم، إلا أن خوسيه بالينشا استقر في أفضل فندق في محيط ساحة المدينة، وكانت إحدى صاحبات الفندق تعرف البيانو، فتحولت حياتنا إلى يوم أحد متواصل طوال السنة.

كانت تلك قفزة أخرى في حياتي، لقد كانت أمي تشتري لي ملابس مستعملة، في مراعتي. وعندما لا تعود تنفع لقصي، تكييفها لأخوتي الصغار. وكانت أكثر السنوات إشكالية هما السنتان الأوليان في المعهد، لأن ثياب الصوف المناسبة للمناخ البارد، كانت غالية وصعبة. وبالرغم من أن جسدي لم يعد ينمو باندفاع كبير، إلا أنه لم يكن هناك متسع من الوقت، لتكيف الألبسة نفسها لمقاسين مختلفين، في الوقت نفسه. وما زاد الطين بلة، أن عادة تبادل الملابس، بين الطلبة الداخليين، لم تصل إلى حد فرض نفسها، لأن الاستعارات كانت تبدو واضحة، بحيث تعرض لابسها الجدد إلى مخزبات لا تطاق. وقد حلت هذه المسألة جزئياً، عندما فرض المدير إسبينيئياً زياً موحداً من سترة زرقاء وبنتال رمادي، قوحد الظهر وأخفى الملابس المستعملة.

في السنتين الثالثة والرابعة، استخدمت البذلة الوحيدة التي أصلحها لي خياط سوكري. ولكنني اضطررت إلى شراء بذلة أخرى في حالة جيدة للسنة الخامسة، غير أنها لم تنفعني حتى السنة السادسة. ومع ذلك، فقد تحمس أبي جداً لتوايبي في إصلاح نفسي، فأعطاني نقوداً لشراء بذلة جديدة على مقاسي، كما أهدى إلي خوسيه بالينشا، بذلة أخرى من بدلاته في السنة السابقة، وهي من صوف الجمال، وغير مستعملة تقريباً. ولكنني سرعان ما تأكدت من أن المسوخ وحدها لا تصنع الراهب. فقد حضرت، بالبذلة الجديدة، حفلات الرقص التي كان يسيطر عليها الساحليون، ولم أتوصل إلى التعرف إلا على خطيبة واحدة لم تدم علاقتي بها سوى أقل من عمر زهرة.

استقبلني إسبينيئياً بحماس غريب، فكان يبدو كأنه يلقي عصني الكيبيا، الأسبوعيين عليّ أنا تحديداً، مع دفع من الأسئلة والإجابات، وقد تكشف لي ذلك الاهتمام، كنقطة انطلاق جيدة، لإحجاز ما وعدت به أبوي من نهاية جذيرة. وما سوى ذلك، تكفل به منهج مارتينا فونسيكا الوحيد والبسيط: تركيز الانتباه، في الدروس من أجل تجنب السهر والفرح في لحظات الرعب الأخيرة. لقد كانت من التعليمات الحكيمة. وقد هدأت مخاوفي، منذ قررت تطبيقها في السنة الأخيرة في المعهد. فكتبت أجيب بسهولة على أسئلة الأساتذة الذين صاروا أكثر تأنفاً معنا، وأدركت كم هو سهل إحجاز العهد الذي قطعته لأبوي.

أما مشكلتي الوحيدة المثيرة للقلق، فبقيت هي مسألة ولولات الكوابيس. وكان الأساتذة المشرف على الانضباط آنذاك، والمرتبط بعلاقات طيبة مع تلاميذه، هو الأستاذ غونزالو أوكامبو. وقد دخل في

إحدى لبالي الفصل الثاني من السنة، على رؤوس أصابعه، إلى قاعة النوم المظلمة، ليطلب مني مفاتيح له، تسببت إعادتها إليه. وما كاد يضع يده علي كتفي، حتى أطلقت زعيقاً متوحشاً أبقت الجميع. وفي اليوم التالي، نقلوني إلى غرفة نوم أخرى مرتجلة تتسع لستة أشخاص، في الطابق الثاني.

كان ذلك حلاً لحاوفي الليلة، ولكنه حلٌ مغرٍ جداً، لأن الغرفة كانت فوق مستودع المؤونة. وقد تسلى أربعة من طلاب حجرة النوم المرتجلة تلك، إلى المطبخ وسطّوا عليه، مثلما يشتهون، من أجل عشاء في منتصف الليل. وقد بقيت أنا، أقلهم جرأة، وسيرخيو كاسترو غير المرب، في سريرنا لنقوم بالتفاوض في حالة الطوارئ. وبعد مرور ساعة من الوقت، رجعوا، ومعهم نصف الثمنين جاهزاً للأكل. وكانت تلك هي أضخم وجبة في سنوات إقامتنا الداخلية الطويلة، غير أنهم، لسوء الهضم، اكتشفوا فعلتنا خلال أربع وعشرين ساعة. وفكرت في أن تلك الواقعة ستضع حداً لكل شيء، إلا أن موهبة المدير إسييتاً في التفاوض، أنقذتنا من الطرد.

لقد كانت مرحلة جيدة في المعهد، وواعدة على الأقل، في البلاد. فقد أدت حيادية الرئيس المؤقت بيراس، دون أن يخطط لذلك، إلى زيادة التوتر الذي بدأنا نشعر به، لأول مرة في المدرسة. ومع ذلك، فإبنتي أذكر اليوم، أنه كان موجوداً قبل ذلك، في داخلي. ولكنني في ذلك الحين فقط، بدأت أعي نوعية البلاد التي أعيش فيها. فبعض الأساتذة الذين كانوا يحاولون البقاء على الحمياد، منذ السنة السابقة، لم يستطيعوا التوصل إلى ذلك في الدروس. وراحوا يطلقون زخات عسيرة

الهضم، حول أفضلياتهم السياسية. ولا سيما بعد بدء الحملة الدعائية القاسية، للرئاسة التالية.

وفي كل يوم كان يظهر بهجاء أكبر، أن الحزب الليبرالي، يرضيه: غابيان وطرهيه، في الوقت نفسه، سيخسر رئاسة الجمهورية، بعد خمس وعشرين سنة من حكمه المطلق. كنا مرشحين شديدي التباين، كما لو أنهما من حزين مختلفين، ليس في خطايهما الشخصية وحسب، وإنما كذلك بسبب تصميم المحافظين الديموي، الذين رأوا الأمر واضحاً، منذ اليوم الأول: فبدلاً من مرشحهم لاوريانو غوميث، قرروا ترشيح أوسبينا بيريث. وكان مليونيراً اكتسب شهرة واسعة بكونه بطريقاً. وبوجود التيار الليبرالي منقسماً، والتيار المحافظ متحداً ومصلحاً، لم يكن هناك خيار آخر: جرى انتخاب أوسبينا بيريث.

استعد لاوريانو غوميث، منذ ذلك الحين، ليخلفه، بالجورء إلى استخدام القوات الرسمية في أعمال عنف شاملة. فكانت استعادة جديدة للواقع التاريخي، في القرن التاسع عشر، حيث لم تعرف السلام، وإنما فترات هدنة عابرة بين ثنائي حروب أهلية عامة، وأربع عشرة محلية، وثلاثة انقلابات عسكرية، انتهت أخيراً بحرب الألف يوم التي خلّفت حوالي ثمانين ألف قتيل في الجانبين، من عدد سكان يقل عن أربعة ملايين. هكذا كان الوضع بيساطة: برنامج مشترك ومتكامل للتقهر مدة سنة إلى الزاء.

في نهاية العام الدراسي، قام الأستاذ خيرالدو باستثناء مشهود نجاحي، لم أستطع التخلص من عاره حتى الآن. فقد أعدت لي قائمة أسئلة بسيطة لكي أنجح في مادة الجبر التي تجاهلتها طوال أربع سنوات،

وتركني وحدي في مكتب الأساتذة، ووسائل الغش كلها في متناول يدي. رجع وأهأ بعد ساعة من ذلك، ورأى النتيجة الكارثية، فألقى كل صفحة بخطين متقاطعين، من أعلاها إلى أسفلها، وأطلق زمجرة شرسة: "يا لهذا الرأس المتعفن". ومع ذلك، فقد ظهرت ناجحاً بمادة الجبر في التقويم النهائي، ولكنني وجدت ما يكفي من الوفاق، لعدم شكر الأستاذ على مخالفته مبادئه وواجباته لمصلحتي.

عشية الامتحان النهائي لتلك السنة، وقعت حادثة مؤسفة بيني أنا وغيرممو لوبيث غيراً من جهة، والأستاذ غونزالو أوكامبو من جهة أخرى، بسبب مشادة سكارى. كان صديقاً حوسيه بالينثيا قد دعانا للدراسة معه في غرفته في الفندق، وهو دوة معمارية على الطراز الكولونيالي، مع إطلالة حاملة على الحديقة المزهرة، والكاتدرائية كخلفية. وما أنه لم يكن قد تبقى سوى الامتحان الأخير، فقد بقينا هناك حتى الليل، ورجعنا إلى المدرسة، مارين في طريقنا على حانات الفقراء التي اعتدنا ارتيادها. كان الأستاذ أوكامبو هو أستاذ الانضباط المتأوب، فربخنا للعودتنا في مثل تلك الساعة المتأخرة، ولحالنا المتردية، فواجهنا كلاً بالاسباب. فألفظ رد فعله الغاضب، وأصواتنا الصارخة جميع من في قاعة النوم.

كان قرار جمعية الأساتذة هو منعي أنا ولوبيث غيراً من التقدم إلى الامتحان النهائي الوحيد المتبقي. وهذا يعني أنه لا يمكن لنا، في تلك السنة على الأقل، إنهاء الدراسة الثانوية، لم ندر قط. كيف جرت المفاوضات السرية بين الأساتذة، لأنهم التقوا في تضامن لا يمكن اقتحامه. فكان على المدير إسببياً أن يتولى حل المشكلة على

مسؤوليته. وتوصل إلى إمكانية أن نتقدم إلى الامتحان في وزارة التربية، في بوغوتا. وكان هذا ما جرى. وقد رافقنا إسببياً نفسه إلى العاصمة، وبقي معنا بينما نحن نجيب عن أسئلة الامتحان التحريري الذي جرى تصحيحه هناك بالذات، وكانت النتيجة جيدة.

لا بد أن الوضع الداخلي كان معقداً جداً، لأن أوكامبو لم يحضر الحفل الرسمي، ربما بسبب الحل السهل الذي لجأ إليه إسببياً، وتقديرنا للمعاز. وأخيراً أهلني نتائج الشخصية لنيل جائزة خاصة، هي كتاب لا ينسى: "حيوات الفلاسفة اللامعين"، من تأليف ديوجينيس لايرثيو. لم تكن النتيجة أكثر مما كان أبواي ينتظرانه وحسب، وإنما كنت الأول في تقويم تلك السنة، على الرغم من أن زملائي في الصف - وأنا أكثر من الجميع - كنا نعرف أنني لم أكن الأفضل.

لم أتصور قط أن قصتي القصيرة الأولى ستُنشر. بعد تسعة شهور على تخرجي من الثانوية، في الملحق الأدبي "نهاية الأسبوع" الذي تصدره جريدة الاسبكتادور في بوغوتا، وهي أكثر صحف تلك المرحلة أهمية وصرامة. وبعد اثنين وأربعين يوماً من ذلك، نُشرت القصة القصيرة الثانية. ومع ذلك، فإن أكثر ما فاجأني هو الملاحظة التكريسية التي كتبها نائب مدير الجريدة، ومدير الملحق الأدبي، إدوارد ثالاميا بوردا، الملقب أوليسيس، وكان ألمع ناقد أدبي آنذاك، والأكثر تيقظاً لظهور قيم أدبية جديدة.

لم يكن أمراً متوقعا، وليس من السهل روايتي. كنتُ قد سُجلت، في مطلع تلك السنة، في كلية الحقوق بالجامعة الوطنية في بوغوتا، مثلما جرى الاتفاق مع أهلي. وكنتُ أعيش في مركز المدينة تماماً، في نزل في شارع فلوريدا، معظم نزلاته طلاب من منطقة ساحل الأطلسي، وكنتُ في فترات ما بعد الظهر، بدلاً من أن أعمل لأعيش، أظل أقرأ في غرفتي أو في المقاهي التي تسمح بذلك. كانت قراءاتي في كتب يوفرها الحظ والمصادفات، تعتمد على حظي أكثر من اعتمادها على مصادفاتي، ذلك أن الأصدقاء القادرين على شرائها يعيرونني إياها

لفترات محدودة، فأقضي الليالي ساهراً كي آتكن من إعادتها إليهم في الموعد المحدد. ولكن، على العكس من الكتب التي قرأتها في معهد ثيباكيرا، والجديرة بأن تكون في ضريح للكتاب المكرسين، صرنا نقرأ الآن كتباً حديثة، كأنها خبز طازج، مترجمة لتوها ومطبوعة في مدينة بوينس آيرس التي عرفت حياة نشر طويلة، خلال الحرب الأوربية الثانية. وهكذا حالفتي الحظ في اكتشاف من هم مكتشفون جيداً منذ زمن، مثل خورخي لويس بورخيس، ودي. آتش. لورانس، وألدوس هكسلي، غراهام غرين، تشيستر تون، ويليام إيريش، وكاترين مانسفيلد وغيرهم. كانت هذه المستجدات معروضة في واجهات المكتبات البعيدة عن متناول يدي. غير أنه كان يجري تداول عدد من النسخ في مقاهي الطلبة، وهي آنذاك مراكز فعالة للانتشار الثقافي بين الجامعيين الريفيين. وقد كانت لكثيرين منهم أملاكهم المحبوبة، سنة بعد أخرى، في تلك المقاهي. فيها يتلقون رسائلهم، وحتى حوالاتهم البريدية، وقد كان قسطن أصحاب بعض تلك المقاهي، أو العاملين الموثقين فيها، حاسماً في إنقاذ الكثير من الدراسات الجامعية. فالكثير من خريجي البلاد يدينون لهم أكثر مما يدينون إلى مكتفليهم غير المرتين.

أنا فضلت "الطاحونة"، مقهى الشعراء، الكبار، وهو على بُعد حوالي عنتي متر عن المنزل الذي أقيم فيه، وعلى ناهية تقاطع جادة خيمينث دي كيسادا مع الشارع السابع، لم يكونوا يسمحون هناك أن يحتل الطلاب مائدة ثابتة، ولكن أخذنا يكون وثائقاً هناك من أنه سيتعلم من المحادثات الأدبية التي كنا نسمعها، ونحن لا بدون على الطاولات المجاورة، أكثر وأفضل مما يتعلمه من الكتب المقررة. كان المقهى بيتاً

فسيحاً وجيد البناء على النمط الإسباني، جدرانها زينتها الرسام سانتياغو مارتينيث ديلجادو. بمشاهد تقبل معارك دون كيخوته ضد طواحين الهواء. ومع أنه لم يكن لي مكان محجوز، فقد كنت أتدبر الأمر دوماً، لكي يجلسني النذل أقرب ما يكون من المعلم الكبير ليون دي غريف - ملتحق، مهمهم. فائن -، الذي كان يبدأ مسامراته الأدبية عند الغروب. مع بعض أشهر كتّاب ذلك الحين، وينتهي عند منتصف الليل، مختنقاً بخمرة رديئة مع تلاميذه في لعب الشطرنج. كانت قليلة أسماء كبار عالم الفنون والآداب الذين لا يرون مثلك المنضدة. وكنا نحن نتصنع الموت على منضدتنا كيلا تضعب كلمة واحدة مما يقوله. ومع أنهم كانوا يتحدثون دوماً عن النساء أو المكاييد السياسية، أكثر مما يتحدثون عن فنونهم ومهنتهم، إلا أنهم يقولون على الدوام، شيئاً جديداً نتعلمه، وكنا نحن، أبناء ساحل الأطلسي، أكثر الطلاب مواظبة، ليس لالتحادنا بالتأمر الكاريبي ضد الكاتشاكو، بقدر ما هو بسبب إيمان الكتب، فخوريه ألفارو إسبينوسا، وهو طالب حقوق، علمني الإبحار في الكتاب المقدس، وجعلني أحفظ عن ظهر قلب، الأسماء الكاملة لأعضاء منتدى يوباب. جاء في أحد الأيام، ووضع على المنضدة أمامي سقراً ضخماً مريعاً، وأصدر حكمه بسلطة مطران:

- هذا هو التوراة الجديد.

وقد كان ذلك الكتاب، وكيف لا، هو "أوليسيس" لجيمس جويس، فقرأته في ثنف منقطعة وبتمثر، إلى أن لم يعد الصبر يسمح لي بالمزيد. لقد كان رعباً ميكراً، بعد سنوات من ذلك، حين صرت ناضجاً متقاداً. عكفت على قراءته بجد. ولم تكن تلك القراءة مجرد اكتشاف لعالم

خاص لم يخطر لي يوماً وجوده في داخلي، وإنما كان كذلك، مساعدة تقنية لا تقدر بشيء، في حرية اللغة؛ والأفضل في لعبة الزمن والبناء لكتبي.

كان أحد زملائي في الحجرة هو دومنغو مانيويل بيغا، طالب طب تربطني به صداقة منذ وجودنا في سوكري، ويشاطرني نهم القراءة. وزميل آخر هو ابن خالي تيكولاس ريكاردو، الابن الأكبر للخال خوان دي ديوس، الذي كان يحافظ على روابط الأسرة حيّة لدي. وقد رجع بيغا في إحدى الليالي، ومعه ثلاثة كتب اشتراها لتوه. فأعازني واحداً لا على الشعبين منها، مثلما كان يفعل بكثرة، لمساعدتي على النوم. ولكنه توصل، في تلك الليلة، إلى عكس ما يريد تماماً؛ إذ لم أعد قط، إلى النوم بالوداعة السابقة. كان الكتاب هو "المسخ" لفرانز كافكا، في ترجمة بورخيس المزيفة التي نشرتها دار النشر لوسادا في بوينس آيرس. وقد حده ذلك الكتاب مساراً جديداً لحياتي منذ المنظر الأول، وهو اليوم أحد رايات الأدب العالمي: "حين استيقظ غريغوري ساسا، في صباح أحد الأيام، بعد حلم مضطرب، وجد نفسه في السرير. وقد تحول إلى حشرة هائلة". كانت كتباً غامضة، فتعرجات دروبها لم تكن مختلفة وحسب، وإنما في أحيان كثيرة، مناقضة لكل ما كنت أعرفه حتى ذلك الحين. فإثبات الأحداث ليس ضرورياً فيها؛ يكفي أن الكاتب قد كتبها لكي تبدو حقيقية، دون أي دليل آخر سوى قدرة موهبته وسلطة صوته. إنها شهرزاد من جديد، ولكن ليس في عالمها القديم، حيث كل شيء كان ممكناً، وإنما في عالم آخر لا خلاص له، ضاع فيه كل شيء..

حين انتهيت من قراءة "المسخ"، بقيت لدي لهفة لا تقاوم إلى العيش في ذلك الفردوس القريب. وفي اليوم التالي، قاجاني دومنغو مانيويل بيغا نفسه بالآلة الكاتبة النقال التي أعازني إياها، لكي أحاول شيئاً يشبه موظف كافكا المسكين المتحول إلى صرصار ضخّم. لم أذهب في الأيام التالية إلى الجامعة، خوفاً من كسر ذلك السحر، وواصلت تعرق قطرات من الحسد إلى أن نشر إدواردو ثالاميا بوردا، على صفحات ملحقه الأدبي، ملاحظة متفجعة، يتحسر فيها من أن جيل الكتاب الكولومبيين الجدد يفتقر إلى أسماء يمكن تذكرها، وأنه ليس هناك ما يلمح في المستقبل. وبمكته التعويض وتعديل تلك الحال. لا أدري بأي حق أحسست أنني المعني، باسم أبناء جيلي، بما تتضمنه الملاحظة من تحدٍ، فعدت إلى تناول القصة المهجورة، في محاولة لإصلاح الحيف، صغتُ الفكرة المحورية للجنة الواعية في "المسخ"، وإنما متخلصة من أسرارها الزائفة وأحكامها الأنطولوجية المسيقة.

كنت أشعر بانعدام الثقة، إلى حدّ لم أتحجراً معه على التشاور في الأمر مع أي واحد من زملائي، متضدتي في المفهى. ولا حتى مع غونثالو مايارينو، زميلي في كلية الحقوق، الذي كان القارئ الوحيد لما أكتبه من نشر غنائي يعينتي على تحمل ضجر الدروس. أعدت قراءة القصة وتصحيحها حتى الإنهاك، ثم كتبت أخيراً، ملاحظة شخصية موجهة إلى إدواردو ثالاميا - ولم أكن قد رأيت قط - ولست أذكر من الملاحظة نفسها الآن، حرفاً واحداً. ووضعت كل شيء في مغلف أخذته بتفسي، إلى حجرة الاستقبال، في جريدة الأسبكتادور. سمح لي البواب بالصعود إلى الطابق الثاني، لتسليم الرسالة إلى ثالاميا نفسه، يجسده

وروحه. ولكن الفكرة بعد ذاتها، أصابني بالشلل. فتركت الملف على منضلة اليواب، ومضيت هارباً.

حدث ذلك في يوم الثلاثاء. ولم أكن أشعر بأدنى قدر من القلق على مصير قصتي القصيرة. ولكنني كنت واثقاً من أنه في حال نشرها، لن يكون ذلك في وقت قريب جداً. وفي أثناء ذلك، تسكنت متيقناً من مقهى إلى آخر، طوال أسبوعين، لأشغل نفسي عن لهفة أيام السبت مساءً. حتى يوم الثالث عشر من أيلول، حين دخلت إلى مقهى الطاحونة، واصطدمت، مواجهة، بعنوان قصتي على كامل عرض الاسبيكتادور التي صدرت لنوها: "الاستسلام الثالث".

كان رد فعلي الأول هو البقاء الساقط بعدم امتلاكي خمسة سنتات لشراء الصحيفة. وقد كان ذلك هو الرمز الأكثر جلاء للفقر، لأن أشياء كثيرة أساسية من متطلبات الحياة اليومية، فضلاً عن الصحيفة، كانت تكلف خمسة سنتات: الترام، والهاتف العمومي، وفتجان القهوة، ومسح الحذاء. انطلقت إلى الشارع، دون حماية من رذاذ المطر المتواصل. ولكنني لم أجد في المقاهي المجاورة أحداً من معارفي، يمكنه أن يمنحني قطعة نقد كصدقة. كما أنني لم أجد أحداً في المنزل، في تلك الساعة المبكرة من يوم السبت، اللهم إلا صاحبة المنزل. وهذا كأن تقول لا أجد، لأنني كنتُ مديناً لها بخمسة سنتات مكرورة ستمئة وعشرين مرة، مقابل أجره السرير والخدمة لشهرين. عندما رجعتُ إلى الشارع، مستعداً للإقدام على أي شيء، وجدت رجلاً أرسلته العناية الإلهية، يترجل من سيارة تكسي، وفي يده جريدة الاسبيكتادور، فطلبت منه، مواجهة، أن يهديها إليّ.

هكذا استطعت قراءة قصتي الأولى مطبوعة، مع رسم توضيحي لهيرمان ميرونيو، رسام الجريدة الرسمي. قرأت القصة مختبئاً في حجرتي، بقلب جامع، وفي نفس واحد متواصل. لقد كنتُ أكتشف، في كل سطر، القدرة الساحقة للكلمة المطبوعة. فما ينبئه بكثير من الحب والألم، كحكاكاة خاضعة لعبقري عالمي، تكشف لي عندئذ على أنه مونولوج متشابك وهش، يستند بمشقة على ثلاث أو أربع جمل تنح العزاء. كان لا بد من مرور عشرين سنة، قبل أن أنجزاً على قراءتها مرة ثانية. وكان حكلي آنذاك - دون أن تخلف منه الشفقة كثيراً - أقل رضى بكثير.

أصعب ما في الأمر، كان تدفق الأصدقاء الذين داهموا الغرفة، حاملين نسخاً من الجريدة، وإطراء مبالغاً فيه للقصة التي لم يفهموها بكل تأكيد. وكان هناك، بين أصدقائي في الجامعة، من ثمنوا القصة، وآخرون فهموها بقدر أقل، وغيرهم - وهم محقون - لم يتجاوزوا السطر الرابع: أما غوثالو ميارينو الذي لم يكن من السهل وضع أحكامه الأدبية موضع الشك، فقد أثنى عليها، دون تحفظ.

كانت لهفتي الكبرى في معرفة رأي خورخي ألفارو إسبينوسا، لأن مبضعه النقدي هو الأشد رهبة، حتى في ما هو أبعد من محيطنا. كنت أشعر بمزاج متناقض: فأنا أريد روثه فوراً، ولكنني كنت خائفاً، في الوقت نفسه، من فكرة مواجهته. اختفى حتى يوم الثلاثاء. ولم يكن ذلك بالأمر الغريب، على قارئ نهم مثله. وعندما عاد للظهور في مقهى الطاحونة، لم يبدأ الحديث معي عن القصة، وإنما عن جرأتي. - أظن أنك مدرك للوضع الذي أدخلت نفسك فيه - قال لي ذلك

وهو يصوب عينيه الحضوراين، كمعيني الكوبرا الملكية، إلى عيني.
وأضاف: - أنت الآن في واجهة الكتاب المعترف بهم. وعليك بذل جهد
كبير لتكون جديراً بذلك.

بقيت متحجراً حيال الرأي الوحيد الذي يمكن له أن يهمني بقدر ما
يهمني رأي أوليسيس. ولكن قبل أن ينهي كلامه، صممت أن أسبقه بما
كنت، وما زلت أعتبره الحقيقة:

- هذه القصة ليست سوى براز.

فرد علي بهدوء، دون أن يطرأ عليه أي تبدل، بأنه لا يستطيع أن
يقول شيئاً حتى الآن، لأنه لم يكد يجد الوقت إلا لقراءة مستعجلة.
ولكنه أوضح لي أنه حتى لو كانت القصة سيئة جداً مثلما أقول، فإنها
ليست سيئة إلى الحد الذي أضحي فيه بالفرصة الذهبية التي وفرتها لي
الحياة. وانتهى إلى القول:

- هذا أمر آخر، لأن هذه القصة صارت من الماضي. والمهم الآن هو
القصة القادمة.

أصابني الارتباك، وارتكبت حماقة البحث عن حجج مضادة، إلى
أن اقتنعت بأنني لن أسمع نصيحة أذكى من نصيحته. وقد توسع في
فكرته الثابتة بأنه لا بد، أولاً، من وضع تصور للقصة. وبعد ذلك يأتي
الأسلوب. بيد أن استناد كل منهما إلى الآخر، في عبودية متبادلة، هو
عصا الكلاسيكيين السحرية. وقد استوقفتني قليلاً برأيه الذي طالما
ردده، بأنني بحاجة إلى قراءة معمقة وشاملة للكتاب الإغريق، لا تقتصر
على هوميروس وحده، وهو الوحيد الذي قرأته مضطراً، ضمن منهاج
الثانوية. وعدته بذلك، ورغبت في سماع أسماء أخرى. ولكنه غير

الموضوع للحديث عن "مزيفو النقود" لأندريه جيد، وكان قد قرأها في
نهاية ذلك الأسبوع. لم أجد، قط، الحماس لأن أقول له إن محادثتنا
تلك، ربما هي التي حسعت مسار حياتي. أمضيت تلك الليلة ساهراً،
أدون ملاحظات من أجل قصتي التالية، دون تلويات تنسيق القصة
الأولى وقرعتها.

كانت تراودني الشكوك في أن من حدثوني عن القصة، لم يكونوا
مبهورين بها - وربما لم يقرؤوها، وهم لم يفهموها بكل تأكيد - وإنما
فعلوا ذلك لأنها نُشرت باهتمام غير مألوف في صفحة بذلك الأهمية.
ومن أجل أن أبدأ، لاحظت أن نظيمتي الكبيرين هما الأخطر؛ وعونة
الكتابة وجهل القلب البشري. وقد بدا ذلك جلياً في قصتي الأولى التي
كانت تأملًا تجريدياً مشوشاً، زاد من سوتها التعسف المفرط في استغلال
المشاعر المختلفة.

وبينما أنا أبحث في ذاكرتي عن مواقف من الحياة الواقعية، من
أجل القصة الثانية، تذكرت أن إحدى أجمل النساء اللواتي تعرفت إليهن
في طفولتي، قالت لي إنها ترغب في أن تكون داخل قط ذي جمال
غريب، كانت تداعبه في حضنها، فسألته لماذا، وردت علي: "لأنه
أجمل مني". عندئذ وجدت نقطة إستاد للقصة الثانية، وعنواناً جذاباً:
"حوا - داخل قطها". وما تبقى، كما في القصة الأولى، اختلقته من
العدم، وللسبب نفسه - مثلما كان يروق لنا أن نقول آنذاك - كانت
القضتان كلناهما تحمل في أحشائها بذرة دمارها.

نُشرت هذه القصة بالإبراز نفسه الذي نُشرت به القصة الأولى، في
يوم السبت، الخامس والعشرين من تشرين الأول ١٩٤٧، يزينها رسم

بريشة نجم صاعد في سماء الكاريبي: الرسام إنريكي غراو. ولفت انتباهي أن أصدقائي تلقوا القصة كأمر روئيني من كاتب مكس. أما أنا بالمقابل، فتأملت للأخطاء وتشككت بما هو صواب. ولكنني توصلت إلى إبقاء روي معلقة في الهواء. وجاءت الضربة الكبرى بعد عدة أيام من ذلك، في ملاحظة نشرها إدواردو ثالاميا، باسمه المستعار المعهود "أوليسبس"، وفي عموده اليومي في صحيفة الإسيكتادور. وقد توجه مباشرة إلى ما يريد قوله: "لا بد أن قراء (نهاية الأسبوع)، ملحق هذه الصحيفة الأدبي، قد لاحظوا ظهور موهبة جديدة، أصيلة، وذات شخصية قوية". ويواصل بعد ذلك: "ضمن التخيل القصصي، يمكن حدوث كل شيء، إنما معرفة كيفية إظهار اللؤلؤة التي يمكن استخراجها منه، بصورة طبيعية، ببساطة، ودون أي تصنع. وهذا أمر لا يمكن أن يتوصل إليه كل الشبان الذين هم في العشرين من عمرهم، وبذوا، للتو، علاقاتهم بالأدب". وينتهي إلى القول دون تحفظ: "مع غارسيا ماركيز يولد كاتب جديد وبارز".

لقد سببت لي الملاحظة - وكيف لا - صدمة سعادة. ولكنني ذهلت في الوقت نفسه، لأن ثالاميا لم يترك لنفسه سبيلاً للتراجع. فكل شيء صار ناجزاً: ولا بد لي من أن أنسر أريحته تلك، على أنها دعوة لضميري، على مدى الحياة. وقد كشفت لي الملاحظة كذلك، أن أوليسبس قد اكتشف هويته الحقيقية. من خلال أحد زملائه في التحرير، وفي تلك الليلة، علمت أن من فعل ذلك هو غونشالو غونثال، ابن عم قريب لأبنا عمي الأقران: وهو من كتب، طوال خمس عشرة سنة، في الصحيفة نفسها، بالاسم المستعار "غوغ"، وبشغف

متواصل، عموداً يرد فيه على أسئلة القراء، على بعد خمسة أمتار من منشطة إدواردو ثالاميا. ولحسن الحظ أن هذا الأخير لم يبحث عني، ولم أبحث أنا عنه أيضاً. رأيته مرة على مائدة الشاعر دي غريف، وعرفت صوته وسعاله الجاف كمدخن مدمن، ثم رأيته عن قرب في عدة أنشطة ثقافية. غير أن أحداً لم يحاول أن يُعرف أحدنا على الآخر. لأن البعض ما كانوا يعرفوننا، بينما يظن آخرون بأنه من غير الممكن ألا يكون كل منا على معرفة بالآخر.

من الصعب تصور إلى أي حد كانت الحياة تعاش، آنذاك، في ظل الشعر. لقد كان الشعر شغفاً جنونياً، طريقة أخرى في الحياة، كرة من لهب تشدحرج تلقائياً في كل الاتجاهات، تفتح الجريدة، حتى في الصفحة الاقتصادية والصفحة القضائية، أو تقرأ بقايا القهوة في قعر الفنجان، فنجد أن ما ينتظرنا هو الشعر، ليتولى مسؤولية أعلامنا. وهكذا، كانت بوغوتا، في نظرنا نحن جميع الريقيين، هي عاصمة البلاد ومقر الحكومة. ولكنها قبل كل شيء، المدينة التي يعيش فيها الشعراء. ولم تكن نؤمن بالشعر، ونموت من أجله وحسب، وإنما كنا نعلم علم اليقين - مثلما كتب ذلك لويس كاردهوتا إي أراغون - أن الشعر هو الدليل الملموس الوحيد على وجود الإنسان.

لقد كان العالم للشعراء، وكان جديدهم، في نظر أبنا جيلي، أهم من الأخبار السياسية المخيبة للأمال، أكثر فأكثر. كان بضيء سماء الشعر الكولومبي، في القرن التاسع عشر، نجم وحيد هو خوسيه أسرنشون سيلفا، الرومانسي الأعلى الذي أطلق، وهو في الحادية والثلاثين، وصاصة مدس على منتصف الدائرة التي رسمها له الطبيب

باليود، في موضع القلب. ولم أولد في الوقت المناسب لأتعرف على رافائيل بومبو أو على إدواردو كاستيو - الغنائي الكبير - الذي يصنفه أصدقاؤه بأنه شيخ هارب من القبر عند الغروب، بعباءة من طبقتين، وبشرة مائلة إلى الخضرة بفعل المورفين، وبروغبيل نسر رخمة: التمثيل الجسدي للشعراء الملعونين. لقد مرت في عصر أحد الأيام، قبالة منزل ضخم في الشارع السابع، ورأيت عند البوابة أحد الرجال الذين رأيتهم في حياتي مهابة، ببذلة لا تشوبها شائبة، وقبعة إنكليزية، ونظارة سوداء لعينيه اللتين بلا نور، وعباءة أهالي السهوب. كان ذلك، الشاعر ألبيرتو آنخل مونتويا، وهو رومانسي على شيء من الأبهة، نشر بعض القصائد المهمة في زمنه. وقد كان أولئك الشعراء جميعهم، بالنسبة إلى جيلي، أشباحاً من الماضي الغابر، باستثناء المعلم ليون دي غريف الذي رصده وراقبته طوال سنوات، في مقهى الطاحونة.

ولكن أيأ منهم لم يستطع بلوغ المجد الذي بلغه غييرمو بالينشيا، وهو أرستقراطي من بويابان، فرض نفسه قبل بلوغه الثلاثين، جبراً أعظم لشعراء جيل المثوبة الذين عرفوا بهذا الاسم، لأن تجمعهم في عام ١٩١٠، توافق مع مرور القرن الأول على الاستقلال الوطني. ولم يحصل معاصراه إدواردو كاستيو وبوزفيريو باربا خاكوب، الشعاران الكبيران ضمن السلالة الرومانسية، على الإنصاف النقدي الذي يستحقانه بجدارته، في بلاد مبهورة بالخطابية الرخامية لشعر بالينشيا الذي سُدَّ بظله الأسطوري، الطريق في وجه ثلاثة أجيال من الشعراء، الجيل التالي مباشرة، وقد برز في العام ١٩٢٥، باسم واندفاع الجُند، كان لديه شعراء واثعون مثل رافائيل مايا، وليون غريف مرة أخرى، لم يُعترف

بعظمتهم كلها طوال الوقت الذي تربع فيه بالينشيا على عرشه. وقد تمتع هذا الأخير حتى ذلك الحين، بأمجاد خاصة مميزة، رفعتة محصولاً حتى أبواب رئاسة الجمهورية نفسها.

الوحيدون الذين تجرؤوا على اعتراض طريقه، طوال نصف قرن، هم جماعة "حجر وسما"، بدفاترهم الشبابة. وكانت مزيتهم الوحيدة المشتركة في نهاية المطاف، هي عدم كونهم من أتباع بالينشيا: إدواردو كارانشا، ألاتورو كاماتشو وأميريت، أوريليو أرتورو وخورخي روخاس نفسه الذي موّل نشر قصائدهم. لم يكونوا متشابهين في الشكل ولا في الإلهام، ولكنهم غزغزوا، معاً، أطلال البرناسيين الأثرية، وأيقظوا إلى الحياة شعراً جديداً صادراً من القلب؛ بأصداً متعددة، من خوان رامون خيمينث، أو روبين داريو، أو غارسيا لوركا، أو بابلو نيرودا، أو فيشتي هويدويرو. التقبل الشعبي لم يكن قوياً، وكان يبدو أنهم هم أنفسهم غير واعين أنه يُنظر إليهم كمبعوثين من العناية الإلهية، من أجل كس بيت الشعر. ومع ذلك، فإن دون بادوميرو سائين كانو، الدارس والناقد الأوسع احتراماً في تلك السنوات، سارع إلى كتابة مقال حاسم ليقطع الطريق على أي محاولة للتبيل من بالينشيا. فاخطلت موازينه ومقاساته النقدية التي كانت مضرب المثل، وبين أحكامه الحاسمة الكثيرة، كتب أن بالينشيا قد تمكن من العلوم القديمة، ليعرف روح العصور الماضية المغرقة في القدم؛ وتأمل في النصوص المعاصرة، ليفاجئ، بالتناظر، روح الإنسان كلها". وكرسه مرة أخرى كشاعر بلا زمان وبلا حدود، وصفه بين أولئك الشعراء "من أمثال لوكريشيرو، ودانتي، وغوته، الذين حفظوا الجسم لإتقاة الروح". ولابد أن أكثر من شخص قد فكر آنذاك، بأن بالينشيا، بوجود أصدقائه مثل ذلك، لن يكون بحاجة إلى أعداء.

ود إدواردو كارانشا على مسانين كانوا بمقال يقول كل شيء من العنوان: "حالة شاعر واحد أحد". وكانت تلك هي الهجمة الأولى والمرفقة لوضع بالينثيا ضمن حدوده، واختصار قاعدة تقديسه إلى مكانها وحجمها الحقيقيين. انهم بأنه لم يشعل في كولومبيا شعلة الروح، وإنما تحبير عظام للكلمات؛ ووصف أشعاره بأنها أشعار حرفي متحذلقي، وبارد، وحاذق، ونحات مجتهد. وكانت النتيجة التي توصل إليها هي سؤال وجهه إلى نفسه بالذات، وبقي في جوهه كإحدى قصائده الجيدة: "إذا لم ينفع الشعر في تسريع دمي، في أن يفتح لي النوافذ فجأة على الغموض، في مساعدتي على اكتشاف العالم، في مرافقة هذا القلب المحزون في الوحدة وفي الحب، في الاحتفال وفي الكراهية، فما هي فائدة الشعر؟". وينتهي قائلاً: "أما أنا - وأعوذ من قول أنا - فأرى أن بالينثيا ليس أكثر من شاعر مقبول".

نشر "حالة شاعر واحد أحد" في ملحق "قراءات أندية"، الصادر عن جريدة التيمبو، وكانت واسعة الانتشار آنذاك، أثار هزة اجتماعية. وكانت نتيجة العجبية، في الوقت نفسه، هي إعادة تقييم معقدة للشعر في كولومبيا، من أصوله. وهو ما لم يجز يجدية، منذ أن كتب دون خوان دي كاستيانيوس إحدى عشراته المئة والخمسين، في "مراثي ورجال بلاد الهند البارزين".

صار الشعر، منذ ذلك الحين، مكشوفاً في العراق. ليس فقط لجماعة "الجدد" الذين أصبحوا رائجين، وإنما الآخرين كذلك، برزوا فيما بعد، وراحوا يتناقسون على مكانتهم بالمشاكب. وبلغت شعبية الشعر حداً لم يعد بالإمكان اليوم، فهم إلى أي حد كان يعيش كل عدد من ملحق

"قراءات أندية" الذي يشرف عليه كارانشا، أو من مجلة "البيت" التي كان يديرها آنذاك كارلوس مارتين، مدير معهدنا القديم. وفضلاً عن أشعاره، فرض كارانشا بأمجاده طريقته في أن يكون شاعراً في الساعة السادسة مساءً، في الشارع السابع في بوغوتا، حيث يتمشى كما لو أنه في واجهة زجاجة طولها عشر كوادرات، وفي يده كتاب مسند إلى قلبه. لقد كان نموذجاً لجيله، ومكون مدرسته من الجيل التالي، كل واحد على طريقته.

في أواسط تلك السنة جاء إلى بوغوتا الشاعر يابلو نيرودا، بقناعته بأنه لا يد للشعر من أن يكون سلاحاً سياسياً. وعلم خلال مسامراته البوغوتية مدى رجعية لاوريانو غومث. وعلى سبيل الوداع، كتب على شرفه، بسرعة القلم تقريباً، ثلاث سونيتات هجا، عقابية. الأبيات الأربعة الأولى منها تنح البقية إيقاعها ونبرتها:

وداعاً يا لاوريانو الذي لن بكلل بالغار أبدأ،

أبها المرزيان الحزين والملك الوصولي.

وداعاً يا إمبراطور طابق رابع،

قبل موعدو، ويا مأجوراً على الدوام.

على الرغم من ميول كارانشا اليسينية، وصداقته الشخصية مع لاوريانو غومث نفسه، إلا أنه أبرز سونيتات يابلو نيرودا في صفحاته الأدبية. وقيل ذلك كسبق صحفي، أكثر مما هو موقف سياسي. ولكن الاستنكار جاء بالإجماع تقريباً، ولا سيما بسبب نشرها المخالف للمنطق، في جريدة يملكها ليبرالي ذو عظم أحمر، مثلما هو الرئيس السابق إدواردو سانتوس، المعارض لفكر لاوريانو غومث الرجعي، بقدر

معارضته لفكر بابلو نيرودا الثوري. وجاء أشد ودود الفعل صخباً، من جانب من لم يتسامحوا حيال إقدام أجنبي على السماح لنفسه بمثل ذلك التمادي. إن مجرد تمكّن ثلاث سونيتات، وجدانية تعتمد الصناعة أكثر منها شاعرية، من إثارة مثل تلك الضجة، كان دليلاً ساطعاً على سلطة الشعر في تلك السنوات. ولكن نيرودا مُنع فبسا بعد، على أي حال، من الدخول إلى كولومبيا. ومن متعه هو لاوريانو غوييث نفسه، حين صار رئيساً للجمهورية، والجنرال غوستافو رохاس بينيا في حينه. لكن نيرودا نزل مع ذلك، في كارتاخينا وفي بونيفيتورا عدة مرات، أثناء توقيفه الغابر في رحلات بحرية، بين تشيلي وأوروبا، وكان كل عبور له، في الذهاب والإياب، احتفالا كبيرا بالنسبة لأصدقائه الذين كان يخبرهم، مسبقاً، بمروره.

عندما دخلت كلية الحقوق، في شباط ١٩٤٧، كان توافقي مع جماعة "حجر وسما" لا يزال ساوياً. ومع أنني كنت قد تعرفت على أبرزهم في بيت كارلوس مارتين، في ثيباكيرا، إلا أنني لم أجد الجرأة على أن أذكر بذلك حتى كاراتشا، وكان أكثر من يسهل الوصول إليه منهم. في إحدى المرات وجدته قريباً جداً ووحيداً في مكتبة غرانكولومبيا، فوجهت إليه تحية معجبة به، ود على بلطف شديد، ولكنه لم يتذكرني. أما المعلم ليون دي غريف بالمقابل، فنهض في مناسبة أخرى عن مائدته في مقهى الطاحونة، وجاء يحييني على طاولتي، عندما أخبره أحدهم بأنني قد نشرت قصصاً في الاسبكتادور، ووعدني بأن يقرأها. ولسوء الحظ أنه بعد أيام قليلة من ذلك، وقعت أحداث التاسع من نيسان الشعبية، واضطرت إلى هجر المدينة التي كان

الدخان ما يزال يتصاعد منها. وعندما رجعت إليها، بعد أربع سنوات، كان مقهى الطاحونة قد اختفى تحت رصاده، والمعلم قد انتقل بقضه وقضيضه، وبطانة أصدقائه إلى مقهى "إل أوتوما تيكو"، حيث صرنا أصدقاء كتب وخمر، وعلمني كيف أحرك أحجار الشطرنج، دون فن ولا حظ.

كان أصدقاء مرحلتي الأولى يستغربون انكياي على كتابة القصص القصيرة. وأنا نفسي لم أكن أجد تفسيراً لذلك، في بلاد يعدّ الشعر فيها هو الفن الأكبر. وقد كنت أعرف ذلك منذ طفولتي المبكرة، بسبب التماح الساق لقصيدة "نوس بشري"، تلك القصيدة الشعبية التي كانت تهاج في كرارس صغيرة من ورق أسمر، أو تُلقى مقابل سنتين اثنين في أسواق ومقابر قرى منطقة الكاريبي. أما الرواية بالمقابل، فكانت نادرة جداً. فمنذ رواية "ماريا" لخورخي إساكس، كتبت روايات كثيرة لم تحدث صدى يذكر. وكان خوسيه مازيا بارغاس بيلا ظاهرة فريدة بكتابتة اثنتين وخمسين رواية موجهة مباشرة إلى قلوب الفقراء. كان رجاله لا يكل. أمتعته المفرطة هي كتيه نفسها التي تُعرض وتنفذ مثل الحبر عند أبواب الفنادق، في أميركا اللاتينية وإسبانيا. وقد مرّقت روايته الفلكية "أورا أو زهر البنفسج" من القلوب، أكثر بكثير من روايات أخرى أفضل منها لمعاصريه.

الروايات الوحيدة التي استطاعت البقاء حية بعد زمنها، هي "الحروف" التي كتبها الكاتب الإسباني خوان رودريغيث فرييلي، بين عامي ١٦٠٠ و١٦٣٨، في أوج العهد الاستعماري، وهي قصة شديدة الشطط في المبالغة والتحرر من القيود، حول تاريخ غرناطة الجديدة

(كولومبيا)، مما حولها إلى عمل روائي بارع؛ ورواية "ماريا" لجورجي إيساكس، في سنة ١٨٦٧؛ و"الدوام" لجوسيه إستاسيو ريفيرا، سنة ١٩٢٤؛ و"مركبة بولومبو" لتوماس كاراسكيا، سنة ١٩٢٦؛ و"أربع سنوات على متن نفسي" لإدواردو ثالاميا، سنة ١٩٥٠. ولم تستطع أي من هذه الروايات بلوغ المجد الذي كان الشعر يتمتع به، بحق أو دون حق. وبالمقابل، كانت القصة القصيرة - مع سابقة بارزة مثلها كاراسكيا نفسه، كاتب أنجوكيا الكبير - غارقة في بلاغية منبوشة ومنقبة عنها بجهد، ودون روح.

والدليل على أنه كانت لدي ميول قصاص فقط، هو الأشعار المبعثرة التي خلقتها في المعهد، دون توقع أو بأسماء مستعارة؛ لأنني لم أكن مستعداً على الإطلاق، للموت من أجلها، بل أكثر من ذلك؛ فعندما نشرت قصصي الأولى في الأسبكتادور، كان كثيرون يتنازعون هذا الجنس الأدبي، ولكن دون إمكانيات كافية. وأنا أفكر اليوم في أنه يمكن فهم ذلك، لأن الحياة في كولومبيا، من وجهات نظر متعددة، كانت ما تزال في القرن التاسع عشر، وبخاصة في بوغوتا الأربعينيات الكئيبة التي كانت لا تزال نحن إلى العهد الاستعماري، عندما أخرجت تسجيلي، دون ميول ولا رغبة، في كلية الحقوق بالجامعة الوطنية.

وللتأكد من ذلك يكفي الغوص في المركز العصبي لتقاطع الشارع السايغ مع جادة خيميث دي كيساندا، وهو التقاطع الذي اعتبرته المبالغة البوغوتية أفضل ناصية في العالم. فعندما تعلن الساعة العامة، في برج كنيسة سان فرانسيسكو، الثانية عشرة ظهراً؛ يتوقف الرجال في الشارع، أو يقطعون أحاديثهم في المقام، لينضبطوا ساعاتهم على

ساعة الكنيسة الرسمية. وفي ما حول ذلك التقاطع والشوارع المجاورة، كانت تقع أكثر الأماكن ارتياداً، حيث يلتقي، مرتين في اليوم، التجار والسياسيون والصحفيون - والشعراء بالطبع -، وجميعهم يرتدون السواد حتى أقدامهم، مثل مولانا ملك إسبانيا دون فيليبي الرابع.

وفي أزمستي كطالپ، كانت لا تزال تُقرأ، في ذلك المكان، جريدة ريمبا لم يوجد الكثير مثلها في العالم. إنها سبورة سوداء كالتي في المدارس، تُعلق على شرفة الأسبكتادور في الساعة الثانية عشرة ظهراً، ثم في الساعة الخامسة مساءً. وقد كُتبت عليها آخر الأخبار بالطباشير. عندئذ يصبح مرور حافلات التراب صعباً، إن لم يكن مستحيلاً، بسبب عرقلة الحشود التي تنتظرها بفارغ الصبر. وكان يمكن لقراء الشارع أولئك، أن يصفقوا بحماس، للأخبار التي تبدو لهم جيدة، وأن يصفروا أو يقدقوا الحجارة على السبورة، عندما لا تروقهم الأخبار. لقد كانت طريقة في المشاركة الديمقراطية الفورية، لحصل الأسبكتادور من خلالها، على ميزان حرارة أكثر فعالية من أي ميزان آخر لقياس درجة حرارة الرأي العام.

لم يكن التلفزيون قد وجد بعد. وكانت هناك نشرات أخبار إذاعية كاملة جداً، ولكنها بُثت في ساعات محددة وثابتة. وهكذا كان المرء، قبل أن يذهب لتناول الغداء أو العشاء، ينتظر ظهور السبورة، ليذهب إلى البيت، والذي رواية أكثر تكاملاً عن حال الدنيا. هناك عُرف وتُوعى بصرامة نموذجية لا تُنسى خبر الطيران الوحيد للكاتب كوتشيتشا بيتيغاس، بين ليما وبوغوتا، فعندما تكون ثمة أخبار مثل هذا الخير، يجري تبديل السبورة عدة مرات، في غير الموعد المحدد، لتغذية نهم الجمهور بلاحق

استثنائية. لم يكن أي واحد من قراء تلك الجريدة الشوارعية القريدة، يعرف أن مبتكر الفكرة، وعيدها، يدعى خوسيه سالغار، وهو محرر رائد في الاسبكشادور، توصل وهو في العشرين من عمره. لأن يكون صحفياً من الكبار، دون أن يكون قد تجاوز مرحلة الدراسة الابتدائية. المؤسسة التي كانت تشكل علامة بوغوتا المميزة. هي مقاهي مركز المدينة. وفيها تصب عاجلاً أو آجلاً شؤون حياة البلاد بأسرها. وكان كل مقهى منها يتمتع. في زمانه، باختصاص محدد - سياسي، أدبي، مالي - بحيث أن تسمياً كبيراً من تاريخ كولومبيا، في تلك السنوات، كان مرتبطاً بها بطريقة ما. فكل شخص له مقهى المفضل، كعلامة مؤكدة لشخصيته.

فكتاب وساباسيو النصف الأول من القرن - من فيهم بعض رؤساء الجمهورية - درسوا في مقاهي الشارع الرابع عشر، قبالة مدرسة زوساريو. وكان مقهى إلونديزو الذي عاش مرحلة ازدياد السياسيين المشهورين له، أحد أكثر المقاهي استمرارية. وكان ملاذ رسام الكاريكاتير الكبير ريكاردو ريندون الذي أنجز هناك عمله الأكبر، ثم ثقب جمجمته العبقريّة، بعد سنوات من ذلك، برصاصة مسدس، في الهجرة الخلقية للمقهى غران بيبا.

الوجه الآخر لأسميات ضجري الكثيرة، كان اكتشافي، مصادفة، لقاعة موسيقى مفتوحة للجمهور في المكتبة الوطنية. فجعلت منها ملاذ المفضل لأقرأ في كتب كبار الموسيقيين الذين كنا نطلب أعمالهم خطأ من موظفة فاتنة. وقد اكتشفنا، بين الرواد المعهودين تشابهات، من كل صنف من خلال نوع الموسيقى التي نفضلها. وهكذا عرفت معظم

مؤلفي الموسيقى المفضلين، من خلال أذواق الآخرين، على كثرتهم وتنوعهم. وسئمت شوبان لستوات طويلة. بسبب هارم للموسيقى يظليه في كل يوم تقريباً، دون أي رحمة. في أحد الأيام، وجدت القاعة مقفلة، لأن جهاز الموسيقى معطل. ولكن المديرية سمحت لي بالجلوس للقراءة وسط الصمت. أحسنت في اليد. كما لو أنني في بركة سلام واكدة. ولكنني لم أفكر، قبل مرور ساعتين، من التركيز، بسبب ومضات جزع تعرقل قراءتي، وتشتعرتني بأنني غريب عن جلدي. وقد احتجت إلى عدة أيام لكي أدرك أن علاج جزعي، ليس صمت القاعة، وإنما جو الموسيقى الذي صار مثلاً ذلك الحين، وإلى الأبد، شغفاً شبه سري.

في أمسيات أيام الأحاد، عندما كانوا يغلقون قاعة الموسيقى، كانت متعتي المشمرة هي ركوب حافلات الترام ذات الزجاج الأزرق التي تجول الشوارع دون توقف، مقابل خمسة سنتافو، من ساحة بوليفار حتى جادة تشيلي. وكنت أقضي فيها أمسيات مراحقة تبدو كأنها نجر وراعا ذيلاً بلا نهاية من أيام آحاد أخرى ضائعة. الشيء الوحيد الذي كنت أقوم به، خلال جولات الحلقات المفرغة تلك، هو قراءة كتب أشعار، ربما كوادرا من المدينة مقابل كل كوادرا من الشعر، إلى أن تضاع أول الأنوار تحت رذاذ المطر الأبدى. عندئذ ألبأ إلى المقاهي الهادئة في الأحياء القديمة، بحثاً عنم يقدم لي صدقة تبادل النقاش معي، حول القصائد التي انتهيت من قراءتها. كنت أجد، في بعض الأحيان، من يفعل ذلك - وهو دائماً من الرجال - فنبقى إلى ما بعد منتصف الليل، في حجرة بانسة، مجهز على أعقاب السجائر التي كنا قد دخناها نحن أنفسنا،

وتحدثت عن الشعر، بينما الإنسانية في ما تبقى من العالم بأسره،
فأمرس الحب.

في ذلك الزمان كان الجميع شباباً، ولكننا كنا نحب دوماً آخرين
أكثر شباباً منا. كانت الأجيال يدفع بعضها بعضاً، وبخاصة بين الشعراء
والمخرجين. ولا يكاد أحدهم يفعل شيئاً إلا ويظهر له من يتوعد بأنه قادر
على عمل ذلك بصورة أفضل. إنني أجد بين أوراقي القديمة أحياناً بعض
الصور التي كان يلتقطها لنا مصورو الشوارع الجوالون، عند مدخل
كنيسة سان فرانسيسكو. فلا أستطيع أن أكنع إحساساً بالشفقة، لأنها لا
تبدو صوراً لنا، وإنما لأبنائنا بالذات، في مدينة أبواب مغلقة، حيث لا
وجود لشيء سهل، ولا سبيل للبقاء، على قيد الحياة دون حب، في
أمسيات أيام الآحاد. وهناك تعرفت مصادفة، على خالي خوسيه ماري
بالديبلانكيث، عندما ظننت أنني أرى جدي يشق طريقه، حاملاً مظلة
بين حشود يوم الأحد الخارجة من القديس. فخامة ملائحته لم تخف شيئاً
من هويته: كان يرتدي بدلة كاملة من الجوخ الأسود، وقميصاً أبيض
بياقة من السيلولويد، وريشة عثق ذات خطوط مائلة، وصداراً بسلسلة
ساعة، وقبعة قاسية، ونظارة مذهبة. كان تأثيري كبيراً إلى حدٍ قطعت
عليه الطريق دون أن أنتبه. فرفع المظلة متوعداً، وأوقفني على بُعد شبر
عن عينيه:

- هل يمكنكني المرور؟

فقلت له خجلاً:

- اغدروني. لقد حسبتك جدي.

وأصل تفحصني بنظرة عالم قلبي، وسألني بسخرية خبيثة:

- وهل يمكنكني أن أعرف من هو جدك الشهير هذا؟
ولاضطرابي من وقاوتي المشهورة، أخبرتني باسمه كاملاً، فأقول عندئذ
المظلة، ويتسم بمزاج طيب فائلاً:

- هناك سبب إذن للتشابه. فأنا ابنه البكر.

الحياة اليومية كانت أقل وطأة في الجامعة الوطنية. ومع ذلك، لا
أتوصل إلى أن أجد في ذاكرتي واقع ذلك الزمن، لأنني لا أصدق أنني
كنت طالباً ولو لبوم واحد، بالرغم من أن درجاتي في السنة الأولى -
وهي السنة الوحيدة التي أنهيتها في بورغوتا - تتيح التفكير في عكس
ذلك. لم يكن هناك الوقت ولا الفرصة لإقامة علاقات شخصية كذلك
التي توصلت إليها في المعهد. كما أن زملاء الدراسة يتفرون في
أنحاء المدينة، بعد انتهاء الدروس. أما مفاجأتي الكبرى فتتمثل في أن
الأمين العام لكلية الحقوق، هو الكاتب بيدرو غوسيت بالدريما، وكانت
لدي أخبار عنه من خلال مشاركاته المبكرة في الصفحات الأدبية. وقد
بقي واحداً من أصدقائي المقربين حتى موته المبكر.

أما زميلي الأكثر مواظبة، منذ السنة الأولى، فكان غونثالو مابارينو
برتيرو، الوحيد المعتاد على الإيمان بأن بعض أعاجيب الحياة حقيقية، حتى
وإن لم تكن صحيحة. وكان هو من علمني أن كلية الحقوق ليست جدياً،
إلى الحد الذي أظنه. فسمعت اليوم الأول، أخرجني من درس الإحصاء
والسكان، في الساعة السابعة صباحاً، وتحدثني في ميازة شخصية
بالشعر، في مقهى المدينة الجامعية. وكان في ساعات الصباح المبكرة، يتلو
من الذاكرة، أشعار الكلاسيكيين الإسبان، فأرد عليه بقصائد للشعراء
الشباب الكولومبيين الذين فتحوا النار على ذبول القرن السابق البلاغيين.

دعائي في أحد أيام الأحاد إلى بيته، حيث كان يعيش مع أمه وأخواته وأخوته، وسط ثورات أخوية مثل تلك التي بييت أيوي. فالأخ الأكبر، فيكتور، كان رجل مسرح طوال الوقت، ومغنى أوبرا معترفاً به في ميدان اللغة الإسبانية. منذ أن هربت من وصاية أبوي، لم أشعر قط أنني في بيتي، إلى أن تعرفت إلى بيبا بوتيرو، أم الأخوة ماياوتو، وهي أنتيوكية^(١) لم يروضها العيش في نخاع الأرستقراطية البوغوتية الكثيم. وكانت، بذكائها الفطري وطريقتها العجيبة في الكلام، تمتلك قدرة لا تلضب على معرفة المكان الدقيق الذي عليها أن تستعيد فيه الكلمات البذيئة لسلالتها الثيرفانتسية. كانت أمسيات لا تُنسى، مع رؤية الغروب على زمرد السهب غير المحدود، ودفء الشوكولاته المعطرة في المعجنات الساخنة. ما تعلتد من بيبا بوتيرو، برطانتها المكشوفة، وطريقتها في قول أشياء الحياة العادية، لم يكن يُشعن، في التعرف على بلاغة الحياة الواقعية.

وكان من الزملاء الآخرين المشاهين، غييرمو لوبيث غيبراً وألغارو بيدال بارون. وكانا متواظنين معي في معهد ثيباكيرا. ومع ذلك، فقد كنتُ في الجماعة، أقرب إلى لويس بيبار بوردا وكاميلو توريس ريستريو، اللذين كانا ينجزان بالأطفال، وحجاً بالفن، الملحق الأدبي لجريدة "الأراثون"، وهي صحيفة شبيهة سرية، كان يديرها الشاعر والصحفي خوان لوثانو إي لوثانو. وعشية صدور كل عدد من الملحق، كنتُ أذهب معها إلى مكاتب التحرير، وأقدم لهما مساعدة الساعة

(١) أنتيوكية Antioquia تنسب إلى مقاطعة أنتيوكيا (إسبانية) الكولومبية.

الأخيرة. وقد التفتت في بعض المرات مع مدير الجريدة، وكنتُ معجياً بسونيتانه، وأكثر منها بترجمة لعباء الشخصيات الوطنية التي كان ينشرها في مجلة "السبت". وكان يتذكر، بشيء من الغموض، الملاحظة التي كتبها أوليسيس عني، «ولكنه لم يقرأ أي قصة من قصصي». وقد تهرتُ من الموضوع، لأنني كنت متأكداً من أنها لن تروقه. ومنذ اليوم الأول، قال لي وهو يده عني، إن صفحات جريدته مفتوحة لي. ولكنني اعتبرت ذلك مجرد مجاملة بوغوتية.

في مقهى أستورياس، عرفني زميلاني في كلية الحقوق، كاميلو توريس ريستريو ولويس بيبار بوردا، على بيلينو أبولير ميندوتا الذي نشر، مذ كان في السادسة عشرة، مجموعة من نصوص الشعر الغنائي، هذا الجنس الأدبي الرائج آنذاك، بعد أن فرضه إدواردو كارانثا، من خلال الصفحات الأدبية لصحيفة التيسور. كان ذا بشرة مدهوعة، وشعر داكن وأملس، يُبرز مظهره كهندي. وكان قد توصل، على الرغم من سنده، إلى جعل مقالاته تُعتمد في مجلة السبت الأسبوعية التي أسسها أبوه بيلينو ميندوتا نيبيرا، وهو زهير حرب قديم وصحفي كبير، ربما لم يكتب سطرًا كاملاً واحداً طوال حياته، ومع ذلك، فقد علم كثيرين الكتابة في الصحف التي كان يؤسسها بكل أهبة، ويهجرها إلى مناصب سياسية رفيعة، أو لإقامة مؤسسات أخرى هائلة وكارثية. أصا ابنه فلم أوه سوى مرتين أو ثلاث مرات في تلك الفترة، ودوماً مع زملاء لي. وقد أذهلني أنه في سنه تلك، كان يحاكم الأمور كعجوز مسن، ولكن لم يخطر لي آنذاك أننا ستعاون، بعد سنوات، في جولات صحافة جريئة، لأنني لم أكن قد فكرت بعد، في غواية الصحافة كهنة. أما اهتمامي بها كعلم، فكان أقل من اهتمامي بالحقوق.

لم أفكر، في الواقع قط، أن الصحافة ستكون موضع اهتمامي يوماً، حتى ذلك اليوم الذي قامت فيه إلفيرا ميندوتا، شقيقة بلنير، بإجراء مقابلة عاجلة مع مغنية الأوبرا الأرجنتينية بيرتا سينغريمان، فبدلت تماماً أحكامي المسبقة ضد المهنة، وكشفت عن ميل مجهول لدي. فالمقابلة التي بدت أبعد ما يكون عن مقابلات الأسئلة والأجوبة التقليدية - وهو النمط الذي كان، ولا زال، يخلف لدي الكثير من الشكوك - كانت واحدة من أكثر المقابلات التي نُشرت في كولومبيا أصالة. وبعد سنوات من ذلك، عندما صارت إلفيرا ميندوتا صحفية عالمية مكرسة، وإحدى أفضل صديقاتي، أخبرتني بأن ما فعلته يومذاك، إنما كان وسيلة يائسة لإنقاذ أخفاقي.

لقد كان وصول المغنية بيرتا سينغريمان حدث ذلك اليوم. فطلبت إلفيرا - وكانت مسؤولة القسم النسائي في مجلة السبت - أن تُكلف بإجراء مقابلة معها. وقد تلقت التكليف، مع بعض التحفظات من جانب أبيها، بسبب مسألة خبرتها في ذلك النوع من العمل الصحفي. كانت مكاتب تحرير مجلة السبت آنذاك مركز اجتماع أشهر مشققي تلك السنوات، فطلبت منهم إلفيرا أن يقدموا لها بعض الأسئلة للمقابلة. ولكنها بلغت حافة الهلع عندما لاحظت الاستخفاف الذي استقبلتها به بيرتا سينغريمان، في الجناح الرئاسي في فندق غرانادا.

فقد وجدت المغنية متعفة، منذ السؤال الأول، في استنكار الأسئلة باعتبارها حقاً - وغيبية، دون أن يخطر لها بأن وراء كل سؤال منها كاتباً جليلاً من الكتاب الكثيرين الذين عرفتهم وقدرتهم خلال زيارتها المتعددة إلى كولومبيا. وكان على إلفيرا، المعروفة دوماً بطبعها الحني،

أن تبتلع دموعها، وأن تتحمل بشرق قلب تلك الكارثة. ولكن دخول زوج بيرتا سينغريمان المفاجئ أنقذ تحقيقها الصحفي، بعد أن أوشك على التحول إلى حادث خطير. فقد تكفل الزوج بتحريك الوضع بلطف عذبة وحسن سخرية طيب.

لم تكتب إلفيرا الحوار الذي تصوره مسبقاً، من أجوبة مغنية الأوبرا، وإنما كتبت ريبورتاجاً عن مصاعبها معها. واستقلت تدخل الزوج الذي وفرته لها العناية الإلهية، وحولته إلى البطل الحقيقي في اللقاء. وقد ثارت ثائرة بيرتا سينغريمان، في واحدة من نوبات غضبها التاريخية، عندما قرأت المقابلة. ولكن السبت كانت المجلة الأسبوعية الأوسع انتشاراً، وقد ارتفع توزيعها الأسبوعي إلى مئة ألف نسخة، في مدينة عدد سكانها ستمئة ألف نسمة.

برود الأعصاب والذكاء اللذان استغلت بهما إلفيرا خوا «بيرتا سينغريمان» لتكشف حقيقة شخصيتها، دفعاني إلى التفكير، للمرة الأولى، في إمكانيات الريبورتاج الصحفي، ليس كوسيلة باهرة لتقديم المعلومات، وإنما أكثر من ذلك: كجنس أدبي. ولن تقضي سنوات طويلة قبل أن أخوض تلك التجربة بنفسى، وأن أُنوصل إلى الإيمان، مثلما أؤمن اليوم أكثر من أي وقت آخر، بأن الرواية والريبورتاج الصحفي هما ابناؤنا للام نفسها.

لم أكن قد جازفت حتى ذلك الحين، إلا بكتابة الشعر: أشعار ساخرة في مجلة مدرسة سان خوسيه، ونشر غنائي أو سونيئات غراميات متخيلة على طريقة شعراء «حجر وساء» في العدد الوحيد من الجريدة الأدبية، في مدرسة المعهد الوطني. وقبل ذلك بقليل، كانت سيسيليا غونشالز، المواطنة معي في ثيباكيرا، قد أقنعت الشاعر والباحث

دانييل أرنغو بأن ينشر أغنية قصيرة كتبها باسم مستعار. وقد نُشرت بحروف طباعية "نمرة سبعة"، في ركن غير ظاهر من ملحق يوم الأحد لجريدة التبصر. ولم يجعلني نشرها أنبه، ولا أن أشعر بأنني شاعر أكثر مما كنت عليه. أما ريبورتاج الفيرا بالمقابل، فقد جعلني أعني الصحفي الهاجع في قلبي، وتشجعت على إبقائه. بدأت بقراءة الصحف بطريقة أخرى. وكان كاميلو توريس ولويس بيسار بوردا متفقين معي، فكررا العرض الذي قدمه دون خوان لوثانو، بالكتابة في صفحات جريدته "لارائون"، غير أنني لم أفجأ إلا على نشر قصيدتين تقنيتين، لم أعتبرهما لي قط. اقترحا على أن يكلفا بليسيو أبوليبو ميندوثا للكتابة في مجلة "السبت". ولكن حياثي الوجي، نيهني إلى أنني ما زلت بحاجة إلى الكثير، قبل أن أجازف، تحت أضواء مظفأة، في مهنة جديدة. ومع ذلك، فقد كان لاكتشافني الذي توصلت إليه، فائدة فورية. ففي تلك الأيام كنت مشوشاً بإدراكي أن كل ما أكتبه، نشر أو شعراً، بما في ذلك واجباتي المدرسية في المعهد، ما هي إلا محاكاة بليدة لجساعة "حجر رساء". وطرحت على نفسي مهمة إجراء محول حاسم، ابتداء من قصتي التالية. وقد انتهت التجربة إلى إقناعي بأن ظروف الحال الناجزة في الذهن، ما هي إلا نقبسة مفقرة. بدأت بسمعها، أينما اعترضت طريقي، وفي كل مرة كان ذلك الهوس يجبرني على إيجاد أشكال أخرى أكثر غنى وقدرة على التعبير، وعند زمن طويل لم يعد يرد في كتبي ظرف منها، اللهم إلا في استشهادات مقتبسة بنصها. ولست أدري بالطبع، إذا ما كان مترجمو أعماله قد التقطوا ذلك هذا الهوس الأسلوبية، وأصيبوا بعدواد، بسبب طبيعة مهنتهم.

سرعان ما تجاوزت صداقتي لكاميلو توريس وبيسار بوردا، حدود قاعات الدرس والتحرير، وصرنا نقضي معاً في الشارع، وقتاً أطول من الذي نقضيه في الجامعة. وكلاهما كان يغلي على نار هادئة، في استياء قاس من وضع البلاد السياسي والاجتماعي. أما أنا المتضخ بأسرار الأدب، فلم أكن أحاول حتى فهم تحليلاتهم الدورانية وتوقعاتهم القاتمة. غير أن آثار صداقتهم فاقت أحب صداقتي وأكثرها فائدة في تلك السنوات.

أما في الدروس الجامعية بالمقابل، فكنت غارقاً في ورطة. وقد ندمت دوماً على قلة ورعي تجاه جدارة الأساتذة ذوي الأسماء الكبيرة الذين كانوا يتحملون نفورنا من الدروس. وكان منهم ألفونسو لوبيث هينشيلسين، ابن الرئيس الكولومبي الوحيد الذي أعيد انتخابه مرة ثانية في القرن العشرين. وأظن أن ذلك هو سبب الانطباع العام الذي كان شائعاً، بأنه هو أيضاً مرصود، منذ مولده، ليكون رئيساً. وهو ما صار إليه فعلاً. كان يصل إلى منبر أستاذيته في مادة "مدخل إلى الحقوق" بدقة تشير الغيظ، مرتدياً سترات كشمية بدبعة مصنوعة في لندن. ويلقي دروسه دون أن ينظر إلى أحد، بذلك المظهر الساوي لحسييري النظر الأذكاء ممن يبدون دوماً، كما لو أنهم يشون عبر أحلام الآخرين. كانت دروسه تبدو لي مونولوجات رتيبة على وتيرة واحدة، مثلما هو بالنسبة لي أي درس آخر غير الشعر. إلا أنه كان لرتابة صوته المضجرة ميزة القدرة على الترويم التي يتمتع بها حادي الأغاعي. وكانت ثقافته الأدبية الواسعة تستند، منذ ذلك الحين، إلى أسس راسخة، يعرف كيف يستخدمها كتابة أو بصوته الحي مباشرة، ولكنني لم أبدأ بتقديره إلا عندما عدنا للتعارف بعد سنوات من ذلك، وصرنا صديقين بعيداً عن

سببات الدروس الجامعية. كانت سمعته، كسياسي صلب، تتغلذى من فئة شخصية سحرية، ومن صفاء ذهن وبصيرة خطيرة في اكتشاف النوايا الخفية للناس، وخاصة من يحبهم أقل. ومع ذلك، فإن فضيلته الأكثر تميزاً، ك شخصية عامة، هي قدرته المذهلة على خلق أوضاع تاريخية بجملة واحدة.

توصلنا مع مرور الزمن إلى صداقة جيدة. ولكنني لم أكن في الجامعة من أكثر الطلاب دأباً ومواظبة. وكان خجلي الذي لا مفر منه، يبقيني على مسافة لا يمكن لي تجاوزها، خاصة مع الناس الذين أقدرهم وأحترمهم. ولهذا فوجئت كثيراً عندما استدعاني إلى الامتحان النهائي للسنة الأولى، بالرغم من أن كثرة غيابي عن الدروس جعلتني جديراً بلقب الطالب الخفي. لجأت إلى حيلتي القديمة في تحويل اتجاه الحديث حول الموضوع بأساليب بلاغية، ولاحظت أن الأستاذ واع لحيلتي، ولكنه ربما قدرها كمنسلية أدبية. وكانت الزلة الوحيدة هي استخدامي في الامتحان النهائي كلمة *تَقَادُم* (prescription)، قسارح هو إلى الطلب مني أن أحيد معناها، ليتأكد من أنني أعرف ما الذي أقوله.

قلت له:

- الفعل *تقادُم* *prescriber* يعني اكتساب خواص معينة مع مرور الزمن.

فسألني على الفور:

- اكتسابها أم فقدانها؟

إنه الشيء نفسه^(١)، ولكنني لم أناقشه في ذلك، بسبب عدم يقيني القطري. وأظن أن تلك كانت واحدة من مداخلاته الشهيرة التي

(١) الفعل *prescriber*، يتضمن معنيين متناقضين: فهو يعني «في الوقت نفسه، اكتساب مزية بالتقادُم أو فقدانها».

بوجهها بعد الامتحان، لأنه لم يحاسبني عليها ولم يتقاضى مني ذلك الدين عند وضع درجة التقويم. وقد حدثته بعد سنوات من ذلك، عن الواقعة، فلم يتذكرها بالطبع. ولكننا لم نكن عندئذ، أنا وهو، متأكدين من أن تلك الحادثة كانت صحيحة.

لقد وجد كلاًنا في الأدب، ملاذاً طيباً لتناسي السياسة وأسرار "التقادُم"، واكتشفنا بالمقابل كنباً مذهلة وكتاباً منسيين في معادلات لانهاية أدت، في بعض الأحيان، إلى إقصاء زيارات، وإثارة حقيقة زوجيتنا، أقنعتني أمني بأننا قريبان. وقد كان الأمر كذلك بالفعل. ومع ذلك، فإن ما كان يحده هويتنا، أفضل من أي رابطة غائمة، هو شغفتنا المشترك بأغاني منطقة بايناثو.

وكان هناك قريب عارض آخر، من جهة أبي، هو كارلوس هـ. باربخا، أستاذ الاقتصاد السياسي وصاحب مكتبة غرانكولومبيا، المكتبة المفضلة لدى الطلاب، بسبب عاداتها الحميدة في عرض الكتب الجديدة لكبار الكتاب على مناضد مكشوفة ودون مراقبة. فكنا، حتى نحن طلابه، نغزو المحل في سهر الغروب، ونسرق الكتب بفنون خفية الأصابع. وكانت سرقة الكتب تعشير، حسب العرف المدرسي، جريمة؛ ولكنها ليست خطيئة. أما دوري في عمليات السرقة تلك، فكان يقتصر، ليس بدافع الفضيلة وإنما بسبب الخوف الجسدي، على حماية ظهر من هم أكثر مهارة؛ شريطة أن يسرقوا، فضلاً عن الكتب التي يريدونها لأنفسهم. بعض الكتب الأخرى التي أطلبها أنا، ونسي مساء أحد الأيام، وكان أحد زملائي المتواطئين قد انتهى للتو من سرقة "المدينة دون لاورا" لفرانثيسكو لوس بيرنارديث، عندما أحسست بقبضة قوية تمسك بكففي، وبصوت رتيب يقول:

- أخيراً.. يا للغة!

التفت مذعوراً، ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع الأستاذ كارلوس هـ. بارخا، بينما كان ثلاثة من شركائي يهربون متدافعين، ولحسن الحظ أنني انتهيت، قبل أن أتمكن من الاعتذار، إلى أن الأستاذ لم يفاجأ لأنه ضيطني ككل. وإنما لأنه لم يرنى في دروسه منذ أكثر من شهر. وبعد تأنيب أقرب إلى العادي، سألتني:

- هل أنت ابن غابريل إليخو حقاً؟

كان ذلك صحيحاً، ولكنني أجبت أن لا، لأنني كنت أعرف أن أباه وأبي قريبان بعيدان بحادثة شغفية لم أفهمها قط، ولكنه عرف الحقيقة فبما بعد. ومنذ ذلك اليوم صار يعاملني بتسييس، في المكتبة وفي الدروس، باعتباري ابن أخ له. وقد احتفظنا بعلاقة سياسية أكثر مما هي أدبية، بالرغم من أنه كان قد كتب ونشر عدة كتب شعرية متقاوئة القيمة، بالاسم المستعار "سيمون اللاتيني". ولكن وعي صلة القرابة أفاده هو فقط، لأنني لم أعد أقوم بدور المستر على سرقة الكتب.

أستاذ آخر رائع هو ديفغو مونتانيا كوتار. وكان نقيض لويث ميتشيلسين. ويبدو أنهما كانا على خصومة سرية. لويث كليبالي شاكس ومونتانيا كوتار كيساري رديكالي. لقد أقمت مع هذا الأخير علاقة جيدة خارج الجامعة. وبدأ لي على الدوام أن لويث ميتشيلسين ينظر إليّ، على أنني قرخ شاعر. بينما يرى في مونتانيا كوتار داعية جيداً لمعتقداته الثورية.

تعاطفت مع مونتانيا كوتار بدأ بمشكلة تعرض لها مع ثلاثة ضباط شباب، من المدرسة العسكرية، كانوا يحضرون دروسه بزي المراسم.

وكانوا يراظيون على الدروس بدقة الشكنة، ويجلسون معاً على المقاعد الجانبية نفسها، ويدونون ملاحظات متقنة لا تشوبها شائبة، ويحصلون على درجات يستحقونها بجدارة في الامتحانات الصارمة. نصحهم ديفغو مونتانيا كوتار بعدم المجيء إلى الدروس بالزي العسكري. فقالوا له بأكثر أساليبهم تهدياً إنهم يتفقدون أوامر عليا. ولم يفوتوا فرصة لجعله يشعر بذلك. ومع ذلك، وعلى الرغم من غرابة سلوكهم، فقد كان الضباط الثلاثة، في نظر الطلاب والأساتذة، طلاباً نجيبين.

كانوا يأتون بزيهم العسكري المشابه، والمتقن، معاً على الدوام، وفي الموعد الدقيق. ويجلسون جانباً، لقد كانوا أكثر الطلاب جدية ومنهجية. ولكنني كنت أرى على الدوام أنهم في عالم مختلف عن عالمنا. فإذا ما توجّه أحد إليهم الكلام، يُبدون الاهتمام والطق، ولكن بصورة رسمية وشكلية لا يمكن التغلب عليها: فهم لا يقولون أكثر مما يُسألون عنه. وفي أزمئة الامتحانات، كنا نحن المدنيين نتوزع في جماعات من أربعة طلاب لنفرض في المقاهي. وكنا نلتقي في حفلات الرقص أيام السبت، وفي الميازات الطلابية، وفي الحانات الهادئة ومواخير ذلك العصر الكثيرة. ولكننا لم نكن نلتقي قط، بزملائنا العسكريين.

لم أكد أتبادل معهم التحية، خلال السنة الطويلة التي أمضيناها معاً في الجامعة، فضلاً عن أنه لم يكن هناك منسع لذلك، لأنهم كانوا يحضرون إلى الدروس في الموعد المحدد بدقة، ويقادرون مع آخر كلمة يتطرق بها الأستاذ، دون أن يتعاملوا مع أحد، اللهم إلا مع شبان عسكريين آخرين في السنة الثانية. يجتمعون وإياهم معاً في الاستراحات. لم أعرف أسماءهم قط، ولم أحصل على أي خبر عنهم

فيما بعد. وأتجه اليوم إلى أن أكبر الموانع لم تكن من جانبهم. بقدر ما هي من جانبي، لأنني لم أستطع قط أن أعجز المرارة التي كان جدائي يستذكران بها حروبهما المحبطة والمذابح القلبية في مناطق الموز.

كان أستاذ مادة القانون الدستوري، خورخي سوتو دل كورال، مشهوراً بأنه يعرف عن ظهر قلب، كل دساتير العالم. وكان يبهرننا، في دروسه، بذكائه وعلومه الحقوقية، التي لا يعجزها إلا ضعف حسن الدعاية لديه. وأظن أنه كان واحداً من الأساتذة الذين يبدلون ما أمكنهم من جهد كيلا تظهر اختلافاتهم السياسية في الجامعة، ولكنها كانت تبدو بوضوح أكبر مما يظنون. حتى من خلال إيماءات أيديهم ونبرة التفخيم لأفكارهم. ذلك أن الجامعة هي المكان الذي كان يلصق فيه، أكثر من سواء، النبط العميق للبلاد التي كانت على حافة حرب أهلية جديدة، بعد بضع وأربعين سنة من السلام المسلح.

على الرغم من غيابي المزمع وإهمالي القانوني، فقد نجحت في المواد السهلة من سنة الحقوق الأولى، بفضل تحصيلات في اللحظة الأخيرة؛ ونجحت بأصعبها، بفضل حيلتي القديمة في تخاشي الموضوع المطلوب بوسائل مستتبطة. والحقيقة أنني لم أكن مرتاحاً داخل جلدي، ولم أكن أعرف كيف أوصل المشي بالفلس في ذلك الطريق المسدود. فقد كان قهصي للحقوق قليلاً، واهتمامي به أقل بكثير من أي مادة دراسية في المعهد، كما أنني صرت أشعر بأنني قد تضجعت بما يكفي لاتخاذ قراراتي بنفسي. وأخيراً، بعد ستة عشر شهراً من البقاء حياً، بأعجوبة، لم يبق لي إلا جماعة من الأصدقاء الجيدين الذين سيبقون كذلك مدى الحياة.

ضالة اهتمامي بالدراسة تضاعفت أكثر بعد ملاحظة أوليسيس، وبخاصة في الجامعة، حيث بدأ بعض زملائي بمنحي لقب أستاذ وتقديمي ككاتب. وتوافق ذلك مع تصميمي على تعلم بناء بنيان يكون في الوقت نفسه، محتسماً وخيالياً، إنفا دون فجوات؛ وفق نماذج كاملة الإتقان وصعوبة، مثل أوديب ملكاً لسوفوكليس، حيث يبحث بطلها عن قاتل أبيه، وينتهي إلى اكتشاف أنه هو نفسه القاتل؛ ومثل "قائمة القرود" و. و. جاكوب W.W. Jacob، هذه القصة المحكمة، حيث كل ما يجري هو مصادفة. ومثل "كتلة الشحم"، لموباسان، وغيرهم كثير من الخطاة الكبار الذين أرجو أن يحفظهم الرب في ملكوته. وكنت أفكر في هذا الأمر، في ليلة يوم أحد جرى لي فيها أمر يستحق أن يروي. كنت قد أنصبت ذلك النهار بطوله في تهوية إجاباتي، ككاتب، مع غوثالو مابارينو، في بيته في جادة تشيلي. وأثناء عودتي إلى المنزل، في الترام الأخير، صعد "فونوس"^(١) من لحم وعظم في محطة تشابينيرو. لم أخطئ القول؛ فونوس. لاحظت أن أحداً من ركاب منتصف الليل القلائل، لم يفاجأ برؤيته، فدفعني ذلك إلى التفكير في أنه واحد آخر ممن يتكبرون بهيئات مختلفة، في أيام الأحاد، لبيعوا كل شيء في حقائق الأطفال. ولكن الواقع أقتعني بأنه لا يمكنني الشك، لأن له قرني تيس ولحيته، حتى إنني أحسست لدى مروره، برائحة شعره الماعزي. وقبل بلوغنا الشارع ٢٦، وهو شارع المقبرة، نزل بمظهر رب أسرة طيب، واختفى بين أشجار الحدائق.

(١) فونوس Faunos أو Faung = إله الغابات والمراعي وحامي القطعان والزراعة عند الرومان «مجل بهيئة غوريثية ويرأس ذي قرنين، وله لحية وقدماء تيس، وصعر كشمع الماعز».

استيقظت بعد منتصف الليل، من نومي الفلق في فراشي. فسألني دومنغو مانويل بيغا عما أصابني. "لقد سعد قونوس إلى الترام"، قلت له ذلك وأنا بين النوم واليقظة. فترة علي، وهو عستيقظ تماماً، بأنه إذا كان كابوساً فلا بد أن السبب هو سوء هضم من الذي يصيب المرء في يوم الأحد. أما إذا كان موضوعاً لقصتي القصيرة القادمة، فإنه يبدو له موضوعاً رائعاً. ولم أعد أدري، في الأيام التالية، إذا ما كنت قد رأيت حقاً "قونوساً" في الترام أو أنها مجرد أضغاث أحلام أحذية. وبدأت أتقبل أنني قد تمثّلت تحت تأثير إرهاب ذلك اليوم، ورأيت حلماً واضحاً جداً لا يمكن فصله عن الواقع. ولكن الجوهرى بالنسبة لي لم ينته بهل كان القونوس حقيقياً، وإنما بما إذا كان كذلك. وبالتالي - سواء أكان حقيقياً أم حلماً - لم يكن من المشروع اعتباره سعراً من الخيلة، وإنما كسجيرة عجيبة في حياتي.

وهكذا كتبت القصة في اليوم التالي، دفعة واحدة، ووضعتها تحت الوسادة، وقرأتها وأعدت قراءتها طوال ليال عديدة قبل النوم، أو لدى استيقاظي صباحاً. كانت القصة وصفاً خارجياً وحرفياً لواقعة الترام، مثلما جرت تماماً، وبأسلوب بالغ البراءة، مثل خير تعميد طقل في صفحة الأخبار الاجتماعية. وأخيراً، وبدافع شكوك أخرى، قررت إخضاع القصة لتجربة الكلام المطبوع الحتمية. ولكن ليس في جريدة الاسبيكتادور، وإنما في الملحق الأدبي لجريدة التيمبو. وربما كانت تلك هي الطريقة لمعرفة وجهة نظر أخرى، مختلفة عن رأي إدواردو ثالاميا، دون أن أوظفه في مغامرة ليس هناك ما يستدعي إشراكه فيها. أرسلت القصة مع زميل في النزول، ومعها رسالة، إلى دون خيمي بوسادا، المدير

الجديد والشاب جداً لـ "الملحق الأدبي" في جريدة التيمبو. ولكن القصة لم تُشرع ذلك، ولم ألتق رداً على الرسالة.

قصص تلك المرحلة، وفق تسلسل كتابتها ونشرها في ملحق "نهاية الأسبوع"، اختفت من أرشيف جريدة الاسبيكتادور خلال الهجوم على هذه الجريدة وإحراقها، على يد جموع الشغب الرسمية في السادس من أيلول ١٩٥٢. أنا نفسي، لم تكن لدي نسخة منها، ولم تكن كذلك لدى أصدقائي المهتمين. ولهذا ظننت، بشيء من الراحة، أن النسيان قد ابتلعها. ومع ذلك، فقد كانت بعض الملاحق الأدبية المحلية في الأقاليم، قد أعادت نشرها في حينها دون إذن، ونُشر بعضها كذلك في مجلات مختلفة، إلى أن جمعتها في كتاب دار نشر "ألفيل" في مونتيفيديو سنة ١٩٧٢، وأصدرتها بعنوان قصة منها: "تابو، الزنجي الذي جعل الملائكة ينتظرون".

وكانت تنقصها قصة واحدة لم تُضم إلى الكتاب، ربما بسبب الاقتتار إلى نسخة موثوقة منها: "توبال كايين يصوغ نجمة"، التي نُشرت في الاسبيكتادور يوم ١٧ كانون الثاني ١٩٤٨، واسم البطل، مثلما لا يعرف الجميع، هو اسم حداد توراتي ابتدع الموسيقى. لقد كانت ثلاث حكايات، وقرأتها وفق الترتيب الذي كُتبت ونُشرت فيه، بدت لي معلومة الترابط وتجرّدية، بعضها غير معقول، ولا تستند أي واحدة منها إلى مشاعر حقيقية، ولم أستطع قطعاً أن أتبين وجهة النظر التي قرأها بها ناقد بالغ الصرامة مثل إدواردو ثالاميا. ومع ذلك، فإنها تستمع في نظري، بأهمية لا يراها أحد سواي. ذلك أن في كل واحدة منها شيئاً يتناسب مع تطور حياتي السريع في ذلك الحين.

كثير من الروايات التي كتبت أفرزها آنذاك، وأقدرها، كانت تشد اهتمامي بما تتضمنه من تعليم تقني فقط. أي ما فيها من صفة سرية. فمن التجريد المبتاعيزيقي في القصص الثلاث الأولى، حتى قصص ذلك الحين الثلاث الأخيرة، وجدت دروباً محددة ومفيدة جداً للتكوين الأولي للكاتب، لم تكن قد وردت إلى خاطري، فكرة ازدياد أشكال أخرى. فقد كنت أفكر في أن القصة والرواية ليسا جنسين أدبيين مختلفين وحسب، وإنما هما جسدان من طبيعتين مختلفتين، وسيكون الخلط بينهما وخيماً. وما زلت اليوم أؤمن بذلك، مثلما كنتُ أؤمن به آنذاك. وصرتُ أكثر اقتناعاً بتفوق القصة القصيرة على الرواية.

سبب لي النشر في الأسبكتادور، على هامش النجاش الأدبي، مشاكل أخرى أكثر دنيوية ودعاية، فقد صار أصدقاء غافلون يوقعوني في الشارع، ليطالبوا مني أن أقرضهم نفوداً منقذة، فما كان بإمكانهم أن يصدقوا أن كاتباً يمثل ذلك الانتشار، لا يتلقى مبالغ مالية ضخمة مقابل قصصه. وقلة قليلة فقط هم الذين كانوا يصدقون أنه لم يدفع لي مقابل نشرها ست وست واحد؛ وأنتي أنا نفسي، لم أكن أنتظر أن يدفع لي، لأن ذلك لم يكن شائعاً في صحافة البلاد. والأخطر من ذلك، هو خيبة أمل أبي عندما اقتنع بأنني لن أتمكن من تغطية نفقاتي الخاصة، في الوقت الذي كان يدرس فيه ثلاثة من أخوتي الأحد عشر الذين كانوا قد ولدوا جميعهم، كانت الأميرة ترسل لي ثلاثين بيزو في الشهر. وكان النزول وحده يكلفني ثمانية عشر بيزو، دون أن يكون لي الحق بالحصول على بيضة على الفطور. وكنت أجد نفسي غير قادر على استكمال المبلغ على الدوام، بسبب نفقات طارئة. ولحسن الحظ، لا أدري من أين

أصابني عدوى الرسم، وأنا ساء، على هامش الصحف، وعلى المناديل الورقية في المطاعم، وعلى موائد الرخام في المقاهي، وأتجراً على الاعتقاد بأن تلك الرسوم هي سبيلة مباشرة لما كتبتُ أوسمه، وأنا طفل، على جدران مشغل صياغة الجذ. وربما كانت صمامات أمان سهلة للتفريغ عن النفس. كان لأحد رواد مقهى الطاحونة الطارتين، وساطة في إحدى الوزارات، فعُين رساماً فيها دون أن تكون لديه أدنى دراية بالرسم. وعرض عليّ أن أقوم بالعمل بدلاً منه، ونتقاسم الراتب في ما بيننا. لم أقرب طوال ما تبقى من حياتي قط إلى ذلك الحد من الفساد، ولكنني لم أقرب منه آنذاك، إلى الحد الذي أندم عليه.

تزايد اهتمامي بالموسيقى أيضاً، في تلك الفترة التي كانت فيها أغاني الكاريبي الشعبية - التي رنعتها منذ الصغر - تشق طريقها في بوغوتا. كان البرنامج الإذاعي الأوسع رواجاً هو ساعة ساحلية التي ينشطه دون باستكوال ديلفيشكيو. وكان بمثابة فصل موسيقي من ساحل الأطلسي إلى العاصمة. وقد حاز البرنامج على شعبية واسعة في أيام الأحاد صباحاً، إلى حد أننا، نحن الطلاب الكاريبيين، كنا نذهب للرقص في مكاتب محطة البث الإذاعي، حتى وقت متقدم من بعد الظهر. كان ذلك هو منشأ الشعبية الواسعة لموسيقائنا في مناطق البلاد الداخلية، ثم بعد ذلك في أقصى أركانها، وتنشيطاً اجتماعياً للطلاب الساحليين في بوغوتا.

أما العائق الوحيد، فكان شبح الزواج الإجباري. ولست أدري ما هي السوابق السيئة التي أدت إلى أن يزدهر في الساحل، الاعتقاد بأن الفتيات البوغوتيات يسعدن بالشبان الساحليين ويتصون لنا الحبائل ليتزوجن منا بالقوة، ليس بدافع الحب، وإنما بحلم العيش في بيت تطل

نافذته على البحر. لم تراودني هذه الفكرة قط. بل على العكس، فأكثر الذكريات غير المرغوبة في حياتي هي المواقف المشؤومة خارج أسوار بوغوتا، حيث كنا نذهب لتفويض سكراتنا المكفهرة. وقد أوضحت، في أكثرها ففارة، على التحلي عن بصيص الحياة الضئيل المتبقي في داخلي، عندما ظهرت امرأة، كنت معها للتو، عارية في السر، وهي تصرخ قائلة إنني سرق ثلثي عشر بيزو من درج خوان زيننها. طرحتني إثنان من العاملين في المحل أرضاً باللكمات، ولم يكتفيا بانتزاع آخر بيزوين متبقين في جيوبي، بعد محارستي حياً مشؤوماً، وإفرا عرايانى حتى من الخذا. وراحا يفتشانني بأصابعهما بحثاً عن النقود المسروقة. وكما قد قبرا عدم قتلي على أي حال، وإفرا تسليسي إلى الشرطة. عندما تذكرت المرأة أنها يذكت مخبأ نقودها في اليوم السابق، ووجدتها كاملة، دون نقصان.

بين الصداقات المتبقية لي من الجامعة، لم تكن صداقتي لكاميلو توريس هي الأقل عرضة للنسيان فقط، وإفرا الأكثر دراماتيكية في شبابنا. في أحد الأيام تغيب عن الدروس لأول مرة، فانتشر السبب مثل ثمار البارود. فقد رتب أشياء وقرر الهرب من بيته للذهاب إلى مدرسة تشيكينكيكيا الإكليريكية، على بعد أكثر من مئة كيلومتر عن بوغوتا. أدركته أمه في محطة القطار وحبسته في مكتبها. وقد رُزته هناك، كان شاحباً أكثر من المعتاد، بفنارة بيضاء، وطمانينة دفعتني لأول مرة إلى التفكير في حالة الرضى الروباني، لقد قرر الالتحاق بالمدرسة الإكليريكية، استجابة لبول كان يخفيها جيداً، ولكنه مصمم على الانصياع لها حتى النهاية.

قال لي:

- لقد انقضى أصعب ما في الأمر.

وكانت تلك هي طريقته في القول لي إنه قد غارق خطيبته، وإنها قد احتفت بفراره. وبعد أسبوع خصب، قدم لي هدية لا يمكن فك رموز اختبارها: أصل الأنواع لعاروين. ودعته، يراودني يقين غريب بأنه وداع إلى الأبد.

لم أره طوال فترة وجوده في المدرسة الدينية، وبلغتني أخبار غامضة عن أنه قد ذهب إلى لوفانيا، مدة ثلاث سنوات، للإعداد اللاهوتي، وأن استسلامه الديني لم يهدل روحه الطلابية وأساليبه العفانية، وأن الفتيات كن يتنهدن من أجله، يعاملنه كما لو أنه ممثلي سينمائي جعلته المسوح أعزل.

بعد عشر سنوات من ذلك، عندما رجعت إلى بوغوتا، كان قد تسلم جسداً وروحاً طيبة مكانته، إلا أنه بقي يحتفظ بأفضل فضائله، كمراهق. وكنت أنا آنذاك كاتباً وصحفياً دون شهادة، متزوجاً ولدي ابن واحد، رودريغو، الذي ولد يوم ٢٤ آب ١٩٥٩ في مستشفى باليرمو في بوغوتا. وقررنا في الأسرة، أن يكون كاميلو هو من يتولى تربية ابننا؛ وأن يكون العراب هو بليسيو أبوليو ميندوتا الذي كنا أنا وزوجتي، قد أقمتا معه صداقة عرايين من قبل، أما العراية فكانت سوزانا لينارس، زوجة خيرمان بارغاس الذي نقل إلي فتونه، كصحفي جيد وصديق مفضل. كان كاميلو أقرب إلى بليسيو مما هو إلينا، وعلاقته به أقدم بكثير. ولكنه لم يشأ قبوله كعراب، بسبب اتصالاته آنذاك مع الشيوعيين، وربما كذلك بسبب روحه الساخرة التي يمكن لها أن تسي.

إلى وقار الطقوس المقدسة. فتشهدت سوزانا بأن تتولى بنفسها أمر تكوين الطفل روحياً، ولم يجد كاميلو، أو لم يشأ أن يجد، حرجاً أخرى لتقطع الطريق على العراب.

جرت طقوس التعميد في مصلى مستشفى باليرمو، في شبه الظلمة الجليدية للساعة السادسة مساءً، دون وجود أحد سواي أنا والعرابان، وفلاح عبادة جبلية وصندلاً، اقترب منا لحضور القداس كما لو أنه يطفئ فوق الأرض، دون أن يكشف عن حضوره. وعندما وصلت سوزانا ومعها الوليد، أفلت العراب الذي لا سبيل إلى إصلاحه استفزازه الأول ساخرًا:

- متجمل من هذا الطفل رجلٌ هرب عصابات جيداً،

فرد عليه كاميلو الذي كان يعدّ حوائج الطقوس المقدس، بهجوم مضاد بالنبرة نفسها: "أجل، ولكنه سيكون محارباً في سبيل الرب". وياشر الطقوس بقرار من أكبر العيادات مقاساً، وغير مألوف تماماً في تلك السنوات:

- سوف أعمدّه بالإسبانية، لكي يفهم الجاحدون ما الذي يعنيه هذا السر المقدس.

راح صوته يرنّ يقشالية مدوية، تابعتها من خلال لاثينية شوات صباي، كخادم كاهن في أراكاتاكا. وفي لحظة الرثاء بالماء، ودون أن ينظر إلى أحد بعينه، ابتدع كاميلو صيغة استفزازية أخرى:

- فليركع كل من يؤمن بأن الروح القدس سينزل الآن، على هذا الطفل.

بقيت أنا والعرابان واقفين، وربما متضايقين قليلاً من مكر صديقنا

الخوري. بينما الطفل يزعم تحت رشاش الماء البارد. والشخص الوحيد الذي جثا راکعاً هو الفلاح ذو الصندل، لقد ظلت صدمة هذه الواقعة، واحدة من العبر القاسية في حياتي. لأنني اعتقدت دوماً، بأن كاميلو هو من جاء بالفلاح، بتخطيط مسبق، لمعايشتنا بدرس في الإذلال، أو في حسن التربية على الأقل.

عدتُ للقاء به مرات قليلة. ودائماً لسبب قوي أو قاهر، يكون مرتبطاً على الدوام تقريباً، بأعمال إحسانه لمصلحة المطاردين السياسيين. وفي أحد الأيام حضر إلى بيتي، ومعه لص سطو على المنازل أنهى حكماً بالسجن، ولكن الشرطة لم تمنحه الراحة وتخفف من وطأتها عنه؛ فكان رجال الشرطة يستولون على كل ما يملكه. في إحدى المرات، أهديتُ إليه حقاًء كشاف. في أسفل نعله رسم خاص من أجل مزيد من الأمان. وبعد أيام قليلة، تعرفت خادمة البيت على النعل، في صورة جانح متشرد عُثر عليه ميتاً، في تصفية حسابات. لقد كان ذلك القتل هو اللص الصديق.

لست أزعج أنه كان لتلك الواقعة علاقة بالمصير النهائي الذي صار إليه كاميلو. ولكنه بعد شهور قليلة من ذلك، دخل إلى المستشفى العسكري لزيارة صديق مريض. ولم يعد يعرف أي شيء عنه. إلى أن أعلنت الحكومة أنه ظهر كمقاتل حرب عصابات عادي، في صفوف جيش التحرير الوطني. وقد مات في الخامس من شباط ١٩٦٦، في السابعة والثلاثين من عمره، خلال معركة حامية مع دورية عسكرية.

تزامن التحاق كاميلو بالمدرسة الدينية مع قراري الخاص بعدم مواصلة إضاعة الوقت في كلية الحقوق. ولكنني لم أجد الشجاعة

لمواجهة أبوي بذلك، دفعة واحدة. وقد علمت من خلال أخي لويس إريكي - الذي جاء إلى يوغوتا في وظيفة جيدة في شهر شباط ١٩٤٨ - أن أبوي راضيان جداً عن نتائجي في الثانوية وسنة الحقوق الأولى. وقد أرسل إليّ هدية مفاجئة، هي أخف وأحدث آلة كاتبة معروضة في السوق. كانت تلك هي أول آلة كاتبة أحصل عليها في حياتي، وأكثرها سوءاً طالع في الوقت نفسه، لأنني رهنها في ذلك اليوم بالذات مقابل اثني عشر بيزو من أجل مواصلة حفلة الترحيب بأخي مع زملائي في المنزل. وفي اليوم التالي «بينما آلام الرأس تسبب لنا الجنون، ذهينا إلى بيت الرهونات للاطمئنان إلى أن الآلة الكاتبة لا تزال هناك وأن خاتم تغليفها لم يمس. وللتأكد من أنها لا تزال في حالة جيدة، ريثما تسقط علينا من السماء النقود اللازمة لتخليصها، وقد واثنا فرصة طيبة بفضل ما دفعه لي شريكى الرسام المزيف، ولكننا قررنا في اللحظة الأخيرة، التخلي عن فك الرهن إلى ما بعد. وكلما مررتنا أمام بيت الرهونات، أنا وأخي، معاً أو منفصلين، كنا نتأكد ونحن في الشارع، من أن الآلة الكاتبة ما تزال في مكانها، مغلفة مثل جوهرة بورق السيلوفان، مع شريط من الحرير، وسط صفوف من الأجهزة المنزلية المحمية جيداً. بعد مرور شهر، لم تتحقق الحسابات السعيدة التي كنا قد أجريناها في نشرة السكر. ولكن الآلة الكاتبة بقيت في مكانها دون أن تمس، ويمكن لها أن تبقى هناك إلى أن ندفع، في الوقت المناسب، الفوائد الفصلية عن قيمة الرهن.

أظن أننا لم نكون نعي بعد، التوترات السياسية الرهيبة التي بدأت تعكر صفو البلاد. وعلى الرغم من سعة المحافظ المعتدل التي وصل بها

أوسينا بيريث إلى السلطة، فإن أغلبية حزبه كانت تعرف أن فوزه لم يمكن محكماً إلا بانقسام الليبراليين. وكان هؤلاء، وقد أفقدتهم الضربة صوابهم، يؤمنون البيروتو بمراس على حياديته الانتحارية التي سمحت بوقوع الهزيمة. أما الدكتور غابرييل طريه المثلث مزاجه المعكر، أكثر من ضيقه من الأصوات المعادية، فقد غادر إلى أوروبا دون وجهة ولا معنى، بحجة تخصص عالٍ في أمراض القلب. ومات وحيداً تحت وطأة ربو الهزيمة، بعد سنة ونصف، بين الأزهار الورقية الداوية في فندق بلاس آتينيه الباريسي. أما خورخي إل سيرغايتان بالمقابل، فلم يقطع، يوماً واحداً، حملته الانتخابية من أجل الدورة التالية، وإنما جازها بعنف؛ ببرنامج إصلاح أخلاقي للجمهورية تجاوز اقتسام البلاد التاريخي بين الليبراليين والمحافظين، وعمقه بشرح أفعى وأكثر واقعية، بين المستقلين والمستقلين: البلد السياسي والبلد الوطني. وبصرخته التاريخية - إلى الهجوم! - نشر بحاسة فوق الطبيعي، بذرة المقاومة حتى في أقصى الأركان، عبر حملة تحريض ضخمة راحت تكسب أرضية صلبة، خلال أقل من سنة، حتى وصلت إلى عتبة ثورة اجتماعية حقيقية.

وهكذا فقط، وعيننا أن البلاد بدأت تنحدر في مهاوي الحرب الأهلية نفسها التي بقيت لنا، منذ الاستقلال عن إسبانيا، وراحت تصل إلى الجيل الثاني من أجداد أبطالها الأصليين. فالحزب المحافظ الذي استعاد الرئاسة من الفريق الليبرالي، بعد أربع دورات متتالية، كان مصحفاً على عدم فقدانها من جديد، مهما كلف الأمر. وللتوصل إلى ذلك، استبقت حكومة أوسيبينو بيريث الأمور، بانتهاج سياسة أرض محروقة أدمت البلاد، ووصلت إلى الحياة اليومية في البيوت.

لم أستطع بالانعدام وعيي السياسي، ومن ضيائيتي الأدبية، أن ألمح ذلك الواقع الجلي، حتى ليلة كنتُ عائداً فيها إلى المنزل، والتفتيت بشيح وعيبي. كانت المدينة مقفرة، تعصف فيها رياح جليدية تهب من المضائق الجبلية، يحاصرها صوت خورخي إليسير غايتان المحدثي ونبرة تفخيصة الشعبية المتعمدة، في خطابه الدوري الصارم، كل يوم جمعة في المسرح البلدي. لم تكن طاقة المكان الاستيعابية تزيد على ألف شخص متزاحمين، ولكن الخطاب كان ينتشر في موجات متعده المركز، أولاً من مكبرات الصوت في الشوارع المجاورة، وبعد ذلك من أجهزة المذياع التي تلتلعق بأعلى صوت، مثل ضربات سدوية في أجواء المدينة الذاهلة، وتستحوذ لثلاث ساعات، وحتى أربع ساعات، على الاستماع الوطني. راودتني في تلك الليلة الإحساس بأنني الوحيد في الشوارع، اللهم إلا عند ناحية تقاطع جريدة التيمبو، المحروسة كما في كل يوم جمعة، بفصيلة من رجال الشرطة المسلحين كما لو أنهم في حالة حرب. لقد كان ذلك كشفاً أتاح لي عجرفة عدم الإيمان بخورخي غايتان؛ فقد أدركتُ فجأة، في تلك الليلة، أنه قد تجاوز البلد الذي خلفته إسبانيا، وأنه يخترع لغة صريحة للجميع. ليس من خلال ما تعنيه الكلمات بقدر ما هو بسبب الهيباج الذي يشبه، والدهاء الذي في صوته. لقد كان هو نفسه، في خطابه الملمعية، يلصق مستمعيه بنبرة أبوية مأكرة، بأن يعودوا بسلام إلى بيوتهم، فيترجموا نصيحته بصورة سوية على أنها أمر مشفر للإعراب عن رفضهم لكل ما يمثله التفاوت الاجتماعي وسلطة الحكومة الجائرة. وحتى رجال الشرطة أنفسهم الذين يتوجب عليهم حفظ النظام، كانوا يجدون تبريراً لأنفسهم، من خلال تنبيه بقسوته معكوساً.

كان موضوع الخطاب في تلك الليلة، سرّاً مكشوفاً للأضرار والخسائر التي أحدثها العنف الرسمي، بانتهاج سياسة الأرض المحروقة من أجل تدمير المعارضة الليبرالية، وما أسفرت عنه من عدد لم يحدد بعد من القتلى على يد قوات الأمن العام في المناطق الريفية، وتحول سكان قرى بكاملها إلى لاجئين في المدن. دون سقف ودون خبز. وبعد تعداد مرعب للاغتبيالات وخرق القوانين، بدأ غايتان برفع صوته، متلذذاً بما يقوله كلمة كلمة، جملة جملة، بإعجاز بلاغي مبهرج وصائب. كان توتر الجمهور يتزايد على إيقاع صوته، حتى بلغ انفجاراً نهائياً في أجواء المدينة، ودوى عبر الإذاعة في أقصى أركان البلاد.

اندفعت الحشود الغاضبة إلى الشارع، في معركة حامية وغين داعية، وسط تصامح سري من جانب الشرطة. وأطن أنني فهمت أخيراً، في تلك الليلة، إحباطات جدي وتحليلات كاميلو توريس ولسترينو الشاقبة. ما قاجاني هو أن طلاب الجامعة الوطنية يقفوا منقسمين إلى ليبراليين وقوطيين (محافظين)، مع وجود حلقات شيوعية. ولكن الثغرة التي كان يشقها غايتان في البلاد لم تتجاوز ذلك. وصلت إلى المنزل ذاهلاً من صدمة تلك الليلة، ووجدت زميلي في الغرفة يقرأ في سريرها بسلام، كتاباً لأورتيغا أي غاسيت، فقلت له:

- لقد جئت متحولاً إلى شخص آخر جديد يا دكتور بيقا. فقد عرفت الآن كيف ولماذا كانت تبدأ حروب الكولونيل نيكولاسي ماركيز. بعد أيام قليلة من ذلك - في السابع من شباط ١٩٤٨ - أقام غايتان أول مهرجان سياسي حضرته في حياته: مسيرة حداد على ضحايا العنف الرسمي في البلاد الذين لم يُعرف عددهم، وقد شارك

فيها أكثر من ستين ألف امرأة ورجل يرتدون ملابس الحداد، ويرفعون رايات الحزب الحمر، ورايات الحداد الليبرالي السوداء. وكان شعار المسيرة الوحيد هو: الصمت المطلق. وقد طبق الشعار بصرامة لا يمكن تصورها، حتى في شرفات المنازل والكتائب التي شهدت مرورنا غير الإحدى عشرة كوادرا المزدحمة في الجادة الرئيسية. وكانت هناك إلى جانبي، امرأة تدعم يترتيلة من بين أستانها. فنظر إليها باستغراب وجل يسير بجوارها:

- أرجوك يا سبقتي.

فأصدرت المرأة زفرة أسف، وغرقت وسط بحر الأشباح الصامتة. ومع ذلك، فإن ما جرجرتني إلى حافة البكاء هو احتراس الخطوات وهي تطفأ الأرض، وأنفاس الحشود في صمتها الحارق. لقد انضمت إلى المسيرة دون أية قناعة سياسية، يجتذبي فضول الصمت، وفجأة داهمتني عقدة البكاء الحبيسة في حنجرتي. ذلك الخطاب الذي ألقاه غايتان في ساحة بوليغار، من فوق شرفة دار البلدية، كان صلاة مائتية ذات شحنة انفعالية تبعث على القشعريرة. وعلى خلاف تنبؤات حزبه المشؤومة، أنهى خطابه بالشرط الأكثر ملائمة لشعار المسيرة، ولم يكن هناك أي تصفيق.

هكذا كانت "مسيرة الصمت"، الأكثر إثارة للمشاعر، بين كل المسيرات التي جرت في كولومبيا، الانطباع الذي تبقى من تلك الأمسية التاريخية، بين المناصرين والمعادين، هو أن انتخاب غايتان صار أمراً محتسماً لا يمكن وقفه. وقد كان المحافظون يعرفون ذلك أيضاً، بسبب درجة التلوث التي بلغها العنف في كل أنحاء البلاد، وبسبب شراسة

شرطة النظام ضد الليبرالية العزلاء، وبسبب سياسة الأرض المحروقة. والتعبير الأكثر ضبابية عن حالة البلاد المعنوية، عاشه في عطلة نهاية الأسبوع تلك، من حضروا مصارعة الشيران في ميدان المصارعة في بوغوتا، حيث انقض جهور المدرجات على الحلبة بسخط، وقد استشارته وداعة الثور وعجز المصارع عن الإجهاز عليه. فمزقت الحشود القاضية الشور حباً. صحفيون وكتاب كثيرون ممن عاشوا ذلك الرعب أو سمعوا به، فسروه على أنه العارض الأشد هولاً للغضب الهمجى الذي كان يعتمل في البلاد.

في مناخ التوتر العالي ذاك، افتتح في بوغوتا المؤتمر التاسع لعموم أميركا، في الثلاثين من آذار، الساعة الرابعة والنصف مساءً. كان قد جرى تجديده شباب المدينة بكلفة باهظة، وبالرؤية الجمالية الباذخة لوزير الخارجية لاورمانو غوميث الذي كان، بحكم منصبه، رئيساً للمؤتمر. وحضره وزراء خارجية جميع بلدان أمريكا اللاتينية، وشخصيات بارزة من ذلك الزمن. وكان جميع السياسيين الكولومبيين البارزين ضيوف شرف، باستثناء وحيد ودي مغزى خورخي إلسير غايتان، إذ ألغيت دعوته، دون ريب، بالفيتو ذي المغزى الكبير الذي فرضه لاورمانو غوميث، وربما بعض القادة الليبراليين أيضاً، ممن كانوا يكرهونه لمهاجمته الأولية غاشية في كلا الحزبين. أما نجم القطب في المؤتمر فكان الجنرال جورج مارشال، مندوب الولايات المتحدة والبطل الأكبر للحرب العالمية المنتهية حديثاً، والمتألق كفتان سبنماني مبهر في قيادته إعادة اعمار أوروبا التي دمرتها الحرب.

ومع ذلك، فقد كان خورخي إلسير غايتان هو رجل اليوم، في

الأخبار، في ذلك التاسع من نيسان، لأنه توصل إلى إصدار حكم بتبرئة الملازم خيسوس ماريا كورتيس بوييدا، المتهم بقتل الصحفي إدواردو غالارثا أوسا. كان قد وصل ممثلاً بالنشوة إلى مكتبه كمحام، في التقاطع المزدهم للشارع السابع مع جادة خيمينث كيسادا، قبل الساعة الثامنة صباحاً بقليل، على الرغم من أنه كان قد بقي في المحكمة حتى الفجر. وكانت لديه مواعيد عديدة للساعات التالية، ولكنه تقبل فوراً، الدعوة إلى الغداء التي وجهها إليه بلينيو ميندوتا ثيرا، قبل الساعة الواحدة بقليل، مع ستة أصدقاء، شخصيين وسياسيين، ذهبوا إلى مكتبه لتهنئته بالفوز الحاسم الذي لم تتمكن صحف ذلك اليوم من نشره. وكان بينهم طبيبيه الخاص، بيدرو إليسيو كروت، وهو في الوقت نفسه أحد أفراد بطائفة السياسية.

في ذلك الجو المنوتر، جلست لتناول الغداء في قاعة الطعام، في المنزل الذي أعيش فيه، على بعد أقل من ثلاث كوادرات، لم يكن الحساء قد قدم إلي بعد، عندما وقف ويلفريدو ماتيو أمام المنضدة، وقال لي:

- لقد تخوزقت هذه البلاد! فقد قتلوا للثر غايتان، قبالة "القط الأسود".

كان ماتيو طالب طب وجراحة مثالياً، يتحدر من سوكري مثل نرلا. آخرين في المنزل، ويعاني من ثبوات مشؤومة. وقد أخرجنا أقل من أسبوع، بأشد نيرماته هولاً وأقربها إلى الحدث، بسبب عراقيلها المدمرة، وهي احتمال أن يجري اغتيال خورخي إليسير غايتان. غير أن ذلك ما كان يدهش أحداً، لأنه لم تكن هناك حاجة إلى النيرمات من أجل توقع حدوثه.

استجعت أنفاسي بصعوبة لأجتاز، بأقصى سرعة، جادة خيمينث دي كيسادا، طائراً. ووصلت منقطع الأنفاس، قبالة مقهى القط الأسود، عند ناصية التقاطع مع الشارع السابع تقريباً، كماقوا قد نقلوا الجريح للثر، إلى المستشفى المركزي، على بعد حوالي أربع كوادرات من المكان، وكان لا يزال حياً إنما دون أمل بالنجاة، وكانت هناك جماعة من الرجال يغمسون مناديلهم في بركة الدم الدافئ، ليحتفظوا بها كأثر تاريخي، ورمجرت امرأة تضع منديلاً أسود وتنتعل صندلاً، كانت بين النساء اللواتي يبعن أشياء - رخصة في ذلك المكان، وهي ترقع المنديل الدامي:

- لقد قتله أبنا، العاهرة

حاولت زمر ماسحي الأحذية، المسلحين يصناديقهم الخشبية، أن يحطموا الستارة المعدنية لصيدلية "نويبا غرانادا"، حيث كان عدد قليل من رجال الشرطة قد احتجزوا المعتدي، لحمايته من الجموع المتأججة غضباً. وكان هناك رجل طويل القامة، شديد الثقة بنفسه، يرتدي بدلة رمادية متقنة، كما لو أنه في حفل زفاف، يحرض المجرم بصرخات محسوبة جيداً. وقد كان لصرخاته مغولها، مما اضطر صاحب الصيدلية إلى رفع ستارة الباب المعدنية، خوفاً من أن يقدموا على إراقها. أما المعتدي، فقد انهيار هلعاً، في مواجهة الحشد الغاضب الذي اندفع باتجاهه، فتشبت بأحد رجال الشرطة، وهو بتوسل دون صوت تقريباً:

- لا تدعهم يقتلونني أيها الشرطي.

لن أستطيع نسيانه إلى الأبد. كان شعره مشعثاً، وذقنه لم يخلق منذ يومين، يغطي وجهه شحوب الموت، وعيناه جاحظتان من الرعب،

وكان يرتدي بدلة جوخ بنية مستخدمة طويلاً، ذات خطوط رأسية، وقد
 نزلت ياقعتها مع أول أعمال شدّ ونجاذب الجموع له. كانت رؤية خاطفة
 وأبدية، لأن ماسحي الأحذية انتزعوه من الشرطة بضربات صناديقهم،
 وأجهزوا عليه ركلاً بالأقدام. ومنذ تعثره الأول، فقد إحدى فرديتي حذائه.
 صرخ الرجل ذو البدلة الرمادية الذي لم تُحدد هويته قط:

- إلى القصر! إلى القصر!

انصاع له أشد الناس اندفاعاً، أمسكوا جسد القاتل الدامي
 وسحلوه في الشارع السابع، باتجاه ساحة بوليفار، بين آخر حافلات
 الترام التي عرقل الخبر مسيرها، مطلقين سباب وشتم الحروب ضد
 الحكومة. ومن الأرضة والشرقات، كانوا يحشونهم بالصرخات
 والتصفيق، بينما الجثة المعزقة بالضرب، تخلف تنفّاً من الملابس والجسد
 على حجارة الشارع. انضم كثيرون إلى المسيرة، وخلال اجتياز أقل من
 ست كوادرات، صارت أشبه بانفجار حرب في اتساع حجمها وقوتها.
 ولم يبق على الجسد المعزق سوى سرواله الداخلي وفردة من الحذاء.

أما ساحة بوليفار التي أعيد تصميمها حديثاً، فلم تكن لها مهابة
 وجلال أيام الجمعية التاريخية الأخرى، فالأشجار جُرّدت من صلاتكيتها،
 ونصبت التماثيل الفظة المعبرة عن الجماليات الرسمية الجديدة. وفي
 مبنى الكابيتوليو الوطني (البرلمان)، حيث أقيم قبل عشرة أيام، مؤتمر
 عموم أمريكا، كان المندوبون قد غادروا لتناول الغداء، وهكذا واصلت
 الجموع مسيرها حتى قصر الرئاسة، وكان أيضاً بلا حراسة. وهناك تركوا
 ما تبقى من الجثة التي لم يعد عليها من الملابس، سوى مزق من السروال
 الداخلي وفردة الحذاء اليسرى وربطتي عنق لا تفسير لهما، معقودتين

عند العنق. بعد دقائق، وصل رئيس الجمهورية هاريانو أوسبينا يمرث
 وزوجته لتناول الغداء، بعد أن افتتحا معرضاً للثروة الرعوية والماشية
 في بلدة إنغاثيفا، وكانا يجعلان حتى تلك اللحظة، خبر الاغتيال، لأن
 جهاز المخابرات في السيرة الرئاسية، كان مطلقاً.

بقيت في مكان الجريمة حوالي عشر دقائق أخرى، مذهولاً من
 السرعة التي تبدل فيها روايات الشهود، شكلاً ومضموناً، إلى أن تفقد
 أي تشابه لها مع الواقع. كنا في تقاطع جادة خيمسيتث والشارع
 السابع، في الوقت الذي بلغ فيه تجمع الناس ذروته، على بعد خمسين
 خطوة من صحيفة التيمبو. وعرفنا عندئذ أن من كانوا يرافقون غايتان،
 عند خروجه من مكتبه، هم بيدرو إليسيو كروت، واليخاندرو بايخو،
 وخورخي باديا، وبيلينو ميندوتا نيجرا، وزير الحرب في حكومة ألقونسو
 لويث بوساريوخو الأولى. وكان هذا الأخير هو من دعاهم إلى الغداء.
 لقد خرج غايتان من البناء الذي يوجد فيه مكتبه، دون أي نوع من
 الحراسة، وسط جماعة مترصة من الأصدقاء. وما إن بلغوا الرصيف،
 حتى أمسكه ميندوتا من ذراعه، وتقدم به خطوة عن الآخرين، وقال له:

- ما أريد أن أقوله لك، هو أمر ثان.

لم يستطع قول المزيد. فقد غطي غايتان وجهه بذراعه، وسرع
 ميندوتا الطلقه الأولى قبل أن يرى في صواجهتهم الرجل الذي سدد
 مسدسه، وأطلق النار ثلاث مرات على رأس الزعيم، بيروء أعصاب قاتل
 محترف. بعد لحظة من ذلك، كان هناك حديث عن طلقة رابعة أطلقت
 دون اتجاه، وربما عن خامسة أيضاً.

بيلينو ابوليو ميندوتا الذي وصل مع أبيه وأخته، إلفيرا وروسا

إنس، تمكن من رؤية غايتان مطروحاً على ظهره على الرصيف، قبل دقيقة واحدة من نقله إلى المستشفى. وقد أخبرني بعد سنوات من ذلك: "لم يكن يبدو ميتاً، كان أشبه بتسشال هيبب محدد على ظهره فوق الرصيف، بجوار بقعه دم صغيرة، ويحزن عظيم في عينيه المفتوحتين والثابتتين." في لحظات الاضطراب تلك، فكرت أختاه في أن أباهما قد مات أيضاً، وكاتنا ذاهلتين إلى حد أن بيلينيو ابوليو صعد بهما إلى أول ترام مر من هناك، ليلعهما عن المكان. لكن السائق أدرك ما حدث بالكامل، فألقى قبعته على الأرض، وغادر الترام في وسط الشارع، لينضم إلى صرخات التمرد الأولى. بعد دقائق كان ذلك الترام هو الأول الذي قلبته الحشوة التي أصابها الجنون.

كانت هناك خلاقات لا حل لها، حول عدد المشاركين في الاعتقال وأدوارهم؛ فقد أكد أحد الشهود أنهم كانوا ثلاثة، وتوالوا على إطلاق النار. وقال آخر إن القتال الحقيقي قد اندس بين الجموع الهائجة، وصعد دون تسرع إلى ترام سائره. ولم يكن ما أراد ميندونا نيسيرا طلبه من غايتان، عندما اقتاده من ذراعه، أي شيء من الأشياء الكثيرة التي قبلت منذ ذلك الحين؛ وإنما أراد إبلاغه بنجحة الموافقة على إنشاء معهد لإعداد القادة النقابيين، أو "مدرسة لتعليم السائقين الفلسفة"، مثلما سخر منه حموه قبل أيام من ذلك. ولكنه لم يتمكن من قول ذلك له، عندما دوت أمامهما الرصاصة الأولى.

بعد مرور خمسين سنة، ما زالت راسخة في ذاكرتي، صورة الرجل الذي بدا أنه يحرض الناس أمام الصبديلة، ولم أعثر عليه في أي واحدة من الشهادات الكثيرة التي قرأتها عن ذلك اليوم. لقد رأيته عن قرب،

بملابس من النوع الفاخر، وبشرة من المرمر، وبسبطة محكمة على تصرفاته. وقد لفت انتباهي إلى حد بقيت معه أتابعه إلى أن التقطته سيارة جديدة تماماً قور سجل جثة القتال. ومنذ تلك اللحظة، بدا محمواً من الذاكرة التاريخية، وحتى من ذاكرتي، إلى ما بعد سنوات طويلة، في أزمته عملي كصحفي، حين داهمتني فجأة فكرة أن ذلك الرجل قد تمكن من دفع الجموع إلى قتل قاتل مزيف ليخفي هوية القاتل الحقيقي.

وقد كان وسط تلك الفوضى المتفجرة من عقابها، القائد الطلابي الكريي فيديل كاسترو، في العشرين من عمره، مندوباً عن جامعة هافانا إلى مؤتمر طلابي، انعقد كرد ديمقراطي على مؤتمر عموم أمريكا. كان قد حضر قبل حوالي ستة أيام، برفقة ألفريدو غيفارا، وإيريكى أوقاريس، ورفائيل دل بينو - وهم طلاب جامعيون كوبيون مثله - وكانت إحدى مساعيهِ الأولى، طلب موعد للقاء مع خورخي البشير غايتان، وكان معجبا به. بعد يومين من وصوله، التقى كاسترو بغايتان، وحدد له هذا الأخير موعداً لمقابلته يوم الجمعة التالي. وقد سجل غايتان، شخصياً، هذا الموعد في مفكرة مكتبه، في الصفحة الموافقة ليوم التاسع من نيسان؛ "فيديل كاسترو، في الثانية بعد الظهر".

ووفق ما قاله فيدل نفسه لوسائل إعلام عديدة، وفي مناسبات مختلفة، وفي استعداتها معاً، مرات لا حصر لها، لتلك الأحداث على امتداد صداقتنا القديمة، فقد سمع بأول خبر عن الجريمة، بينما كان يتجول قريباً من المكان، لكي لا يتخلف عن مواعده في الساعة الثانية. وفاجأته بغتة أول الجماعات التي كانت تركض غاضبة، ومطلقة الصيحة العامة:

- لقد قتلوا غايتان!

لم ينتبه فيديل كاسترو، إلا في ما بعد، إلى أنه ما كان يمكن له إنجاز مواعده، بأي حال من الأحوال، قبل الساعة الرابعة أو الخامسة، بسبب دعوة الغداء الطارئة التي قدمها ميندوثا نيرا لغايتان.

لم يكن هناك مشع لأي شخص آخر في موقع الجريمة. فقد كانت حركة المرور متوقفة، وعربات الترام مقلوبة، فتوجهت إلى النزل لأتبع غداثي، عندما اعترض طريقي آساذي كارلوس هـ. باروخا أمام باب مكتبي، وسألني إلى أين أنا ذاهب. فقلت له:

- إنني ذاهب لتناول الغداء.

فقال بطلاقة الكاريبية المتداوية:

- يا للجنة! كيف يخطر لك تناول الغداء، وقد قتلوا لشوهم

غايتان؟

ودون أن يتحتم وقفا لقلول أي شيء آخر، أمرني بأن أذهب إلى الجامعة، وأن أقف على رأس حركة الاحتجاج الطلابي. الغريب أنني انصبت له على خلاف طبيعتي. واصلت مسيري عبر الشارع السابع باتجاه الشمال، وهو عكس اتجاه الحشد الذي كان يتراكم نحو الناصبة التي وقعت فيها الجريمة، بغضول وألم وغضب. كانت حافلات الجامعة الوطنية، يقودها طلاب هائجون، تتقدم المسيرة. وفي حديقة سانتاندير، على بعد مئة متر من ناصبة الجريمة، كان الموظفون يغلقون بأقصى سرعة بوابات فندق غرانادا - أقدم فنادق المدينة -، حيث كان ينزل في تلك الأيام بعض وزراء الخارجية وضيوف مؤتمر عموم أمريكا.

راحت جمهرة جديدة أخرى من الفقراء، تبرز من كل النواصي، في وضع قتالي. كثيرون منهم جازوا مسلحين بمناجل مثبتي سُرقت للتو،

في أول هجمات على المتاجر. وكانت تبدو عليهم اللفتة إلى استخفافها. لم تكن لدي رؤية واضحة للنتائج الاحتمالية المحتملة؛ وواصلت طريقي مفكراً في الغداء أكثر من تفكيري في الاحتجاج. وهكذا رجعت ثانية باتجاه النزل. صعدت الدرج قفزاً وأنا واثق من أن أصدقائي المسبيين يقفون على أهبّة الحرب، لكن الأمر لم يكن كذلك؛ فقد كانت قاعة الطعام لا تزال مقفرة، وكان أخي وخوسيه بالنشيا - اللذان يقيمان في الغرفة المجاورة - يغنيان مع أصدقاء آخرين في غرفة النوم، فصرخت بهم:

- لقد قتلوا غايتان!

أومؤوا إلي بأنهم يعرفون ذلك، ولكن مزاجهم جميعاً كان أقرب إلى الاحتفالية منه إلى المأثمة، ولم يقطعوا غناهم. بعد ذلك جلسنا لتناول الغداء في قاعة الطعام الخاوية، مقتنعين بأن الأمر لن يتجاوز الحد الذي بلغه، إلى أن رقع أحدهم صوت المذياع ليسمعه غير المباليين. وأكد كارلوس هـ. باروخا، عبر المذياع، على ما كان قد نبهني إليه قبل ساعات؛ فأعلن أنه جرى تشكيل مجلس حكومي ثوري مكون من أبرز ليبراليي اليسار، ومنهم الكاتب والسياسي الأوسع شهرة، خورخي ثالاميا. وكان أول اتصال توصل المجلس إليه هو تشكيل اللجنة التنفيذية، وقيادته الشرطة الوطنية وكل الأجهزة اللازمة للدولة الثورية. ثم تحدث بعد ذلك أعضاء اللجنة الآخرون بشعارات أكثر فأكثر غادياً.

كان أول ما خطر لي، في وقار المهرجان، هو ما الذي يمكن لأتبي أن يفكر فيه عندما يعلم، وهو المحافظ الصلب، أن ابن عمه هو الزعيم الأكبر لشورة اليسار المتطرف. فوجئت صاحبة النزل، حبال كثرة أسماء

الأساتذة الجامعيين، ورأت أنهم لا يتصرفون كأستاذة، وإنما كطلاب
سيني التربية. كان يكفي تجاوز رقمين على مؤشر المذياع، ليجد أحدها
نفسه في بلد مختلف. ففي الإذاعة الوطنية، كان دعاة الليبرالية يدعون
إلى الهدوء، وفي إذاعات أخرى يحرضون ضد الشيوعيين المواليين
لموسكو، بينما كبار زعماء الليبرالية الرسمية يتحدون أخطار الشوارع
التي في حالة حرب، محاولين الوصول إلى القصر الرئاسي لبتفاوضوا
على تسوية وحدة مع الحكومة المحافظة.

بقبنا حائرين من تلك البلبلة الجتونية إلى أن صرخ ابن صاحبة
الزل، فجأة، بأن البيت يحترق. وبالفعل، كانت قد انفتحت شق في الجدار
الرخامي في أقصى البناء، وبدأ دخان أسود كثيف يخلخل هواء غرف
النوم. لا شك أنه كان يأتي من مبنى الإدارة الحكومية - المجاور للزل -
الذي أحرقه المظاهرات. ولكن الجدار بدا قريباً بما يكفي للصدور. وهكذا
نزلنا الدرج قافزين، ووجدنا أنفسنا وسط مدينة في حالة حرب. كان
المهاجمون المندفعون يلقون من نوافذ المبنى الحكومي، كل ما يجدونه في
المكاتب. وكان دخان الحرائق يعيق في الهواء، ويدت السماء المكفهرة
بالدخان كأنها غطاء مشقوم. بينما كانت الشراذم الغاضبة، المسلحة
بمناجل المتشبعي وكل أنواع الأدوات المسروقة من محلات المخردوات،
تنقض على متاجر الشارع السابع والشوارع المجاورة، وتضرم فيها
النار، بمساعدة رجال الشرطة المضمردين. وكانت نظرة آنية واحدة، كافية
لندرك أن الوضع قد خرج عن السيطرة. وسبق أخى تفكيري، مطلقاً
صرخة:

- يا للجنة الآلة الكاتبة.

ركضنا باتجاه بيت الرهونات الذي ما زال سليماً، وبوابته ذات
القضبان الحديدية محكمة الإغلاق. ولكن الآلة الكاتبة لم تكن في
المكان الذي كانت فيه دائماً. لم نلق، وفكرنا في أنه يمكننا استعادتها
في الأيام التالية، دون أن يدور في خلدنا أنه لن نكون هناك، بعد تلك
الكارثة الفظيعة، أية أيام تالية.

اكتفت حامية يوغوتا العسكرية بحماية المراكز الرسمية والمصارف.
وبقي الأمن العام على عاتق لا أحد. تحصن عدد كبير من كبار قادة
الشرطة في مقر الفرقة الخامسة، منذ الساعات الأولى، ولحق بهم الكثير
من رجال شرطة الشوارع، مع شحنات أسلحة جمعوها من الطرق. وقد
أطلق بعضهم، وكاتبوا يضعون عصاة المتعربين الحمر، على أقرعهم،
زخات من رصاص يناديهم قريباً منا؛ فأحسستُ بها تدوي في صدري.
ومنذ ذلك الحين صرت على قناعة بأنه يمكن للمندقية أن تقتل بالدوي
وحده.

لدى رجوعنا من بيت الرهونات، رأينا اجتياح وتدمير متاجر الشارع
الثامن في دقائق. وكانت تلك هي أغنى المتاجر في المدينة. المجوهرات
الشمعية، والأجواخ الإنكليزية، وقبعات بوند ستريت التي كنا، نحن
الطلبة الساحليين، ننظر إليها بإعجاب في واجهات المتاجر البعيدة عن
متناولنا، صارت جميعها حيثذاك، في متناول يد الجميع، أمام الجنود
غير المباليين الذين يحرسون المصارف الأجنبية. وكان مقهى سان مارتير
الراقي، حيث لم نستطع الدخول قط، مفتوحاً ومخرباً. ولأول مرة دون
البوابين ذوي السموكينغ الذين كانوا يبادرون إلى منع الطلاب الكاربيين
من الدخول.

بعض من مكانوا يخرجون محبلين بالملابس الفاخرة، ولغائف أقمشة الجوخ الكبيرة على أكتافهم، لا يلبثون أن يتركوها في الشارع. التقطت واحدة منها، دون أن يخطر لي أنها ثييلة إلى ذلك الحد، واضطرت إلى التخلي عنها بالرغم من ألم روحي. كنا نتعشر في كل مكان، بأجهزة منزلية ملقاة في الشارع، ولم يكن من السهل المشي بين زجاجات ويسكي من أفسر الأصناف، وكل أنواع المشروبات الغريبة التي كان المجموع تذبجها بضربات المشيتي. وجد أخي لويس إيريكي وخوسيه بالينشيا ما تبقى من تهب أخذ متاجر الثياب الجيدة، وكانت بينها بذلة زرقاء، مساوية من قماش جيد جداً، ومناسبة تماماً لمقام والذي الذي استخدمها طوال سنوات في المناسبات المهمة. أما غنيمتي الوحيدة التي وفرتها لي العناية الإلهية، فكانت حافظة أوراق من جلد البقر، وجدتها في أعلى قاعة شاي في المدينة. وقد أفادته في حمل مخطوطاتي تحت إبطي، خلال ليالي الستوات التالية الطويلة التي لم أكن أجد فيها مكاناً أنام فيه.

كنت أمضي مع جماعة تشق طريقها في الشارع الثامن، متوجهة إلى الكابيشوليو، عندما كنست زخة من رصاص ورشاش، أولاً من أطلوا على ساحة بوليفار. القتل والجرحى الذين سقطوا فوراً متكومين في منتصف الشارع، جعلونا نتوقف فجأة. خرج زاحياً من ذلك الكوم، محتضراً مضرج بالدماء، وأمسك بساق بطالي، وصرخ بتوسل مؤثر يمزق القلب:

— حباً بالرب أيها الشاب، لا تتركني أمت!

هربت خائفاً. ومنذ ذلك الحين تعلمت تسبان أهوال أخرى، خاصة بي أو بالآخرين؛ ولكنني لن أنسى أبداً خذلان تسنك العينين في وميض

الحرائق. ومع ذلك، ما زال يفاجنني أنني لم أفكر لحظة واحدة، أنه كان يمكن لنا، أنا وأخي، أن نموت في ذلك المجمع الذي تداخلت فيه المواقع، كان المطر قد بدأ بالهطول متقطعاً، منذ الساعة الثالثة بعد الظهر. ولكنه انفلت بعد الخامسة في وابل ثوراني أطفأ الكثير من الحرائق الصغرى، وخفف من حدة اندفاع التردد. عمدت حماية بوغوتا ضئيلة العدد إلى تفكيك غضب الشوارع، العجزها عن مواجهته. ولم يتم تعزيزها إلى ما بعد منتصف الليل، بقوات طوارئ من المقاطعات المجاورة، وبخاصة من بويكا، ذات السمعة السيئة، باعتبارها مدرسة العنف الرسمي. وكانت الإذاعة حتى ذلك الحين تحت ومحض، ولكنها لا تقدم أخباراً. ولهذا لم يكن هناك منشأ أصلي لأي نيا. وكان من المستحيل معرفة الحقيقة. عند الفجر، استعادت القوات التي أحضرت حديثاً، السيطرة على المركز التجاري الذي دمرته الجموع، ولم يبق فيه وسيلة إنارة سوى الحرائق، ولكن المقاومة المسيية تواصلت لعدة أيام بعد ذلك، مع وجود قناصين متمركزين في الأبراج وعلى الأسطح. أما عدد القتلى في تلك الساعة، فكان لا يحصى.

عندما رجعنا إلى المنزل، كانت ألسنة اللهب تتصاعد من معظم أجزاء مركز المدينة. وكانت هناك حافلات تروم مقلوبة، وأتقاضى سيارات تستخدم كمخاريس عارضة. دستا في حقيبتي، أشباها القليلة التي تستحق أن تحمل، ولم أنتبه إلا في ما بعد، إلى أنه بقيت لي هناك مسودة قصتين أو ثلاث قصص قصيرة غير منشورة، ومعجم الجد الذي لم أسترده قط، وكتاب ديوجين ليرسيو الذي تلقينته كمكافأة، في ستة دراستي الثانوية الأولى.

الشيء الوحيد الذي خطر لثنا، أنا وأخي، هو طلب اللجوء في بيت الحال خوانيتو. وكان لا يبعد سوى أربع كوادرات عن النزول. في شقة طابق ثانٍ، مؤلفة من صالة، وغرفة طعام وحجرتي نوم، حيث يعيش الحال مع زوجته وأبنائه إدواردو، ومارغريتا، ونيكولاس. وكان أكبرهم قد أمضى بعض الوقت معي في النزول. كان المكان يكاد لا يتسع، إلا أن آل ماركيز كاببيرو كانوا طبيين إلى حد أنهم انجلبوا أماكن حيث لا مكان، حتى في غرفة الطعام، ليس لنا وحسب، وإنما كذلك للعديد من أصدقائنا وزملائنا في النزول: خوسيه بالبشيا، دومينغو مانويل بيغا، كارهيلو سارتيث - جميعهم من سوكري - وآخرون كنا لا نكاد نعرفهم.

قريب منتصف الليل بقليل، عندما توقف المطر، صعدنا إلى السطح لنشاهد المنظر الجميبي للمدينة المضاء بقايا الحرائق. بدا جيلا مونسرات وغوادالوبي، في أقصى المشهد، مثل كتلتين ظلال على خلفية السماء الغائمة بالدخان. ولكن الشيء الوحيد الذي كنت ما أزال أراه في الغمام الكتيب هو الوجه الهائل للمحتضر الذي زحف نحوي ليتوسل مساعدة مستحيلة. كانت عمليات الصيد الشوارع قد تقلصت، ولم يعد يُسمع في الصمت الرهيب، سوى صوت طلقات متفرقة من القناصين الكثيرين المنتشرين في كل أنحاء مركز المدينة، وجبهة القوات التي تصفي شيئاً فشيئاً بقايا المقاومة المسلحة أو العزلاء، المسيطرة على المدينة. وقد أعرب الحال خوانيتو، المتأثر بمشهد الموت، في زفرة واحدة عن مشاعر الجميع:

- ربا، يبدو هذا أشبه بحلم!

لدى الرجوع إلى الصالة المعنسة، انهرت على الأريكة. كانت النشرات الرسمية من الإذاعات التي احتلتها الحكومة، ترسم بانوراما عودة تدريجية إلى الهدوء. لم تعد هناك خطابات، ولكن لم يكن ممكناً التمييز بدقة بين الإذاعات الرسمية، وتلك التي ما زالت تحت سيطرة المتمردين. وحتى هذه الأخيرة، كان من المستحيل تمييزها وسط وابل يريد الساحرات الجارف. قبل إن كل السفارات تغص باللاجئين، وإن الجنرال جورج مارشال يقيم في سفارة الولايات المتحدة، تحت حماية حرس شرف من المدرسة العسكرية. وقد التجأ لاوريانو غوميث كذلك إلى السفارة نفسها، منذ الساعات الأولى، وأجرى من هناك اتصالات هاتفية مع رئيسه، محاولاً المبلولة دون دخول الرئيس في مفاوضات مع الليبراليين، في ظل وضع يتلاعب به، حسب رأيه، الشيوعيون. أما الرئيس السابق أليخاندرو بيراس، وهو يومذاك أمين عام اتحاد عموم أميركا، فقد لجأ بحياته بأعجوبة، حين تم التعرف عليه وهو في سيارته غير المصفحة، عندما غادر مبنى الكابيتوليو، وحاولوا أن يجبروه على الموافقة على تنازل المحافظين عن السلطة وتسليمها بصورة شرعية. وعند منتصف الليل كان معظم المندوبين المشاركين في مؤتمر عموم أميركا، قد صاروا في أماكن آمنة.

ووسط الأخبار الكثيرة، أعلن أن غييرمو ليون بالبشيا، ابن الشاعر الذي يحمل الاسم نفسه، قد رُجم بالحجارة حتى الموت، وأن جثته معلقة في ساحة بوليفار. ولكن فكرة أن الحكومة تسيطر على الوضع، بدأت تتضح عندما راح الجيش يستعيد محطات البث الإذاعي التي سيطر عليها المتمردون. وبدلاً من صرخات الحرب، صارت الأخبار ترمي عندئذ

إلى طمأننة البلاد بعزاء أن الحكومة هي سيدة الموقف، بينما كانت القيادات الليبرالية العليا تتفاوض مع رئيس الجمهورية على نصف السلطة.

الحقيقة أن الوحيدين الذين بدا أنهم يعملون بحس سياسي، هم الشيوعيون. وكانوا قلة ومتحمسين؛ فقد خرجوا إلى الشوارع وسط الفوضى، ليوجهوا الحشود - مثل شرطة المرور - ويقودوها نحو مراكز السلطة. أما الليبرالية بالمقابل، فكشفت انقسامها إلى النصفين اللذين ندد بهما غايتان في حملته الانتخابية: القادة الذين يتفاوضون على حصّة من السلطة مع القصر الرئاسي، وجمهور متخبيهم الذين خاضوا المقاومة، كيتم استنطاقوا وإلى حيث استنطاقوا، من فوق الأبراج والأسطح.

أول الشكوك التي برزت في شأن مقتل غايتان، كانت حول هوية قاتله، وليست هناك، حتى يومنا هذا، قناعة إجماعية بأن القاتل هو خوان روا سبيرا، رجل المسدس المنفرد الذي أطلق النار عليه بين الحشود في الشارع السابع. وما يصعب فهمه هو أن يكون قد تصرف من تلقاء نفسه، مادام يبدو بلا ثقافة ذاتية تمكّنه من اتخاذ قرار تلك الميمنة المدمرة، في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة، وفي ذلك المكان، وبتلك الطريقة نفسها. أنه إنكار تائيون سبيرا، أواملة روا، وكانت آنذاك في الثانية والخمسين من عمرها، علمت من الإذاعة بمقتل غايتان، بطلها السياسي. وكانت تصبغ أفضل ثوب لديها بالأسود من أجل الحداد. ولم تكن قد انتهت من عمل ذلك، عندما سمعت بأن القاتل هو خوان روا سبيرا، الابن الثالث عشر بين أبنائها الأربعة عشر. لم يكن أي واحد

منهم قد تخطى المدرسة الابتدائية، وأربعة منهم - طفلان وطفلتان - ماتوا مبكراً.

وقد صرحت بأنها لاحظت، منذ حوالي ثمانية أشهر، تبدلاً غريباً في سلوك خوان. كان يتكلم وحيداً، ويضحك دون سبب. وفي إحدى المرات اعترف للأمرّة باعتقاده بأنه تجسّد للجنرال فرانسيسكو دي باولا سانتاندير، بطل استقلالنا. ولكنهم ظنوا أنها مجرد دعاية مكبر سيئة. لم يخطر لها قط أنه يمكن لابنها أن يسيء إلى أحد. وكان قد توصل إلى الحصول على توصيات من أناس يستمعون ببعض النفوذ، من أجل الحصول على وظيفة، وكان يحمل واحدة من تلك التوصيات في محفظته، عندما قتل غايتان. وقبل ستة شهور من ذلك، كتب رسالة يخط يده إلى الرئيس أوسيبو بيريث، يلتمس فيها أن يقابله ليطالب منه توفير عمل له.

أعلنت الأمّ للمحققين أن ابنها قد طرح مشكلته على غايتان شخصياً كذلك، ولكن هذا لم يمنحه أي أمل. لم يُعرف عنه أنه أطلق النار من سلاح في حياته، ولكن الطريقة التي استخدم به سلاح الجريمة، كانت أبعد ما تكون عن مبتدئ. فقد كان المسدس من عيار ٨٣، طويلاً، قديماً ومستهلِكاً، إلى حد أن عدم انحراف أي طلقة عن هدفها، بدا شيراً للدهشة.

أعرب بعض موظفي المني عن اعتقادهم بأنهم رأوه، عشيّة الاعتقال، في الطابق الذي توجد فيه مكاتب غايتان. وأكد اليواب، دون أي مجال للشك، بأنه رآه صباح التاسع من نيسان يصعد السلم، ثم ينزل بعد ذلك في المضعد مع شخص مجهول. وبدا له أن كليهما قد

انتظروا عدة ساعات بالقرب من مدخل المبني، ولكن روا كان وحيداً إلى جانب البوابة، عندها صعد غايتان إلى مكنتيه، قبل الساعة الحادية عشرة بقليل.

غابرييل ريستريو، وهو صحفي في جريدة لاخورنادا - صحيفة حملة غايتان الانتخابية -، وضع قائمة بالوثائق الشخصية التي كان روا سبيرا يحملها عند اقتراف الجريمة، وهي لا تترك مجالاً للشك حول هويته ووضع الاجتماع. فقد كان في جيوب بنطاله، اثنان وثمانون سنتافو على شكل قطع معدنية مختلفة، في الوقت الذي كانت فيه أشياء كثيرة، من مستلزمات الحياة اليومية، تكلف خمسة سنتافو، وكان يحمل في جيب سترته الداخلي، محفظة من جلد أسود، فيها ورقة نقدية من فئة البيزو الواحد، وكان يحمل كذلك، شهادة تؤكد حسن سيرته، وأخرى من الشرطة تشير إلى أنه بلا سوابق جنائية، ووثيقة ثالثة عليها عنوانه في حي الفقراء الذي يسكنه: الشارع الثامن، الرقم ٣٠-٧٣. وحسب دفتر الخدمة العسكرية، كاحتياطي من الدرجة الثانية، الذي كان يحمله في الجيب نفسه، فهو ابن رافائيل روا وإتكارثانيون سبيرا، وقد ولد قبل إحدى وعشرين سنة من ذلك: في الرابع من تشرين الثاني ١٩٢٢. كل شيء كان يبدو عادياً، اللهم إلا كونه رجلاً ذا وضع بائس ودون سوابق جنائية، يحمل معه كل تلك الأدلة على حسن سيرته وسلوكه. ومع ذلك، فإن الشيء الوحيد الذي خلف لدي أثر من الشك، لم أستطع تجاوزه أبداً، هو الرجل المشاكك ذو الملابس الجسدية الذي حرض عليه الشراذم الغاضبة، ثم اختفى إلى الأبد، في سيارة فخمة.

وسط جلبة المأساة، وبينما كان يجري تحنيط جثمان الزعيم المقتول،

اجتمعت قيادة الليبراليين في قاعة الطعام، في المستشفى المركزي، للاتفاق على صيغ طوارئ. وكانت أكثر تلك الصيغ إلحاحاً، هي التوجه إلى القصر الرئاسي، دون طلب مسبق، لمناقشة رئيس الدولة في صيغة طوارئ يمكن لها أن تدرأ خطر الكارثة التي تهدد البلاد. هذا هطول المطر قبل الساعة التاسعة بقليل، وشق أول المندوبين الليبراليين طريقهم كيئما استطاعوا، عبر الشوارع التي حولتها الثورة الشعبية إلى أنقاض، وبين الجثث التي اخترقها رصاص القناصين الطائش من الشرفات والأسطح.

مع نهاية المساء كان الرئيس قد فقد الاتصال مع أشد الأماكن حرجاً وخطورة. وكان يحاول مع قادة عسكريين ووزراء، وراء أبواب مغلقة، تقويم وضع الأمة. أخذته زيارة القادة الليبراليين على حين غرة، قبيل الساعة العاشرة ليلاً، ولم يشأ أن يقابلهم دفعة واحدة، وإنما كل اثنين منهم على حدة. ولكنهم صمموا أن يأبى منهم لن يدخل بتلك الطريقة، فتنازل الرئيس، ولكن الليبراليين رأوا في الأمر عبراً للباس.

وجدوه جالساً على رأس منضدة اجتماعات طويلة، بدلة لا تشوبها شائبة، ودون أدنى ملمح من الجزع. وكان الشيء الوحيد الذي يشي ببعض التوتر، هو طريقته المتواصلة والشرهة، في التدخين؛ فكان في بعض الأحيان يطفئ السجارة وهي في منتصفها، لكي يشعل واحدة أخرى. وقد أخبرني أحد الزائرين بعد سنوات من ذلك، عن الوقع الذي خلفه في نفسه وميض الحرائق المتعالية، وراء رأس الرئيس الغضبي غير المبالئي، فقد كان جمر الأنفاس تحت السماء الملتهبة، يلمح من خلال واجهات المكتب الرئاسي الزجاجية الكبيرة، ممنداً حتى أطراف الدنيا.

ما هو معروف عن ذلك الاجتماع، ندين به للقليل الذي رواه أبطاله،

واعترافات بعضهم السرية النادرة، وتخييلات آخرين الكثيرة، وإلى إعادة تركيب فئات ما جرى في تلك الأيام المشؤومة، على يد الشاعر والمؤرخ أرتورو ألابي، وهو الذي أتاح إلى حد كبير، تماسك هذه المذكرات.

كان الزائرون هم: دون لويس كانو، مدير جريدة الاسبينكتادور المسائية، وبيليغو ميندوتا نيبيرا الذي نشط ذلك الاجتماع. وثلاثة آخرون من أنشط قادة الليبراليين وأكثرهم فعالية: كارلوس بيراس ريستريبو، داريو إتشانديا، وألفونسو أراوخو. وفي سياق النقاش، دخل وخرج ليبراليون آخرون بارزون.

ووفقاً للاستذكارات الواضحة التي سمعتها، بعد سنوات، من بيليغو ميندوتا نيبيرا، في منغاف الضنجر، في كاراكاس، لم تكن لدى أي واحد منهم خطة جاهزة بعد. وكان هو نفسه الشاهد الوحيد بين الحضور، على عملية اغتيال غايتان. وقد روى ما جرى، خطوة خطوة بغنونه كراو، فطري وصحفي مزمّن. استمع إليه الرئيس باهتمام مهيب، ثم طلب في النهاية أن يعرب الزائرون عن أفكارهم من أجل حلّ عادل ووطني لذلك الوضع الطارئ الخطير.

فرد عليه ميندوتا، المشهور بين أصدقائه وأعدائه بصراحته البعيدة عن المجاملة، بأن تفويض الحكومة سلطاتها إلى القوات المسلحة، بسبب الثقة التي توليها إليها الشعب في تلك اللحظات، فقد كان وزيراً للحرب مؤخراً، في حكومة الليبرالي ألفونسو لوبيث بوماريخو، ويعرف العسكريين جيداً من الداخل، ويرى بأنهم هم وحدهم من يستطيعون إعادة الأمور إلى نصابها، ولكن الرئيس لم يوافق على واقعية هذه الصيغة، ولم يؤيدها كذلك الليبراليون أنفسهم.

المدخلة التالية قدمها دون لويس كانو، المعروف جيداً ببريق حلوه وتعلقه. كان يحس بمشاعر شبيه أبوية تجاه الرئيس. واكتفى بعرض استعداده للقبول بأي قرار سريع وعادل يوافق عليه الرئيس أوسبينا، ويحظى بتأييد الأغلبية. فأكد له هذا الأخير على ضرورة التوصل إلى الإجراءات الضرورية للعودة بالأوضاع إلى حالتها الطبيعية، ولكن مع التسك بالدستور دوماً. ثم ذكرهم بسخريّة غير مكبوحّة تماماً، وهو يشير من التوافد إلى المجيم الذي يلتهم المدينة، بأن الحكومة ليست من تشيبت بكل ذلك.

كان مشهوراً باعتداله وحسن تربيته، على نقبض صخب وزير خارجيته لاريانو غوميث، وغطرسة آخرين من محازبيه المحافظين، المجرأ في الانتخابات المركبة. ولكنه أثبت في تلك الليلة التاريخية، أنه غير مستعد لأن يكون أقل منهم عناداً. وهكذا امتد النقاش حتى منتصف الليل، دون التوصل إلى أي اتفاق. وكانت تقطعه بين حين وآخر، رُوجة الرئيس، دونيا بيرثا دي أسبينا، حاملةً إليه أخباراً مروعة، إلى هذا الحد أو ذلك.

كانت أعداد القتلى عندئذٍ لا تحصى في الشوارع. وكذلك أعداد الفنايين الذين يتركزون في مواقع لا يمكن الوصول إليها، وأعداد الحشود التي أفقدها صوابها الحزن والغضب وأصناف الحمر الغالية المسلوقة من المناجر الفخمة. كان مركز المدينة مهدماً، والمراثي ما زالت تشتعل فيه. كما هدعت أو أحرقت دكاكين بيع الكتب والأشياء الدينية، وقصر العدل، ودار الحكومة، وأبنية تاريخية أخرى كثيرة. لقد كان الواقع هو الذي بضيق، دون رحمة، دروب التوصل إلى اتفاق هادئ بين عدة رجال ضد رجل واحد، في جزيرة المكتب الرئاسي المعزولة.

داويو إتشانديا، الذي ربما كان صاحب أعلى سلطة. لكنه بدأ أقل الحضور تكلماً. فقد اكتفى بتعليقين أو ثلاثة تعليقات ساخرة حول الرئيس، وعاد يلوذ بعلمه الضبابي. كان يبدو المرشح المؤكد للحلول محل أوسيينا بيريث في رئاسة البلاد. ولكنه لم يفعل في تلك الليلة شيئاً يجعله جديراً بالنصب أو يجنبه إياه. أما الرئيس الذي اعتبر محافظاً معتدلاً، فقد صار يبدو أقل قاطل اعتدالاً. لقد كان حفيد وابن أخي رئيسين سابقين في قرن واحد، ورب أسرة، ومهندساً متقاعداً، ومليونيراً منذ الأزل، فضلاً عن أشياء أخرى كان يمارسها دون أدنى ضجيج. حتى إنه كان يقال، دون الاستناد إلى أي أساس، إن من يحكم في الواقع، سواء في البيت أو في القصر، هي زوجة الرئيس التي امتشقت السلاح. ومع ذلك، انتهى الرئيس إلى القول، بسخرية فظة، إنه لا يجد غضاضة في تقبل الاقتراح، غير أنه يشعر بالراحة في قيادته الحكومة من المقعد الذي يجلس عليه بمشيئة الشعب.

كان يتكلم مستقرباً، دون شك، بخير لا يعرفه الليبراليون: فهو مطلع تماماً وبدقة على الوضع الأمني العام في البلاد. وكان يعرف ذلك طوال الوقت، من خلال المرات العديدة التي خرج فيها من المكتب للحصول على معلومات معينة، لم تكن حافية بغوغتا تزيد على الألف رجل. وكانت هناك أخبار خطيرة إلى هذا الحد أو ذاك، تصل من كل القطاعات. إلا أن كل شيء لا يزال تحت السيطرة، إضافة إلى وراء القوات المسلحة، وفي مقاطعة بوبانكا المجاورة، المشهورة بشيائها الليبرالي التاريخي، ونيارها المحافظ الشرس، لم يكن حاكم المقاطعة خوسيه ماريا بيباريال - وهو قوطي قلياً وقالباً - قد أفلح في قمع

أعمال الشغب المحلية، منذ وقت مبكر وحسب. وإنما راح يرسل قوات أفضل تسليحاً لإخضاع العاصمة، وهكذا فإن الشيء الوحيد الذي كان الرئيس يحتاج إليه، هو إلهاء الليبراليين باعتداله المحسوب جيداً، بالتكلم قليلاً والتدخين ببطء. لم ينظر في أي لحظة إلى ساعته، ولكنه كان يقدر جيداً دون ريب، الوقت الذي ستكون فيه المدينة محمية جيداً، بقوات المدد الإضافية والمجربة في أعمال القمع الرسمي.

وبعد تبادل طويل لصيغ تحريمية، اقترح كارلوس بيراس ريس تريبو الصيغة التي اتفق عليها القادة الليبراليون في المستشفى المركزي. واحتفظوا بها كوسيلة أخيرة قصوى: الاقتراح على الرئيس بأن يعلم السلطة إلى داويو إتشانديا، في سبيل الوثام السياسي والسلام الاجتماعي. ولا بد أن الفكرة كانت مثقلى القبول دون تحفظ، من جانب إدواردو سانتوس وألفونسو لوبيث بوهاريخو، الرئيسين السابقين اللذين يتمتعان برصيد سياسي كبير، ولكنهما كانا خارج البلاد في ذلك اليوم. ومع ذلك، فإن إجابة الرئيس التي قالها بالبطء نفسه الذي كان يدخن به، لم تكن ما يرجى انتظاره منه. فهو لم يبدد تلك الفرصة ليكشف عن طبيعته الحقيقي، وكان من يعرفونه قلّة حتى ذلك الحين. فقد قال إن الأمر المريح له ولأسرته، هو التخلي عن السلطة والعيش في الخارج، على ثروته الشخصية، بعيداً عن الهموم السياسية، إلا أن ما يقلقه هو ما يمكن أن يعنيه للبلاد. خروج الرئيس المنتخب هارباً من منصبه ومسؤولياته. فالحرب الأهلية ستكون حتمية عندئذ. وحيال إلحاح جديد من جانب بيراس ريس تريبو، حول تخلي الرئيس عن السلطة، سمح هذا الأخير لنفسه بالتذكير بواجبه في الدفاع عن الدستور والقوانين،

وبأنه يعاهد وطنه فقط على ذلك، وإنما عاهد عليه أيضاً ضميره والله. وعندئذ نطق، كما يقال، بالجملة التاريخية التي يبدو أنه لم يقلها قط، ولكنها بقيت مسجلة باسمه إلى أبد الأبد: "الديمقراطية الكولومبية تنتفع برئيس ميت، أكثر من انتفاعها برئيس حارب".

لا يتذكر أي واحد من الشهود أنه سمعها من فمه، ولا من فم أي شخص آخر. وقد تسببت مع مرور الزمن إلى موهوبين عديدين، بل نُوقِشت كذلك مزايها السياسية، وقيمتها التاريخية، ولكن دون أن يُطرح رونقها الأدبي للنقاش قط، وقد صارت هذه الجملة، منذ ذلك الحين، هي العلامة المميزة لحكومة أوسينا بيريث، وأحد أعمدة مجدها. ووصل الأمر إلى نسبة صياغتها إلى مصنفين محافظين مختلفين، ووجدت مبررات أكبر لنسبتها إلى الكاتب السياسي المعروف، وزير المناجم والنفط الحالي، خواكين إدواردو مونتسالي. وكان موجوداً يومذاك في القصر الرئاسي بالفعل، ولكن ليس في قاعة الاجتماعات. وقيمت الجملة للتاريخ على أي حال، مقولة بلسان من كان عليه أن يقولها، في مدينة مدمرة، حيث بدأ الرماد يتجمد، وفي بلاد لن تعود أبداً لأن تكون هي نفسها.

ولكن كمغاة الرئيس وأهليته لم تتجلبا في ابتكار عبارات تاريخية، وإنما في إلها. الليبراليين بسكاكر منومة إلى ما بعد منتصف الليل، حين وصلت قوات النجدة الإضافية، لتقمع فرد العامة، وتفرض السلام المحافظ. عندئذ فقط، في الساعة الثامنة من صباح العاشر من نيسان، أيقظ داريو إتشانديا إيكابوس أحد عشر رنيناً من الهاتف، وأبلغه بتعيينه وزير دولة في نظام موساة من الحزبين. وعمد لاوريانو غوميث

المساء من هذا الحل، والقلق على أمته الشخصي، إلى السفر إلى نيويورك مع أسرته، بينما كانت الشروط متوفرة لتحقيق رغبته الأبدية في أن يكون رئيساً.

أما أحلام التحول الاجتماعي العميق الذي مات غايتان من أجلها، ثلاثت كلها وسط أنقاض مدينة يتصاعد منها الدخان. وزاد عدد القتلى، ممن سقطوا في شوارع بوغوتا، وتواصل سقوطهم على يد القمع الرسمي في السنوات التالية، على المليون، فضلاً عن يؤس ونفي الكثيرين، وقبل وقت أبعد بكثير من بدء القادة الليبراليين، في الحكومة العليا، بالانسياء إلى أنهم قد جازقوا بدخول التاريخ، كمواطنين.

بين الشهود التاريخيين الكثيرين على ذلك اليوم في بوغوتا، كان هناك اثنان لا يعرف أحدهما الآخر. ولكنهما سيكونان بعد سنوات من أعظم أصدقائي. أحدهما هو لويس كاردوتا أي أراغون، الشاعر والكاتب السياسي والأدبي الغواتيمالي. وكان يحضر مؤتمر عموم أميركا بصفته وزير خارجية بلاده ورئيس قدها. والآخر هو قنبل كاسترو. وقد اتهم كلاهما فوق ذلك، في أحد الأوقات، بالتورط في أحداث الشغب. فقد قبل عن كاردوتا أي أراغون تحديداً، إنه كان واحداً من المعرضين، مستتراً بأوراق اعتماده كمنسوب خاص لحكومة خاكوبو أرينز التقدمية، في غواتيمالا، لا بد أن تدرك أنه لا يمكن لكاردوتا أي أراغون، وهو مندوب حكومة تاريخية، وشاعر كبير في لغتنا، أن يقدم أبداً على مثل تلك المغامرة الجنونية الطائشة. لقد كانت أشد الذكريات ألماً في كتاب مذكراته البديع، هي الاتهام الذي وجهه إليه إنريكي

سانثوس مونتيخو، الملقب "كالبان"، في غموده المشهور في جريدة
إلتيفيو، "رقصة الساعات"، حين نسب إليه أنه مكلف رسمياً بمهمة
اغتيال الجنرال جورج ماوشال. وقد بذل عدد من المندوبين إلى المؤتمر،
مساعيهم لكي تقوم الصحيفة بتصويب تلك الإشاعة الهديانة المختلفة.
ولكن ذلك لم يكن ممكناً. أما جريدة السيغلو، لسان المحافظين الذين في
السلطة، فأعلنت في الرياح الأربع، بأن كسادوثا أي أراغون، هو
المحرض على الفتنة.

لقد تعرفت عليه بعد سنوات طويلة من ذلك، في مدينة مكسيكو،
مع زوجته ليا كوستاكروسيكي، في بيته في كويواكان، المنزع بصور
ذكرياته، والأكثر نجماً بأعمال أصلية لرسمين من زمانه. وكنا نحن
الأصدقاء، نقضي هناك ليالي الأحد، في سهرات حبيبة ذات أهمية بلا
مزايع. لقد كان يعتبر نفسه ناجياً من الموت، أولاً عندما تعرضت
سيارته لرحاص رشاشات القناصين، بعد ساعات قليلة من وقوع الموقعة،
ثم بعد أيام من ذلك، وكان قد تم القضاء على التمرد، عندما اعترض
طريقه سكبر في الشارع، وأطلق النار على وجهه من مسدس استعصى
معه مرتين. وقد كان التاسع من نيسان موضوعاً متواتراً في أحاديثنا،
حيث كان يختلط الغضب بالهين إلى السنوات القضاة.

وكان فيدل كاسترو بدوره، ضحية لكل أنواع الاتهامات العيشية،
بسبب بعض الأعمال المتصلة بوضعه كناشط طلابي. في تلك الليلة
السوداء، وبعد يوم رهيب بين الجموع الصاخبة، انتهى به المطاف إلى
ثكنة فرقة الشرطة الوطنية الخامسة، بحثاً عن طريقة يكون فيها مفيداً
في وضع حد لمذبحة الشوارع. ولا يد من معرفته لتصور ما كان عليه

قنوطه في تلك الثكنة المتمردة حيث بدأ من المستحيل، فرض وجهة نظر
جماعية مشتركة.

قابل قادة الحامية وغيرهم من الضباط المتمردين، وحاول، دون
جدوى، إقناعهم بأن كل قوة تعتصم بشكتها هي قوة مهدورة. اقترح
عليهم أن يخرجوا رجالهم للنضال في الشوارع، من أجل الحفاظ على
الأمن، ومن أجل نظام أكثر عدالة. وحشهم بكل أنواع السوابق
التاريخية. ولكنهم لم يسمعوا نصيحته، بينما كانت القوات والذبابات
الرسمية تطلق النار على الثكنة، وأخيراً قرر أن يربط مصيره بمصير
الآخرين.

وفي الفجر، جاء بيلينو ميندوثا نيبيرا إلى مقر الفرقة الخامسة،
ومعه تعليمات من قيادة الليبراليين، للتوصل إلى استسلام سلمي. ليس
فقط للضباط والشرطيين المتمردين، وإنما كذلك للعديد من الليبراليين
العاديين الذين كانوا ينتظرون الأوامر للبد بالتحرك. وخلال الساعات
الطويلة التي استغرقتها مفاوضات الاتفاق، بقيت راسخة في ذاكرة
ميندوثا نيبيرا، صورة ذلك الطالب الكوي، المربوع والمحب للتجدال، الذي
توسط عدة مرات، في المحادثات بين القاديين الليبراليين والضباط
المتمردين، ببعد بصر فاق الجميع، ولم يعرف من هو إلا بعد عدة سنوات
من ذلك، لأنه رآه مصادفة في كاراكاس، في صورة فوتوغرافية من
صور الليلة الرهيبة، بعد أن كان قيداً كاسترو قد بدأ نضاله في جبال
سييرا مايسترا في كوبا.

أما أنا فتعرفت عليه بعد إحدى عشرة سنة، عندما سارعت
بالذهاب كصحفي، لدى دخوله الطائر إلى هافانا، وتوصلنا مع مرور

الزمن، إلى صداقة شخصية صمدت عبر السنين، لما لا حصر له من العثرات. وفي أحاديثي الطويلة معه، حول كل ما هو إلهي وبشري، كان يوم التاسع من نيسان موضوعاً كثير التواتر، لا يتوانى فيدل كاسترو عن تذكره كأحد المآسي الحاسمة في تكوينه. وخاصة الليلة التي أمضاها في ثكنة الفرقة الحاسمة، حيث انتبه إلى أن معظم المتمردين الذين يدخلون ويخرجون، كانوا يحطون من قيمة أنفسهم، في أعمال السلب والنهب، بدل أن يُصروا في ممارستهم، على ضرورة الإسراع في التوصل إلى حل سياسي.

بينما كان هذان الصديقان شاهدين على الأحداث التي تسعت تاريخ كولومبيا إلى قسمين، بقيت أنا وأخي على قيد الحياة، في الظلمات، مع اللاجئين الآخرين في بيت الخال خوانيتو. لم أع في أي لحظة آنذاك، أنني صرت كاتباً متدرباً، وأنتي سأحاول في أحد الأيام، أن أعيد، من الذاكرة، تركيب شهادتي عن الأيام الرهيبة التي كنا نعيشها. فقد كان همي الوحيد حينذاك هو أكثر الهموم دنيوية: إخبار أسرتنا بأننا ما زلنا على قيد الحياة - حتى تلك اللحظة على الأقل - وأن نعرف في الوقت نفسه، أخبار أبونا وأخوتنا، وخاصة أكبرهم، مارغوت وعائدا، الطالبين الداخليين بمدرستين في مدينتين بعيدتين.

لقد كان ملجأً لخال خوانيتو أشبه بمعجزة. وقد كانت الأيام الأولى شاقة بسبب تبادل إطلاق النار المتواصل، والافتقار إلى أية أخبار موثوقة. ولكننا، شيئاً فشيئاً، رحنا نرتاد المتاجر القريبة، وتمكنا من شراء أطعمة تأكلها. كانت الشوارع محتلة بقوات عسكرية لديها أوامر حازمة بإطلاق النار. تذكر خوسيه بالاثيوس الذي لا سبيل إلى إصلاحه

بلايس عسكرية، لكي ينجول دون قيود، معتصراً قبعة كشاف، ومظماق وجهه في صندوق قمامة. وقد هرب بأعجوبة من أول دورة اكتشفته. أخضعت محطات البث الإذاعي التجارية التي أسكنت قبل منتصف الليل، لرقابة الجيش. أما التلفزيون والهواتف اليدوية والقليلة، فكانت محجوزة لقوات الأمن العام. ولم تكن هناك وسائل أخرى للاتصال. كانت صفوف الانتظار أبدية أمام مكاتب التلفزيون المزدحمة. ولكن محطات الإذاعة رتبت خدمة رسائل عبر الأثير، هوجية إلى من يحالفهم الحظ بالتقاط بثها. وقد بدت لنا هذه الوسيلة هي الأسهل والأضمن، وإليها توجهنا دون آمال كبيرة.

خرجت أنا وأخي إلى الشارع، بعد ثلاثة أيام من الحبس في البيت، كان المشهد مربعاً؛ فالمدينة تحولت إلى أنقاض، بدت غائمة وعكرة بالخطر المتواصل الذي خفف من استشراء الحرائق، ولكنه أخر استرداد المدينة. كثير من الشوارع كانت مغلقة بأعشاش القناصين. على أسطح مباني مركز المدينة. فكان لا بد من القيام بالتفافات بلا معنى، استجابة لأوامر الدوريات المسلحة، كما لو أنها في حرب عالمية. كانت رائحة الموت في الشوارع لا تطاق. ولم تتسكن شاحنات الجيش من تحميل أكوام الجثث المتراكمة على الأرصفة، فكان على الجنود أن يواجهوا جماعات اليانسين الآتين للتعرف على جثث أقربائهم.

في أطلال ما كان المركز التجاري، لم تكن التنانة تسمح بالتنفس، حتى إن أسراً كثيرة اضطرت إلى التخلي عن البحث عن جثث مفقودها. وفي أحد أهرامات الجثث الكبيرة، برزت جثة حافية ودون بنطال. أما سترتها فلم تكن تشوبها شائبة. وعلى الرغم من مرور ثلاثة أيام، كان

الرماد لا يزال يطلق نشأة الأجساد التي لا أهل لها، متعفة بين
الانقراض أو مكرمة على الأرضة.

وفي وقت لم يكن يخطر ببالنا، أوقفت أنا وأخي فجأة، بتهينة
بندقية مؤكدة وراء ظهرنا، وصوت يأمر بحزم:
- ارفعوا أيديكما!

رفعت يدي دون تفكير، وقد جسدتني الرعب، إلى أن أعادتني إلى
الحياة، قهقهة صديقنا آنخل كاسيخ. وكان قد استجاب لنداء القوات
المسلحة، باعتباره احتياطياً من الدرجة الأولى. وبفضله تمكنا، نحن
اللاجئين في بيت الخال خوانيتو، من إرسال رسالة عبر الأثير، بعد يوم
من الانتظار أمام الإذاعة الوطنية، سمع أبي الرسالة في سوكري، بين ما
لا حصر له من الرسائل التي كانت تقرأ نهائياً ولبلاً، طوال أسبوعين،
أحسست أنا وأخي بأننا سنكون ضحية لا مفر منها، لنزوات الأسرة
التخمينية، فبقينا خائفين من أنه يمكن لأحدنا أن تفسر الحير على أنه
صدقة طمأنة من الأصدقاء، ربما يهيئونها لما هو أسوأ، ولكننا أخطأنا
في تفكيرنا قليلاً، إذ كانت أمانا قد حلت، منذ الليلة الأولى، بأننا
نحن، ابنها الكبيرين، قد غرقنا في بحر من الدم، خلال أعمال
الشغب. ولا بد أنه كان كايوساً مقتعاً جداً، إلى حد أنها عندما غرقت
الحقيقة عبر وسائل أخرى، قررت ألا تسمح لأحد منا بالعودة أبداً إلى
بوغوتا، حتى لو اضطررنا إلى البقاء في البيت، والموت جوعاً، ولا بد
أن ذلك القرار كان قاطعاً، لأن الأمر الوحيد الذي تلقيناه من أبينا في
برقيتهما الأولى، هو السفر إلى سوكري، بأسرع ما يمكن، للبت في شأن
المستقبل.

وفي توتر الانتظار، قرين لي عدده من الزملاء، إصكانية مواصلة
الدراسة في مدينة كارتاخينا دي إندباس، مفكرين بأن بوغوتا مستسكن
من الخروج من بين أنقاضها، ولكن البوغوتيين لن يشقوا أبداً من رعب
المجزرة وهولها. وأخبروني بأن هناك في كارتاخينا، جامعة عريقة واسعة
الشهرة، مثل أوابدها التاريخية، وكلية حقوق بالحجم الإنساني،
سينظرون فيها إلى ثنائي السينة في جامعة بوغوتا، على أنها جيدة.
لم أتحأ استبعاد الفكرة، قبل أن أغلبها أولاً، على نار حامية، ولا
أن أذكرها لأبوي، قبل أن أذهب وأؤكد من ذلك، بنفسى. أخبرتهما
فقط، بأنني سأسافر إلى سوكري بالطائرة عن طريق كارتاخينا، لأنه يمكن
لنهر مجدلينا أن يكون طريقاً انتحارياً في ظل تلك الحرب الحامية. أما
لويس إنريكي من جانبه، فأخبرهما بأنه سيسافر إلى بارانكيا للبحث عن
عمل، بعد أن يصفي حساباته مع رب عمله في بوغوتا.

لقد كنت أعرف، على أي حال، أنني لن أصبح محاصراً في أي
مكان. وما كنت أريده هو كسب قليل من الوقت لإلهاء أبي، ويمكن
لكارتاخينا، بالتالي، أن تكون محطة فنية جيدة للتفكير في الأمر،
ولكن ما لم يخطر لي على بال مطلقاً، هو أن تلك الحسابات العقلانية
ستقودني إلى أن أقرر، وقلبي في يدي، أن ذلك هو المكان الذي أرغب
في أن أواصل فيه حياتي.

المحصل في تلك الأيام، على خمسة أماكن في طائرة متوجهة إلى
أي مكان على الساحل، كان واحدة من صائر أخي. بعد الوقوف في
صفوف انتظار لانهائية وخطرة، والركض من مكان إلى آخر، طوال يوم
بكامله، في مطار طوارئ، وجد الأماكن الخمسة في ثلاث طائرات

مختلفة، وبواعيد غير مؤكدة، ووسط إطلاق نار وانفجارات غير مرتبة. ثبتوا لي ولأخي، أخيراً، حجز مقعدين في الطائرة نفسها، إلى بارانكيّا. ولكننا غادرنا في النهاية، في طائرتين مختلفتين. كان رذاذ المطر والضبّاب المتواصلين في بوغوتا منذ يوم الجمعة السابق يعيقان برائحة البارود والأجساد المتفسخة. ومن البيت إلى المطار، جرى استجوابنا في حاجزين عسكريين متتاليين، كان جنودهما مرتبكين من الرعب. وعند الحاجز الثاني انبطحوا أرضاً وجعلونا نبطح مثلهم بسبب انفجار تلاء تراقش إطلاق نار من أسلحة ثقيلة، تبين بعد ذلك أنه تسرب غاز صناعي. وقد تفهّمنا نحن المسافرين، ذلك عندما قال لنا أحد الجنود إن مأساته هي في وجوده هناك منذ ثلاثة أيام، في توبة حراسة متواصلة، دون بديل؛ ولكن دون ذخيرة أيضاً، لأن الذخائر قد نفذت في المدينة. لم نكد نتجرأ على الكلام منذ أن أوقفونا. وقد جاء رعب الجو ليجهز علينا. ومع ذلك، بعد الإجراءات الرسمية للثبّت من الهوية وأسباب السفر، أحسنا بالعزاء. حين علمنا أنه علينا البقاء هناك، دون الخضوع لأي إجراءات أخرى، إلى أن يقنّادونا إلى الطائرة. وكان كل ما دخنته، خلال الانتظار هو سيجارتين من السجائر الثلاث التي تصدّق بها أحدهم عليّ. واحتفظت بالسيجارة الثالثة لتساعدني على تحمل رعب الرحلة.

وبما أنه لم تكن هناك هواتف، فقد كان الإعلان عن الرحلات، وعن التبدلات الطائرة الأخرى، يُعرف في مواقع المغارز العسكرية المتباعدة، بواسطة مراسلين عسكريين على دراجات نارية. في الساعة الثامنة صباحاً، استدعوا جماعة من الركاب للصعود فوراً إلى طائرة، غير

طائرتي، متوجهة إلى بارانكيّا. وقد علمتُ بعد ذلك أن أصدقائنا الثلاثة وأخي قد سافروا عبر موقع مغرزة عسكرية أخرى. كان بقائي في الانتظار وحيداً، علاجاً حصارياً لخوفي الفطري من الطيران، لأن السماء في لحظة صعودنا إلى الطائرة، كانت ملبدة برعود وعرة. كما أن سلم طائرتنا كان قد نُقل إلى طائرة أخرى، فاضطر جنديان إلى مساعدتي على الصعود، باستخدام سلم بئنا. وكان ذلك في المطار نفسه، والساعة نفسها التي صعد فيها قبيل كاسترو إلى طائرة أخرى متوجهة إلى هافانا، محملة بشيران مصارعة - مثلما أخبرني هو نفسه، بعد سنوات من ذلك.

ومن حمص - أو سوء - الحظ، أن طائرتي كانت من نوع DC-3، تعيق برائحة طلاء طري وتشحيم حديث، دون أتوار فردية، وبلا تهوية منتظمة في كابينة الركاب. وكانت قد أُعدت لنقل قوات عسكرية؛ فبدلاً من مقاعدها الثلاثية المتألية، كما في الرحلات السياحية، كان هناك مقعدان طوليان من ألواح خشبية عادية، مثبتة جيداً بالأرضية. وكانت كل أمتعتي في حقيبة واحدة من الكتان، فيها غياران أو ثلاثة غيارات من الملابس المتسخة، وكتب شعر وقصاصات من ملاحق أدبية تمكن أخي لويس إنريكي من إنقاذها. جلسنا نحن الركاب، في صفين متقابلين يمتدان من كابينة القيادة حتى الذيل، وبدلاً من أحزمة الأمان، كان هناك جبلان من القنب المستخدم في ربط السفن، يشكّلان حزامي أمان طويلين جماعيين، في كل جانب. أما أقصى ما حدث لي، فهو أنني ما كدت أشعل السجارة الوحيدة التي استيقظتها لتساعدني على اجتياز الرحلة، حتى أعلن لنا الطيران من كابينه بأنه ممنوع علينا

التدخين، لأن خزانات وقود الطائرة موجودة عند أقدمنا، تحت أرضية الألواح الخشبية. فكانت ثلاث ساعات من الطيران غير النهائي.

توافقي وصولنا إلى بارانكيًا، مع هطول مطر من ذاك الذي لا يهطل إلا في نيسان، مع وجود بيوت منبوثة من جذورها، يجرفها التيار في الشوارع، ومرضى متوحدين يغرقون في أسرهم. فكان علي أن أنتظر توقف المطر، في المطار المضطرب من الفيضان. وتوصلت بصعوبة إلى معرفة أن طائرة أخي ومرافقيه قد وصلت في موعدها. ولكن الثلاثة سارعوا إلى مغادرة المطار قبل أول رعود وإبل المطر الأول.

احتجت إلى ثلاث ساعات أخرى للوصول إلى وكالة السفر. ولم أستطع اللحاق بالحافلة الأخيرة التي خرجت إلى كارتاخينا، قبل موعدها، بسبب اقتراب العاصفة. لم أشعر بالقلق، لأنني ظننت أن أخي كان هناك، ولكنني أحسست بالخوف على نفسي، حيال فكرة اضطراري لقضاء ليلة دون نفوذ في بارانكيًا. وأخيراً، حصلت بفضل خوسيه بالينثيا، على ملجأ طوارئ في بيت الأختين الجميلتين إيلسي وليلا ألباوايا، وبعد ثلاثة أيام من ذلك، سافرت إلى كارتاخينا، في حافلة وكالة البريد المخلفة. أما أخي لوس إنريكي فسيبقى بانتظار العثور على عمل في بارانكيًا. لم يبق لي أكثر من ثمانية بسوزات، ولكن خوسيه بالاتيوس وعدني بإحضار بعض النقود الأخرى لي، في حافلة الليل. لم أجد مكاناً شاغراً في الحافلة، ولا حتى وقوفاً على الأقدام. ولكن السائق وافق على حمل ثلاثة ركاب على السطح، جالسين على أمتعتهم وحمولتهم، وبيع قيمة التعرفة النظامية. في ذلك الوضع الغريب، وتحت الشمس الساطعة، أظن أنني أدركت أن ذلك التاسع من نيسان لعام ١٩٤٧، هو بداية القرن العشرين في كولومبيا.

في نهاية رحلة من الارتجاج والحضضة الممبته، عبر طريق الليغال، أطلقت حافلة وكالة البريد آخر أنفاسها، في مكان يليق بها، متوقفة في مستنقع أشجار مانغلي تئن في أسماك متعفنة، على بعد نصف فرسخ من كارتاخينا دي إندباس، وتذكرت يذكرة جدي: "من يسافر في الحافلة، لا يدري أين يموت". الركاب المخبولون، بعد ست ساعات من الشمس العارية ورائحة عفونة المستنقع، لم ينتظروا إنزال السلم لكي يترجلوا، بل سارعوا يلقون، من فوق الحافة، بأقفاص الدجاج، وحزم المؤز وكل أصناف مواد البيع أو الموت التي استخدموها للجلوس على سطح الحافلة. قفز السائق من مقعده وأعلن بصرخة لأذنة:
- البطلة!

وهذا هو الاسم الرمزي الذي تُعرف به مدينة كارتاخينا دي إندباس. لأمجادها الغابرة، ولا بد أن المدينة كانت هناك، ولكنني لم أرها. لأنني كنت أكاد لا أستطيع التنفس، في بدلة الجوخ السوداء، التي أرديتها منذ التاسع من نيسان. أما البدلتان الأخريان اللتان كانتا في خزائني، فلقيتا المصير نفسه الذي لقيته الآلة الكاتبة في محل رهونات "مونتني دي بيداد". إلا أن الرواية الجديدة بالاحترام التي قدمتها لأبوي، هي أن

الألة الكاثية، وأشباه شخصية أخرى غير ذات قيمة، قد اختفت مع الملابس، في قوضى الحريق. السائق المتفطرس الذي سخر، خلال الرحلة، من مذهري كقاطع طريق، أوشك على التفجر بهجة، عندما واصلت الدوران حول نفسي، دون أن أعثر على المدينة. فصرخ بي، ليُسمع الجميع:

- إنها في طيزك! وكن حذراً، فإنهم هناك يقلدون أوسمة للحمقى. وبالفعل، كانت كارتاخينا ذي إندياس في مكانها، ورا، ظهري، منذ أربعين سنة. ولكنني لم أستطع تصور أن تكون على بعد نصف فرسخ من منبت أشجار المانغلي، متوازية وراء السور الأسطوري الذي أبقاها بمنجى من الوثنيين والقرصنة، في سنوات عظمتها. وانتهى بها الأمر إلى الاختفاء تحت أجسام ملتفة من الأغصان المشعشة، وصقوف طويلة متدلية من أزهار الجرس الصفراء. انضمت إلى جلبة المسافرين الآخرين، وسحبت الحقيبة عبر دغل تغطي أرضه سرطانات حبة، تنهشم ذروعها القشرية كأنها المفرقات تحت تعال الأحذية. كان من المستحيل، ألا أتذكر عندئذ، صرة الأمتعة التي ألقي بها رفاقي إلى نهر مجدلتنا، خلال رحلتي الأولى. أو الصندوق الجنازوي الذي جرجرته عبر نصف البلاد، وأنا أبكي من القهر، في سنواتي الأولى في المعهد، ثم ألقيت به أخيراً في أحد مهاوي جبال الأنديز، على شرف إنهائي الدراسة الثانوية. لقد بدا لي، على الدوام، أن هناك شيئاً غريباً في قدرتي، في تلك الحملات الزائدة النافهة. ولم تكف سنوات حياتي الطويلة لتفنيذ ذلك الإحساس.

ما إن بدأنا تلمح بروفييل بعض قباب الكنائس والأديرة في غيش

الغروب، حتى خرجت للقاتنا عاصفة خفافيش تطير فوق رؤوسنا، ولا تطرحنا أرضاً بفضل حكمتها فقط. كانت أجنحتها تنثر مثل دوي الرعد، مخلقة وراءها نثانة قاتلة. أرعبتني المفاجأة، فأفلت الحقيبة وتكورت على نفسي، فوق الأرض، حامياً رأسي بذراعي، إلى أن صرخت بي امرأة متقدمة في السن، كاثت قمشي بجاني:

- صل صلاة التعظيمة!

وهي تعني تلك الصلاة السرية، للشخص من هجمات الشيطان، المكروهة من الكنيسة، ولكنها مكرسة من قبل كبار الموحدين، عندما لا يجدون ما يكفي من التجديف. انتهيت المرأة إلى أنني لا أعرف كيف أصلي، فأمسكت حقيبتني من حزامها الآخر، لتساعدني في حملها. وقالت لي:

- صل معي. ولكن عليك أن تفعل ذلك بإيمان كبير.

وهكذا راحت قلبي على التعظيمة بيتاً قبيئاً، فرددها بصوت عالٍ، ويورع لم أعد إلى الشعور بمثله قط. تلاشى خلق أجنة الخفافيش. وإن كنت أجيد اليوم مشقة في تصديق ذلك، واختفت جميعها من السماء، قبل أن تنتهي من الصلاة. ولم بعد يُسمع عندئذ، سوى صخب البحر المدوي في وهاد الشاطئ.

كنا قد وصلنا إلى بوابة الساعة الكبرى، لقد كان هناك، منذ مئة سنة، جسر متحرك يصل المدينة القديمة بضاحية جشيماني وبحي الفقراء. المزدحم في منابت أشجار المانغلي، ولكنهم كانوا يرفعون الجسر. منذ التاسعة ليلاً حتى فجر اليوم التالي، فيبقى الأهالي معزولين، ليس عن بقية العالم وحسب، وإنما عن التاريخ أيضاً. ويقال إن الإسبان قد أقاموا

ذلك الجسر، خوفاً من أن يتسلل إليهم فقراء الأرياض في منتصف الليل، ليزجروهم وهم نائمون. ومع ذلك، فقد بقي للمدينة شيء من أبهتها، لأن خطوة واحدة خطوتها داخل الأسوار، كانت كافية لرويتها، بكل عظمتها، على ضوء الساعة السادسة مساءً، الحجازي، ولم أستطع كبح إحساسي بأنني قد ولدت من جديد.

هذا أقل ما يمكن أن يقال. ففي بداية ذلك الأسبوع، خلفت بوغوتا تضبط في بركة من الدم والوحل، ولا تزال فيها أنغام جثث مجهولة الهوية، ومهجورة بين أنقاض يتصاعد منها الدخان. وفجأة، تغيرت الدنيا وصارت عالماً آخر في كارتاخيما. لم يكن هناك أي أثر للحرب التي تعصف بالبلاد. وقد وجدت مشقة في تصديق أن تلك الوحدة دون ألم، وذلك البحر غير المنقطع، وذلك الإحساس الفسيح بأنني قد وصلت، كانت تحدث لي في الحياة نفسها، بعد انقضاء أقل من أسبوع.

لكثرة ما سمعت من أحداث عنها، منذ ولادتي، تعرفت فوراً على الساحة الصغيرة التي كانت تتوقف فيها عربات الخيول، وعربات الحمولة التي تجرها الحمير، وفي أقصاها رواق القناطر، حيث تصيح السرق الشعبية أشد ازدحاماً وصخباً. ومع أنه لم يكن معترفاً به، على أنه كذلك، في الوعي الرسمي، إلا أن ذلك المكان هو القلب النابض الأخير للمدينة، منذ أصولها. فخلال العهد الاستعماري، سمي "ميدان التجار". ومن هناك كانت تُحرك الخيوط غير المرئية لتجارة العبيد، وتتأجج المشاعر بالحماس ضد السيطرة الإسبانية. ثم سمي، فيما بعد، "ميدان الكتبة العموميين"، بسبب الخطاطين قليلي الكلام الذين كانوا يرددون صدارات من الجوخ، وأكصاماً مستعارة، ويكتبون رسائل حب،

وكل أنواع الوثائق لغير المتعلمين الفقراء. كثيرون منهم كانوا باعة كتب مستعملة من تحت الطاولة، وخاصة الكتب التي تدينها محاكم التفتيش. ويعتقد بأنهم كانوا مثنئين بمؤامرات الكرموليين المحليين ضد الإسبان. وقد اعتاد أبي، في مطلع القرن العشرين، أن يخفف من غلواء اندفاعه الشعري، في فن كتابة رسائل الحب في تلك الساحة. والواقع أنه لم يزدهر في هذا العمل أو ذاك، لأن بعض الزبائن الماكترين - أو البائسين حقاً - لم يكتفوا بطلب كتابة الرسائل كصدقة، وإنما يطلبون منه كذلك خمسة ريالات لدفع أجور البريد.

قبل عدة سنوات، كان المكان يسمى "ميدان الحلويات"، بمظلاله العفنة، والمتسولين الذين يأكلون فضلات السرق، وصرخات عراكهم الهنود المشؤومة الذين يتقاضون أجراً غالياً مقابل امتناعهم عن إطلاق الزبون على يوم وساعة موته. وكانت سفن الكاريبي الشراعية تتأخر في الميناء، لشراء حلويات ذات أسماء تخرعها لها النساء اللواتي يصنعنها، وينظمها الباعة المتادون في نداءات مغناة: "البسكوت المحشو بمهلبية ولوز، مأكول القرد" أو "حلوى الشوكولاته للرضع المصابين" أو "حلوى جوز الهند للمجانين"، أو "بسكوت الفانيلا لماثويلا". وهكذا ظلت الساحة، في الحبر والشر، مركز المدينة الحيو، حيث تكشف أمور الدولة من وراء ظهر الحكومة، والمكان الوحيد في العالم الذي تعرف فيه بانعات المعجنات المقلبة، من سيكون حاكم المقاطعة القادم. قبل أن يخطر ذلك الرئيس الجمهورية في بوغوتا.

بهزني اللفظ والصخب على الفور، فشقت طريقتي متعشراً، وأنا أجر خبتي بين جموع السادسة مساءً. كان هناك عجوز بأسنات ليس

في جسمه سوى العظم، ينظر إليّ، دون أن يرف له جفن، من فوق منصة
ماسحي الأحذية، يعني باشق جامدتين، اعترض طريقي فجأة، فما إن
رأى أنني رأيتَه حتى عرض عليّ أن يحمل لي الحقيبة. شكرته، ولكنه
حدد بلسانه الأوممي ما يريد مقابل ذلك:
- ثلاثون جدياً.

مستحيل، ثلاثون سنتافو مقابل حمل حقيبة هو قضم للبيزوات
الأربعة الوحيدة المتبقية لدي، إلى أن أتلقى مدداً من أبوي في الأسبوع
التالي، فقلت له:

- هذا المبلغ يساوي الحقيبة وكل ما فيها.

أضف إلى ذلك، أن النزول الذي يجب أن تكون شلة بوغوتا فيه
ليس بعيداً جداً. رضى العجوز بثلاثة جديان، فعلق حول عنقه، صندله
الجلدي الذي كان يتتعلم، وحمل الحقيبة على كتفه، بقوة لا تُصدق،
بالنظر إلى هشاشة عظامه، واندفع راكضاً مثل رياضي يقدمين عاريتين،
في متاهة بيوت كولونiale متداعية بفعل قرون من الإهمال. محاذ قلبي
أن يطفر خارجاً من فمي، على الرغم من سنوات عمري العشرين، وأنا
أحاول ألا يغيب عن ناظري، ذلك العجوز الأولمبي الذي لم يتق له
ساعات كثيرة في الحياة. وبعد اجتياز خمس كوادرات، دخل من بوابة
الفندق الكبيرة، وصعد درجات السلم، مثني مثني، ثم وضع الحقيبة على
الأرض، بأنفاس هادئة، وعدّ لي راحة يده:

- ثلاثون جدياً.

ذكرته بأنني قد دفعت له أجره، ولكنه أصر على أن الثلاثة سنتافو
التي تقاضاها في الساحة لا تتضمن صعود الدراج، وأيدت كلامه

صاحبة الفندق التي خرجت لاستقبالنا؛ فأجرة صعود الدرج تُدفع على
حدة. وقدمت لي المرأة نبوة ستفنعني مدى الحياة:
- سوف ترى أن كل شيء، مختلف في كارتاخينا.

وكان عليّ أن أواجه كذلك الخبر السيئ بأن أياً من أصدقائي، في
نزول بوغوتا، لم يصل بعد. على الرغم من أن هناك حجزاً مؤكداً في
الفندق لأربعة أشخاص، بمن فيهم أنا، البرنامج الذي اتفقنا عليه هو أن
نلتقي في الفندق، قبل الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم، ومع أن
تبديل الحافلة النظامية بحافلة وكالة البريد النعسة، قد أخرني ثلاث
ساعات، إلا أنني كنت أكثرهم جميعاً، دقة في الوصول، دون أن أفكر
من عمل أي شيء بأربعة بيزوات نقصت ثلاثة وثلاثين سنتافو. فقد
كانت صاحبة الفندق أما لطيفة، ولكنها عبدة لأنظمتها التي فرضتها
بنفسها، مثلما سأؤكد من ذلك، خلال أكثر من شهرين أمضيتهما في
فندقها، وهكذا لم توافق على تسجيلي كنزيل، ما لم أدفع أجرة الشهر
الأول مقدماً؛ ثمانية عشر بيزو مقابل وجبات الطعام والنوم في غرفة
لستة أشخاص.

لم أكن أمل بوصول مساعدة أبوي قبل انقضاء أسبوع، ولهذا لن
تتجاوز حقبتي صحن الدرج ما لم يصل أصدقائي الذين يمكن لهم أن
يساعدوني. جلست أنتظر على هتكا يليق بظران، مزين برسوم زهور
كبيرة، بدا لي كما لو أنه نزل من السماء، بعد يوم كامل تحت شمس
ساطعة، في حافلة نكيتي. الحقيقة أن أحداً لم يكن متأكداً من شيء في
تلك الأيام، واتفاقنا على اللقاء هناك، في يوم معين وساعة محددة،
كان بلا معنى في الواقع، لأننا لم نكن نتجرأ على القول حتى لأنفسنا،

إننا في بلاد تعيش حالة حرب دامية، مستترة في الأقاليم، منذ عدة سنوات، ومكشوفة وقائلة في المدن، منذ نحو أسبوع.

بعد ثماني ساعات من الانتظار، وبينما أنا مأزوم في فندق كارتاخينا، لم أستطع تصور ما الذي يمكن أن يكون قد حدث لحوسبه بالينثيا وأصدقائه، وبعد ساعة انتظار أخرى دون تلقي أي خبر، خرجت للتصكع في الشوارع المقفرة، الظلام يخيم في شهر تيسان باكراً، وقد كانت الأتوار العامة مضاعة، غير أن تورها شحيح جداً إلى حد يمكن الظن معه أنها نجوم باهتة بين الأشجار. كنت بجولة أولية من خمس عشرة دقيقة، دون وجهة محددة، في تعرجات القطاع الكولونيالي المرسوفة، وكانت كافية لأن أكتشف، بإحساس عظيم بالراحة، أن تلك المدينة الغربية ليست لها أي علاقة بالمستحاة المعلقة التي يصفونها لنا في المدرسة.

لم تكن هناك نفس واحدة في الشوارع، فالجموع التي تأتي من الضواحي عند الفجر، للعمل أو البيع، تعود متعجلة إلى أرباضها، في الساعة الخامسة مساءً. أما سكان المدينة داخل السور، فيلذون ببيوتهم، ليتناولوا العشاء، ويلعبوا الدومينو حتى منتصف الليل. لم تكن عادة السيارات الشخصية قد شاعت بعد. وسيارات الخدمة القليلة كانت تبقى خارج السور. وحتى أرفع الموظفين منزلة، كانوا يأتون حتى ساحة العربات، في حافلات النقل المحلية المزدكشة، ومن هناك يشقون طريقهم إلى مكاتبهم، أو يقفزون فوق دكاكين البضائع الرخيصة، المعروضة على الأرصفة العامة. وقد تناهى أحد أكثر حكام المدينة تكلفاً، في تلك السنوات المأساوية، بمواصلته التنقل من حبه الراقي إلى ساحة العربات، في الحافلات نفسها التي كان يذهب فيها إلى المدرسة.

التخفيف من وطأة السيارات، كان اضطرارياً، لأنه وجودها مخالف للمواقع التاريخي؛ إذ لا تتسع لها شوارع المدينة الضيقة والمتعرجة، حيث يتردد في الليل، وقع حوافر الخيول الضامرة غير المحذبة. وفي أزمنة الحر الشديد، عندما تفتح الشرفات لتدخل برودة الحداق، تُسمع رشقات من أكثر الأحاديث حبسية، برنة شبيهة، ويسمع الأجداد المتناومون، وقع خطوات تنسل خفية في الشوارع الحجرية، فيتابعونها باهتمام، دون أن يفتحوا أعينهم، إلى أن يشعروا على أصحابها. ويقولوا بخيبة أمل: "إنه حوسبه أنطونيو ذاهباً إلى حيث تشاهبلا". والواقع أن الشيء الوحيد الذي كان يُخرج الموزقين عن طورهم، هو ضربات الفيشات، على طاولة اللومينو، التي تدوي في كل أرجاء المنطقة المسورة.

لقد كانت ليلة تاريخية بالنسبة لي. وكنت أكاد لا أتعرف، في أرض الواقع، إلا بصعوبة، على تخيلات الكتب المدرسية التي هزمتها الحياة. لقد حزني الانفعال حتى الدموع. وأنا أرى أن قصور المركيزين القديمة نفسها، موجودة أمام عيني. مخلة الأبواب، ينام المسؤولون في مداخلها. رأيت الكاتدرائية بلا نواقيسها التي انتزعها القرصان فرانسيس دراك، ليصنع منها مدافع. أما النواقيس القليلة التي نجت من الهجوم، فقد طُهرت بعد أن حكم عليها سحرة المطران بالمرحقة، بسبب رقيتها الخبيث الذي يستدعي الشيطان. رأيت الأشجار النازية، وقامتل الشخصيات المرسوفة التي لا تبدو منحوتة من الرمر المبت. وإنما هي نفسها ميتة يلحمها. ذلك أنها لم تكن محبة، في كارتاخينا، من صدأ الزمن، بل على العكس تماماً؛ فالزمن يحافظ على نفسه في الأشياء، التي ما زالت تمتلك عمرها الأصلي. بينما القرون تهرم. هكذا، في ليلة

وصولي بالذات، تكشف لي المدينة، في كل خطوة، بحياتها الخاصة، ليس باعتبارها مستحاة الكرتون الحجري، مثلما يصنعها المؤرخون، وإنما كمدينة من لحم وعظم، لم تعد تستند إلى أمجادها الحربية، وإنما إلى هبة أطلالها.

بهذا النفس الجديد، رجعت إلى النزول، عندما دقت ساعة البرج معلنة العاشرة. أخبرني الحارس شبه الغافني بأن أحداً من أصدقائي لم يأت، ولكن حقيبتني صارت في مكان آمن في مستودع الفندق. عندئذ فقط، تنبهت إلى أنني لم أتناول طعاماً أو شرباً منذ الفطور السني في بارانكيّا. تراخت ساقاي من الجوع، ولكنني اكتفيت بأن تقبل السيدة إيداع حقيبتني، وتتركني أنام في الفندق، تلك الليلة فقط، ولو على أريكة الصالة. ولكن الحارس سخر من براعتي، وقال لي بكاريبيّة قجة: - لا تكن أبداً فهذه "المدامة" ^(١)، بفضل أكوام المال التي تملكها، تنام منذ الساعة السابعة، ولا تستيقظ إلا في الساعة الحادية عشرة، من اليوم التالي.

شعرت أنها حجة مقبولة، وخرجت للجلوس على مقعد في حديقة بوليفار، في الجهة الأخرى من الشارع، بانتظار مجيء أصدقائي، دون أن أزعج أحداً. كانت الأشجار الداوية ترى بصعوبة على أنوار الشارع، لأن مصابيح الحديقة لا تضاء إلا في أيام الأحاد والأعياد. كان على مقاعد الرخام، آثار كتابات محامها وأعاد كتابتها شعراء صفيقون، مرات ومرات. وفي قصر محكمة التفتيش، وواء الواجهة الكولونيالية المتحوتة من الحجر البكر، وبوابتها التي كيوابة كنيسة متقدمة، كان

(١) المدامة: استخدام عامي لكلمة مدام "سيّدّة" الفرنسية.

يُسمع أين لا عتاء له، يصدره طائر مريض لا يمكن له أن يكون من هذا العالم. عندئذ، داهمني فجأة، الرغبة في التدخين وفي القراءة، في أن واحد، وهما آفتان أدمت عليهما، واختلطت إحداهما بالأخرى في شبابي، بسبب إلحاحهما وعتادهما. كانت رواية ألدوس هسكلي "مباراة شعيرة" التي لم يُتح لي الخوف الجسدي مواصلة قراءتها في الطائرة، ترقد حبسة وراء قفلي في حقيبتني. وهكذا أشعلت السيارة الأخيرة بإحساس غريب من الراحة والرعب، ثم أطفأتها في منتصفها، كاحتياط الليلة بلا غد.

وعندما كنت قد تهيأت معنويّاً، للنوم على المقعد الذي أجلس عليه، بدا لي أن هناك شيئاً مختبئاً في الظلمة الدامسة، بين الأشجار. إنه قتال سيمون بوليفار، متحطياً صهوة جواد. لا أقل من ذلك، الجنرال سيمون خوسيه أنطونيو دي لا سانتيسسيما تريسيادا بوليفار أي يالاثيوس، بطل المفضل منذ أن أهرني جدي بذلك، مرتدياً بدلة المراسم، ويرأس إمبراطور روماني، يقطبه براز طيور السنونو.

كان لا يزال شخصيتي التي لا تُنسى، على الرغم من تناقضاته المستحكمة، أو ربما بسببها، وهي في نهاية المطاف، مماثلة لتلك التي توصل جدي بفضلها، إلى رتبة كولونيل، وقامر بحياته، مرات عديدة، في الحرب التي شنها الليبراليون ضد الحزب المحافظ الذي أسسه بوليفار نفسه وقواه. كنت مستغرقاً في تلك الأفكار الضبابية، عندما أعادني إلى أرض الواقع، صوت حازم وراء ظهري:

- ارفع يديك!

رفعتهما بإحساس بالراحة، وانقأ من أن أصدقائي قد وصلوا أخيراً.

ولكنني وجدت نفسي، حين استدرت، في مواجهة رجلي شرطة فظين، ويملايس أقرب إلى الأسنال، يصويان بتدقيتيهما الجديدتين بالجأحي. أراد أن يعرف لماذا خرقتُ حظر التجوال الذي بدأ قبل ساعتين من ذلك. لم أكن أعرف أنه قد فُرض منذ يوم الأحد السابق، هتلمنا أخبراني هما. ولم أسمع بوقاً أو نوافيس أو أي إشارة أخرى تتيح لي أن أدرك سبب عدم وجود أحد في الشوارع. وكان الشرطيان أكثر تكاسلاً وأقل تفهماً عندما رأيا أوقاي الثبوتية، بينما أنا أشرح لهما سبب وجودي هناك، أعادا إلي الوثائق دون أن يتفحصاها. سألتني كم من النقود معي، فأخبرتتهما بأن ما أملكه لا يصل إلى أربعة ميزوات، عندئذ طلب مني أشدهما تصميماً أن أعطيه سيجارة، فأريتهما عقب السيارة المظفأ الذي كنت أتوي تدخينه قبل أن أنام. فانتزعني ودخنه حتى لامست جمرته ظفريه. ثم اقتادني الشرطيان بعد ذلك، من ذراعي، على امتداد الشارع، وهما متلهفان إلى التدخين أكثر من حرصهما على تطبيق القانون، بحثاً عن محل مفتوح لشراء بضعة سجاير، من تلك التي تباع كل واحدة منها بستناقور. كان الليل قد تحول شفافاً وبارداً تحت القمر المكتمل، وبدا الصمت مادة غير مرئية، يمكن تنفسه كما الهواء. عندئذ فهمت ما كان يرويه لنا أبى كثيراً، دون أن نصدقه، من أنه كان يتمرن على العزف على الكمان فجراً، في صمت المقبرة، لكي يشعر بأن أنغام الحب التي يعزفها، يمكن أن تُسمع في كل أجواء منطقة الكاربيبي.

بعد أن تعينا من البحث عن سجاير، خرجنا إلى خارج السور، حتى مرقأ مراكب رحلات قصيرة، يعيش حباته الخاصة وراء السوق العام، حيث ترسو سفن شراعية من جزر كوراساو وأرويه وغيرها من جزر

الأنتيل الصغرى. إنه مكان سهر أكثر الناس مرحاً وفائدة في المدينة بأسرها، ممن يملكون حق الحصول على تصريعات لحرق منع التجوال. بسبب طبيعة أعمالهم، إنهم يأكلون حتى الفجر، في مطاعم في الهواء الطلق، بأسعار مناسبة ووفرة طيبة؛ إذ لا يذهب إلى هناك، الموظفون الليليون وحدهم، وإنما كل من يرغب في الأكل، عندما لا يكون ثمة مكان يمكن تناول الطعام فيه. لم يكن للمكان تسمية رسمية، بل يُعرف باسم لا يناسبه بأي حال: الكهف.

وصل إليه الشرطيان وكانهما يصلان إلى بيتهما. وكان واضحاً أن الزبائن الجالسين إلى الموائد يعرف بعضهم بعضاً منذ الأزل، ويشعرون بالسعادة لوجودهم معاً، وكان من المستحيل معرفة كنياتهم الأسرية، لأن الجميع يتعاملون بالقابهم المدرسية، ويتكلمون بأصوات صارخة في وقت واحد، دون أن يفهموا أو ينتظروا مع من يتكلمون. وكانوا يملأين العمل، باستثناء سستي ذي رأس تلجي، يرتدي سموكس من أزمئة أخرى، مع امرأة ناضجة ما زالت تحتفظ بجمال باهر، ترتدي فستاناً مزيناً بالبرق، ومستهلكاً من كثرة الاستخدام، وتضع الكثير من الحلبي الأصلية. يمكن لوجودهما هناك أن يكون إشارة حية إلى حقيقة وضعهما، لأنه من النادر، وجود نساء يسمح لهن أزواجهن بالظهور في تلك الأماكن سيئة السمعة، وكان بالإمكان الظن أنهما سائحان، لولا نزقهما ولكنيتهما المحلية، وتآلفهما مع الجميع، وقد علمت، في ما بعد، أنهما لا يمان بصلة إلى ما يبدو أن عليه، وإنما هما زوجان ساهبان من كارتاخينا، ينتهزان أي ذريعة لارتداء ملابسهما الاحتفالية من أجل تناول العشاء خارج البيت، وقد وجدا المضيفين، في تلك الليلة، نانسين، والمطاعم مغلقة بسبب حظر التجوال.

وكانا هما من دعواتنا للعشاء. أفسح لنا الآخرون مكاناً في المكان، وجلسنا نحن الثلاثة، محشورين ومتلاصقين بعض الشيء. وكانوا يتعاملون كذلك مع الشرطيين، بتألف الخدم. وقد كان أحد الشرطيين جدياً وهنئياً في الكلام، وله ردود أفعال طفل مؤدب على المائدة. أما الآخر، فكان حريصاً، اللهم إلا في الأكل والتدخين. وقد طلبت أطباقاً أقل منهما، بدافع الحجل أكثر مما هو بدافع التأدب والاعتدال. وعندما انتهت إلى أنني سأبقى بأكثر من نصف جوعي، كان الآخرون قد انتهوا. صاحب المطعم، وكان الخادم الوحيد في الكهف، يدعى خوسيه دولوريس، وهو زنجي شبه مراهق، له جمال مشير للقلق، يتلفع بملامات مسلم ناصعة البياض، ويضع طوال الوقت زهرة قرنفل نظرة على أذنه. ولكن أكثر ما يلفت الانتباه فيه هو ذكاؤه المفرط، ومعرفته كيف يستخدم ذكاءه دون تحفظ، ليكون سعيداً وليسعد الآخرين. كان واضحاً أنه لا يتقصه إلا القليل جداً ليكون امرأة، وله سمعة راسخة بأنه لا يتم إلى مع "رجله". لم يداعبه أحد قط بالسخرية من وضعه، لأنه كان يتمتع بظرف وسرعة يديه في الرد، لا يترك معهما ضيقاً دون شكر، ولا إساءة دون رد يناسبها. وكان هو وحده يقوم بكل شيء، ابتداءً من طيخه الصائب لما يعرف أنه يروي كل واحد من زبائنه، حتى قلبي شرايح الموز الأخضر بإحدى يديه، وإجراء الحسابات بيده الأخرى، دون أي مساعدة إلا تلك الضئيلة التي يقدمها له صبي في حوالى السادسة، ويدعوه "ماما". عندما ودعناه، أحسست بالتأثر لتلك اللقبة، ولكنني لم أتصور أن ذلك المكان الذي يرتادونه صغاراً في الشهر متساردون، سيكون أحد الأماكن التي لا تُنسى في حياتي.

بعد الانشهاء من تناول الطعام، رافقت الشرطيين لبستكملا جولتهما المتأخرة. كان القمر طبقاً ذهبياً في السماء. وكان الهواء قد بدأ يشتد ويجرجر معه، من بعيد جداً، تنفأ من الموسيقى وصرخات ثائية من حفلة كبيرة. كان الشرطيان يعرفان أن أحداً، في أحياء الفقراء، لا يذهب إلى النوم بسبب حظر التجوال. وإنما يقيمون هناك كل ليلة حفلات رقص يساهمون جميعهم في نفقاتها، في بيوت بعيدة، لا يخرجون منها إلى الشارع حتى الفجر.

عندما أعلنت الساعة الثامنة، طرقت باب فتدقي، وأتقن من أن أصدقائي سيكوتون قد حضروا. ولكن الحارس صرخ باستنبا. بأن نذهب إلى الجحيم، لأننا أبغضناه دون ميرر. عندئذ انتبه الشرطيان إلى أنه لا يوجد لدي مكان أنام فيه، وقررا أخذي إلى السجن. بدا لي ذلك سخرية شديدة الوقاحة. فقد كنت طيب مزاجي ووجهت إليهما شبيمة. فوجئ أحدهما من رد فعلي الصياني، فأعادني إلى الانضباط بتوجيه قوة البندقية إلى معدتي، وقال لي وهو يوشك على الموت من الضحك: - ذلك من البلاءة. وتذكر أنك لا تزال معتقلاً، لأنك خرقت منع التجوال.

وهكذا، تمت ليلتي الأولى في كارتاخيتا، في زنزانة تتسع لستة أشخاص، وعلى حصيرة متخمرة بعرق غريب. الوصول إلى روح المدينة، كان أسهل على الكثير من تجاوز اليوم الأول حياً. وقبل انقضاء أسبوعين، كنت قد استعدت الاتصال بالوالدي. وقد وافق دون تحفظ، على قرارى بالعيش في مدينة لا حرب فيها. أما صاحبة الفندق التي ندمت لأنها حكمت على بقضاء ليلة في السجن،

فقد أسكتني مع عشرين طالباً آخر في مهجع بني حديثاً على سطح بيتها البديع، المشيد على الطراز الكولومبيالي. لم أجد سبباً للاحتجاج، لأن المهجع كان نسخة كاريبية عن قاعة النوم في المعهد الوطني، وكلفته أقل من نزل بوغوتا، مع تضمينه الطعام وكل شيء.

مسألة التسجيل في كلية الحقوق، حُلّت خلال ساعة، بامتحان قبول أجراه أمين الكلية إغناسيو فيليث مارتينيث، وأستاذ في الاقتصاد السياسي لم أتمكن من العثور على اسمه في ذكرياتي. ومثلما كانت العادة المتبعة، جرى الامتحان بحضور طلاب السنة الثانية كلهم، وقد لفت انتباهي، منذ اللحظة الأولى، وضوح أحكام الأستاذين ودقة لغتهما، في منطقة مشهورة في أنحاء البلاد الداخلية، باضطراب نطقها. كان الموضوع الأول، في القرعة، هو الحرب الأهلية في الولايات المتحدة، وهو ما كنتُ أعرف عنه أقل من لا شيء، بقليل. ومن المحزن أنني لم أكن قد قرأت بعد، الروائيين الأمريكيين الجدد الذين بدأت بعض أعمالهم بالوصول إلينا آنذاك. ولكن الحظ حالفني حين بدأ الدكتور فيليث مارتينيث بإشارة عرضية إلى "كوخ العم توم"، وكنتُ أعرفها منذ الثانوية، فالتفتُ للإشارة بسرعة خاطفة، ولا بد أن الأستاذين قد أصيبا بصدمة حين، ذلك أن الستين دقيقة المخصصة للامتحان انقضت كلها في تحليل، يطغى عليه التأثير والانفعال، لعار نظام العبودية في جنوبي الولايات المتحدة. ولم تتجاوز ذلك الموضوع. وهكذا، فإن ما كان يبدو لي نوعاً من الرواية الروسية، تكشف عن محادثة متعة استحققت عليها تقديراً جيداً، وبعض التصفيق الودي.

بهذه الطريقة، دخلت الجامعة لألهي سنة الحقوق الثانية، مع الشرط

الذي لم أنجزه قط، بأن أقدم لامتحان تأهيل في مادة أو مادتين لم أكن قد أنهيتهما من السنة الأولى في بوغوتا. تخمس بعض زملاء الدراسة لطريقي في ترويض الموضوعات والالتفاف عليها؛ إذ كانت تنتشر بينهم فكرة النضال من أجل حرية الإبداع، في جامعة أصابتها الصرامة الأكاديمية بالجمود. وقد كان ذلك هو حلمي المتوحد منذ معهد الثانوية، ليس بدافع رفض مجاني للتقاليد، بل لأنه الأمل الوحيد للتمكين من النجاح في الامتحانات، دون أن أدرس. ومع ذلك، قبلت من كانوا يطالبون باستقلالية وجهات النظر في قاعات الدرس، ما كانوا يجدون مغراً من الاستسلام للقدر، والعودة إلى منصة إعدام الامتحان، وقد حفظوا، عن ظهر قلب، مجلدات النصوص الضخمة الموروثة من العهد الاستعماري. ومن حسن الحظ أنهم كانوا أساتذة متمرسين في فن تنشيط حفلات الرقص المساهمة أيام الجمعة، على الرغم من مخاطر الفسق الذي صار أكثر فأكثر، قنادياً، في ظل حالة الطوارئ. تواصلت إقامة حفلات الرقص، باتفاق غير معلن مع سلطات حفظ الأمن العام، خلال الوقت الذي استمر فيه منع التجوال. وعندما رُفِعَ انبعثت الحفلات من احتضارها بقوة أكبر من السابق، ولا سيما في ضاحية توريس أو جشيماني أو عند أطراف "لايوبا"، أكثر الأحياء صحياً احتفالاً في تلك السنوات المكفهرة. كان يكفي أن نطل من النافذة لاختيار الحفلة التي ستروقنا أكثر من سواها. ومقابل خمسين سنتافو، كان يمكن لنا الرقص حتى الفجر، على وقع أشد إيقاعات الموسيقى الكاريبية سخونة، مُضخمة بدوي مكبرات الصوت، أما الفتيات المدعوات مجاناً، فكان الطالبات أنفسهن اللواتي لتقبهن خلال الأسبوع، لدى الخروج من

المفارس، غير أنهم يذهبن بلباس قديس يوم الأحد، ويرقصن كنساء الحياة الطيبات، تحت نظرات متيقظة من عمامات مرافقات أو أمهات متحدرات. في إحدى ليالي الصيد الأكبر تلك، كنتُ أصطي في حي خشباني الذي كان حياً للعبيد، خلال العهد الاستعماري، عندما أحسست بتربيت على ظهري، وفرقة صوت يقول، كما لو أنها كلمة سر:

- يا قاطع الطريق!

كان مانويل زاباتا أوليفييا، ساكن شارع الشفاوة المشهور، حيث عاشت أسرة أجداد أجداده الأفارقة. وكنا قد التقينا من قبل في بوغوتا، وسط أوار التاسع من نيسان، وكانت دهشتنا الأولى عند لقائنا مجدداً في كارتاخينا، هي معرفة كل منا أن الآخر لا يزال حياً. وقد كان مانويل، فضلاً عن أنه طبيب إحسان، روائياً، وناشطاً سياسياً، ومنتشطاً لموسيقى الكاريبي، غير أن ميله الساحق كان السعي إلى حل مشاكل الجميع. وما كدنا ننتهي من تبادل الحديث عن تجربتنا في يوم الجمعة العصيب، وعن خططنا للمستقبل، حتى اقترح عليّ أن أجرب حظي في الصحافة. قبل شهر من ذلك، كان الزعيم الليبرالي لويس إسكافوريانا قد أسس صحيفة الأونيفرسال، وكان رئيس تحريرها هو كليمنتي مانويل ثابالا. وكنت قد سمعت شيئاً عن هذا الأخير، ليس كصحفي، وإنما كعلامة في الموسيقى، وشيوعي كامن. أصر زاباتا أوليفييا على أن نذهب لمقابلته، إذ كان يعرف أنه يبحث عن أناس جدد، لكي يُنشط نطاً من الصحافة الخلاقة، في مواجهة الصحافة الروتينية المنقادة، السائدة في البلاد، وخاصة في مدينة كارتاخينا، وهي آنذاك إحدى أكثر المدن تخلفاً.

كنتُ أدرك بوضوح، أن الصحافة ليست مهنتي. فأنا أريد أن أصير كاتباً مختلفاً، ولكنتي أحاول ذلك بمحاكاة كتاب آخرين لا علاقة لهم بي. وقد كنتُ في تلك الأيام في استراحة تأمل، إذ بعد قصصي الثلاث الأولى التي نشرت في بوغوتا، ولقيتُ بسببها، إظراً، إدواردو ثالاميا ونقاد آخرين وأصدقاء طيبين وسيئين، شعرت بأنني وصلت إلى طريق مسدود. فألح زاباتا أوليفييا، مقتناً حججتي، على أن الصحافة والأدب سينتهيان عما قريب ليكونا الشيء نفسه، وأنه يمكن لارتياحي بجزيرة الأونيفرسال، أن يضمن لي ثلاثة معائير في الوقت نفسه: حل شقوني الحياتية بصورة كريمة ونافعة. والدخول في عالم أحترف فيه عملاً هو بعد قاته مهنة سهلة. والعمل مع كليمنتي مانويل ثابالا، أفضل معلم صحافة يمكن تخيله. كان يمكن لكايح الحياء الذي أثاره في ذلك التعبير شديد البساطة، أن ينجيني من المصيبة. ولكن زاباتا أوليفييا لم يكن قادراً على تقبل الإخفاق في مساعيه، فطلب مني الحضور في اليوم التالي، الساعة الخامسة مساءً، إلى الرقم ٣٨٦ شارع سان خوان دي ديوس، حيث مقر الصحيفة.

تمت تلك الليلة قلقاً. وفي اليوم التالي، سألتُ صاحبة الفندق، أثناء تناول الفطور، أين هو شارع سان خوان دي ديوس، فأشارت بإصبعها من النافذة، وقالت لي:

- هناك بالذات، بعد شارعين.

وهناك كان مقر الأونيفرسال، قبالة الجدار الحجري الضخم والمزخرف لكنيسة سان بيدرو كلافير، أول قديس، في أميركا، والذي ما زال جثمانه غير المتفسخ معروضاً، منذ مئة سنة، تحت مذبح الكنيسة الكبير،

كانت مكاتب الجريدة في بناء قديم من الطراز الكولونيالي، موسى بترسيمات جمهورية، وبوابتين كبيرتين وبعض النوافذ التي يظهر من خلالها كل ما كانت عليه الجريدة، ولكن رغبتي الحقيقي كان بفتح وراء شرفة من خشب دون سحج، على بُعد نحو ثلاثة أمتار من النافذة، إنه رجل ناضج ومستوحى، يرتدي بذلة قطنية بيضاء وربطة عنق، وله بشرة فاتحة وشعر هندي قاس وأسود. يكتب بقلم رصاص وراء مكتب عليه أكداش أوراق متأخرة. مررت ثانية بالانحناء المعاكس، بافتتان طاعاً؛ ثم أعدت الكرة مرتين أخريين. وفي المرة الرابعة، مثلما في المرة الأولى، لم يراودني الشك في أن ذلك الرجل هو كليمنتي مانويل ثابالا، قماراً مثلما توقعت، ولكن أشد رهبة. وبينما الرعب يملؤني، اتخذت القرار البسيط بعدم الذهاب إلى الموعد، في ذلك المساء، مع رجل تكفي رؤيته من النافذة، لاكتشاف أنه يعرف أكثر مما يجب عن الحياة وعن مهنته. رجعت إلى الفندق، وأهديت يوماً آخر من أيامي، بلا ندم، وأنا مستلق على السرير، لقراءة "مزيقو النقود" لأندريه جيد، والتدخين دون توقف. في الخامسة مساءً، اهتز باب الحجرة بصعقة قوية كأنها رصاصه بندقية، وصرخ بي زاباتا أوليفييا من المدخل:

- هيا بنا، يا للجنة! ثابالا ينتظرك، وليس هناك في هذه البلاد من يسمح لنفسه بترف التخلف عن موعد معه وتركه معلقاً.

كانت البداية أصعب مما يمكن لي أن أتخيله في كابوس، استقبلني ثابالا دون أن يدري ما يقبله. وكان يدخن دون توقف، باضطراب يزيد الحزن من حديثه. أرانا كل شيء: رئاسة التحرير والإدارة في جانب، وفي الجانب الآخر قاعة التحرير والورشة، وفيهما ثلاث متاضد غير مشغولة

في تلك الساعة المبكرة. وفي أقصى المكان مطبعة دوارة ناجية من فتنة، وألنا تنضيد وحيدتان من نوع لينوتيب.

وكانت مفاجأتي الكبرى أن ثابالا قرأ قصصي الثلاث، وبدت له الملاحظة التي كتبها ثابالا متصفة. فقلت له:

- أما أنا فلا أرى ذلك. القصص لم تعجبني. لقد كتبتها بدوافع غير واعية إلى حد ما. وبعد أن قرأتها مطبوعة، لم أعد أدري من أين سأواصل.

استنشق ثابالا الدخان عميقاً، وقال لزاباتا أوليفييا:

- إنها بادرة طيبة.

فالتقط مانويل الفرصة بسرعة، وقال له إنني قد أكون مفيداً له في الصحافة، خلال وقت فراغي من الجامعة. فقال ثابالا إنه فكر في الشيء نفسه عندما طلب منه مانويل موعداً لي. وقد قدمتي إلى المدير العام، الدكتور لوبييث إسكويرا، على أنني المساعد المحصل الذي حدثه عنه في الليلة السابقة.

- سيكون ذلك رائعاً - قال المدير، بابتسامته الأبدية، كمسيد نبيل على الطريقة القديمة.

لم تتفق على شيء، غير أن المعلم ثابالا طلب مني الرجوع في اليوم التالي، ليقدمني إلى هيكتور روخاس هيراثو، وهو شاعر ورسام من الجيدين، وكتاب عمود لامع في الجريدة. لم أقل له إنه كان أستاذي في الريم، في مدرسة سان خوسيه، بسبب خجل يبدو لي اليوم قابل للتفسير. وفور الخروج من هناك، قفز مانويل قفزة طرب في ساحة الجسارك، قبالة واجهة كنيسة سان بيدرو كلاير المهيبة، وهتف بفرح مبكر:

- أ رأيت أيها النمر، لقد أنجز الأمر!

تجايوت معه بجاراته في عتاق ودي، كيلا أخيب أمله. ولكنني كنت أحتفظ بشكوك جدية حول مستقبلتي، سألتني مانويل عندئذ، كيف بدا لي ثابالا، وأجبتته بالحقيقة: لقد بدا لي صياد أرواح، وربما كان هذا هو السبب الخامس في أن الجماعات الشبابية تتغذى على عقله ودهائه. واختممت قائلاً، بشقير عجز ميكرو، وزائف دون ريب، إن طريقته تلك قد تكون هي التي حالت دون توليه دوراً حاسماً في حياة البلاد العامة. اتصل بي مانويل ليلاً، وهو يكاد يموت من الضحك، بسبب محادثة دارت بينه وبين ثابالا. فقد حدثه هذا الأخير عني بحماس شديد، وأكد علي ثقته بأنني سأكون مكسباً مهماً لصفحة الافتتاحيات. وكان المدير متفقاً معه في الرأي. غير أن السبب الحقيقي لاتصاله كان رغبته في إخباري بأن الشيء الوحيد الذي يَقلُّ المعلم ثابالا، هو أنه يمكن لحياثي المرضي أن يشكل عقبة كبيرة في حياتي.

وإذا كنت قد قررت في اللحظة الأخيرة، العودة إلى الصحيفة، فلأن زميلاً في الهجرة، فتح عليّ الباب، وأنا أستحم في صباح اليوم التالي، ووضع أمام عيني صفحة التعليقات الانتحارية في الأوليفرسال. كانت هناك ملاحظة مرغبة عن وصولي إلى المدينة، تورطني بكوني كاتباً قبل أن أصير كذلك، وبأنني صحفي لامع قبل مرور أقل من أربع وعشرين ساعة على رؤيتي، أول مرة، جريدة من الداخل. أثبت مانويل الذي اتصل بي فوراً بالهاتف، لتعشتني. دون أن أدري غضبي من كتابته مثل تلك الملاحظة غير المسؤولة دون أن يخبرني بها مسبقاً. ومع ذلك، فإن شيئاً قد تغير في، وربما إلى الأبد، عندما

علمت أن المعلم ثابالا نفسه، هو الذي كتب تلك الملاحظة. وهكذا حزمت بتطالبي ورجعت إلى تحرير الجريدة لأقدم له الشكر. لم يكذب بهتم بشكري. وقدمتني إلى هيكتور روخاس هيراثو الذي كان يرتدي بنطالاً خاكياً وقميصاً مزيناً بزهور أمازونية. ويتكلم كلمات ضخمة يطلقها بصوت راغد، ولا يستسلم في المحادثات إلى أن يقتنص طريدته. لم يتعرف عليّ بالطبع، كواحد آخر من تلاميذه في مدرسة سان خوسيه في باراناكي.

وضعنا المعلم ثابالا - مثلما كان يدعو المسيح - في مداره، بذكريات عن صديقين أو ثلاثة أصدقاء مشتركين. وعن آخرين يتوجب عليّ أن أتعرف عليهم. ثم تركنا وحدنا، ورجع إلى الحرب الضارية التي يخوضها بقلمه الرصاص المتوقد، على أوراقه المستعجلة. وكأنه لم تكن له قط، أي علاقة بنا. واصل هيكتور حديثه إليّ، على وقع ألتني اللينوتيب الرتيب الخافت، وكأنه هو أيضاً لم تكن له أي علاقة بشابالا. لقد كان محدثاً لا نهائياً، يتمتع بذلك تعبير صيهر، ومغامراً في التخيل، بختلق وقائع لا تصدق، ينتهي به الأمر، هو نفسه، إلى تصديقها. تبادلنا الحديث طوال ساعات، عن أصدقاء آخرين، أحياء وقيتين، وعن كتب ما كان يجب كتابتها أبداً، وعن نساء نسينا، لكننا لم نستطع نسيانهم، وعن شواطين حاملة في قرندوس تولو الكاريبي - حيث ولد هو - وعن سحرة معصومين عن الخطأ. ونكبات أراكاتانكا التوراتية. وعن كل ما كان وما سيكون. دون شرب أي شيء. ودون أن نكاد نتنفس، ونحن ندخن حتى المرققين، خوفاً من ألا تمتد بنا الحياة للتحدث عن كل ما نحتاج إلى التحدث عنه.

في الساعة العاشرة ليلاً، عندما أغلق تحرير الصحيفة، ارتدى المعلم ثياباً سترته، وعقد ربطة عنقه، وبخطوة باليه راقصة لم يبق فيها إلى القليل من الشباب، دعانا لتناول الطعام. ومثلما هو متوقع، ذهبنا إلى الكهف، حيث فوجئ بأن خوسيه دولوريس وعدداً من الزبائن آخر الليل، تعرفوا عليّ كزبون قديم. وازدادت مفاجآت عندما مر أحد الشرطين اللذين رافقاني في زيارتي الأولى للمطعم، ومازحتني بدعابة مستترة عن بلتي السبئية في الحبس، وصادر مني علبة سجانر كنت قد فتحتها للشو. وبدوره، أثار هيكتور مبارزة كلامية مزدوجة المعنى مع خوسيه دولوريس. أثارت ضحك الزبائن، أمام صمت المعلم ثابلاً السعيد. وتجرت أنا على التدخل يرد لا طرف فيه. أفادني على الأقل في أن أكون معترفاً بي كواحد من الزبائن القليلين الذين يقدم لهم خوسيه دولوريس الطعام ديناً، حتى أربع مرات في الشهر.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، واصلت أنا وهيكتور حديثنا الذي بدأنا مساءً، في شارع الشهداء، قبالة الخليج الثمن بفضللات السوق العام الجمهوري. كانت ليلة رائعة في منتصف العالم، بينما أول سفن كوراساو الشراعية تُقلع خفية، في ذلك الفجر، قدّم لي هيكتور أول الإيضاحات، حول تاريخ كارتاخينا الخفي، والمغطى ببحار من الدموع، وربما بدت أقرب إلى الحقيقة من خيال الأكاديميين المجامل. حدثني عن حياة الشهداء العشرة الذين تنتصب قائلهم النصبية على جانبي ممر الساحة، تخليداً لبطلاتهم. الرواية الشعبية - وهي تبدو كما لو أنها من بنات أفكاره - تقول إنه عند وضع التماثيل في أماكنها الأصلية، لم ينقش النحاتون أسماء الشهداء. وتاريخ ميلادهم على التماثيل نفسها،

وإنما على القواعد التي استقرت عليها. ولهذا، عندما رقعوها من أماكنها لتنظيفها بمناسبة الذكرى المئوية لاستشهادهم، لم يعودوا يعرفون لمن تتبع الأسماء والتواريخ، واضطروا إلى إعادة وضع التماثيل على القواعد، كيخفاً اتفق. لأن أحداً لم يكن يعرف اسم أحد. كانت الحادثة مشدولة كدعابة، منذ سنوات طويلة. ولكنني فكرت بالمقابل، بأنها حققت العدالة التاريخية بتكريسها أولئك الأعيان دون أسماء، لأنهم لم يخلدوا بسبب حياتهم التي عاشوها، بقدر ما هو بسبب مصيرهم المشترك.

تكررت ليالي المهر تلك، بصورة يومية تقريباً، خلال سنواتي في كارتاخينا. ولكنني منذ القليتين أو الثلاث الأولى، انخسبت إلى أن هيكتور يتمتع بقدرة على الإغواء المباشر، مع حس صداقة شديد التعقيد، لا يمكن إلا لنا نحن الذين نحبه كثيراً، أن نتفهمه دون تحفظ. فقد كان رقيقاً جداً، إلا أنه قادر في الوقت نفسه، على اجترار غضبات صاخبة، وأحياناً كارثية، ثم يحتفل بنفسه، بعد ذلك، بصفح، كأنه الطفل يسوع. عندئذ يفهم أحداً حقيقته، ويفهم لماذا يفعل ثابلاً كل ما هو ممكن لكي نحبه كثيراً بقدر ما نحبه. في الليلة الأولى، مثلما في ليال كثيرة أخرى تالية، بقينا حتى الفجر في شارع الشهداء، محتمين من حظر التجوال، بوضعنا كصحفيين. كان صوت هيكتور وذاكرته لا يزالان على خير ما يرام، حين رأى يريق النهار الجديد في أفق البحر، وقال:

- عسى أن تنتهي هذه الليلة كما في "كازابلانكا".

لم يقل أي شيء آخر. ولكن صورته أعادني إلى كل بهاء صورة

همقري بوغارت وكلود رينس. وهما يضيان كنفاً إلى كنفه، في الفجر الضبابي، باتجاه تالوق الأفق المشع، والجملة التي صارت نائية عن تلك النهاية المأساوية السعيدة: "هذه بداية صداقة عظيمة".

بعد ثلاث ساعات من ذلك، أيقظني المعلم ثابالا هاتفياً، بعبارة أقل سعادة:

- أين وصلت في هذا المقال العظيم؟

احتججتُ إلى بضع لحظات لكي أدرك أنه يعني مساهمتي في الجريدة لليوم التالي، لا أذكر أننا توصلنا إلى أي اتفاق، أو أنني قلت نعم أو لا، عندما طلب مني أن أكتب مساهمتي الأولى. ولكنني كنت أشعر، في ذلك الصباح، بأنني قادر على أي شيء، بعد المحادثة الأولية في الليلة السابقة. ولا بد أن ثابالا فهم الأمر على ذلك النحو، إذ كان قد أشار إلى بعض الموضوعات التي سيجري تناولها في ذلك اليوم، واقترحتُ عليه موضوعاً آخر بدا لي أكثر واهية: حظر التجوال.

لم يقدم لي أي توجيه. وكنتُ أنوي رواية مغامرة ليثني الأولى في كارتاخينا. وهذا ما فعلته، بخط يدي. لأنني لم أستطع التفاهم مع الآلات الكاتبة الحراقية في قاعة التحرير، كان مخاضاً استمر نحو أربع ساعات، راجعه المعلم أمامي دون أي ملمح أو تعبير يكشف عما يفكر فيه، إلى أن وجد أقل الأساليب مراوة ليقول لي:

- ليس سيئاً. ولكن من المستحيل نشره.

لم يفاجئني، بل على العكس، فقد كنت أتوقع الأمر. وحررتني من ذلك الهم الثقيل في أن أصير صحفياً. ولكن أسبابه الحقيقية التي كنت أجهلها، كانت حاسمة: فمنذ التاسع من نيسان، صار هناك في كل

صحيفة في البلاد، رقيب من الحكومة، يقبع وراء منضدة في قسم التحرير، كما لو أنه في بيته، منذ الساعة السادسة مساءً، ويستمع بالإرادة والسلطة في عدم السماح بنشر أي حرف يمكن له أن يمس الأمن العام.

كانت ميررات ثابالا أشد وطأة عليّ، من ميررات الحكومة، لأنني لم أكن قد كتبت تعليقاً صحفياً، وإنما إعادة سرد ذاتية لحدث خاص، دون أية مزاعم بأنه تعلقت صحفي. كما أنني لم أتعامل مع حظر التجوال كوسيلة شرعية تتخذها الدولة، وإنما كحجة يتلذذ بها بعض الشرطيين الأفظاظ لكي يحصلوا على سبائير من تلك التي تساوي كل واحدة منها سنخافو واحداً. ولحسن الحظ أن المعلم ثابالا، قبل أن يحكم عليّ بالإعدام، أعاد إليّ الملاحظة التي يجب إصلاحها من ألفها إلى يائها، ليس من أجله هو، وإنما من أجل الرقيب، وأنعم عليّ بحكم ذي حدين قائلاً:

- أنت تمتلك الكفاءة الأدبية، وهذا أمر لا شك فيه. ولكننا نتحدث في ذلك قسماً بعد.

هكذا كان هو. فعند يومي الأول في الصحيفة، عندما تحدث ثابالا معي ومع زاباتا أوليفينجيا، لفتت انتباهي عاداته الفريدة بالتحدث إلى أحداً، وهو ينظر إلى وجه الآخر، بينما أظفاره تحترق بحجرة سيجارته. لقد سبب لي ذلك، في البدء، قلقاً مزعجاً. والأمر الأقل حصافة الذي خطر لي، بدافع الحياة المحض، هو الاستماع إليه بانتباه حقيقي واهتمام هائل، ولكن دون النظر إليه، وإنما إلى مائويل، لكي أستخلص نتائجي من كليهما. وبعد ذلك، عندما تبادلنا الحديث مع روخاس هيراثو، ثم مع

المدير لويس إسكاورينا فيما بعد، ومع كثيرين غيرهما، أدركت أن تلك هي طريقة ثابالا الخاصة، عندما يتحدث ضمن جماعة. فهمت الأمر على هذا النحو، وعلى هذا النحو استغلنا، أنا وهو، تبادل الأفكار والمشاعر من خلال النظر إلى شركاء غافلين ووسطاء برنين. وعندما استقرت الثقة المتبادلة بيننا، مع مرور السنوات، تجرأت على التحدث إليه عن انطباعي ذلك، فأوضح لي دون استغراب، بأنه إنما ينظر إلى محدثه بصورة مائلة تقريباً، كيلا ينقث دخان سيجارته في وجهه. لقد كان هكذا، لم أعترف قط، على أحد، بطبع شديد الوداعة والتكتم مثله، ومزاج مدني مثل مزاجه، لأنه عرف أن يكون على الدوام، ما يريد أن يكونه: حكيماً في الظل.

الحقيقة أنني كنت قد كتبت خطابات، وأشعاراً مبكرة في معهد ثيباكيرا، ونداءات وطنية ومذكرات احتجاج على سوء الطعام، وكتابات قليلة أخرى، دون حساب الرسائل إلى الأسرة التي كانت أمني تعيدها إليّ. وقد صحت ما فيها من أخطاء إملائية، حتى بعد أن صرت كاتباً معترفاً به. لكن المقالة التي نُشرت أخيراً في صفحة التعليقات الاقتصادية، لم تكن لها علاقة بما كتبته، فما تبقى مني، بين تزيينات المعلم ثابالا والرقيب، هو مجرد نتف نشر غثائي بلا وجهة نظر ولا أسلوب. أجهز عليها مصحح التجارب بتعصبيه التحوي. اتفقنا في نهاية المطاف على أن أتولى كتابة عمود يومي، ربما لتجديد المسؤوليات، يُنشر باسمي الكامل، ويعنوان دائم: "نقطة، وسط جديد". تمكن ثابالا وروخاس هيراثو، المجران جيداً في الاستنزاف اليومي، من مواساتي من الضيق الذي سببه لي ما حل بمقاتلي الأولى. وهكذا

تجرأت على المواصلة، بكتابة مقالة ثانية وثالثة، لم تكونا أوفر حظاً. بقيت في التحرير قرابة سنتين، أنشر حتى وأويتين صحفيتين يومياً، وأمكن من كسبهما من الرقابة، بتوقيع ودون توقيع، حتى أوشكت على الزواج من ابنة أخي الرقيب.

ما زلت حتى اليوم أتساءل، كيف كان يمكن لحياتي أن تكون من دون قلم المعلم ثابالا، ومشد الرقيب الذي كان مجرد وجوده تحدياً خلافاً. ولكن الرقيب كان يعيش باحتراس أكثر منا، بسبب هوسه في الملاحقة. فالاحتباسات من كبار الكتاب، تبدو له مكابيد مريبة. وهي كذلك بالفعل، في أحيان كثيرة. لقد كان يرى أنشباحاً. فهو كويتب تافه، يفترض معاني متخيلة. وفي إحدى ليالي سوء طالعاه اضطر إلى الذهاب إلى المرحاض، كل ربع ساعة، إلى أن تجرأ على القول لي، إنه يوشك على أن يصاب بالجنون، لما نسبته له من الرعب، وصرخ:

— يا ملعنة! يمثل هذا الذهاب والإياب، سألقي دون مؤخرة!

كانت قد جرت عسكرة الشرطة، كدليل آخر على صرامة الحكومة تجاه العنف السياسي الذي كان يدمي البلاد، مع شي من الاعتدال على ساحل الأطلسي. ومع ذلك، فقد أطلقت الشرطة النار في أوائل شهر أيار، دون سبب، على مركب الأسبوع المقدس، في شوارع بلدة كارمن دي بوليفار، على مسافة نحو عشرين فرسخاً من كارتاخينا. كنت أشعر بضعف عاطفي تجاه تلك البلدة، حيث ترعرعت العمة "ماما". وحيث ابتكر الجد نيكولاس أسماك الذهبية الشهيرة. فطلب مني المعلم ثابالا، المولود في قرية سان خاينتو المجاورة، بإصرار غريب، أن أتناول الخبر بمقالة اقتصادية، دون أن أولي اهتماماً للرقابة ولكل ما سيترتب على

ذلك، من نتائج. فطالبت الحكومة في مقالتي الأولى المغفلة من التوقيع، في صفحة الافتتاحية، بفتح تحقيق معني حول الاعتداء، ومعاقبة من قاموا به، وأنهيت المقالة بسؤال يقول: "ما الذي حدث في كارمن دي بوليفار؟". وحيال التجاهل الرسمي، وفي حرب صريحة ضد الرقابة، واصلنا ترديد السؤال في تعليق يومي في الصفحة نفسها، بحسبي متنام، وباستعداد لإثارة حفيظة الحكومة، أكثر مما كانت عليه. بعد ثلاثة أيام من ذلك، طلب مدير الجريدة من تابالا تأكيداً بأنه تشاور في الأمر مع هيئة التحرير بكاملها. وكان هو نفسه موافقاً على وجوب مواصلة الموضوع، وهكذا واصلنا توجيه السؤال. وفي أثناء ذلك، كان الشيء الوحيد الذي صرفناه عن موقف الحكومة هو ما جأنا من خلال وشاية: لقد أصدروا الأوامر بتركنا نرصد موضوعنا كمجائين طلقاء، إلى أن يصيبنا الملل. لم يكن ذلك سهلاً، فسألنا اليومي كان ينتشر في الشارع كتحية شعبية: "مرحباً يا أخي، ما الذي حدث في كارمن دي بوليفار؟".

وفي ليلة لا تخطر على بال، ودون أي إنذار مسبق، أغلقت دورية عسكرية شارع سان خوان دي ديوس بجلبة أصوات وقعقة أسلحة، ودخل الجنرال أرنستو بولانسيا بويو، قائد الشرطة المجيشة، إلى مبنى جريدة الأوتيفرسال، وهو يطاء الأرض بقوة، كان يرتدي الزي العسكري الأبيض المخصص للمناسبات الكبرى، وطماقاً ملمعاً بالورنيش، بينما السيف معلق إلى جانبه بحيل من الحرير، وأزراره وشاراته تلمع كأنها من الذهب. لم يكن يتنقص مقدار ذرة من سمعته كمتأنق وجذاب، وإن كنا نعرف أنه رجل صلب في السلام والحرب، وهو ما أثبتته بعد سنوات

من ذلك بقيادته للفرقة الكولومبية، في حرب محوريا. لم يتحرك أحد خلال الساعتين المتوترتين من محادثة، على انفراد، مع المدير. تناولنا اثنين وعشرين فئجان قهوة سوداء، دون سجانر ودون كحول، لأنهما كليهما كانا متحررين من آفة الإدمان. ولدى خروجه، بدأ الجنرال أكثر توتراً وهو يصفأنا فرداً فرداً، وقد تأخر أكثر قليلاً في مصافحتي، نظر إلى عيني مباشرة بعينيه الثاقبتين، وقال لي:

- أنت ستصل بعيداً.

طفر قلبي من مكانه، فقد فكرت في أنه ربما يعرف كل شيء عني، وأن البعيد الذي سأصل إليه، في نظره، قد يكون الموت. وعندما اجتمع المدير مع تابالا على انفراد، ليطلععه على محادثته مع الجنرال، كشف له عن أن الجنرال يعرف من يكتب كل تعليق في الجريدة، باسمه وكنيته. وقد قال له المدير، بإيماة خاصة تميزه، إن كل ما يكتب يتم بأمر منه، وإن الأوامر في الصحف، تنفذ مثلما في الشككات العسكرية. ولكن الجنرال نصح المدير، على أي حال، بأن يهدئ الحيلة، فقد يظهر متوحش، من رجال الكهوف، راغب في إحقاق العدالة باسم حكومته. فهم المدير المغزى من ذلك، وفهمنا جميعنا حتى ما لم يقله. وكان أكثر ما قاجأ المدير هو تباهي الجنرال بمعرفة تفاصيل الحياة الداخلية في الجريدة. كما لو أنه يعيش فيها. جميعنا كنا موقنين بأن عميله السري هو الرقيب، على الرغم من أن هذا الأخير أقسم برفات أمه، أنه ليس الواشي. الشيء الوحيد الذي لم يحاول الجنرال الإجابة عليه، خلال زيارته، هو سؤالنا اليومي. وقد نصحن المدير، المعروف بحكمته، بأن نصدق ما قاله لنا، لأنه يمكن للحقيقة أن تكون أسوأ بكثير.

منذ أن التزمت بالحرب ضد الرقابة، لم أعد أعبأ بالجامعة، ولا بالقصص القصيرة. ولحسن الحظ، أن معظم الأساتذة لم يكونوا يجرون تفقداً للحضور، مما كان يسهل حضور الدروس والتغيب عنها. أضف إلى ذلك أن الأساتذة الليبراليين الذين يعرفون مشاكلي مع الرقابة، كانوا يعانون أكثر مني وهم يبحثون عن طريقة لمساعدتي في الامتحانات. واليوم، بينما أنا أحاول رواية تلك الأحداث، لا أجد أثراً لتلك الأيام في ذاكرتي. وقد انتهى بي الأمر إلى الإيمان بالنسيان أكثر من الذاكرة.

نام أبواي مطمئنين، منذ أن أعلمتهما بأنني أكسب في الجريدة، ما يكفيني للعيش. لم يكن ذلك صحيحاً. فراتني الشهري كمستدرب، لم يكن يكفيني أسبوعاً. وقبل انقضاء ثلاثة شهور، تركت الفندق يديون لا يكتفي بتسديدها. وقد قايضتني عليها صاحبة الفندق، فيما بعد، بنشر ملاحظة في صفحة المجتمع عن عبد ميلاد حفيدتها الخامس عشر. ولكنها لم توافق على مثل تلك الصققة، سوى مرة واحدة.

مكان النوم الأكثر ارتداداً وبرودة في المدينة، كان لا يزال شارع الشهداء، حتى في أزمته حظر التجوال. فقد كنت أنام هناك جالساً، بعد أن تنتهي السهرات التي تستمر حتى الفجر. وفي أحيان أخرى، كنت أنام في مستودع الجريدة، فوق لفافات الورق، أو أذهب حاملاً أرجوحة نومي الشبكية، تحت إبطي، إلى غرف طلاب آخرين عاقلين، ما داموا قادرين على تحمل كوابيسي وعادتي السيئة بالتكلم نائماً. هكذا عشت تحت رحمة الحظ والقدر، أكل ما أجد، وأنام حيث يشاء الله، إلى أن اقترحت عليّ قبيلة آل فرانكو مونيرا الإنسانية، أن تقدم لي الوجبتين اليوميّتين بسعر أقرب إلى الإحسان. كان والد القبيلة -بوليفار فرانكو-

باريخا - معلماً تاريخياً في المدارس الابتدائية، ورب أسرة مريحة ومتعصبة، تضم فنانين وكُتّاباً. فكانوا يجبرونني على أن أكل، أكثر مما كنت أدفعه لهم، كيلا يجف دماغي. وفي أحيان كثيرة، لم يكن لدي ما أدفعه، ولكنهم كانوا يكتفون بأشعار ألقيا عليها عليهم بعد تناول الطعام. وكانت نسبة كبيرة من تلك الصفقة المشجعة، هي مقاطع لدون خورخي مانريك في موت أبيه، و"أغنيات العجور" لغارسيا لوركا.

المواخير المكشوفة في العراء، على شواطئ تبسكا، بعيداً عن صمت سور المدينة المقلق، كانت أكثر ضيافة من فنادق السباح على الشواطئ. وكنا حوالي ستة طلاب جامعيين نلتقي في "البجعة" منذ ليلة التحضير للامتحانات الأولى، تحت أنوار فناء الرقص المبهرة. كان تسميم البحر وجوار السفن عند الفجر، بواسيتا من صخب التحاسينات الكاريبية، ومن إثارة الفتيات اللواتي يرقصن دون سراويل داخلية، ويتناثر واسعة جداً، يرفعها هواء البحر حتى خصوصوهن. وبين حين وآخر، تدعونا عصفورة نحن إلى أبيها، للنوم مع نزر الحب اليسير المتبقي لديها، عند الفجر. إحداهن، وما زلت أتذكر اسمها ووجهها جيداً، أسلمت نفسها لإغواء الادعاءات المتبجعة التي كنت أرويها لها، وأنا نائم، وبفضلها نجحت بمادة القانون الروماني، دون تلاعبات لفظية؛ وأفلتت من عدة مدامات، عندما حظرت الشرطة النوم في الحدائق. كنا متفاهمين كزوجين متفهمين، ليس في السرير فقط، وإنما كذلك، في الأعمال المنزلية التي كنت أقوم بها بدلاً منها، في الفجر، لكي تتمكن هي من النوم بضع ساعات إضافية.

في أثناء ذلك، بدأت أستقر جيداً في عملي، في كتابة التعليقات الافتتاحية. وكنت أعتبره على الدوام، شكلاً أقرب إلى الأدب، منه إلى

الصحافة. كانت يوغوتا كابوساً من الماضي، على مسافة مئتي قرسخ، وعلى ارتفاع أكثر من ألفي متر فوق سطح البحر. لا أتذكر منها إلا عفونة رماد التاسع من نيسان. وكنتُ ما أزال غارقاً في حسى الفنون والآداب، لا سيما في مسامرات منتصف الليل. ولكنني بدأت أفقد الحماس في أن أصير كاتباً. وكان ذلك صحيحاً إلى حد أنني لم أعد إلى كتابة قصة واحدة، بعد القصص الثلاث التي نُشرت في الأسبكتادور، إلى أن عثر عليّ إدواردو ثالاميا في أوائل شهر تموز، وطلب مني، بوساطة من المعلم ثابالا، أن أرسل إليه قصة أخرى لنشرها في جريدته، بعد ستة شهور من الصمت. ولأن الطلب جاء منه، استجعت، كيفما اتفق، بعض الأفكار الضائعة في مسوداتي، وكتبت "الضلع الآخر للموت"، وكانت أكثر قليلاً من الشيء نفسه. أتذكر جيداً أنه لم يكن لها أي موضوع مسبق، فبحثت أختلقه في أثناء كتابتها. وقد نُشرت يوم الخامس والعشرين من تموز ١٩٤٨، في ملحق "نهاية الأسبوع"، مثل سابقتها. ولم أعد إلى كتابة مزيد من القصص، حتى السنة التالية، عندما كانت حياتي قد تبدلت. لم يكن ينقصني إلا التخلي عن دروس الحقوق القليلة التي أتابعها، بين حين وآخر، ولكنها كانت الوسيلة الوحيدة لإلها، حلم أبوي.

لم أكن أنا نفسي، أتصور آنذاك، أنني سأكون عما قريب، طالباً أفضل مما كنته في أي وقت آخر، في مكتبة غوستافو إيبارا ميرلانو. وهو صديق جديد، عرفني عليه ثابالا وروخاس هيراثو بحماس كبير. كان قد رجع لشوه من بوغوتا، بشهادة من دار المعلمين العليا، والضم فوراً إلى مسامرات الأصدقاء، في الأوليفرسال، ومناقشات الفجر في

شارع الشهداء. وبين طلاقة لسان هكتور البركانية وإرتياحية ثابالا الخلاقة، أسهم غوستافو بإضافة الصرامة المنهجية التي كانت تفتقد لها كثيراً، أفكاره المرحلة والمشعبة، وخفة قلبي. وكل هذا وسط رقة كبيرة وطبع حديدي.

متذ اليوم التالي، دعاني إلى بيت أبويه على شاطئ ماريبيبا، حيث يشكل البحر الفسح لنا، خلقياً. وكانت فيه مكتبة تغطي جداراً كاملاً طوله اثنا عشر متراً، جديدة ومرتبنة، تحفظ فيها الكتب التي لا بد من قراءتها من أجل عبث الحياة دون تأنيب ضمير. كانت هناك طبعات لأعمال الكلاسيكيين الإغريق، واللاتينيين، والإسبان، معتنى بها جيداً كما لو أنها لم تُقرأ، لكن هوامش صفحاتها تحمل خريشة ملاحظات حكيمة، بعضها باللاتينية. وكان غوستافو يقرأها بأعلى صوته. وحين يتنطق بها يحمر خجلاً، حتى جذور شعره، ويحاول هو نفسه أن يجد مخرجاً لها بسخریات لاذعة. لقد قال لي عنه أحد الأصدقاء، قبل أن أتعرف إليه: "هذا الشخص خوري". وسرعان ما أدركت السبب في سهولة تصديق ذلك، على الرغم من أنه، بعد التعرف إليه، كان من شبه المستحيل، تصديق أنه ليس كذلك.

في تلك الليلة الأولى، تبادلنا الحديث، دون توقف، حتى الفجر. وعرفت أن قراءاته كانت طويلة ومتنوعة، ولكنها مدعمة بمعرفة متعمقة لأعمال المثقفين الكاثوليك المعاصرين، ممن لم أكن قد سمعت بهم قط. كان يعرف كل ما يجب معرفته عن الشعر، خاصة أشعار الكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين الذين يقرأ أعمالهم في طبعات أصيلة. وكانت لديه، أحكام تستند إلى معطيات جيدة، عن أصدقائنا

المشركين. وقد قدم لي معلومات ثمينة. لكي أحبهم أكثر. وأكد لي كذلك، أهمية التعرف على صحفيي يارانكيثا الثلاثة - سيبيدا، وبارغاس، وفوينسايور - الذين طالما حدثني عنهم روحاس هيراثو والمعلم ثابالا. وقد لفت انتباهي أنه، فضلاً عن كل مزاياه الفكرية والتمردية، يتفنن السباحة، يخطط أولمبي، بجسد مصاغ ومدرب ليكون كذلك. وكان أكثر ما أقلق به شأني، هو ازدرائي للكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين الذين يبدو لي، ثملين وغير مفكرين، باستثناء الأوديسة التي كنت قد قرأتها وأعدت قراءتها، متفرقة، عدة مرات في المعهد. وهكذا، وقبل أن يودعني، اختار من المكتبة، كتاباً مجلداً بالجلد، وقدمه إليّ، بنوع من الوقار قائلاً: "يمكن لك أن تصبح كاتباً جيداً، ولكنك لن تكون جيداً جداً على الإطلاق، ما لم تتعرف بعمق، على الكلاسيكيين الإغريق." كان الكتاب هو الأعمال الكاملة لسوفوكليس. وكان غوستافو، منذ تلك اللحظة، أحد الأشخاص الحاسمين في حياتي، لأن أوديب ملكاً تكشف لي من القراءة الأولى، عن أنها العمل كامل الإتقان.

لقد كانت ليلة تاريخية بالنسبة لي، لأنني اكتشفت فيها غوستافو إيبارا وسوفوكليس في الوقت نفسه، ولأنه كان يمكن لي، بعد ساعات من ذلك، أن أموت ميتة سيئة في حجرة خطبتي السرية في "البجعة". أتذكر كما لو أن ذلك حدث بالأمس، عندما قدام وصي قديم عليها، كانت تظنه ميتاً منذ أكثر من سنة، بتحطيم باب غرفتها وكلاً، وهو يصرخ بشناتهم من به مس. تعرفت فيه فوراً على زميل طيب من زملاحي في مدرسة أراكاتاكا الابتدائية، عائد والسخط بلؤه ليستعيد مرفعه

في فراشها. لم يكن أحدنا قد رأى الآخر منذ ذلك الحين، وقد أبدى سلامة ذوق، بتجاهله ما جاء من أجله، عندما تعرف عليّ وأنا عابر، بضمختي الرغب في السرير.

تعرفت في تلك السنة أيضاً على راميرو وأوسكار دي لا إسبيريتا، وهما صديقان لا يملآن الحديث، ولا سيما في الببوت التي تحظرها الأخلاق المسيحية. كلاهما كان يعيش مع أبويه في تورباكو، على بعد ساعة من كارتاخينا، ويظهران كل يوم تقريباً، في مسامرات الكتاب والفنانين في صالة أميركانا للمثلجات. كان راميرو، خريج كلية الحقوق في بوغوتا، مقرباً من جماعة جريدة الأوتيفرسال. وفيها كان ينشر عموداً طوعياً. كان أبوه محامياً صلباً وليبرالياً غير متزمت، وكانت زوجته امرأة محببة، ولا تستطيع أن تكتف سرّاً. وكلاهما يتمتع بالعادة الحميدة في تبادل الحديث مع الشباب. وقد قدما لي، خلال محادثتنا الطويلة، تحت أشجار الدردار الوارفة في تورباكو، معلومات لا تثنى حول حرب الألف يوم، ذلك المعين الأدبي الذي جف بعد موت الجد. ومنهما ما زلت أحتفظ إلى الآن، بالرؤية التي أظنها أكثر دقة للبحرال رافائيل أوبي أوبي، بحضوره المهيّب ومقاس معصية.

أفضل شهادة عن الوضع الذي كنا عليه، أنا ورامون، في تلك الأيام، جسده في لوحة زينة على القماش، الرسامة سيبيليا بوركس التي كانت تشعر، في حفلات الرجال الصاخبة، كما لو أنها في بيتها، على الرغم من استنكار وسطها الاجتماعي، كانت اللوحة رسماً لنا نحن الاثنين، جالسين إلى طاولة المقهى الذي كنا نلتقي فيه معها ومع أصدقاء آخرين، مرتين كل يوم. عندما أواد كل واحد منا، أنا ورامون،

أن يمضي في طريق مختلف، دار بيننا جدل لا مجال فيه للاتفاق، حول من هو صاحب اللوحة. وقد حلت سيسيليا الأمر بالمعادلة السليمانية، إذ قصت اللوحة إلى نصفين بمقص تقليم أشجار، وأعطت كل واحد منها قسمه. بقي النصف الخاص بي ملفوفاً. لسنوات بعد ذلك، في خزانة شقة في كاراكاس، ولم أستطع استرداده قط.

على خلاف بقية أنحاء البلاد، لم يخلف العنف الرسمي تأثيره في كارناخينا حتى بدايات تلك السنة، عندما جرى اختيار صديقنا كارلوس أليسان نائباً في المجلس البلدي المحلي، عن دائرة موهوكس الانتخابية الموقرة جداً. كان محامياً خارجاً لتوه من القرن، وذا طبع مرح؛ ولكن الشيطان مازحه بتلك الدعاية الحبيثة، حيث جرى في الجلسة الانتخابية تبادل إطلاق نار بين الحزبين المتضادين، وأحرقت رصاصة طائشة كثيفة سترته. ولا يد أن أليسان غد فكر، بمبررات حميدة، في أن سلطة تشريعية غير ذات نفع، مثلما هي عندنا، لا تستحق أن يضحى المرء بحياته من أجلها. وفضل أن ينفق حميته مقدماً، مع صحة طبية من أصدقائه.

كان أوسكار دي لا إسبريّا، وهو محب من الطراز الأول للهو والقصف، يتفق مع وليم فوكسر في أن الماخور هو أفضل مقر إقامة للكاتب. لأن الصباحات فيه تكون هادئة، وهناك حفلة في كل ليلة، وعلاقة جيدة بالشرطة. وقد تبين النائب أليسان ذلك الرأي بحدافيره، وصار ضيفنا طوال الوقت. ومع ذلك، فقد تدمت في إحدى تلك الليالي. لأنني صدقت أوهام فوكسر؛ عندما اندفع حام قدوم لصاحبة الماخور، ماري ريبس، وحطم الباب ليأخذ ابنتها الذي كان يعيش معها.

وعمره حوالي خمس سنوات. فخرج حاميهما الحالي، وهو ضابط شرطة، من غرفة النوم بسرور والداخلي، ليدافع عن شرف وممتلكات البيت، بمسدسه النظامي، فاستقبله الآخر برشقة رصاص دوت مثل قذيفة مدفع في قاعة الرقص. فارتعب رقيب الشرطة، ولاذ بغرفته للاختباء. وعندما خرجت من غرفتي، وأنا نصف عار، كان التزلاء العابرون يراقبون من غرفهم، الطفل الذي يبول في نهاية العمر، بينما الأب يمسد له شعره بيده اليسرى، وعكس بيده اليمنى، المسدس الذي مازال الدخان يتصاعد منه. ولم تكن أسمع في أجواء البيت سوى شتائم ماري، وهي تؤنب الرقيب لأنه جبان يفتر إلى خصيتين.

في تلك الأيام بالذات، دخل إلى مكاتب الأوتيفرسال، رجل مارو، خلع قميصه بحس مسرحي كبير، وراح يتمشى في قاعة التحير ليفاجئنا بظهوره وذراعيه المغطاة بقروح تبدو كما لو أنها من الاسمت. وأوضح لنا بصوت راعد، وهو متفعل من الدهشة التي أثارها فينا، سبب تلك الآثار التي في جسده:

- إنها خرمشات أسود!

الرجل هو إميليو رازوري. وكان قد وصل لتوه إلى كارناخينا، للإعداد لموسم السيرك الشهير الذي يملكه، وهو أحد أكبر سيركات العالم. كان السيرك قد غادر هافانا في الأسبوع السابق، في عابرة المحيطات أوسكيرا التي ترفع العلم الإسباني. ومن المنتظر وصوله يوم السبت التالي. وكان رازوري يتباهى بأنه وُجد في السيرك منذ ما قبل مولده. ولم تكن ثمة حاجة لرؤية استعراضه لاكتشاف أنه مروض حيوانات ضارية. كان يدعوها بأسمائها الخاصة. مثلما يدعو أفراد

أسرته، فترد عليه بمعاملة حميدة وقظة في الوقت نفسه، فهو يدخل أعزّل إلى أقباض النصور والأسود، ليقدم إليها طعامها بيده، وقد احتضنه، في إحدى المرات، دبه المدلل في عناق حب أبقاه في المستشفى ربيعاً كاملاً. ومع ذلك، لم يكن هو نفسه جاذبية السيرك الكبرى، ولا عرض أكل النار كذلك، وإنما الرجل الذي كان يفك رأسه ويتمشى حول الحلية، واضعاً الرأس تحت إبطه، ما لا يمكن تسيانه من إميليو رازوري، هو تمسكه الراشح بالحياة، وبعد الاستماع إليه بانهار، على امتداد ساعات طويلة، نشرت في الأونيفرسال تعليقاً افتتاحياً عنه، تجرأت فيه على الكتابة بأنه "أكثر الرجال الذين عرفتهم هولاً في إنسانيته"، ولم يكن من تعرفت إليهم كثيرين، وأنا في الحادية والعشرين من عمري. ولكن تلك الجملة ما تزال صالحة، على ما أظن، حتى الآن. كنا نتناول طعامنا في "الكهف" مع العاملين في الصحيفة، وقد صار محبوباً هناك أيضاً بقصصه عن الضواري المأنسة بالحب. وفي واحدة من تلك الليالي، بعد طول تفكير في الأمر، تجرأت على الطلب منه بأن يأخذني في سيركه، ولو لتطبيق الأقباض، عندما لا تكون النور بداخلها. لم يقل لي شيئاً، ولكنه مدّ لي يده بصمت. فقهت ذلك على أنه كلمة سر خاصة بالسيرك، واعتبرت الاتفاق ناجزاً. الشخص الوحيد الذي اعترقت له بذلك، كان سلفادور ميسا نيتشوس، وهو شاعر أنتيوكي (من أنتيوكيا)، يعيش خيمة السيرك إلى حد الجنون، حضر لتوه إلى كارتاجينا كمشريك محلي لرازوري. وكان هو نفسه قد ذهب مع سيرك كذلك، عندما كان في مثل سني، قحذرتني من أن من يرون المهرجين، يكون أول مرة، يرغبون في الذهاب معهم، ولكنهم

يتدمون في اليوم التالي. ومع ذلك، لم يكتف بتأييد قراري وحسب، بل أقتنع المروض به، شريطة أن تتكتم على السير، بصورة مطلقة، كيلا يتحول إلى خبر قبل أوانه. فتحول انتظاري السيرك إلى رغبة جامحة، بعد أن كان انفعالياً حتى ذلك الوقت.

لم تصل السقينة إوسكيرا في الموعد المحدد. وكان من المستحيل الاتصال بها. وبعد مرور أسبوع آخر، أقمنا من الجريدة خدمة هواة راديو لتتبع الظروف المناخية في الكاريبي. ولكننا لم نتصن من الحيلولة دون بد، الصحافة والإذاعة في التفكير حول احتمالات الخبر المربع. بقيت أنا وميسا نيتشوس في تلك الأيام، متوترين مع إميليو رازوري، دون أكل ولا شرب، في غرفته في الفندق. رأيناه ينهار، يضمر حجماً وقدرة في الانتظار غير النهائي، إلى أن أكد القلب لنا جميعاً أن إوسكيرا لن تصل أبداً إلى أي مكان، ولن تتوفر أية أخبار عن مصيرها. بقي مروض الوحوش يوصاً آخر معتكفاً في غرفته، وحيداً، وفي اليوم التالي، زاوني في الصحيفة ليقول لي إنه لا يمكن لمدة سنة من الممارك اليومية، أن تتلاشى وتختفي في يوم واحد. ولهذا فإنه سيذهب إلى ميامي، دون مال ودون أسرة، لكي يعيد بناء السيرك الفارق، قطعة قطعة، انطلاقاً من العدم. لقد أذهلني تصميمه على تجاوز المأساة، غرافته إلى بارانكيا لكي أودعه في الطائرة الذاهبة إلى فلوريدا. وقيل أن يصعد إلى الطائرة، شكرني على قراري بالاتضمام إلى سيركه، ووعدني بأن يبعث في طلبي قوراً أن يتوقّر لديه شيء ملموس. ودعني بعناق مستهتر، فهدت به من أعصاق وحي. كيف هو حب أسوده. ولم أعد أعرف أي شيء عنه منذ ذلك الحين.

أقلعت الطائرة إلى عيامي في الساعة العاشرة من اليوم نفسه الذي ظهر فيه تعليقي عن رازوري في الجريدة؛ يوم السادس عشر من أيلول ١٩٤٨، وكنت أستعد للعودة إلى كارتاخينا في مساء ذلك اليوم بالذات. عندما خطر لي زيارة إرناسيونال، الجريدة المسائية التي يكتب فيها خيرمان بارغاس وألفارو سيبيدا، صديقا أصدقائي في كارتاخينا. كانت مكاتب تحرير الجريدة في بناه متآكل في المدينة القديمة، تتألف من صالة طويلة فارغة، يقسمها حاجز شرفة خشبي. وكان في أقصى الصالة، رجل شاب أشقر، يرتدي قميصاً قصير الكمين، ويكتب على آلة كاتبة تدوي ملاسها كأنها المفرقات في الصالة المقفرة. اقترعت على رؤوس أصابعي تقريباً، مغزعاً من طفقة خشب الأرضية المكتب، وانتظرت عند الشرفة إلى أن نظر إليّ، وقال لي بجماع، وبصوت مديح محترف، متأسق:

- ماذا تريد؟

كان شعره قصيراً، ووجنتاه فاسيتين، ويدت لي عيناه الصافيتان والحادتان متضائقتين من المقاطعة. فاجتهد كيفما استطعت، وحرفاً حرفاً:

- أنا غارسيا ماركيز.

ولدى سماعي اسمي منطوقاً ب تلك القناعة، أدركت أنه يمكن لخبرمان بارغاس ألا يعرف من أكون، بالرغم من أن كثيرين في كارتاخينا، أخبروني بأنهم قد تحدثوا عني كثيراً مع أصدقائهم في بارانكيا منذ أن قرؤوا قصتي القصيرة الأولى. وكانت جريدة إرناسيونال قد نشرت تعليقياً متحمساً، كتبه خيرمان بارغاس الذي لا يتساهل مع المستجدات الأدبية. ولكن الحماس الذي قابلني به أكد لي أنه يعرف

جيداً من أكون، وأن عاطفته أكثر صدقاً مما قيل لي. بعد ساعات من ذلك، تعرفت على ألفونسو فونسيمايور وألفارو سيبيدا في مكتبة "موندو"، وتناولنا المقبلات معاً في مقهى كولومبيا. أما دون رامون فينيس، الحكيم الكتلاي الذي كنت أرغب، بلهفة ووهية شديتين، في التعرف إليه، فلم يحضر في مساء ذلك اليوم إلى جلسة الأصدقاء. في الساعة السادسة. عندما خرجنا من مقهى كولومبيا، بعد تناول خصصة كؤوس من الشراب، كنا نبدو كأننا أصدقاء يعرف بعضنا بعضاً منذ سنوات.

لقد كانت ليلة طويلة من البراءة. فالفارو، السائق العبقري الأكثر ثقة بنفسه، والأكثر حقراً، كلما زاد في الشراب، قام باجتياز طريق المناسبات التاريخية. ففي "لوس أندروس"، وهي حانة في الهواء الطلق، تحت أشجار لوز مزهر، لا يستقبلون فيها سوى مشجعين متعصبين لنادي جونيبور الرياضي. نشب نزاع بين عدة زبائن، أوشك أن ينتهي باللكمات. فحاولت تهدئتهم إلى أن تصحني ألفونسو بعدم التدخل، لأن رواد ذلك المكان هم دكاترة في كرة القدم، ويستأوون جداً من تدخل دعاة السلام. وهكذا أمضيت تلك الليلة في مدينة مختلفة تماماً، عن تلك التي عرفتتها من قبل، وعن التي عرفها أيواي في سنواتها الأولى، وعن مدينة سنوات الفقر التي عشناها مع أبي، وعن مدينة مدرسة سان خوسيه؛ إنها بارانكيا الأولى الخاصة بي، كبالغ، في قودوس مواخيرها.

كان المحي الصيني عبارة عن أربعة شوارع تضج بموسيقى معدنية تروح الأرض، إلا أن فيه كذلك، مشغطات خدمة منزلية تقارب الإحسان.

كان هناك مواخير أسرية يعكف أصحابها، مع نساءهم وأبنائهم، على خدمة زبائنهم المجرمين، وفق قواعد الأخلاق المسيحية وقدن دون مانويل أنطونيو كاريتيو. ويعمل بعضهم كخيلاً لكي توافق الفتيات المستجذات على مضاجعة الزبائن المعروفين بالدين. وكانت أقدمهن، مارتينا ألفارادو، تلك باباً سرياً وتعرفه إنسانية خاصة بالكهنة الثائنين. لم تكن هناك مشروبات مزيقة، ولا حسابات سكر، ولا مفاجآت أمراض وهرمة، وكانت آخر الحبيبات الفرنسيات اللواتي جئن خلال الحرب العالمية الأولى، معلمات وكنيات، يجلسن منذ الغروب، عند أبواب بيوتهن، تحت بقعة ضوء المصابيح الحمراء، بانتظار جيل ثالث من الزبائن، يؤمن بالقدرة الشبقية لواقباتهن الذكورية. وكانت هناك بيوت فيها صالونات مبردة لاجتماعات المتأمرين، ولتوفير ملاذ للعهد الهاربين من زوجاتهم.

كان ساحور "القط الأسود"، مع فناء رقص تحت عريشة نبات متسلقة، فرموس البحرية التجارية، منذ أن اشترته غواخيرية ذات بشرة برونزية تغطي بالإنكليزية، وتبسع من تحت الطاولة، مراهم هذيانسة للسيدات والسادة. وفي ليلة تاريخية من حولياته، لم يستطع ألفارو سيبدا وكينكي سكوبيل تحمل عنصرية اثني عشر بحاراً تروجياً، يقفون بالدور أمام حجرة المومس الزنجة الوحيدة، بينما هناك ست عشرة بيضاء يشخرن جالسات في الفناء، فتحداهن باللكمات. وخاض الاثنان مراحله، بالقبضات وحدها، ضد الاثني عشر بحاراً، وأجبرهم على الفرار بمساعدة المومسات البيضاوات اللواتي استبقطن سعيدهن، وأجهزن عليهم بالضرب بالكواشي. وأخيراً، في ترضية هذيانية، توجوا الزنجة، وهي عارية، ملكة على الترويج.

كانت هناك، خارج الحي الصيني، بيوت علية أو سرية أخرى، وجميعها على علاقة جيدة بالشرطة. أحدها كان فناء أشجار لوز كبيرة مزهرة في حي فقراء، فيه خيمة بائنة ومخدع بسريرين ضيقين للإيجار. أما بضاعته فكانت صغيرات مصابات بفقر الدم من الجوار، يكسبن مبلغ بيزو، دفعة واحدة من السكارى فاقدي الرشد. لقد اكتشف ألفارو سيبدا المكان مصادفة، في مساء يوم ضل فيه الطريق، خلال وابل مطر تشريفي، واضطر إلى اللجوء إلى الخيمة. فدعته صاحبة المحل لتناول البيرة، وعرضت عليه طفتين بدلاً من واحدة، مع الحق بأن يكرر ذلك ريثما يتوقف المطر. وقد واصل ألفارو دعوة الأصدقاء لتناول البيرة المتلجة تحت أشجار اللوز، ليس من أجل مضاجعة الفتيات الصغيرات، وإنما لتعليمهن القراءة. وقد تمكن من الحصول على منح لأكثرهن مواظبة، كي يدرسن في المدارس الرسمية. وصارت واحدة منهن ممرضة في مستشفى الإحسان، بعد عدة سنوات، وأهدي البيت إلى السيدة، وحمل بيت الصغيرات البائس ذاك حتى انقراضه الطبيعي، اسماً مفرياً: "بيت الفتيات اللواتي يضاجعن بدافع الجوع".

لم يخشوا ليلتي التاريخية الأولى في بارانكيا، سوى بيت الزنجة أوفيميا. بفنائها الإسستني الفسح المخصص للرقص، بين أشجار ثمر هندي وارقة، وبأكواخه التي تؤجر بخمسة بيزوات في الساعة، وموائده وكراسيه المظلية بألوان زاهية، تتمشى في ما بينها الكروانات على هواها. وكان أوفيميا الهائلة والمنوية، تستقبل بنفسها الزبائن وتنقيهم عند المدخل. وراء منضدة مكتب لا يوجد عليه سوى شيء واحد - لا تفسر له - هو مسامير ضخمة من مسامير الكنيسة. وكانت هي

نفسها تتولى اختيار الفتيات، وفقاً لحسن تربيتهن ومفاتيهن الطبيعية. وتختار كل واحدة من الفتيات لنفسها الاسم الذي يرونها. وبعضهن كن يفضلن الأسماء التي يطلقها عليهن أقارو سبيدا، والمستمدة من ولعه بالسيتا المكسيكية: إيرما الحبيشة، سوزانا الشقية، عذرا. منتصف الليل.

كان يبدو، من المستحيل، تبادل الحديث بوجود أوركسترا كاريبية متشعبة، بأعلى صوتها، بأغنيات المامبو الجديدة التي يغنيها بيرث برادو، وفرقة غناء بوليو، لنسيان الذكريات السيئة. ولكننا كنا جميعنا خيرا. في تبادل الحديث والنقاش، صارخين. وكان خيرمان وألفارو هما من أثارا موضوع النقاش في تلك الليلة. حول العناصر المشتركة في الرواية والريپورتاج الصحفي. وكانا متحمسين للريپورتاج الذي نشره لنتو، جون هيرسي حول قبيلة هيروشيما الذرية. أما أنا فكنْتُ أفضل "يوميات سنة الطاعون" كشهادة صحفية مباشرة، إلى أن أوضح لي الآخرون بأن دانييل ديفو، لم يكن قد تجاوز الخامسة أو السادسة من عمره، عند انتشار الطاعون في لندن. وهي الحالة التي استخدمها كنموذج.

وعبر هذا الطريق، وصلنا إلى لغز الكونت دي مونت كريستو. وكان الثلاثة قد خاضوا حوله مناقشات سابقة، باعتباره أحجية للروائيين: كيف تمكن ألكسندر دوماس من جعل بحار ساذج، وجاهل، وفقير، وسجين دون قضية، يتمكن من الهرب من قلعة محصنة، ويتحول إلى أغنى رجال عصره، وأكثرهم ثقافة؟ وكان الجواب هو أنه عندما دخل إدmond دانتي إلى قلعة إيف، كان قد تشكل فيه الأباتي فاريبا، وهو

الذي تقل إليه في السجن، خلاصة حكمته ومعارفه، وكشف له عما يتوجب عليه معرفته في حياته الجديدة: المكان الذي يخبأ فيه كنز خراقي، وطريقة الهرب، هذا يعني أن دوماس قد صاغ شخصيتين مختلفتين، ثم عمد بعد ذلك، إلى تبديل مصيريهما. وهكذا، عندما هرب دانتي، كان قد صار شخصية ضمن شخصية أخرى. وكان الشيء الوحيد المتبقي منه هو جسده، كراو جيد.

كان من الواضح، لدى خيرمان، أن دوماس تجعل شخصية يبحاراً، لكي يمكنه من الهرب من الكبس، والسباحة حتى الشاطئ، عندما يلقون به إلى البحر. أما الفونسو واسع المعرفة وأكثر الثلاثة تحبباً، فقد رد بأن كون الشخصية يبحاراً، لا يضمن ولا يعني أي شيء. لأن سبعين بالمئة من بحارة كريستوف كولومبس، ما كانوا يتقنون السباحة. لم يكن هناك ما يسعده أكثر من إلقاء ذرات القفل تلك، لكي يفقد الطيبخ أي طعم من الحذقة. وفي خضم حماسي للعبة الألغاز الأدبية تلك، رحت أحتسي دون حساب، كؤوساً من الروم مع الليمون، بينما كان الآخرون يتناولون قهقهة رشقات تذكير صغيرة. وكانت النتيجة التي توصل إليها الثلاثة هي أن موهبة دوماس، وتلاعبه بالمعطيات، في تلك الرواية، وربما في كل أعماله، هي أقرب إلى موهبة وتلاعب كاتب ريپورتاجات صحفية، منها إلى روائي.

وقد انضغ لي في النهاية، أن أحصد قناني المجدد يقرؤون كينغيدو وجينيس جويس، بالجد والمنفعة نفسيهما اللذين يقرؤون بهما كونان دويل. وأنهم يهتمون بحس دعاية لا بنضج. ويمكن لهم قضاء، ليالٍ بطولها، وهم يغنون أغنيات بوليو وفابيثاتو، أو يلقون عن ظهر قلب، ودون تعلم،

أفضل أشعار العصر الذهبي. وقد توصلنا، عبر سبل مختلفة، إلى الاتفاق على أن ذروة الشعر العالمي هي مقاطع دون خورخي مانريك في موت والده، تحولت الليلة إلى تسلية ممتعة، قوضت آخر الأحكام المسبقة التي يمكن لها أن تعكر صداقتي لتلك العصابة من المرضى الأدبيين. لقد أحسست معهم، ومع الروم، بأنني على أحسن حال؛ فأزحت عن نفسي قبوه الحياء. دعنتي سوزانا الشقية إلى الرقص، وكانت قد كسبت في شهر آذار من تلك السنة، مسابقة الرقص في الكرنفال، فأبعدوا الدجاج والكروانات من الحلبة، وأحاطوا بنا لتشجيعنا.

رقصنا مجموعة أغنيات المامبو الخامسة لداماسو بيريث برادو، واستولبت، بما تبقى لي من أنفاس، على المارাকা^(١) من مصطبة الفرقة الموسيقية التروبيكالية، وغنيت طوال أكثر من ساعة، أغنيات بوليو لغانبيل سانتوس، وأغوسطين لارا، بيتيبنيدو غرانادا، وكلما غنيت أكثر، أحسست بأنني أنتشي بنفحة حرية. لم أعرف قط، إذا ما كان الثلاثة فخورين بي أم خجلين مني. ولكنني، عندما رجعت إليهم على المائدة، استقبلوني كواحد منهم.

كان ألفارو قد بدأ، عندئذ، موضوعاً لم يناقشه الآخرون من قبل: السينما. فكان بالنسبة لي، أشبه بلقبة وفرتها العناية الإلهية، لأنني كنت أعتبر السينما على الدوام، فناً فرعياً يتغذى على المسرح أكثر من تغذيه على الرواية. أما ألفارو بالمقابل، فكان يرى فيه إلى حد ما، ما أراه أنا في الموسيقى؛ فناً مفيداً لكل الفنون الأخرى.

(١) - المارাকা: las maracas: آلة موسيقية كاريبية، تتألف من بنية قرع مجوفة تزود بقبض، وتوضع فيها أحجار.

عند الفجر، كان ألفارو يقود السيارة المترعة يكتب حديثة الصدور، وملاحق نيويورك تايمز الأدبية، وهو بين النائم والمخمور، مثل سائق تكسي محترف. أوصلنا خيرمان وألفونسو إلى بيتيهما، وأصر ألفارو على أن يأخذني إلى بيته، لكي أتعرف على مكتبته التي تغطي ثلاثة جدران، من حجرة النوم، حتى السقف. وقد أشار بسبابته إلى الكتب، بحركة دائرية كاملة، وقال لي:

- هؤلاء هم الكتاب الوحيدون في العالم الذين يعرفون كيف يكتبون.

كنت في حالة انتشاء، جعلتني أنسى ما كان يعنيه الجوع والنعاس بالأمن. كان الكحول لا يزال حياً في داخلي، كأنه حالة نعمة ربانية. أراني ألفارو كتبه المفضلة، بالإسبانية والإنكليزية. وكان يتحدث عن كل واحد منها بصوته الصديق، وشعره المشعث، وعينه الزائغتين أكثر من أي وقت آخر. تكلم عن أتورين وعن سارويان - وهما نقطتنا ضعف لديه - وعن آخرين، يعرف حيواتهم العامة والخاصة، حتى سراويلهم الداخلية. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها باسم فيرجينيا وولف، وكان هو يسميها العجوز وولف، مثل العجوز فوگنر. وقد استشاره ذهولي حتى بلغ حد الهذيان. تناول كدسة الكتب التي أراني إياها، على أنها كتبه المفضلة، وضعها بين يدي قائلاً:

- لا تكن أبله. خذها كلها، وعندما تنتهي من قراءتها ستذهب لإحضارها أيضاً تكون.

لقد كانت تلك الكتب بالنسبة لي، ثروة لا يمكن تصورها، فلم أنجزاً على المجازفة بأخذها. وأنا لا أملك حجرة صغيرة بائسة أضعها فيها.

واكتفى أخيراً بأن يهدي إلي الترجمة الإسبانية لرواية فيرجينيا وولف "السيدة دلووي"، مرفقاً ذلك بتبصرة لا تقبل الاستثناء، بأنني سأحفظها عن ظهر قلب.

كان الفجر يبرق، وكنت أرغب في العودة إلى كارتاخينا في أول حافلة. ولكن ألفارو أصر على أن أنام في السرير المجاور لسريره، وقال بأخر نفس لديه:

- يا للجنة! ابق للعيش هنا، وغداً تجد لك وظيفة رائعة.

استلقيت بلائسي على السرير، وعندئذ فقط أحسست، في جسدي، بالثقل الهائل لكوني حياً، وفعل هو الشيء نفسه، وبقينا نائمين حتى الحادية عشرة صباحاً. عندهما أقدمت أمه، سارا ساموديو المحبوبة والحجولة، على طرق الباب بقبضتها، معتقدة أن ابن حباتها الوحيد قد مات.

- لا تهتم بها يا معلم - قال لي ألفارو من أعماق حلمه، وأضاف: - إنها تقول الشيء نفسه صباح كل يوم. والخطير هو أن ذلك سيكون صحيحاً في أحد الأيام.

رجعت إلى كارتاخينا بمزاج شخص اكتشفه العالم. لم تعد جلسات ما بعد تناول الطعام، في بيت آل فرانكو مونيرا تقضي عندئذ، في قراءة أشعار العصر الذهبي الإسباني و"عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة" لنيرودا، وإنما في قراءة مقاطع من "السيدة دلووي" وهذيانات شخصيتها المؤثرة سيبيتيموس وارن ممث. لقد صرتُ شخصاً آخر، جزءاً وصعياً، إلى حد أن هيكور والمعلم ثابالا وأبا في ذلك، محاكاة واعية لألفارو سيبيدا. أما غوستافو إيبارا، برويته المشقة كقلب كاريبي، فقد

استمتع بقصتي عن ليلة بارانكيا، بينما هو يقدم لي جرعات أكثر فأكثر حكمة من الشعراء الإغريق، مع الاستثناء الواضح وغير المفسر أبداً، لأعمال يوربديس. كشف لي عن ملفيل: "مأثرة صوبي ديك"، والموعظة العظيمة حول بونسي، من خلال صيادي الحيتان المجريين في كل بحار العالم، تحت القبة الهائلة المشيدة من أضلاع الحيتان. وأعارتي البيت ذو الأسقف السبعة لنانانيال هوثورن الذي أثر بي مدى الحياة. وحاولنا معاً، التوصل إلى نظرية حول حتمية الحنين في تبه إولييسيس الأوديسي، وضرره في الأفاق، حيث ضعننا ولم نجد مخرجاً، ولكنني وجدته محلولاً بعد نصف قرن من ذلك. في نص لميلان غونديرا.

وإلى تلك المرحلة بالذات، يعود لقائي الوحيد مع الشاعر الكبير لويس كارلوس لوبيث، المشهور بلقب "الأعور"، والذي ابتكر طريقة مريحة ليكون ميتاً دون أن يموت، ومدفوناً دون أن يُدفن، وبلا خطابات تكريم قبل ذلك كله. كان يعيش في مركز المدينة التاريخي، في بيت تاريخي يقع في شارع تابلون التاريخي، حيث ولد ومات دون أن يزعم أحداً. كان يُرى مع قلة من الأصدقاء الدائمين، بينما كانت سمعته كشاعر كبير، تواصل التعاطف في حياته. مثلما تتعاطف أمجاد ما بعد الموت وحدها.

سمي الأعور، دون أن يكون كذلك، لأنه كان في الواقع، أحول وحسب. ولكن بطريقة مختلفة كذلك. ومن الصعب تمثيلها. وكان أخوه دومنغو لوبيث إسكوريانا، مدير جريدة الأونيفرسال، يرد بالجواب نفسه دوماً، على من يسأله عنه:

- إنه هناك.

الجواب يبدو مشهراً، ولكنه الحقيقة الوحيدة؛ فقد كان هناك حياً أكثر من أي شخص آخر، ولكن مع مزنة كونه حياً دون أن يُعرف الأمر كثيراً، متنبهاً إلى كل شيء ومصمماً على الذهاب للدفن بتقديمه، كان الكلام يدور عنته، كما عن أثر تاريخي، ولا سيما بين من لم يسمعه قط. ولهذا لم أحاول رؤيته منذ وصولي إلى كارتاخيتا، احتراماً لاحتيازاته كرجل خفي. كان عمره آنذاك ثمانية وستين عاماً، ولم يكن هناك من يخافه الشك في أنه أحد كبار شعراء اللغة، في كل العصور، مع أننا لم تكن كثيرين، نحن الذين نعرف قيسته وسبب تلك القيمة، ولم يكن من السهل، تصديق ذلك بسبب نوعية أشعاره الغريبة.

ثالثاً، ريوخاس هيراثو، وغوستافو إيبارا، وجميعنا، كنا نحفظ قصائد من شعره عن ظهر قلب، ومكنا نردها دوماً دون تفكير، بصورة عقوية وصائية، لكي ندخل الإشراف إلى أحاديثنا، لم يكن منعزل الطباع وإنما خجولاً. لا أتذكر أنني رأيت حتى الآن، صورة له، إذا كان له صورة ما، وإنما بعض رسوم الكاريكاتير السهلة التي كانت تنشر مكان الصورة، وأظن أننا نسبنا أنه ما يزال حياً، بسبب عدم رؤيته. وفي أحد الأيام، بينما كنت أنهى مقالتي اليومية، سمعت صرخة ثالاما المخنوقة: - يا للجنة، إنه الأعور!

رفعت بصري عن الآلة الكاتبة، ورأيت أغرب رجل شاهده في حياتي. أقصر بكثير مما كنا نتصوره، وشعر شديد البياض إلى حد يبدو معه أزرق، وشديد التشعث، بحيث يبدو مستعاراً، لم يكن أعور العين اليسرى، وإنما مثلما يشير لقبه، بصورة أفضل: أحول. وكان يرتدي ملابس، كما لو أنه في البيت؛ بنطال من قماش قطني رفيع وقاتم،

وقميص مخطط، يده اليمنى على مستوى الكتف، ومبسم فني مع سيجارة مشتعلة لا يدخنها، ويسقط رمادها دون نقضه، عندما لا يعود تقاسكه ممكناً.

مر، عَرَضاً، حتى مكتب أخيه، وخرج بعد ساعتين من ذلك، عندما لم يبق أحد سواي، أنا وثالاما في قاعة التحرير، تنتظر مصافحته. وقد مات يعد حوالي ستين من ذلك، والهزة المؤثرة التي خلفها في الموالين له، لم تكن بسبب الإحساس بالأسى لموته، وإنما اتبعائه. فني أثناء عرضه في التابوت، لم يكن يبدو ميتاً أكثر مما كان عليه. وهو حي.

في تلك الفترة نفسها، ألقى الكاتب الإسباني داماسو ألونسو وزوجته، الروائية إولاليا كالفارياتو، محاضرتين في مدرج الجامعة الكبير. المعلم ثالاما الذي لم يكن يروقه أن يزجج حياة الآخرين، تغلب في تلك المرة، على تحفظه، وطلب منهما لقاء، ورافقناه أنا وغوستافو إيبارا، وهكتور ريوخاس هيراثو. وقد حدث تفاعل فوري معهما. بقينا قرابة أربع ساعات في قاعة خاصة، في فندق الكاريبي، نتبادل الانطباعات حول رحلتنا الأولى إلى أميركا اللاتينية، وأحلامنا ككتاب جديد. قدم إليهما هكتور كتاب أشعار، وقدمت أنا إليهما نسخة مصورة من إحدى قصصي المنشورة في الأسبكتادور. وكان أكثر ما أثار اهتمامنا، نحن الإثنين، هو صراحة تحفظاتهما، لأنهما يستخدمانها كتأكيذ موارب للدمع.

في شهر أكتوبر، وجدت في الأونيفرسال، رسالة من غنشالو مايارينو يقول لي فيها، إنه ينتظرتني مع الشاعر ألفارو موتيس في قبلا توليبان، وهو نزل لا يتسنى في متجوع بوكاغراندي البحري، على

بعد أمتار قليلة من المكان الذي هبط فيه الطيار تشالز ليندبيرغ، قبل نحو عشرين سنة. وكان غوثالو - شرمكي في جلسات إلقاء الشعر الخاصة في الجامعة - محامياً ممارساً، وقد دعاه موتيس ليتعرف على البحر، بوصفه مدير العلاقات العامة في شركة LANSA، وهي شركة طيران محلية أسسها طياروها بالذات.

كان قد تصادف، مرة واحدة على الأقل، نشر قصائد لموتيس وقصص لي في ملحق "نهاية الأسبوع". وكان لقاءنا كافياً لأن نبدأ محادثة لم تنته، في أماكن لا حصر لها من العالم، طوال أكثر من نصف قرن. وكثيراً ما سألتنا أولادنا أولاً، ثم أحفادنا بعد ذلك، عم نتكلم بكل ذلك الشغف الضاري. وكنا نجيبهم بالتحقيقة: إننا نتكلم دوماً، في الموضوع نفسه.

صداقائي الإعجازية مع ناضجين في عالم الفنون والآداب، منعني الحصان لمواصلة العيش في تلك السنوات التي ما زلت أتذكرها، على أنها أكثر سنوات حياتي النباضاً وتقلباً، في العاشر من تموز، نُشرت آخر مقالة لي في زاوية نقطة وسطر جديد" في الأونيفرسال، بعد ثلاثة شهور عسيرة لم أستطع خلالها، تجاوز حاجزي كمتدرب مبتدئ، وفضلت قطعها والخروج بالميزة الوحيدة المتوفرة، ألا وهي الهرب قبل نوات الأوان. لذت بالإفلات من المسؤولية، في تعليقات الصفحة الافتتاحية، دون توقع، اللهم إلا عندما يتوجب تضمينها لسة شخصية. واطبت عليها بروتينية محض، حتى أيلول ١٩٥٠، حيث أنهيتها بمقالة رنانة عن إدغار آلان بو، ميزتها الوحيدة هي كونها الأسوأ.

كنت ألق، طوال تلك السنة، على أن يعلمني المعلم ثابالا أسرار

كتابة الريبورتاجات الصحفية. ولكنه، بطبعه الغامض، لم يحسم الأمر. غير أنه أبقاني مشوشاً بالغز طفلة في الثانية عشرة من عمرها، دفنت في دير سانتا كلارا، وتما شغرها بعد موتها، أكثر من مثني متر، خلال قرنين. لم أتصور مطلقاً أنني سأعود إلى الموضوع نفسه، بعد أربعين سنة، لأقصه في رواية رومانسية ذات تداخلات مشؤومة. ولكن تلك الأزمنة لم تكن أفضل أزمتي للتفكير. فقد كنت أعظم لأنفسه الأسباب، وأنغيب عن العمل دون تفسير، إلى أن يرسل المعلم ثابالا من بكبح جماحي وروضي. نجحت في الامتحانات النهائية لسنة الحقوق الثانية، بضربة حظ، مع حملي مادتين اثنتين، واستطعت التسجيل في السنة الثالثة. وقد انتشرت إشاعة تقول إنني توصلت إلى ذلك النجاح، بفعل ضغوط سياسية من جانب الجريدة. وكان على المدير أن يتدخل، عندما جرى اعتقالي لدى الخروج من السينما، ومعني دفتر تجنيد مزيف. وكانوا قد أدرجوا اسمي في قائمة التكليفي بمهمات أمن عام تأديبية. وبسبب غشاوتي السياسية في تلك الأيام، لم أعلم حتى بأن حالة الطوارئ قد قُضت من جديد، في البلاد، بسبب تردي الأمن العام. شددت الرقابة من قبضتها على الصحافة، وتدخلت الأجواء كما في أسوأ الأزمنة، وراحت شرطة سياسية معززة بمجرمين عاديين، تزرع الرعب في الأرياف. أجبر العنف الليبراليين على هجر أراضيهم ومنازلهم. أما مرشحهم المحتفل، داريو إتشانديا، وهو أستاذ أساتذة في القانون المدني، مشكك بالولادة وقسائ صعدن للكاتب الإغريق واللاتينيين، فأعلن عن تأييده لامتناع الليبراليين عن خوض الانتخابات. صار الطريق مفتوحاً لانتخاب لاوريانو غوميث الذي بدا أنه يحرك الحكومة، بخيوط غير مرئية، من نيويورك.

لم أكن أعني بوضوح، في ذلك الحين، أن تلك الأحداث العارضة المشؤومة، ليست مجرد مخاز مشيئة يقتربها الحافظون، وإنما هي أعراض تبدلات خبيثة ستطرأ على حياتنا، إلى أن خطر لي في واحدة من ليالينا الكثيرة في الكهف، أن أتباهى بمشيتي في عمل ما أرغب فيه. فأبقى العلم ثابلاً ملقعة الحساء معلقة في الفضاء، بعد أن كان على وشك تناولها، ونظر إليّ من فوق قوس نظارته، وأوقفني بهجاءاً:-
- قل لي يا غابرييل: وسط كل المسافات التي تقامسها، هل استطعت أن تلاحظ أن هذه البلاد آخذة بالدمار؟

أصاب السؤال الهدف. وبينما أنا مخمور حتى النخاع، استلقيت لأثام عند الفجر، على مقعد في شارع الشهداء، فحولني مطر توراني إلى ما يشبه حساء عظام. بقيت أسبوعين في المستشفى مصاباً بالتهاب رئوي مقاوم لأول المضادات الحيوية المعروفة. وكانت تتمتع بالسمعة السيئة في أنها تسبب أعراضاً جانبية مخيفة، مثل العجز المبكر. صرت أكثر شحوباً وأقرب إلى هيكل عظمي مما أنا عليه عادة، فاستدعاني أهواي إلى سوكري، من أجل ترميم صحتي من العمل المجهّد - حسب ما قالا في رسالتهما -. وقد مضت الأونيفرسال أبعد من ذلك، بنشرها تعليق وداع، كرّمتني فيه صحفياً وكاتباً بارعاً، وفي تعليق آخر اعتبرتنني فيه مؤلف رواية لم يكن لها وجود قط. وبمعنوان لم يكن لي: "لقد قطعنا الحشيش". والأغرب أن ذلك جاء في وقت لم تكن لدي فيه، أية نوايا للعودة إلى التورط في القصص التخيلي. الحقيقة أن من اخترع ذلك العنوان الغريب عني تماماً، هو هيكتور روخاس هيراثو، بسرعة الآلة الكاتبة، على أنه مساهمة أخرى من سيرر غيرا بالدیس،

وهو كاتب وهمي من أنقى السلالات الأمريكية اللاتينية، اختلقه هيكتور نفسه لإغناء مناظراتنا. كان قد نشر في الأونيفرسال خبراً عن وصوله إلى كارتاخينا. وكتبت أنا بحبة موجهة إليه في زاويتي "نقطة وسطر جديد" على أمل نقض الغبار عن الوعي الهاجع لرواية قارية حقيقية. وعلى كل حال، فقد جرت الإشارة بعد سنوات، في مقالة حول كشيبي، لا أدري أين أو لأي سبب، إلى الرواية الوهمية ذات العنوان الجميل الذي أبدعه هيكتور، باعتبارها أحد الأعمال الأساسية في الأدب الجديد.

الجو الذي وجدته آنذاك في سوكري، كان ملائماً جداً لأفكاري في تلك الأيام. كتبت إلي خيرمان بارغاس، طالباً منه أن يرسلوا لي كتباً. الكثير من الكتب.. أكبر عدد يمكن منها، لأغرق في أعمال باروزة، خلال فترة نقاهة مقدر لها أن تستمر ستة شهور. كانت القرية في حالة فيضان. وكان أبي قد تخلص من عيودية الصيدلية، وشيد عند مدخل القرية، بيتاً يتسع للأنسا. وكنا قد صرنا أحد عشر ابناً منذ مولد إليخيو، قبل ستة عشر شهراً من ذلك، بيت كبير يغمره الضوء، مع شرفة لاستقبال الزوار، مفتوحة على تسعات كانون الثاني. كانت في البيت، ست غرف نوم جيدة التهوية، مع سرير لكل واحد منا، وليس كل اثنين في سرير، كما هو الحال في السابق. وكانت هناك حلقات لتعليق أراجيح النوم على مستويات متعددة، حتى في المرات. أما الفناء غير المسيج، فبمستد حتى الجبل، وفيه أشجار مشمرة متروكة تحت تصرف العسوم، وحيوانات لنا وللآخرين، تشجول في الحجرات. ذلك أن أمي التي كانت نحن إلى أفنية طفولتها في بارانكيا وآراكاتاكا، تعاملت مع

البيت الجديد، كما لو أنه مؤرعة، فيه دجاج ويط دون فن، وخنازير
متهتكة تنسل إلى المطبخ لتأكل الأطعمة المعدة للغدا. وكان لا يزال
بالإمكان، استغلال فصول الصيف للنوم والنواخذ مفتوحة، مع مهمة
الربو التي يصدرها الدجاج من فوق المشايخ، ورائحة ثمار الفوانبان
الناضجة التي تسقط عن الأشجار عند الفجر، وتتفرز بفرقة آنية
وقوية، "يبدو كأنها أطفال"، هذا ما كانت تقول أمي لدى سماعها. أما
أبي، فقد قصر الاستشارات، في الفترة الصباحية، على قلة من المؤمنين
بالطب التجانسي، وواصل قراءة آية ورقة مطبوعة تصل إليه، وهو
مستلق في أرجوحة نوم يعلقها بين شجرتين. وأصيب بعدوى حمى
التسلية باللياردو لتحمل كتابة الغروب. وكان قد تخلى كذلك، عن
ارتداء ملابس القطنية البيضاء وريطة العنق، وصار يحضي في الشارع،
مثملا لم أراه من قبل، بفستان شياوية قصيرة الأكمام.

كانت الجدة ترانكيليتا إغوران قد ماتت قبل شهرين، عمياء وخرقة.
وقد أصلت في صبحو الاحتضار، الوعظ، بصوتها المشرق ونطقها
السليم، معلنة أسرار الأسرة. وكان موضوعها الأبدى. حتى النفس
الأخير، هو راتب الجد التقاعدي. هبأ أبي الجثة بعيدان الند الحافظة،
وغطها بالكلس داخل التابوت، من أجل تفسخ هادئ، لقد كانت لويسا
سنتياغا تقدر على الدوام، شغف أمها بالورود الحمراء، فغرس لها
حديقة منها في أقصى القناء، كيلا تفتقد أبدأ، وهي في قبرها. وقد
حققت تلك الورود بها، وأنعأ في تفتحها. حتى إن الوقت لم يعد يكفي
لإرضاء الغرياء الذين يأتون من بعيد، متلفين لعرقه إذا ما كانت كل
تلك الأزهار الباهرة، من شؤون الرب أم الشيطان.

تلك التبدلات في حياتي وفي أسلوب، في العيش، كانت تستجيب
للتبدلات التي طرأت على أسرتي، قفي كل زيارة، تبدو لي الأسرة
مختلفة، بفعل إصلاحات وتحولات أبوي، وبسبب الأخوة الذين يولدون
ويكبرون متشابهين جداً، إلى حد يسهل معه الخلط بينهم، أكثر من التعرف
عليهم، فأخي خيمي، وكان في العاشرة من عمره، هو أكثر من تأخر في
مفارقة الحضانة الأمومي، بسبب وضعه كخديج. ولم تكذ أمي تتوقف عن
إرضاعه، حتى ولد غيرناندو (نانتشي). وبعد ثلاث سنوات من ذلك، ولد
ألفريدو ريكاردو (كوكي). وسنة ونصف، بعدها، إليخيو (بيو)، الأخير.
وكان خلال إجازتي تلك، قد بدأ باكتشاف معجزة الحيو.

وكنا نحصى كذلك، أبناء أمي قبل وبعد زواجه: كارمن روسا، في
سان ماركوس، وأبيلاودو اللذان كانا يأتيان لقضاء فترات في سوغري؛
وخيرمان هاناي (إيمي) الذي تبتله أمي، كما لو كان ابنها، وسط رضى
الأخوة. وأخيراً أنطونيو ماريلا كلاريت (تونيو) الذي تربى في كف أمه
في سينثي، وكان يزورنا بكثرة، خمسة عشر ابناً في المحصلة، نأكل
كأننا ثلاثون، عندنا يكون هناك ما يؤكل، ونحن نجلس حيثما نستطيع.
الروايات التي صاغها أختي الكبار عن تلك السنوات، تقدم فكرة
شاملة عما كان عليه البيت الذي لم تكن تنتهي فيه تربية ابن إلا ويأتي
آخر. لقد كانت أمي نفسها واعية لذنبها، وكانت تتوسل إلى بناتها لكي
يتولين أمر الصغار. وقد كانت هارغوت قوت رعباً عندما تكتشف أن
أمها حبلى من جديد، لأنها تعرف أن الأم لن تجد، وحدها، الوقت
الكافي لتربيتهم جميعاً. ولهذا وجت أمها بجديدة مطلقة، قبل أن تذهب
إلى المدرسة الداخلية في مونتيريا، بأن يكون الأخ التالي هو الأخير.

وقد وعدتها أمي بذلك، كالمعادة، ولو لمجرد إرضائها. لأنها كانت واثقة من أن الرب، بحكمته الواسعة، سيحل المشكلة بأفضل طريقة ممكنة.

كانت الوجبات على المائدة كارثية. لأنه لم تكن هناك طريقة لجمع الكل معاً. فكانت أمي وأختي الكبيرتان تقدمان الطعام كلما حضر الآخرون، إلا أنه لم يكن مستغرباً أن يحضر أحدهم متأخراً بعد البدء بتناول الحلوى، ليطالب بوجبه. وخلال الليل يأخذ الصغار بالانتقال إلى سرير الوالدين، لأنهم لا يستطيعون النوم بسبب البرد أو الحر، بسبب ألم الأضراس أو الخوف من الموتى. بدافع حب الأبوين أو الغيرة من الآخرين. ويطلع الصباح عليهم جميعاً، متكومين في السرير الزوجي. وإذا لم يولد أحد بعد إليخيو، فإن الفضل في ذلك يعود إلى مارغوت التي فرضت سلطتها، بعد عودتها من المدرسة الداخلية، وجعلت أمي تنجز وعدها بعدم إلحاج مزيد من الأبناء.

لسوء الحظ، أن الواقع وجد متسعاً من الوقت ليفرض خطأ أخرى على شقيقتي الكبيرتين، فبقينا عازبتين مدى الحياة. فقد انضمت عابداً، كما في الروايات الوردية، إلى دير، مصدرة على تفحصها حكماً بالمؤبد، ولكنها تخلصت منه بعد اثنتين وعشرين سنة، بكل قانونية. وعندها لم نجد رافائيل نفسه، أو أي آخر سواء في تناول يدها. أما مارغوت، بطبعها الصلب، فقدت رافائيلها بسبب خطأ من كليهما. وخلاقاً لهذه السوابق الحزينة، تزوجت رينا من أول رجل أعجبها، وعاشت سعيدة مع خمسة أبناء، وتسعة أحفاد. أما الأختان الأخريان - ليخيا وإي - فتزوجتا عن أرادت، بعد أن تعب الأبوان من الصراع ضد الحياة الواقعية.

كانت محروب أسرتي تبدو مكانها جزء من الأزمة التي تعيشها البلاد، يفعل الندام البقيين الاقتصادي، والتزف في الغلب السياسي الذي وصل إلى سوكري، مثل موسم مشؤوم، ودخل البيت على رؤوس أصابعه، وإنما بخطوات واثقة. كنا قد أكلنا آنذاك الاضياطي الضئيل، وصرنا فقراء جداً مثلما كنا عليه في بارانكيا، قبل الرحيل إلى سوكري. ولكن في مي لم تشعر بالقلق، ليقينها المجرب بأن كل طفل يأتي إلى الدنيا وخيزه تحت إبطه. كان هذا هو وضع البيت، عندما أتيت من كارتاخينا، للتقاهة من الانتهاب الرئوي. غير أن الأسرة كانت قد توافقات، منذ زمن، كيلا يظهر عليها ذلك.

الموضوع الذي كان يشغل الجميع، في القرية، هو العلاقة المزعومة بين صديقنا كايثانو خينتيلي ومعلمة مدرسة، في دسكرة تشابارال المجاورة؛ وهي فتاة جميلة، وضعها الاجتماعي مختلف عن وضعه. إلا أنها جديّة جداً، ومن أسرة محترمة. لم يكن ذلك غريباً؛ فقد كان كايثانو صاحب غراميات متقلبة على الدوام، ليس في سوكري وحدها، وإنما كذلك، في كارتاخينا، حيث درس الثانوية وبدأ بدراسة الطب. ولكن، لم يكن يُعرف أن له خطيبة معينة في سوكري. ولا رقبقات مفضلات في حفلات الرقص.

في إحدى الليالي رأينا آتياً من مزرعته، على متن أفضل جواد لديه. وكانت المعلمة تجلس على السرج، ممسكة الأعنة في قبضتها. وهو على ردف الحصان، محتضناً خصرها. لم تفاجأ بأي الحميمية التي بلغاها، وإنما بجراتهما في الدخول من ممر الساحة الرئيسية، في ساعة الحركة القصوى. وفي قرية سيئة الظنون، وقد أوضح كايثانو لمن رغب

في سماعه، بأنه وجدها عند باب مدرستها، بانتظار أحد يحسن إليها
بإيصالها إلى القرية. في تلك الساعة من الليل، فنيته ما زاحاً بأنه
نسبيقت، في صباح أحد الأيام، ليجد منشوراً على باب بيته، فهر
كتفيه بحركة تميز بها، وأطلق دغابته المفضلة:
- لا يتجرؤون على عمل ذلك مع الأغنياء.

بالفعل، كانت موضة المنشورات قد اختفت فجأة، مثلما جاءت.
وشاع الظن بأنها، ربما كانت عارضاً آخر، على سوء المزاج السياسي
الذي يعصف بالبلاد. وعادت الطمأنينة إلى أحلام من كانوا يخشونها.
ومع ذلك، فقد أحسست بعد أيام قليلة من مجيئي، بأن تغيراً قد طرأ
نحاهي في مزاج بعض محازبي أبي، من اعتباروني كاتب مقالات معادية
للمحكومة المحافظة، نُشرت في جريدة الأوتيفرسال. لم يكن ذلك
صحيحاً. وإذا ما اضطرت، في بعض الأحيان، إلى كتابة تعليقات
سياسية، فإنها كانت تنشر دوماً، دون توقيع، ولتحت مسؤولية الإدارة.
منذ أن تقرر إلغاء السؤال عما حدث في كارمن دي بوليفار. لقد كانت
المقالات التي تحمل توقيع، في عمودي اليوم، تكشف دون شك،
عن موقف واضح، حيال حالة البلاد المتشردية، وعار العنف والجور، إنفا
دون التزامات حزبية، وعملياً، لم أكن آنذاك، ولا في أي وقت آخر،
عضواً في أي حزب. أثارت تلك الاتهامات ذعر أهلي، وبدأت أمي
بإشغال الشموع للقديسين، خاصة عندما أتأخر، خارج البيت. فأحسست
لأول مرة بأن جواً من التعسف يحيط بي، وقررت عدم الخروج من البيت،
إلا في أضيق الحدود.

وكان أن حضر إلى عيادة أبي، في تلك الآونة، رجل مشير للدهشة.

يبدو وكأنه شيخ نفسه. له بشرة شفافة يظهر من خلالها، لون عظامه،
ويطن متنفخ ومشدود مثل طبل. وكانت جملة واحدة قالها كافية لأن
نحوه إلى شخص لا يمكنني نسيانه، مطلقاً، وإلى الأبد:
- إنني آت يا دكتور لكي تخرج قرداً يجعلوه ينمو في بطني.

وبعد أن قسام أبي بفحصه، أدرك أن تلك الحالة ليست ضمن
إمكانياته العلمية؛ فأرسله إلى زميل جراح، لم يجد القرد الذي ظن
المرضى أنه موجود، بل وجد مسخاً بلا شكل، غير أنه حي بذاته. ومع
ذلك، فإن ما أثار اهتمامي ليس البهيمه التي في البطن، وإنما قصة
المرضى عن عالم لاسيربي السحري، وهو بلد أسطوري ضمن حدود
سوكري نفسها، لا يمكن الوصول إليه إلا عبر مخاضات موحلة، بتساعد
منها البخار، حيث أشد الأمور عادية هو الانتقام، من إهانة، بسحر
حيث، مثل ذاك الذي ولد مخلوقاً شيطانياً، في البطن.

وسكان لاسيربي هم كاثوليك مؤمنون. غير أنهم يعيشون الذين
على طريقته، وبشركات سحرية خاصة لكل مناسبة. وهم يؤمنون
بالرب، وبالعدراء، وبالثالوث المقدس، ولكنهم يارسون عبادتهم من خلال
أي شيء يرون أنه يكشف عن قدرات إلهية. وما يمكن أن يكون غير
معقول في نظرهم. هو أن تبلغ عقلانية من فت في بطنه دابة شيطانية،
حد اللجوء إلى الاستعانة بهرطقة جراح.

وسرعان ما فوجئت بأن الجميع، في سوكري، يعلمون بوجود
لاسيربي، كحقيقة واقعة. ومشكلتها الوحيدة هي أن الوصول إليها يتم
عبر كل أصناف العقبات الجغرافية والذهنية. ثم اكتشفت في اللحظة
الأخيرة، وبالمصادفة، أن المعلم الطليع في موضوع لاسيربي، هو أنخل

كاسيخ الذي كنت قد رأيته آخر مرة، يغني ضمن فرقة موسيقية، في الحي الصيني، في بارانكا بيرميخا، في رحلتي الثانية أو الثالثة، عبر نهر مجدلينا. وجدته أكثر تعقلاً مما كان عليه في تلك المرة، ولديه قصة مهلوسة عن رحلاته العديدة إلى لاسيربي. وقد عرفت عنده كل ما يمكن معرفته عن المركيزيتا، مالكة وسيدة تلك المملكة الفسيحة، التي تعرف تربيلات سرية من أجل فعل الخير والشر، أو من أجل إنهاض محتضر من فراشه، دون معرفة أي شيء عنه سوى وصف جسده، والمكان الدقيق الذي هو فيه، أو من أجل إرسال أفعى، عبر المستنقعات، تسبب الموت لعدو، بعد ستة أيام.

الشيء الوحيد المحبوب عنها، هو بحث الموتى، لأنها قدرة تخص الرب وحده. وقد عاشت كل السنوات التي شاءتها. ويعتقد أنها بلغت مئتين وثلاثاً وثلاثين سنة، ولكن دون أن تهرم يوماً واحداً، بعد بلوغها السادسة والستين. وقبل موتها، جمعت قطعانها الحراقية، وجعلتها تدور طوال يومين وليلتين، حول بيتها، إلى أن تشكل مستنقع لاسيربي، وهو بحر بلا حدود، تغطيه سحابة من شقائق النعمان الفوسفورية. ويقال إن في منتصفها، شجرة تحمل ثمار يقطين من الذهب، ويربط إلى جذعها زورق، يندفع مبحراً بفردته في الثاني من تشرين الثاني، كل عام، وهو يوم الموتى، تحرسه تماسيح بيضاء، وحيات ذات جلاجل ذهبية، حتى الضفة الأخرى، حيث دفنت المركيزيتا ثورتها الهائلة غير المحدودة. منذ أن روى لي أنخل كاسيخ هذه القصة الخيالية، بدأت أختنق باللهفة لزيارة فردوس لاسيربي الجانح في دنيا الواقع. جهزنا كل شيء: خبولاً محصنة بتربيلات معكوسة، زوارق غير مرئية، وخبراء ساحرين، وكل ما هو ضروري لكتابة تحقيق صحفي عن واقع خارق.

ومع ذلك، فقد بقيت البغال مسرحة تنتظر: إذ إن تقاهتي البطيئة من الالتصاف الرئوي، وسخريات الرفاق في حفلات الرقص، في الساحة، وعبر الأصدقاء الكبار المرعبة، اضطررتني إلى تأجيل الرحلة حتى مرعد تال لم يحن قط. ومع ذلك، فإنني أتذكر ذلك الآن، كحدث حسن الطالع، لأنني باقتقاد المركيزيتا الخيالية، انغمست منذ اليوم التالي، بعمق، في كتابة روايتي الأولى، وهي التي لم يبق لي منها سوى العنوان: "البيت".

كانت الرواية تطمح إلى أن تكون دراما من حرب الألف يوم، في منطقة الكاريبي الكولومبية. وقد تحدثت عنها مع مانويل زاباتا أوليفيا، خلال زيارة سابقة إلى كارتاخينا. ففي تلك المناسبة، ودون أن تكون للأمر أي علاقة بمشروعي، أهديت إلي كتاباً كتبه أبوه عن محارب قديم من خاضوا تلك الحرب، فذكرتني صوره المطبوعة على الغلاف، بالسترة شبه العسكرية والشارب المحترق بالبارود، بجدي، بطريقة ما. لقد نسيت اسمه الأول. أما كنيته فظلت معي إلى أبد الأبدن: بونديا. ولهذا فكرت في كتابة رواية بعنوان البيت، عن ملحمة أسرة، يمكن لها أن تتضمن الكثير من ملامح أسرتنا، خلال حرب الكولونيل نيكولاس ماركيز القاحلة.

كان العنوان يستند إلى التية في عدم خروج الأحداث مطلقاً، خارج البيت. كتبت عدة مطالع، ومخططات لشخصيات جزئية كنت أضع لها أسماءاً الأسرية. وقد استخدمتها، فيما بعد، في كتب أخرى. إنني متحمس للضعف تجاه جملة، تنتهي كلمتان متقاربان فيها، بالقافية نفسها، حتى ولو كانت قافية صوتية. وأفضل عدم نشرها ما لم أتمكن

من إيجاد حل لها. ولهذا السبب، كنت على وشك التخلي، فني مرأت كثيرة، عن كنية بوينديا، بسبب قافيتها التي لا مهرب منها مع صيغة الفعل الماضي الناقص. ومع ذلك، فقد لخص القلب نفسه علي، لأنني كنت قد توصلت إلى تكوين هوية مقنعة له.

لقد كنت مستغرقاً في هذا الأمر، عندما طلع الصباح في البيت، في سوكري، على صندوق خشبي بلا أي كتابة أو إشارة. وقد استلمته أختي مارغوت دون أن تدري من، مفتتحة بأنه يقبلة متأخرة من الصيدلية المباحة. وقد ظننت أنا الشيء نفسه، وتناولت الفطور مع الأسرة، وقلبي مستقر في مكانه. وأوضح أبي بأنه لم يفتح الصندوق لأنه فكر في أنه بقيمة أمتعتي، دون أن يذكر أنه لم يبق لدي بقية من أي شيء في هذا العالم. وعندئذ قرأ أخي غوستافو، وكان لديه، وهو في الثالثة عشرة، ما يكفي من الخبرة العملية لتسمير أي شيء، أو انتزاع المسامير منه، أن يفتح الصندوق دون الحصول على إذن بذلك. وقد سمعنا بعد دقائق، صرخته:

- إنها كتب!

قفز قلبي، قبلي، وكانت بالفعل كتباً دون أي أثر يدل على المرسل، معلبة بيد خبيرة حتى حافة الصندوق، ومعها رسالة يصعب حل رموزها، بسبب خطها الهيروغليفي وغنائية خيرمان بارغاس المحكمة: "ها قد وصلت هذه اللعنة يا معلم، فلنر إن كنت ستتعلم أخيراً". وكانت تحمل كذلك، توقيع ألفونسو كوبيناور، وخرشة عرفت أنها بخط دون رامون فينيس الذي لم أكن قد تعرفت عليه بعد. والشيء الوحيد الذي ينصحونني به هو عدم الإقدام على اقتراء أي انتحال يكون ملحوظاً

جداً. وكانت هناك، داخل كتاب لفوكر، ملاحظة من ألفارو سيبيدا، بخطه العويص، وقد كتبت فوق ذلك بأقصى سرعة: يخبرني فيها أنه سيسافر في الأسبوع التالي مدة ستة، لاتباع دورة خاصة في مدرسة الصحافة بجامعة كولومبيا في نيويورك.

كان أول ما فعلته هو عرض الكتب على منضدة غرفة الطعام، بينما كانت أمي ترقع بقايا الفطور، وكان عليها أن تتسلح بمكنسة، لإبعاد أبنائها الصغار الذين آوآوا قص الصور بقص لتقليم الأشجار، والكلاب الشاردة التي راحت تتشم الكتب، كأنها شيء، بؤكل. وأنا أيضاً، كنت أشمها، مثلما أفعل دوماً بكل كتاب جديد. تصفحتها جميعها، دون تعيين، لأقرأ منها بانتباه فقرات متفرقة، بدلت مكاني ثلاث أو أربع مرات، في الليل، لأنني لم أكن أجده الراحة أو لأن ضوء ممر الفناء الشاحب كان ينفد. واستيقظت، وقد أصبت بالتواء في ظهري، ودون أن تكون قد تشكلت لدي أدنى فكرة بعد، عن الفائدة التي يمكن لي أن أجنيها من تلك المعجزة.

كانت ثلاثة وعشرين عملاً مميّزاً لمؤلفين معاصرين، كلها بالاسبانية، ومختارة بنية واضحة، وهي أن تُقرأ من أجل هدف وحيد: تعلم الكتابة، وبينها ترجمات حديثة جداً مثل "الصخب والعنف" لوليم فوكر، لقد صار من المستحيل، بعد مرور خمسين سنة، أن أتذكر القائمة الكاملة، كما أن الأصدقاء الأيديين الثلاثة الذين يعرفونها، لم يعودوا هنا ليتذكروها. كنت قد قرأت اثنين منها فقط: السيدة دلووي للسيدة وولف، و"مباراة شعرية" لألدوس هاكسلي. والكتب التي أتذكرها أكثر من سواها، هي أعمال لوليم فوكر: البيت الريفي، والصخب والعنف،

وبينما أرقد محتضرة، والتخللات المتوحشات. وكذلك مانهاتن ترانسفير، وربما كتاب آخر لجون دوس باسوس؛ وأورلاند لفيرجيتيا وولف؛ وفتران ورجال، وعناقيد الغضب لجون شاييتيك، وصورة جيني لروبرت ناثان، وطريق التبغ لإرسكين كالدويل. وبين العناوين التي لا أتذكرها عن مسافة نصف قرن، كان هناك، على الأقل، كتاب لهيمنغواي، ربما هو قصص قصيرة، لأنها كانت أكثر أعماله محطاً لإعجاب أصدقاء بارانكيا الثلاثة. وكتاب آخر لخورخي لويس بورخيس، لا شك في أنه كتاب قصص قصيرة أيضاً. وربما كتاب آخر لفيليبينو هيرنانديث، القصص الأرجواني الوحيد الذي كان أصدقائي قد اكتشفوه للتو، بإعجاب، قرأتها جميعها في الشهر التالية. بعضها بصورة جيدة وأخرى أقل من ذلك. ويفضلها استطعت الخروج من الليمبوس الإبداعي الذي كنت عالماً فيه.

مُتعت من التدخين، بسبب النزلة الصدرية. ولكنني كنت أذخن في الحمام، كما لو أنني أخشيت من نفسي. لاحظ الطبيب ذلك وكلمني بجدية. ولكنني لم أفكر من الانصياع له. وعندما كنت في سوكري، بينما أنا أحاول أن أقرأ، دون هوادة، الكتب التي تلقيتها، كنت أشعل سيجارة من عقب أخرى، إلى أن لم أعد قادراً على المزيد. وكلما حاولت ترك التدخين، كنت أذخن أكثر. وصلت إلى تدخين أربع علب سجائر في اليوم. وكنت أقطع وجبات الطعام لكي أذخن، وأحرق صلاتات السوبر لأنني أغفوت، والسيجارة مشتعلة. وكان الخوف من الموت، يوقظني في أي ساعة من ساعات الليل، فلا أستطيع التغلب عليه إلا بمزيد من التدخين، إلى أن قررت أنني أفضل الموت على ترك التدخين.

بعد أكثر من عشرين سنة من ذلك، وكنت قد تزوجت وصار لي ابنان، واصلت التدخين. وحين رأى طبيب رتني على الشاشة، قال لي مذعوراً إنني لن أفكر من التنفس، بعد سنتين أو ثلاث سنوات. أصابني الرعب، وبلغ بي الأمر حد البقاء جالساً لساعات وساعات دون أن أفعل شيئاً آخر، لأنني لم أعد أستطيع القراءة، أو الاستماع إلى الموسيقى، أو تبادل الحديث مع الأصدقاء، أو الأعداء، دون تدخين. وفي إحدى الليالي، خلال عشاء عارض في برشلونة، كان طبيب نفساني صديق يشرح لآخرين أنه، ربما كان التدخين هو الإدمان الذي يصعب التخلص منه أكثر من سواه. فخرجت على سؤاله عن السبب العميق وراء ذلك، فكان رده تبسيطاً يبعث على القشعريرة:

- لأن ترك التدخين سيكون بالنسبة لك، أشبه بقتل كائن عزيز. ما حدث كان أشبه بتفجر يصيرة. لم أعرف السبب قط، ولم أشأ معرفته. لكنني سحقت، في المفظة، السيجارة التي كنت قد أشعلتها للتو، ولم أعد للتدخين بعدها، بلا جزع ولا أسف، طوال ما تبقى من حياتي. الإدمان الآخر، لم يكن أقل إلحاحاً. في مساء أحد الأيام، دخلت إحدى خادمات البيت المجاور. وبعد أن تكلمت إلى الجميع، جاءت إلى الشرفة. وباحترام كبير، طليت مني الإذن بالتكلم معي. لم أقطع القراءة إلى أن سألتني:

- هل تتذكر ماتيلدي؟

لم أتذكر من تعني. لكنها لم تصدقني.

- لا تتظاهر بالغياء يا سيد غاييتو - قالت لي ذلك، بتفخيم

واش. وأضافت: - إنها نيغرو-ما-تا.

والحقيقة أن تيغروماتا كانت حينئذ امرأة طليقة، لديها ابن من الشرطي الميت. وكانت تعيش بمفردها، مع أمها وآخرين من أسرتها في البيت نفسه. إنفا في حجرة منعزلة، لها مخرج خاص يؤدي إلى طرف المقبرة. ذهبت لرؤيتها، وألح عليّ اللقاء المتجدد مدة تزيد على الشهر. وكنت في كل مرة، أؤجل العودة إلى كارتاخينا، وأريد البقاء في سوكري إلى الأبد. حتى كان فجر يوم فاجأتني فيه، وأنا في بيتها، عاصفة رعود وبروق، مثل ليلة الروايت الروسي. حاولت الاحتصاء تحت أفاريز البيوت، ولكنني عندما لم أعد أستطع ذلك، اندفعت إلى منتصف الشارع، حيث بلغ الماء ركبتني. وقد حالطني الحظ بوجود أمي وحدها في المطبخ، فأخذتني إلى غرفة النوم، عبر الحديقة، كيلا يعلم والذي بالأمر. وما إن انتهت من مساعدتي على خلع القميص المبلل، حتى أبعدته بيد ذراعها بعيداً، وهي تمسك به بالسباية والإيهام، وألقت به إلى الركن بحركة قرف، وقالت:

- كنت مع الساقطة.

أصابني الجمود.

- وكيف تعرفين!

فألت بهدوء أعصاب:

- لأنها الرائحة نفسها التي جثت بها في تلك المرة. تحسن الحظ أن الرجل قد مات.

فاجأتني إظهارها تلك القسوة، لأول مرة في حياتها. ولا بد أنها لاحظت ذلك، لأنها عززت قولها، دون تفكير في الأمر:

- إنها الميتة الوحيدة التي أسعدتني. عندما علمت بها.

- وكيف عرفت من تكون!

فتنهدت:

- أي بني، الرب يخبرني بكل ما له علاقة بكم.

سأعذتني أخيراً على خلع البنطال اللبل، وألقت به إلى الركن، مع بقية الملابس. "جميعكم ستكونون مثل أبيكم"، قالت لي ذلك فجأة بهمسة عميقة، بينما هي تمسح ظهرها بمنشفة من القنب. وانتهت إلى القول من روحها:

- عسى أن يجعلكم الرب أزواجاً صالحين مثله.

لا بد أن الرعاية الدراماتيكية التي أخضعتني لها أمي قد أعطت أكلها في محاشي عودة الانتهاب الرومي. إلى أن انتهت إلى أنها كانت تعقد تلك الرعاية دون سبب، لتمنعي من العودة إلى فراش رعود وبروق تيغراماتا. فلم أعد إلى رؤيتها قط.

رجعت إلى كارتاخينا مستعيداً عافيتي وسعيداً، وحاملاً خبر أنني أكتب "البيت". وكنت أحدث عنها، كما لو أنها عمل ناجز. منذ أن كنت في قصليها الأولى. استقبلني ثابالا وهيكتور مثلما يستقبلان ابناً ضالاً. ويبدو أن أساتذتي الطبيين في الجامعة، قد استعملوا لتقبلي على ما أنا عليه. وواصلت في الوقت نفسه كتابة تعليقات عارضة جيداً، كانوا يدفعون مقابلها بالقطعة في الأوتوغراف. أما مسيرتي كقصاص، فتواصلت بالقليل الذي استطعت كتابته، من أجل إرضاء المعلم ثابالا تقريباً: "حوار المرأة" و"مرارة المشرقيين الثلاثة"، نشرتا في الاسبيكادور. مع أنه كان يلحظ فيهما تحقُّق من البلاغة الابتدائية التي تبدت في القصص الأربع السابقة، إلا أنني لم أستطع الخروج من المستنقع.

كانت كارتاخينا قد أصيبت آنذاك، بعدوى التوتر السياسي الذي يعم بقية أرجاء البلاد. وكان لا بد من اعتبار ذلك ثبوتاً شاملاً، وإشارة إلى أن شيئاً خطيراً سيحدث. في أواخر تلك السنة، أعلن الليبراليون مقاطعتهم التامة للانتخابات، بسبب وحشية الاضطهاد السياسي. لكنهم لم يتخلوا عن مخططاتهم السرية لإسقاط الحكومة. اشتد العنف في الأرياف، فهرب الناس إلى المدن، لكن الرقابة كانت تجبر الصحافة على الكتابة المتوترة. ومع ذلك، فقد كان معروفاً للجميع، أن الليبراليين الملاحقين قد شكلوا وحدات حرب عصابات في أماكن مختلفة من البلاد. ففي السهوب الشرقية - وهذه محيط فسيح من أعشاب خضراء يغطي أكثر من ربع مساحة التراب الوطني - صارت تلك الوحدات أسطورية. وكان ينظر إلى قائدها العام، غوادالوبي سالتيدو، كشخصية خرافية، حتى من قبل الجيش. فكانت صورته توزع سراً، وتنسخ بالملصقات وتضاء لها الشموع على المذابح.

كان الأخوة دي إسبرييا يعرفون، كما يبدو، أكثر مما يقولونه، وكان الحديث داخل منطقة السور، يجري بصورة طبيعية عن انقلاب وشيك ضد النظام المحافظ. لم أكن أعرف أية تفاصيل، ولكن المعلم تابالا نبهني إلى وجوب الحضور فوراً إلى الجريدة، إذا ما لاحظت وقوع أية اضطرابات في الشوارع. لقد كان التوتر شديداً إلى حد يمكن معه لسه باليد، عندما دخلت، لإحجاز موعد في محل مثلجات أميركانا، في الساعة الثالثة، بعد الظهر. جلست أقرأ على منضدة معزولة، ربما يأتي الشخص المنتظر، فقال لي أحد زملائي القدامى، وهو يري، ولم أكن قد تحدثت معه في السياسة قط:

- اذهب إلى الجريدة، فالأمر على وشك الحدوث.

فعلت عكس ما قاله: كنت أريد أن أعرف كيف سيحدث ذلك في مركز المدينة بالذات، بدلاً من أن أحبس نفسي في قاعة التحرير. بعد دقائق من ذلك، جلس إلى طاولتي، ضابط من مكتب الصحافة الحكومي، وكنت أعرفه جيداً. ولم يخطر لي بأنهم كلّفوه بتجسدي. تبادلنا الحديث معه نحو نصف ساعة، بأقصى حالات البراعة. وعندما نهض لينصرف، اكتشفت أن صالة محل مثلجات الفسحة قد أخلّيت بالكامل، دون أن ألاحظ ذلك. تابع هو نظرتي في المكان، وتأكد من الوقت: الواحدة وعشر دقائق. ثم قال لي براحة مكبوتة:

- لا تقلق، لن يحدث أي شيء.

وبالفعل، فقد كان أبرز قادة الليبراليين، ممن أصابهم العنف الرسمي بالقبض، قد اتفقوا مع عسكريين ديمقراطيين من أعلى المراتب، لوضع حد للمذبحة التي يقتربها، في كل أنحاء البلاد، النظام المحافظ المستعد للاحتفاظ بالسلطة بأي ثمن. كان معظمهم قد شارك في اتصالات التاسع من نيسان، من أجل التوصل إلى السلام، من خلال اتفاق أبرموه مع الرئيس أوسبينا بيريث. ولم يكدر عشرين شهراً على ذلك، حتى أدركوا، بعد فوات الأوان، أنهم كانوا ضحية خدعة هائلة، وهكذا، فإن العملية الانتقالية المحيطة التي كان مخططاً لها أن تتم في ذلك اليوم، صادق عليها رئيس الإدارة الليبرالية شخصياً، كارلوس ميراس ريستريو، من خلال بلينيو ميندوتا نيبيرا الذي تربطه علاقات ممتازة بالقوات المسلحة، مذ كان وزيراً للحربية، في ظل الحكومة الليبرالية. وكان يتوجب بدء العملية التي تستلزم ميندوتا نيبيرا، بالتعاون المتكتم

مع محازبين في كل أنحاء البلاد، في فجر ذلك اليوم، بقصف القصر الرئاسي بطائرات القوات الجوية. وكان التحرك يلقى دعم القاعدتين البحريتين في كاراتاخينا وأبياي، ومعظم الحاصيات العسكرية في البلاد، والمنظمات النقابية المصممة على تولي السلطة لإقامة حكومة مدنية تتولى المصالحة الوطنية.

بعد إخفاق العملية فقط، عُرف أن الرئيس السابق إدواردو سانتوس، كان قد جمع في بيته في بوغوتا، قبل يومين من الموعد المقرر، القادة الليبراليين وقادة الانقلاب من أجل مراجعة نهائية للمشروع. وفي أثناء المناقشة، وجه أحدهم السؤال التقليدي:

- هل ستحدث إراقة دماء؟

ولم يكن هناك أحد ساذج أو صفيق إلى حد القول: لا. وأوضح قادة آخرون بأنه تم اتخاذ أقصى الاحتياطات كيلا تكون هناك إراقة دماء، إلا أنه لا توجد وصفات سحرية للحيلولة دون حدوث ما هو غير متوقع. فأصدرت الإدارة الليبرالية، المرعوبة من مؤامرتها بالذات، الأوامر بإلغاء العملية، عدد كبير من المشاغل الذين لم يُبلغوا بالأمر في الوقت المناسب، جرى اعتقالهم أو قتلهم أثناء المحاولة. ونصح آخرون ميندونزا بأن يواصل العملية وحده حتى الاستيلاء على السلطة، فأحجم عن فعل ذلك لأسباب أخلاقية أكثر منها سياسية. ولكن لم يتوفر له الوقت ولا الوسائل لإخيار جميع المشاركين بإلغاء العملية، وقد تمكن من اللجوء إلى سفارة فنزويلا، وعاش أربع سنوات منفياً في كاراتاكاس، بعيداً عن المجلس الحربي الذي حكم عليه غيابياً، بخمس وعشرين سنة سجناً بتهمة التمرد. والآن، بعد اثنتين وخمسين سنة من

ذلك، لا يرتعش نبضي وأنا أكتب - دون إذن منه - بأنه أحسن بالندم طوال ما تبقى من حياته، في منفى في كاراتاكاس، بسبب حصيلة القتل الذي حصدهم الحزب المحافظ وهو في السلطة؛ ليس أقل من ثلاثمائة ألف قتيل، خلال عشرين سنة.

لقد كانت لحظة حاسمة، بطريقة ما، بالنسبة لي أنا أيضاً. فقبل شهرين من ذلك، كنت قد تخلصت عن دراستي لسنة الحقوق الثالثة، ووضعت حداً لالتزامي مع جريدة الأديفرسال، لأنني لم ألتج لي مستقبلاً في أي منهما. وكانت الذريعة هي تحرير وقتي، من أجل كتابة الرواية التي لم أكد أبدأ بها، مع أنني كنت أعرف، في أعماق روحي، بأن ذلك لم يكن صدقاً ولا كذباً. وإنما تكشف لي مشروع الرواية، فجأة، على أنه صبغة بلاغية، فيها شيء قليل جداً من الجيد الذي استطعت استخلاصه من فوكر، وكل ما هو سيئ من انعدام تجريبي، وسرعان ما تعلمت أن رواية قصص موازية للقصص التي يكتبها أحدنا - دون الكشف عن جوهرها - هو جزء ثمين التصوير والكتابة. ولكن لم تكن هذه هي حالتي آنذاك، وإنما كان اقتقاري إلى شيء محدد أغرضه، هو ما دفعني إلى اختلاق رواية محكية، ألهم بها المستمعين وأخدع نفسي.

أجبرتني وعي ذلك، على إعادة التفكير في المشروع الذي لم يزد قط عن أربعين صفحة غير مؤكدة، من أقصاء إلى أقصاء. ومع ذلك، فقد ذكر في مجلات وصحف - ومن قبلي أنا أيضاً -، بل نُشرت عنه، مسبقاً، بعض المقالات النقدية شديدة الرصانة، كتبها قراء واسعو المخيلة. أما توجهي نحو عادة رواية مشاريع موازية لما أكتبه، فلم يكن يستحق، في العمق، اللوم، وإنما الشفقة، لأنه يمكن لرغب الكتابة أن

يكون غير محتمل مثل رعب عدم الكتابة، يضاف إلى ذلك، في حالتي، أنني مقتنع بأن رواية القصة الحقيقية هو مجلبة لسوء الطالع. ومع ذلك، فإبائي أجد العزاء في أنه يمكن للقصة المحكية، أن تكون أحببانا أفضل من المكتوبة، وأنتا تقوم كذلك، دون أن ندري، باختراع جنس أدبي جديد يحتاج الأدب إليه: تخيل التخيل.

حقيقة الحقيقة هي أنني لم أكن أعرف كيف سأواصل العيش. نقاعتي في سوكري أفادتني في إدراك أنني لا أعرف أين أمضي في الحياة، غير أنها لم تمنحني إشارة لتوجه صائب، ولا حجة واحدة جديدة أقنع بها أبوي بأنهما لن يموتا إذا ما سمحت لنفسي بحرية اتخاذ القرار بنفسي، وهكذا ذهبت إلى بارانكيا، ومعني متنا يبرو أعطتني إياها هي قيل عودتي إلى كارتاخينا، مختلصة من الرصيد العائلي.

في الخامس عشر من كانون الأول ١٩٤٩، دخلتُ إلى مكتبة صونديو، في الساعة الخامسة مساءً، لانتظر الأصدقاء الذين لم أعد لرؤيتهم، منذ ليلتنا في شهر أيار، عندما ذهبت مع السيد رازوري الذي لا يُنسى. لم أكن أحمل معي سوى حقيبة شاطئ، فيها غيار ملابس آخر، وبعض الكتب وحافظة الأوراق الجلدية التي تضم مسوداتي. بعد دقائق من وصولي جازوا جميعهم إلى المكتبة، واحداً بعد الآخر. وكان ترحيباً صاخباً لم يحضره ألفارو سيبدا الذي كان لا يزال في نيويورك. وعندما اكتملت الجماعة، ذهبت لتناول المقالات. وكان تناولها قد تحول من مفهى كولومبيا المجاور للمكتبة، إلى فناء مسور يرتاده الأصدقاء المقربون على الرصيف المقابل: مفهى جابي.

لم تكن لي وجهة محددة، لا في تلك الليلة ولا في بقية حياتي.

والغريب أنني لم أفكر، قط، في أنه يمكن لتلك الوجهة أن تكون بارانكيا، وإذا كنتُ قد ذهبت إلى هناك، فيأتما للحدث في الأدب وحسب، وتقديم الشكر، بجسدي الحاضر، على إرسالية الكتب التي يعيش بها، إلي في سوكري. بالنسبة إلى الأمر الأول، توصلنا إلى فائض منه. أما الثاني فلا شيء. بالرغم من محاولاتي الكثيرة المتكررة، لأن الجماعة كانت تخاف خوفاً طقسياً من تقديم الشكر وتلقبه فيما بين أفرادها.

ارتحل خيرمان بارغاس في تلك الليلة، طعاماً لاثني عشر شخصاً، كان بينهم أناس من كل الأوساط، ابتداءً من صحفيين ورسامين وموئلي عقود، حتى حاكم القطاع، وهو من المحافظين التقليديين في بارانكيا، له طريقته الخاصة في التمييز والحكم. وقد انسحب معظمهم بعيد منتصف الليل. وراح الآخرون يتصرفون فرادى، إلى أن لم يبق سوى ألفونسو وخيرمان وأنا، ومعنا الحاكم، وهو لا يزال يحافظ، إلى هذا الحد أو ذاك، على سلامة أحكامه، مثلما اعتدنا أن نكون عند الفجر في سن المراهقة.

وخلال تبادلنا الطويل للأحاديث في تلك الليلة، تلقيت درساً مفاجئاً، حول طريقة حكام المدينة في التصرف، في السنوات الداحية. فقد كان الحاكم يقدر أن أضعف الناس أملاً، وسط أضرار تلك السياسة الهمجية، هو عدد مشير للدهشة من اللاجئين في المدينة، يعيشون دون سقف ولا خبز. وانتهى إلى القول:

- إذا ما استمرت الحال على هذا النحو، فإن حزبي سيبقى، بقوة السلاح، دون خصم يناقسه في الانتخابات القادمة. وسيكون سيد البلاد المطلق.

الاستثناء الوحيد هو بارانكيّا، فاستناداً إلى ثقافة تعايش سياسي يتنهجها المحافظون المحلبون، تحولت المدينة إلى ملاذ آمن في قلب الإحصار. أردت أن أورد اعتراضاً أخلاقياً، إلا أنه أوقفني بحركة فظة من يده، وقال:

- المعذرة، هذا لا يعني أننا على هامش الحياة الوطنية. بل على العكس: بسبب ميلنا السلبية لتحديداً، راحت مأساة البلاد الاجتماعية بالتسلسل إلينا، على رؤوس أصابعها، من الباب الخلفي. وقد صارت موجودة عندنا الآن، هنا في الداخل.

وعرفت عندئذ، أن هناك حوالي خمسة آلاف لاجئ، آتين من المناطق الداخلية، في أسوأ حالات البؤس. وأنهم لا يعرفون كيف يعيدون تأهيلهم، ولا أين يخفونهم حتى لا تظهر المشكلة أمام المأ. وللأسرة الأولى في تاريخ المدينة، كانت هناك دوريات عسكرية تقوم بالحراسة في أماكن حساسة، وكان الجميع يرونها، ولكن الحكومة تنكر ذلك. وتنع الرقابة كشفه في الصحافة.

عند الفجر، وبعد أن غادر السيد الحاكم، بما يشبه المجرورة، ذهبنا إلى تشوب سوبي، مكان فطور الناس المبكرين جداً. اشترى ألفونسو من الكشك الذي على الناصية، ثلاث نسخ من الهيرالدو. وكان في صفحة التعليقات الافتتاحية، ملاحظة بتوقيع "هوك"، وهو اسم المستعار في مقاله اليومي. وكانت الملاحظة تحية لي وحسب. لكن خيرمان سخر منها، لأنها تقول إنني موجود هناك، في إجازة غير رسمية.

- كان من الأجدر، القول إنه سيمتلي للعيش هنا، من أجل كتابة ملاحظة ترحيب. ثم أخرى بعد ذلك للوداع - قال خيرمان ساخراً، وأضاف: - فهذا أقل كلفة، لجريدة شديدة البخل مثل الهيرالدو.

وكان ألفونسو قد بدأ يفكر، جدياً، في أنه لن يكون من السيئ، ضم كاتب عمود آخر، إلى قسم التعليقات الافتتاحية الذي يُشرف عليه. ولكن خيرمان كان جامعاً على ضوء الفجر.

- سيكون خامس كتاب الأعمدة، لأن لديكم أربعة.

لم يستطلع أي منهما موقفني، مثلما كنت أرغب، لكي أقول لهما أجل. ولم يجر مزيد من الحديث في الأمر. ولم تكن ثمة حاجة لذلك، لأن ألفونسو أخبرني في تلك الليلة، بأنه تحدث مع إدارة الجريدة، وبدأت لهم فكرة كتاب العمود الجديد مقبولة. ولكنهم لا يستطيعون البت في الأمر، على أي حال. قبل أعياد رأس السنة. وهكذا بقيت هناك بحجة الوظيفة، على الرغم من أنهم أبلغوني بقضهم، في شهر شباط.

الاستثناء الوحيد هو بارانكيّا، فاستناداً إلى ثقافة تعايش سياسي ينتهجها المحافظون المحليون، تحولت المدينة إلى ملاذ آمن في قلب الإغصان. أردتُ أن أورد اعتراضاً أخلاقياً، إلا أنه أوقفني بحركة قطة من يده، وقال:

- المعذرة، هذا لا يعني أننا على هامش الحياة الوطنية. بل على العكس: بسبب ميلنا السلمية لمجديداً، راحت مأساة البلاد الاجتماعية بالتسلسل إلينا، على رؤوس أصابعها، من الباب الخلفي. وقد صارت موجودة عندنا الآن، هنا في الداخل.

وعرفتُ عندئذ، أن هناك حوالي خمسة آلاف لاجئ.. آتين من المناطق الداخلية، في أسوأ حالات البؤس. وأنهم لا يعرفون كيف يعيدون تأهيلهم. ولا أين يخفونهم حتى لا تظهر المشكلة أمام الملأ. وللحرة الأولى في تاريخ المدينة، كانت هناك دوريات عسكرية تقوم بالحراسة في أماكن حساسة، وكان الجميع يرونها، ولكن الحكومة تنكر ذلك، وتضع الرقابة كشفه في الصحافة.

عند الفجر، وبعد أن غادر السيد الحاكم، بما يشبه المجرمة، ذهبنا إلى تشوب سوبي، مكان فطور الناس المبكرين جداً. اشترى ألفونسو من الكشك الذي على الناصية، ثلاث نسخ من الهيرالدو. وكان في صفحة التعليقات الافتتاحية، ملاحظة بتوقيع "بوك"، وهو اسم المستعار في مقاله اليومي. وكانت الملاحظة تحية لي وحسب. لكن خيرمان سخر منها، لأنها تقول إنني موجود هناك، في إجازة غير رسمية.

- كان من الأجدر القول إنه سيبقى للعيش هنا، من أجل كتابة ملاحظة ترحيب، ثم أخرى بعد ذلك للوداع - قال خيرمان ساخراً، وأضاف: - فهذا أقل كلفة، لجريدة شديدة البخل مثل الهيرالدو.

وكان ألفونسو قد بدأ يفكر، جديداً، في أنه لن يكون من السببي، ضم كاتب عمود آخر، إلى قسم التعليقات الافتتاحية الذي يُشرف عليه. ولكن خيرمان كان جامحاً على ضوء الفجر.

- سيكون خامس كتاب الأعمدة، لأن لديكم أربعة.

لم يستطع أي منهما موقفي، مثلما كنتُ أرغب. لكني أقول لهما أجل. ولم يجر مزيد من الحديث في الأمر، ولم تكن ثمة حاجة لذلك، لأن ألفونسو أخبرني في تلك الليلة، بأنه تحدث مع إدارة المجردة، وبدت لهم فكرة كتاب العمود الجديد مقبولة. ولكنهم لا يستطيعون البت في الأمر، على أي حال، قبل أغيباد رأس السنة. وهكذا بقيتُ هناك بحجة الوظيفة، على الرغم من أنهم أبلغوني بقضهم، في شهر شباط.

هكذا نُشرت مقالتي الأولى في صفحة الافتتاحيات بجريدة الهيرالدو في بارانكيّا، يوم الخامس من كانون الثاني ١٩٥٠. لم أשאُ توقيعها باسمي لكي أخرج سليماً، إذا ما عجزتُ عن إيجاد طريق للاستمرار، مثلما جرى لي في جريدة الأونيفرسال. ولم أتردد وأفكر مرتين، في اختيار الاسم المستعار الذي سأكتب به: "سيبتيموس"، المأخوذ من سيبتييموس وارنر سميث، شخصية فيرجينيا وولف المهووس في رواية السيدة دلووي. أما عنوان العمود - "الزرافة" - فكان لقباً سرياً، لا يعرفه أحد سواي، لرفيقتي الوحيدة في الرقص في حفلات سوكري.

بدا لي أن رياح كانون الثاني تهب في تلك السنة، أقوى منها في أي وقت آخر. حتى إن المرء يجد صعوبة في المشي بعكس اتجاهها، في الشوارع التي تضربها الرياح حتى الفجر. فكان موضوع الأحاديث عند الاستيقاظ، هو الأضرار التي سببتها الرياح المجنونة خلال الليل، وما تذروه معها من أحلام وأفنان دجاج، ولحويها ألواح توتياء السقوف إلى مقاصل طائرة.

إنني أفكر اليوم، في أن تلك الرياح المجنونة كانت تكنس بقايا

ماض فاحل، وتفتح لي أبواب حياة جديدة. لم تعد علاقتي بالجماعة متدفقة بطلاقة، وتحولت إلى تواطؤ مهين. قلى اليد. كنا نناقش الموضوعات التي نفكر فيها، أو نتبادل ملاحظات ليس فيها شيء من الحذقة، ولكنها من النوع الذي لا يُنسى. وقد كانت المناقشة الحاسمة، بالنسبة لي، هي التي جرت في صباح يوم دخلت فيه إلى مقهى جابي، بينما كان خيرمان بارغاس ينهي بصمت، قراءة "الزرافة" في قصاصة من صحيفة ذلك اليوم. وكان أفراد الجماعة الآخرون، حول المنضدة، ينتظرون حكمه. بنوع من الرعب التوقيري، يزيد دخان الصالة من كثافتها، وعندما انتهى خيرمان من القراءة، وحتى دون أن ينظر إليّ، مرق القصاصات إلى لفص صغيرة، دون أن ينطق بكلمة واحدة، ونثرها بين قمامة أعقاب السجائر وأعواد الثقاب المحروقة في المنضدة. لم يقل أحد شيئاً، ولم يتبدل المزاج على المنضدة، ولم يجر التعليق على الحادث، في أي وقت آخر. ولكن الدرس ما زال ينقطني حتى الآن. كلما داهمني، بسبب الكسل أو التسرع، إغواء كتابة فقرة متسعة، لكي أخرج من مأزق.

في فندق لاثني، الذي عشت فيه قرابة السنة، انتهى الأمر بأصحابه إلى معاملتي كفر من الأسرة. كانت ثروتي الوحيدة آنذاك، هي صندلي التاريخي، وغيابان من الملابس، أغسلهما تحت الدوش، عند الاستحمام، وحقبة الجلد التي سرقها من صالة الشاي الأكثر أبهة في بوغوتا، خلال أحداث التاسع من نيسان. كنت أحملها معي أينما ذهبت، وأضع فيها أصول ما أكتسبه. وهي الأشياء الوحيدة التي يمكن لي أن أفقدها. ولم أكن لأجازف بتركها، ولو وراء سبعة أقفال، في صندوق

مصفح في أحد المصارف. والشخص الوحيد الذي كنت ألقنه عليها في ليالي الأولى، هو لاثيديس المتكتم، بواب الفندق الذي تقبلها مني كضمان لأجرة الغرفة. فقد ألقي نظرة ناقبة على قصاصات الورق المكتوبة على الآلة الكاتبة، والمتشابكة بالنصحيحات، وخبأها في درج منضدة الكونستوار. اختدشها في اليوم التالي، في الساعة الموعودة. وواصلت دفع أجر الغرفة بصرامة. وكان يتقبل الحقبة كرهن عن مبيتها مدة تصل إلى ثلاث ليال. وبلغ الأمر حد اتفاق جدي، إذ كنت أضعها أحياناً، على منضدة الكونستوار، دون أن أقول له شيئاً سوى طابت ليلتك، وأتناول بنفسني المفتاح، من لوحة المفاتيح. وأصعد إلى حجرتي. كان خيرمان يتابع، على الدوام، حالات عوزي، حتى إنه كان يعرف إذا ما كنت لا أجد مكاناً أنام فيه، فيعطيني خفية، عندئذ، مبلغ البيزو والنصف من أجل دفع أجرة السرير. لم أدرك قط، كيف كان يعرف ذلك، ويفعل حسن سلوكي، كسبت ثقة العاملين في الفندق، حتى إن العاهرات الصغيرات كن يعرني صابونهن الخاص، لأستحم. وفي موقع القيادة، كانت صاحبة الفندق وسيدته، كاتالينا الكبرى، يشديها المهيبن ورأسها البيطيني، هي التي تتراأس الحياة فيه. أما فعلها، الخلاسي جوناس سان فيشتني، فكان عازف ترومبون راقياً إلى أن تهشمت أسنانه المقهية في عملية سطو تعرض لها، لسرقة تليسة أسنانه الذهبية. فاضطر إلى تغيير مهنته، بسبب تكسر فكّه وفقدانه القدرة على النطق. ولم يستطع العزف، لبسوته ذي الست بوحسات، على ما هو أفضل من سرير كاتالينا الكبرى الذهبي. وكانت هي نفسها تملك كذلك، كنزها الحميم الذي أفادها في الصعود، خلال سنتين، من ليالي المرفأ النهري الباتسة، إلى

عرشها كأم كبرى. وقد حالفها الحظ بالتعرف على موهبة وأريحية
المكانتين، من أجل إسعاد أصدقائها. ولكنهم لم يستطيعوا هناك، أن
يفهموا قط، سبب افتقادي البيزو ونصف البيزو، لدفع أجرة الغرفة، على
الرغم من أن أشخاصاً من عليّة الناس، باتون لأخذني في سيارات
لبموزين رسمية.

خطوة سعيدة أخرى في تلك الأيام، هي توصلي إلى أن أكون الريان
المساعد الوحيد لمونو غيراً. وهو سائق سيارة تكسي شديد الشقرة إلى
حد يبدو معه أنه أمهق. وبالغ اللكا، واللفظ إلى حد يمكن معه، للناس،
أن يختاروه عضواً في المجلس البلدي، دون حملة انتخابية. كانت
سهراته حتى الفجر في الحى الصيني، تبدو سينمائية، لأنه هو نفسه كان
يقول: إرأها - وجعلها جنونية أحياناً - بتزوات غير متوقعة. وعندما
يرغبه في أن يقضي ليلة على هواه، يخبرني بذلك، وتذهب لقضاءها
معاً في سواخير الحى الصيني المتردي، حيث تعلم أبازونا وآباء آياتنا
كيف يصنعوننا.

وسط حياة يمثل تلك البساطة، لم أعرف، قط، سبب عرقى المفاجئ
في حالة فتور طارئة. فروايتي التي كنت أكتبها - البيت - بدت لي،
بعد سنة شهر من اليد بها، مهزلة غير موفقة. وكان كلامي عنها أكثر
ما أكتبه فيها. والحقيقة أن الشيء المتناسك القليل الذي توصلت إليه،
هي المقطوعات التي نشرتها، قبل وبعد ذلك، في "الزرافة" وفي مجلة
كرونيكا، كلما وجدت نفسي بلا موضوع أكتب عنه. في وحدة عطلات
نهاية الأسبوع، عندما يلوذ الآخرون ببيوتهم، كنت أبقى وحيداً، أكثر مما
هي عليه اليد اليسرى، في المدينة الخاوية. لقد كنت في حالة قفر

مدقع، وخجل طائر سمائي، أحاول أن أعارض ذلك بعجرفة لا تطاق،
وصراحة فظة. كنتُ أشعر بأنني فائض عن الحاجة في كل مكان. وكان
بعض المعارف يُشعرونني بذلك. وبدا الأمر أشد حرجاً في قاعة تحرير
الهيرالدو، حيث كنت أكتب أحياناً طوال عشر ساعات متواصلة، في
ركن متعزل، دون أن أخاطب أحداً، بلفتي دخان السجائر الرخيصة التي
أدخنها دون توقف، في عزلة بلا عزا. كنت أكتب بأقصى سرعة، وفي
أحيان كثيرة حتى الفجر، على شرائح ورق طباعة أحمله معي إلى كل
مكان في حقيبتي الجلدية.

في واحدة من لحظات السهر الكثيرة في تلك الأيام، نسبت الحقيبة
في سيارة تكسي، واعتبرت الأمر مزحة أخرى من مقالب سو. الطالع
الذي يلاحقني، لم أقم بأي جهد لاستردادها، لكن ألفونسو فونسيبور،
المدعور من نهاوتي، حرر ونشر ملاحظة في نهاية زاويتي: "يوم السبت
الماضي، تُسميت حافظة أوراق في سيارة أجرة عامة. ونظراً لأن صاحب
حافظة الأوراق تلك، وكاتب هذه الزاوية هما، بالمصادفة، الشخص نفسه،
فإنهما يشكران من يتخلف بالاتصال بأي واحد منهما. علماً أن حافظة
الأوراق لا تحتوي أي شيء ذا قيمة على الإطلاق؛ وإنما زواقات غير
منشورة وحسب". بعد يومين من ذلك، ترك أحدهم مسوداتي عند بواب
الهيرالدو، ولكن دون الحقيبة، بعد أن صحح ثلاثة أخطاء إملائية فيها،
بخط جميل جداً، وبحبر أخضر.

الأجر السومي كان يكفيني، بالضغط، لدفع إيجار الغرفة. ولكن
أقل ما كان يقلقني. في تلك الأيام، هو هاوية الفسقر، وفي المرات
الكثيرة التي لم أستطع فيها دفع أجرة الغرفة، كنت أذهب للقراءة في

مقهي روما، مثلما أنا في الواقع؛ متوحداً وهائماً على وجهي في ليل شارع بوليفار. كنتُ أوجه التحية، من بعيد، لأي شخص أعرفه، إذا ما تنازلت بالنظر إليه، وأواصل قدماً حتى مكاني المحجوز المعهود، حيث أظل أقرأ في بعض الأحيان إلى أن "تكشني" الشمس. فقد كنتُ ما أزال آنذاك، قارئاً نهماً، دون أي تكوين منهجي، وخاصة للشعر، بما في ذلك الشعر السيئ، لأنني في أسوأ لحظات انحطاط معنوياتي، كنت مقتنعاً بأن الشعر الرديء يؤدي، عاجلاً أو آجلاً، إلى الجيد.

كنتُ أبدو، في زاويتي "الزرافة"، متحمساً جداً للثقافة الشعبية، على خلاف قصصي القصيرة التي تبدو أشبه بأحجيات كافكاوية، يكتبها شخص لا يدري في أي بلاد يعيش. ومع ذلك، فإن حقيقة روهي هي أن مأساة كولومبيا كانت تضلني كما في رجع بعيد، ولا تستثيرني إلا عندما تطفح الأنهار بالدم. كنت أشعل سيجارة قبل أن أنهي السجارة السابقة، وأعب الدخان بلهفة الحياة التي يعبأ بها المصابون بالربو الهوائي. وكانت علب السجائر الثلاث التي أستهلكها، كل يوم، تظهر على أفصاري، وفي سعال الكلب العجوز الذي عكر سنوات شبابي، وباختصار، كنت خجولاً وكثيراً، مثل أي كاريبي طيب، وشديد الغيرة على حميميتي إلى حد الرد على أي سؤال عنها. بعبارة سفاهة بليغة. وكنت مقتنعاً من أن سوء طالعِي خلفي، ولا خلاص لي منه، خاصة مع النساء والنقود. ولكن ذلك لم يكن يهمني، لأنني كنت أؤمن بأنني لا أحتاج إلى حسن الطالع كي أكتب بصورة جيدة، لم أكن أحفل بالمجد، ولا بالمال، ولا بالشيخوخة، لأنني كنتُ واثقاً من أنني سأموت شاباً قتيلاً ومشترباً في الشارع.

الرحلة مع أمي لبيع البيت في أراكاتاكا، أنقذتني من تلك الهاوية. وكشف لي يقين الرواية الجديدة، مستقبلاً مختلفاً. لقد كانت رحلة حاسمة بين الرحلات الكثيرة في حياتي، لأنها أثبتت لي بالبحرية، أن الكتاب الذي حاولت كتابته، ما هو إلا مجرد اختلاق بلاغي، ليس له أي استناد إلى حقيقة شعرية. وقد فتفت المشروع شطاباً بالطبع، عند مواجهته بالواقع الذي تكشف لي في تلك الرحلة.

ما كان يمكن لنموذج ملحمة كالذي كنتُ أحلم به، أن يكون غير نموذج أسرتي بالذات. وهي أسرة لم تكن قط بطله، أو حتى ضحية شيء محدد بعينه. وإنما مجرد شاهدة بلا غائدة، وضحية لكل شيء. بدأتُ بكتابتها منذ لحظة عودتي بالضبط، إذ لم يعد يفيدني، في شيء، الشغل بأدوات مصطنعة. وإنما الشحنة الانفعالية التي أخرجها دون أن أدري، والتي انتظرتني سليسة في بيت الجدين. فعند خطواتي الأولى على رمال القرية المنتهية، أدركتُ أن منهجي لم يكن هو الأكثر ملاءمة لرواية ذلك الفردوس الأرضي من الحراب والختين، بالرغم من أنني أتفقت الكثير من الوقت والعمل، للعشور على المنهج الصحيح. ولم تكن مشاغل كرونيكا التي على وشك الصدور تشكل عائقاً، بل على العكس تماماً؛ لقد شكلت كابحاً للجزع.

وباستثناء ألفونسو فونسيابور - وقد فاجأني وأنا في حسي الإبداع، بعد ساعات من بدني الكتابة - ظل بقية أصدقائي يعتقدون، لوقت طويل، أنني ما زلت أواصل العمل في مشروع "البيت القديم". فقررت أن أبقى الأمور على ذلك النحو، بسبب الخوف الطفولي من أن يُكتشف إخفاق فكرة كنت قد تكلمت عنها طويلاً، كما لو أنها عمل

خالد. ولكنني فعلت ذلك أبشراً، لاعتقاده خرافي ما زلت أؤمن به، بوجود رواية قصة، وكتابة أخرى مختلفة كيلا يُعرف أي منهما هي الصحيحة. ولا سيما في المقابلات الصحفية، وهي في نهاية المطاف جنس تخييل خطير بالنسبة الكتاب خجولين لا يريدون أن يقولوا أكثر مما يجب عليهم قوله. ومع ذلك لا بد أن خيرمان بارغاس قد اكتشف الأمر بفطنته الغربية؛ قبعد شهر من سفر دون رامون إلى برشلونة، قال له في إحدى رسائله: "أظن أن غابيتو قد تخلى عن مشروع البيت. وهو منكم الآن في رواية أخرى". وكان دون رامون يعرف ذلك بالطبع، قبل أن يغادر.

لقد كنت أشعر، منذ السطر الأول، بأنه لا بد للكتاب الجديد من أن يستند إلى ذكريات طفلي في السابعة، ناج من مجزرة عام ١٩٣٨ العامة في منطقة الموز. ولكنني سرعان ما استبعدت ذلك، لأن القصة ستبقى محدودة ضمن وجهة نظر شخصية، ليس لديها ما يكفي من الموارد الشعرية لروايتها. وعندئذ وعيت أن مغامرتي بقراءة أوليبس، وأنا في العشرين من عمري، ثم الصخب والعنف فيما بعد، كانت جراءة مبركة بلا مستقبل؛ فقررت إعادة قراءتهما بنظرة أقل احتراماً. وبالفعل، فقد تكشف لي عندئذ، كثير مما بدا لي متحذلقاً ومغلقاً، عند جويس وفوكتر، عن جمال وبساطة جارفتين. فكرت في جعل المونولوج متعدد الأصوات، يشمل القرية كلها، مثل كورال إغريقي راو، على طريقة بينما أرقد محتضرة، حيث تنوأل تأملات أسرة كاسلة تحيط بمحتضرة. لم أخرج على تكرار أساليبها البسيط في الإشارة إلى أسماء الأبطال، عند كل تكلم، مثلما في النصوص المسرحية، ولكنها أمدتني

بفكرة الاقتصاد على استخدام ثلاثة أصوات، الجد والأم والطفل، يمكن لنيرانها ومضائرها المختلفة جداً، أن تحدد هوية المتكلم تلقائياً. والجد في الرواية لن يكون أصور مثل جدي، وإنما أعرج. وستكون الأم ذاهلة، ولكنها ذكية، مثل أمي. والطفل جاسد، مرعوب ومتأمل، مثلما كنتُ وأنا في مثل سنه، لم يكن كل ذلك لقية إبداعية بأي حال، وإنما مجرد وسيلة تقنية.

لم يتعرض الكتاب الجديد لأي تغيير معمق خلال كتابته، ولا لأي نسخة مختلفة عن الأصلية، باستثناء، بعض الحذف والترقيع على امتداد سنين، قبل صدور طبعته الأولى، ربما بسبب إدماني عادة مواصلة التصحيح حتى الموت. أما القرية - وهي مختلفة تماماً عن تلك التي كانت لدي في المشروع السابق - فقد رأيتها رؤية العيان في الواقع، عند عودتي إلى أراكاتاكا مع أمي، غير أن هذا الاسم - مثلما نبهني دون رامون الحكيم جداً - بدا لي غير ملائم، مثله مثل بارانكيّا، وكان يخلو كذلك، من النفحة الأسطورية التي أبحث عنها للرواية. وهكذا قررت تسمية القرية بالاسم الذي كنت أعرفه، دون شك، منذ طفولتي؛ ولكن شغته السحرية لم تتكشف لي حتى ذلك الحين؛ ماكوندو.

كان عليّ أن استبدل عنوان "البيت" - وهو مألوف جداً آنذاك بين أصدقائي - لأنه لا علاقة له بالمشروع الجديد. ولكنني اقترفت الخطأ بأن رحت أدون، على دفتر مدرسي، كل عنوان يخطر لي، بينما أنا أكتب. وقد تجمع لدي أكثر من ثمانين عنواناً. وأخيراً، وجدته دون أن أبحث عنه، في النسخة الأولى شبه المكتملة، عندها استسلمت لإحراج كتابة مقدمة من المؤلف. لقد ففز العنوان في وجهي، كأكثر التسميات أنفة

وأكثرها إشفاقاً في الوقت نفسه، بين تلك التي أطلقتها جدتي، بما تبقى لديها من ترسيمات أرستقراطية، على بقايا اليونانيد فروت كومباتي؛ عاصفة الأوراق^(١).

الكتاب الذين حفزوني أكثر من غيرهم على كتابتها، هم الروائيون الأمريكيون، وخاصة أولئك الذين أرسل لي أعمالهم إلى سوكري. أصدقائي في بارانكيا، ولا سيما بسبب تشابهات من كل نوع كنت أجدها بين ثقافات أعماق الجنوب الأمريكي وثقافة الكاريبي التي أتوجد معها توحداً مطلقاً وجوهرياً وغير قابل للتبدل، في تكويني ككائن بشري وكتاب. منذ وعيت ذلك، بدأت أقرأ لكاتب حرفي حقيقي، ليس للمتعة فقط، وإنما بدافع فضول لا يربوني إلى اكتشاف كيف كُتبت أعمال الحكماء تلك. قرأتها أولاً بصورة سوية، ثم بالقلوب، وأخضعتها لنوع من نزع الأحشاء الجراحي، بغية التوغل في أشد أسرار بناتها خفية. وبالتوجه نفسه، لم تكن مكتبي قط، سوى أداة عمل، حيث يمكنني أن أجِد في الحال، فصلاً لدوستوفسكي، أو التأكد من معلومة حول صرع بولوس قبصر أو حول آلية مُقَحَّم سيارة. ولدي، فوق ذلك، مرجع في اقراراف الاشتغالات المحكمة، إذ قد يحتاج إليه أحد شخصي المعوزين. أما ما عدا ذلك، فأحجزه أصدقائي الذين كانوا يوجهوني في قراءاتي، ويعيرونني الكتب التي عليّ قراءتها في الوقت المناسب، والذين قاموا بالقراءات القاسية لأصول كتيبي قبل نشرها.

لقد أمدتني تلك النماذج بوعي جديد لنفسني بالذات. وانتهى

(١) عنوان الرواية في الأصل La hojarasca، أي الأوراق الذابلة المتساقطة. ولكن الرواية ترجمت إلى العربية، وعرفت بعنوان "عاصفة الأوراق"، وهو عنوان موفق.

مشروع مجلة كرونিকা إلى منحي أجنحة. كانت معنوياتنا مرتفعة إلى حدّ توصلنا معه، على الرغم من العوائق الجسدية، إلى امتلاك مكتب خاص بالمجلة، في طابق ثالث بلا مصعد. بين ثمادات الباعة التجولين والمحافلات المتشابكة في شارع سان بلاس الذي كان مهرجاناً صاخباً، منذ الفجر حتى الساعة السابعة ليلاً. لم يكن المكتب يكاد يتسع لنا. ولم يكن فيه هاتف يعد، أما جهاز تكييف الهواء فكان حلاً يمكن له أن يكلفنا أكثر من كلفة المجلة الأسبوعية. ولكن فونسايبور وجد الوقت الكافي لملء المكتب بموسوعات المهلهلة، وقصاصاته من صحف بكل اللغات، وراجعته الشهيرة حول مهن غريبة. وعلى منضدته كمدير، كان يجمع "تاريخ أندروود" الذي أنقذه، مجازفاً بحياته، من حريق في إحدى السفارات. وهو اليوم درة في متحف بارانكيا الرومانسي. أما المتضدة الوحيدة الأخرى، فكنّتُ أشغلها أنا، وعليها آلة كاتبة مستعارة من الهيرالدو، يحكم منصبي اللامع كرئيس للتحرير. وكانت هناك طاولة رسم مخصصة لأليخاندر و أوبرغون، وأولاندو غيراً، والفونسو سيلو، ثلاثة رسامين مشهورين التزموا، وهم بكامل وعيهم، بوضع رسوم توضيحية للمساهمات الكتابية. وهذا ما فعلوه، أولاً بدافع من كرمهم الفطري، وأخيراً لأننا لم تكن ثلك فلساً فائضاً لنا نحن بالذات. أما المصور الأكثر مواظبة وتفصلياً، فكان كيكي سكوبيل.

فضلاً عن عملي في التحرير المرتبط بمنصبي، كان عليّ أن أتابع، كذلك، عملية تنظيم المواد، ومساعدة مصحح التجارب، على الرغم من إملائي الهولندي. ولأنني حافظت على التزامي مع الهيرالدو، بمواصلة كتابة "الزرافة"، لم أجِد مشغلاً كبيراً من الوقت، للمشاركة في

مساهمات منتظمة في كرونিকা. ولكنني كنت أجد وقتاً مع ذلك،
لكتابة قصصي القصيرة، في ساعات الفجر الميته.

وضع ألفونسو، التعبير في كل الأجناس الكتابية، ثقل إيمانه في
القصص البوليسية، وكان مولعاً بها إلى حد التعطش. فكان يترجمها أو
يتتبعها، ثم أخضعها أنا إلى عملية تبسيط شكلية ستفيدني فيما بعد،
في مهنتي. وكان ما أفعله يتلخص في الاقتصاد في المساحة، ليس
فقط بحذف الكلمات غير الضرورية، وإنما كذلك، الأحداث الفائضة عن
الحاجة، إلى أن تبقى القصة في جوهرها الخالص، دون الانتقاص من
قدرتها على الإقناع. هنا يعني شطب كل ما يمكن أن يكون فائضاً عن
الحاجة في جنس كتابي جائر، يتوجب على كل كلمة فيه أن تتكامل مع
البناء كله. وقد كان ذلك من أكثر ممارساتي العملية فائدة في تحرياتي
الموارة لتعلم تقنية حكاية قصة.

لقد أنقلنا بعض أفضل قصص خوسيه فيليكس فوينمايور، عدة
سبوت. ولكن تداول المجلة بقي راكداً. ومع ذلك، فإن خشية النجاة
الأبدية ظلت تتمثل في صلاحية ألفونسو فوينمايور الذي لم يُعرف عنه
قط، تمتعه بمزايا رجل مقاولات. وقد انكب على العمل في مؤسستنا
بعناد يفرق قواه، كان هو نفسه يحاول كسره في كل خطوة، بحس
سخريته الرهيب. لقد كان يقوم بكل شيء، ابتداءً من كتابة أكثر
الاقتراحات بُعد نظر، حتى أقل الملاحظات قائدة، بالجلد نفسه الذي
يسعى به إلى الحصول على إعلانات، وقروض لا تخطر على بال،
وأعمال حصرية من كتاب يصعب إقناعهم. ولكنها كانت معجزات
قاحلة. وعندما يرجع الباعة بالكمية نفسها من النسخ التي تسلموها

للبيع، كنا نحاول التوزيع الشخصي في الهانات المفضلة، ابتداءً من
حانة الرجل الثالث، حتى حانات الميناء النهري المكفهرة، حيث كان علينا
أن نتقاضى الفوائد القليلة عينياً، بمقادير من الكحول.

تبين أن أحد أكثر المساهمين مواظبة في الكتابة، والمقروء أكثر من
الجميع دون ريب، هو غاتي أوسيو، فمتد عدة كرونিকা الأول، كان أحد
أكثر المواظمين. وقد انتهى عموده "يوميات كاتب ألي"، الموقع بالاسم
المستعار دولي هيلو، إلى الاستحواذ على قلوب القراء. لم يكن هناك
من يصدق أن كل تلك المهن قد ماوسها، بكل ذلك اللطف، الرجل نفسه.
وكان يمكن ليوب بريغو، من جانب، أن يمنع غرق كرونিকা بأي لقبة
طبية أو فنية من العصر الوسيط. إلا أنه في موضوع العمل، كانت له
قاعدة تتميز بالشفافية: إذا لم تدفعوا، قلن أقدم نتاجاً. وبالطبع،
سرعان ما لم يعد الدفع ممكناً، رغم حسرة أرواحنا.

ومن خوليو ماريو سانتودومغو، توصلنا إلى نشر أربع قصص
ألغاز كتبها بالإنكليزية. وكان ألفونسو يترجمها بلهفة صياد يعاسبب،
في أجام معاجمه النادرة، ويزيئها أليخاندرو أويريغون برهافة رسام
كيسر. لكن خوليو ماريو كان كثير السفر، وفي اتجاهات كثيرة
مناقضة، حتى صار شريكاً غير هزني، وقد كان ألفونسو فوينمايور هو
الوحيد الذي عرف أين يجده. وكشف لنا ذلك بجملة مثيرة للقلق:

- كلما أرى طائرة تمر، أفكر في أن خوليو ماريو سانتودومغو
موجود فيها.

أما بقية الكتاب فكانوا مساهمين مؤقتين، يُيقون أرواحنا معلقة
حتى لحظة إغلاق العدد، أو الدفع.

تقررت بوعوثنا منا، كأنداد، ولكن لم يبدل أي من الأصدقاء.
التافعين جهوداً من أي نوع، لإيقاء أسبوعينا طاقية. باستثناء خورخي
ثالاميا الذي أدرك التشابه بين مجلته ومجلتنا، فاقترح علينا اتفاق
تبادل للمواد. أعطى نتائج طبية، إلا أنني اعتقد أن أحداً لم يقدر، في
الواقع، ما الذي كانت مثله كرونيكا من معجزة. كان مجلس التحرير
مؤلفاً من ستة عشر عضواً، اختارناهم لمزايا كل واحد منهم المعترف بها.
وجميعهم كانوا من لحم وعظم. ولكنهم مثقفون ومشغولون إلى حد يمكن
الشك بوجودهم.

لقد كان لكرونيكا، بالنسبة لي، أهمية جانبية، في أنها أجبرتني
على ارجحال قصص مستعجلة للملء فراغات طارئة عند إغلاق العدد.
كنت أجلس إلى الآلة الكاتبة، بينما عمال اللبوتيب والإخراج يقومون
بعملهم. فاخترع من العدم، قصة بحجم الفراغ المتبقي. على هذا النحو
كتبت، "عن كيف قامت ناتانال بزيارة"، وحلت لي مشكلة مستعجلة
عند الفجر؛ وقصة "عينا الكلب الأزرق" بعد خمسة أسابيع من ذلك.

أول هاتين القصتين، كانت أصل سلسلة قصص بالشخصية
الرئيسية نفسها. وقد أخذتُ اسمها، دون إذن، من أندريه جيد. وكتبتُ
فيما بعد "نهاية ناتانال" لكي أحل مسألة أخرى، في اللحظة الأخيرة.
وشكلت القصتان كلناهما جزءاً من مشهد من ست قصص، أرشفتها دون
ألم عندما أدركتُ أنه ليس لها أي علاقة بي. وأتذكر مما بقي منها،
واحدة ليست لدي أي فكرة عن موضوعها. بعنوان: "عن كيف ارتدت
ناتانال ملابس العروس". الشخصية لا تبدو لي اليوم شبيهة بأحد
عرفته، ولم تكن تستند إلى معاشاتي الخاصة أو معاشات آخرين، ولا

يمكنني حتى أن أتصور كيف أمكن لقصة لي، أن تتناول مثل ذلك
الموضوع الحاطن جداً. لقد كانت ناتانال، في نهاية المطاف، مجازفة
أدبية دون أية أهمية إنسانية. غير أنه من المناسب، تذكر تلك التكتيكات،
كيلا تنسى أن الشخصية لا تُخلق من العصفرة. مثلما أردت أن أفعل
بناتانال. ولحسن الحظ، أن المخيلة لم تتح لي المضي بعيداً جداً عن
نفسي. ولسوء الحظ، أنني كنت مقتنعاً كذلك، بأنه لا بد من أن يُدفع
للعمل الأدبي أجر جيد، مثلما يُدفع لبناً - الأجر. وإذا كنا ندفع جيداً،
وفي الموعد المحدد، لعمال الطباعة، فأولى بنا أن ندفع كذلك، للكتاب.

أفضل صدى كتبنا نلقاه عن عملنا في كرونيكا، كان يأتي في
رسائل دون رامون التي يرسلها إلى خيرمان باوغاس. لقد كان يهتم
بأدق الأخبار التي لا تخطر على بال، وبالأصدقاء والأحداث في
كولومبيا. وكان خيرمان يرسل إليه قصاصات من الصحف، ويروي له
في رسائل لانهائية، الأخبار التي تمنعها الرقابة. هذا يعني أنه كان
يتلقى كرونيكا مزدوجة: المجلة التي تحررها نحن، وتلك التي يلخصها
له خيرمان في نهاية كل الأسبوع. وقد كانت تعليقات دون رامون
المتحمسة أو القاسية حول مقالاتنا، هي نهما الأكبر.

بين الأسباب العديدة التي أرادوا أن يقسروا، من خلالها، عشرات
كرونيكا، وحتى ترده الجساعة، عرفتُ مصادفة أن البعض يعزونها إلى
سوء طالعني الخلفي والمعدني، وكدليل دامغ على ذلك، كانوا يذكرون
تحقيقاتي الصحفي عن بيراسكوتشيا، لاعب كرة القدم البرازيلي، الذي
أردنا المصالحة من خلاله، بين الرياضة والأدب في جنس كتابي جديد،
وكان إخفاقاً مدوياً. عندما علمت بسمعتي القشيرة، كان الأمر قد انتشر

بين زبائن مقهى جايي. فأقدمت، وقد وهنت عزيمتي حتى التخاذ، على طرح الأمر مع خيرمان بارغاس؛ وكان مطلعاً على ما يقال، مثل بقية أفراد الجماعة، فقال لي دون أدنى تردد:

- اطمئن يا معلم. فكتابتة مثل كتابتك، لا يمكن تفسيرها إلا بحسن ظالع لا يمكن لأحد أن يهزمه.

لم تكن اللبالي كلها سبنة. فليلة السابع والعشرين من تموز ١٩٥٠، في دار حفلات نيغرا إوفيميا، كان لها نوع من القبيصة التاريخية في حياتي ككاتب. لا أدري لأي سبب، أضرت صاحبة المحل بطهي وجبة سانكوتشو ملحية بأربعة أصناف من اللحوم. وقد ضاعت الكروائات التي شوتشتها الروائح الحادة، من نعيبها حول الموقد. فأمسك زبون هائج بعنق كروان منها، وألقى به حياً، في قدر الطبخ الذي يغلي. لم يستطع الحيوان أن يطلق أكثر من صرخة ألم مع خفقة أخيرة من جناحيه، وغرق في أعماق الجحيم. حاول القاتل الهسجي أن يمسك كرواناً آخر، لكن نيغرا إوفيميا نهضت عن عرشها، بكل ما لديها من سلطة، وصرخت:

- يا للعنة! اهدؤوا، وإلا ستقلع الكروائات عيونكم!

لم يهتم أحد سواي بذلك، لأنني الوحيد الذي لم تتحمل روحه تذوق السانكوتشو المدنس. وبدلاً من أن أذهب للنوم، سارعت بالذهاب إلى مكتب كرونيكا، وكتبت في نفس واحد، قصة قصيرة عن ثلاثة زبائن في ماخور، تقتلع الكروائات عيونهم، ولا يصدق ذلك أحد. كان حجم القصة أربع صفحات من القطع الرسمي، وبفراغ مزدوج بين الأسطر. وكانت مروية بصيغة المتكلم المفرد، وهو في هذه المرة دون اسم. إنها

قصة ذات واقعية شفافة، وهي مع ذلك أكثر قصصي لغزية. وقد جعلتني أتوغل في انجواء كنت أوشك أن أهجره، لأنني لم أعد قادراً على مواصلة. بدأت الكتابة في الساعة الرابعة فجراً، من يوم الجمعة، وانتهيت في الثامنة صباحاً، يعدني انبهار عراف. وشواطئ منز من جانب بورفيريو مينغوثا، منفذ الهيرالدو التاريخي. أعدت تنظيم مخطط طبعة كرونيكا التي ستوزع في اليوم التالي. وفي اللحظة الأخيرة، بينما أنا قانط من مقصلة إغلاق العدد، أملت على بورفيريو العنوان النهائي الذي فكتت، أخيراً، من العشر عليه. وقد كتبه هو مباشرة، بالرصاص المصهور: "ليلة الكروائات".

لقد كانت هذه القصة بالنسبة لي، بداية مرحلة جديدة، بعد تسع قصص لا تزال في الليمبوس الميثافيزيقي. وفي وقت لم يكن لدي فيه أي مشروع لمواصلة التقدم في جنس أدبي لم أستطع الإمساك به. أعاد خورخي ثالاميا نشر القصة، في الشهر التالي، في مجلة كرونيكا، وهي مجلة ممتازة للشعر الكبير. وقد عدت لقراءتها، بعد خمسين سنة من ذلك، قبل أن أكتب هذه الفقرة بالذات. وأظن أنني غير مستعد لاستبدال فاصلة واحدة منها. ووسط الفوضى التي كنت أعيش فيها دون بوصلة، كانت تلك القصة هي بداية ربيع.

أما البلاد، بالمقابل، فكانت تعيش في دوامة. فقد رجع لاوريانو غوميت من نيويورك، ليعلن أنه المرشح المحافظ لرئاسة الجمهورية. امتنع الليبراليون عن خوض الانتخابات جبال سيطرة العنف، فاختير غوميت رئيساً في السابع من آب ١٩٥٠. وبما أن الكونغرس كان مغلقاً، فقد تولى المنصب أمام محكمة العدل العليا.

لم يكذب يمارس الحكم بجسده الحاضر، إذ أنه استقال من الرئاسة، بعد خمسة عشر شهراً، لأسباب صحية حقاً. وحلّ محله الحقوقي والبرلماني المحافظ روبرتو أوردانيسا أربيلاز، بوصفه المسمى الأول لخلافة رئيس الجمهورية. وقد فسر الليبراليون ذلك، على أنه صيغة تليق تماماً بسلوك لاوريانو غوميث، إذ تتيح له ترك السلطة في أيدي أخرى، ولكن دون أن يفقدها، ويواصل الحكم من بيته عبر شخص وسيط. وغير الهاتق، في الحالات المستعجلة.

أظن أن عودة ألفارو سيبيدا بشهادته من جامعة كولومبيا، قبل شهر من التضحية بالكروان، كانت حاسمة لتجاوز أقدار تلك الأيام المشؤومة. لقد عاد أقصر شعراً، ودون شاربه الذي كالفرشاة، وأكثر فظاظاً مما كان عليه عند ذهابه. كنت أنا وخيرمان بارغاس ننتظره منذ عدة شهور، والخوف بتملكنا من أن يكوثوا قد هدؤوا طياعه في نيويورك. وكلدنا نموت من الضحك عندما رأيناه ينزل مرتدياً سترة وربطة عنق، ويلوح مرحباً من سلم الطائرة، برواية هينغواي حديثة الصدور، عبر النهر وبين الأشجار. انتزعت الكتاب من يديه، وداعيت حافتيه. وعندما أردت أن أسأله شيئاً، سبقني ألفارو إلى القول:

- إنه براز!

غصّ خيرمان بارغاس بالضحك، وهمس لي: "لقد رجع مثلما ذهب". ومع ذلك، فقد أوضح لنا ألفارو، بعد ذلك، أن حكمه على الكتاب مجرد مزاح، لأنه بدأ بقراءته، خلال الرحلة، من ميامي فقط، وما رفع معنوياتنا، على أي حال، أنه جاء حاملاً معه، بصخب أكثر من السابق، حصية الصحافة والسينما والأدب. وخلال الشهور التالية، بينما هو يستعيد التأقلم، كان يبقينا محمومين بأربعين درجة مئوية.

لقد كانت العدوى مباشرة؛ فزاويتي "الزرافة" التي كانت، منذ شهور، تدور حول نفسها، وتضرب خبط عشواء. بدأت تنفخ من مقطعين مستلين من مسودة "البيت". أحدهما "ابن الكولونيل" الذي لم يولد قط، والآخر "ني"، عن طفلة متهمرة، طرقت بابها مرات كثيرة، بحثاً عن دروب مختلفة، ولم تجبني قط. واستعدت كذلك، اهتمام صباي بالرسوم المتسلسلة، ليس كتسلية ليوم الأحد، وإنما كجنس أدبي جديد محكوم عليه، دون مسوغ، بالبقاء في حجرة الأطفال. وكان بطل، بين الأبطال الكثيرين، هو "ديك تراكي"، واستعدت فضلاً عن ذلك، وكيف لا، ولعي بالسبب الذي غرسه في الجذع، وغذاء دون أنطونيو داكوتشي في آراكاتانكا، وحركة ألفارو سيبيدا إلى شغف إنجيلي، في بلاد تُعرف فيها أفضل الأفلام، من خلال ما يرويه الرجال. وكان من حسن الحظ، أن رجوعه توافق مع عرض فليسين بارعين: *Intruder in the Dust*، من إخراج غلارنس براون عن رواية لوليم فوكنر، وصورة جيني، من إخراج ولیم دبتريل عن رواية لروبرت ناثن. وقد غلقت على الفيلمين في "الزرافة"، بعد مناقشات مطولة مع ألفارو سيبيدا، وواظمت على الاهتمام، إلى أن بدأت أنظر إلى السينما برؤية جديدة. قبل أن أتعرف عليه، لم أكن أعرف أن اسم المخرج هو الأهم، مع أنه آخر من يظهر في "السترات". فقد كانت السينما، في نظري، مجرد كتابة سيناريو وتحريك ممثلين. وما سوى ذلك ينجزه بقية أعضاء الفريق الكثيرين. عندما رجع ألفارو سيبيدا، قدم لي دورة تعليمية كاملة، عمادها الصراخ والروم الأبيض حتى الفجر، على موائد أسوأ المائات؛ لكي يعلمني، بالضرب، ما علموه إياه في الولايات المتحدة. عن السينما. وكان يطلع علينا الفجر ونحن نلهم، مستيقظين، بصنع سينما في كولومبيا.

وما خلا هذه الانفجارات المضيفة، كائن انطباعنا، نحن الأصدقاء الذين نتبع ألفارو في سرعة الطواف التي ينطلق بها، هو أنه لا يمتلك السكنية ليجلس ويكتب. ولا يمكن لنا، نحن الذين عايشناه عن قرب، أن نتصوره جالساً لأكثر من ساعة، إلى أي منضدة. ومع ذلك، بعد شهرين أو ثلاثة شهور من رجوعه، اتصلت بنا تينا مانوتاس - خطيبته لسنوات طويلة، وزوجته مدى الحياة - مدعوة، لتخبرنا بأن ألفارو قد باع شاحنته الصغيرة التاريخية، وأنه نسي في محفظتها، أصول قصصه القصيرة غير المنشورة، والتي لا توجد نسخة أخرى منها. لم يبدل ألفارو أي جهد للبحث عنها، متعللاً بذريعة خاصة به فحاشاً، بأنها "تست أو سبع قصص برازية". انهمكنا، نحن الأصدقاء والمراسلين، في مساعدة تينا في البحث عن الشاحنة التي أعيد بيعها، عدة مرات على امتداد ساحل الكاريبي والأراضي الداخلية حتى ميدلين، وأخيراً وجدناها في ورشة، في سينتيلخو، على بعد نحو مئتي كيلومتر، سلمنا الأصول المكتوبة على شرائح ورق طباعة، وكانت مجمعة وناقصة، إلى تينا، خوفاً من أن يضيّعها ألفارو مرة أخرى، سهواً أو عمداً.

نُشرت قصتان من تلك القصص في كرونيكا، واحتفظ خيرمان بارغاس بالأخباريات بضع سنوات، ريثما يجد حلاً لنشرها. وقامت الرسامة سيسيليا بوراس، الوفية للجماعة دوماً، بتزيينها برسوم ملهجة، هي صورة شعاعية لألفارو، مرتدياً كل ما هو ممكن في آن واحد زي سائق شاحنة، مهرج مهرجان، شاعر مجنون، طالب في جامعة كولومبيا أو أي مهنة أخرى، باستثناء إظهاره كرجل عادي وسوي. وقد تولت مكتبة "موندو" نشر الكتاب بعنوان جميعنا كنا يالانتظار. وكان حدثاً

أديباً، لم يتجاهله سوى النقد الأكاديمي وحده. وقد كان في نظري - وهو ما كتبته آنذاك - أفضل كتاب قصص قصيرة، يُنشر في كولومبيا، حتى ذلك الحين.

أما ألفونسو فورتمايور، من جانبه، فكان كاتب تعليقات نقدية، ومعلم أدب في الصحف والمجلات، ولكنه يخجل كثيراً من جمع كتاباته تلك، في كتاب. وكان قارئاً استثنائياً في نهمة الذي يكاد لا يقارن إلا بنهم ألفارو موتيس أو إدواردو ثالاميا. وقد كان هو وخيرمان بارغاس، ناقدان بارعين، لا سيما في نقد قصصهما أكثر من نقد قصص الآخرين. ولكن نزوتهما في العثور على قيم أدبية شابة، لم تخطئ التوجه قط. كان ذلك في الربيع الذي سرت فيه شائعة ملحة بأن خيرمان يتأخر في السهر، وأنه يكتب قصصاً بارعة. غير أنه لم يُعرف شيء عنها إلا بعد سنوات طويلة، عندما حبس نفسه في غرفة نوم، في بيت أبيه، وأحرق تلك القصص، قبل ساعات من زواجه من إلسبيتتي سوزانا ليناريس. ليتأكد من أن أحداً، بمن في ذلك هي نفسها، لن يتمكن من قراءتها، ويُعتقد أنها كانت قصصاً قصيرة ودراسات، وربما مسودة رواية، لكن خيرمان لم يقل قط، كلمة واحدة عنها، لا قبل ولا بعد. وعشية زفافه فقط، اتخذ الاحتياطات المشدودة كيلا يعرف أحد شيئاً عنها، بمن في ذلك المرأة التي ستصير زوجته، منذ اليوم التالي. لقد انتهت سوزانا إلى ما يفعله، ولكنها لم تدخل الغرفة لمنع، لأن حضانها ما كانت تسمح لها بذلك. وقد قالت لي سوزي بعد سنوات، بمزاح مشهور: "لم يكن بإمكان الخطيبة، في تلك الأونة، أن تدخل، قبل الزفاف، إلى غرفة نوم خطيبها".

لم تكن قد انقضت سنة، عندها بدأت رسائل دون رامون نصير أقل وضوحاً، وأشد كآبة وتدرية. دخلت إلى مكتبة موندو، يوم السابع من أيار ١٩٥٢، في الثانية عشرة ظهراً، ولم يكن على خيرمان أن يقول لي شيئاً لأعرف أن دون رامون قد مات، قبل يومين من ذلك، في برشلونة أخلاصه. وكان تعليقنا الوحيد، مع توالي وصولنا إلى المقهى عند الظهيرة، هو تعليق الجميع:

- يا للخسارة!

لم أكن واعياً، آنذاك، أنني أعيش سنة مختلفة من حياتي. ولم يعد لدي شك اليوم، في أنها كانت سنة حاسمة. لقد قتعت حتى ذلك الحين، بمظهري المهمل. كنت محبوباً ومحترماً من كثيرين. وألقى تقدير البعض، في مدينة يعيش كل امرئ فيها على طريقته وهواه. وكنت أمارس حياة اجتماعية مكثفة، وأشارك في منازعات قبية واجتماعية يصندل الحاج الذي أنعمه، والذي بدا كما لو أنه اشترى لحاكة الفارو سيبيدا. ولم يكن لدي سوى ينطال واحد من الكتان، وقميصين أغسلهما تحت الدوش، أثناء الاستحمام.

وبين ليلة وضحاها، لأسباب متعددة - بعضها بالغ الابتذال - بدأت ملابسني تتحسن. وقصصت شعري كالمجتدين، وشذبت شاويي وجعلته رفيعاً، وتعلمت انتعال حذاء سيناتور أهده إلي الدكتور رافائيل سارماغا، وفق طريق للشلة، ومؤرخ المدينة، لأنه كبير على مقاس قدميه. وبفعل ديناميكية وصولية غير واعية، بدأت أشعر باني أختنق من الحر، في حجرة الفندق الذي أسميناه "ناطحة السحاب"، كما لو أن أراكاتاكا موجودة في سيبيريا، وأعاني من زبائن الفندق العابرين الذين

يتكلمون بصوت عال، عند استيقاظهم. ولا أكل من التذمر لأن عصقورات الليل يواصلن اقتنياده زمر كاملة من بحارة المياه العذبة، إلى حجراتهن.

وأنا أدرك اليوم، أن مظهري كمسؤول، لم يكن بسبب فقري أو لكوني شاعراً، وإفقا لأن طاقاتي كانت مركزة بعمق، على الإصرار على تعلم الكتابة، وما إن لمحت الطريق الصحيح، حتى هجرت "ناطحة السحاب" وانتقلت إلى حي برادو الهادئ، في الجانب الأقصى الآخر، عمرانياً واجتماعياً. على بعد كوادرتين من بيت ميرا ديلمار، وعلى مسافة خمس كوادرات من الفندق التاريخي، حيث يرقص أبناء الأغنياء مع حبيبائهم العذراوات، بعد قداس يوم الأحد. أو أنني، مثلما قال خيرمان: بدأت أتحسن إلى الأسوأ.

سكنت في بيت الأخوات أبيلا - إستير، ومايتو، وتونيا -، وكنت قد تعرفت عليهن في سوكري. وكن متهمكات منذ زمن، في محاولة إنقاذي من الضياع. وبدلاً من حجرة الكرتون التي فقدت فيها الكثير من حراشف الحفيد المذل، صار لي حبتن، غرفة نوم خاصة بي، لها حمام خاص ونافذة مظلة على الحديقة، مع تقديم الوجبات اليومية الثلاث، مقابل أجر يزيد قليلاً عن راتبي. اشترت بنظراً ونصف دزينة من القمصان التروبيكالية المزينة برسوم أزهار وطيور، استحققت عليها، لبعض الوقت، سمعة سرية بأنني منغلث سفينة، وبدأت ألتقي عندئذ، في كل مكان، بأصدقاء قداماء لم يكونوا يصادفونني في أي مكان من قبل، واكتشفت بيهجة أنهم يحفظون، عن ظهر قلب، حياقات "الزراقة"، وأنهم منعصبون لجلة كرونيكا بسبب ما يسمونه، هم، كبيرياً بها

الرياضي، بل إنهم كانوا يقرؤون قصصى كذلك، دون أن يتمكنوا من فهمها. وجدت ريكاردو غونزالث ريبول، جاري في قاعة النوم في المعهد الوطني، وكان قد استقر في بارانكيًا بشهادته كمهندس معماري، وخلال أقل من سنة، حلّ شؤون الحياة، باقتنائه سيارة شيفروليه "ذيل البطة"، ذات عمر غير محدد، وكان يحشر قبيها، عند الفجر، حتى ثمانية ركاب، وقد اعتاد أن يأتي ليأخذني من البيت، في بداية الليل، ثلاث مرات كل أسبوع، كي نذهب للسهر مع أصدقاء جدد مهووسين في تقويم حال البلاد، بعضهم بصيغ السحر السباسي، وآخرون بتبادل اللكمات مع الشرطة.

عندما علمت أمي بأسر هذه المستجدات، أرسلت لي رسالة شفهية تغير تماماً عن شخصيتها: "المال يستدعي المال"، أما جماعة الشلة، فلم أخبرهم بأي شيء، عن انتقالني، إلى أن وجدتهم في إحدى الليالي، حول المنضدة، في مقهى جابي، فأمسكت بصيغة لومي دي بيغا الباردة: "ورتيت نفسي، بما يلائم ترتيبى لفوضاي". ولست أتذكر صغير استهجان مائلاً حتى في سناد كرة القدم، وقد راهن خيرمان على أنني لن أستطيع وضع تصور لأي فكرة، بعيداً عن "ناطحة السحاب"، ورأى الفارو أنني لن أحمل مغص ثلاث وجبات يومية في موعدها الدقيق، وعلى خلافهما، احتج ألفونسو إساءة تدخلهما في حياتي الخاصة، واستبعد الموضوع بفتح جدال عن الحاجة الملحة إلى اتخاذ قرارات جذرية بشأن كرونيكا. أظنهم كانوا يشعرون، في أعماقهم، بأنهم مذبذبون بشأن فوضاي، ولكنهم كانوا على درجة من الوفاق لا تتيح لهم أن يشكروني على قرارى بإطلاق زفرة راحة.

وخلافاً لما يمكن توقعه، فإن حالتي الصحية والمعنوية قد تحسنت. صرت أقرأ أقل، بسبب ضيق وقتي، ولكنني رفعت من نيرة "الزرافة"، وأجبرت نفسي على مواصلة كتابة عاصفة الأوراق في غرفتي الجديدة، مستخدماً الآلة الكاتبة الحجرية التي أعارني إياها ألفونسو فوينسيور، خلال ساعات الفجر التي كنتُ أبدها من قبل مع مونو غيراً، وصرت قادراً، في مناسـ عادي، في الجريدة، على كتابة "الزرافة"، وتعليق افتتاحي، وبعض الأخبار الكثيرة التي تُنشر دون توقيع، وتكتيف قصة بوليسية، وكتابة ملاحظات اللحظة الأخيرة من أجل إغلاق تحرير كرونيكا. ولحسن الحظ، أن الرواية التي كنت أكتبها، بدلاً من أن تصبح أسهل مع الأيام، راحت تفرض عليّ رواها الخاصة المخالفة لوجهات نظري. وكنت ساذجاً إلى حد فهمت معه ذلك، على أنه أمانة رباح مواتية.

كانت همتي متوترة، حتى إنني ارتحلت بصورة مستعجلة، قصتي القصيرة العاشرة - "أحدهم يُفسد ترتيب هذه الأزهار" -، لأن المعلق السياسي الذي حبرنا له ثلاث صفحات من كرونيكا، من أجل مقال اللحظة الأخيرة، أصيب بنوبة قلبية خطيرة، وعندما قمت بتصحيح تجارب قصتي المطبوعة فقط، انتبهت إلى أنها دراما ساكنة أخرى، من تلك التي كنت أكتبها، دون أن ألاحظ ذلك. وقد أدى هذا التناقض إلى زيادة حدة تأنيب ضميري، لأنني أبطلت صديقاً قبيلاً منتصف الليل، لكي يكتب لي المقال، خلال أقل من ثلاث ساعات، بهذه الحالة المعنوية من الندم، كتبت القصة في الوقت نفسه، وعدت يوم الاثنين، في اجتماع هيئة التحرير، إلى طرح مسألة الضرورة الملحة لخروجنا إلى الشارع، من

أجل إخراج المجلة من ركودها، بربورتاجات صداسية. ومع ذلك، فإن
الفكرة - وهي فكرة الجميع - رُفضت مرة أخرى، بالحجة المفضلة
لسعادتي: إذا ما خرجنا إلى الشارع، يفتهمونا الغنائى المشالى عن
الربورتاج، فإن المجلة لن تصدر في موعدها - إذا صدرت -. وكان
عليّ أن أفهم ذلك على أنه ثناء، غير أنني لم أستطع أن أتجاوز، قط
الفكرة الخبيثة بأن السبب الحقيقي هو الذكرى المشؤمة لتحقيقي
الصحفي عن بيراسكوتشيا.

وكان العزاء الطيب في تلك الأيام، هو المكاملة الهاتفية التي
تلفيتها من رافائيل إسكالونا، مؤلف الأغنيات التي كانت تُغنى، وما
زالت تُغنى، في هذا الجانب من العالم. لقد كانت بارانكيًا مركزًا حيويًا،
لكثرة ما يتردد عليها عازفو الأكورديون البارعون الذين كنا نعرفهم في
حفلات آراكاتاكا، ولسعة انتشارهم في إذاعات ساحل الكاريبي، وكان
غيبيرمو بوتراغو، أحد المغنيين المعروفين جداً آنذاك، يتباهى بأنه يطلع
أولاً بأول، على مستجدات بروفينشيا. وكان هناك مغن آخر واسع
الشعبية يدعى كريستينشو سالبسو، وهو هندي جاف، اعتاد الوقوف
عند ناصية محل أميركانا للمأكولات الخفيفة، ليغنى، دون أي مرافقة
موسيقية، حصاد أغانياته وأغنيات آخرين، بصوت فيه شيء من
الصفيح. إنما يغن خاص تغرد به، وفرضه على المجموع اليومية في شارع
سان بلاس. وقد أمضيت شطراً لا بأس به من شبابي المبكر، واقفاً إلى
جانبه، حتى دون أن أحبيه، ودون أن أجعله يراني، إلى أن أخفظ عن
ظهر قلب، أغنيات الجميع التي يغنيها.

وقد بلغت ذروة ذلك الشغف، في مساء يوم قاتظ، قاطعتني فيه

الهاتف، بينما أنا أكتب "الزرافة"، وحيائي صوت، مثل أصوات كثيرين
من أصدقاء طفولتي، دون العبارات والصيغ المتداولة:
- ما أخبارك يا أخي. أنا رافائيل إسكالونا.

بعد خمس دقائق، التقينا في مقهى روما لنبدأ صداقة ستستمر
مدى الحياة. ما إن انتهينا من تبادل التحية، حتى بدأت محاضرة
إسكالونا لكي يغني لي أغنياته الأخيرة. وقد غنى ألياً متفرقة منها،
بصوت خافت جداً وموزون بدقة، راققه بالقرع بأصابعه على المائدة. كان
شعر منطقتنا الشعبي يخطر بزي جديد في كل مقطع يغنيه. وقد غنى:
"سأقدم لك باقة من أزهار (لا تسيئي) لتحلي بهاها". وبينت له أنا
من جهتي، أنني أعرف، عن ظهر قلب، أفضل أغنيات منطقتهم، وأنتي
التقطتها منذ طفولتي المبكرة من نهر التقاليد الشفوية الصاحب. لكن
أكثر ما فاجأه هو أنني أتكلم عن بروفينشيا، وكانتني أعرفها.

قبل أيام من ذلك، كان إسكالونا قد سافر بالحاقله، من بييانوفيا
إلى باييدوبار، بينما هو يؤلف، ذهنياً، موسيقى وكلسات أغنية جديدة
من أجل الكرنفال، في يوم الأحد التالي. كان ذلك هو منهجه اليارع،
لأنه لم يكن يعرف كيفية كتابة الموسيقى، ولا العزف على آلة
موسيقية، وفي إحدى قرى الطريق، صعد إلى الحاقله مغني تروبادور
جوال، يتنعل صندلاً جليداً ويحمل أكورديوناً. واحد من أولئك المغنيين
الذين كانوا يجوبون المنطقة للغناء، متنقلين من مهرجان شعبي إلى آخر.
أجلسه إسكالونا إلى جانبه، وغنى له بصوت هامس، المقطعين الناجزين
من أغنيته الجديدة.

نزل العازف سعيداً في بييانوفيا، بينما واصل إسكالونا طريقه في

الحافلة إلى باييدوبار، حيث اضطر إلى التوم ليتعرق حتى الأربعين درجة التي سببها له رشح عادي. وبعد ثلاثة أيام من ذلك، كان يوم أحد الكرنفال، فكنت أغنية إسكالونا، غير المكتملة التي غناها، هماً، للصديق الطارئ، كل الموسيقى القديمة والجديدة، من باييدوبار حتى رأس لايبلا. ولم يعرف أحد سواه، من الذي نشر الأغنية، بينما هو يتعرق حتى كرفاله، ومن هو الذي وضع لها اسم: "سارة العجوز".

القصة صحيحة. ولكنها ليست غريبة ولا نادرة، في تلك المنطقة وفي أوساط نقابة المغنين تلك، حيث العجيب المدهش هو أكثر الأمور طبيعية. فالأكورديون الذي لا يعتبر آلة موسيقية خاصة بكونومبيا أو شائعة فيها، يتمتع بشعبية واسعة في مقاطعة باييدوبار. وربما يكون قد جي، به إليها من جزيرتي أروية أو كوراساو. وخلال الحرب العالمية الثانية، توقف الاستيراد من ألمانيا، وبقيت الأكورديونات التي في المقاطعة على قيد الحياة، بفضل عناية أصحابها المحليين بها. وكان أحدهم لياندرو ديث، وهو نجار لم يكن مؤلف موسيقى، عبقرياً، ومعلم أكورديون وحسب، وإنا الوحيد الذي عرف كيف يصلح تلك الآلات، طوال فترة الحرب، على الرغم من أنه كان أصم منذ الولادة. لقد كان أسلوب حياة أولئك العازفين المتجولين، هو التنقل من قرية إلى قرية، وغنا. أحداث ووفائع قصص الحياة اليومية الظرفية والعادية، في حفلات دينية أو دنيوية، ولا سيما في هرج ومرج الكرنفالات. أما رافائيل إسكالونا، فكان حالة مختلفة. فهو ابن الكولونيل كليمنتي إسكالونا، وابن أخت المطران المشهور سيليدون، وهو فوق ذلك حاصل على الثانوية من معهد سانتا مارتا الذي يحمل اسمه. بدأ بتأليف

الموسيقى، منذ طفولته المبكرة، وسط استنكاو الأسرة التي تعتبر الغناء وعزف الأكورديون من أعمال المعوزين. ولم يكن عازف الأكورديون الجوال الوحيد الحاصل على الثانوية وحسب، وإنما أحد القلة الذين يتقنون القراءة والكتابة في تلك الأزمنة، والرجل الأكثر كبرياً، وسهولة في الوقوع في الحب على الإطلاق. ولكنه لم يكن، ولن يكون الأخير؛ فهناك منهم الآن بالمئات، وهم أكثر فتوة وشباباً في كل مرة. وقد فهم بيل كليبنتون الأسر على هذا النحو، في الأيام الأخيرة من رئاسته، عندما استمع لجساعة أطفال مدرسة ابتدائية، ساقروا من بروفيشيا، لكي يغنوا له في البيت الأبيض.

في أيام حسن الطالع تلك، التقيت مصادفة، بميرثيدس بارتشا، ابنة صيدلي سوكري التي عرضت عليها الزواج مذ كانت في الثالثة عشرة من عمرها. وعلى خلاف المرات الأخرى السابقة، وافقت يومذاك، على دعوتي لها إلى الرقص، يوم الأحد التالي في فندق برادو. وقد علمتُ عندئذ فقط، أنها قد انتقلت مع أسرتها إلى بارانكيئا، بسبب الوضع السياسي الذي تزداد وطأة طغيانه أكثر فأكثر. لقد كان أبوها، ديميتريو، ليبرالياً متشدداً لم تُرهبه التهديدات الأولى التي كانت توجه إليه كلما اشتدت الملاحقة، ولا عار المنشورات الاجتماعية، ولكنه حيال ضغط أسرته، صغى ما تبقى له من ممتلكات قليلة في سوكري، وأقام صيدليته في بارانكيئا، على مقربة من فندق برادو. ومع أنه كان في سن والدي، إلا أنه احتفظ على الدوام، بصداقة شهابية معي، اعتدنا أن نعيد تحميتها في الحانة المقابلة. وانتهى بنا المطاف أكثر من مرة، إلى سكرات مجدقني سنن، مع شلة الأصدقاء، بكاملها، في حانة الرجل الثالث.

كانت ميرثيديس تدرس، آنذاك، في ميديلين، ولا تأتي للعيش مع أسرته إلا خلال عطلة أعياد الميلاد. لقد كانت مريحة ولطيفة في تعاملها معي، على الدوام، ولكنها تمتلك موهبة مشعوذ في التخلص من الأسئلة والإجابات، وعدم الالتزام بأي شيء محدد. وكان عليّ أن أقبل ذلك، على أنه استراتيجية أكثر رحمة من عدم الجبلة أو الصد. وكنت أكتفي بالتقاني مع أبيها وأصدقائه في الحانة المقابلة. وإذا كان هو نفسه لم ينتبه إلى اهتمامي بإجازات ابنته التي أنتظرها بلهفة، فلأن السر كان أفضل الأسرار صوتاً خلال العشرين قرناً الأولى من التقويم المسيحي. لقد تباهى مرات عديدة، في "الرجل الثالث"، بالجملة التي ذكرت في نفسها في حفلة رقصنا الأولى في سوكري: "أبي يقول إنه لم يولد بعد، الأمير الذي سيتزوجني". ولم أعرف إذا ما كانت تؤمن فعلاً بذلك. ولكنها كانت تتصرف كما لو أنها تؤمن به، حتى عشية عيد الميلاد ذاك الذي وافقت فيه على أن نلتقي يوم الأحد التالي، في حفلة الرقص الصباحية في قنديل برادو.

إنني أؤمن بالتحفافات، إلى حد أنني عززت قرارها بالقبول، إلى طريقة الفنانين التي قص بها الحلاق شعري وشايري، وإلى بدلة الكتان الخام وربطة العنق الحريرية اللتين اشتريتهما للناسبة، من تصفية أنراك. ولأنني كنت واثقاً من أنها ستحضر مع أبيها، مثلما تفعل حين تدعيني إلى أي مكان، فقد دعوت كذلك، أختي عابدا روسا، وكانت تُفضي إجازتها معي. ولكن ميرثيديس حضرت وحيدة بروحها، ورقصت بصورة طبيعية وبكثير من المرح، بحيث يمكن لأي عرض جدي أن يبدو لها مضحكاً. في ذلك اليوم دشّن الموسم الذي لا ينسى لصديقي باتشو

غالان، المبدع المجيد لموسيقى "ميركوميري" التي بقي الناس يرقصون على إيقاعها طوال سنوات، وكانت أصل ألحان كاريبية جديدة لا تزال حية حتى الآن. كانت ميرثيديس ترقص جيداً على إيقاع الموسيقى الرائجة، وتستقل مهارتها لتتهرب، بتحدياتها السحرية، من العروض التي كنت أحاصرها بها. بدا لي أن تكثيها يرمني إلى جعلي أظن أنها لا تأخذني على محمل الجد، ولكنني كنت أتمكن، بالمهارة التي أجدها دوماً، من العثور على طريقة للمواصلة قدماً.

أصابها الرعب في الساعة الثانية عشرة تماماً، بسبب مرور الوقت، فتركتني وحيداً في منتصف الرقصة. ولكنها لم توافق على أن أرافقها، ولو حتى الباب. وقد بدا ذلك التصرف غريباً جداً لأختي، فأحسّت بأنها المذنب بطريقه ما. وما زلت أنسال حتى الآن، عما إذا لم يكن لذلك المثال السيئ، علاقة ما بقرارها المفاجئ في الانضمام إلى دير الراهبات الساليسينيات، في ميديلين، وقد انتهى بنا الأمر، أنا وميرثيديس، منذ ذلك اليوم، إلى اختراع رموز خاصة، تتفاهم بواسطتها دون أن نقول شيئاً، وحتى دون أن يري أحدنا الآخر.

عدت إلى تلقي معلومات منها، بعد شهر من ذلك، في الثاني والعشرين من كانون الثاني من السنة التالية، برسالة مقتضبة تركتها لي في الهيرالدو: "لقد قتلوا كابيتانو"، وهذا لا يمكن له، بالنسبة لنا، إلا أن يكون شخصاً واحداً: كابيتانو خيتيلي، صديقنا في سوكري، وهو طبيب لامع، ومنشط حفلات رقص، وعاشق بالمهنة. كانت الرواية المباشرة تقول إنه قد قُتل طعنًا بسكين على يد أخوي معلمة "مدرسة تشابارال" التي رأيناها تأتي بها على حصانه. وخلال ذلك اليوم، بين برقية وأخرى، حصلت على القصة كاملة.

لم تكن أزمة الهوائيل السهلة قد بدأت بعد، وكانت المكالمات الشخصية البعيدة تُتَقَّ علىها ببرقيات مسبقة. وقد كان ردّ فعلي الأول هو ردّ فعل كاتب التحقيقات الصحفية. قررت السفر إلى سوكري لكتابه ريبورتاج صحفي. ولكنهم قسروا ذلك في الجريدة، على أنه اندفاع عاطفي. وأنا أتفهم اليوم ذلك؛ لأننا تنهك، نحن الكولومبيين، منذ ذلك الحين، في قتل بعضنا بعضاً لأي سبب. وقد نخلق الأسباب اختلاقاً في بعض الأحيان لكي تقتل؛ بينما تبقى الجرائم العاطفية ترفاً مقصصاً على الأغنياء، في المدن. بدا لي أنه موضوع أبدي، ورحت أسجل المعلومات من الشهود، إلى أن اكتشفت أمني نواباي الحفية، فتوصلت إلى ألا أكتب ذلك الريبورتاج، على الأقل ما دامت دونيا خولييتا تشيمنتو، أم كايثانو، على قيد الحياة؛ لأنها كانت، وهذه ذروة الأسباب، أم ابنها الروحية، باعتبارها عرابة تصيد هيرتاندو، الثامن في الترتيب بين أخوتي. أما ميروها - وهو ما لا بد من ذكره في أي ريبورتاج صحفي - فكان من الوزن الثقيل. ذلك أن أخوي المعلمة لهما بكايثانو، عندما حاول أن يهرب إلى بيته، لكن دونيا خولييتا، أمه، سارعت إلى إغلاق الباب الخارجي، لأنها ظنت أن ابنتها موجود في غرفة نومها. وهكذا، فإن من لم يستطع الدخول، كان هو ابنتها نفسه، وقد تمكنا من قتله بالسكاكين، عند الباب المغلق.

كان ردّ فعلي الفوري هو الجلوس لكتابة الريبورتاج عن الجريمة. ولكنني واجهت كل أنواع العوائق. لم يعد ما يهمني هو الجريمة بحد ذاتها، وإنما الموضوع الأدبي عن المسؤولية الجماعية. إلا أن أمني لم تقنع بأي حجة. وبدا لي أن الكتابة دون موافقتها، هي ضرب من إساءة

الاحترام. ومنذ ذلك الحين، لم يمر يوم واحد إلا وكانت أصابعي تتحرق لهفة إلى كتابة ذلك التحقيق. وكنت قد بدأت أستسلم، بعد سنوات طويلة من ذلك، بينما أنا أنتظر طائرة مغادرة في مطار الجزائر. وفجأة فُتح باب الدرجة الأولى، ودخل أمير عربي بعباءة تشبه من عباءات بني قوصه، وعلى قبضته أنثى صقر جوال بديعة. وبدلاً من غصامة الجلد التقليدية التي توضع للبيزان المروضة، كانت على أنثى الصقر تلك واحدة، من الذهب مرصعة بالماس. لقد تذكرت، بالطبع، كايثانو خيتيلي الذي كان قد تعلم من أبيه، فنون التصقر الجسيلة؛ في اليد، يواشق محلبة، وبعد ذلك، بشاذج بديعة من الصقور المجلوبة من بلاد العرب السعيدة، وكان يملك في مزرعته، عند موته، محترفاً لتربية الصقور، فيه ذكر وأنثيان مروضة ومدربة على اصطباد الجمل. وصقر اسكتلندي مدرب على الدفاع الشخصي. وكنت أعرف، آنذاك، المقابلة التاريخية التي أجراها جورج بليمبتون مع إرنست هينغواي في مجلة "ذي باريس ريفيو"، وسأله فيها عن عملية تحويل شخصية من الحياة الواقعية إلى شخصية روائية. وقد رد عليه هينغواي: "إذا ما شرحت كيف أفعل ذلك، فسوف أخول، في أحد الأيام، إلى مرجع للمحامين المتخصصين في قضايا القروح والشهيرة". ومع ذلك، ومنذ ذلك الصباح الذي وفرته لي العناية الإلهية في مدينة الجزائر، كان وضعي معكوساً تماماً؛ لم أعد أشعر بأنني سأجد الحماسة على مواصلة العيش بسلام، ما لم أكتب قصة موت كايثانو.

واصلت أمني التمسك بإصرارها على منع ذلك، مهما كانت الدرائع، إلى ما بعد ثلاثين سنة من المأساة؛ عندما اتصلت هي نفسها بي، وأنا

قال لي:

- أنت لا تدرك ما هو ذلك الجحيم، لأنك تعيش في واحة السلام هذه. أما نحن، فما زلنا أحياء هناك، لأن الرب يعرفنا.

كان واحداً من أعضاء الحزب المحافظ القليلين الذين لم يضطروا إلى التواوي عن أنظار الليبراليين المتأججين غضباً. بعد التاسع من نيسان؛ أما جماعته الذين كانوا يلوذون في ظله، فقد نبذوه الآن، بسبب فتور حماسه. رسم لي لوحة بالغة الرعب - وبالغة الواقعية - تسرع تماماً قراره المتسرع بالتخلي عن كل شيء، والانتقال بالأسرة إلى كارتاخينا. لم تكن لدي حجة عقلانية أو عاطفية ضده، ولكنني فكرت في أنه قد يفهم ذلك على أنه حل أقل جذرية من الانتقال الفوري.

كان لا بد لي من كسب الوقت للتفكير. تناولنا شرباً مرطباً ونحن صامتان. كل منا مستغرق في أفكاره. وقد استرد هو مثاليته المحسومة قبل الانتهاء، وشلّ قدرتي على الكلام حين قال، وهو يطلق زفرة رهبة: "عزائي الوحيد في كل هذا الأمر، هو سعادتي في أنك ستتمكن أخيراً من إنهاء دراستك". لم أخبره قط، بالتأثر الذي سببته لي سعادته الوهسية تلك، يقضية على ذلك القدر من الاشتغال. أحسست بنفحة جليدية في بطني، تفجّرها الفكرة الخبيثة بأن رحيل الأسرة ليس سوى حيلة منه لإجباوي على أن أصير محاصراً. نظرت مباشرة إلى عينيه وكأننا بركتني ذاهلتين، إنه ينهني إلى أنه في حالة من الحذلان والجزع، لن يجبرني معها على شيء، ولن يرفض لي رأياً. ولكن إيمانه بنصيبه من العناية الإلهية، كان كافياً لأن يعتقد بأنه يمكن لي أن أستسلم من التعب. بل أكثر من ذلك: فقد كشف لي بالحساسية الأسرة نفسها، أنه قد

في برشلونة، لتطلعني على الخبر السيئ بأن خوليتا تشيمنتو، أم كايثانو، قد هانت دون أن تستعيد توازنها لفقدان ابنتها. ولكن أمي لم تجدد، في هذه المرة، بأخلاقها المجرية، مبررات لتعني من كتابة الريبورتاج. فقالت لي:

- إنني أرجو منك، كأم، شيئاً واحداً فقط. تعامل مع الموضوع، كما لو أن كايثانو هو ابني.

نُشرت القصة التي تحمل عنوان "قصة موت معلن"، بعد سنتين من ذلك. ولم تقرأ أمي الكتاب لسبب أحفظ به، في متحفني الشخصي، كجوهرة أخرى منها: "إن أمراً حدث يثل ذلك سوء في الحياة، لا يمكن له أن يكون جيداً في كتاب".

رَنَ الهاتف على منضدة عملي، في الساعة الخامسة مساءً، بعد أسبوع من موت كايثانو. وكنت قد بدأت بكتابة واجبي اليومي في الهيرالدو. كان المتصل هو أبي. وقد وصل، لنوء، إلى بارانكيلا دون إشعار مسبق. وكان ينتظرنني بصورة مستعجلة في مقهى روما. أرعني تهديج صوته، ولكنني دُعرت أكثر، حين رأيته مثلما لم أراه من قبل: مشعث المظهر وبذقن غير حلقة، يرتدي بدلة التاسع من نيسان الزرقاء السماوية، وقد لاکها الحر وطريق السفر. ولا يكاد يستند إلا إلى سكتة المهزومين.

سيطر عليّ ضيق لا أشعر معه بأني قادر على نقل الغم والبراءة للذين أطلعني بهما أبي، على الكارثة الأسرية. فبلدة موكري، فردوس الحياة السهلة، والفتيات الجميلات، قد اتسقت لتتبار العنف السياسي المتلاطم. ولم يكن موت كايثانو سوى أحد أعراضه.

حصل لي على وظيفة في كارتاغينا، وأن كل شيء جاهز لأبدأ عملي يوم الاثنين التالي. إنها وظيفة كبيرة، أوضح لي، لا يشوجب علي الذهاب إليها إلا مرة كل خمسة عشر يوماً، لقبض راتبي.

كان ذلك أكثر بكثير مما أستطيع هضمه. ضغطت علي إنساني، وأنا أقدم له مسيقاً، بعض التحفظات لتهيئته من أجل رفض نهائي. أخبرته بمحادثتي الطويلة مع أمي، خلال الرحلة إلى أراكاتاكا التي لم أتلق منه أي تعليق حولها. ولكنني فهمت أن تجاهله الموضوع، هو أفضل إجابة. وكان المحزن في الأمر هو أنني أأعياه، وأنا أدرك مسبقاً أن النتيجة محسومة، لأني كنت أعرف أنني لن أقبل في الجامعة، بعد أن خسرت مادتين من السنة الثانية، لم ألحق فيهما قط، فضلاً عن مادتين أخريين لا يمكن لا سبيل إلى استيفائهما من السنة الثالثة. وقد أخفيت الأمر عن الأسرة لكي أجنبها غملاً لا طائل منه، ولم أثنأ أن أتصور ما سيكون عليه رد فعل والدي، إذا ما أخبرته بالحقيقة في ذلك المساء. كنت قد صمت، عند بدء المحادثة، على ألا أخضع لأي ضعف قلب، لأنني كنت سأناغم لرؤية رجل طيب مضطر إلى الظهور أمام أبنائه، مثل ذلك المظهر من الهزيمة. ومع ذلك، فقد بدا لي أنني أمتح قدرة أكبر من الثقة للحياة. ثم استسلمت أخيراً، للمعادلة السهلة بتحديد ليلة رحمة وغفران، للتفكير في الأمر. فقال لي:

- موافق، شريطة ألا تتوارى عن الأنظار، لأن مستقبل الأسرة بين يديك.

إنه شرط كائن. فقد كان يعني جيداً نقطة ضعفي، حتى إنني عتدما ودعته في الحافلة الأخيرة، في الساعة السابعة ليلاً، اضطررت إلى كبح

قلبي كيلا أذهب معه في المقعد المجاور، كان واضحاً بالنسبة لي، أن الدوة قد اكتملت، وأن الأسرة ستعود فقيرة إلى حد لا يمكنها معه الحفاظ علي بقائها إلا بتعاون الجميع.

لم تكن الليلة مناسبة لاتخاذ أي قرار. فقد أخلت الشرطة، بالقوة، عدة أسر من اللاجئين القادمين من المناطق الداخلية، ممن أقاموا مخيمهم في حديقة سان نيكولاس، هرباً من العنف في الأرياف. ومع ذلك، كان السلام المتبع يسيطر على مقهى روما. وكان اللاجئين الإسبان يسألونني دوماً عن أخبار دون رامون فينيس، فأرد عليهم على الدوام مازحاً، بأن رسائله لا تتضمن أخباراً عن إسبانيا وإنما أسئلة متعلقة عن بارانكيّا. ومنذ أن مات، لم يعودوا إلى ذكر اسمه، ولكنهم أبقوا كرسيه شاغراً على المنضدة. هنأني أحد الرواد على "الزوافة" المنشورة في اليوم السابق، لأنها ذكرته بطريقة ما، برومانسية مريبانو خوسيه دي لارا المؤثرة. ولم أدر قط، سبب ذلك. وقد أخرجني الأستاذ بيريث دومينش من المأزق، بإحدى عباراته التي تأتي في وقتها المناسب: "أجل ألا تحذو كذلك حذو مثله السيئ، بإطلاق رصاصة على نفسك". وأظن أنه ما كان ليقول ذلك، لو أنه عرف إلى أي حد، كان قوله صحيحاً في تلك الليلة.

بعد نصف ساعة من ذلك، اقتدتُ خيرمان بارغاس من ذراعهِ إلى عمق مقهى جابي. وما إن قُدم لنا ما طلبناه، حتى قلت له إنني أريد استشارته في أمر مستعجل، بقي هو مسكاً بالفنجان الذي كان يوشك أن يتذوقه - مثل دون رامون بالضغط -، وسألني مدعوراً:

- إلى أين ستذهب؟

أدهشني بصيرته، فقلت له:

- وكيف عرفت؟

لم يكن يعرف، ولكنه توقع ذلك، وكان يرى أن رجلي سيعتني
نهاية كرونيتكا، وأنه انعدام حس بالمسؤولية خطير سيقتل على طوال ما
تبقى من حياتي. وأوحى إليّ بأن ذلك لا يقل إلا قليلاً عن الحياة،
ولم يكن هناك من له الحق أكثر منه في أن يقول لي ذلك. لم يكن أحد
منا يعرف ما الذي ستفعله بمجلة كرونيتكا، ولكننا جميعاً كنا ندرك أن
ألفونسو قد حافظ على بقائها في لحظة مصيرية، وتحمل نفقات تقوق
إمكاناتنا. ولهذا لم أستطع قط أن أنتزع من رأس خيرمان الفكرة
المحبشة بأن ذهابي الذي لا مفر منه، هو نهاية الحكم بالموت على المجلة.
إنني واثق من أنه، هو الذي يفهم كل شيء، كان يعرف أن صبراتي
قاهرة. ولكنه أنجز واجبه الأخلاقي بأن قال لي ما يفكر فيه.

في اليوم التالي، وبينما ألفارو سيبيدا يوصلني إلى مكتب
كرونيتكا، قدم لي دليلاً مؤثراً على التشعيرية التي تسببها له تقلبات
الأصدقاء الحميمة، مما لا شك فيه أنه كان على علم، من خلال خيرمان،
بقراري في المغادرة. وقد أنقذنا، نحن الاثنين، خجله النموذجي، من أي
ذرائع متكلفة، فقد قال لي:

- يا للجنة، الذهاب إلى كارتاخينا لا يعتبر ذهاباً إلى أي مكان.
الفضاعة هي في الذهاب إلى نيويورك، مثلما حدث لي، أما هنا فأنا
على أحسن حال.

كان هذا هو نوع الردود الحكيمة التي تفيدني في حالات كهاتلي،
لبنجاحي الرغبة في البقاء، وللأسباب نفسها، لم تفاجئني رغبته في
الصحف للمرة الأولى. عن مشروع صنع سبينا في كولومبيا، والذي

ستواصله دون التوصل إلى نتائج، طوال ما تبقى من حياتنا. تطرق إلى
الموضوع بطريقة متوازية لتسري مع شيء من الأمل. وضغط مكبح
السيارة فجأة، بين الجموع المتوقفة والحانات الصغيرة. في شارع سان
بلاس، ثم صرخ بي من نافذة السيارة:

- لقد أخبرت ألفونسو بأن يرسل هذه المجلة إلى المجيم، ولتصنع
واحدة مثل التام!

المحادثة مع ألفونسو، لم تكن سهلة لي وله على السواء؛ إذ كانت
هناك مسألة تحتاج إلى توضيح من كلينا، منذ نحو ستة شهور، وكلانا
كنا نعاني نوعاً من التلعثم الذهني في المناسبات الصعبة. فقد حدث
في إحدى نوبات غفسي الصبيانية، ونحن في غرفة الإخراج، أن حذف
اسمي ومنصبي من قائمة هيئة تحرير كرونيتكا، ككتابة عن استقالة
رسمية. وعندما مرت العاصفة، نسيت إعادة إدراجهما. لم ينتبه أحد
إلى ذلك قبل خيرمان بارغاس، بعد مرور أسبوعين. وقد تحدث في الأمر
مع ألفونسو الذي فوجئ به أيضاً. وقد أخبرهما بورفيريو، مسؤول قسم
الإخراج، كيف حدثت المشكلة؛ فاتفقا على ترك الأمور على حالها، إلى
أن أعرض عليهما وجهة نظري ومبرراتي. ولسوء حظي أنني نسيت الأمر
تماماً، حتى اليوم الذي توصلت فيه أنا وألفونسو إلى الاتفاق على أن
أترك كرونيتكا. وعندما انتهينا، ودعني وهو يكاد يموت من الضحك،
بمداعبة من مداعباته، وكانت قوية ولكنها لا تقاوم؛ إذ قال:

- لحسن الحظ، أننا لن نضطر حتى إلى حذف اسمك من هيئة
التحرير.

عندئذ فقط، استعدت الحادث كضربة سيئة، وأحسست أن الأرض

تغور تحت قدمي، ليس بسبب ما قاله ألفونسو بطريقة مناسبة تماماً، وإنما لأنني نسيت توضيح الأمر في حينه. ومثلما هو مأمول منه، قدم لي ألفونسو تفسير شخص ناضج. إذا كان ذلك هو الحلاف الوحيد الذي لم نوضحه، فليس من اللائق تركه معلقاً في الفضاء دون تفسير. وما تبقى سيقوم به ألفونسو مع ألفارو وخيرمان، وإذا كان لا بد من إنقاذ المركب، يتعاون الجميع، فإنه يمكن لي أنا أيضاً، أن أعود خلال ساعتين. وكنا نضع في اعتبارنا، كاحتياطي أخير، الاستعانة بمجلس التحرير؛ كنوع من العناية الإلهية، وإن لم نصنق قط، من جمعه للجلوس على جانبي منضدة خشب الجوز التي نتخذ عليها القرارات الكبرى.

منحتني تعليقات خيرمان وألفارو الشجاعة التي كنت أفقدها من أجل المغادرة. وقد تفهم ألفونسو مبرراتي وتقبلها بآريحية، ولكنه لم يُلحَ بأي شكل، إلى أنه يمكن لمجلة كرونিকা أن تنتهي باستقالتي. بل على العكس، فقد نصحتني بأن أتناول الأزمة بهدوء، وطمانني بفكرة تشبيد قاعدة واسخة للمجلة، مع مجلس التحرير، وأنه سيخبرني عندما يتمكن من تحقيق شيء، يستحق العناء، فعلاً.

كان تلك هي أول إشارة المظها في أن ألفونسو يضع في اعتباره الاحتمال غير المعقول، في أنه يمكن لمجلة كرونিকা أن تنتهي. وهذا ما حدث، دون أحزان ولا آمجاد، في الثامن عشر من حزيران، بعد مئة وثمانية أعداد، في أربعة عشر شهراً. ومع ذلك، لدى الطغيان، بعد انقضاء نصف قرن، بأن المجلة كانت حدثاً مهماً في الصحافة الوطنية. لم تبق منها مجموعة كاملة، وإنما الأعداد الستة الأولى فقط، وبعض القصصات في مكتبة دون رامون قبنيس الكتالانية.

ومن محاسن المصادفات، أن أصحاب البيت الذي كنت أعيش فيه آنذاك، أرادوا استبدال أثاث الصالة، وعرضوه علي بسعر زهيد. وعشية السفر، عند تصفية حساباتي في الهيرالدو، وافقوا على منحي أجر ستة شهور من "الزرافة" مقدماً. فاشترت بجزء من تلك النقود أثاث مايتو لبيتنا في كارتاخينا، لأنني كنت أعلم أن الأسرة لن تأتي معنا بأثاث بيتنا في سوكري، وليس لديها موارد لشراء أثاث آخر. ولا يمكنني أن أتجاهل أن ذلك الأثاث لا يزال، بعد خمسين سنة أخرى من الاستخدام، في حالة جيدة، وفي الخدمة، لأن الأم الممتنة لم تسمح ببيعه.

بعد أسبوع من زيارة أبي، انتقلت إلى كارتاخينا بحمولة الأثاث وحدها، وشي، أكثر بقليل من الملابس التي كنت أرتديها، وعلى خلاف المرة الأولى، كنت أعرف كيف أفعل كل ما يجب فعله، وعلى ذراية بكل ما أحتاج إليه في كارتاخينا. وكنت أفرغ من كل قلبي، في أن تمضي أمور الأسرة على أحسن حال، وأن تكون سيرة بالنسبة لي، كعقاب على افتقادي للعزبة.

كان البيت في موقع جيد من حي لا بويلا، في ظل الدبر التاريخي الذي يبدو، على الدوام، أنه على وشك أن ينهار. وكانت غرف النوم الأربع والمساكن في الطابق السفلي، محجوزة للأبوين والأيتام، الأحد عشر: أنا أكبرهم، في السادسة والعشرين من عمري تقريباً؛ وإلبخيو أصغرهم، في الخامسة. وقد تربى الجميع جيداً على ثقافة الكاريبي ذات أراجيج النوم والحضائر على الأرض، والأسرة لمن وجدوا لها مكاناً.

أما في الطابق العلوي، فكان يعيش العم هيرموجنس سول، شقيقي أبي، مع ابته كارلوس مارتينيث سيماهان. لم يكن البيت بكامله كافياً

لكل ذلك العدد، إلا أن قيمة الإيجار كانت معتدلة بفضل علاقات العم مع مالكة البيت التي لم تكن تعرف عنها سوى أنها امرأة غنية جداً. وتدعى لابييا. وسرعان ما وجدت الأسرة، بموهبتها في السخريّة، عنواناً يارعاً للبيت، له إيقاع أغنية: "بيت لابييا في حي لابوبيا".

ما زال انتقال القبيلة، بالنسبة لي، مجرد ذكرى يلفها الغموض. كان التور قد انقطع عن نصف المدينة. وكنا نحاول أن نهين البيت في العتمة، لكي ينام الصغار. وكنا نحن الأخوة الكبار نتعرف بعضنا على بعض، من أصواتنا. أما الصغار فكانوا قد تبدّلوا كثيراً منذ زيارتي الأخيرة، حتى إن عيونهم الهائلة والحزينة كانت ترعيتني على ضوء الشموع، عانيت من فوضى الصناديق، والحزم، وأراجيح النوم المعلقة في الظلام، وأحسست كما لو أنني أعيش تاسعاً من نيسان منزلياً. ومع ذلك، فإن تأثري الأكبر أحسست به عندما حاولت تحريك كيس بلا شكل راح يفلت من يدي. وكان ما يحسبه هو رفات المدة ترانكيلينا، فقد نبتت عنها أُمي. وجاءت بها معها لتودعها في مقبرة سان بيدرو كلاتير، حيث توجد رفات أبي والحالة الفيرا كارييرو في المدفن نفسه.

لقد كان عسي هيرصوخينس سول رجل العناية الإلهية في حالة الطوارئ تلك. فقد عُيّن أميناً عاماً لإدارة الشرطة في كارتاخينا. وكان تدبيره الجذري الأول هو فتح ثغرة بيروقراطية لإنقاذ الأسرة. فمن ليهم أنا، الضال السياسي، ذو السمعة الشيوعية التي لم أكسبها بأيديولوجيتي، وإفلا نظرتني في المجلس، كانت هناك وظائف للجميع. فقد مُنح أبي منصباً إدارياً دون مسؤولية سياسية. وعُيّن أخي لويس إتريكلي محرراً، ومُنحت أنا وظيفة براتب وبلا عمل في مكاتب الإحصاء

الوطني الذي انكبت الحكومة المحافظة على إنجازه، ربما تتوفر لها فكرة عن عددنا، نحن الخصوم المتيقين على قيد الحياة. وقد كانت الكلفة الأخلاقية لتلك الوظيفة، أشد خطراً بالنسبة لي من كلفتها السياسية. لأنني كنت أقبض راتبي كل أسبوعين، ولا أظهر في القطاع بقية الشهر، تفادياً للتساؤلات. وكان التبرير الرسمي، ليس لي وحدي، وإنما لأكثر من مئة موظف آخر، هو أننا في مهمة خارج المدينة.

كان مقهى موكا، قبالة مكاتب الإحصاء، يزدحم بموظفين زائفين من القرى المجاورة، ممن يأتون لقبض رواتبهم وحسب. لم يكن يتبقى فلس واحد لاستخدامي الشخصي. خلال الفترة التي وقّعت فيها جدول الرواتب، لأن راتبي كان مهماً، ويذهب بكامله إلى الموازنة المتزيلة، وفي أثناء ذلك، حاول أبي إعادة تسجيلي في كلية الحقوق، وصُدِّم بالحقيقة التي أخفيتها عنه. وقد أحسست بالسعادة، كما لو أنني تلّت الشهادة، لمجرد أنه عرف بالأمر. وكانت سعادتني أكثر جذارة من ذلك، لأنني وجدت الوقت والمكان أخيراً، وسط كل تلك التناقضات والمشاحنات، لأنهي الرواية.

لدى دخولي إلى جريدة الأوتيفرسال، جعلوني أشعر كما لو أنني قد رجعت إلى البيت. كانت الساعة السادسة. أشد الساعات نشاطاً وحركة. غير أن الصمت الوعر الذي فرضه دخولي على آلات اللبثوتيب والآلات الكاتبة، شكل عقدة في خنجرتي. بدا لي كما لو أنه لم تقض لحظة واحدة على فراقي للمعلم نابالا، بحصل شعره الهندي. وقد طلب مني، كما لو أنني لم أغادر قط، معروف بأن أكتب له تعليقاً افتتاحياً مستعجلاً. كان يشغل أني الكاتبة مراهق مبتدئ، تعثر بتعجله المرتبك وهو يخلي لي

المقعد. وكان أول ما فاجأني هو صعوبة كتابة تعليق مغفل التوقيع، بالوصانة التي تتطلبها الافتتاحية، بعد حوالي سنتين من تجاوزي كل الحدود في "الزرافة". كنت قد أنهيت كتابة صفحة عندما اقترب المدير لويس إسكوريانا لتحييتي. فتورع البريطاني كان موضوعاً شائعاً في مساهرات الأصدقاء، ورسوم الكاريكاتير السياسية. وقد أثر بي خجل سعادته، وهو يحييني معانقاً. عندما أنهيت كتابة التعليق، كان شاباً لا ينتظرنني، وسعه قصاصة ورقة أجرى عليها المدير بعض الحسابات. ليشرح عليّ راتباً من مئة وعشرين بيزو، في الشهر. مقابل كتابة تعليقات افتتاحية. أذهلني الرقم، وهو غير المعقول في ذلك الزمان وذلك المكان، حتى إنني لم أحب ولم أقدم الشكر. وإنما جلست لأكتب تعليقين آخرين، شعلاً بالإحساس بأن الأرض تدور فعلاً حول الشمس. بدا ذلك كما لو أنني قد عدت إلى الأصول. فالموضوعات نفسها التي يصححها المعلم شاباً بالغير الأحمر، وتحذف منها الرقابة نفسها، كلمات من خلال رقيب هزمه تحاليل المحررين؛ وأنصاف الليل نفسها، العابقة بعفونة الخيل ورائحة القلقاس في مطعم الكهف؛ وموضوع الحديث نفسه عن إعادة تركيب العالم، حتى الفجر في شارع الشهداء. كان روحاً هيراثو قد أمضى سنة في بيع اللوحات كي ينتقل إلى أي مكان آخر. إلى أن تزوج من روسا إيسابيل العظيمة، وانتقل إلى بوغوتا. كنت أجلس في آخر الليل، لأكتب "الزرافة" التي أرسلها إلى الهيرالدو بالوسيلة الوحيدة الحديثة في ذلك الحين، ألا وهي البريد العادي. وكان يتخلل ذلك تخلفي، في أحيان قليلة، عن كتابتها لأسباب قاهرة، إلى أن أكملت سداد الدين.

الحياة مع الأسرة بكاملها، وفي ظروف يتحكم بها القدر، ليس مجالها الذاكرة، وإنما المخيلة. كان الأيوان بنامان في حجرة. في الطابق السفلي، مع بعض الصغار. وكانت الأخوات الأربع يشعرن بأن لهن الحق في حجرة لكل واحدة منهن. وفي الحجرة الثالثة، كان بنام هيرناندو وألفونسو ريكاردو، حيث يرعيان الصغير خيمي الذي يبقيهما في حالة تأهب بمواعظه الفلسفية والرياضية. أما ريتا ذات الأربع عشرة سنة، فكانت تدرس حتى منتصف الليل، أمام الباب الخارجي، تحت نور مصباح الشارع، لكي تقتصد في نور البيت. كانت تحفظ الدروس عن ظهر قلب، وتغنيها بصوت عالٍ. بالطرف والإلقاء الجيد اللذين ما زالت تحتفظ بهما. غرائب كثيرة في كتيبي مصدرها قمارين قراءتها، عن البغلة التي تمضي إلى الطاحونة، وشوكولاته الصبي ذي البرنيطة الصغيرة، والعراف الذي يتغمس في الشراب. كان البيت أكثر حياة، وأكثر إنسانية قبل ذلك، منذ منتصف الليل، ما بين الذهاب إلى المطبخ لشرب الماء، أو الذهاب إلى المراض، لقضاء حاجات سائلة أو صلبة مستعجلة، أو في تعليق أرجيح النوم متقاطعة على مستويات مختلفة في الممرات. كنت أعيش في الطابق الثاني مع غوستافو ولويس إنريكي - عندما انتقل العم وابته للاستقرار في بيتهما الأسري -، بعد ذلك مع خيمي الخاضع لوقف موعظه حول أي شيء، بعد الساعة التاسعة ليلاً. وفي إحدى الليالي، أبقانا نغماً باهت ومتناوب، يطلقه حمل يقيم، مستيقظين عدة ساعات، فقال غوستافو حانقاً:

- يبدو كما لو أنه فتار.

لم أنس ذلك قط، لأنه كان نوعاً من التشبهات التي كنت أتلقفها

في تلك الأزمنة، على الطائر، من الحياة الواقعية، لأضئها روايتي الوثيقة.

كان البيت الأكثر حيوية بين بيوت كارتاخينا الحبيوة العديدة التي سكنها، والتي راح مستواها ينخفض، باطراد، مع تقلص موارد الأسرة. قضى بحثنا عن بيوت أرخص، راح مستواها ينحدر حتى وصلنا إلى بيت توريل، حيث كان يظهر في الليل، شبح امرأة. وقد حالفني حسن الحظ بعدم وجودي هناك، ولكن شهادات الأبرين والأخوة وحدها، سببت لي قدراً من الذعر، يعادل كوني موجوداً. كان أبواي يتناويمان في الليلة الأولى، على الصوفا في الصالة، ورأيا تلك الرقيا التي مرت دون النظر إليهما، تنتقل من حجرة نوم إلى أخرى، بفستان مزين بزهور حمراء وشعر قصير معقود وراء الأذنين، بشرائط ملونة. وقد وصفنها أُمي بتفصيل لم يفتها فيه شكل فستانها وطراز خزانها. أما أبي، فأنكر أنه رآها، كيلا يسبب مزيداً من الدهول لزوجته، والخوف لأبنائه. ولكن الألفة التي كانت المرأة الشبح تتحرك بها في أرجاء البيت، منذ الغروب، لم تكن تسمح بتجاهلها. فقد استيقظت أختي مارغوت في فجر أحد الأيام، ورأتها عند طرف سريرها، تتضحصها بنظرة حادة. ولكن أكثر ما أفر بها، هو رعب كونها مرئية من حياة أخرى.

وفي يوم الأحد، لدى الخروج من القديس، أكدت إحدى الجارات لأُمي، أن أحداً لم يسكن ذلك البيت، منذ سنوات طويلة، بسبب تمادي المرأة الشبح التي ظهرت مرة في غرفة الطعام، في وضوح النهار، بينما الأسرة تتناول العشاء. وفي اليوم التالي، خرجت أُمي مع اثنتين من أخوتي الصغار، بحثاً عن بيت ننتقل إليه. وقد وجدته بعد أربع

ساعات. ومع ذلك، فقد تكلف معظم أخوتي مشقة في استبعاد فكرة أن شبح المرأة الميتة قد انتقل معهم.

في البيت الذي على سفح لابويا، وعلى الرغم من الوقت الطويل المتوفر لي، كانت لدي رغبة كبيرة في الكتابة. حتى إنني كنت أشعر بأن الأيام قصيرة. وهناك عاد للظهور في أحد الأيام، راميرو ديلا إسبرييا، بشهادته كدكتور في القانون، سياسياً أكثر مما كان عليه في أي وقت مضى، وحماساً بقراءته لروايات حديثة الصدور، لا سيما رواية "الجلد" لكورتو مالابارتي التي تحولت في تلك السنة، إلى كتاب حاسم لأنها، جيلي، فقد كانت تأسرننا فعالية النشر، وحدة الذكاء، والرؤية الفظة للتاريخ المعاصر، فتجذبتنا ونستغرق في قراءتها حتى الفجر. ولكن الزمن أثبت لنا، مع ذلك، أنه كان مقدراً لمالابارتي أن يكون نموذجاً جيداً لمواصفات مختلفة عن التي أرغب فيها. وانتهى الأمر بتلك الميزات، إلى استبعاد صورته. فكان حالة مناقضة تماماً لما جرى لنا، في الوقت نفسه تقريباً، مع ألبير كامو.

كان الأخوة ديلا إسبرييا يعيشون آنذاك قريباً منا، وكان لديهم تمير لتخزين الخمر، يسرقون منه زجاجات برينة ليأتوا بها إلى بيتنا. وعلى عكس نصيحة دون رامون فينيس، كنت أقرأ لهم ولأخوتي آنذاك، مقاطع مطولة من مسوداتي، في الحانة التي كانت عليها دون تشقيب، وعلى شرائح ورق المطبوعة نفسها التي كتبتُ عليها كل ما كتبت في ليالي الأوق، في الأونيفرسال.

في تلك الأيام رجع ألفارو موتيس وغونزالو مايارينوس. ولكنني كنتُ محظوظاً باحتلاك الحساء الذي يمنعني من أن أطلب منهما قراءة

المخطوط غير المنتهي، والذي لا يزال بلا عنوان، كنت أريد الاعتكاف دون راحة، لأنجز النسخة الأولى من المخطوط على ورق نظامي، قبل التصحيح الأخير. كان لدي حوالي أربعين ورقة زيادة على النسخة المتوقعة، ولكنني كنت ما أزال أجهل أنه يمكن لذلك أن يكون عشرة خطرة. وسرعان ما أدركت أنه كذلك: فأنا عبيد لصرامة في الدقة والكمال، تضطرنني إلى إجراء حساب مسبق لطول الكتاب، وإلى ضبط عدد الصفحات بدقة، في كل فصل، وفي الكتاب بجملة. وكان خطأ واحد بارز في هذه الحسابات، يجبرني على إعادة النظر في كل شيء؛ بل إن وجود خطأ في الكتابة، على الآلة الكاتبة، يشير ذعري كما لو أنه خطأ إبداعي. كنت أظن أن هذا المنهج المطلق يستند إلى رؤية مشددة في المسؤولية، ولكنني أعرف اليوم أنه كان مجرد رعب وقابض خالص.

غير أنني تجاهلت مرة أخرى، بالمقابل، نصيحة دون وأمون فيتيس، وأوصلتُ إلى غوستافو إيبارا، نسخة كاملة من الرواية، وإن كانت ما تزال دون عنوان، عندها اعتبرتها منتهية، بعد يومين من ذلك، دعاني إلى بيته، وجدته يجلس على كرسي هزاز من الخيزران، على الشرفة المطلة على البحر، يعرض جسده للشمس، ويسترخي بملابس البحر، وقد تأثرت للفرقة التي كان يداعب بها أوراقى، بينما هو يكلمني. إنه معلم حقيقي، لم يمل علي محاضرة حول الكتاب، ولم يقل لي إنه يراه جيداً أو سيئاً، وإنما جعلني أعي قيّمه الأخلاقية. وعندما انتهى، تفحصني راضياً، وانتهى إلى القول ببساطته اليومية:

- إنها أسطورة أنتيقون.

أدرك من ملامحي، أنني فقدت أنوارى، فتناول من رفوفه، كتاب

سوفوكليس، وقرأ لي ما الذي يعنيه. وبالفعل، كانت الحالة الدرامية في روايتي، في جوهرها، مطابقة لأنتيغون المحكوم عليها بترك جثة أخيها بوليتميس دون دفن، بأمر من عههما الملك كريون. كنت قد قرأت أوديب في كولون من المجلد الذي أهداه إليّ غوستافو نفسه، في الأيام الأولى لتعارفنا، ولكنني لم أكن أتذكر أسطورة أنتيقون بصورة واضحة، فتتيح لي إعادة بنائها من الذاكرة، ضمن مساحة منطقة الموز، ولم أكن قد لمحت التشابهات الانفعالية بينهما حتى تلك اللحظة. أعدت في تلك الليلة، قراءة العمل، بمزيج غريب من الفخر لتوافقي، حسن النية، مع كاتب يمثل تلك العظمة، والألم من أن يلحق بي عار الانتحال أمام الملأ، بعد أسبوع من أزمة النشوش. قررت إجراء بعض التغييرات العميقة التي تتيح لي إنفاذ حسن نواياي، دون أن أدرك أبعاد الزهو الذي يفوق طاقة البشر، وأنا أعمد إلى تعديل كتاب لي، كيلا يبدو أنه لسوفوكليس. وأخيراً أحسنت - مستسلماً - بأن لي الحق الأخلاقي في استخدام جملة له، كخاتمة ثوقيرة، وهذا ما فعلته.

الانتقال إلى كتاباتنا حسناً، في الوقت المناسب، من تردي سوكري الحرج والخطر. ولكن معظم الحسابات بدت أجلاً، سواء بسبب شح الموارد أو بسبب حجم الأسرة. كانت أُمّي تقول إن أبناء الفقراء، يأكلون أكثر من أبناء الأغنياء، ويكبرون أسرع منهم، ولكي تثبت ذلك يكفيها مثال أسرتهما. فرواتبنا جميعاً لم تكن تكفي لكي نعيش دون مفاجآت.

وقد تولّى الزمن كل ما عدا ذلك، فأخي خمسي، وفي توافظ أسري آخر، صار مهتماً صديقاً، فكان المجاز الوحيد في أسرة تنظر إلى

الشهادة الجامعية. كما لو أنها لقب نبالة. وصار لويس إنريكي معلماً في المحاسبة، وتخرج غوستافو طوبوغرافياً، وبقي كلاهما عازل الجيتار والغنى نفسه في سيرنادات الآخرين. وفاجأنا بيّو، منذ طفولته المبكرة، بميول أدبية واضحة، وبقوة شخصيته التي قدم لنا ذليلاً مبكراً عنها. وهو في الخامسة من عمره، عندما باغثوه وهو يحاول إضرام النار في خزانة ملابس. ليحقق حلسه برؤية رجال المطافئ، وهم يطفئون الحريق في البيت. وقبلاً بعد، عندما دعاه، هو وأخوه كوكي، زملاء أكبر منهما سناً، لتدخين الماريجوانا، رفض بيّو ذلك مدعوياً. أما كوكي بالمقابل، وكان قضيولاً ومنهزماً، قدخنها بعمق. وحين غرق، بعد سنوات من ذلك، في هول المخدرات، أخبرني أنه قال لنفسه منذ تلك المرة الأولى: "يا للعنة! لا أريد أن أفعل شيئاً آخر غير هذا في حياتي". ولم يفعل شيئاً آخر، خلال الأربعين سنة التالية، يشغف دون مستقبل، سوى إنجاز وعده لنفسه بالموت ضمن قوانينه، وفي الثانية والخمسين من عمره، تجاوز الحد في فردوسه المصطنع، وقضت عليه سكتة قلبية.

أما نانتيشي - أكثر الرجال حباً للسلام في العالم - فبقي في الجيش، بعد إنها خدمته العسكرية الإجبارية، وأنقذ استخدام كل أنواع الأسلحة الحديثة، وشارك في العديد من المناورات العسكرية. ولكن لم تُمنح له الفرصة قط، للمشاركة في واحدة من حروبنا المزمنة. وهكذا فتح أخيراً بهمة رجل المطافئ، عندما خرج من الجيش، ولكنه لم يجد الفرصة هناك أيضاً، لإطفاء حريق واحد طوال أكثر من خمس سنوات. غير أنه لم يشعر قط بالإحباط، بفعل حس سخريته كرسه ضمن الأسرة. أستاذاً في الدعاية القوية، وأتاح له أن يكون سعيداً لمجرد كونه حياً.

عمل بيّو، في أقصى سنوات الفقر، كاتباً وصحفيّاً بجهوده الخاصة، دون أن يدخن قط، أو يشرب فطرة واحدة أكثر مما يجب في حياته. وقد استطاعت ميوله الأدبية الجارفة، وإبداعه المتكتم أن تفرض نفسها وتتغلب على المصاعب والعقبات. ومات، وهو في الرابعة والخمسين من عمره، بعد أن أتيح له الوقت لينشر كتاباً من أكثر من ستمئة صفحة، تضم تحريات يارعة حول الحياة السرية لرواية "مئة عام من العزلة". وقد اشتغل في الكتاب، طوال سنوات، دون أن أعرف ذلك، ودون أن يسألني قط، بصورة مباشرة، عن أية معلومات.

عرفت أختي ريتا، وكانت لا تزال في سن المراهقة تقريباً، كيف تستفيد من عبء التنكيل بغيرها، فعندما رجعت إلى بيت والدي، بعد فترة غياب طويلة، وجدتها تعاني اجتياز المطهر نفسه الذي عانت منه أخواتها الأخريات، بسبب وقوعها في غرام شاب أسمر رشيق، جذبي، ووقور. والشئ الوحيد فيه غير الملائم لها، هو طول قامته الذي يزيد عنها شبرين ونصف الشبر. وجدت أبي، في تلك الليلة بالذات، يستمع إلى الأخبار، وهو في أرجوحة النوم المعلقة في مخدعه. أخفضت صوت المذياع، وجلست على السرير المقابل، وسألته بحقي، كأمين بكر، عما يحدث بشأن غراميات ريتا. فأطلق في وجهي الجواب الذي كان قد أعده، دون شك، منذ الأزل:

- الشئ الوحيد الذي يحدث هو أن الرجل لص.

وهذا هو بالضبط ما كنت أنتظره منه. فسألته:

- ماذا تعني بلص؟

فقال لي، دون أن ينظر إليّ:

- لخص. لخص.

- وما الذي سرقة؟ - سألته دون رحمة.

وواصل هو عدم النظر إليّ. ثم تنهد أخيراً:

- حسن. ليس هو، ولكن له أخاً سجيناً بسبب السرقة.

- ليست هناك مشكلة إذن - قلت له ببساطة سهلة -، لأنّ رضا لا

تريد الزواج منه، وإنّما من الآخر غير السجين.

لم يجب. لأنّ نراه أنه لا يرقى إليها الشك، تجاوزت الحدود،

منذ الجواب الأول في ذلك اليوم، فقد كان يعرف عدم صحة الإشاعة عن

الأخ السجين. وحين لم يبق لديه مزيد من الحجج، حاول التثبت بأسطورة

الكرامة.

- لا بأس. ولكن عليهما أن يتزوجا بأسرع ما يمكن، لأنني لا أريد

فترات خطوبة طويلة في هذا البيت.

وكان ردي فوراً، وبانعدام رحمة لم أغرقه لنفسه قط:

- غداً، في أول ساعات الصباح.

- يا رجل! يجب عدم المبالغة أيضاً - ردّ عليّ أبي متفاجئاً، لكنه

أظهر استسامته الأولى، وأضاف: - لا يوجد لدى هذه البيت ما تردده

حتى الآن.

المرة الأخيرة التي رأيتُ فيها العمة "با"، وهي في التسعين من

عمرها تقريباً، كانت حين جاءت إلى البيت في كارتاخينا، في مساء

ذي حر مُدَلّ، دون إشعار مسبق؛ قادمة من ريورباتشا في سيارة تكسي

إكسبريس، ومعها حقيبة تلمية؛ مرتدية ملابس حداد، وعمامة من

قماش أسود، دخلت سعيدة، بذراعين مفتوحين، وصاحت بالجميع:

- إنني آتية لأودعكم، لأنني سأمت.

احتضانها، ليس لما تشله لنا وحسب، وإنّما لأننا كنا نعلم كذلك،

مدي معرفتها لشؤونها مع الموت. بقيت في البيت، منتظرة ساعاتها في

غرفة الخدمة، وهي الغرفة الوحيدة التي قبلت النوم فيها، وهناك ماتت،

عابقة برائحة العفّة، عن عمر قدرناه بمئة سنة وسنة.

كانت تلك الفترة هي الأشدّ زحماً في الأونيفرسال. فقد كان ثابالا

يوجهني بحكمته السياسية لكي تقول مقالتي ما يجب أن تقوله، دون

أن تصطدم بقلم الرقابة. وأبدى للمرة الأولى، اهتمامه بفكرتي القديمة،

في كتابة ريبورتاجات الصحافة. وسرعان ما برز الموضوع الرهيب

للسائحين الذين حاجتهم أسماك القرش على شواطئ ماريبا. ومع ذلك،

فإن أكثر الحلول الذي خطر للبلدية أسالة، هو عرض ميلغ خمسين يورو

مقابل كل سمكة قرش تُقتل. وفي اليوم التالي، لم تعد أغصان أشجار

اللوز تكفي لعرض الأسماك التي قُتلت خلال الليل. وقد كتب هيكثور

روخاس هيراثو من بوغوتا، وهو يكاد يموت من الضحك، في عموده

الجديد في جريدة التسميو، ملاحظة ساخرة حول الفكرة غير الموقفة،

بتطبيق ذلك المبدأ الخاطئ، وفق أسلوب اقتلاع الفجل من أوراقه، على

صيد أسماك القرش. وقد وفر لي ذلك فكرة كتابة ريبورتاج عن الصيد

الليلي. ساندي ثابالا بحساس، لكن إخفاقي بدأ منذ لحظة صعودي

المركب، عندما سألتني عما إذا كنتُ أصاب بدوار البحر، وأجبت أن لا؛

وعما إذا كنتُ أخاف البحر. والحقيقة أنني كنتُ أخافه، ولكنني قلت لا.

ثم سألتني أخيراً، إذا ما كنتُ أعرف السباحة - وكان عليهم أن يوجهوا

هذا السؤال أولاً - ولم أغبراً على الكذب بأنني أعرف، ولكنني علمت

على أي حال، وأنا على اليابسة، من خلال محادثة مع بعض البحارة، بأن الصيادين يذهبون إلى بوكاس دي لينيثا، على بعد تسعة وثلاثين ميلاً بحرياً عن كارتاخينا، ويعودون محملين بأسمالك قبرش بريشة ليبعوها، على أنها الأسماك المجرمة، بخسسين بيضو. غير أن هذا الخبر العظيم انتهى في اليوم نفسه، وانتهى بالنسبة لي الحلم بكتابة الريبورتاج. فنشرت بدلاً منه قصتي الثامنة: "ثاير، الرنجي الذي جعل الملائكة يشظرون". وقد رأى ناقدان جديان على الأقل، وأصدقائي الصارمون في بارانكيا، أن القصة تشكل تحولاً طيباً في توجهي.

لا أظن أن تضجعي السياسي كان كافياً للتأثير عليّ، ولكنني عانيت في الحقيقة، انكاسة ماثلة للسابقة. فقد أحسست أنني غارق في الوحل، إلى حد أن شععتي الوحيدة كانت تتمثل في طلوع الفجر على، وأنا أغني مع السكارى في عقود قباب السور التي كانت مواخير للجنود. خلال العهد الاستعماري، ثم تحولت قبما بعد إلى سجن سياسي مشؤوم. وقد قضى الجنرال فرانثيسكو دي باولا سانتاندير فيها حكماً بالسجن لمدة ثمانية أشهر، قبل أن ينقذه رفاقه، في القضية والسلاح، إلى أوروبا.

القيم على تلك الآثار التاريخية، كان عامل لينوتيب متقاعداً، يجتمع معه، كل يوم، وملاؤه الذين ما زالوا يمارسون المهنة، بعد أن بنهوا من طباعة الصحف، للاحتفال باليوم الجديد، بدمجانة من الروم الأبيض السري، المرتب بفنن المحتالين البارعين في غش الحضور. لقد كانوا عمال طباعة مثقفين، عبر تقاليد أسرية، ونحويين دراميين، وشرعيين عظماء - أيام السبت. وقد انضممت إلى نقاباتهم.

أصغرهم سناً كان يدعى غييرمو دافيللا. وكان قد توصل إلى مأثرة الحصول على عمل في منطقة الساحل، على الرغم من تشدد بعض القادة المحليين الذين يعارضون قبول الكاتشاكوي في نقاباتهم. وربما توصل إلى ذلك بفن من فنونه السحرية، إذ كان، فضلاً عن قمره الجيد في المهنة ولطفه الشخصي، مشعرة أعاجيب. وكان يبهرننا بألاعيبه السحرية في إخراج عصافير حية من أدراج المكاتب، أو تبيض الصفحة التي نكون قد انتهينا من كتابة تعليق افتتاحي عليها، وسلمناها للتلو، بينما نحن على وشك إغلاق الطبعة، فكان المعلم ثابالا، الصارم جداً في الواجب، ينسى للحظة، باديرفسكي والثورة البروليتارية، ويطلب منا التصفيق للساحر، مع تيبهه المتكرر، والذي لا يتم التقيد به دوماً، بأنها المرة الأخيرة. أما أنا، فראيت أنني قد اكتشفت الواقع أخيراً، بمشاطرتي ذلك الساحر. روتين الحياة اليومية.

في فجر أحد تلك الأيام، في قباب السور، أخبرني دافيللا بفكرته في إصدار جريدة من قطع خمسة وعشرين وخمسة وعشرين سنتيمتراً - أي بحجم نصف صفحة نظامية - توزع مجاناً في المساء، في ساعة الازدحام عند إغلاق المتاجر. ستكون أصغر جريدة في العالم، يمكن قراءتها في عشر دقائق. وهذا ما حدث. وقد أُلصقت "المضغوطة"، وكنت أتولى كتابتها خلال ساعة من الوقت، في الحادية عشرة صباحاً، بينما يتولى دافيللا تنضيدها وطباعتها خلال ساعتين، ويوزعها بائع صحف جري، لم يكن يتاح له الوقت لينادي عليها مرتين.

صدرت الجريدة يوم الثلاثاء، الثامن عشر من أيلول، ١٩٥٦، ومن المستحيل تصور نجاح ساحق أكبر، وأمد حياة أقصر: ثلاثة أعداد في

ثلاثة أيام. وقد اعترف لي دافيلاً بأنه ما كان ليتصور، ولو بقدرات السحر الأسود، تحقيق فكرة يمثل تلك العظمة، ومثل تلك الكلفة المنخفضة، ينسج لها مكان يمثل ذلك الصغر، وتنفذ بمثل ذلك الوقت القصير، وتنفذ بمثل تلك السرعة. الأمر الأكثر شراية هو أنني توصلت إلى التفكير للحظة، في اليوم الثاني - وكنتُ نملأ بتخاطف الجريدة في الشوارع، ونحسب التعصين - في أنه يمكن لها ببساطة، أن تكون الحل لحياتي. استمر الحلم حتى يوم الخميس، عندما بين لنا المدير الإداري أن إصدار عدد آخر سيودي بنا إلى الإفلاس، حتى ولو قررنا نشر إعلانات تجارية. لأن الإعلانات ستكون صغيرة جداً، وغالبية إلى حد لا يمكن إيجاد حل عقلائي له. ففكرة الجريدة نفسها، المستندة أساساً إلى حجمها، تحمل معها - رياضياً - جرثومة دمارها: إذ أنها تصبح أقل مردوداً كلما زادت مبيعاتها.

بقيت كمن هو معلق بالصباح. فقد كان الانتقال إلى كارتاخينا مناسباً ومنفصلاً، بعد تجربة كرونيكا، فضلاً عن أنه وفر لي أجواء ملائمة جداً لمواصلة كتابة عاصفة الأوراق، ولا سيما وسط حمى الإبداع التي كنت أعيشها في بيتنا، حيث تبدو أشد الأمور الغريبة وغير المألوفة، محتملة دائماً. وكفني أن أستذكر غداء كنا نتحدث فيه مع والدي، حول الصعوبة التي يواجهها كتاب كثيرون في كتابة مذكراتهم، عندما يفقدون القدرة على تذكر أي شيء. فخرج علينا كومي ببساطة، ولم يكن قد أكمل السادسة من عمره، بالنتيجة الباهرة حين قال:

- يجب على الكاتب إذن، أن يبدأ بكتابة مذكراته أولاً، وهو ما يزال يتذكر كل شيء.

لم أتحجراً على الاعتراف بأن ما يحدث لي في عاصفة الأوراق هو الشيء نفسه الذي كان يحدث لي في "البيت"، فقد بدأت أهتم بالتقنية أكثر من الموضوع. وبعد سنة من العمل بكثير من البهجة، تكشف لي أن ما أكتبه هو متاعه دائرية بلا مدخل ولا مخرج. وأظن أنني أعرف السبب اليوم؛ فتيار تصوير العادات والتقاليد الاجتماعية الذي قدم نماذج تجوّد جيدة في بداياته، انتهى به الأمر إلى التحجر في الموضوعات الوطنية الكبرى التي حاول أن يشق بها مخرج طوارئ، وتحولها بدورها إلى مستحاثات. والواقع أنني لم أكن أحتفل لحظة أخرى من التردد. ولم يكن ينقصني سوى التحقق من المعلومات وإحكام الأسلوب، قبل أن أضع نقطة النهاية، بالرغم من أنني لم أكن أشعر بأن العمل ينتهي. ولكنني كنت متروطاً بعد كل ذلك الوقت من العمل في الظلمات، وكنت أرى أن الكتاب يفرق، دون أن أكتشف أين هي الشقوق فيه. والأسوأ من ذلك، أنني وصلت إلى مرحلة في الكتابة لا تفيدني فيها مساعدة أحد، لأن الخلط لم يكن في النص، وإنما في داخلي؛ ولا يمكن لأحد سواي أن يمتلك عيوناً ترى ذلك الخلط، أو قلباً يعانبه. وربما لهذا السبب بالذات توقفت، دون تردد، عن كتابة "الزرافة"، بعد أن انتهيت من تسديد سلطة الهيرالدو التي اشترت بها الأثاث.

لسوء الحظ أنه لم يكن بمقدور الذكاء، ولا الصمود، ولا الحب، أن تهزم الفقر. وبدأ كمن لو أن كل شيء يعمل لمصلحته. فقد انتهى العمل في جهاز الإحصاء بعد سنة، ولم يكن رائي في الأونيفرسال كافياً لتعويضه. لم أرجع إلى كلية الحقوق، على الرغم من تحصيل بعض الأساتذة عن توظيفوا لدفعي قديماً، على الرغم من عدم اهتمامي

باهتمامهم وعلمهم. لم تعد نقود الجميع قادرة على تغطية نفقات البيت. وكانت الفجوة كبيرة. بحيث أن مساهمتي لم تكن كافية قط، وكان شع الأحمال يؤثر بي أكثر من شع النقود.

وفي أحد الأيام، قلتُ أننا تناول الغدا:

- إذا كنا سنغرق جسيبتنا. فدعوني أُنجّ لعلي أحاول أن أرسل إليكم ولو زورق مخدّف صغيراً.

وهكذا ذهبنا مجدداً، في الأسبوع الأول من كانون الأول، إلى بارانكيا، بموافقة الجميع. وباليقين بأن زورقاً ما سيصلهم. ولا يد أن ألفونسو فرسايور قد تصور ذلك منذ النظرة الأولى، عندما رأيته أدخل، دون إشعار مسبق، إلى مكتبة القديم في الهيرالدو؛ ذلك أنه لم تعد هناك موارد للإبقاء على مكتب كرونيتكا. نظر إلى كما لو أنه ينظر إلى شيخ من ورا. الآلة الكاتبة، وهنت مذعوراً:

= آية لعنة تفعلها هنا دون إنذار مسبق!

وقليلة هي المرات التي أجبت بها، في حياتي، برد قريب إلى ذلك الحد من الحقيقة:

- إنني غارق تماماً، يا معلم.

استعاد ألفونسو الطمأنينة:

- آه، جيد - ردةً بوجهته الدائمة، وأردف بهيت الشعر الأكثر كمولومبية في النشيد الوطني: - الإنسانية بأسرها تتن هكنا، لحسن الحظ، في السلاسل.

لم يُبد أدنى قدر من الفضول حول سبب رحلتي. وبدأت له نوعاً من التخاطر. لأنه كان يرد على كل من يسأله عني، خلال الشهور الأخيرة،

بأنني قد أصل في أي لحظة، لأبقى هناك. نهضت سعيداً من وراء المنضدة، بينما هو يرتدي ستروته، لأنني جشته مضادة، كما لو أنني أسقط عليه من السماء. فقد كان لديه موعد. تأخر عنه نصف ساعة، لكي ينهي كتابة مقالته الافتتاحية لعدد اليوم التالي، فطلب مني أن أنهئها. ولم أكد أتأكد من مسأله سوى عن موضوعها، فأجابني من العتبة، على طريقتنا كأصدقاء، وهو يغادر مسرعاً، بتضارته التقليدية: - اقرأ ما كتبت، وستعرف.

وفي اليوم التالي كانت هناك، من جديد، ألتان كاتبان متقابلتان في مكتب الهيرالدو، وكنتُ أكتب من جديد "الزرافة"، للصفحة المعهودة نفسها. و - كيف لا - بالأجر نفسه. وفي الظروف الخاصة نفسها، بيني وبين ألفونسو، حيث تظهر في كثير من المقالات، فقرات لأحدنا أو للآخر، من المستحيل تمييزها. وقد رغب بعض طلاب الصحافة أو الأدب في تمييزها بينها، في الأرشيف، ولم يجدوا سبيلاً إلى ذلك، اللهم إلا في بعض الموضوعات المحددة، ليس من خلال الأسلوب وإنما من خلال المعلومات الثقافية.

وفي حانة الرجل الثالث، أحرصني الخبر المشؤم عن مقتل صديقنا اللص. فقد خرج في إحدى الليالي كعادته، لممارسة مهنته، والشيء الوحيد الذي عُرف عنه بعد ذلك، دون مزيد من التفاصيل، هو أنه تعرض لطلق ناري في القلب، داخل البيت الذي سطا عليه. طالبته بجثمانه أخيه الكبرى، وهي العضو الوحيد من أسرته، ولم يحضر جنازه سوانا نحن وصاحب الحانة.

رجعتُ إلى بيت الأخوات أفيلا، وواصلت ميراديلمار، وقد عادت

جارة من جديد، تطهير ليالي السبلة في القف الأسود، بسهراتها المسكنة، وكانت تبدو هي وأخوها ألبسيا، توشين في ظريقتهما في الحياة، وفي تمكتهما من جعل الزمن يصير دائرياً، عندما نكون معهما. وقد بقيتا، بطريقة خاصة جداً، ضمن الجماعة، فقد ظلنا تدعواننا، مرة واحدة في السنة على الأقل، إلى وليمة من لذائذ المأكولات العربية التي كانت تقذي روحنا. وكانت تقام في بيتهما سهرات مفاجئة لزائرين بارزين، ابتداء من فنانين كبار في أي نوع من الفنون، حتى شعراء تاهين. وأظن أنهما هما من نظمتا مبرلي الموسيقى المشوشة، وضمتاني إلى عصية المركز الفني السعيدة.

يبدو لي اليوم، أن بارانكيّا قد وفرت لي أفقاً أفضل لرواية عاصفة الأوراق؛ ذلك أنني ما إن امتلكت منضدة، عليها آلة كاتبة، حتى بدأت التصحيح بانديفاع متجدد. وفي تلك الأيام، تحرأت على عرض النسخة الأولى القابلة للقراءة، وأنا أعرف أنها غير منتهية، على شلة الأصدقاء. كنا قد تحدثنا عنها كثيراً إلى حد أن أي تنبيه كان يبدو فائضاً عن الحاجة. بقي ألفونسو يومين، يكتب قبالتني، دون أن يأتي على ذكرها. وفي اليوم الثالث، عندما أنهينا مهامنا في آخر المساء، وضع المخطوط مقترحاً فوق المنضدة، وفرأ صفحات كان قد أشر عليها بقصاصات ورقية متطاولة. وكان يبدو مترصداً لتقاط عدم الترابط، ومنقباً للأسلوب، أكثر منه تاقداً. كانت ملاحظاته يالغة الصواب، وقد أخذت بها كلها، باستثناء واحدة بدت له مقحمة دون مسوغ، حتى بعد أن أثبت له أنها حادثة واقعية من طفولتي. فقال، وهو يكاد يموت من الضحك:

- حتى الواقع نفسه يخطئ عندما يكون الأدب رديئاً، أما منهج خيرمان بارغاس فيبتلخص في أنه لا يقدم تعليقات فورية إذا كان النص جيداً، وإنما يقدم فكرة مطمئنة بتهيئها بإشارة تعجب:

- بديع!

ولكنه يواصل في الأيام التالية، إطلاق وابل من الأفكار المتفرقة حول الكتاب، ينهيها في أي ليلة عريضة، بحكم شديد. أما إذا بدا له المخطوط غير جيد، فإنه يتفق مع المؤلف على موعد، على انقواء، ويطلعه على رأيه بكل صراحة، ويلطف بالغ، لا يبقى معه للشدرب من مخرج سوى تقديم الشكر إليه من كل قلبه، على الرغم من إحساسه بالرغبة في البكاء. ولكن لم تكن هذه هي حالتي، ففي يوم لا يخطر على بال، قدم لي خيرمان، بين المزاح والجد، تعليقاً حول مخطوطتي، أعاد الروح إلى جسدي.

كان ألفارو قد اختفى من مقهى جابي، دون أدنى إشارة إلى أنه حي. وبعد أسبوع تقريباً، حين لم أكن أنتظر رؤيته، سدد علي الطريق سيارته في شارع بوليفار. وصرخ بي بأفضل مزاج لديه:

- اصعد يا معلم، سوف أخوزك لفظاً فكتك.

كانت تلك هي عبارته التخديرية، قمتا بعدة جولات، دون وجهة محددة، في المركز التجاري الملهب قبضاً، بينما ألفارو يطلق، بالصراخ، تحليلاً لقراءته أقرب إلى الانفعالي، غير أنه مؤثر. وكان يقطع كلامه كلما رأى أحد معارفيه على الرصيف، ليصرخ مرحباً إليه عبارة مداعبة متوددة أو ساخرة، ثم يواصل محاكمته العقلانية بحماس، بصوت

متهدج من الجهد. وشعر مشعث، وبتيتك العينين الزائغتين اللتين تبدوان، كما لو أنها تنظران إليّ من خلال مشهد عام وشامل. وانتهى بنا المطاف إلى تناول بيرة مثلجة على رصيف مقهى لوس أليندروس، يُشغل علينا صخب مشجعي فريق جويورد وسيورتيغ المتعصبين في سناد كرة القدم، على الرصيف المقابل؛ وأخيراً داهمنا تدافع المسوسين الخارجين من السناد، قانطين بسبب التعادل المشين بهدفين بهدفين. أما الحكم الحاسم الوحيد حول مخطوط كتابي، فقد صرخ به ألفارو في اللحظة الأخيرة، من خلال نافذة السيارة:

- ما زال لديك، على كل حال يا معلم، الكثير من رواية العادات والتقاليد!

وقد تمكنت، شاكراً، من القول له صارخاً:

- ولكنه من جيد فوكترا

فوضع هر حداً لكل ما لم يقل وما لم يفكر فيه، بفقهاء مدوية:

- لا تكن ابن عاهرة!

بعد خمسين سنة من ذلك، وكلما تذكرت ذلك المساء، أعود لسماح الفقهاء المدوية التي رنت بطعم الحجارة، في الشارع الملتهب.

صار واضحاً لدي، أن الرواية قد أعجبت الثلاثة، مع تحفظاتهم الشخصية، وربما العادلة؛ ولكنهم لم يقولوا ذلك بصراحة كاملة، ربما لأنه يبدو لهم وسيلة سهلة، لم يتكلم أي واحد منهم عن نشرها، وكان هذا أيضاً من طباعهم، فالمهم في نظرهم، هو الكتابة بصورة جيدة، أما ما عدا ذلك فهو شأن الناشرين.

وباختصار: لقد كنتُ مرة أخرى، في مدينتنا بارانكيّا المعهودة، إلا

أن نكبتي قفلت في الوعي بأنني لن أجيد الحماسة، في هذه المرة. للمواظبة على كتابة "الزرافة". والحقيقة أن زاويتي الصحفية كانت قد أنجزت مهمتها في فرض حُرْقبة الكتابة اليومية عليّ، من أجل تعلم الكتابة من الصفر، بالعناد والطموح الضاري لأن أكون كاتباً مختلفاً. لم أكن قادراً في أحيان كثيرة، على التعامل مع الموضوع. وكنت أستبدله بموضوع آخر، عندما أدرك أنه ما زال كبيراً على مقاسي. وقد كانت على أي حال، رياضة أساسية لتكويني ككاتب، مع اليقين المربع بأنها ليست سوى مادة غذائية دون أي التزام تاريخي.

مجرد البحث عن موضوع يومي، ملأ شهوري الأولى تلك بالغم. لم يكن ذلك البحث يترك لي متسعاً من الوقت لعمل شيء آخر، فقد كنتُ أضيع ساعات في تفحص الجرائد الأخرى، وأدون ملاحظات من المحادثات الشخصية الخاصة، وأهيم في تخيلات تطلق أحلامي؛ إلى أن واجهتني الحياة الواقعية. فكانت تجربتي الأكثر سعادة في هذا الاتجاه، هي رؤيتي في مساء أحد الأيام، وأنا أمر في الحافلة، إعلافاً بسيطاً على باب بيت: "تبيع سقّة تخيل جنائزياً".

كان أول ما تبادر إلي ذهني، هو طرق الباب لتحري معلومات عن تلك اللقطة. ولكن الحياة تغلب علي. وهكذا علمتني الحياة نفسها أن أحد أكثر الأسرار خائفة، في الكتابة، هو تعلم قراءة رموز الواقع دون توجيه أسئلة. وقد انتضح لي ذلك بصورة أكبر بينما أنا أعيد، قبل سنوات قليلة، قراءة أكثر من أربع عشرة "زرافة" منشورة، ومقارنتها مع بعض النصوص الأدبية التي نشأت عنها.

في غطة أعياد الميلاد، جاء أعضاء هيئة أركان جريدة

الاسبىكتادور، ابتدا - من المدير العام، دون غابرييل كانوا مع كل أبنائه: لويس غابرييل، الوكيل؛ وغيسرمو، وهو نائب المدير آنذاك؛ وألفونسو، نائب الوكيل؛ وفيديل، أصغرهم سناً، وكان يتدرب على كل شيء، وجاء معهم إدواردو ثالاميا، الملقب أوليسيس، وكانت له مكانة خاصة بالنسبة لي، لأنه نشر قصص القصيرة وملاحظة تقديمه لها. وكانوا معتادين على التمتع معاً، كعصية، بالأسبوع الأول من العام الجديد، في منتجع برادومار، على بعد عشرة فراسخ عن بارانكيئا، حيث كانوا يقتحمون البارد معاً، بجلبية، الشيء الوحيد الذي أتذكره من ذلك الصخب، يشي من الدقة، هو أن أوليسيس، شخصياً، كان إحدى أكبر المفاجآت في حياتي. لقد كنت أراه بكثرة في بوغوتا، في اليد، هي مقهى الطاحونة، ثم بعد سنوات من ذلك، في مقهى الأوتوماتيكو، وأحياناً في مسامرات العلم دي غريف، كنت أتذكره بطبعه المنعزل وصوته المعدني. ومنهما خرجت باستنتاج أنه شخص نزق. وهذه كانت سمعته في الحقيقة، بين القراء الجيدين في المدينة الجامعية. ولهذا نجنيته في مناسبات عديدة كيلا أطلع الصورة التي اختلقتها له من أجل استخدامي الشخصي. وكنت على خطأ. فقد كان واحداً من أكثر الكائنات التي أتذكرها وداً وبذلاً لخدماته، مع تفهمي بأنه يحتاج إلى صبر خاص، نابع من العقل أو من القلب، لإظهار ذلك. لم يكن، في مادته البشرية، شيء من مادة دون رامون قينيس، أو الفارو موتيس، أو ليون دي غريف، ولكنه يشاطرهم الكفاءة والقابلية الفطرية في أن يكون معلماً في كل حين، وبأنه حظي بحسن حظ نادر أتاح له قراءة كل الكتب التي لا يد من قراءتها.

أما أبناء كانوا الشباب - لويس غابرييل، وغيسرمو، وألفونسو، وفيديل - فتوصلت إلى أن أكون أكثر من صديق لهم، عندما عملت محرراً في جريدة الاسبىكتادور. وسبكون من المجازفة. تذكر حوار ما من تلك الأحاديث التي كان الجميع يخوضونها ضد الجميع في ليالي برادومار. ولكن من الصعب في الوقت نفسه، نسيان إلحاحها غير المحتمل على مريض الصحافة والأدب القاتل. لقد جعلوني واحداً منهم. وأشبه بحكايتهم الشخصي الذي اكتشفوه وبنوه بأنفسهم، ومن أجلهم. ولكنني لا أتذكر - مثلما قلت كثيراً - أن أياً منهم اقترح عليّ الذهاب للعمل معهم. لم أتأسف لذلك، لأنه لم تكن لدي، في ذلك الوقت الرديء، أدنى فكرة عما سيؤول إليه مصيري، ولا إذا ما كانوا سيتيحون لي اختباره.

رجع الفارو موتيس، المتحمس لحساسة آل كانتو، إلى بارانكيئا لدى تعيينه مديراً للعلاقات العامة في شركة "إسو الكولومبية"، وحاول إقناعي بالذهاب للعمل معه في بوغوتا. غير أن مهمته الحقيقية مع ذلك، كانت أكثر دراماتيكية بكثير: فيسبب خطأ زهيب ارتكبه أحد المتعهدين المحليين، ملئوا خزانات الوقود في المطار بينزين سيارات، بدلاً من بنزين الطائرات، ولم يكن هناك ريب في أنه لا يمكن لطائرة مزودة بذلك الوقود الخطأ، أن تصل إلى أي مكان. وكانت مهمة موتيس تتمثل في إصلاح الخطأ، بسرعة مطلقة، قبل حلول الفجر، دون أن يعلم بذلك موظفو المطار، وأقل منهم بكثير الصحافة. وهذا ما فعله. فقد تم استبدال الوقود بأخر جيد، خلال أربع ساعات من الويسكي تخلطتها محادثة جيدة في المطار المحلي. لقد كان لدينا فائض من الوقت للندحت

في كل الأمور. ولكن الموضوع الذي ما كنت قادراً على تصوّره، هو أنه يمكن لدار نشر لوسادا في بوينس آيرس، أن تنشر روايتي التي كتبت على وشك الانتهاء منها. وكان ألفارو موتيس يعرف ذلك، مباشرة، من المدير الجديد لفرع الدار في بوغوتا، خوليو سبسر تيبغاسي. وهو وزير سابق في البيرو، ملتحج منذ وقت قريب، في كولومبيا.

لست أتذكر تأثيراً أشدّ خدّة؛ فقد كانت لوسادا واحدة من أفضل دور النشر في مدينة بوينس آيرس التي ملأت فراغ النشر الذي سببته الحرب الأهلية الإسبانية. كان ناشروها يغدّوننا، يومياً، بمستجدات باللغة الأهميّة والشويق، يكاد لا يحتاج لنا الوقت لقراءتها. وكان وكلاء مبيعاتها يأتوننا، في مواعيد دقيقة، بالكتب التي نوصي عليها، ونلتقيهم كمبهوثي السعادة. ومجرد التفكير في أن واحدة من دور النشر تلك يمكن لها أن تنشر عاصفة الأوراق، أوشك أن يزعمزعي ويحدث فيّ اختلالاً. فلم أكد أنتهي من توديع موتيس، وهو يسافر في طائرة مزودة بوقود سليم، حتى هرعْتُ إلى الصحيفة، لأتوم بمراجعة معمقة لأصول الرواية.

انكبّت، يكامل جسدي، في الأيام التالية، على تفحص مهووس للنص يمكن له أن يخرج من بين يدي، لم يكن أكثر من مئة وعشرين صفحة، مطبوعة على الآلة الكاتبة بفراغ مزدوج بين السطور، ولكنني قمت بعمليات ضبط، وتبديل، واختلاقي لم أعد أعرف معها إذا ما صار النص أفضل أو أسوأ مما كان عليه. أعاد خيرمان وألفونسو قراءة أكثر الأجزاء، حساسية، وكانا طيبين القلب إلى حد أنهما لم يوجها إليّ ملاحظات وتحفظات لا خلاص منها. في تلك الحالة من الجزع، راجعت

النسخة النهائية، وروحي في يدي، واتخذت القرار بعدم نشرها. وسيصبح ذلك، في المستقبل، هوساً لدي. فكلما أحسست بالرضى عن كتاب ناجز، براودني شعور محزن بأنني سأكون عاجزاً عن كتابة آخر أفضل منه.

ولحسن الحظ، أن الشكوك راودت ألفارو موتيس حول سبب تأخري، فرجع إلى يارانكيا، ليأخذ نسخة الأصل الوحيدة المبيضة، ويرسلها إلى بوينس آيرس. دون أن يتيح لي الوقت لقراءة أخيرة. لم يكن التصوير الفوتوكوبي التجاري قد وُجد بعد. وكان الشيء الوحيد المتبقي لدي، هو المسودة الأولى المصححة، على الهوامش وبين السطور، بأحبار متنوعة الألوان، لتفادي البلبلة والاختلاط. ألقيت بتلك المسودة إلى القمامة، ولم أستعد الطمأنينة على مدى أكثر من شهرين، تطلبهما تلقي الجواب.

وفي أحد الأيام، سلموني في الهيرالدو، رسالة كانت قد اختلطت بأوراق أخرى، على منضدة رئيس التحرير، جحد قلبي مرأى عنوان دار نشر لوسادا في بوينس آيرس، على المغلف؛ ولكن الحياة، متعني من فتحها هناك بالذات، فلم أفعل إلا في حجبرتي الخاصة. وبفضل تصرّفي هذا، واجهت دون شهود، الخبر المقتضب بأن عاصفة الأوراق قد رُفُضت. ولم أجد نفسي مضطراً إلى قراءة الحكم كاملاً، لأشعر بالصدمة القاسية، في تلك اللحظة، وبإحساسي بأنني سأموت.

كانت الرسالة هي القرار السامي للسيد غييرمو تورّي، رئيس مجلس إدارة النشر، مدعماً بمجموعة من الحجج البسيطة التي برن فيها تفخيم، وكفاءة، وخطابة أناس قشالة البيض. وكان العزاء الوحيد هو التساهل الأخير المفاجئ: "لا بد من الاعتصاف للمؤلف، بمواهبه

الاستثنائية في كراصد وشاعر". ومع ذلك، ما زلت أفتأجأ حتى اليوم، بصرف النظر عن ذهولي وخجلي، بأن أشد الاعتراضات فجاجة، تبدو لي مناسبة.

لم أحتفظ قط، بنسخة من الرسالة. ولم أدر أين صارت بعد أن تناولها، طوال عدة شهور. أصدقائي في بارانكيّا الذين لجؤوا إلى كل أنواع المبررات البليسية، في محاولة التورية غني. والحقيقة أنني عندما حاولت الحصول على نسخة من الرسالة، من أجل توثيق هذه المذكرات، بعد انقضاء خمسين سنة، لم يجدوا لها أثراً في دار النشر في بوينس آيرس. لست أدري إذا ما كانت قد نُشرت كخبر، رغم أنني لم أحاول أن تكون خيراً قط. ولكنني أعرف أنني احتجت إلى وقت لا بأس به، كي أستعيد حماسي بعد أن تهجمت على هواي. وكتبت رسالة غاضبة، نُشرت دون إذن مني. وقد سبب لي سوء الاتّصاف ذلك، حزناً كبيراً. لأنّ ردّ فعلي النهائي كان استغلال ما هو مفيد في الحكم، وتصحيح كل ما يمكن تصحيحه، وفق وجهة نظري. والمواصلة قدماً.

أفضل تشجيع هو الذي وفّره لي خيرصان بارغاس، والفونسو فوينساوير، والفارو سيبيدا. لقد وجدتُ الفونسو في إحدى حانات السوق العام، حيث اكتشف واحة للقراءة وسط جلبة حركة التجارة. استشرته إذا ما كان عليّ ترك روايتي على حالها، أم أنه يشوجب عليّ إعادة كتابتها في بناء جديد، ولا سيما أنني كنت أرى أنها تفتقد، في نصفها الثاني، الزخم الذي يسود نصفها الأول. استمع الفونسو إليّ، بشيء من نفاذ الصبر، وأصدر لي حكمه:

- انظر يا معلم - قال لي أخيراً، كمعلم بكل معنى الكلمة -

السيد غييرمو دي تورّي شخص محترم جداً إلى الحد الذي يظنه هو نفسه. ولكنه لا يبدو لي مطلعاً تماماً على ما وصلت إليه الرواية اليوم.

وفي محادثات خرقاء أخرى في تلك الأيام، وجدتُ العزاء في سابقة أن غييرمو دي تورّي كان قد رفض، من قبل، أصول ديوان "إقامة في الأرض" ليايلو نيرودا، عام ١٩٢٧. وكان فوينساوير يفكر في أن مصير روايتي سيكون مختلفاً، لو أن من قرأها هو خورخي ليريس بورخيس؛ ولكن الضرر سيكون أكبر أيضاً لو أنه هو الذي رفضها. وانتهى الفونسو فوينساوير إلى القول:

- ولهذا، دك من الإلحاح والإزعاج. فروايتك جيدة مثلما بدت لنا. والشئ الوحيد الذي عليك عمله، منذ الآن، هو مواصلة الكتابة. أما خيرمان - الوفي لأسلوبه المتزن - فقد طلب مني أن أقدم المعروف بعدم المبالغة. وكان يفكر في أن الرواية ليست سيئة إلى حد عدم الموافقة على نشرها. في قارة يعاني فيها هذا الجنس من أزمة. ولست جيدة إلى حد إثارة فضيحة دولية، الخاسر الوحيد فيها سيكون كاتباً مبتدئاً وسجھولاً. بينما لحص الفارو سيبيدا حكم غييرمو دي تورّي بواحدة من عباراته المزهرة:

- المسألة هي أن الإنسان أناس شديدو القضاة. وعندما انتهت إلى أنني لا أملك نسخة مببضة من الرواية، أعلمتني دار النشر لوسادا، عبر شخص ثالث أو رابع، أنها وفق أنظمتها، لا تعيد النصوص الأصلية إلى أصحابها. ولحسن الحظ أن خوليو سيسر بيغاس كان قد استنسخ نسخة قبل إرسال نسختي إلى بوينس آيرس، فأرسلها إليّ. عكفتُ عندئذ على تصحيح جديد

بالاستناد إلى النتائج التي توصل إليها أصدقائي. ألغيت مقطعاً مطولاً عن البطلة التي تتأمل من بحر أزهار البيجونيا، وأهل مطر يستمر ثلاثة أيام. وهو المقطع الذي تحوّل، فيما بعد، إلى القصة القصيرة "مرونولوج لإيزابيل وهي ترى هطول المطر في ساكوندو". وحدثت حواراً غير ضروري للجدد مع الكولونيل أوريليانو بوينديا، قبل مذبحة شركات الموز، وحوالي ثلاثين صفحة تشوش، شكلاً ومضموناً، البناء الموحد للرواية. وبعد عشرين سنة من ذلك تقريباً، حين كنت أظن أنني قد نسيتهما، ساعدتني أجزاء من تلك المقاطع، في تدعيم حالات الحنين، على طول مئة عام من العزلة وعرضها.

كنت على وشك تجاوز الصدمة، عندما نُشر الخبر القائل إن الرواية الكولومبية التي اخترت للنشر، بدل روايتي، في دار نشر لوسادا، هي رواية إدواردو كايابيرو كالديرون "المسيح مولياً ظهراً". لقد كان خطأً أو حقيقة تترسو. لأن المسألة لم تكن مسابقة، وإنما برنامج دار النشر لوسادا من أجل الدخول إلى السوق الكولومبية بمزلقين كولومبيين. وروايتي لم تُرفض في منافسة مع رواية أخرى، وإنما لأن غييرمو دي توروي لم يجد لها صالحة للنشر.

طاش صواحي أكثر عما اعترفت به أنا نفسي آنذاك. ولم أجد الجرأة على معاناة ذلك الوضع، دون أن أفنع نفسي به. ولهذا سقطت، دون إشعار مسبق، على صديقي منذ الطفولة، لويس كارميلو كورنيا، في مزروعة الموز في ميبيا - على بعد بضعة فراسخ عن كاناكا - حيث كان يعمل في تلك السنوات مراقباً للطقس، ومرجع ضرائب. وبقينا يومين نسترجع مرة أخرى، كما هي عادتنا، طفولتنا المشتركة. كانت ذاكرته،

وبداهته، وصراحته تبدو لي كاشفة إلى حد تسبب لي شيئاً من الرعب. وبينما نحن نبادل الحديث، كان يقوم، مستخدماً صندوق عدته، بإصلاح أعطال البيت، بينما أنا أستمع إليه من أوجحة نوم نهزها نسيمات المزارع الخفيفة. وكانت زوجته، نينا سانتشيث، تصصح هذياناتها ونسيانها، وهي قوّة من الضحك، في المطبخ. وفي النهاية، في جولة مصالحة في شوارع أراكاتاكا المقفرة، أدركت إلى أي حد كنت قد استعدت صحتي المعنوية، ولم يبق لدي أدنى شك في أن عاصفة الأوراق - سواء أرفضت أم لم ترفض - ليست الكتاب الذي نويت كتابته بعد الرحلة مع أمي.

ومتحمساً بتلك التجربة، ذهبت بحثاً عن راقائيل إسكالونا في فردوسه في بايبيدوير، محاولاً التقيّب عن عالمي حتى الجذور. لم أفتأ، لأنني أحسست أن كل ما وجدته، كل ما كان يحدث، وكل الناس الذين عرفوني عليهم، هي أمور تبدو، كما لو أنني قد عشتها، ليس في حياة أخرى، وإنما في الحياة التي أعيشها. في ما بعد، في واحدة من رحلاتي الكثيرة، تعرّفت على الكولونيل كليمنتي إسكالونا، والد راقائيل، الذي أدهشني منذ اليوم الأول، بوقاره وسلوكه كبطريك على الطريقة القديمة. لقد كان نحيلاً ومستقيماً كقصة بامبو، له بشرة مدهوغة وعظام متينة، ويستمع بوقار تجاوز كل التجارب. لقد لاحظت، منذ صباي، موضوع اللهفة والوقار اللذين انتظر بهما جدائي حتى نهاية حياتيهما المديدة، تقاعد المحارب القديم. ومع ذلك، عندما كنت أقرأ، في الشباب في قنّاق قديم في باريس، بعد مرور أربع سنوات، لم تكن الصورة الراسخة في ذهني، طوال الوقت هي صورة جدي، وإنما صورة دون كليمنتي إسكالونا، كإعادة جسدية للكولونيل الذي لا يكتابه أحد.

عرفت من رافائيل إسكالونا أن مانويل ثاباتا أوليفيا قد استقر كطبيب فقرا في بلدة لا باتا، على بعد كيلومترات قليلة من بايدوبار، فذهنا إلى هناك. وصلنا عند الغروب. وكان هناك في الجو، شيء خائق بضيق أنفاسي. ذكرتني ثاباتا وإسكالونا بأن القرية وقعت. قبل حوالي عشرين يوماً، ضحية هجوم شنته الشرطة التي كانت تزرع الرعب في المنطقة، لتفرض الإرادة الرسمية. لقد كانت ليلة رعب، قتلوا الناس دون تمييز، وأضرموا النار في خمسة عشر بيتاً.

ولم نعرف تلك الحقيقة بسبب الرقابة الحديدية. ومع ذلك، لم تُنح لي الفرصة آنذاك لتصورها. كان خوان لوبيث، أفضل موسيقي في المنطقة، قد غادر دون عودة، منذ الليلة السوداء. وقد طلبنا من أخيه الأصغر بابلو، في بيته، أن يعزف لنا شيئاً، فقال لنا ببساطة حاسمة:

- لن أعود إلى الغناء في حياتي، إلى الأبد.

عندئذ علمنا أن جميع موسيقيي البلدة، وليس هو وحده، قد خبزوا أكورد يوناتهم، وطبولهم، وآلاتهم الموسيقية الأخرى، ولم يعودوا إلى الغناء، حزناً على موتاهم. لقد كان ذلك مفهوماً، حتى إن إسكالونا نفسه الذي كان معلم كثيرين، وثاباتا أوليفيا الذي بدأ يصير طبيب الجميع، لم يتمكنوا من جعل أحد بأن يغني.

حيال إلحاحنا، توافد الجيران ليعرضوا مبرراتهم، ولكنهم كانوا يشعرون، في أعماق وروحهم، بأنه لا يمكن للحداد أن يستمر أكثر. "هذا يبدو كما لو أن أحدنا قد مات مع من ماتوا"، قالت ذلك امرأة تضع وردة حمراء على أذنهما. وقد أبدأها آخرون. عندئذ أحس بابلو لوبيث بأنه مغرور بأن يلوي عنق أحزانه، إذ دخل إلى بيته دون أن يقول كلمة واحدة،

وخرج منه حاملاً الأكورد يون، غنى، كما لو يغنى قط، وبينما هو يغني، بدأ موسيقيون آخرون بالتوافد، فتح أحدهم الحانة المقابلة وقدم شراباً على حسابه. وما لبثت الحانات الأخرى أن شرعت أبوابها، بعد شهر من الحداد، وأضيت الأتوار، واستغرقنا جميعنا في الغناء. بعد نصف ساعة من ذلك، كانت القرية بأسرها تغني. وخرج في الساحة المقفرة أول مخمور منذ شهر، وراح يغني بأعلى صوته، إحدى أغنيات إسكالونا، مهداة إلى إسكالونا نفسه، تكريماً لمعجزته في بعث الحياة في القرية.

لحسن الحظ، أن الحياة كانت تتواصل في بقية العالم. وبعد شهرين من رفض أصول روايتي تعرفت على خوليو سبسر بيبغاس، وكان قد قطع علاقاته بدار نشر لوسادا، وعُين محملاً في كولومبيا لدار النشر غوثالث بورتو، المتخصصة في بيع موسوعات وكتب علمية وتقنية، بالتقسيط. لقد كان بيبغاس أطول الرجال قامة، وأقواهم بنية، والأوسع حيلة في مواجهة أسوأ عشرات الحياة الواقعية. وكان مستهلكاً مفرطاً لأغلى أنواع الويسكي ثمناً، ومعدناً لا سبيل للتهرب منه، ورواية بارعا لحكايات الضالونات، في ليلة لقائنا الأول، في الجناح الرئاسي في فندق برادو، خرجت متعشراً، وأنا أحمل حقيبة بائع متجول متسرعة بنشرات دعائية ومآذج من موسوعات مصورة، وكتب في الطب والحقوق والهندسة، من مطبوعات دار نشر غوثالث بورتو. فقد وافقت، منذ كأس الويسكي الثاني، على التحول إلى بائع كتب بالتقسيط. في مقاطعة ياديا، ابتداء من بايدوبار حتى غواخيرا. وكان مكسبي هو سلفة تدفع نقداً بقبضة عشرين بالمئة من المبيعات، يجب أن تكفيني للعيش دون ضائقات. بعد دفع نفقاتي، بما في أجره الفندق.

هذه هي الرحلة التي حولتها أنا نفسي، إلى أسطورة بسبب
لنقيصتي غير القابل للإصلاح في عدم تقدير أهدافي في الوقت
الناسب. الأسطورة هي أنه جرى التخطيط للرحلة، على أنها حملة
خراقية للبحث عن جذوري في أراضي أسلافي، متبعاً الطريق
الروماني نفسه الذي قطعتة أُمي عندما اقتادتها أمها لإبعادها عن
عامل تلفرأف أراكاتاكا. والحقيقة أن رحلتي لم تكن واحدة، وإنما
برحلتين قصيرتين جداً وطائشتين.

ولم أوجع في الثانية منهما إلا إلى القرى المحيطة ببايديوار،
وعندما صرت هناك، كنت قد قررت مسبقاً بالطبع، أن أواصل قدماً،
حتى رأس بيلا، على الطريق نفسه الذي اجتازته أُمي العاشقة. ولكنني
لم أصل إلا إلى ماناوي دي لا سييرا، ولاياث، وبييانويفا، على بعد
فراسخ قليلة من بايديوار. لم أتعرف آنذاك على سان خوان دي سير،
ولا على بارانكاس، حيث تزوج جدائي وولدت أُمي، وحيث قتل
الكولونيل نيكولاس هاركيز ميرادو باتشيكو. ولم أتعرف على
ريوهاتشا، وهي جنين قبيلتي، حتى عام ١٩٨٤، عندما أرسل الرئيس
بيلساريو هيتانكور من بوغوتا، جماعة من الأصدقاء المدعومين لافتتاح
مناجم الحديد في ثيرينون. كانت تلك هي رحلتي الأولى إلى غواخيرا،
غواخيرا، المتخيلة، التي بدت لي أسطورة مثلما وصفتها في مرات
كثيرة. قبل أن أتعرف عليها. ولكنني لا أظن أن السبب هو ذكرياتي
الزائفة. وإنما ذاكرة الهند الذين كان جدي يشتري كل واحد منهم بمئة
بيزو من أجل الخدمة في بيت أراكاتاكا. وكانت مفاجأتي الأولى، بكل
تأكيد، هي رؤيتي الأولى لريوهاتشا، مدينة الرعل والملاح، حيث ولد

أسلافي هند جدي الثالث، وحيث رأيت جدتي عبادة المعجزات تطفئ
القرن بنفخة جلدية، حين أوشك خبزها أن يحترق، وحيث خاض جدي
حربه وعانى السجن بسبب جريمة غرامية، وحيث حبلت بي أُمي خلال شهر
عسل أبوي.

لم يُنح لي كثير من الوقت لبيع الكتب في بايديوار. كنت أسكن
في "فندق ويلكم"، وهو بيت كولونياتي بديم مُحْتَقِظ به في إطار
الساحة الكبرى. في قناته صف طويل متساوكة من أشجار النخيل،
وهوائه حانة خشنة، وأراجيح نوم معلقة بأعمدة الدعائم. وكان صاحب
المحل، فيكتور كوين، يحرص نظام البيت كأنه سيرير^(١)، مثلما يحرص
سمعته الأخلاقية التي يتهددها الغريباء المشتهكون. وكان في الوقت
نفسه، من دعاة نقاء اللغة، ينشد ثيرياتس عن ظهر قلب، بشاءات
قشالية، وي طرح أخلاقيات غارسيا لوركا على بساط البحث. وقد أقيمت
علاقة طيبة معه لتعمقه في أعمال أندريس بيلو^(٢)، ولإلقائه الصارم
لقصائد الرومانسيين الكولومبيين؛ وعلاقات سيئة جداً، كذلك، لهوسه
في منع مخالفة الأنظمة الأخلاقية في أجواء الفندق المطهرة. وقد بدأ
كل ذلك بصورة بالغة السهولة، لكونه صديقاً قديماً لخالي خوان دي
ديوس، يُسعدُهُ استحضار ذكرياته عنه.

لقد كان قنائه الفندق بالنسبة لي، ضرباً من البانصيب، لأنني كنت

(١) سيرير Cacerbero أو Cerbero في الأساطير الإغريقية، وحش بجسم كلب، له
ثلاثة رؤوس ووقية آني وأنتان مسمومة، يحرص مدخل الجحيم.
(٢) أندريس بيلو Andres Bello كاتب ولغوي وسياسي أمريكي لاتيني، ولد في
كاراكاس (١٧٨١)، وتوفي في سنياغو دي تشيلي (١٩٨٠)، أسس جامعة تشيلي،
ووضع قانون الأحوال المدنية في تلك البلاد.

أقضي فيه الساعات الطويلة الفائضة، وأنا أقرأ في أرجوحة قوم، تحت فيظ الظهيرة. وقد وصل بي الأمر في أيام السغب، إلى أن أقرأ ابتداء من أبحاث في الجراحة وحتى مراجع في المحاسبة، دون أن يخطر لي أنها ستفيدني فيما بعد. في مغاصراتي ككتائب. كان العمل يجري بصورة تلقائية تقريباً، لأن معظم الزبائن كانوا يرون بطريقة ما من غربال آل إغواران أو آل كوتيس، فكانت تكفيني زيارة، تمتد حتى موعد الغداء. أستحضر خلالها حيلاً أسرية. وكان البعض يوتعون العقد دون قراءته، لكي تصل في الوقت المناسب، إلى حيث بقية أفراد القبيلة الذين ينتظروننا، لتناول الغداء. في ظل الأكورديونات، وما بين باييدوبار ولايات، جنيت محصولي الوفير خلال أقل من أسبوع، ورجعت إلى بارانكيك وأنا أشعر، متأثراً، بأنني كنت في المكان الوحيد في العالم الذي أفهمه حقاً.

يوم الثالث عشر من حزيران، وبينما أنا ذاهب في الصباح الباكر في الحافلة، إلى مكان لا أدري ما هو، علمت أن القوات المسلحة قد استولت على السلطة، بسبب القوضى التي تسود الحكومة والبلاد بأسرها. ففي السادس من أيلول من السنة السابقة، قامت زمير من المحافظين، في بوغوتا، بإضرام النار بمنحي التيمبو والاسيكتادور، أهم صحيفتين في البلاد، وهاجمت بالرصاص، منزل الرئيس السابق ألفونسو لويث بوماريخا، وكارلوس بيراس ريستريبو، رئيس إدارة الحزب الليبرالي. وقد تمكن هذا الأخير، المعروف كسياسي صارم الطباع، من تبادل إطلاق النار مع المعتندين عليه. ولكنه اضطر في النهاية إلى الهرب عبر بيت مجاور، وكانت حالة العنف التي تعاني منها البلاد منذ

التاسع من نيسان، قد صارت لا تقاوم. وظلت على تلك الحال، حتى فجر الثالث عشر من حزيران، عندما أقدم الجنرال غوستافو روخاس بينيّا على إخراج الرئيس المكلف، روبرتو أوربانيتا أرييلاث، من القصر. عندئذ قام لاوريانو غوميث، الرئيس الوصي الذي كان يتعم بتقاعد طبي، باستعادة القيادة، وهو على كرسي ذي عجلات، بترتيب من أطبائه. وحاول القيام بانقلاب على نفسه، وممارسة الحكم خلال الخمسة عشر شهراً المتبقية على انتهاء ولايته الدستورية. ولكن الجنرال روخاس بينيّا كان قد استولى، مع أركانه العامة، على السلطة، ليحافظ على تماسكها.

جاء التأييد الوطني فوراً وإجماعياً لقرار الجمعية التأسيسية التي أضفت الشرعية على الانقلاب العسكري. وولي الجنرال روخاس بينيّا السلطات حتى نهاية الفترة الرئاسية، في شهر آب من السنة التالية، بينما سافر لاوريانو غوميث مع أسرته إلى بيتيدوم، على الساحل الشرقي الإسباني، مخلفاً وراءه الانطباع الواهم بأن أزمته غضبيه قد انتهت. أعلن الزعماء التقليديون الليبراليون تأييدهم للمصالحة الوطنية بندا. إلى محازبيهم الذين امتشقوا السلاح في كل أنحاء البلاد، والصورة ذات المغزى الكبير التي نشرتها الصحف في الأيام التالية، هي صورة الليبراليين الطليعيين الذين غنوا سيريناد عشاق، تحت شرفة المخدع الرئاسي. وقد ترأس ذلك التكريم دون روبرتو غارسيا بينيّا، مدير جريدة التيمبو، وأحد أشد المعارضين للنظام البائد. غير أن الصورة الأكثر وقعاً وتأثيراً في تلك الأيام، هي صورة رجل حرب العصابات الليبراليين اللامتناهي، وهم يسلمون أسلحتهم في

السهوب الشرقية، يقودهم غوادالوبي سالتيدو الذي لمست صورته بعمق، كقاطع طريق رومانسي، قلوب الكولومبيين المعذبين بالعنف الرسمي. لقد كانت سلالة جديدة من رجال حرب العصابات المناهضين للنظام المحافظ؛ اعتبروا بطريفة ما، بقية متأخرة من حرب الألف يوم، وكانوا يقيمون علاقات ليست سرية بأي حال، مع القادة الشرعيين للحزب الليبرالي.

كان على رأسهم، غوادالوبي سالتيدو قد أشاع لنفسه، في كل مستويات البلاد - بين الموالين والمعارضين - صورة أسطورية جديدة. وربما لهذا السبب، وبعد سبع سنوات من استسلامه، جرى قتله بالرصاص على يد الشرطة، في مكان ما من بوغوتا، لم يحدد بدقة قط؛ مثلما لم تتضح ظروف موته بصورة مؤكدة.

التاريخ الرسمي هو السادس من حزيران ١٩٧٧. وقد أودع الجسمان، في احتفال رسمي مهيب، في مدفن مرقم في مقبرة بوغوتا المركزية، يحضر سياسيين معروفين. ذلك أن غوادالوبي سالتيدو، ومن مراكز قيادته الحربية، احتفظ بعلاقات ليست سياسية وحسب، وإنما اجتماعية أيضاً، مع قادة الاتجاه الليبرالي المنكوب، ومع ذلك، هناك ثماني روايات مختلفة، على الأقل، حول موته، ولا يخلو الأمر من مرتابين، في تلك الفترة وفي هذه، ما يزالوا يشاعرون إذا ما كانت الجثة هي جسده حقاً، وإذا ما كان مدفوناً فعلاً في المدفن الذي وري جثمانه فيه.

بتلك الحالة المعنوية، انطلقت في رحلة الأعمال الثانية إلى بروفينشيا. بعد التأكد مع بيبغاس، من أن كل شيء يسير على ما يرام. ومثلما في المرة السابقة، أنجزت مبيعاتي بسرعة كبيرة، في بايديرياز،

مع زياتن مقتنعين بالشراء مسبقاً. ذهبت مع رافائيل إسكالونا وبانتشو كوتيس إلى بيبانويفا، ولايث، وباتيبال، وماناوري دي لا سييرا، لزيارة أطباء بيطريين ومهندسين زراعيين. وكان بعضهم قد تحدث مع بعض من اشترىوا الكتب مني في الرحلتين السابقتين، وكانوا ينتظرونني بطلبات خاصة. وقد كانت أي ساعة من اليوم، مناسبة لإقامة حفلة مع الزياتن أنفسهم ورفاقهم المرحين. فبطلع علينا القجر، ونحن نغني مع كبار عازقي الأكورديونات، دون الإخلال بأية التزامات أو دقات مستحقة؛ إذ كانت الحياة اليومية كانت تواصل إيقاعها الطبيعي في حمى العريضة. كنا في بيبانويفا مع عازف أكورديون وقارعي طبل، يبدو أنهم أحفاد بعض من كنا نسمع إليهم في طفولتنا في أراكاتاكا. وهكذا تكشف لي في تلك الرحلة، إن ما كان إيماناً طفولياً، هو مهنة ملهمة سترافقني إلى الأبد.

في هذه المرة تعرفت على ماناوري، قلب سلسلة الجبال. وهي قرية بدعنة وهادئة، وتاريخية في الأسرة، لأنهم أخذوا إليها أُمي للاستشفاء. وهي طفلة، بعد إصابتها بحمى ثلاثية لم تنفع معها كل أنواع العقاقير، وكنت قد سمعت الكثير عن ماناوري؛ عن أصيبتها في أبار، وعن صيامها العلاجي، حتى إقني لاحظت عندما ذهبت إليها للمرة الأولى. أنني أتذكرها، كما لو أنني عرفتها في حياة سابقة.

كنا نتناول بيرة متلجة في حانة القرية الوحيدة، عندما دنا من متحذتنا، رجل يبدو كأنه شجرة، يضع طمباق خيال، ويعلق على خصره مسدساً حريباً. قام رافائيل إسكالونا بتعريف أحدنا على الآخر، فأمعن الرجل النظر إلى عيني، وهو ما يزال يمسك بيدي، وسألني:

- هل لك علاقة بالكولونيل نيكولاس ماركيز؟

فقلت له:

- إنه جدي.

فقال:

- جذك هذا إذن، هو من قتل جدي.

هذا يعني أنه حفيد ميداردو باتشيكو، الرجل الذي قتل جدي في مبارزة صريحة. لم يُنح لي الوقت للفرح، لأنه قال ذلك بنبرة داخلة جداً، كما لو أن القتل هو أيضاً طريقة للارتباط بعصلة قرابية، بقينا معه في حفلة سكر استمرت ثلاثة أيام بليلاتها، في شاحنة تحميل الأحجار التي يملكها، نشرب براندي ساخناً ونأكل سانكرتسو لحم جديان، تكريماً للذكرى جدينا الميتين. وقد انقضت عدة أيام قبل أن يعترف لي بالحقيقة: إذ كان قد اتفق مع إسكالونا على إخافتي، ولكن قلبه لم يطاوعه على مواصلة دعايات الجديين الميتين. والواقع أن اسمه كان خوسيه برودينشو أغيلار. وكان عمله مهرياً، وهو شخص مستقيم وطيب القلب. وتكريماً له، وكبلاً يكون أقل مكانة، عدتُ باسمه الخصم الذي قتله خوسيه أركاديو برينديا بحرية في ميدان صراع الديكة، في رواية مئة عام من العزلة.

أما الأمر السيئ، فهو أن الكتب التي يعتنيها، لم تكن قد وصلت بعد، عند انتهائها رحلة الحنين تلك. ولا يمكن لي دون وصولها، أن أقبض سلفتي. لم يبق معي فلس واحد، بينما كان حساب الفندق يتزايد بسرعة أكبر من لبالي المحسومة. وبدأ فيكتور كوين بفقد الصبر القليل المتبقي لديه، بسبب الشائعات بأنني أبعد نفوق دينه على بنات هوى متردات،

وفي أوكار عريضة بانسة. وكان الشيء الوحيد الذي يث في بعض الطمأنينة، هو الغراميات المعاكسة في مسلسل "الحق بالولادة"، الرواية الإذاعية التي كتبها دون فيليكس ب. كايغيت، وأنعمشت الصدمة الشعبية التي أحدثتها، أحلامي القديمة بأدب الدموع. غير أن قرايتي غير المتوقعة لرواية هيمسغواي الشيخ والبحر، التي وصلت فجأة في مجلة لايف بالإسبانية، جاءت لتشفيني من كآباتي.

وفي البريد نفسه، وصلت شحنة الكتب التي على تسليمها إلى أصحابها، كي أقبض سلفتي عنها، جميعهم دفعوا ما عليهم، لكنني كنتُ مدينة للفندق بضعف ما كسبته. وقد حظرتي ببيغاس من أنني لن أحصل على أي شيء إضافي قبل مرور ثلاثة أسابيع. عندئذ تحدثت بجديّة إلى فيكتور كوين، ووافق هو على قبول إيصال بوجود ضامن يكفلني. ولأن إسكالونا وعصبته لم يكونوا في تناول يدي، فقد قدم لي تلك الخدمة صديق وقرته العناية الإلهية. دون أي التزام من جانبي، ولمجرد أنه أعجب بقصة لي منشورة في كرونিকা، ولكنني لم أستطع مع ذلك، أن أدفع شيئاً لأحد، عندما أُرقت ساعة الحقيقة.

وقد صار ذلك الإيصال تاريخياً، بعد سنوات، عندما أخذ فيكتور كوين يريه لأصدقائه وزواره، ليس كوثيقة اتهام وإنما كغنيمة. وفي المرة الأخيرة التي رأيته فيها، كان عمره مئة سنة تقريباً، وكان منتصب القامة، صافي الذهن، ودون تغيير في مزاجه. وأثناء تعييد أحد أبناء أختي بالمعمودية كونسويلو أراوخونوغيرا، وكنتُ عرايكة، عدتُ لرؤية الإيصال غير المدفوع، بعد مرور قرابة خمسين سنة. فقد عرض فيكتور كوين على كل من رغب في رؤيته، بظرفه وتهذيبه المعهودين. وفاجأتني

دقة الوثيقة التي حروها هو نفسه، والإرادة الهائلة بالدفع والسداد التي تصبدي في وقاحة توقعي. وقد احتفى به فيكتور في تلك الليلة، بأن رقص رقصة باسيو بايناتو، بتائق كولونبالي، مثلما لم يرقصها أحد منذ سنوات فرانيسكو الرجل. وفي النهاية شكرني أصدقاء كثيرين لأنني لم أذفع، في الموعد المحدد، فيحة ذلك الإبصال الذي أدى إلى تلك الليلة التي لا تقدر بشئ.

كانت شعرة الدكتور بيبغاس الغرية تحتل المزيد، ولكن ليس في ميدان بيع الكتب. فعن غير الممكن، نسيان البراعة النبيلة التي كان يناور بها الداتين، والسعادة التي كانوا يتفهمون بها مبرواته كيلا يدفعوا في الوقت المناسب. وقد كان أكثر موضوعاته إغراء آنذاك، مرتبطاً برواية "لقد أغلقوا الدروب"، للكاتبة البارانكية أولغا ساليندو دي ميدينا، التي أثارت ضجة اجتماعية أكثر منها أدبية، ولكن بسوابق محلية ضئيلة. وباستلهاج نجاح المسلسل الإذاعي "الحق بالولادة" الذي تابعته باهتمام متزايد، طوال شهر بكامله، فكرت في أننا نشهد ظاهرة شعبية لا يمكن لنا، نحن الكتاب، أن نتجاهلها. وقد طرحت الأمر على بيبغاس، لدى عودتي إلى بايديرار، دون أن أذكر الدين المتوجب عليّ. فافترح عليّ كتابة الاقتباس بكر يكتفي لاجتذاب ثلاثة أضعاف جمهور المستمعين الواسع الذي تابع دراما فيليكس ب. كايغيت الإذاعية.

قمتُ باقتباس الرواية للإذاعة خلال أسبوعين من الاعتكاف. وقد بدوا لي أكثر كشفاً بكثير مما توقعت، لأنه كان عليّ تقدير الحوارات، وتدرجات التوتر، وتدير مواقف وأزمنة متفلنة لا تشبه في شيء، كل ما كُتِب من قبل، ولعلم خبرتي في شؤون الحوار - وهو ما زال نقطة

ضعفي -، كانت التجربة صعبة ومحصودة في التعلم، أكثر مما هي في الكسب المادي. ومع ذلك، ما كان بإمكانني أن أشكو في هذا الشأن الأخير أيضاً، لأن بيبغاس دفع إلي نقداً نصف الأجر مقدماً، ووعد بأن يعفني من الديون المترتبة عليّ، مع حصوله على أول دخل من الرواية الإذاعية.

جرى التسجيل في إذاعة أتلاتيكو، مع أفضل توزيع محلي ممكن للأدوار، وبإخراج دون خيرة ولا إلهام، قام به بيبغاس نفسه. ولأداء دور الراوي، نصحو بخيرمان بارغاس، كمدبج مختلف لتناقض بساطته واتزانه مع زعلاق الإذاعة المحلية. وكانت المفاجأة الأولى في أن خيرمان وافق على العرض، أما المفاجأة الثانية فكانت في توصله هو نفسه، عند التصريح الأول، إلى استنتاج أنه ليس الشخص المناسب. عندئذ تولى بيبغاس نفسه مسؤولية الراوي، بإيقاعه الرتيب وصغير صوته الأنديزي الذي قوض تلك المغامرة المنهورة.

بُثت الرواية الإذاعية كاملة، تكتنفها الأحرار أكثر من الأحماد، وكانت درساً بليغاً لظموحاتي المتعطشة إلى أن أكون راوياً في أي جنس كتابي. حضرت عمليات التسجيل، وكانت تجري مباشرة على أسطوانة خام، وبإبرة محراث تخلف وراءها خيوطاً دقيقة سوداء ولامعة، يكاد لمسها يكون متعذراً، كما لو أنها شعر ملاك. وفي كل ليلة، كنت أحمل معي حفة لا بأس بها من تلك الحبيوط لأوزعها على أصدقائي، كغفيمة غير مألوفة. ووسط تخبط وعشرات لا حصر لها، جرى بث الرواية الإذاعية، على الهواء، في موعدها المحدد، ورافقتها حفلة هائلة من تلك التي يتميز بها صاحب المشروع.

لم يستطع أحد أن يبتدع حجة مجاملة، يجعلني أصدق معها أن العمل قد أعجب، ولكن المسلسل الإذاعي اجتذب جمهور مستمعين لا بأس به، وقدراً من الإعلانات كافياً لإنقاذ ماء الوجه. وقد منحني أنا، لحسن الحظ، همة جديدة لمجنس كتابي بدا لي أنه يتطرق إلى آفاق لا يمكن توقع أبعادها. وقد بلغ إعجابي بدون فيليكس ب. كايغيت ورواياته الإذاعي، حد الإقدام على طلب مقابلة خاصة معه بعد نحو عشرة أعوام من ذلك، حين كنت أقضي بضعة شهور في هافانا، كمحرر في وكالة الأنباء الكوبية بركسا لاتينا. ولكن، على الرغم من كل المبررات والحجج، لم يظهر لي قط. ولم يبق لي منه سوى درس يبلغ قرأته في مقابلة معه: "الناس يرغبون دوماً في البكاء، والشيء الوحيد الذي أفعله أنا، هو أنني أوفر لهم الذريعة". أما شعوات بيباس بالمقابل، فلم تقض إلى ما هو أبعد من ذلك، وقد تعقدت أموره أيضاً مع دار نشر غوتشاليت بورتو - مثلما حدث له من قبل مع لوسادا - ولم تكن ثمة طريقة لتصفية حساباتنا الأخيرة، لأنه تخلى عن أحلامه بالعظمة، لكي يعود إلى بلاده.

أخرجني ألفارو سيبيدا ساموديو من المطهر، بفكرته القديمة في تحويل التاسيونال إلى صحيفة حديثة كمتلك التي تعلم صنعها في الولايات المتحدة، ولم تكن حتى ذلك الحين، باستثناء مساهماته القليلة في كرونিকা، وهي مساهمات أدبية على الدوام، قد أتاحت له فرصة ممارسة العمل بشهادته التي حصل عليها من جامعة كولومبيا في نيويورك، إلا بتعليقات موجزة ونمذجية يرسلها إلى سيورتنغ نيوز في سانت لويز، بولاية ميسوري، وأخيراً، في عام ١٩٥٣، قام صديقنا

خوليان دافيس إنشانديا الذي كان أول رئيس لألفارو، باستدعائه لكي يتولى المسؤولية الكاملة عن جريدته المسائية التاسيونال، وكان ألفارو نفسه قد استحثه بالمشروع الفلكي الذي قدمه إليه لدى عودته من نيويورك. ولكن ما إن أسك بالمستبدون^(١) حتى استدعاني لكي أساعده، دون ألقاب أو واجبات محددة، إنما بالراتب الأول المقترح مقدماً، والذي كان يكفي، لأن أعيش حتى دون أن أنقضاء كاملاً.

لقد كانت مغامرة قاتلة. كان ألفارو قد أعد الحطة كاملة، بالاستناد إلى نماذج من صحف الولايات المتحدة، ومثلما الرب في الأعلى، بقي دافيس إنشانديا، أحد رواد الأزمنة البطولية للصحافة المحلية الضخمة، وأقل الرجال الذين عرفتهم قابلية لخل لغزه: طبيب المولد وعاطفي أكثر مما هو رحيم. أما بقية المحررين فكانوا من كبار الصحفيين الصداميين، من جماعة الحصاد الباسل. وجميعهم أصدقاء فيما بينهم، وزملاء عمل منذ سنوات طويلة. وكان لكل واحد منهم، نظرياً، مداره المحدد؛ غير أنه فيما وراء النظرة، لم يُعرف قط من الذي جعل المستبدون التقني عاجزاً عن أن يخطط خطوته الأولى. الأعداد القليلة التي صدرت كانت تناج عمل بطولي، إنما لم يُعرف قط من الذي كان ينجز ذلك العمل. ففي موعد إدخال صفائح الزنكوغراف إلى الطباعة، تجدها ملطخة بالشحم، أو تختفي المواد المستعجلة فجأة، وسيطر علينا نحن الغيورين، جنون الغضب. لا أتذكر مرة واحدة خرجت فيها الجريدة في موعدها، ودون إشكالات تسببها العفارت القايعة في المطبعة. لم يُعرف قط، ما الذي كان يحدث. وربما كان التفسير الذي شاع هو الأقل توقعاً: لم يستطع

(١) المستبدون mastodonte حيوان مفترس شبيه بالفيول.

يعض قداما ، المحررين المنخشبين النسامع مع ذلك النظام التجديدي،
قتامروا مع توائم أرواحهم إلى أن تمكثوا من تخریب المؤسسة.

غادر ألفاروا الجريدة صافقاً الباب وراءه. أما أنا فكنْتُ مرتبطاً
يعتقد عمل يمكن له. في الظروف العادية، أن يكون ضماناً لي. ولكنه
في تلك الظروف السيئة، كان أشبه بقيد. وفي تلفني لاستغلال الوقت
الضائع، حاولت أن أولف، بالسرعة التي تتيجها الآلة الكاتبة، أي شيء.
نافع من المواد غير المكتملة المثقبة لدي من محاولات سابقة. تنف من
"البيت"، محاكيات صريحة لفوكسر من نور في آيب، وعن واهل مطر
عصافير ناثانيل هوورون الميتة، ومن القصص البوليسية المكرورة التي
أضجرتني، ومن بعض الكدمات التبقية لي من الرحلة مع أمي إلى
آراكاتانكا. تركت كل ذلك يتدفق على هواه في مكتبي المقفر، حيث لم
يبق سوى المنضدة المقشرة، وآلة الكتابة التي على آخر نفس، إلى أن
وصلت في نفس واحد إلى العنوان النهائي: "يوم بعد السبت". وهي
قصة أخرى من قصص القليلة التي رضيت عنها منذ تسختها الأولى.

حاصرني في إناسيونال بائع ساعات معصم متجول. لم أكن قد
افتتيت واحدة قط، لأسباب واضحة في تلك السنوات. وكانت الساعة
التي عرضها عليّ فاخرة جداً وغالية الثمن. وقد اعترف لي بائع
الساعات نفسه آنذاك، بأنه عضو في الحزب الشيوعي. مكلف ببيع
ساعات قطع لاصطيد ممولين للحزب. وقال لي:

- هذا يشبه شراء الثورة بالتقسيط.

فأجبت بطيئة:

- الفرق الوحيد هو أنكم تعطونني الساعة فوراً. أما الثورة فلا.

لم ينظر البائع برضى كبير إلى دعايتي السيئة، وانتهى بي الأمر
إلى شراء ساعة أخص لنساء، لكي أرضيه فقط، وبنظام أقساط يأتي هو
ليستقاضه كل شهر. كانت تلك هي أول ساعة امتلكتها، وكانت بالغة
الدقة والديمومة، حتى إنني لا زلت أحتفظ بها كلقبية أثرية من تلك
الأزمنة.

في تلك الأيام، عاد ألفارو مرتيس حاملاً خبر تخصيص شركته
لميزانية كبيرة من أجل تنشيط الثقافة، والظهور الوشيك لمجلة المصباح،
لسان حالها الأدبي. وعندما دعاني إلى المشاركة في المجلة، اقترحت
عليه مشروعاً مستعجلاً: أسطورة "لامبيرري". لقد فكرت في أنه إذا ما
كان عليّ أن أرويها في أحد الأيام، فيجب ألا يكون ذلك عبر أي كتابة
خطابية، وإنما باستخراج الأسطورة من المحلة الجماعية، مثلما هي عليه:
حقيقة جغرافية وتاريخية. هذا يعني أن تتحول - أخيراً - إلى ريبورتاج
صحفي عظيم.

فقال لي موتيس:

- افعل ما يخرج مقل من أي مكان. ولكن انجزه، فهذا هو الجو
والإيقاع اللذان نبحت عنهما للمجلة.

وعدته بتسليمه الموضوع بعد أسبوعين. وقبل أن يذهب إلى المطار،
اتصل بمكتبه في بوغوتا، وأمر بأن تُدفع لي المكافأة مقدماً. الشيك
الذي وصلني بالبريد، بعد أسبوع، أفقدني أنفاسي. وأكثر من ذلك،
عندما ذهبت لصرفه. فقد أفلق مظهري أمين الصندوق في المصرف.
فأدخلوني إلى مكتب أعلى مرتبة. حيث سألني مدير بالغ اللطف، أين
أعمل. أجبت بأنني أكتب في الهيرالدو، وفقاً لعادتي في الود، وإن لم

يكن جوابي صحيحاً في ذلك الحين. لا شيء سوى ذلك. فخصص المدير الشيك على منقذته. أعن النظر إليه بإحساس بعدم الثقة الشخصية، ثم أصدر حكمه أخيراً:

- إنها وثيقة صحيحة تماماً.

في مساء ذلك اليوم بالذات، وبينما كنت أبدأ في كتابة "الامبييري"، أخبروني بأن هناك اتصالاً من المصرف، وتوصلت إلى التفكير في أن الشيك لم يكن سليماً لسبب من الأسباب الكثيرة المحتملة في كولومبيا. ولم أكن قد ابتلعت بعد، العقدة التي تشكلت في حلقي، عندها اعتذر لي موظف المصرف، بإيقاع الأنديزين الرتيب، بأنه لم يعرف في الوقت المناسب، أن المتسول الذي قبض قيمة الشيك هو كاتب "الزرافة" نفسه.

رجع موتيس مرة أخرى في نهاية تلك السنة. ولم يكذب يتذوق الغدا.. وهو يسعى لمساعدتي على التفكير في طريقة مستقرة وذاتمة، لكي أكتب أكثر ودون تعب. والفكرة التي وجدتها أفضل من سواها، ونحن نشاغل الشحلية، هي إخبار آل كانوا بأنني سأكون تحت تصرف الامبييكنادور، وإن كنت ما أزال أشعر بالقشعريرة لمجرد فكرة العودة إلى بوغوتا. ولكن ألقارو لم يكن يعرف الهدوء ولا التراجع عندهما يتعلق الأمر بمساعدة صديق.

- فلنتفق على أمر - قال لي -، سأرسل إليك تذكرة السفر لكي تذهب إلى بوغوتا، عندهما تشاء وكيفما تشاء، لكي ترى ما الذي يمكن أن يخطر لنا.

كان العرض أكبر من أن أرفضه. ولكنني كنت واثقاً من أن آخر

طائرة في حياتي، هي تلك التي أخرجتني من بوغوتا، بعد التاسع من نيسان. أضف إلى ذلك أن المكافأة الضئيلة التي تلقيتها عن الرواية الإذاعية ونشر الفصل الأول من "الامبييري" بصورة بارزة، في مجلة "المصباح" أتاحت لي توفير أجر بعض النصوص الإعلانية، مما مكّني من إرسال زورق نجدة إلى الأسرة في كارتاخينا. ولهذا قاومت مرة أخرى، إغراء الانتقال إلى بوغوتا.

حدثني ألقارو سيبيدا، وخيرمان، وألفونسو، ومعظم رواد مقهي جابي وروها، بإطراء عن "الامبييري" عندما نُشر الفصل الأول منها في المصباح. وكانوا متفقين على أن الصيغة المباشرة للربورتاج، هي الأكثر ملائمة للموضوع الذي كان على الحد المرح لما يمكن تصديقه. وقد قال لي ألفونسو يومذاك، بأسلوبه بين الجد والهزل، شيئاً لم أنسه قط: "لأن المصادقية، يا معلمي العزيز، تعتمد إلى حد كبير، على الوجه الذي يسيده أحدنا وهو يروي ما يرويه". كنت على وشك أن أكتشف لهم عن عرض العمل الذي قدمه لي ألقارو موتيس، ولكنني لم أتحراً على ذلك. وأنا أعرف اليوم أن السبب هو خوفاً من أن يؤيدوا ذلك. وقد عاد إلى الإلحاح عدة مرات، وحتى بعد أن هجزي لي على الطائفة، وألقيت الحجر في اللحظة الأخيرة. أكد لي أنه لا يبتذل، من وراء ظهري، أية مساعٍ لدى الامبييكنادور، ولا لدى أي وسيلة مقروءة أو منطوقة أخرى. وأن هدفه الوحيد - وقد أصر على ذلك حتى النهاية - هو تبادل الحديث حول مجموعة من المساهمات الثابتة للسجلة، ومراجعة بعض التفاصيل الفنية حول سلسلة "الامبييري" الكاملة، والتي كان فصلها الثاني سيُشر في العدد الذي يوشك على الصدور. وأعرب ألقارو موتيس عن يقينه من

أنه يمكن لهذا النوع من الريبورتاجات، أن يكون وخزة تنفيس لتيار أدب العادات والتقاليد المسطح في ميدهاته بالغات. ومن بين كل الأسباب الأخرى التي طرحها عليّ، حتى ذلك الحين، كان هذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أستغرق في التفكير.

في يوم ثلاثاء ذي رذاة مطر كئيب، أدركت أنه لا يمكنني الذهاب، حتى لو رغبت في ذلك، لأنني لا أملك من الثياب أكثر من قمصاني المزركشة، لم أجد أحداً في الساعة السادسة، في مكتبة "مونود"، فبقيت أنتظر عند الباب، محتسباً كرة من الدموع على الفسق الحزين الذي بدأ بالتلاشي. وكانت هناك، على الرصيف المقابل، واجهة متجر ملابس رسمية لم أرها من قبل قط، بالرغم من أنها موجودة هناك منذ الأزل، ودون أن أفكر في ما أفعله، اجتزت شارع سان بلاس تحت رماد الرذاة المطري، ودخلت بخطوات واثقة، إلى أغلى متجر في المدينة. اشتريت بذلة كهنوتية من جوخ أزرق قاتم، مناسبة تماماً لروح بوعوتا في تلك الأزمنة؛ وفميصين أبيضين صلي الباقية، وربطة عنق ذات خطوط مائلة وحذاء من تلك التي أشاع استخدامها المثل خوسيه موخيكا، قبل أن يتحول قديساً. والوحيدون الذين أخبرتهم أنني ذاهب، هم خيرمان، وألفارو، وألفونسو، فأيدوا ذلك بقرار شديد يتشروط عليّ ألا أرجع أبداً. احتفظنا بذلك في الرجل الثالث مع الشلة كاملة، حتى الفجر. وكان احتفالاً مسبقاً بعيد ميلادي القريب. ذلك أن خيرمان يارغاس الذي كان حارس تقاويم المناسبات، أعلن أنني سأكمل في السادس من شهر أيار القادم، سبعاً وعشرين سنة من عمري. ووسط نبوءات أصدقائي الطيبة، أحسست أنني على استعداد لأن أكل، نيشة، الثلاث والستين سنة المتبقية لي. لكي أكمل المئة سنة الأولى من حياتي.

استدعاني مدير جريدة الاسبيكتادو، غييرمو كانو، بالهاتف، عندها علم أنني في مكتب ألفارو موتيس، فوق أربعة طوابق من مكتبه. في مبنى دشونه حديثاً، على بعد خمس كوادرات من مقر الجريدة القديم. كنت قد وصلت في العشيّة، وكنت أستعد لتناول الغذاء مع جماعة من الأصدقاء، ولكن غييرمو أصرّ عليّ أن أمر قبل ذلك لتحيته. وهذا ما حدث. بعد العناق الحار، على طريقة أهالي العاصمة، بالمعنى الطيب، وبعض التعليقات القصيرة حول خير اليوم، أمسكني من ذراعي واقتادني بعيداً عن زمالاته في هيئة التحرير، وقال لي بهراة لا تطلق: "اسمع يا غابريل، لماذا لا تقدم لي معروفاً صغيراً بأن تكتب لي مقالة افتتاحية قصيرة أحتاج إليها لإغلاق عدد الجريدة"، وأشار بسبابته وإبهامه إلى حجم نصف كأس من الما، وأضاف:

— بهذا الحجم.

فسألته وأنا أكثر مرحاً منه، عن المكان الذي يمكنني أن أجلس فيه، فأشار إلى منضدة خاوية، عليها آلة كاتبة من أزمئة أخرى. جلست دون مزيد من الأسئلة، لأنكر في موضوع مناسب لهم. وبقيت جالساً هناك على الكرسي نفسه، وإلى المنضدة نفسها، والآلة الكاتبة نفسها، طوال الثمانية عشر شهراً التالية.

بعد دقائق من وصولي، خرج من المكتب المجاور إدواردو ثالاميا بوردا، نائب المدير، مستغرقاً في رزمة من الأوراق. وقد فرغ لدى التعرف عليّ.

- يا رجل، دون غابو! - قال ذلك صاخواً تقريباً، وبالاسم الذي ابتدعه لي في يارانكيّا، منتظماً من لقب غابيتو. ولم يكن يستخدمه أحد سواه. ولكن اللقب تعمد في ذلك اليوم، في مكاتب التحرير، وواصلوا استخدامه حتى في حروف الطباعة: غابو.

لست أتذكر موضوع الزاوية التي كلفني غيرمو كانوا يكتبونها. ولكنني كنت أعرف على أحسن وجه، مذ كنت في الجامعة الوطنية، أسلوب جريدة الأسبكتادور العريق. ولا سيما في زاوية "من يوم ليوم" في الصفحة الافتتاحية، وهو أسلوب يتمتع بشهرة يستحقها وقد قررت محاكاته بمرور الأعصاب الذي كانت لويسا سانشياغا تواجه به شياطين الرزايا والملامات. أنهيت المقالة المطلوبة في نصف ساعة، ثم أضفت إليها بعض لمسات التصحيح بالقلم، وسلمتها إلى غيرمو كانوا الذي قرأها واقفاً، من فوق قوس نظارة قصر البصر التي يضعها. لم يبد أن تركيزه في القراءة خاص به وحسب، وإنما هو تركيز سائلة من الأسلاف ذوي الشعور البسيطاء، بدءاً من دون فيدل كانوا، مؤسس الجريدة في العام ١٨٨٧؛ واستمر به من بعده أخوه دون لويس، ورسخه ابنه دون غابرييل؛ ثم تلقاه ناضجاً ومتدفقاً الحيوية، حفيده غيرمو الذي كان قد تسلم للتو، منتصب المدير العام، وهو في الثالثة والعشرين من عمره. ومثلما كان أسلافه يفعلون، أجرى بعض المراجعات المختصرة لعدة شكوك صغرى، وانتهى إلى أول استخدام عملي وبسيط لاسمي الجديد:

- جيد جداً يا غابو.

لقد انتبهت، منذ ليلة عودتي، إلى أن بوغوتا لن تعود لتكون هي نفسها في نظري، طالما ظلت ذكرياتي حية. ومثلما هو شأن الكوارث الكبرى الكثيرة في البلاد، كان أثر التاسع من نيسان في النسيان، أكبر منه في التاريخ. كان الفندق الكبير قد هدم في حديقته القديمة التي تعود إلى مئات السنين، وبدأ ينتصب مكانه، بناء جديد لمصرّف الجمهورية. ولم تكن شوارع سنواتنا هناك تشبه أحداً باستثناء حافلات الترام المضاعفة، وكانت ناصية الجرعة التاريخية قد فقدت عظمتها في الاتساعات القسبة التي قوضتها الحرائق. لقد صارت تبدو الآن، مدينة كبيرة بالفعل، قال ذلك أحد مراقبينا، ثم مرّق قلبي بجملته طقوسية:

- لا بد من تقديم الشكر للتاسع من نيسان.

ولم أشعر قط، بالمقابل، بأنني لم أكن أحسن حالاً، في أي وقت على الإطلاق، مما كنت عليه في النزول الذي بلا اسم، حيث أنزلني الفارو موتيس. إنه منزل جملته النكية، يقوم إلى أحد جوانب الحديقة الوطنية، حيث لم أستطع، في الليلة الأولى، تحمل إحساسي بالحسد تجاه جاري في الحجرة المجاورة، اللذين يمارسان الحب، كما لو أنهما يخوضان حرباً سعيدة. وفي اليوم التالي، عندما رأيتهما يخرجان لم أستطع أن أصدق أن يكونا هما نفسيهما؛ بشة ضامرة بلستان دار أبنام عمومية، وسيد متقدم في السن، بلاتيني البشرة، ويقامة طولها متران، يمكن له أن يكون جدداً. ظننت أنني أخطأت الظن بهما، ولكنهما تكفلا بتأكيد شكوكي. في الليالي التالية كلها، بوترهما في صراخ شيق حتى الفجر.

نشرت الإسبيكتادور مقالتي في صفحة الافتتاحيات، وفي مكان بارز منها. وقد أمضيتُ فترة الصباح، في شراء ملابس كان موتيس يفرضها عليّ باللكنة الإنكليزية الصاخبة التي يبتدعها، لكي يسلي البائعين. تناولنا الغداء مع غوثالو مائارينو وكتاب شباب آخرين، جرت دعوتهم من أجل تقديمي إلى المجتمع. ولكنني لم أعد أعرف شيئاً عن غييرمو كانو إلا بعد انقضاء ثلاثة أيام، عندما اتصل بي في مكتب موتيس، وقال لي بصراحة سيئة المحاكاة لصراحة رئيس تحرير:

- اسمع يا غايو، ما الذي جرى لك؟ يوم أمس تأخرنا في إغلاق تحرير الصحيفة، بانتظار مقالتك.

نزلتُ إلى قاعة التحرير لأحدث إليه. ولا زلتُ إلى الآن، لا أعرف كيف واصلت كتابة مقالات يومية دون توقيع، طوال أكثر من أسبوع، دون أن يكلمني أحد عن أية وظيفة أو أي راتب. كان المحررون في مساهرات الاستراحة، يعاملونني كواحد منهم. وقد كنتُ كذلك بالفعل. ولكن دون أن أتخيل إلى أي حد.

صفحة "من يوم ليوم" التي لم تكن تحمل توقيع أحد قط، كان يتصدر عادة غييرمو كانو بزاوية سياسية. وكان يعلوها، وفق ترتيب مقرر من رئاسة التحرير، زاوية ذات موضوع حر، يكتبها غوثالو غوثاليت، فضلاً عن أنه كان يتولى، كذلك، أذكي صفحات الجريدة وأكثرها شعبية - "أسئلة وأجوبة" - حيث يحل أية شكوك تراود القراء، مستخدماً الاسم المستعار "شوغ". ليس تيمناً بجيوفاني بامبيني، وإنما اختصاراً لاسمه هو نفسه. ثم ينشرون بعد ذلك، مقالتي، وفي بعض المناسبات القليلة، ينشرون زاوية خاصة يكتبها إدواردو ثالاميا الذي

كان يحتل، يومياً، أفضل مساحة في صفحة الافتتاحيات بعنوان - "المدينة والعالم" - ويوقعها باسم أوليسيس، ليس تيمناً بهوميروس - مثلما اعتاد أن يقول -، وإنما تيمناً بجيمس جويس.

كان على ألفارو موتيس أن يقوم برحلة عمل إلى بورت دا برانس، في الأيام الأولى من السنة الجديدة، فدعائي لمرافقته. كانت هايتي في ذلك الحين، هي بلاد أعلامي، بعد أن قرأت رواية أليخو كاربنتير "ملكة هذا العالم". ولم أكن قد أجيت في الثامن عشر من شباط، عندما كتبتُ زاوية حول الملكة الأم في إنكلترا، الضائعة في عزلة قصر بيكينغهام المترامية الأطراف. ولغت انتباهي أنها نُشرت في الموقع الأول من صفحة "من يوم ليوم"، وجرى التعليق عليها بصورة جيدة في مكاتينا. في تلك الليلة، في حفلة ضمت جماعة قليلة العدد، في منزل رئيس التحرير خوسيه سالغار، قدم إدواردو ثالاميا تعليقاً أكثر حماسة مما سبق. وقد أخبرني واثق أريحي قبمما بعد، بأن ذلك الرأي هو الذي أزال آخر الترددات لدى الإدارة، لتعرض عليّ رسمياً، وظيفته ثابتة في الجريدة.

في اليوم التالي، استدعاني ألفارو موتيس في وقت مبكر إلى مكتبه، لينقل إلى الخبير المحزن بالغاء الرحلة إلى هايتي. ولكن ما لم يقله لي هو أنه توصل إلى هذا القرار، على أثر حديث عارض مع غييرمو كانو، طالبه فيه هذا الأخير، من كل قلبه، ألا يأخذني إلى بورت دا برانس. فأراد ألقارو الذي لم يكن قد زار هايتي كذلك، أن يعرف السبب. فقال له غييرمو: "عندما تتعرف عليه، ستفهم أن هذه الرحلة هي أكثر ما يمكن أن يروق غايو في العالم". وأنهى ذلك المساء بإيماءة بارعة.

- إذا ما ذهب غايو إلى هايتي، فلن يعود منها أبداً.
 فهم الفارو المظلوم، وأنغي الرحلة، وقال لي إنه قرار اتخذته
 شركته التي يعمل فيها. وهكذا، لم أعرف قط، على بويرت دا يرانس،
 ولكنني لم أعرف السبب الحقيقي إلا قبل سنوات قليلة، عندما أخبرني
 الفارو ذلك، في واحدة من جلسات تذكرونا الطويلة كجدين. أما غييرمو
 من جانبه، وبعد أن قيدني بعقد عمل في الجريدة، رد على مسامعي،
 طوال سنوات، بأن أفكر في ريسورتاج عظيم عن هايتي. ولكنني لم
 أستطع الذهاب قط، ولم أخبره بالسبب.
 ما كان ليخطر ببالي أبداً، حلم العمل محرراً ثابتاً في
 الإسيكتادور؛ فقد كنت أدرك أنهم ينشرون قصص القصيرة، بسبب
 ندرة هذا الجنس الأدبي وقرره في كولومبيا. ولكن الكتابة اليومية في
 جريدة مسائية، كان محدياً مختلفاً تماماً بالنسبة لشخص ضئيل الخبرة في
 الصحافة الصغامية. فجريدة الإسيكتادور التي كان عمرها نصف قرن،
 ونشأت في بيت مستأجر، وبفائض آلات التيمبر - الصحيفة الفنية
 والقوية والمتنوعة - كانت جريدة مسائية متواضعة. في ست عشرة
 صفحة مزدحمة. غير أن نسخها الخمسة آلاف، غير المعشودة جيداً،
 يجري تلقفها من المتادين عند أبواب مطبعتها تقريباً، وتقرأ خلال نصف
 ساعة، في المقاهي الهادئة في المدينة القديمة. كان إدواردو ثالاميا بوردا
 شخصياً، قد صرح عبر ال BBC اللندنية، بأن الإسيكتادور أفضل
 جريدة في العالم. لكن الحرج الأكبر لم يكن في التصريح بحد ذاته،
 وإنما في أن جميع من يساهمون في صنع الجريدة تقريباً، ومعظم من
 يقرؤونها، كانوا مفتعين بأن ذلك صحيح.

لا بد لي من الاعتراف بأن قلبي طفر من مكانه في اليوم التالي
 لإلغاء الرحلة إلى هايتي، عندما حدد لي المدير العام، لويس غابرييل
 كانو، موعداً في مكتبه، لم تستمر المقابلة، مع كل شكلياتها، أكثر من
 خمس دقائق. كان لويس غابرييل مشهوراً بأنه رجل متجهم، كريم
 متصديق وبخيل كمدير جيد، ولكنه بدا لي، وظل يبدو لي على الدوام،
 بالغ الدقة والحساسية. وكان اقتراحه، في خطوطه العامة، هو أن أبقى
 في الجريدة، كمحرر ثابت، لأكتب أخباراً عامة، ومقالات رأي، وكل ما
 ينظليه الأمر في طوارئ اللحظة الأخيرة، براتب شهري قدره تسعمئة
 بيزو. فقدت القدرة على التنفس، وعندما استعدتها، سألته: كم؟ فأعاد
 عليّ حرفاً حرفاً: تسعمئة. كان تأثيري شديداً إلى حد أن عزيزي لويس
 غابرييل، وبينما كنت أتكلم في هذا الأمر في حفلة، بعد بضعة شهور،
 كشف لي أنه فسّر ذهولي على أنه رفض للعرض. وقد أعرب دون
 غابرييل عن ارتبابه الأخير، يخوف له ما يبرره: "إنك تحيل وشاحب إلى
 حد يمكن لك معه أن تموت في المكتب". وهكذا انضممت كمحرر، إلى
 طاقم الإسيكتادور، حيث استهلكت أكبر كمية من الورق في حياتي،
 خلال أقل من سنتين.

لقد كانت مصادقة حسنة الطالع. المؤسسة المرموقة أكثر من سواها
 في الجريدة، هي دون غابرييل كانو، البطريق، الذي حول نفسه بتصميم
 خاص، إلى حاكم تفتيش لا يرحم في هيئة التحرير، كان يقرأ بعذسته
 المكثرة الميلمسترية، كل شيء، حتى الفاصلة التي لا تخطر ببال في
 الطبعة اليومية، ويشير بالحرير الأحمر إلى العثرات في كل مقالة،
 ويعرض في لوحة إعلان، المقاطع المعاقبة مع تعليقات قاسية ساحقة منه.

وقد عرضت لوحة الإعلان تلك نفسها، منذ اليوم الأول، على أنها "جدار العار". ولا أظن أن هناك محرراً واحداً أقلت من ريشته الدعوية القاسية. ثرقية غيرمو كانوا الاستعراضية إلى منصب مدير الاسبيكتادور، وهو في الثالثة والعشرين، لم تكن تبدو لمرّة مبكرة لمزاياه الشخصية، وإنما تنفيذ قدر مكتوب منذ ما قبل مولده، ولهذا كانت مفاجأتي الأولى هي التأكد من أنه كان المدير بكل معنى الكلمة، في الوقت الذي كان الكثيرون يذكرون، من الخارج، في أنه ليس أكثر من ابن مطيع، وكان أكثر ما شدد انتباهي هو السرعة التي يتعرف بها على الخبر.

كان يضطر أحياناً إلى مواجهة الجميع، حتى عندما لا يكون لديه الكثير من المخرج، إلى أن يتمكن من إقناعهم بحقيقته، لقد كان زمن لا يجري فيه تعليم المهنة في الجامعات، وإنما يتم تعلمها عند قائمة البقرة، وباستئذان حير المطبعة، وكان في الاسبيكتادور أفضل الأساتذة وأطيبهم قليلاً، إنما أشدهم صرامة في الوقت نفسه. وقد بدأ غيرمو التعلم هناك منذ حروقه الأولى، بمقالات عن مصارعة الشيران، باللغة الصرامة واسعة الاطلاع، يدا معها أن ميله الغالب ليس التحول إلى صحفي وإنما إلى مربي عجول مصارعة. وهكذا، فإن أقصى تجربة في حياته، دون شك، هي صعوده، بين ليلة وضحاها، دون تدريجات وسيطة، من تلميذ ابتدائي إلى معلم كبير. وما كان بإمكان أحد لم يعرفه عن قرب، أن يلمح وراء أساليبه الرقيقة، وحتى المتهرة بعض الشيء، التصميم الرهيب في طبعه. وقد خاض بالشغف نفسه، معارك واسعة وخطرة، دون أن يتوقف أبداً أمام البقيع بأنه يمكن للصوت أن يكون مناهياً بالمضاد، وراء أشد القضايا نبلاً.

لم أتعرف في ما بعد، على شخص أشد منه رفضاً للتصهار في الحياة العامة، وأكثر من راقص للتشريقات الشخصية، وأكثر نهياً من إغواءات السلطة. كان رجلاً قليل الأصدقاء، ولكن أولئك القلة كانوا طيبين جداً. وقد شعرت بأنني واحد منهم منذ اليوم الأول، وربما أسهم في ذلك كوني أحد الصغار سناً، في قاعة تحرير تضم مجرئين محترفين. وهو ما ولّد بيننا نحن الاثنين، شعوراً بالتواطؤ لم يضعف أبداً. وما كان مثالياً في هذه الصداقة، هو قدرتها على تجاوز كل تناقضاتنا. فالاختلافات السياسية كانت عميقة جداً، وراح عمقها يزداد أكثر فأكثر، مع تفسخ العالم، ولكننا كنا نحمده على الدوام، أرضية مشتركة، يمكننا منها مواصلة النضال في سبيل القضايا التي نراها عادلة.

كانت قاعة التحرير فسيحة جداً، تضم متاضد على الجانبين، ويسودها جو من المزاج الطيب والدعابة القاسية. هناك كان داريو باوتيسستا، وهو نوع نادر من نقبض وزير المالية، يعكف منذ أول صباح للديكة، على بحث المارّة في صباح أعلى الموظفين مرتبة، بتكهنات سحرية عن مستقبل مشؤوم، تكون صائبة في أغلب الأحيان، وكان هناك المحرر القانوني فيليب غونزالث توليدو، كاتب التحقيقات بالولادة. وقد سبق في أحيان كثيرة التحريات الرسمية، في فن إحباط ضرر أو كشف النقاب عن جريمة. أما غيرمو لاناو الذي كان يغطي عدة وزارات، فقد حافظ على سرّ يقانه طفلاً حتى آخر طراوة عود شيخوخته. وكان روخيليو إتشيباريّا، وهو شاعر من الكبار، مسؤولاً عن المطبعة الصباحية، فلم نكن نراه أبداً على ضرة النهار. أما ابن عمي غونزالو

غوثالث، بساقه الملقوفة بالجبس، بسبب مباراة كرة قدم خبيثة، فكان عليه أن يدرس، لكي يرد على أسئلة حول أي شيء. وانتهى به الأمر إلى التحول إلى اختصاصي في كل شيء. وعلى الرغم من أنه كان لاعب كرة قدم من الطراز الأول، في الجامعة، فقد كان يؤمن إيماناً غير محدود، بالدراسة النظرية، لأي شيء. أكثر من إيمانه بالتجربة العملية. وقد قدم لنا الدليل الباهر على صحة رأيه في بطولة البولو للصحفيين، عندما عكف على دراسة قواعد اللعبة من مرجع مطبوع، بدل أن يمارسها مثلاً في الملاعب حتى الفجر، وأحرز بطولة تلك السنة.

يمثل هذه القائسة، كالت قاعة التحرير استراحة تسلية أبدية، خاضعة على الدوام لشعار داريو باوتيسنا، أو قيليبه غوثالث توليدو: "من يتعبر يخوِّق نفسه". جميعنا كنا نعرف الموضوعات التي يكتبها الآخرون، ويساعد بعضنا بعضاً إلى حيث يُطلب منا، أو إلى حيث تكون المساعدة ممكنة. وقد كانت المشاركة متبادلة إلى حد يمكن القول معه، إن العمل كان يجري بصوت عالٍ. ولكن عندما تشدد وطأة العمل، لا يعود يُسمع أي نفس. ومن المتشقة الوحيدة المستعرضة في أقصى القاعة، كان خوسيه سالغار يُصدر الأوامر. وقد اعتاد أن يتجول بين المحررين، ليُعلم ويستعلم عن كل شيء. بينما هو يظن: روجه بعلاج يهلواني.

أظن أن اليوم الذي اقتادني فيه غيسرمو كانو من متضدة إلى أخرى، على امتداد القاعة، ليُقدمني إلى المجتمع، كان اختياراً بالناو لهجلي الذي لا سبيل إلى تجاوزة. فقدت القدرة على الكلام وخارت ركبتي، عندما جاز داريو باوتيسنا، دون أن ينظر إلى أحد، بصوته الرعدة:

= لقد جاء العبقري!

فلم يخطر لي سوى الدوران في نصف التفتاة مسرحية، مادلاً ذراعي نحو الجميع. وقلت لهم أقل من خرج من وحي، طرافة:

= في خدمتكم جميعاً.

وما زلت حتى الآن، أعاني من صدمة السخريّة العامة. ولكنني أشعر كذلك، بالراحة للمعانقات والعبارات الطيبة التي قالها كل واحد منهم، وهو يرحب بي، منذ تلك اللحظة، صرت واحداً من جماعة النور المشفقة تلك، بصداقة وروح فريق لم تخدم قط. فكل معلومة أحتاج إليها لمقالاتي، مهما صغر شأنها، كنت أطلبها من المحرر المعني. ولم تكن تتأخر قط عن موعدها.

درسي الكبير الأول في كتابة الرپورتاجات، تلقينته من غيسرمو كانو، وعاشته قاعة التحرير بكامل أفرادها في مساء يوم، هطل فيه على بوغوتا وابل من المطر، أبقاها في حالة نيبضان كوني طوال ثلاث ساعات دون توقف. سيل الماء الجارف في جادة خيسنت دي كيسادا، جرف كل ما وجده في طريقه على السفوح، وخلف في الشوارع آثار كارثة. ظلت السيارات مختلفة الأنواع، ووسائل النقل العام، مشلولة في الأماكن التي ناجأتها فيها حالة الطوارئ. والشجا آلاف المارة متداعين ومتعثرين، إلى العمارات الغارقة حتى لم يبق فيها متسع للمزيد. محررو الصحيفة الذين فاجأتهم الكارثة في لحظة إغلاق تحرير الجريدة، راحوا يتأملون المشهد الكئيب من النوافذ، دون أن يدروا ما الذي يمكنهم عمله، مثل أطفال معاقين يضعون أيديهم في جيوبهم. وفجأة، بدا كما لو أن غيسرمو كانو قد استيقظ من حلم بلا قاع، والتفت نحو المحررين المشلولين وصرخ:

- هذا الوابل من الأمطار خيراً!

كان أسيراً لم يُصدّره، وجرى تنفيذه في الحال. ركضنا، نحن المحررين، إلى مواقعنا القتالية لكي نحصل، عبر الهاتف، على المعلومات المستعجلة التي يطلبها منا خوسيه سالغار، لنتكتب معاً، وبالنجيزة، ريبورتاجاً صحفياً عن عاصفة القرن المطرية. سيارات الإسعاف ودوريات الشرطة اللاملكية التي استدعيت من أجل الحالات المستعجلة، شُلت حركتها بسبب السيارات الغالقة في منتصف الشوارع. وكانت مجاري الصرف المنزلي مسدودة بالمياه. ولم تكف كل أطقم الإطفاء لدرء الخطر الطارئ. وتوجب إخلاء أحياء بكاملها، بالقوة، بسبب تصدع سدّ مديني مجاور. وفي أحياء أخرى، تفجرت المجاري. وكانت الأرصفة مشغولة بمسّنين مشلولين وأطفال مختنقين، ووسط تلك الفوضى، نظم خمسة من مالكي الزوراق ذات المحرك، تستخدم عادة للصيد في عطلّة نهاية الأسبوع، سباقاً في جادة كاراكاس. أكثر شوارع المدينة اختناقاً. راح خوسيه سالغار يوزع هذه المعطيات المتجمعة للتمر، على المحررين الذين انهمكوا في إعدادها وصياغتها للطبعة الخاصة التي جرى ارتجالها في سباق العمل، وعكف المصورون الملهولون، على الرغم من معاناتهم المطرية، على معالجة الصور على الساخن. وقبل الساعة الخامسة بقليل، كتب غيريرو كائو ملخصاً بارعاً عن أشدّ العواصف المطرية التي تتذكرها المدينة، دراماتيكية. وعندما توقفت المطر أخيراً، كانت طبعة الاستكتادور المرحلة قد صارت قيد التداول، كما في كل يوم، مع تأخير يكاد لا يزيد على ساعة واحدة.

علاقتي الأولية مع خوسيه سالغار، كانت الأضعف، ولكنها الخلاقة

أكثر من أي علاقة أخرى. وأظن أنه كانت لديه مشكلة مناقضة لشكائتي؛ فهو يحاول على الدوام، دفع كتاب التحقيقات في القسم، إلى إطلاق أعمق صوت صديري، بينما كنتُ أنهلُ إلى أن يضعني على الموجة الصحيحة. ولكن التزاماتي الأخرى مع الجريدة، كانت تقيدني، ولم يبق لي متسع من الوقت سوى في أيام الأحاد. أظن أن سالغار قد وضع عينه عليّ، لأنّ كون كاتب تحقيقات، بينما وضع آخرون عيونهم عليّ، لأنّ تخصص في الكتابة السيمائية، والتعليقات الافتتاحية، والشؤون الثقافية، لأنني عُرفت دوماً كقصاص. ولكنني كنت أحلم، منذ خطواتي الأولى في الساحل، أن أصبح كاتب تحقيقات. وكنتُ أعرف أن سالغار هو أفضل معلم، ولكنه كان يغلق الأبواب في وجهي، ربّما على أمل دفعي إلى تخطيها، والدخول عنوة. كنا نعمل على أحسن وجه، بمودة وديناميكية. وكلما قدمت إليه مادة صحفية، مكتوبة بالاتفاق مع غيريرو كائو أو حتى مع إدواردو ثالاميا، يوافق عليها دون تأخير، ولكنه لم يكن يتسامح مع الإخلال بالطقوس. كان يقوم بحركة انتزاع سداة قارورة بالقوة، ويقول لي يجد أكبر مما يعتقد هو نفسه:

- إلي عنتي هذه البهجة.

ولكنه لم يكن مع ذلك، عدوانياً قطعاً، بل على العكس تماماً؛ كان رجلاً ودوداً، تصلب في نار متاجعة، ارتقى سلم الخدمة الجيدة ابتداءً من تقديم القهوة في المطبعة، وهو في الرابعة عشرة من عمره، حتى التحول إلى رئيس تحرير يتمتع بأوسع سلطة مهنية في البلاد. أعتقد أنه لم يكن قادراً على أن يغفر لي إسرائفي في اليهولانيات الغنائية، في بلاد تقتفر إلى الكثير من كتاب التحقيقات الصدامية. أما أنا بالمقابل،

فكنت أفكر في أنه ليس هناك جنس صحفي أفضل من التحقيقات،
للتعبير عن الحياة اليومية. ومع ذلك، فإني أعرف اليوم أن العناد الذي
كنا نحاول به كلانا عمل ذلك هو أفضل حافز توفر لي من أجل تحقيق
حلمي بأن أصير كاتب ريبورتاجات صحفية.

اعترضت الفرصة لطريقي، في الساعة الحادية عشرة وعشرين
ودقيقة، من صباح التاسع من حزيران ١٩٥٤، بينما أنا راجع من زيارة
صديق في سجن يوغوسلايا النموذجي. كانت هناك قوات من الجيش،
مسلحة كما لو أنها في حالة حرب، تعترض حشداً طلابياً في الشارع
السابع، على بعد كوادرتين من الناصية التي جرى فيها قبل ست
سنوات، اغتيال خورخي إلسير غابثان. لقد كانت مظاهرة احتجاج على
مقتل طالب، في اليوم السابق، على يد جنود من الفرقة الكولومبية
التي دُرِيت من أجل الحرب في كوريا، وأول صدام في الشوارع يخوضه
المدنيون ضد حكومة القوات المسلحة. لم تكن تُسمع، من المكان الذي أنا
فيه، سوى صرخات الجدل بين الطلاب الذين يحاولون مواصلة مسيرتهم
حتى القصر الرئاسي، والعسكريين الذين يمنعونهم. ولم نتمكن، وسط
الحشود، من فهم ما يقولونه صارخين، ولكن التوتر كان ملموساً في
الجو، ولفجأة، ودون سابق إنذار، سُمعت رشقة رصاص من بندقية
رشاشة، ثم تلتها رشقتان أخريان. سقط عدد من الطلاب وبعض
العابرين، قتلى على الفور. والأحياء الذين حاولوا حمل الجرحى إلى
المستشفى، جرى إبعادهم بأعقاب البنادق. أخلت القوات العسكرية
المنطقة، وأغلقت الشوارع. وأحسست في صدمة خاطفة، استمرت بضع
ثوان، فإني أعيش ثانية، كل هول التاسع من نيسان، في الساعة
نقشها والمكان نفسه.

صعدت راکضاً، الكوادرات الثلاث، في الطريق الصاعد باتجاه
مبنى الاسبىكتادور، ووجدت المحررين في معمة التأهب لمعركة. رويت
بمشقة، ما تمكنت من رؤيته في موقع المجزرة. ولكن أقل المحررين
اطلاعاً على ما جرى، بدأ، بسرعة خاطفة، في إعداد التقرير الأول عن
هوية الطلاب التسعة القتلى، وعن حالة الجرحى في المستشفيات. كنت
موقناً من أنهم سيطلبون مني رواية الواقعة، لأتني الوحيد الذي شهداها.
لكن غيبرمو كانو وخوسيه سالغار كانا قد اتفقا على وجوب أن يكون
التقرير جماعياً يضع فيه كل واحد ما لديه، ويتولى المحرر المسؤول،
فيلبي غوثالث توليدو، بعد ذلك، صياغة الوحدة النهائية للموضوع.
وقد قال لي فيلبي الفلق، لما لمسه من خيبة أمني:

- اطمئن. خالنا يعرفون أننا جميعاً نعمل هنا في كل
الموضوعات، وإن كانت لا تحمل توقيعاً.

وقد واساني أوليسيس، من جانبه، بفكرة أنه يمكن للشعبي
الافتتاحي الذي يتوجب علي كتابته، أن يكون الأكثر أهمية، لأنه يتناول
مشكلة خطيرة تتعلق بالأمن العام، وقد كان صحيحاً، ولكنه كان تعليماً
شديد الحساسية وبالغ التوريط لسياسة المجردة، فكتب بعدة أيدي من
أعلى المستويات. أظن أنه كان درساً عادلاً للجميع، ولكنه بدأ لي قاسياً
جداً. كانت تلك هي نهاية شهر العسل، بين القوات المسلحة والصحافة
الليبرالية، الذي بدأ قبل ثمانية شهور من ذلك، عندما تسلم السلطة
الجنرال روخاس بينيا، وأتاح للبلاد إطلاق زفرة راحة بعد حصار دم
الحكومتين المحافظتين المتنازعتين، واستمر حتى ذلك اليوم. وقد كان ذلك
اليوم بالنمسة لي أيضاً اختصاراً بالناو لأحلامي، ككاتب تحقيقات عادي.

بعد وقت قصير من ذلك، نُشرت صورة جثة طفل بلا أهل لم يتمكنوا من التعرف عليه في مشرحة الطب الشرعي. وقد بدت لي مشابهة لصورة طفل آخر ضائع، نُشرت قبل أيام. عرضت الصورتين على مسؤول الصقحة القضائية، فيليب غوثالث توليدو. فأتصل بأم الطفل الأول الضائع الذي لم يكن قد عُثر عليه بعد. وكانت تلك الواقعة درساً تعلمته إلى الأبد. فقد انتظرتنا أم الطفل، أنا وفيلبي، في فناء المشرحة. وبدت لي شديدة الفقر والضالة إلى حد بذلت معه جهداً فائقاً من أعماق قلبي، كيلا تكون الجنة لطفلي. وفي القيو الجليدي الطويل، تحت إضاءة قوية، كانت هناك حوالي عشرين طاولة مصفوفة، عليها جثث كأنها أكوام حجارة، تحت ملابسات متسخة، لحقنا، نحن الثلاثة، بالحارس المتجهم حتى المتضدة قبل الأخيرة، في أقصى القاعة. كان يبرؤ من تحت طرف الملاء نغلا حذاً، كتيب، حذونا كعبيه مستهلكتان جداً من كثرة الاستعمال. تعرفت المرأة عليهما، فشحب لونها، ولكنها تماسكت بآخر نفس لديها إلى أن نزع الحارس الملاء بحركة مصارع ثيران. كان الجسد ذو التسع سنوات، بعينيه المفتوحتين والذاهلتين، مرتدياً الملابس الممزقة نفسها التي وجد بها ميتاً قبل عدة أيام، في ساقية إلى جانب الطريق. أطلقت الأم ولولة، وانهارت على الأرض، وهي تطلق العويل والصراخ. ساعدها فيليب على الوقوف، وهذأها بعبارات مواساة هامسة، بينما كنتُ أتسائل عما إذا كان ذلك كله خلقاً بأن يكون العمل الذي أحلم به. وقد أكد لي إدواردو ثالاميا أن لا، إذ كان هو نفسه يفكر أيضاً، في أن التقارير الصحفية عن الجرائم والحوادث، المتجذرة جداً لدى القراء، هي اختصاص صعب يتطلب طبيعة خاصة، وقلباً قاسياً مجرباً. فلم أقرب ذلك العمل بعدها قط.

واقع آخر مختلف تماماً اضطرني إلى أن أصير ناقداً سينمائياً. لم يكن قد خطر لي من قبل، أنني قد أفعل ذلك. ولكنني في مسرح أولمبيا الذي كان يملكه دون أنطونيو داونتي في أراكاتاك، وبعد ذلك في مدرسة ألقارو سيبيدا الجواله، ألمت بالعناصر الأساسية لكتابة ملاحظات ترجيحية سينمائية، برؤية أكثر فائدة من الشائعة آنذاك، في كولومبيا، كان إرنستو فولكينغ، وهو كاتب وناقد أدبي ألماني كبير، استقر في كولومبيا منذ الحرب العالمية الثانية، يبت من الإذاعة الوطنية تعليقاً حول العروض الانتخابية للأفلام! غير أن ما يشهه كان مقتصرأ على جمهور مشخص من المستمعين. وكان هناك معلقون آخرون جيدون، ولكنهم عارضون، حول المكتبي الكتلاتي لويس فينيس، المستقر في بوغوتا، منذ الحرب الأهلية الإسبانية. وكان هو نفسه من أسس أول ناد سينمائي، بالتواظف مع الرسام إيريكي غراو والناقد هيرناتو سالتيدو، وبمساح من الصحفية غلوريا فالينشيا دي كاستانيو كاستيو التي حصلت على بطاقة العضوية رقم واحد. كان هناك في البداية، جمهور واسع لأفلام الحركة ومآسي الدموع. أما السينما الترفيهية، فكانت تقتصر على المشغفين الهواة. وكان أصحاب دور العرض يجازفون أقل فأقل، في عرض أفلام لا تستمر سوى ثلاثة أيام في اللاتحة. فكان انتشار جمهور جديد من هذا الحشد الصغير الذي بلا وجه، يتطلب تربية شاقة، إلا أنها ممكنة، من أجل تشجيع الزبائن على ارتياد أفلام نوعية، ومساعدة أصحاب دور العرض الراغبين في ذلك، ولكنهم لا يستطيعون تمويله. كانت العقبة الكبرى في أن أصحاب دور العرض يُبقون التهديد بإلغاء إعلانات السينما، مسلطاً على الصحافة - وهي إعلانات قتل

دخلاً كبيراً للصحف -، كعقوبة على النقد المضاد، وكانت الإسيكتادور هي أول صحيفة حملت المجازفة، وكلفتني مهمة التعليق على عروض الأسبوع الأولى، كرسالة أولية بسيطة موجهة إلى هواة السينما، أكثر منها موعظة استعراضية، وكان الاحتياط الذي اتخذ ياتفاق مشترك، هو عدم استخدام بطاقة دخولي المجانية، كدليل على دخولي لمشاهدة العروض ببطاقة مشتراة من شيك التذاكر.

طمانت المقالات الأولى أصحاب دور العرض، لأنها تناولت أفلاماً من السينما الفترسية الجيدة، وكان منها بوتشيني Puccini، وهو استذكار مطول لحياة ذلك الموسيقي العظيم، وقيلم قسم مذهبة، وهو قصة بارعة عن المغنية غريس مور، وفيلم حفلة إنريكيستا، كوميديا سلمية لجين دلاتوي. وكان أصحاب دور العرض الذين تلتقي بهم لدى الخروج من الصالة، يعربون لنا عن رضاهم عن مقالاتنا النقدية. أما ألفارو سيببدا بالمقابل، فقد أيقظني في السادسة صباحاً، بكلمة من بارانكيستا، عندها علم بأمر جرائني، وصرخ بي على الهاتف، وهو يكاد يموت من الضحك:

- يا للجنة! كيف تفكر في نقد الأفلام، دون إذن مني، بالرغم من جلاتك في ما يتعلق بالسينما!

لقد تحول، بالطبع، إلى مساعدي الثابت، على الرغم من أنه لم يوافق، قط، على فكرة أن الأمر ليس تشكيل مدرسة نقدية، وإنما توجيه جمهور مبتدئ وبلا تكوين أكاديمي. ولم يكن شهر العسل مع أصحاب دور العرض كذلك حلواً كذلك، مثلما ظننا في البدء، فعندما واجهنا السينما التجارية الخالصة والمجردة، شكا حتى أكثرهم تفهماً، من قسوة

تعليقاتنا، وقد استلذ إدواردو ثالاميا وغيرهم كانوا ما يكفي من المهارة لإلهانهم عبر الهاتف، حتى أواخر شهر نيسان، عندما اتهمنا أحدهم، بخيلاء، زعيم، في رسالة مفتوحة، بأننا نقزع الجمهور لإلحاق الضرر بمصالحهم، بدا لي أن عقدة المشكلة هي في أن كاتب الرسالة لا يعرف معنى كلمة "يُزَع" (amendement)، غير أنني أحسست بأنني على حافة الهزيمة، لأنني لم أكن أظن، في ظل الأزمة المتعاطمة التي كانت تعيشها الصحافة، أن دون غابرييل كانوا سيتخلو عن الإعلانات السينمائية، في سبيل المتعة الجمالية المحض، وفي يوم تلقي تلك الرسالة، دعا أبناء وأوليسيس إلى اجتماع مستعجل، فاعتبرت أن صوت زاويتي السينمائية ودفعها صار أمراً واقعاً، ومع ذلك، ولدى مروره قبالة منضدتي، بعد انتهاء الاجتماع، قال لي دون غابرييل دون أن يحدد الموضوع، ويدهاء، جد عجوز:

- اطمئن يا سمي.

وفي اليوم التالي، ظهر في زاوية "من يوم ليوم" الرد على المنتج، وقد كتبه غيرمو كانوا بأسلوب أكاديمي متعمد، ونهايته تلخص كل شيء: "لا يوجد إفزع للجمهور، ولا أي ضرر بمصالح أحد، في نشر الصحافة لنقد سينمائي جدي ومسؤول، يتشابه قليلاً مع ما هو عليه في بلدان أخرى، ويكسر النماذج القديمة والمودبة في كبل المديح المفرط لما هو جيد، وبالقدر نفسه لما هو سيئ"، لم تكن تلك هي الرسالة الأخيرة التي تلقيناها، ولا ردنا هو الرد الأخير. كان العاملون في دور السينما يستقبلوننا غطالبا قاسية. وكنا نطلق متناقضة من قراء غافلين. ولكن كل ذلك كان بلا طائل: فقد عاش عمودي السينمائي إلى الوقت الذي لم

يعد فيه النقد السينمائي أمراً عارضاً في البلاد، وتحول إلى تقليد في الصحافة والإذاعة.

منذ ذلك الحين، وخلال أقل من سنتين، نشرتُ خمساً وسبعين ملاحظة نقدية، لا بد أن يضاف إليها الساعات الموظفة في مشاهدة الأفلام. فضلاً عن حوالي سبعة تعليقات افتتاحية، وخبر موقع أو مغفل من التوقيع. وقد نشرتُ المساهمات الأدبية، منذ ذلك الحين، في ملحق "مغازين الأحد"، التابع للجريدة نفسها. وكان بينها عدة قصص قصيرة وسلسلة ريبورتاجات "لاسيبري" الكاملة، التي توقف نشرها في مجلة المصباح بسبب خلافات داخلية.

كانت تلك هي أول فترة رخاء في حياتي، ولكن دون أن يتاح لي الوقت للاستمتاع بها. الشقة التي استأجرتها مفروشة، مع خدمة الغسيل، لم تكن سوى حجرة نوم مع حمام، وهاتف وفطور في السرير، وثلاجة واسعة مع رذاذ المطر الأبدي، في أكثر مدن العالم كآبة. لم أستخدمها إلا للنوم، منذ الساعة الثالثة فجراً، وبعد قضية ساعة في القراءة، حتى نشرة الأخبار الإذاعية الصباحية، لأعرف مستجدات اليوم الجديد.

لم أتوقف عن التفكير، بشيء من القلق، في أنها أول مرة يكون لدي فيها مكان ثابت وخاص للعيش، ولكن دون أن يكون لدي وقت للملاحظة ذلك: كنتُ مشغولاً في تصريف شؤون حياتي الجديدة، إلى حد أن إنفاقي الوحيد البارز، كان يقتصر على زروق الإنقاذ الصغير الذي وأظنت على إرساله بدقة، في نهاية كل شهر، إلى الأسرة. واليوم فقط، أتنسب إلى أنني كنتُ أكاد لا أجد الوقت الكافي للاهتمام بحبائتي

الخاصة، ربما لأنه كانت تعيش في داخلي فكرة الأمهات الكاربيات، عن أن الفتيات البيوغوتيات يسلن أنفسهن، دون حب، للشبان الساحليين، لمجرد تحقيق حلمهن في العيش قبالة البحر. ومع ذلك، فقد توصلت في شفتي الأولى، كعازب، في بوغوتا، إلى تحقيق مرامي دون مجازفة، منذ أن سألتُ البواب عما إذا كانت زيارة الصديقات عند منتصف الليل، مسموحاً بها.

- إنها متنوعة يا سيدي، ولكنني لا أرى ما يجب عليّ ألا أراه، في أواخر شهر آب، ودون إنذار مسبق، ظهر حوسيه سالغار أمام منضدتي، بينما أنا أكتب تعليقاً، ونظر إليّ بصمت طويل، قطعتُ الكتابة في منتصف جملة، وقلت له فلها:
- ما المشكلة!

لم يظفر له رمش. وكان يلعب بوليرو غير مرئي بقلبه الرصاص الأحمر، ويختم اثسامة شيطانية تبدو نواياها مكشوفة. أوضح لي دون أن أسأله، بأنه لم يقوضني بكتابة ريبورتاج مذهبة الطلاب في الشارع السابع، لأنه خبر صعب على شخص مبتدئ. ولكنك عرض عليّ بالمقابل، بصورة مباشرة، إما دون أدنى نية في التحدي، أن يمنحني على عاتقه ومسؤوليته، دبلوم كاتب ريبورتاجات، إذا كنت قادراً على أن أتقبل اقتراحاً قاتلاً منه:

- لماذا لا تذهب إلى ميدلين، وتروي لنا حقيقة اللغة التي جرت هناك؟

لم يكن من السهل فهم ما يعنيه، لأنه كان يكلمني عن أمر حدث هناك. منذ أكثر من أسبوعين، بما يفسح المجال للظن بأنه يعرض عليّ

حدثاً بانثاً لا خلاص لي منه، كان معروفاً أنه وقع، في الثاني عشر من تموز صباحاً، انهيار أرضي في "ميديا لوتا"، وهو مكان وعمر شديد الانحدار، إلى الشمال من ميدلين. ولكن الضجة التي أثارها الصحافة، وتخطيط السلطة، وقلق المتضررين، تسببت في إشاعة بلبلة إدارية وإنسانية، حالت دون رؤية الواقع على حقيقته. لم يطلب مني سالغار أن أحاول عرض ما حدث بأقصى ما يمكن من الدقة، وإنما أمرني مباشرة بأن أذهب لإعادة بناء الحقيقة كلها على الأرض، ولا شيء آخر سوى الحقيقة، وخلال أقصر وقت يمكن. ومع ذلك، فقد كان في طريقي في قول ذلك، شيء دفعني إلى التفكير في أنه سيفلت لي العنان، أخيراً. الشيء الوحيد الذي كان يعرفه العالم بأسره، عن ميدلين، حتى ذلك الحين، هو أن المغني الأرجنتيني كارلوس غاردويل، قد مات فيها، متفحماً في كارثة جوية. وأنا كنت أعرف كذلك، أنها أرض كثاب وشعراء كبار، وأنه توجد فيها مدرسة "لابريسنتاليون" التي بدأت ميرثيديس بارتشا الدراسة فيها، تلك السنة. وحيال مهمة هذباتية إلى ذلك الحد، لم أعد أشعر بأنه من غير الواقعي بأي حال، إعادة تصوير المجزرة التي تسبب بها انهيار الجبل، قطعة ققطعة، وهكذا حظت بي الطائرة في ميدلين، في الساعة الحادية عشرة صباحاً، وسط عاصفة رهيبية أوصلتني إلى التوهم بأن أكون آخر ضحايا الانهيار.

تركزت حقيقتي في فندق نوتيبارا، وفيها ملابس ليومين، وريطة عنق للطوارئ، واندفعت إلى الشارع، في مدينة حالمة لا تزال تلفها نتائح العاصفة وحصادها. وافقتني ألفارو موتيس لمساعدتي في تجاوز خوفي من الطائرة، وفي لي عناوين أناس لهم مكانة جيدة في حياة

المدينة. ولكن الحقيقة الباعثة على القشعريرة، تمثلت في أنه ليست لدي أدنى فكرة من أين سأبدأ. مشيت على غير هدى في الشوارع المشرقة، تحت طحين الذهب الذي ترسله الشمس المشعة بعد العاصفة، ثم اضطررت، بعد ساعة، إلى أن ألوذ بأول متاجر، لأن المطر عاد للمطرول على الرغم من الشمس المشرقة. وعندئذ بدأت أشعر في قلبي، بأول خفقات الهلع. حاولت كيحها بمعادلة جدي السحرة وسط المعركة، ولكن الخوف من الخوف انتهى إلى التسبب في انهيار معنوياتي. أدركت أنني لن أتمكن قط، من إنجاز ما تكلفت به، ولم أجد الشجاعة لقول ذلك. وأدركت عندئذ أن التصرف الوحيد العاقل، هو كتابة رسالة شكر إلى غييرمو كانو، والعودة إلى بارنوكيا، إلى حالة الرضى الربانية التي كنت عليها قبل ستة شهور.

وبالراحة الهائلة التي أحسست بها، خرجي من المحيم، ركببت سيارة تكسي، لأعود إلى الفندق. كانت نشرة أخبار الظهيرة تقدم تعليقا مطولاً، بصوتين متناولين، كما لو أن الانهيار قد حدث بالأمس، فراح السائق يفرج عن نفسه، بالصراخ تقريبا، ضد إهمال الحكومة وتهاونها، وسوء التصرف بالمساعدات للمتضررين. أحسست بأنني مذنب بطريقة ما، ومسؤول عن غضبه العادل. ولكن المطر توقف عندئذ، من جديد، وصار الهواء شفافاً يعقب بتفجر الزهور في حديقة بيريتو. وفجأة، دون أن أدري كيف، أحسست بضربة مغلب الجنون. فقلت للسائق:

- قدم لي خدمة. قبل الذهاب إلى الفندق، خذني إلى موقع الانهيارات.

فقال هو:

« ولكن لا يوجد هناك ما يستحق المشاهدة. لا شيء سوى الشوارع المضاعة فقط، والصليبان الصغيرة للموتى الذين لم يستطيعوا إخراجهم من بين الأنقاض.

وهكذا علمت أن الضحايا والناجين على السواء، هم من أماكن مختلفة من المدينة. وأن هؤلاء قد اجتاحوها في جموع غفيرة لإخراج أجساد من سقطوا في الانهيار الأول. وكانت المسألة عندما ملأ الفضوليون المكان، وانزلت جزء آخر من الجبل في انهيار جارف. وهكذا فإن الوحيدين الذين بإمكانهم رواية الحكاية، هم القلة الذين أفلتوا من الانهيارات المتتالية، وما يزالون أحياء في طرف آخر من المدينة. فقلت للسائق، وأنا أحاول السيطرة على ارتعاش صوتي:

« مفهوم. خذني إذن إلى حيث يوجد الأحياء الناجون.

قام بالدوران في منتصف الشارع. وانطلق في الاتجاه المعاكس. ولم يكن صمته نتيجة السرعة التي صار يمضي بها الآن. وإنما نتيجة الأمل بإقناعي ببرأته.

بداية المحيط كانت طفلين في الثامنة والحادية عشرة من عمرهما، خرجا من بيتنهما لقطع الحطب، يوم الثلاثاء ١٢ تموز، في الساعة السابعة صباحاً. وكانا قد ابتعدا نحو مئة متر، عندما أحسا بدوي انهيار الأثرية والصخور التي اندفعت نحوهما من سفح الجبل. تمكنا من الهرب بصعوبة. وظلت أخواتهم الثلاث محتجزات، في البيت، ومعهن أمهما وأخوهما حديث الولادة. وكان الناجيان الوحيدان هما الطفلان اللذان خرجا قبل قليل، ورب الأسرة الذي غادر باكراً، إلى عمله في صجر للرمل، على بعد عشرة كيلومترات عن البيت.

كان المكان قفراً موحشاً على الطريق العام، بين مبدلين وريونغرو. وفي الساعة الثامنة صباحاً، لم يكن قد بقي فيه سكان لسقوط مزيد من الضحايا. نشرت المحطات الإذاعية الخبر بمبالغة أرفقتها بكثير من التفاصيل الدامية، وتذارات مستعجلة جعلت أول المتطوعين يصلون قبل رجال المطافئ. وعند الظهر، حدث انهياران آخران، دون وقوع ضحايا، فغاثما حالة العصبية العامة، وأقامت محطة إذاعة محلية مركز بث مباشر من موقع الكارثة. وفي تلك الساعة كان قد احتشد هناك سكان القرى والأحياء المجاورة يحيطهم تقريباً، فضلاً عن الفضوليين القادمين من كل أرجاء المدينة، ممن اجتذبتهم نداءات الإذاعة. والمسافرين الذين كانوا يترجلون من حافلات السفر، ليسيبوا عرقلة أكثر مما يقدمونه من العون. وإضافة إلى الأجساد القليلة التي طُمرت في الصباح، كان هناك عندئذ، ثلاثئة جثة أخرى سببتها الانهيارات المتتالية. ومع ذلك، وقبل الغروب بقليل، كان لا يزال هناك أكثر من ألفي متطوع عفوي، يقدمون مساعدات طائشة للناجين. وعند الغروب، لم يعد هناك متسع للتفحص. فقد كانت الحشود كثيفة وفوضوية في الساعة السادسة، عندما وقع انهيار ساحق آخر، فُرد مئتي ألف متر مكعب. ورافقه دوي هائل. وأوقع عدداً كبيراً من الضحايا، كما لو أنه قد حدث في حديقة بيرنارد المزدحمة في مبدلين. وقد وقعت الكارثة بسرعة، إلى حد أن الدكتور خابيير مورا، سكرتير الأشغال العامة في البلدية، وجد بين الأنقاض، جثة أونيب لم يجد متسعاً من الوقت للهرب.

بعد أسبوعين من ذلك، عندما وصلت إلى المكان، لم يكن قد أخرج سوى أربع وسبعين جثة. وكان عدد كبير من الناجين قد أسعفوا وصاروا

بأمن. ولم يكن معظمهم ضحايا الانتهيارات، وإنما ضحية التهور والتضامن غير المنظم. ومثلما في الزلازل، لم يكن بالإمكان كذلك، تقدير عدد الذين لديهم مشاكل خاصة، واستغلوا الفرصة للاحتفاء، دون أن يخلقوا أثراً، هرباً من الدين أو لاستبدال نساتهم. ومع ذلك، فقد أسهم حسن الحظ بدوره أيضاً، إذ أثبت تحقيق تال أنه منذ اليوم الأول، بينما كانت تجري محاولات الإنقاذ، أوشكت على السقوط كتلة صخور أخرى، يمكن لها أن تسبب انهيار خمسين ألف متر مكعب. وبعد أكثر من خمسة عشر يوماً، وبمساعدة الناجين الذين استردوا عافيتهم، استطعت أن أعيد بنا، القصة التي لم تكن روايتها ممكنة في حينها، بسبب عقبات الواقع واضطرابه.

لقد تلخصت مهمتي في استخلاص الحقيقة الضائعة، من بين خليط من الافتراضات المتناقضة، وإعادة تركيب المأساة الإنسانية، وفق التسلسل الذي جرت به، بعيداً عن أية حسابات سياسية أو عاطفية. وكان ألفارو موتيس قد وضعني على الطريق القويم، عندما أرسلني مع صحيفة الإعلان سيسيليا وارين التي نظمت لي ما رجعت به من معلومات، من موقع الكارثة. نُشر الريبورتاج على ثلاث حلقات، وكانت له على الأقل مبرزة إيقاف الاهتمام بخير منسي. بعد أسبوعين من التأخير، وإعادة ترتيب قوضى المأساة.

ومع ذلك، فإن أفضل ذكرياتي عن تلك الأيام، لم يكن ما فعلته، وإنما ما كنت على وشك أن أفعله، بفضل الخيلة الهذلية لزميلي القديم في بارانكيّا، أورلاندو وبفيرا، الملقب "فيفوريتا"، الذي التقيت به فجأة، في إحدى لحظات التنفس القليلة، أثناء البحث والتحريرات. كان

يعيش في ميدلين منذ بضعة شهور، وكان سعيداً ومتزوجاً حديثاً من سول سانشاماريا، وهي راقصة قاتلة وذات روح حرة، ساعدها على الخروج من دير مغلق، بعد أن أعضت هناك سبع سنوات من الفقر، والطاعة، والعفة. وفي واحدة من سكراتنا الشهيرة، كشف لي فيفوريتا عن أنه قد أعد مع زوجته، وعلى مسؤوليته، خطة محكمة لإخراج ميرثيديس بارتشا من مدرستها الداخلية. وأن كاهناً صديقاً له، مشهوراً بفتونه في عقد الزيجات، سيكون مستعداً لتزويجنا في أي وقت، وكان العائق الوحيد بالطبع، هو أن توافق ميرثيديس نفسها، ولكننا لم نجد طريقة للاستفسار منها، وهي ضمن جدران محبسها الأربعة، واليوم، أكثر من أي وقت آخر، ينهشني الغضب لأنني لم أمتلك الجرأة لعبش دراما المسلسلات تلك. أما ميرثيديس، فلم تعلم بأمر الحطة، إلا بعد بضع وخمسين سنة من ذلك، حين قرأت مسودات هذا الكتاب.

كانت تلك واحدة من آخر المرات التي رأيت فيها "فيفوريتا". ففي كرتفال ١٩٦٠، وكان متكرراً بهيئة نمر كوبي، انزلق عن عربة الكرنفال التي كانت تعبه إلى بيته في بارانوا، بعد مشاركته في معركة تذاق الزهور، ودق عنقه على حجارة الشارع المفروشة بأنقاض وقضلات الكرنفال.

في الليلة الثانية من عملي في انهيارات ميدلين، وجدت بانتظاري في الفندق، محررين من صحيفة الكولومبيانو - وكانا فتيين إلى حد أنهما أكثر شباباً مني -، وقد صمما على إجراء مقابلة معي، حول قصصي المنشورة حتى ذلك الحين، لقد تكلفا جهداً في إقناعي، لأنه كان لدي منذ ذلك الحين، ولا يزال، حكم صديق، ربما هو جازو، ضد المقابلات

الصحفية التي تجري على صورة جلسة أسئلة وأجوبة، حيث يبدل الطرفان جهداً لعقد محادثة كاشفة، لقد عانيت من هذا الحكم المسبق في الصيغتين اللتين عملت فيهما، وعانيت بخاصة في كرونيكا، حيث حاولت أن أنقل عدوى تحفظاتي إلى المشاركين الآخرين في تحريرها. ولكنني وافسقت، مع ذلك، على تلك المقابلة الأولى مع جريدة الكولومبيانو، وكانت صريحة إلى حد انتحاري.

لا حصر اليوم للمقابلات التي كنت ضحية لها على مدى خمسين سنة. وعلى امتداد نصف العالم، ولم أتمكن حتى الآن، من الاقتناع بفعالية هذا الجنس من الكتابة، بأي حال من الأحوال، الأكثرية الساحقة من المقابلات التي لم أستطع تفاديها، حول أي موضوع، يجب أن تُعتبر جزءاً هاماً من أعمالي التخيلية، لأنها ليست سوى هذا: تخيلات حول حياتي. ولكنني أرى بالمقابل، أنها ذات قيمة لا تُشمن، ليس للنشر، وإنما كمادة أولية للريورتاج، وهو الجنس الكتابي الذي أقدره باعتباره الجنس الأبرز في أفضل مهنة في العالم.

لم تكن تلك الأثرمة مناسبة، على أي حال، للمهرجانات؛ فحكومة الجنرال روخاس بينييا، وكانت قد دخلت في نزاع مفتوح مع الصحافة وجزء كبير من الرأي العام، توجت شهر أيلول بقراوها في تقسيم مقاطعة تشوكو، النائية والمنسية، بين جاراتها الثلاث المزدهرة: أنتيوكيا، وكاليداس، وبابي. ولم يكن الوصول إلى كيببدو، عاصمة المقاطعة، ممكناً إلى من ميدلين، عبر طريق بالجماء واحد، وبحالة بالغة سوء، مما يتطلب أكثر من عشرين ساعة، لقطع مئة وستين كيلومتراً. والظروف اليوم ليس بأفضل مما كانت عليه آنذاك.

وكنا نرى في المجرى، كأمر واقع، أنه لا يمكن عمل الكثير، لمنع تقسيم المقاطعة الذي أقرته الحكومة دون اعتبار للصحافة الليبرالية. وقد أرسل برمو غيريرو، مراسل الاسبيكتادور المجرب في كيببدو، أخباراً في اليوم الثالث، عن أن مظاهرة شعبية لأسر يكاملها، بمن في ذلك الأطفال، قد احتلت الساحة الرئيسية، مع التصميم على البقاء هناك، تحت الشمس والتدنى، إلى أن تراجع الحكومة عن نواياها. راحت الصور الأولى، للأمهات المستردات، وبين أذرعهن أطفالهن، تغمر مع مرور الأيام، بفعل الأضرار التي سببها سهر الأهالي في العراء. وكنا نعزز هذه الأخبار، كل يوم، في هيئة التحرير، بتعليقات افتتاحية أو بتصريحات لسياسيين أو مثقفين من مقاطعة تشوكو، يقيمون في يوغوتا. ولكن الحكومة بدت مصممة على كسب المعركة، بصم أذنيها وعدم المبالاة. وبعد عدة أيام مع ذلك، دنا خوسيه سالغار من متصدتي بقلمه الذي كعبدان مُحرك الدمى، واقترح عليّ أن أذهب لأتحري عما يحدث فعلاً في تشوكو. حاولت أن أرفض، مستغلاً السلطة الضئيلة التي اكتسبتها بفضل ريبورتاج ميدلين، ولكن ذلك لم يقنني كثيراً. فقد صرخ غيريرو كاتو الذي كان يكتب مديراً لنا ظهوره، دون أن ينظر إليّ: - اذهب يا غابو، فقتنيات تشوكو أفضل من اللواتي كنت ترغب

في رؤيتهن في هايتي وهكذا ذهبت دون أن أتساءل حتى عن كيف يمكن لي كتابة ريبورتاج عن مظاهرة احتجاجية ترفض اللجوء إلى العنف. وافقني المصور غييرمو سانشيث الذي كان يضايقني منذ شهور، بمزوجة دعوتي إلى أن تقوم معاً بإعداد ريبورتاج عن الحرب، ولضجري من سماع ذلك منه، قلت له صارخاً:

- يا للجنة، أية حرب تعني!

قألت فجأة، الحقيقة في وجهي:

- لا تتظاهر بالغيا يا غايو، فأنا أسمعك تردد منذ بعض الوقت،

أن هذه البلاد تعيش حالة حرب منذ الاستقلال.

حضر في فجر يوم الثلاثاء، الحادي والعشرين من أيلول، وهو يرتدي ملابس محارب، أكثر مما هي ملابس مصور تحقيقات صحفية.

وكان يحمل آلات التصوير، وتدلّى الجعب من كل أنحاء جسده، لكي

تذهب لتغطية أخبار حرب يلفها الصمت. وكانت المفاجأة الأولى أنه يمكن

الذهاب إلى تشوكو قبل مغادرة بوغوتا، عبر مطار ثانوي لا وجود فيه

لخدمات من أي نوع، بين أنقاض شاحنات مينة وطائرات صدنة. أما

طائرنا فكانت لا تزال حية بقدره فنون السحر. فهي طائرة من طراز

كاتالينا الأسطورية التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية. وقد

أعادت شركة مدنية تأهيلها لاستخدامها في الشحن. لم تكن فيها

مقاعد. وكانت ضيقة وكالحة من الداخل، مع وجود نوافذ صغيرة غيصة،

وحسولة من حزم ألصاف تصنع منها المكاس. وقد كنا المسافرين

الوحيدين فيها. أشار لنا مساعد الطيار ذو القميص قصير الأكمام،

وهو شاب وأنيق مثل طياري السينما، بأن نجلس على حزم الحمولة التي

يدت له أكثر راحة. لم يتعرف عليّ، ولكنني كنت أعرف أنه كان لاعب

بيسبول بارزاً في فريق لاماتونا، في كارتاخينا.

كان الإقلاع مرعباً، حتى بالنسبة لمسافر محب للمجازفة، مثل

المصور غييرمو سانتشيث، بسبب دوي المحركات الراعد، وقرقرة حذائد

بدن الطائرة. ولكنها ما إن استقرت في سماء المهبط الضافية، حتى

انسابت بقوة محارب مجرب. ومع ذلك، وبعد أن تجاوزنا استراحة ميدلين،

قاجأنا وأبل من المطر فوق غابة مثشابة بين سلسلتين جبليتين، واضطررنا

إلى دخول تلك العاصفة مواجهة. وربما عشنا غنلذ، ما لم يعشه إلا قلة

من البشر الثنائين: تسرب المطر إلى داخل الطائرة من خلال ثقب بدنها.

وجاء مساعد الطيار الصديق قافزاً بين حزم المكاس، حاملاً إلينا صحف

ذلك اليوم لتستخدمها كمظلات. فغطيت حتى وجهي بالصحيفة، ليس

لأحميه من الماء، وإنما للحيلولة دون أن يروني أبكي من الرعب.

بعد نحو ساعتين من الاستسلام للحظ والقدر، مالت الطائرة على

جانبتها الأيسر، ونزلت في وضع الانقراض على غابة كثيفة، ثم دارت

دورتين حول ساحة كبيدو الرئيسية. استعد غييرمو سانتشيث لكي

يلتقط، من الجو، صوراً للمظاهرة المستنفدة من الإنهاك والسهو. فلم يجد

سوى الساحة المقفرة. قامت الطائرة البرمائية المخلفة بجولة أخيرة،

للتأكد من أنه لا وجود لعوائق حية أو ميتة في نهر أتراتو الهادئ،

وأكملت هبوطها السعيد في قبض الظهيرة.

كانت الكنيسة المربعة بالألواح خشبية، والمقاعد الإسمنتية المطلخة

ببقايا العصافير، وبغلة بلا صاحب تليط أغصان شجرة عملاقة، هي

الإشارات الوحيدة على الوجود البشري في الساحة المغفرة والمقفرة التي

لا تشبه شيئاً أكثر مما تشبه عاصمة أفريقية. كان هدفنا الأول التقاط

صور مستعجلة للحشود المحتجة، وإرسالها إلى بوغوتا في الطائرة

العائدة، ريثما نجميع ما يكفي من المعلومات الجديدة وغير المعروفة،

لنرسلها برفياً، كي تُنشر في طبعة اليوم التالي. لم يكن بالإمكان عمل

شيء من ذلك، لأن شيئاً لم يكن يحدث.

اجتزنا، دون شهود، الشارع الطويل جداً بموازاة النهر، وكانت تحف به متاجر مغلقة من أجل الغداء، وبيوت ذات شرفات خشبية وسقوف صلبة. لقد كان المشهد مناسباً تماماً، إنما كانت تنقصه الدراما. كان زميلنا الحطيط بريو غيريرو، مراسل الاسبيكتادور، يقام القبلولة دونهم في أرجوحة نوم ريعية، تحت عريشة بيته، كما لو أن الصمت الذي يحيط به هو سلام المقابر، وما كان يمكن للصراحة التي أوضح لنا بها إعماله وتهاونه، أن تكون أكثر موضوعية، فبعد مظاهرات الأيام الأولى، تراخت حدة التوتر بسبب الافتقار إلى موضوعات، عندئذ قام بترتيب تعبئة للقرية بأسرها، بتقنيات مسرحية، والتقطت بعض الصور التي لم تُنشر، لأنها بدت غير مقنعة، وألقيت الخطابات الوطنية التي هزت البلاد فعلاً. ولكن الحكومة ظلت على عدم ميالاتها. غير أن بريو غيريرو، وبمرونة أخلاقية ربما يكون الرب نفسه قد سامحه عليها، أبقى الاحتجاجات حية في الصحافة، بقدرة البرقيات وحدها.

كانت مشكلتنا المهيبة بسيطة: فنحن لم نقم بتلك الرحلة الطرزانية، لكي نخبر الجريدة بأنه لا وجود للخبر. وكانت في متناول يدينا، بالمقابل، الوسائل لكي يكون الخبر صحيحاً، ويتجزأ الهدف منه. عندئذ اقترح بريو غيريرو أن ننظم مرة أخرى المظاهرة النقال. ولم يخطر لأي منا فكرة أفضل من تلك، وكان أكثر مساعدتنا في ذلك حماسة هو النقيب لويس آ. كانو، الحاكم الجديد المعين بعد استقالة سلفه الساخطة. وقد كانت لديه الجرأة على تأخير إقلاع الطائرة، لكي تتلقى الجريدة صور غيريرو سانتشيث، في الوقت المناسب. وهكذا انتهى الأمر بالخبر المختلق بدافع الحاجة، إلى أن يكون الخبر الوحيد الصحيح. فقد ضخمت الصحافة

والإذاعة في كل أنحاء البلاد؛ وسرعان ما تلقفته الحكومة العسكرية لتنفذ وجهها، في تلك الليلة بالذات، بدأت تعبئة عمامة للاسباسيين المنتمين إلى مقاطعة تشوكو - وكان لبعضهم نفوذ في بعض قطاعات البلاد - فما كان من الجنرال روخاس بينيّا، بعد يومين من ذلك، إلا الإعلان عن إلغاء قراره بتوزيع مقاطعة تشوكو بين جيرانها.

لم نرجع أنا وغيرمو سانتشيث إلى بوغوتا فوراً، لأننا أقمنا الجريدة بأن تسمح لنا بالتجوال في مناطق تشاكو الداخلية، للتعرف بعمق على واقع ذلك العالم الحالي، وبعد عشرة أيام من الصمت، عندما دخلنا إلى قاعة التحرير، وقد دغثت الشمس جلداً، ونحن تكاد ننهال من النعاس، استقبلنا خوسيه سالغار سعيداً، ولكن على طريقته. فقد سألفا بتأكيد حاسم:

- هل تعلمان منذ متى انتهى خبر منطقة تشاكو؟

وقد وضعني السؤال مواجهة، للمرة الأولى، أمام شرط الفناء الذي يحكم الصحافة. وبالفعل، لم يعد هناك من يهتم بمنطقة تشاكو، منذ أن نُشر القرار الرئاسي بإلغاء تقسيمها. ومع ذلك، فقد أيدني خوسيه سالغار في المجازفة بظهور ما هو ممكن من تلك السمكة الميتة.

ما حاولنا نقله في أربع حلقات طويلة، هو اكتشاف بلاد أخرى لا يمكن تصورها داخل كولومبيا، ولم تكن لدينا أية معرفة بها. فهناك وطن سحري، تسوده الأدغال المزهرة والقيضانات الأبدية، حيث يبدو كل شيء كنسخة غير معقولة من الحياة اليومية. كانت العقبة الكبرى التي تعترض شق طرق بريّة، هي تلك الكمية الهائلة من الأنهار الجارحة. غير أنه لم يكن هناك سوى جسر واحد في المنطقة كلها، وجدنا طريقاً معبدة

بطول خمسة وسبعين كيلومتراً، عبر الغابة العذراء، مقامة بكلفة باهظة من أجل وصل بلدة إكسمينا ببلدة يوتو، ولكنها لا تمر من الأولى أو الثانية، كإجراء عقابي من المفاول الذي دخل في منازعات قضائية مع عمدة البلديتين.

في إحدى قرى المنطقة الداخلية، طلب منا وكيل البريد أن نحمل، إلى زميله في إكسمينا، البريد المتراكم لديه منذ ستة أشهر. لقد كان ثمن عربة السجائر الوطنية هناك، ثلاثين سنتافو، مثلما هو في بقية أرجاء البلاد، ولكن عندما تتأخر الطائرة الصغيرة الأسبوعية التي تون البلدة بالسجائر، يرتفع السعر عن كل يوم تأخير، إلى أن يجد الأهالي أنفسهم مضطرين إلى تدخين السجائر الأجنبية التي تصبح أرخص من الوطنية. أما كيس الرز، فيزيد سعره خمسة عشر بيزو عما هو عليه في مناطق الزراعة، لأنهم ينقلونه عبر ثمانين كيلومتراً من الغابات العذراء، على متن البغال التي "تشعبط" كالقطط على الدروب الجبلية الضيقة. وتعمل نساء أشد القرى فقراً في غريلة الذهب والبلاتين في الأنهار، بينما يتصرف رجالهن إلى صيد السمك. وفي أيام السبت يبيعون للتجار المتجولين دزينة من الأسماك، وأربعة غرامات من البلاتين، بثلاثة بيوزات فقط.

كل هذا كان يحدث في مجتمع مشهور بلهفته إلى الدراسة والعلم، ولكن المدارس قليلة ومتباعدة. وعلى التلاميذ أن يقطعوا عدة فراسخ كل يوم، سيراً على الأقدام وفي الزوارق، من أجل الذهاب والإياب. وقد كانت بعض المدارس مزدحمة إلى حد أنهم كانوا يستخدمون البناء نفسه في أيام الاثنين والأربعاء والجمعة للذكور، وأيام الثلاثاء والخميس

والسبت للإناث. وللأسف نفسه، كانت تلك المدارس هي الأكثر ديمقراطية في البلاد، لأن ابن الغصالة الذي يكاد لا يجد ما يأكله، يرتاد المدرسة نفسها التي يذهب إليها ابن العمدة.

قلة قليلة من الكولومبيين كانوا يعرفون آنذاك، أنه هناك في أذغال تشوكو، تنتصب أكثر مدن البلاد حداثة. إنها مدينة تدعى انداغويا، تقوم عند التقاء نهري سان خوان وكوندوتو. وكان فيها نظام اتصال هاتفي متقن الكمال، وأرصعة لاستقبال السفن والمراكب، تعود ملكيتها للمدينة نفسها التي تشقها شوارع فسيحة ومشجرة. وكانت البيوت الصغيرة والنظيفة، ذات الأفنية الواسعة المسيجة والأدراج الخشبية البهية عند البوابات، تبدو مزروعة وسط العشب، وفي منتصف المدينة، كان هناك كازينو فيه قطعم-كياويه، وبار تقدم فيه خمور مشهورة بأسعار أرخص من بقية أنحاء البلاد. إنها مدينة يقطنها أناس من كل أنحاء العالم، نسوا الحنين، ويعيشون هناك أفضل مما في بلادهم، تحت السلطة الكلية للجنرال المحلي لتشوكو ياسيكيكو. لقد كانت أنداغويا، في الحياة الواقعية، بلداً أجنبياً وملكية خاصة، تحرف كراكاته قيعان الأنهار الحرافية، لتنهب الذهب والبلاتين، وتحمله في سفينة خاصة، تخرج به إلى العالم بأسره، دون مراقبة من أحد، عبر مصبات نهر سان خوان.

كانت تلك هي تشوكو التي أردنا كشفها للكولومبيين، ولكن دون أي نتيجة، لأن كل شيء عاد إلى ما كان عليه، بعد أن انقضى الخبر، وبقيت أكثر المناطق المنسية في البلاد، وأظن أن السبب واضح وجلي؛ فكولومبيا كانت على الدوام بلداً كاريببي الهوية، مفتوحاً على العالم من

خلال حبل الخلاص الذي مثله بنما، وجاء افتتاح بنما الإيجاري وفصلها عن كولومبيا، ليحكم علينا بأن نكون ما نحن عليه اليوم: بلاداً أنديزية بالضرورة المناسبة لكيلا تكون القناة بين المحيطين ملكاً لنا، وإغنا للولايات المتحدة.

كان يمكن لإيقاع التحرير في الجزيرة، أن يكون قاتلاً لولا أيام الجمعة مساءً، بعد تحررنا من واجباتنا، إذ كنا نلتقي في بار فندق كوتشينتال، على الرصيف المقابل، في جلسات تقرير عن النفس تستمر حتى الفجر، وقد عمد إدواردو ثالاميا تلك الليالي باسم خاص: "الجمعة الثقافية". وكانت تلك الجلسات هي فرصتي الوحيدة لتبادل الحديث معه، كيلا يفوتني قطار مستجدات العالم الأدبية التي يتابعها، لحظة يلاحظه، بقدرته كقارئ غير عادي. أما المواطنون المتمسكون بسهرات المشروبات الكحولية غير المشاهية، وذات النهايات غير المتوقعة تلك - فضلاً عن صديقين أو ثلاثة من أصدقاء أوليسيس الأديبين -، فكنا نحن المحررين الصحفيين الذين نخشى انتهاء الجلسة قبل حلول الفجر.

لقد لفت انتباهي على الدوام، أن ثالاميا لم يقدم قط، أي ملاحظة حول تعليقاتي الصحفية، بالرغم من أن معظمها كانت مستوحاة من تعليقاته ومقالاته. ومع ذلك، عندما استقرت لقاءات "الجمعة الثقافية"، أطلق العنان لأفكاره حول الزوايا الصحفية، وقد اعترف لي بأنه لا يتفق مع كثير من وجهات نظر تعليقاتي، واقترح علي غيرها، ولكن ليس بنبرة المعلم لتلميذه، وإغنا كاتب لكاتب.

ملاذ آخر كنا نتردد عليه بكثرة، بعد تأسيس النادي السينمائي،

هو السهرات حتى منتصف الليل، في شقة لويس فيشمن وزوجته نانسي، على بعد كوارترات قليلة من الاسيبكتادور، وكان هو، الذي ساهم فيما مضى، في الكتابة مع هارسيل كولين ريفال، وترأس تحرير مجلة "السينما الفرنسية" في باريس، قد بذل ألامه السينمائية، وتحول إلى مكتبي جيد في كولومبيا، بسبب الحرب الأوروبية. كانت نانسي تنصرف كمضيفة سحرية، قادرة على تكبير غرفة طعام أربعة أشخاص، لتستوعب اثني عشر شخصاً، لقد تعارفا بعد وقت قصير من مجيئه إلى بوغوتا، سنة ١٩٣٧، خلال عشاء عائلي، لم يكن هنالك على المائدة، سوى مكان شاعر وحيد، إلى جانب نانسي، حين رأت برعبي، دخول المدعو الأخير، بشعره الأبيض وبشرة متسلق الجبال الملوحة بالشمس، فقالت لنفسها: "يا لسوء الحظ! سيجلس الآن إلى جانبي هذا البولوني الذي لا يعرف حتى التكلم بالإسبانية". وكانت على صواب تقريباً، في ما يتعلق باللغة، لأن القادم الجديد كان يتكلم الإسبانية بكتلاتية نيئة، مختلطة بالفرنسية. وكانت هي المتحدرة من مقاطعة بويكا، متحذقة اللغة وطليقة اللسان، ولكنهما تفاعما على أحسن وجه، منذ تبادلهما التحية الأولى إلى حد أنهما بقيا يعيشا معاً إلى الأبد.

سهراتهما كانت تُرجمَل بعد العروض السينمائية الافتتاحية الكبرى، في شقة مترعة يخلط من كل القنن، حيث لم يكن هناك متسع لمزيد من الرسامين المبتدئين الكولومبيين، ممن سيصبح بعضهم مشهوراً في العالم بأسره. وكان المدعوون مختارين من بين أبرز أهل القنن والأدب، وقد تظهر شلة بارانكيّا هناك بين حين وآخر. دخلتُ إلى ذلك البيت، كما لو أنني في بيتي، منذ ظهور مقالتي الأولى في النقد السينمائي.

وعندما كنتُ أخرج من الجريدة قبل منتصف الليل، أقطع الكوارات الثلاث ماشياً، وأجبرهما على السهر حتى وقت متأخر. وقد كانت المغلصة تاتسي - فضلاً عن أنها طاهية رائحة - ساعة زواج ضارية. ترعجل ولائم عشاء بريئة، لتعرفني على أكثر فتيات عالم الفن جاذبية وتحوراً، ولم تغفر لي قط، عندما قلت لها، وأنا في الثامنة والعشرين: إن ميلي الحقيقي ليس أن أكون كاتباً ولا صحفياً، وإنما عازياً لا يُهزم.

في فجوات الفراغ التي تتبقى لألفارو موتيس، من رحلاته حول العالم، قام بإدخالني إلى أعلى مستويات المجتمع الثقافي وتعريفني عليه. فبحكم وضعه كمدير علاقات عامة لشركة إسو الكولومبية، كان ينظم ولائم غداء في أعلى المطاعم. وهو ما يوفر في الواقع، التأثير والوزن في عالم الفنون والآداب، وكان مدعووه في أحيان كثيرة، ضيوفاً من مدن أخرى في البلاد. الشاعر خورخي غابثان دوران الذي كانت تتسلط على ذهنه، فكرة إصدار مجلة أدبية كبرى، تتطلب ثروة باهظة، حل الأمر جزئياً، من أوصدة ألفارو موتيس المخصصة لتشجيع الثقافة. وكان ألفارو كاستانيو كاستيو وزوجته، غلوريا بالنشبا، يحاولان منذ سنوات، تأسيس محطة بث إذاعي، مكرسة بالكامل للموسيقى الجيدة، ولبرامج ثقافية في تناول اليد. وكنا جميعنا نسخر من عدم واقعية مشروعاتهما، باستثناء ألفارو موتيس الذي يذل كل ما يمكنه لمساعدتهما. وهكذا أسسا إذاعة HICK، "العالم في يوغوتا" بث قدرته ٥٠٠ واط، وهي الطاقة الدنيا في ذلك الحين. ومع أن التلفزيون لم يكن قد وجد بعد في كولومبيا، إلا أن غلوريا بالنشبا اخترعت الأعجوبة المتناهيبة بتقديدها، عبر الإذاعة، برنامجاً عن عروض الأزياء.

الاستراحة الوحيدة التي كنت أبيعها للنفس، في أيام الضيق تلك، هي أمسيات الأحاد في بيت ألفارو موتيس الذي علمني الاستماع إلى الموسيقى، دون أحكام طبقية مسبقة. كنا نستلقي على السجادة لنستمع بقلبتنا، إلى كبار الموسيقيين، دون تأملات نظرية حكيمة. وكان ذلك هو أصل شغفي بالموسيقى الذي بدأ في القاعة الخفية، في المكتبة الوطنية، ولم يتسنا قط، لقد استمعت اليوم إلى كل ما استطعت الحصول عليه من الموسيقى، ولا سيما موسيقى الهجرة الرومانسية التي اعتبرها ذروة الفنون. أما في مكسيكو، بينما كنتُ أكتب مئة عام من العزلة - في عامي ١٩٦٥ و ١٩٦٦ -، فلم يكن لدي سوى أسطوانتين اثنتين، استهلكتها لكثرة ما استمعت إليهما: الاستهلاكات لديبوس، وبأ ليلة ذلك اليوم لفرقة البيتلز. وفي ما بعد، عندما امتلكتُ في برشلونة الكثير من الأسطوانات، بقدر ما كنت أرغب على الدوام تقريباً، بدأ لي أن التصنيف الأيجدي تقليدي جداً، فاخترت من أجل راحتي الخاصة، اتباع ترتيب يأخذ في الاعتبار الآلات الموسيقية: التشيلو، وهو المفضل لدي، من فيغالدي إلى براهمز؛ والكمان، من كوريلي حتى شوبنيرغ؛ الكلاف والبيانو، من باخ حتى بارتوك. إلى أن اكتشفتُ معجزة أن كل ما يرن هو موسيقى، بما في ذلك الأطباق وأدوات الطعام في المجلى، ما دامت تزدي وهم إشعارنا بالمسار الذي تقضي فيه الحياة.

كنت أعاني من محدودية عدم قدرتي على الكتابة، بوجود الموسيقى، لأتلى أولى انشياهي إلى ما سمعته أكثر مما أوليه إلى ما أكتبه، وما زلت حتى اليوم لا أتروء إلا نادواً على الحفلات الموسيقية، لأنني أشعر أنه يقوم، في مقعد الصالة، نوع من الحميمية الوقورة مع

جيران غرباء. ومع ذلك، مع مرور الزمن وتوفر الإمكانيات لسماع موسيقى جيدة في البيت، تعلمت الكتابة بوجود خلفية موسيقية تتوافق مع ما أكتبه: نكتورنات شوبان للأحداث الهادئة، أو سداسيات براهمز للمسببات السعيدة. ولم أعد أستمع، بالمقابل، إلى موزارت لسنوات طويلة، منذ أن داهمني الفكرة الشيطانية بأن موزارت غير موجود. لأنه عندما يكون جيداً فهو بيتهوفن، وعندما يكون سيئاً يصير هايدن.

لقد توصلت، في السنوات التي أستحضر فيها هذه الذكريات، إلى معجزة عدم الشعور بالضيق من أي نوع من الموسيقى، وأنا أكتب؛ وربما دون أن أعي فضائلها الأخرى؛ ذلك أن المفاجأة الكبرى جاءتني من موسيقيين غملائين، شابين ودؤوبين، يعتقدان بأنهما اكتشفا تشايفات مفاجئة بين خريف البطريرك، روايتي السادسة، وكونشيرتو البيانو الثالث لبيلا بارتوك. صحيح أنني كنت أستمع إلى هذا الكونشيرتو دون توقف، بينما أنا أكتب، لأنه كان يولد في حالة خاصة جداً من الحماسة، وغريبة بعض الشيء، ولكنني لم أفكر قط، في أنه يمكن لتلك الموسيقى أن تكون قد أثرت بي إلى الحد الذي تلمح به في كتابتي. ولست أدري كيف علم أعضاء الأكاديمية السويدية بنقطة ضعفي تلك، فوضعوا تلك الموسيقى نفسها، كخلفية، عند تسليمي جائزتي. إنني أشكرهم من أعماق روحي بالطبع، على تلك اللقطة، ولكن لو أنهم سألونني - مع كل امتناني واحترامي لهم ولبيل بارتوك - لكتبت أحييت أن توضع إحدى مقطوعات فرانثيسكو الرجل، الرومانسية الطبيعية التي كانت تُعزف في طفولتي.

لم يكن هناك في كولومبيا، في تلك السنوات، مشروع ثقافي

يُحقق، أو مَنشأ يُكتب، أو لوحة تُرسم، دون المرور قبل ذلك، من مكتب موتيس. لقد كنتُ شاهداً على حوار مع رسام شاب لديه كل شيء. جاهز من أجل رحلته البحرية التي لا بد منها إلى أوروبا، ولكنه كان يفتقر إلى النقود اللازمة للرحلة، لم يكن ألقارو قد استمع إلى قصته كلها، عندما أخرج حقيبته السحرية من المتضدة، قاتلاً له:

- ها هي ذي تذكرة السفر.

كنت أشهد حذولاً، التلقائية التي يحقق بها تلك المعجزات، دون أدنى تفاخر سلطوي. ولهذا ما زلتُ أتساءل عما إذا لم تكن له علاقة بالطلب الذي عرضه عليّ، في إحدى حفلات الكوكتيل، سكرتير جمعية الكتاب والفنانين الكولومبيين، أوسكار ديلغادو، لكي أشارك في مسابقة وطنية للقصة القصيرة، يوشكون الإعلان عن حجب جائزتها. وقد قال ذلك بأسلوب بالغ الاستخفاف إلى حد بدا لي الاقتراح معه مشيئاً، على أن أحدهم سمعه، فأكد لي أنه لا يمكن للمرء، في بلاد مثل بلادنا، أن يصير كاتباً دون أن يعرف أن المسابقات الأدبية ليست سوى مسرحيات إيمانية اجتماعية؛ بما في ذلك جائزة نوبل. أنهى كلامه بهذه العبارة دون أدنى قدر من الحبس؛ فوضعتي منذ ذلك الحين، دون أن يكون قد فكر في الأمر، في حالة تأهب لاتخاذ قرار خطير آخر اعترضني بعد سبع وعشرين سنة من ذلك.

ضمت لجنة تحكيم مسابقة القصة القصيرة هيرناندو تيبث، وخوان لوثانو آي لوثانو، وبيدرو غوميث فالديراما وثلاثة مَنشأ ونقاد آخرين من الوزن الثقيل. ولهذا لم أحسب حساباً للاعتبارات الأخلاقية والاقتصادية، وإنما أمضيت ليلة في التصحيح النهائي لقصة "يوم بعد

السبت" التي كنت قد كتبتها في بارانكيا، في ضربة إلهام فاجأتني في مكاتب جريدة إناسيونال - وبعد نومها أكثر من سنة في الدرج، بدت لي قيادة على إيهار لجنة محكمين جيدة. وهذا هو ما حدث، فضلاً عن حصولي على مكافأة مالية هائلة: ثلاثة آلاف بيزو.

في تلك الأيام بالذات، ودون أي علاقة بالمسابقة، جئني إلى المكتب دون صامويل ليزمان باوم، الملحق الثقافي بسفارة إسرائيل، وكان قد افتتح للتو، مؤسسة للنشر بإصداره كتاب أشعار للمعلم ليون دي غريف: "أوراق الدفتر الخامس المختلطة". كانت الطبعة حسنة المظهر، والأخبار عن ليزمان باوم جيدة. وهكذا قدمت إليه نسخة مرقعة جداً من "عاصفة الأوراق"، وصرفته طيرانا مع الوعد بأن نتحدث في عما بعد. وبخاصة عن النقود. وكان هذا - بالفعل - هو الموضوع الوحيد الذي لم نتحدث فيه أبداً. وقد رسمت سيسيليا بوراس غلاقاً تجديدياً - لم تتسكن من تقاضي ثمنه كذلك -، مستتدة إلى وصفني لشخصية الطفل، وقدمت ورشة الزنكوغراف بصحيفة الاسيكنادور كليشيات الغلاف بأربعة ألوان، كهدية.

لم أعد إلى معرفة أي شيء إلا بعد خمسة أشهر من ذلك. عندما اتصلت بي دار نشر سيبا في بوغوتا - ولم أكن قد سمعتُ باسمها من قبل - لتقول لي إن طبعة من أربعة آلاف نسخة جاهزة للتوزيع، لكنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بها، لأن أحداً لا يعرف أين هو ليزمان باوم. ولم يستطع حتى كمنية الريبورتاجات في الجريدة أن يعرفوا أي شيء، عنه، ولم يجده أحد حتى شمس هذا اليوم. فعرض أوليس على الطبعة أن تتولى بيع النسخ للمكتبات، بالاستناد إلى الحملة الصحفية التي بدأها

هو نفسه. بمقالة لم أشكره عليها حتى الآن. كان النقد رائعا، لكن معظم الطبعة ظل في المستودع، ولم يُعرف قط، عدد النسخ التي بيعت، كما أنني لم أتلق من أحد ستافرو واحداً من حقوقي.

بعد أربع سنوات من ذلك، قام إدواردو كاباييرو كالديرون، المشرف على سلسلة "المكتبة الأساسية للثقافة الكولومبية" بضم طبعة جيب من "عاصفة الأوراق" إلى مجموعة أعمال بيعت في أكشاك الشوارع، في بوغوتا ومدن أخرى. وقد دفع لي الحقوق المتفق عليها، وهي ضئيلة ولكن في موعدها المحدد. وكانت لها قيمة عاطفية لأنها أول نقود أحصل عليها مقابل كتاب. وقد تضمنت الطبعة، عندئذ، بعض التغيرات التي لم أنعرف عليها بأنها لي، ولم أهتم بعدم تضمينها في طبعات تالية. وبعد ثلاثة عشر عاماً تقريباً، عندما مروا بكولومبيا بعد إطلاق "مئة عام من العزلة" في بوينس آيريس، عثرتُ في أكشاك الشوارع، في بوغوتا، على أعداد من النسخ المتبقية من الطبعة الأولى من "عاصفة الأوراق" بسعر بيزو واحد للنسخة. فاشترت منها كل ما استطعت حمله. ومنذ ذلك الحين، وجدت كميات أخرى متفرقة، في مكتبات متعددة في أمريكا اللاتينية، يحاولون بيعها على أنها كتب تاريخية. وقبل نحو عامين، باعت وكالة إنكليزية للكتب القديمة، بثلاثة آلاف دولار، نسخة تحمل توقيع لي من الطبعة الأولى من "مئة عام من العزلة".

لم تحرفني أي واحدة من تلك الحالات، لحظة واحدة، عن انهماكي في الصحافة، فقد اضطررنا النجاح الأولي للتحقيقات الصحفية المتسلسلة، إلى البحث عن علف لتغذية وحش نهم لا يشبع. وكان التوتر

اليومي لا يُحتمل، ليس في تحديد الموضوعات والبحث عنها وحسب، وإنما كذلك في سياق كتابتها المهددة، على الدوام، بالافتتان بالخيال. لم تكن ثمة شكوك في الاستيكتادور، فالمادة الأولية في المهنة يجب أن تكون الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة، وكان ذلك يبقينا في حالة توتر دائم، وانتهى بنا الأمر، أنا وخوسيه سالغار، إلى حالة من الإدمان لا تتيح لنا لحظة سلام حتى في عطلة أيام الآحاد.

شاع في عام ١٩٥٦ أن البابا بيو الثاني عشر يعاني من نوبة فواق يمكن لها أن تكلفه حياته. وكانت الحالة الماثلة الوحيدة سابقاً التي أنذكرها، هي قصة سوبرست موم الرائعة "P & O"، التي مات بطلها وسط المحيط الهندي، بنوبة فواق، قضت عليه في خمسة أيام، بينما كانت تصله من العالم بأسره، كل أنواع الوصفات الغريبة، لكنني اعتقد بأنني لم أكن أعرف القصة في ذلك الحين. لم تكن تجرؤ، في عطلة نهاية الأسبوع، على الذهاب بعيداً في رحلاتنا إلى قرى السهوب، لأن الحقيقة كانت تستعد لإصدار طبعة استثنائية خاصة إذا ما توفي البابا. وكنت أؤيد أن تكون لدينا طبعة جاهزة مسبقاً، نُبقي فيها فراغات تُمَلَأ عند وصول أول البرقيات عن الوفاة. بعد سنتين من ذلك، وكنت قد صرت مراسلاً في روما، كان العالم لا يزال ينتظر نهاية فواق البابا.

مشكله أخرى في الصحيفة، لم يكن هناك سبيل لمقاومتها، هي الميل إلى قصر الاهتمام على موضوعات مثيرة، يمكن لها أن تجتذب مزيداً من القراء. وكان لديّ ميلي المتواضع بعدم فقدان جمهور آخر يفكر بالقلب فقط، ويطلق قذراً أقل من الاهتمام. وبين الموضوعات القليلة

التي تمكنت من العثور عليها، ما زلت أذكر الريبورتاج الأكثر بساطة، والذي شدني بصورة خاطفة من خلال نافذة الحافلة. فعلى باب بيت كولونبالي يبيع، في الرقم ٥٦٧ في الشارع الثامن، في بوغوتا، كان هناك إعلان يقلل من شأن نفسه: "مكتب متأخرات البريد الوطني". لا أتذكر بأنني فقدت شيئاً في تلك المتاهات، ولكنني نزلت من حافلة الترام، وطرقت الباب. الرجل الذي فتح لي كان المسؤول عن المكتب مع ستة موظفين منهجيين، يغطيهم صدأ الروتين، تتسلل مهمتهم الرومانسية في العثور على من أرسلت إليه أي رسالة غير واضحة العنوان.

كان بيتاً جميلاً، ضحكاً ومعرفاً، له أسقف عالية وجدران مثأكلة، وممرات فائقة وردحات مترعة بأوراق لا صاحب لها. تدخله، وسطياً، مئة رسالة متأخرة كل يوم. عشر رسائل منها على الأقل، وضعت عليها الطوايع، ولكن المغلف بقي أبيض لا يحمل حتى اسم المرسل. وكان رجال المكتب يسمونها "رسائل الرجل الخفي". ولا يتوانون عن بذل جهدهم من أجل تسليمها أو إعادتها. لكن طقوس فتحها للبحث عن مؤشرات، كانت عملية بيروقراطية صارمة وغير مجدية. إلا أنها تستحق التقدير.

نُشر الريبورتاج على صفحة واحدة، تحت عنوان "ساغي البريد يطرق الباب ألف مرة". مع عنوان فرعي: "مقبرة الرسائل الضائعة". وقد قال لي سالغار عندما قرأه: "لا حاجة إلى لي عتق هذه البجعة، لأنها ولدت ميتة". ونشر الريبورتاج على المساحة اللازمة له بالضبط، لا أكثر ولا أقل، ولكن كان يبدو عليه الشعور بالمرارة مثلي، لما كان يمكن للريبورتاج أن يكون عليه، أما روخيليو إتشيباريّا، ربما لأنه شاعر، فقد احتفى به

بمزاج طيب، وبجملة لن أنساها أبداً: "المسألة هي أن غابو يتمسك حتى بمسار ساخن".

شعرت بالفتوط، فقررت أن أتولى بنفسي، وعلى مسؤوليتي - دون أن أخبر سالغار بذلك - العثور على صاحبة رسالة استحققت مني اهتماماً خاصاً. كانت رسالة من مصحة الجذام "أغوا دي ديوس"، وموجهة إلى "سيده الحداد التي تذهب، كل يوم، إلى قداس الساعة الخامسة في كنيسة لاس أغواس". بعد أن قمت بكل أنواع التحريات غير المجدية، مع كاهن الكنيسة ومساعديه، واصلت اللقاء، عدة أسابيع، مع المزمعين المواطنين على قداس الخامسة، ولكن دون نتيجة. وقد قوجنت بأن أكثر رواد القداس مواظبة، كن ثلاث متقدمات في السن، باتن دائماً بملابس حداد كاملة، ولكن لا علاقة لأي واحدة منهن بمصحة الجذام "أغوا دي ديوس". كان إخفاقاً تطلب تحيأوزه مني بعض الوقت، ليس بسبب الأثنية وجب الذات، ولا لأنني قمتُ بعمل أقرب إلى الإحسان وحسب، وإنما لأنني كنت واثقا من أن هناك، وراء قصة امرأة الحداد تلك، قصة أخرى مؤثرة.

وكلما كنت أغوص في مستنقعات الريبورتاج الصحفي، كانت علاقتي بجماعة بارانكيّا تزداد زخماً. لم تكن رحلاتهم إلى بوغوتا كثيرة، لكنني كنت أنقضُ عليهم هاتفاً في أي وقت، وحيثما أي مشكلة، وبخاصة على خيرمان بارغامس، بسبب مفهومه التريوي للريبورتاج الصحفي. كنت أستشيرهم في كل مشكلة، وكانت المشاكل كثيرة، أو أنهم كانوا يتصلون بي لتهنئتي. لقد كنت أرى في ألفارو سيبيدا زميلاً يجلس على الكرسي المجاور، وبعد المسخرات الودية

المتبادلة التي كانت تقليداً صارماً ضمن الجماعة، كان يخرجني من المستنقع الذي أغوص فيه، ببساطة تشير دهشتي على الدوام. أما استشاراتي مع ألفونسو قوينامبور بالمقابل، فكانت أدبية أكثر من أي شيء آخر. فقد كان يمتلك القدرة الصحفية الصائبة على إنفاذ من كل ورطة، بأتملة من كبار الكتاب، أو ليملئ عليّ اقتباساً منتقداً من ترسانة معارفه التي لا قرار لها. وكانت دعابته الكبرى، حين طلبت منه عنواناً لمقالة عن باعة الطعام في الشوارع الذين تطاردهم السلطات الصحية. فقد أفلت ألفونسو إجابته الفورية:

- من يبيع الطعام لا يموت جوعاً.

شكرته من كل أعماق روحي. وبدأ لي العنوان مناسباً إلى حد لم أستطع معه منع نفسي من سؤاله عن قائله. فأوقفني ألفونسو، فجأة، بالحقيقة التي لم أكن أتذكرها:

- إنها لك يا معلم.

وبالفعل، كنت قد ارتحلت تلك العبارة في زاوية صحفية دون توقع، ولكنني نسيتها. وقد جرى تداول هذه الحكاية لسنوات عديدة، بين الأصدقاء، في بارانكيّا الذين لم أستطع إقناعهم بأنها لم تكن دعابة على الإطلاق.

شغلني لبضعة أيام، رحلة عارضة قام بها ألفارو سيبيدا إلى بوغوتا، وأخرجتني من دوامة الأخبار اليومية. جاء حاملاً فكرة إنجاز فيلم لم يكن لديه منه سوى العنوان: "الجرادة الزرقاء". كان خطأ صائباً، لأن لويس بيثينس وإنريكي غراو والمصور نيريو لوبيث أخذوا الأمر على محمل الجد. لم أعد أعرف شيئاً عن المشروع، إلى أن أرسل لي بيثينس

مسودة السيناريو لكي أضيف شيئاً مني إلى القاعدة الأصلية التي وضعها ألفارو. وقد أضفتُ شيئاً لم أذكره اليوم. لكن القصة بدت لي ممثلة، وتتضمن جرعة كافية من الجنون، لتبدو معها أنها من بنات أفكارنا.

لقد قدم كل واحد منا قليلاً من كل شيء، لكن أبا العمل الحقيقي، وصاحب الحق فيه، هو لويس بيشبس الذي فرض الكثير من الأشياء المثبتة لديه من بدايات تعلمه في باريس. أما مشكلتي، فتمثلت في أنني كنتُ مشغولاً بأحد تلك التحقيقات الصحفية المسهبة التي لا تترك لي وقتاً للتنفس. وعندما تكتُ من الانتهاء منه، كان الفيلم في أوج عملية التصوير في بارانكيا.

لقد كان عملاً بدائياً، ميزته الكبرى، كما يبدو، هي سيطرة البديهة التي ربما كانت الملاك الوصي على ألفارو سبيدا. ففي أحد عروض الفيلم المنزلية المتعددة في بارانكيا، حضر المخرج الإيطالي انريكو فولكونوتي، وفاجأنا بمدى تعاطفه: بدا له الفيلم جيداً. وبفضل تيتا سانتوس، زوجة ألفارو، وعناذها الحميد، جال ما تبقى من الجردة الزرقاء العالم ليعرض في مهرجانات سينمائية جريئة.

كانت تلك الأمور تشغلنا أحياناً عن واقع البلاد، وهو واقع رهيب. لقد كانت كولومبيا تعتبر خالية من رجال حرب العصابات، منذ أن استولت القوات المسلحة على السلطة، تحت راية السلام والوفاء بين الأحزاب. لم يخامر الشك أحداً في أن شيئاً تغير، إلى أن وقعت مجزرة الطلاب في الشارع السابع. فالعسكريون الجزعون، لأسباب خاصة بهم، أرادوا أن يشبوا لنا، نحن الصحفيين، بأن هناك حرباً مختلفة عن تلك

الحرب الأولى بين الليبراليين والمحافظين. وكنا في تلك الأجواء، عندما دنا خوسيه سالغار من مكتبي، بوحدة من أفكاره المرعبة:

- استعد للتعرف على الحرب.

وكنا، نحن المدعوين للتعرف عليها، دون كثير من التفاصيل، دقيقين بالحضور في الساعة الخامسة فجراً، للذهاب إلى قرية فيباريكا، على بعد مئة وثلاثة ومائتين كيلومتراً من بوغوتا. وكان التجوال وخالس بينما ينتظر زيارتنا، في منتصف الطريق، في إحدى استراحاته الكثيرة في قاعدة ميلغار العسكرية. وكان قد وعد بعقد مؤتمر صحفي ينتهي قبل الساعة الخامسة مساءً، مما يتيح لنا وقتاً كافياً للعودة بصور وأخبار طازجة.

كان مبعوثو التسمير هم راميرو اندراقي والمصور خيرمان كاشيدو، إضافة إلى أربعة آخرين لم أستطع تذكرهم؛ ودايتيل رودريغيث وأنا من الاسيكتادور. بعضنا كان يرتدي ملابس الميدان، إذ جرى تنبيهنا إلى أننا قد نضطر إلى التوغل بضع خطوات في الأدغال.

ذهبنا بالسيارة حتى ميلغار.. وهناك توزعنا على ثلاث طائرات هيلوكبتر أخذتنا عبر ممر جبلي ضيق ومعزول في سلسلة الجبال الوسطى، تحيط به قمم شاهقة وحادة الحواف. وكان أكثر ما أثر بي، مع ذلك، هو توتر الطيارين الشباب الذين كانوا يتفادون مناطق معينة، أسقط فيها رجال حرب العصابات، في اليوم السابق، طائرة هيلوكبتر وأصابوا أخرى. وبعد نحو خمس عشرة دقيقة من التوتر، هبطنا في ساحة فيباريكا الفسيحة والمفقرة، وبدا كما لو أن سجادة أرضها الترابية غير قادرة على تحمّل ثقل الطائرة. كانت هناك، في محيط الساحة، بيوت من

الخشب، فيها متاجر متحولة إلى أطلال، ومنازل لا يسكنها أحد، باستثناء منزل واحد حديث الطلاء، كان فندق القرية إلى ما قبل أن يسود الرعب.

وكانت تلصق قبالة الهيولوكس، المرتفعات المنخفضة الموازية لسلسلة الجبال، وسقف من التوتياء للبيت الوحيد الذي يكاد لا يُرى في ضبابية السطح البعيد. وهناك، وفق ما قاله لنا الضابط المرافق، كان رجال حرب العصابات، ومعهم أسلحة فادرة على إصابتنا. ولهذا علينا أن نركض حتى الفندق بصورة متعرجة، ونحن نحني جذوعنا، كاحتياط أولي لتجنب إمكانية إصابتنا بطلقات تأتي من الجبال. ولم نكتشف أن الفندق قد تحول إلى ثكنة عسكرية، إلا بعد أن وصلنا إليه.

كان هناك عقيد برّي وأمتعة الميدان، له رشاقة فنان سينمائي، ولطف ذكي، أوضح لنا دون تهويل، بأن طليعة رجال حرب العصابات تتواجد، منذ عدة أسابيع، في ذلك البيت الذي على سلسلة الجبال، وأنهم حاولوا عدة مرات، انطلاقاً من هناك، القيام بغارات ليلية على القرية. وكان الجيش واثقاً من أنهم سيحاولون عمل شيء عندما يرون طائرات الهيلوكبتر في الساحة، وكانت قوات الجيش على أهية الاستعداد. ومع ذلك، وبعد حوالي ساعة من الاستفراقات، بما في ذلك، التحديدات التي استخدم الجيش فيها مكبرات الصوت، لم يُبدِ رجال حرب العصابات ما يشير إلى وجودهم. عندئذ أرسل الكولونيل، وقد أصيب بالإحباط، دورية استطلاع للتأكد من أنه لا يزال هناك أحد في البيت.

خلفت حدة التوتر. وخرجنا، نحن الصحفيين، من الفندق، واستطلعنا الشوارع المجاورة، بما في ذلك أقلها حماية حول الساحة. بدأنا أنا

والمصور، مع آخرين، في الصعود إلى الجبل، عبر درب يقال وعمر. وعند أول منعطف، كانت هناك جماعة من الجنود المنبطحين بين الشجيرات في وضعية الرمي. نصحنأ أحد الضباط بالصعود إلى الساحة، لأنه يمكن حدوث أي شيء. لكننا لم نوله اهتماماً. فقد كان هدفنا الصعود إلى أن نلتقي بطليعة متقدمة من رجال حرب العصابات، تنقذ يومنا بخير كبير. لم يُتَح لنا الوقت. فقد سُمعت فجأة عدة أوامر متزامنة، وتلا ذلك مباشرة إطلاق نار من جانب العسكريين. انبطحنأ أرضاً قرب الجنود، وفتح هؤلاء النار باتجاه البيت الذي على الجبل. وفي القوضى الأتية، غاب عن نظري المصور رودريغيث الذي أسرع للبحث عن موضع استراتيجي لألة تصويره. استمر إطلاق النار لوقت قصير، ولكنه كان كفيفاً جداً، ثم حل بعد ذلك صمت قاتل.

كنا قد رجعنا إلى الساحة، عندما رأينا دورية عسكرية تخرج من الغابة حاملة جسداً على نقالة. ولم يسمح لنا قائد الدورية الهانج بالتقاط الصور. بحثتُ بنظري عن رودريغيث، ورأيتُه يظهر على بعد خمسة أمتار إلى يميني، وألة تصويره جاهزة لالتقاط صورة. لم تره الدورية. عندئذ عشتُ أشد اللحظات توتراً، موزعاً بين الشك في أن أصبح به، ظالماً منه عدم التقاط الصورة، خوفاً من أن يطلقوا عليه النار سهواً، وبين الغريزة المهنية لالتقاط الصورة، مهما كان الثمن. لم يُتَح لي الوقت للاختيار، فقد سُمعت في تلك اللحظة نفسها، صرخة قائد الدورية المدوية:

- ممنوع التقاط هذه الصورة.

أنزل رودريغيث آلة التصوير ببطء، واقترب مني. مرّ صوب الجنود

على مقربة شديدة منا، أحسنا معها بوميض الحرارة المنبعث من الأجساد، وبصمت الجسد الميت. وبعد أن مروا، همس رودريغيث في أذني:

- لقد التقطين الصورة.

وكان ذلك صحيحاً. لكن الصورة لم تنشر قط. وقد انتهت تلك الدعوة بكارثة. فقد كان هناك جريحان آخران بين الجنود، وقتل اثنان على الأقل من رجال حرب العصابات، سُحبت جثتاها إلى المخبأ. بذلك العقيد حالته المعنوية مبدئياً ملامح الأسى. وأخبرنا ببساطة بأن الزيارة قد أُلغيت، وأن لدينا نصف ساعة لتناول الغداء، ثم العودة بعد ذلك مباشرة، إلى ميلغار عبر الطريق البري، لأن طائرات الهيلوكبتر محجوزة لنقل الجرحى والجثث. ولم يكشف عدد تلك الجثث وأولئك الجرحى قط.

لم يعد أحد إلى ذكر المؤتمر الصحفي المقرر عقده مع الجنرال روخاس بيتيّا. مرونا أمام بيته في ميلغار، ونحن في سيارة جيب تتسع الستة أشخاص. ووصلنا إلى بوغوتا بعد منتصف الليل. كانت هيئة التحرير بكاملها بانتظارنا في قاعة المحررين. فقد اتصلوا بهم من مكتب الإعلام والصحافة التابع لرئاسة الجمهورية ليخبروهم، دون مزيد من التفاصيل، بأننا سنصل براً، لكنهم لم يحددوا إذا ما كنا سنصل أحياء أم ميتين.

كان تدخل الرقابة العسكرية الوحيد، حتى ذلك الحين، هو الذي جرى عند مقتل الطلاب في وسط بوغوتا. ولم يكن هناك رقيب في قاعة التحرير، بعد أن استقال آخر رقيب للحكومة السابقة وهو يكاد ييكني، عندما لم يعد قادراً على تحمل الأختار الزائفة ومكايد المحررين

الساحرة. كنا نعرف أن مكتب الإعلام والصحافة لم يكن يغمض عينيه عفاً، وكثيراً ما كانوا يرسلون إلينا عبر الهاتف، تحذيرات ونصائح أبوية. أما العسكريون الذين أشاعوا في بداية حكومتهم، مودة أكاديمية مع الصحافة، فتحولوا إلى غير مرئيين أو متكئين. ومع ذلك، فلأن طرف خيط مغلت ظل ينمو وحيداً بصمت، وأشاع تأكيداً لم يُشبهه ولم ينفقه أحد قط، بأن زعيم بؤرة حرب العصابات تلك، في توليما هو شاب في الثانية والعشرين، حقق شهرة في ميدانه، وأن اسمه الذي لم يستطع أحد أن ينفيه أو يؤكد هوة: مانويل مارولاندا فيليث أو بيدرو ايتونينيو مارين، الشهير بلقب "تيروفيخو"، بعد أربعين سنة من ذلك، عندما سُئل مارولاندا عن هذه المعلومة، في معسكره الحربي، أجاب بأنه لا يتذكر في الواقع، إذا ما كان هو نفسه.

لم يكن يمكننا الحصول على خبر آخر. فكنت أحاول منلهضاً، أن أكتشفه منذ عودتي من بيياريكّا، ولكنني لم أجد باباً يوصلني إليه. فقد كان مكتب الإعلام والصحافة الملحق برئاسة الجمهورية محظوراً علينا، بينما بقيت واقعة بيياريكّا غير المسارة، تقع مدفونة تحت التكتّم العسكري. كنت أعقد آمالي على سلة المهسلات، عندما ظهر خوسيه سالغار أمام متضدتي، متظاهراً بهروء أعصاب لم يمتلكه قط، وأبرز لي برفقة تلقاها للتو، وقال لي:

- ستجد هنا ما لم تره في بيياريكّا.

لقد كانت مأساة حشد من الأطفال الذين انتزعتهم القوات المسلحة من قراهم ودساكوهم، دون خطة مسبقة، ودون موارد لإعالجتهم، من أجل تسهيل حرب الإبادة ضد رجال حرب العصابات في توليما. لقد فصلوهم

عن آبائهم، دون أن يتاح الوقت لمعرفة أبناء من هم. ولم يكن كثير من منهم يعرفون نطق أسمائهم. وقد بدأت المأساة بتجميع حشد من ألف ومئتي بائع، اقتبداوا إلى قرية عديدة في من توليما، بعد زيارتنا لميلغار. وجرى إسكانهم كيفما اتفق، والتخلي عنهم بعد ذلك لرحمة الله. كان عدد الأطفال الذين انتزعوا من آبائهم لاعتبارات لوجيستية محض، ووزعوا على عدة ملاجئ في أنحاء البلاد، يصل إلى حوالي ثلاثة آلاف طفل، من مختلف الأعمار والظروف. ولم يكن بينهم سوى ثلاثين من أيتام الأب والأم، وبين هؤلاء تويمان لم يرض على مولدهما سوى ثلاثة عشر يوماً. وقد جرت عملية جمع الأطفال بسرعة مطلقة، في كثف الرقابة على الصحافة، إلى أن أرسل إلينا مراسل الإسيبيكتاور، أول الإشارات من أهاليما التي تبعد مئتي كيلومتر عن بيباريكا.

عشرنا، خلال أقل من ست ساعات، على ثلاثمائة قاصر تقل أعمارهم عن خمس سنوات، في ملجأ "حماية الأطفال" في بوغوتا. وكان كثيرون منهم مجهولي الهوية. وقد تمكن هيلي رودريغيث، وكان في الثانية من عمره، من النطق باسمه بصعوبة. لم يكن يعرف شيئاً عن أي شيء، ولا أين هو موجود، أو لماذا هو موجود هناك، ولم يكن يعرف اسمي أبويه. ولم يستطع توفير أي إشارة تتيج العثور عليهما. عزاه الوحيد هو أن له الحق بالبقاء في الملجأ، إلى أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره. وكانت ميزانية الملجأ تتمثل بشمانين سنتافو شهرياً لكل طفل، تقدمها حكومة الإقليم المحلية. وكان عشرة من أولئك الأطفال قد هربوا خلال الأسبوع الأول، وفي نيتهم التسلل مجاناً إلى القطارات المتوجهة إلى توليما. ولم نعتز لهم على آخر.

لقد أجري لكثيرين منهم تعميم إداري، فأطلقت عليهم أسماء وكنيات من تلك الشائعة في المنطقة، من أجل التمكن من تمييزهم. ولكنهم كانوا كثيرين، وشديدي التشابه والحركة، بحيث يصعب التمييز بينهم في باحة الاستراحة، ولا سيما في شهور البرد، عندها يكون عليهم تدفئة أجسادهم بالجرى في الممرات وعلى السلام. وكان مستحيلاً ألا تدفعني تلك الزيارة المؤلمة إلى التساؤل إذا ما كانت جماعة حرب العصابات التي قتلت الجندي في المعركة، قد استطاعت أن تلحق كل ذلك الأذى بأطفال بيباريكا.

نشرت قصة تلك العملية اللوجستية المحمقة، في عدة حلقات متتالية، دون استشارة أحد. احتفظت الرقابة بالصمت، ورد العسكريون بالتفسير الشائع: أحداث بيباريكا هي جزء من تحرك شيوعي واسع النطاق ضد حكومة القوات المسلحة. وهذه القوات مضطرة إلى التصرف باستخدام الوسائل الحربية. وكانت قراءة سطر واحد من ذلك البلاغ، كافية لأن تدفعني إلى التفكير في الحصول على معلومات مباشرة من غيلبيرتو فييرا، الأمين العام للحزب الشيوعي الذي لم أكن قد رأيت من قبل.

لست أتذكر إذا ما كنت قد قمت بالخطوة التالية، بتفويض من الجريدة، أم أنني فعلت ذلك بمبادرة خاصة مني. ولكنني أتذكر جيداً أنني قمت بمساع عديدة، غير مجدية، للتوصل إلى اتصال مع قيادي في الحزب الشيوعي السري، يمكنه أن يطلعني على الوضع في بيباريكا. كانت المشكلة الرئيسية التي واجهتني هي أن النظام العسكري كان يفرض حصاراً غير مسبوق على الشيوعيين السريين. عندئذ قمت

بإتصالات مع صديق شيعي. وبعد يومين من ذلك، ظهر أمام متصدتي بائع الساعات الذي كان يبحث عني ليشقاضي مني الدفعات التي لم أقم من دفعها في بارانكيّا. دفعت له ما استطعت دفعه، وقلت دون ميلالة إنني بحاجة إلى التحدث، بصورة مستعجلة، مع أحد قادته الكبار؛ ولكنه ردّ علي بالصيغة المعروفة قائلاً إنه ليس الوسيلة لبلوغ ذلك، وليس بإمكانه أن يوصلني إلى من يمكنه تحقيق طلبي. غير أنني فوجئت في ذلك المساء بالذات، ودون إنذار مسبق، بصوت متناغم وغير قلق، يقول لي على الهاتف:

- مرحباً غابرييل، أنا غيلبرتو فبيرا ..

وبالرغم من أنه أحد مؤسسي الحزب الشيوعي، إلا أن ليسرا لم يكن قد تعرض، حتى ذلك الحين، للحظة واحدة من النفي أو السجن. ومع ذلك، وبالرغم من إمكانية أن يكون كلا الهاتفين مراقباً، فقد أعطاني عنوان بيته السري، لكي أزوره في ذلك المساء بالذات.

كان البيت شقة مؤلفة من صالة صغيرة، مشرعة بكتب سياسية وأدبية، وغرفتي نوم في طابق سادس؛ حيث الأدراج شديدة الانتصاب ومظلمة، يصل المرء وقد فقد أنفاسه، ليس بسبب الارتفاع فقط، وإنما ليقينه بأنه يدخل إلى أحد أكثر الأماكن سرية في البلاد. كان قبيراً يعيش مع زوجته سيسيليا، وابنة حديثة الولادة. ولأن الزوجة لم تكن في البيت، فقد كان يُبقي مهد الطفلة في متناول يده، وبهذه هراً خفيفاً كلما علا البكاء. خلال المعارضات الطويلة التي تخللت محادثتنا، وهي محادثة سياسية وأدبية على السواء، ولكنها تخلو إلى حد كبير من حص الصخرية، كان من المستحيل تصور أن ذلك الأربعيني المتورّد

والأصلع، ذا العينين الخضراوين الحادتين، والكلمات الدقيقة، هو الرجل الذي تبحث عنه الأجهزة السرية في البلاد. أكثر من أي رجل آخر.

لاحظت منذ البداية، أنه كان مطلعاً على حياتي أولاً بأول، منذ أن اشتريت الساعة في جريدة الإناسيونال في بارانكيّا. وكان يقرأ ريبورتاجاتي في الأسبكتادور، ويتعرف على مقالاتي التي بلا توقيع، في محاولة لاستكشاف ما تخفيه بين السطور. ومع ذلك، فقد كنت متفقاً معه على أن أفضل خدمة يمكن لي، أن أقدمها إلى البلاد، هي في حقاظي على الخط الذي أمضي فيه، دون أن أتورط مع أحد، بأي نوع من الانتماء السياسي.

وما إن أتيت لي قرصة الكشف له عن سبب زيارتي، حتى دخل في الموضوع فوراً. لقد كان مطلعاً على الوضع في بياريكا، كما لو أنه موجود هناك، وهو الوضع الذي لم نستطع أن ننشر عنه سطوراً واحداً بسبب الرقابة الرسمية. ومع ذلك، فقد قدم لي معطيات مهمة لفهم أن ذلك الوضع، ما هو إلا توطئة لحرب مزمنة، بعد قرن من المناوشات العابرة. وكانت مادة لغته في ذلك اليوم، وذلك المكان، تتضمن من خورخي إيسار غايتان أكثر مما تتضمن من ماركس الذي يحتفظ به قرب وسادته، من أجل التوصل إلى حلّ لا يبدو أنه استيلاء البروليتاريا على السلطة، وإنما هو نوع من تحالف النسيين البائسين ضد الطبقات المهيمنة. ولم يكن الجيد في تلك المقابلة هو توضيح ما كان يجري وحسب، وإنما التعرف على منهج لفهمه بصورة أفضل. وهكذا أوضحت الأمر لكل من غيبيرو كائو وثالاميا، وتركّ الباب موازياً، على أمل أن أجد في أحد الأيام، نهاية ما لذلك الريبورتاج غير المكتمل، ولا حاجة إلى القول إنني

توصلت إلى علاقة صداقة جيدة مع فيبيرا، سهّل اتصالنا حتى في أشد أزمنة سريته لفسوة.

وفي أثناء ذلك، كانت تتفاهم، تحت السطح، مأساة أخرى لأشخاص بالغين، ما لبثت الأتباء السبئية أن كشفت النقاب عنها، في شباط ١٩٥٤، عندما نُشر في الصحافة أن محارباً سابقاً، ممن شاركوا في حرب كوريا، قد رهن أوسمته لكي يأكل. لقد كان واحداً فقط، من أكثر من أربعة آلاف جُنْدوا كبقما اتفق، في واحدة أخرى من لحظات تاريخنا غير المعقولة، عندما كان يمكن لأي مصير أن يكون أفضل من لا شيء. في نظر الفلاحين الذين طردهم العنف الرسمي، بالرصاص، من أراضيهم. لم تكن المدن المكتظة بالمبشرين عن قراهم، توفر أي بارقة أمل. لقد كانت كولومبيا، مثلما كان يتردد كل يوم تقريباً في التعليقات الافتتاحية، وفي الشوارع، والمقاهي، والأحاديث العائلية، جمهورية لا يمكن العيش فيها. فكانت الحرب الكورية في نظر الكثير من الفلاحين المبشرين، والعديد من الشبان الذين بلا أفق، هي الحل الفردي، وإليها ذهب خليط من كل نوع، دون أي تمييز محدد، اللهم إلا الحالة المسددة، وهو ما يشبه، تقريباً، الظروف التي جاء بها الإسبان لاكتشاف أميركا. ولدى عودة أولئك المجددين إلى كولومبيا، قطرة قطرة، حصار لتلك الجماعة غير المتجانسة، تسمية مشتركة في نهاية المطاف: المحاربون القدماء. وكان يكفي أن يشتبك أحدهم في مشاجرة، حتى تقع جريمة سلوكه على الجميع. لقد أوصدت الأبواب في وجوههم، بالذريعة السهلة القائلة إنه لا حق لهم في العمل، لأنهم أصبح متريّنين عقلياً. ولم تكن هناك بالمقابل، دموع كافية ليكا، الكثيرين الذين رجعوا متحولين إلى ألفي رطل من الرصاص.

خبر المحارب الذي رهن أوسمته، بدأ مناقشاً بصورة قاسية لمير آخر، نُشر قبل عشرة شهور من ذلك، عندما رجعت آخر دفعة من أولئك المحاربين إلى البلاد، ومعهم قرابة مليون دولار نقداً، أدت لدى تحويلها في المصارف، إلى انخفاض قيمة الدولار. في كولومبيا، من ثلاثة بيزوات وثلاثين سنتافو إلى بيزوين اثنين وتسعين سنتافو. ومع ذلك، كانت سمعة المحاربين تتردى أكثر كلما ازدادت مواجهتهم لواقع البلاد. فقبل عودتهم، نُشرت قصص متنوعة عن أنهم سيتلقون متعاً خاصة لتأهيلهم في مهنة منتجة، وأنهم سيحصلون على تقاعد مدى الحياة، وتسهيلات تتيح لهم البقاء في الولايات المتحدة، والعيش فيها، ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك؛ فبعد قليل من عودتهم، جرى تسميهم من الجيش، والشئ الوحيد الذي تبقى في جيوب الكثيرين منهم، هو صور خطيباتهم اليابانيات اللواتي يقين ينتظرنهم في معسكرات اليابان، حيث كانوا يأخذونهم للاستراحة من الحرب.

كان من المستحيل ألا تذكرني تلك المأساة الرطبة، بجدي الكولونيل ماركيز، في انتظاره الأبدي لشقاعده، كمحارب قديم. وتوصلت إلى التفكير في أن ذلك الإذلال، ما هو إلا عقوبة موجهة إلى كولونيل ناج من الحرب الدامية ضد هبسة المحافظين. أما الناجون من حرب كوريا بالمقابل، فقد قاتلوا ضد قضية الشيوعية، ولمصلحة جشع الولايات المتحدة الإمبريالي. ومع ذلك، لم تكن أخيارهم تظهر، يعد عودتهم، في صفحة المجتمع، وإنما في صفحة الجرائم. لقد أقدم أحدهم على قتل شخصين بريئين، بإطلاق الرصاص عليهما، وقد قال للقضاة: "لقد قتلت في كوريا مئة شخص، فلماذا لا يمكنني قتل عشرة في بوغوتا؟".

هذا الرجل، مثل مجرمين آخرين، كان قد وصل إلى الحرب، بعد أن جرى توقيع الهدنة. ومع ذلك، فإن كثيرين مثله كانوا ضحية حس الذكورة الكولومبي الذي تبدى في الظفر بقتل محارب سابق في كوريا. فلم تكد تقضي ثلاث سنوات على عودة الذقعة الأولى عنهم، حتى تجاوز عدد من لقي، من أولئك المحاربين، مصرعه بصورة عنيفة، اثني عشر شخصاً. وقد قُتل عدد منهم، لأسباب مختلفة، في مشاجرات تافهة بعد وقت قصير من عودتهم. فقد مات أحدهم مطعوناً في مشاجرة لأنه كرر الأغنية نفسها، عدة مرات، في صندوق الموسيقى في إحدى الحانات. أما الرقيب كانتور الذي شُرف اسمه بالفناء والعزف على الجيتار، في استراحات الحرب، فمات مقتولاً بالرصاص بعد أسابيع من عودته. ومات محارب آخر، طعنًا بسكين أيضاً، في بوغوتا، وقد انظر الجيران، من أجل دفنه، إلى جمع التبرعات فيما بينهم. والمحارب أنخل فابيو غوس الذي فقد عيناً وذراعاً في الحرب، قتلته ثلاثة مجهولين. لم يُلْقَ القبض عليهم قط.

أتذكر - كما لو أن ذلك حدث يوم أمس - أنني كنت أكتب الفصل الأخير من سلسلة التحقيقات تلك عن المحاربين القدماء. عندما رنَّ الهاتف على مكثبي، وتعرفتُ فوراً، على صوت مارتينا فونسيكا المشرق.

- آلو؟

تركتُ المقال في منتصف الصفحة، بسبب طفرات قلبي، واحتزت الشارع لالتقي بها في فندق كونتيننتال، بعد اثنتي عشرة سنة دون رؤيتها. لم يكن من السهل التعرف عليها، من الباب، وهي بين النساء.

الأخريات اللواتي يتناولن الغداء في قاعة الطعام المزدحمة، لو لم توميء لي هي نفسها، بقفازها. كانت ترتدي ملابسها بدوقها الشخصي المعهود: معطف من زمن سابق، وفرو ثعلب ذافر على كتفها، وقبعة صباه. وقد بدأت السنون تُلاحظ بوضوح على بشرة الخوخ، المتأثرة بالشمس، والعينين المنطقتين. وبدأت متضائلة بأول ملاصق شيخوخة جائرة. كان لا بد لكليتا أن يدرك أن اثنتي عشرة سنة ليست بالأمر القليل في مثل سنّها، ولكننا تحملناها على أحسن وجه. لقد حاولتُ تتبع أثارها، خلال سنواتي الأولى في بارانكيا، إلى أن عرفت أنها تعيش في بنما، حيث صار قبطانها يعمل دليلاً لتوجيه السفن في القناة. ولم يكن تطرفي لهذه النقطة بدافع المفاخرة، وإنما الحجل.

أظن أنها كانت قد تناولت الغداء مع أحد تركها وحيدة، لتلتقي بي على الأفراد. تناولنا ثلاثة فناجين قهوة قاتلة، ودخنا صعباً نصف عليه سجاير ثقيلة، باحثين، بالتلمس، عن طريق لتبادل الحديث دون كلام، إلى أن تجمرات هي على سؤالي إذا ما كنت قد فكرتُ فيها يوماً. وعندئذ فقط أخبرتها بالحقيقة: لم أنسها قط. إلا أن وداعها لي كان قاسياً، بحيث بذلك طرقتني في الوجود. وكانت هي أكثر رحمة مني:

- لا يمكنني أن أنسى أبداً أنك كنتَ مثل ابن بالنسبة لي.

كانت قد قرأت مقالاتي الصحفية، وقصصتي القصيرة، وروايتي الوحيدة. وحدثني عن كل ذلك بعد نظر لا يخلو من فطنة وصرامة. ولا يمكن أن يكون الدافع إليه إلا الحب أو الحقد. أما أنا فلم أفعل شيئاً، مع ذلك، سوى تجتنب أحابيل الحنين، بذلك الجين الخسيس الذي لا يقهر عليه غيرنا نحن الرجال، وعندما تمكنتُ أخيراً من تخفيف التوتر، تجمرات على

سؤالها عما إذا كانت قد ألحبت الابن الذي كانت ترغب فيه. فقالت بسعادة:

- لقد ولد، وهو ينهى الآن المرحلة الابتدائية.

فسألتهما بالمسكنة التي تميز الغيرة:

- وهل هو أسود مثل أبيه؟

فلجأت هي إلى حسن حمها الدائم، وقالت: "هل أبيض مثل أمه.

أما أبوه فلم يكن من البيت. مثلما كنت أخشى. وإنما هو شخص أقرب إليّ." وحيال اختناقي الواضح، أكدت لي ظنوني، وهي تبسم قاتلة:

- لا تقلق؛ إنه منه. وكذلك ابنتان متشابهتان، كما لو أنهما واحدة.

أبدت سعادتها لمجيئي، واستوقفتني ببعض الذكريات التي لا علاقة لي بها. وراودني غرور التفكير في أنها تنتظر مني رداً أكثر حبيبة. غير أنني، مثل كل الرجال، أخطأت أيضاً في الزمان والمكان. نظرت إلى ساعة يدها، عندما طليت القهوة، للمرة الرابعة، وغلبة سجانز أخرى، ونهضت واقفة دون مقدمات.

- حسن يا صغيري، أشعر بالسعادة لأنني رأيتك. - قالت ذلك، ثم أنهت كلامها: - لم أكن قادرة على تحمل قراءة كتاباتك دون أن أعرف كيف صرت الآن.

فتجرت على سؤالها:

- وكيف أنا الآن؟

ضحكت من أعماق روحها:

- آه، لا هذا لن تعرفه أبداً.

عندما استعدت أنقاسي قبالة الآلة الكاتبة فقط، انضبت إلى مدى اللهفة التي كانت تسيطر عليّ دوماً لرؤيتها، وإلى الرعب الذي تمنعني من البقا. منعها طوال ما تبقى من حياتنا. إنه الرعب الباعث على الكآبة نفسه الذي عدت إلى الإحساس به، مرات كثيرة، كلما رنّ الهاتف، منذ ذلك اليوم.

بدأ رأسي سنة ١٩٥٥، بالنسبة للمصحفين، في الثامن والعشرين من شباط، يخبر يقول إن ثمانية بحارة من المدمرة كالداس التابعة للأسطول الوطني، قد سقطوا في البحر، واختفوا خلال عاصفة، حين لم يكن قد تبقى سوى أقل من ساعتين لوصول المدمرة إلى كارتاخينا. وكانت قد أبحرت قبل أربعة أيام من موبيل، في ألياما، بعد أن أمضت عدة شهور هناك، من أجل إصلاحات روتينية.

بينما كانت هيئة التحرير بكاملها تستمع بصمت إلى التقرير الإذاعي الأول عن الكارثة، استدار غييرمو كانو - في كرسيه الدوار باتجاهي، وبقي ينظر إليّ، وهو يوشك أن يصدر أمراً على طرف لسانه، وتوقف خويسي سالغار أيضاً، وهو في طريقه إلى المشغل، قبالي بأعصاب صلبها الحبر. كنت قد رجعت قبل ساعة من ذلك من بارانكيا، حيث أعددت تقريراً حول الدراما الأبدية في بوكاس دي تيبشا. وقد بدأت أتسأل مرة أخرى عن الساعة التي تقطع بها الطائرة النارية إلى منطقة الساحل، لكي أكتب باكورة تحقيقاتي عن الغرقى الثمانية. ومع ذلك، سرعان ما تبين، في التقرير الإذاعي، أن المدمرة ستصل إلى كارتاخينا في الساعة الثالثة بعد الظهر، دون أي أخبار جديدة؛ ذلك أنهم لم يتمكنوا من العثور على البحارة الثمانية الغرقى. فخاب أمل غييرمو كانو، وقال:

- يا للخبية يا غابو. لقد راحت علينا.

اُخْتُزلت الكارثة إلى سلسلة من البيانات الرسمية، وأُحيِطت الأخبار بالتكريم الصارم للشهداء الذين سقطوا أثناء الخدمة، ولا شيء سوى ذلك. غير أن البحرية كشفت النقاب، في أواخر ذلك الأسبوع، عن أن واحداً منهم، ويدعى لويس أليخاندرو بيلاسكو، قد وصل منهوِكاً إلى شاطئ في منطقة أورابا، مصاباً بضربة شمس؛ ولكن بالإمكان إبقاؤه. بعد أن أمضى عشرة أيام تتقاذفه الأمواج، بلا طعام ولا شراب، في طوف دون مجاديف. وقد اتفق رأينا جميعاً على أنه يمكن له أن يكون ريبورتاج السنة، إذا ما قبض لنا الاستفراد به، ولو لنصف ساعة.

لم يكن ذلك ممكناً. فقد أبقت البحرية معزولاً، دون اتصال، ريشا يستعيد عافيته، في مستشفى البحرية في كارتاخينا. وهناك التقى به، للحظات عابرة، محرر مأكرو من جريدة إل تيمبو، هو أنطونيو مونتانياني الذي تسلل إلى المستشفى متنكراً كطبيب، ومع ذلك، وبالنظر إلى التئانج، فإنه لم يحصل من الناجي من الغرق إلا على بعض الرسوم، بقلم الرصاص، حول المكان الذي كان فيه عندما طوحت به العاصفة، وبعض التصريحات غير المترابطة، اتضح منها أن لديه أوامر بالآل بروي حكايات. وقد صرح بيلاسكو بعد أيام من ذلك: "لو كنت أعرف أنه صحفي لساعدته". وبعد أن استعاد عافيته، وكان لا يزال في كنف البحرية، وافق على إجراء مقابلة مع لاتيديس أوروثكو، مراسل الأسبكتادور في كارتاخينا، الذي لم يستطع الوصول إلى ما نرغب في معرفته، عن كيف أمكن لهية ربح أن تسبب مثل تلك الكارثة التي أدت إلى موت سبعة بحارة.

وبالفعل، كان لويس أليخاندرو بيلاسكو خاضعاً لالتزام حديدي، يمنعه من التحرك أو التعبير بحرية، حتى بعد أن نقلوه إلى بيت أبويه في يوغوتا. وكان الملازم غييرمو فونسبكا يتولى الرد، بتودد حميم ومتعقن، على أي تساؤل تقني أو سياسي يخطر لنا. ولكنه كان يتجنب، بالتهذب نفسه، أية معلومات جوهرية حول الشيء الوحيد الذي كان يهمنا آنذاك: حقيقة تلك المغامرة. ومن أجل كسب الوقت فقط، كتبت سلسلة تعليقات عن أجواء عودة الناجي من الغرق إلى بيت أبويه، عندما متعني رفاقه في الري، مرة أخرى، من التحدث إليه، بينما كانوا يسمحون له بمقابلة وجيدة مع إذاعة محلية. بدا واضحاً عندئذ، أننا بين أيدي أساتذة في فنون تبريد الخبر. وهزنتي لأول مرة، فكرة أنهم يخفون عن الرأي العام شيئاً خطيراً بشأن الكارثة، وأنا أذكر الآن ذلك اليوم، كما لو أنه نبوءة أكثر منه اوتياباً.

كان شهر آذار يعصف برياح جليدية، وكان رذاذ المطر المختلط بالغباء يزيد من شحنة إحساسي بتأنيب الضمير. وقبل أن أواجه قاعة التحرير، وأنا مشغل بالهزيمة، التجأت إلى فندق كوتيتينتال المجاور، وطلبت كأساً مضاعفة عند كوتنوار البار المقفر. كنت أتناول الشراب في رشقات بطيئة، دون أن أخلع معطفي السميك، عندما سمعت صوتاً عذبا يقول في أذني تقريباً:

- من يشرب وحيداً يمت وحيداً.

- فليستجب الله لقلوبك يا جميلتي - أجبتها وروحي بين شفتي، مقتنعة بأنها عاريتنا فونسبكا.

خلف الصوت في الهواء، أثر أزهار تاردين دافئة، ولكنها لم تكن

هي، رأيتها تخرج من الباب الدوار، وتختفي بظلمتها الصفراء، التي لا تُنسى، في الشارع المظلم برذاة المطر الموحل، وبعد أن تناولت كأساً أخرى، اجتزت الشارع بدوري، ووصلت إلى قاعة التحرير في الجديدة، مستنداً إلي قوة الكأسين الأولين. رأيت غيبرمو كانوا، وأنا أدخل، فأطلق صرخة بهجة موجهة إلى الجميع:

- فلتر أي خير يحمله إلينا غابو العظيم!

فأجبت بالحقيقة:

- لا شيء، أكثر من سكة ميتة.

وانتهجت، عندئذ، إلى أن دعابات المحررين القاسية، قد تحولت إلى الشرود. عندما رأوني أمر بصمت وأنا أخرج معطفي المبلل. ولم يطاوع قلب أحد منهم اليد، بالسخرية المعهودة.

واصل لويس أليخاندر وبيلاسكو التصنع بأمجاده المقصودة، فلم يسمح له موجهوه بالانغماس في كل أنواع الضلال الدعائي فقط، بل وفروا له الرعاية في ذلك. فقد تلقى خمسمئة دولار وساعة جديدة، مقابل تحوُّله في الإذاعة عن حقيقة تحمل ساعة معصمه نسوة الأحوال الجبورية العاتية. ودفع له مصنع للأحذية الرياضية، ألف دولار لكي يتحدث عن متانة حذائه الذي لم يستطع تزيقه ليلهي جوعه بمضغ قطعة منه. وكان يلتقي في أحد الاحتفالات، خطبة وطنية، ويسمح لمملكة جمال بأن تقبله. ويُعرض على الأتيام، باعتباره نموذجاً ومثالاً للأخلاق الوطنية. وكنت قد بدأت بنسيانته في اليوم التالي الذي أخبرني فيه غيبرمو كانوا بأنه موجود في مكتبه، وأنه مستعد لتوقيع عقد لكي يبري مغامرته كاملة. أحسست بالذلة والإهانة. وقلت بأصرار:

- لم يعد الآن سكة ميتة، وإنما متعفنة.

ورفضت، لأول مرة، القيام بعمل للصحيفة، وهو من صلب واجبي. استسلم غيبرمو كانوا للواقع، وصرف الناجي من الفرق دون أي تفسير. وقد أخبرني فيما بعد، بأنه بعد أن ودعه في مكتبه، بدأ يفكر في الأمر، ولم يستطع أن يفسر لنفسه ما الذي فعله. عندئذ أمر البواب بأن يعيد إليه الناجي من الفرق. ثم اتصل بي هاتفياً لتبليغي، بقرار لا يقبل الاستئناف، بأنه قد اشترى الحقوق الحصرية للقصة الكاملة.

لم تكن تلك هي المرة الأولى. ولن تكون الأخيرة، التي بصر فيها غيبرمو على قضية خاسرة تنتهي في آخر الأمر، إلى إظهار أنه على حق. نهضت بضيق، ولكن بأفضل أسلوب ممكن. إلى أنني سأعجز الريبورتاج، انصياعاً لواجبي في العمل فقط، ولكنني لن أوقعه باسمي. ودون أن أكون قد فكرت في الأمر، خرج مني ذلك القرار بصورة تلقائية عارضة، ولكنه كان صائباً من أجل الريبورتاج؛ إذ إنه يضطرني إلى رواية القصة على لسان المتكلم البطل، بأسلوبه الخاص وأفكاره الشخصية، وتوقيع الريبورتاج باسمه. هذا يعني أن التحقيقي الصحفي سيكون متولجاً داخلياً عن مغامرة فردية، بكل معنى الكلمة، مثلما جرت في الحياة. لقد كان قراراً إعجازياً، إذ تكشفت بيلاسكو عن رجل ذكي، ذي حساسية وتهذب لا يُنسيان، ويتمتع بحس سخرية في الوقت والمكان المناسبين. وكل هذا خاضع، لحسن الحظ، لشخصية متماسكة بلا شروخ.

كانت المقابلة طويلة، دقيقة، استغرقت ثلاثة أسابيع كاملة ومنهكة. وقد أجريتها وأنا أعرف أنها لن تُنشر كمادة خام، وإنما ستطهى في قدر

ثانية: قدر اليبورتاج الصحفي. بدأتها يقليل من سوء النية، محاولاً دفع الناجي من الغرق إلى الوقوع في تناقض، لكي أكتشف حقائقه المستترة. ولكنني سرعان ما تأكدت من أنه ليس لديه ما هو مستتر. لم أضطر إلى الضغط عليه. وبدأ لي الأمر كما لو أنني أقتنى في مرج من الزهور، مع تمنى بطلاق الحرية في اختيار ما أفضله منها، كان بيلاسكو دقيقاً في المجيء إلى موعد اللقاء، الساعة الثالثة مساءً، في مكسي في قسم التحرير، فراجع معاً الملاحظات السابقة، وتواصل تشيع خيط الأحداث وفق تسلسلها الزمني. وكل فصل يروي لي، أقوم أنا بكتابته في الليل، ونُشر في مساء اليوم التالي. لقد كان من الأسهل والأضمن، كتابة المقامرة بكاملها أولاً، ثم نشرها بعد ذلك، متقحة، بكل تفاصيلها الوثيقة غامساً. ولكن لم يكن هناك متسع من الوقت. فقد كان الموضوع يفقد آنيته في كل لحظة، ويمكن لأي خبر صاحب آخر أن يقوضه.

لم يكن نستخدم آلة تسجيل، لأن آلات التسجيل كانت قد اخترعت حديثاً، والجيدة منها كبيرة الحجم وثقيلة كأنها آلة كاتبة، وشريطها المستقط يشابك مثل حلوى "عزل البنات". وكان تفريغ التسجيل بعد ذاته مأسرة. وبالرغم من أننا نعرف اليوم أن آلات التسجيل مفيدة جداً للتذكر، إلا أنه يجب عدم التخلي أبداً عن الاهتمام بلامع وجه من تقابله؛ إذ يمكن لها أن تعبر أكثر من الصوت بكثير، والعكس بالعكس أحياناً. كان علي أن أكتفي بالأسلوب التقليدي في تدوين ملاحظات على دفتر مدرسي. ولكنني بفضل هذا الأسلوب، لم أضيع، على ما أعتقد، كلمة واحدة، ولا أي نبرة من المحادثة، واستطعت

التعمق بصورة أفضل في كل خطوة. لقد واجهنا صعوبة في اليومين الأولين، لأن الناجي من الغرق أراد أن يروي كل الأشياء معاً. ومع ذلك، فقد تعلم بسرعة كبيرة، من خلال ترتيب أسئلتي ومداها، وكذلك من غريزته الخاصة كراو، ومن السهولة الفطرية التي يتمتع بها في فهم حافية المهنة.

ولكنني نهضت القارئ، قبل أن نلتقي به إلى الماء، قررنا بدء القصة من الأيام الأخيرة التي أمضاها البحار في موبيل. كما اتفقنا كذلك، على ألا ننهى القصة عند لحظة بلوغه اليابسة، وإقنا عند وصوله إلى كارتاخينا، وسط هتافات المشو، وهي النقطة التي يمكن للقراء منها، متابعة خيط القصة التالي بأنفسهم. من خلال المعلومات المنشورة مسبقاً، وكان ذلك يتيح لنا كتابة أربعة عشر فصلاً للحفاظ على التشويق طوال أسبوعين.

نُشر الفصل الأول في الخامس من نيسان ١٩٥٥. وقد نفذت طبعة الاسبيكتادور، وكان قد أعلن عنها في الإذاعة، خلال ساعات قليلة، وفي اليوم الثالث، طرحت العقدة المتفجرة، عندما قررنا كشف السبب الحقيقي للكارثة، بعد أن كانت الرواية الرسمية تدعي أنه عاصفة. ففي أثناء بحثي عن تفاصيل محددة وأكثر دقة، طلبت من بيلاسكو أن يروي ما جرى بكل تفاصيله. وكان قد تألف عندئذ مع منهجنا المشترك، قلمحت في عينيه وميض خبث قبل أن يجيبني: - المشكلة هي أنه لم تكن هناك عاصفة.

ما حدث - قال محدداً - هو عشرون ساعة من الرياح القوية. وهي رياح معروفة في المنطقة، خلال تلك الفترة من السنة. ولكن المسؤولين

عن الرحلة لم يأخذوها في الاعتبار. كان البحارة قد تلقوا رواتب عدة شهرو مشأخرة قبل الإبحار، قأنفقوها في آخر لحظة، بشراء كل أنواع الأجهزة المنزلية، لمخلها إلى بيوتهم. وكان الأمر مرجحاً إلى حد أن أحداً لم يعترض عندما تجاوزت المحمولة الأصاكن الداخلية الشاغرة في السفينة، وربطوا على السطح الصناديق الكبيرة: ثلاثيات، غسالات كهربائية، مدافئ. وهي حمولة متنوعة في سفينة حربية. وفي أماكن شغلت مساحات حيوية من السطح. ربما جرى التفكير في أنه يجب عدم التعامل بصرامة مبالغ فيها. ما دامت الرحلة ليست ذات طابع رسمي، ومدتها أقل من أربعة أيام، ووسط تنبؤات جوية متضادة. كم من المرات فعلوا مثل ذلك، وما زالوا يفعلونه دون أن يحدث أي شيء؟ وكان سوء حظ المصيص هو أن رياحاً أقوى قليلاً من التنبؤات، حركت البحر تحت شمس رائعة، فأعالت السفينة أكثر مما هو متوقع بكثير، وتقطعت أحملة تشبعت المحملة ميتة التوضيب، ولو لم تكن السفينة متينة مثلما هي "كالداس"، لغاصت بكاملها إلى الأعماق دون رحمة. ولكن ثمانية من بحارة الحراسة على السطح، سقطوا عن الحافة. وهكذا فإن السبب الرئيسي للحادث، لم يكن عاصفة، مثلما أصرت المصادر الرسمية منذ اليوم الأول. بل ما صرح به بيلاسكو في ريبورتاجه: المحملة الزائدة من الأجهزة المنزلية ميتة التوضيب، على سطح سفينة حربية.

كان هناك أمر آخر احتفظ به تحت الطاولة، ألا وهو نوع الأطواف التي كانت في متناول يد من سقطوا في البحر، الذين لم يتنجس منهم سوى بيلاسكو. من المفروض أن يكون في السفينة نوعان من الأطواف النظامية، وأن تكون قد سقطت معهم. أطواف من القلين وقماش الحيايم.

طول الواحد منها متران، وعرضه متر ونصف، في منتصفه سطح آمن ومزود بمؤونة، وماء للشرب، ومجاديف، وعلية إسعافات أولية، وأدوات صيد وملاحة، ونسخة من الكتاب المقدس. ويمكن في هذه الحالة لعشرة أشخاص البقاء على متنها طوال ثمانية أيام، حتى دون أدوات الصيد. ومع ذلك، فقد كان على متن السفينة "كالداس"، فوق ذلك، حمولة من الأطواف الصغرى، غير المزودة بأي مؤونة. وقد تبين من خلال أحاديث بيلاسكو أن طوفه كان خالياً من أية وسائل أو مؤن. والسؤال الذي بقي دون جواب إلى الأبد، هو كم من الفرقى تمكنتوا من الإمساك بأطواف أخرى لم توصلهم إلى أي مكان.

لقد كانت هذه هي، دون شك، الأسباب الأكثر أهمية التي أخرجت التوضيحات الرسمية لحادثة الفرقى، إلى أن تبينوا أنه لا بد من تقديم توضيح، لأن بقية أفراد طاقم السفينة صاروا في بيوتهم. وهم يروون القصة في كل أنحاء البلاد. أصرت الحكومة حتى النهاية، على روايتها عن العاصفة، وأضفت عليها طابعاً رسمياً في تصريحات حاسمة، تضمنتها بيان رسمي. لم يبلغ الأمر بالرقابة، حد حظر نشر الفصول المتبقية، وقد حافظ بيلاسكو من جانبه، إلى المدى الذي استطاعه، على غموض موال. ولم يُعرف قط إذا ما كانوا قد ضغطوا عليه كيلا يكشف الحقائق. كما أنه لم يطلب منا ولم يمنعنا من الكشف عنها.

يعد الفصل الخامس، جرى التفكير في إصدار طبعة إضافية للفصول الأربعة الأولى، استجابة لطلب القراء الراغبين في جمع فصول القصة كاملة. أما دون غايريل كانو الذي لم تكن قد رأينا في قاعة التحرير، خلال أيام العمل المحموم تلك، فقد نزل من عش حمائمه، وجاء مباشرة إلى حيث متحدثي ليسانتي:

- قل لي يا سمبي: من كم فصل ستكون قصة الغريق؟

كنا قد وصلنا إلى الحديث عن اليوم السابع، عندما أكمل بيلاسكو بطاقة تعريف كان يحملها، لأنها الطعام الوحيد المتوفر له، ولم يستطع تمزيق حذائه بأسنانه ليحصل على شيء يمتصغه، أي أن ما تبقى لنا هو سبعة فصول أخرى، فاستنكر دون غابرييل ذلك، وقال بتشجيع:

- لا يا سمبي، لا، يجب أن تكون القصة من خمسين فصلاً على الأقل.

قدمتُ إليه حججي، لكن حججه كانت تستند إلى أن مبيعات الجريدة على وشك أن تنضاعف، ويمكن لها حسب تقديراته أن تبلغ رقماً لا سابق له في الصحافة المحلية، أو مجل اجتماعاً لهيئة التحرير، ودُرست التفاصيل الاقتصادية، والفنية، والصحافية، وتم الاتفاق على حد معقول من عشرين فصلاً، أي بإضافة ستة فصول إلى ما كان مقرراً.

على الرغم من أن توقيعني لم يكن يرد في الفصول المطبوعة، إلا أن منهج العمل المنبع كان قد شاع وانتشر، وفي إحدى الليالي، حين ذهبت لإيجاز واجبي كناقذ سينمائي، جرت في بهو صالة السينما مناقشة حامية حول قصة الناجي من الغرق، وكان معظم المتحاورين أصدقاء، ممن أتبادل وإياهم الرأي من أجل مقالتي النقدي السينمائي، بعد العروض السينمائية. كانت آراؤهم تساعدني في توضيح آرائي من أجل مقالتي النقدية الأسبوعية. وبالنسبة لقصة الغريق، كانت هناك رغبة عامة - مع استثناءات قليلة جداً - في إطالة القصة أكثر مما يمكن.

وأحد تلك الاستثناءات كان رجلاً ناضجاً وهيباً، يرتدي معطفاً بدعيّاً من وبر الجمال، ويعتصر قبعته من اللبد، لحق بي حوالى أربع

كروادرات من المسرح، بينما أنا راجع بمفردي إلى الجريدة، كانت تراقبه امرأة باهرة الجمال، ترتدي ملابس لا تقل بذخاً عن ملابسها، ومعها صديق أقل منهما تأثقاً. خلع قبعته ليحسبني، وقدم نفسه باسم لم ألتقطه منه، ثم قال لي، دون موازنة، إنه لا يستطيع أن يوافق على الريبورتاج عن الغريق، لأنه محالاً مكشوفة للشبوعية، فأوضحت له دون كبير مبالغة، أنني لست سوى ناقل القصة التي يرويها بطلها نفسه، ولكن كانت لدى الرجل أفكاره الخاصة، وكان يرى أن بيلاسكو ليس سوى متسلل إلى القوات المسلحة، لخدمة الاتحاد السوفييتي. خمنتُ عندئذٍ بأنني ألتحد مع ضابط كبير من الجيش أو البحرية، واستشارتني فكرة الحصول على توضيح منه. ولكنه كان يريد، كما يبدو، أن يقول لي ذلك وحسب، وقد أضاف:

- أنا لا أعرف إذا ما كنتُ تفعل هذا، برغي أم دون وعي، ولكن مهما يكن الأمر، فإنك تسيء إلى البلاد، لمصلحة الشيوعيين. وأما زوجته المبهرة إيماءة دعر، وحاولت اقتياده من ذراعه، متوسلة بصوت خافت جداً: "أرجوك يا روكيليو"، فأنهى هو كلامه بالتهذب نفسه القي بدأ به:

- أرجوك أن تصدق بأنني أسمح لنفسني بقول هذا، تقديراً مني لكنايتك.

كانت تلك أول حادثة من سلسلة حوادث دفعتنا إلى التفكير، جدياً، بأخطار الشارع. ففي حانة بانسة وراء مكاتب الجريدة، يرتادها حتى الفجر، عمال من الحي، حاول شخصان مجهولان قبل يومين من ذلك، الاعتداء دون سبب، على غونثالو غونثالث حين كان يتناول هناك

فنجان قهرته الأخير، في تلك الليلة. لم يستطع أحد أن يتصور الأسباب التي دفعتهما إلى التوجه على الرجل المسالم أكثر من كل الرجال المسالمين في العالم، إلا كوتهم أخطؤوا به معتقدين أنه أنا، بسبب تشابه أسلوبنا ومظهرنا الكاريبي، وتكرر حرف الـ "غ" في اسمه المستعار "غوغ". وقد نهني أمن الصحيفة على أي حال، إلى أنه عليّ عدم الخروج وحيداً في الليل، في مدينة كانت تصبح أكثر فأكثر خطراً. غير أنني، على خلاف ذلك، كنت أجد طمأنينة في الذهاب ماشياً إلى شقتي، بعد انتهاء عملي في الجريدة.

في فجر أحد أيام التوتر تلك، أحسست بأن ساعتني قد أوفت حين تساقط فئات زجاج سببته طوبة ألقيت من الشارع، على نافذة غرفة نومي. كان الفاعل هو أليخاندرو أوبريقون، فقد أضاع مفاتيح بيته، ولم يجد أصدقاء مستيقظين أو مكاناً شاغراً في أي فندق. وبعد أن تعب من البحث عن مكان يتأوى فيه، ومن قرع جرس شقتي المعطل، حلّ أمر ليلته تلك بقطعة أجر من ورشة البناء المجاورة. وعندما فتحت له الباب، اكتفى بتوجيه تحية سريعة إليّ، كبلا يوقظني تماماً، ثم استلقى على الأرض العارية لينام حتى الظهيرة.

كان الازدحام لشراء الجريدة، عند أبواب الامبيكنادور، قبل أن تخرج إلى الشارع، بتزايد أكثر فأكثر. وكان الموظفون في مركز المدينة التجاري يتأخرون، في الذهاب إلى بيوتهم، بعد خروجهم من العمل، لكي يشعروا الجريدة ويقرأوا الفصل اليومي في الحافلات، وأظن أن اهتمام القراء بدأ لأسباب إنسانية، واستمر لأسباب أدبية، ثم لاعتبارات سياسية في النهاية. ولكنه كان يستند على الدوام، إلى زخم القصة

الداخلي. لقد روى لي بيلاسكو مقاطع راودني الشك في أنه اختلقها، وعشر على معان رمزية أو عاطفية لبعض الوقائع، كما هو شأن طائر النورس الأول الذي لم يشأ الابتعاد عنه. وكانت واقعة الطائرات التي راح يحصنها، ذات جمال سيمفوني خالص. لقد سألتني أحد الأصدقاء، كيف أمكن لي أن أعرف عالم البحر، بكل تلك الدقة، فأجبت بأنني لم أفعل أكثر من استمساخ ملاحظات بيلاسكو حرفياً. وابتداءً من نقطة معينة، لم أعد مضطراً إلى إضافة شيء. لما يرويه.

قيادة البحرية لم تكن تتمتع بالمزاج نفسه. فقبل قليل من انتهاء الحلقات، وجهت إلى الصحيفة رسالة احتجاج، لأنها تعاملت بشيء من المتوسطة، وبصورة قليلة التهذب، مع مأساة يمكن لها أن تحدث في أي مكان تعمل فيه وحدات بحرية، وجاء في الرسالة: "على الرغم من المحاداة والحزن اللذين يلقان سبعة بيوت كولومبية، ورجال الأسطول كلهم، لم تنورج الجريدة عن التضادي إلى حد نشر قصة سلسلة لكتاب مبتدئين في الموضوع، تغص بكلمات ومصطلحات تخلو من الدقة التقنية والمنطقية، وتوضع على لسان البحار المحفوظ والمجدير الذي استطاع إتقان حياته بشجاعة" ولهذا السبب طالبت قيادة الأسطول بتدخل مكتب الإعلام والصحافة في رئاسة الجمهورية، لكي يوقف - بمساعدة ضابط بحري - ما يُنشر من الحادث في المستقبل. ولحسن الحظ أننا كنا قد وصلنا، عند تلقي الرسالة، إلى الفصل ما قبل الأخير، فتظاهرتنا بعدم معرفتنا بأمرها حتى الأسبوع التالي.

وختاماً لإمكانية نشر النص كاملاً بصورة نهائية، كنا قد طلبنا من الناجي من الغرق أن يساعدنا بتقديم قائمة من الصور التي التقطوها

خلال الرحلة. كانت هناك صور من كل نوع، ولكن معظمها لجماعات على سطح السفينة. وفي خلفيتها تظهر صناديق الأدوات المنزلية - ثلاجات، مدافن، غسالات - وعليها ماركة الشركات الصانعة بصورة واضحة. فكانت ضريبة المخط هذه كافية لتكذيب التكتيبات الرسمية. كان رد فعل الحكومة فوراً وحاسماً، وقد تجاوز توزيع الملحق كل التوقعات، وكل الطباعات السابقة. غير أنه لم يوزع غير مرمو كانوا وخوسيه سلغار، المتبعين، سوى سؤال واحد:

- والآن، أي لعنة يمكننا عملها؟

في لحظة دوار المجد تلك، لم يكن لدينا جواب على التساؤل. فكل الموضوعات بدت لنا تافهة.

بعد خمس عشرة سنة من نشر القصة في الاسبيكتادور، قامت دار نشر توسكيتس في برشلونة بإصدارها في كتاب ذي غلاف مذهب، بيع كما لو أنه مادة للأكل. ويوحى من إحساسي بالعدالة، وتقديراً مني للبحار البطل، كتبت في نهاية المقدمة: "هناك كتب ليست لمن يكتبها، وإنما هي لمن يعانيتها. وهذا الكتاب هو واحد منها. وبالتالي فإن حقوق المؤلف ستكون لمن يستحقها: مواطني المجهول الذي كان عليه أن يعاني على طوف، طوال عشرة أيام، دون أن يأكل أو يشرب، لكي يكون هذا الكتاب ممكناً."

لم تكن عبارة في الفراغ، إذ قامت دار النشر توسكيتس، ويتوجه مني، بدفع حقوق الكتاب كاملة إلى لويس أليخاندرو بيبلاسكو، طوال ثلاث عشرة سنة، إلى أن أقنعه المحامي غير مرمو ليًا فيرنانديث، في بوغوتا، بأن حقوق المؤلف هي من حقه قانونياً، مع أنها لم تكن كذلك، إلا بقرار مني، تقديراً البطولته، وسرعته في السرد، وصادقته.

رُفعت الدعوى ضدي في محكمة الجزء المدنية الثانية والعشرين، في دائرة بوغوتا القضائية. عندئذ أصدر محامي وصديقي ألفونسو غوميث مينديث الأمر إلى دار نشر توسكيتس، بحذف الفقرة الأخيرة من المقدمة في الطباعات التالية، وعدم دفع ستناغو واحد من حقوق المؤلف إلى خوسيه أليخاندرو بيبلاسكو، إلى أن تحسم العدالة الأمر. وكان هذا ما حدث. فبعد مداوالات طويلة، تضمنت أدلة وثائقية، وتقنية، وشهادات، قررت المحكمة أن مؤلف العمل الوحيد هو أنا. ولم تستجب للدعوى التي رفعها محامي بيبلاسكو. وبالتالي، لم تعتبر الدفعات التي تقاضاها حتى ذلك الحين، يتنازل مني، دليلاً على الاعتراف بالبحار كمؤلف مشاوك، وإنما نتيجة قرار إرادي وحر من كتب الكتاب، وهكذا تحولت حقوق المؤلف، منذ ذلك الحين، ويتنازل مني أيضاً، كتبرع إلى مؤسسة تعليمية.

لم يكن بإمكاننا العثور على قصة مثل تلك، لأنها لم تكن من القصص التي يمكن اختلاقتها على الورق. فالحياة هي التي تخلقها، وبصورة مفاجئة على الدوام. لقد أدركنا ذلك في ما بعد، عندما حاولنا كتابة سيرة حياة الدراج العظيم رامون هويرس، وكان قد توج في تلك السنة، بطلاً وطنياً للمرة الثالثة. أطلقنا الريبورتاج بضجة دعائية كمثل التي تعلمناها من ريبورتاج البحار، وأطلقناه، حتى تسعة عشر فصلاً، قبل أن ننتبه إلى أن الجمهور يفضل رؤية رامون هويرس يصعد جبلاً ويصل قبل غيره، إلى خط النهاية، ولكن في الحياة الواقعية.

وقد لمحنا بارقة أمل مشبهة في مساء أحد الأيام، عندما اتصل بي سلغار، هاتنياً، لكي أذهب للقاء به فوراً في بار فندق كونتينينثال.

وقد وجدته هناك، وضعه صديق قديم وجدي، كان قد انتهى للتو من تعريفه على مرافقه، وهو أميق بالكامل، ويرتدي ملابس عامل. لشعره وحاجبيه لون شديد البياض إلى حد يبدو معه مبهراً، حتى في عتمة اليار الخفيفة. وقد قدمه صديقي سلفار، وهو رجل أعمال معروف، على أنه مهندس مناجم. يقوم بحفريات تنقيب في أرض خلّاء. على بعد مئتي متر عن الأسبيكتادور. بحثاً عن كنز خرافي كان يملكه الجنرال سيمون بوليفار. وأكد لنا مرافقه - وهو صديق مقرب من سلفار، مثلما صار صديقاً لي منذ ذلك الحين - صحة القصة. لقد كانت القصة مريبة بسبب بساطتها: عندما كان بطل التحرير يستعد لمواصلة رحلته الأخيرة من كارتاخينا، مهزوماً ومحتضراً، يفترض أنه فضل ألا يحمل معه كنزه الشخصي الضخم الذي جمعه في عوز حروبه، كاحتياط يستحقه من أجل شيخوخة لائقة. وعندما كان يستعد لمواصلة رحلته المرة - ولم يُعرف قط إذا ما كان يريد الذهاب إلى كاواكاس أم إلى أوروبا - تعمد ترك ذلك الكنز مخبأ في بوغوتا، تحت حماية نظام رموز الشعوذة واسعة الشبوع في زمنه؛ لكي يجده عندما يحتاج إليه، ومن أي مكان في العالم. لقد تذكرت هذه الأخبار بلهفة لا تُقاوم، بينما أنا أكتب "الجنرال في مناهته"، حيث يمكن لقصة الكنز أن تكون أساسية، ولكنني لم أتوصل إلى ما يكفي من المعلومات لكي أجعلها قابلة للتصديق. ويدت لي بالمقابل أنها حشة في التخيل الروائي. وكانت تلك الشروة المخرافية التي لم يستعدها أصحابها، هي ما يبحث عنه الباحث بجدّ وصبر. لم أدر لماذا كشفنا ذلك السر، إلى أن أوضح لي سلفار بأن صديقه المئاتر جداً بقصة الغريق، أراد أن يقدم لنا الحبيبات والمقدمات،

لكي نواصل عملية البحث يوماً بيوم، إلى أن يصبح نشرها ممكناً يمثل ذلك الانتشار.

ذهبنا إلى قطعة الأرض المغنية. وكانت الأرض الخلاء الوحيدة إلى الغرب من حديقة الصحفيين، وقريبة جداً من شقتي الجديدة. وقد شرح لنا الصديق، على خريطة من العهد الاستعماري، إحداثيات الكنز بتفاصيل حقيقية في رابتي مونتيسرات وغوادالوبي. لقد كانت القصة قاتنة، وجائزتها ستكون خيراً متفجراً مثل خير التاجي من الغرق، وبانتشار عالمي أوسع.

وأصلنا زيارة المكان بين حين وآخر، لكي نسقي مطلعين على ما يحدث. وكنا نستمع إلى المهندس طوال ساعات لانتهائية، ونحن نتناول الخمر المزوج بالليمون، ونشعر في مرة بأننا نبتعد أكثر لماكثرون عن المعجزة، إلى أن مرّ وقت طويل، لم يبق صعه لدينا حتى مجرد الحلم. والارتياح الوحيد الذي خاضرنا في ما بعد، هو أن قصة الكنز ليست سوى ستارة لاستغلال منجم مادة ثمينة ما، في وسط العاصمة. وبما تكون هذه الشكوك نفسها مجرد ستارة أخرى أيضاً، للحفاظ على سرية كنز بطل التحرير.

لم تكن تلك هي أفضل الأوقات للحلم، فقد نصحوني، منذ قصة الغريق، بأن أذهب إلى خارج كولومبيا لبعض الوقت، ريثما يبدأ الوضع بسبب التهديدات بالموت، الحقيقية أو المتخيلة، التي كانت تصلنا عبر وسائل متعددة. وكان هذا هو أول ما فكرت فيه عندما سألني لويس غابرييل كانو، دون مقدمات، عما أنوي عمله يوم الأربعاء القادم، وبما أنه لم يكن لدي أي مشروع محدد، فقد طلب مني بفتوره المعهود. أن

أهين أوراتي من أجل السرور. كمبعوث خاص من الجريدة، إلى مؤتمر الأربعة الكبار الذين سيجمعون الأسبوع التالي في جنيف.

أول ما فعلته هو الاتصال، هاتفياً، بأمي. بدا لها الخبر عظيماً، حتى إنها سألتني إذا ما كنت أعني مزوعة ما تسمى "جنيف". فقلت لها: "إنها مدينة سويسرية". ودون أن تبدي تأثراً، يهدونها غير المحدود في استيعاب شطط أبتائها الذي لا يخطر على بال، سألتني إلى متى سأتبقى هناك. فأجبتها بأنني سأعود بعد أسبوعين على أبعد تقدير. الحقيقة أنني كنت ذاهباً لأربعة أيام. هي المدة التي سيستغرقها الاجتماع. ومع ذلك، ولأسباب لا علاقة لها بإرادتي، لم أتأخر أسبوعين، وإنما قرابة ثلاث سنوات. وعندئذ صرت أنا هو من يحتاج إلى زورق تجديف صغير، ولو من أجل التمكن من الأكل مرة واحدة. ولكنني توخيت عدم إشعار أسرتي بذلك. لقد حاول أحد أصدقائي في إحدى المناسبات، أن يستشير أمي من خيانة ابنتها الذي يعيش مثل أمير في باريس. بعد أن خدعها بالقول إنه لن يبقى هناك أكثر من أسبوعين. فقلت له بابتسامة بريئة:

- غابيتو لا يخدع أحداً. وكل ما في الأمر أن الرب نفسه يضطر أحياناً إلى جعل الأسابيع سنين.

لم أكن قد أحسست قط، بأنني شخص مجهول الهوية، بصورة بالغة الواقعية، مثل ملايين المهجرين بفعل العنف. لم أكن قد شاركت بالتصويت في أي انتخابات، لأنني لا أملك بطاقة الهوية الشخصية. ففي بارنكيا، كنت أثبت شخصيتي ببطاقتي كمحرر في جريدة الهيرالدو، وكان تاريخ ميلادي فيها مزوراً، لكي أتهرب من الخدمة

العسكرية التي تخلّفت عنها منذ عدة سنوات. وكنت أثبت شخصيتي، في حالات الطوارئ، بطاقة بريد قدمتها إليّ موظفة الشفراف في ثيباكيرا. وضعني صديق وفرتة العناية الإلهية، على اتصال بمعقب معاملات في إحدى وكالات السفر، ووعد بأن يمكّنتني من الصعود إلى الطائرة في الموعد المحدد، على أن أدفع مقدماً مبلغ مئتي دولار، وأن أضع توقيعني في ذيل عشر أوراق بيضاء مخشومة. وهكذا عرفت، بالمصادفة، أن حسابي المصرفي قد بلغ رقماً مفاجئاً، لأنني لم أكن أجد الوقت للاتفاق، بسبب انشغالي في كتابة التحقيقات الصحفية. وكانت النفقات الوحيدة، فضلاً عن حاجتي الشخصية التي لا تتجاوز نفقات طالب فقير، تقتصر على الدفعات الشهرية التي أرسلها كزورق نجاة صغير للأسرة.

عشية السفر، ردّد معقب معاملات وكالة السفر، أهامي اسم كل وثيقة وهو يضعها فوق المكتب، لكيلا أخلط بينها: بطاقة الهوية الشخصية، دفتر الخدمة العسكرية، إيصالات براءة الذمة من مكتب الضرائب، وثائق اللقاح ضد الجدري والحمى الصفراء. وطلب مني أخيراً، إكرامية خاصة لفني هزل أعطي له اللقاحان باسمي، مثلما كان يجري يومياً، منذ سنوات، تلقيح الزبائن المستعجلين.

سافرت إلى جنيف في الوقت المحدد لافتتاح مؤتمر إيزنهاور، وبولغانين، وإيدنين، وفاور، دون معرفتي لأي لغة أخرى سوى الإسبانية، وبدفعة مالية من الجريدة تكفي للإقامة في فندق من الدرجة الثالثة. غير أنني كنت أستاذ جيداً إلى حسابي المصرفي الاحتياطي. كان مقدراً لي أن أعود بعد حوالي خمسة أسابيع، ولكنني لا أعرف ما هو الهاجس

الغريب الذي دفعني إلى أن أوزع على الأصدقاء، كل ممتلكاتي في الثقة، بما في ذلك مكتبة سبتيمائية جيدة. كنت قد جمعتها على امتداد سنتين، بمساعدة من ألفارو سيبيدا وليس فيليس.

جاء الشاعر خورخي غابشان دوران لوداعي، عندما كنت أسرق أوراقاً لا لزوم لها، قدفعه الفضول إلى تفحص سلة المهملات، لعله يجد شيئاً ينفع للنشر في مجلته، أخرج ثلاث أو أربع ورقات ممزقة من منتصفها، وقرأها بسرعة خاطفة، بينما هو يعيد تركيب أجزائها على المنضدة. سأفتي من أين أتت تلك الأوراق، وأجبته بأنها "موتولوج إيزابيل وهي ترى هطول المطر في ساكوندو"، وأنتي قد حذفتها من المسودة الأولى لرواية عاصفة الأوراق. نبهته إلى أنها قد نُشرت سابقاً في كروتيكيا وفي ملحق "مغنازين الأحد" في الاسبينكتادور، بالعنوان نفسه الذي اخترته أنا، ويتفويض لا أتذكر أنني قدمته على عجل في مصعد ما. لم يهجم غابشان دوران بكل ذلك، ونشرها في العدد التالي من مجلة "ميتو".

الوداع في بيت غيبومو كانوا، عشية سفري، كان صاحباً إلى حدٍ أنني لم أصل إلى المطار إلا بعد مغادرة الطائرة الموجهة إلى كارتاخينا، حيث سأقضي تلك الليلة كي أودع الأسرة. ولكنني لحقت لحسن الحظ، بطائرة أخرى عند الظهيرة. وقد أحسنت صنعاً، لأن توتر الجو المنزلي قد تراخى عما كان عليه في المرة الأخيرة، وكان أبواي وأخوتي يشعرون بأنهم قادرون على العيش دون زورق النجاة الذي ساكون بحاجة إليه. أكثر منهم، في أوروبا.

سافرت إلى بارنكيا برا، في اليوم التالي، منذ الصباح الباكر،

لكي ألحق بالطائرة المغادرة إلى باريس، في الساعة الثانية بعد الظهر. وفي محطة حافلات كارتاخينا، التقيت بلاثيديس، يواب تاطحة السحاب الذي لا يُسى، ولم أكن قد رأيته منذ تلك الأيام. اندفع نحوي في عناق حقيقي، وبعبقير ممتلئين بالدموع، دون أن يدري ما يقول، أو كيف يعاملني. وبعد تبادل عبارات مستعجلة، لأن حافله قد جاءت، وحافلتي تشرف على الانطلاق، قال لي بحماسة أصابت أعماق روحي:

- ما لا أفهمه يا دون غابرييل، هو لماذا لم تخبرني من تكون.

فأجبته، وأنا أكثر تألماً منه:

- آه يا عزيزي لاثيديس. لم أكن قادراً على أن أخبرك، لأنني أنا نفسي ما زلت حتى اليوم لا أعرف من أكون.

بعد ساعات، بينما أنا في سيارة الأجرة التي أقلتني إلى مطار بارانكيا، تحت السماء الجاحدة، والأكثر شفافية من أي سماء أخرى في العالم، انتبهت فجأة إلى أنني في جادة العشرين من تموز، وبحركة لا شعورية، صارت جزءاً من حياتي منذ نحو خمس سنوات. نظرت باتجاه بيت ميرثيديس بارتشا. وهناك كانت هي، تجلس أمام البوابة مثل تمثال، نحيلة ونائبة، دقيقة في مجاراة أزياء السنة، يشوب أخضر موشى بتطريزات مذهبة، والشعر مقصوص على شكل أجنحة السنونو، وبالهدهود المشتور لمن ينتظر أحداً لن يأتي. لم أستطع نفاذي صوت مدور في داخلي، بأنني سأفقدتها إلى الأبد، في ساعة مبكرة من يوم خميس تموز، ففكرت للحظة بإيقاف سيارة التاكسي كي أودعها، ولكنني فضلت ألا أتحدى، مرة أخرى، قدراً شديد الالتباس والثبات مثل قدرتي. بقيت أعاني، في الطائرة المحلقة، آلام المغص والندم. وكانت ها

تزال شائعة آنذاك. العادة الحميدة بوضع شيء على ظهر كل مقعد، يُسمى بغنائية طبية: "أدوات كتابة"، مكونة من أوراق رسائل صغيرة ذات حواش مذهبة، ومغلف من الورق نفسه، بلون وردي، أو سكري، أو أزرق، ومغطى في بعض الأحيان. كنتُ أستخدم تلك الأوراق، في رحلاتي القليلة السابقة، لكتابة قصائد وداع أحوكمها إلى طيارات ورقية، وأقذف بها لتطير متهادية عند نزولي من الطائرة. اخترت ورقة زرقاء سماوية، وكتبت أول رسالة رسمية موجهة إلى ميرثيديس، الجالسة عند بوابة يبتها في الساعة صباحاً، بفستان عروس أخضر، وبشعر على شكل سنوثة غير مؤكدة؛ حتى إنني لم أفكر من أجل من ارتدت تلك الملابس، منذ الصباح. كنت قد كتبت إليها من قبل، ملاحظات مداعبة أخرى، ارتجلها كيفما اتفق، ولا أتلقى على الدوام، عندما نلتقي مصادفة، سوى إجابات شفهية ومتهيرة. لم يكن ما كتبته أكثر من خمسة سطور، لأطلعها رسمياً على خبر سفري، ومع ذلك، فقد أضفت في نهايتها ملاحظة أبهرتني مثل وميض برق في الظهيرة، في لحظة التوقيع: "إذا لم أتلّق جواباً على هذه الرسالة، قبل مرور شهر، فسوف أبقى لأعيش في أوروبا إلى الأبد". لم أكد أتيح لنفسي الوقت للتفكير في الأمر مرة أخرى، قبل أن ألقى الرسالة، في الساعة الثانية فجراً، في صندوق بريد مطار موتيو باي. وكان يوم الجمعة قد حلّ، وفي يوم الخميس من الأسبوع التالي، عندما دخلتُ إلى الفندق في جنيف، بعد جولة أخرى غير مجدية من عدم الوفاق الدولي، وجدت الرسالة الجوابية.